

تاريخ المغرب الكبير

المغرب الكبير

٢

العصر الإسلامي

دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية

ولتور السعيد العززي سالم

١٩٨١

دار النهضة العربية - بيروت





المغرب الكبير

٢

القصر الإسلامي
دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية

تاريخ المغرب الكبير

المغرب الكبير

٢

العصر الإسلامي
دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية

دكتور السيد عبد العزيز سالم

١٩٨١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت من.ب.ب ٧٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

كان المغرب العربي في العصر الاسلامي يرتبط حضاريا بالأقطار الاسلامية الشرقية ارتباطا وثيقا ، على الرغم من انفصاليه سياسيا عن المشرق الاسلامي ، منذ أن تعرضت أطراف المغرب الشرقية للغزوة الهلالية في سنة ٤٣٣ هـ . ولم تنقطع الصلات الحضارية بين شقي العالم العربي بصفة نهائية إلا بعد أن نجحت الدولة العثمانية في القضاء على دولة المماليك في مصر والسيطرة على البلاد التابعة لدولة المماليك . ولم يلبث المغرب العربي كله ، باستثناء المغرب الأقصى أن نكب بدوره بالسيطرة العثمانية ، ودعم الاستعمار الأوروبي للعالم العربي منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر هذا الانفصال السياسي والحضاري . ولم يبق للعرب من الصدمة الاستعمارية الجديدة إلا بعد أن مضى ما يقرب من قرن ونصف من الزمان ، فتوالى ثوراتهم التحررية ، وحطموا تدريجيا القيود والأصفاد التي كبلهم بها المستعمرون .

وعلى هذا النحو كانت معرفة عرب المشرق بتاريخ المغرب العربي وحضارته في العصر الاسلامي حتى عهد قريب محدودة ، تعتمد أساسا على بحوث المستشرقين من الفرنسيين بوجه خاص ودراساتهم عن المغرب ، فقد كان الاستعمار الفرنسي يقيم ستارا حديديا حول هذه الأقطار المغربية بقصد عزلها تماما عن الأقطار المشرقية ، فلا تصل إليها أصداء المعارك التي كان يخوضها العرب في مصر والشام والعراق في سبيل التحرر والاستقلال ، ولا تصل إليها شرارات من نيران الثورات المحتدمة في قلب العالم العربي . وظلت أبواب المغرب العربي موصدة أمام عرب المشرق ، لم يدخلها منهم إلا

نفر قليل ، وعلى هذا النحو احتكر علماء الدول المستعمرة للمغرب وعلى رأسها فرنسا ميدان الدراسات المغربية لأنفسهم ، وهذا يفسر تخلف مؤرخي العرب في مجال هذه الدراسات .

وعلى الرغم من أن نفرا من المستشرقين المشتغلين بتاريخ وحضارة المغرب في العصر الاسلامي قد جانبوا الناحية العلمية ، فعمدوا إلى التويه والتفليل في أبحاثهم لتعمية الوطنيين عن أمجادهم التاريخية ، أو أبرزوا الأخطاء التي وقع فيها العرب إبان حكمهم للمغرب ، ومجدوا الثورات التي قام بها أهل البلاد ضد العرب ، وبالغوا في تصوير مقاومة البربر وهم سكان البلاد للعرب الحاكمين ، رغبة في التفريق بين عنصرى السكان ، فانه لا ينبغي أن نجد فضل الأبحاث القيمة التي قام بها جمهور كبير من المستشرقين من الفرنسيين والاسبان والاطاليين والبرتغاليين في تاريخ المغرب العربي وحضارته، نخص بالذكر منهم الأستاذ ليفي بروفنسال ، وإيلي لامبير ، وجورج مارسيه ، ووليم مارسيه ، وهنري تراس ، ونوريس بلباس ، وخواكين فالفي ، وخواكين جنتالت ، وبوريس ماسلو ، وهنري باسيه وغيرهم ، فقد اتسمت بحوث هؤلاء العلماء بالزاهة العلمية والصدق والدقة في تحرى الحقائق ، والاعتماد على المصادر العربية التي بذلوا في نشرها وتحقيقها جهودا مضيئة . كما لا ينبغي أن ننسى الدراسات والبحوث الأصيلة في حضارة المغرب وتاريخه في العصر الاسلامي التي قام بها المستشرق الفرنسي الكبير الأستاذ ليفي بروفنسال الذي قضى حياته في خدمة التراث الاسلامي في أرض المغرب والاندلس .

وبينا كان المستشرقون وخدم يستأثرون بالبحث في تراث المغرب

الفنى والفكرى ، كان هناك فريق من العلماء العرب يعملون من جانبهم على تحقيق بعض المخطوطات المغربية ودراسة بعض مظاهر حضارة الاسلام في المغرب . هؤلاء العلماء هم الطليعة العربية في الدراسات المغربية منذ النصف الاول من القرن العشرين ، نذكر منهم من المغربية الأستاذة حسن حسنى عبد الوهاب ، والسيد علال الفاسى ، وأحمد توفيق المدنى، وعبد الله كنون، وعثمان الكمال، ومحمد بن تاويت الطنجى، وعبد الهادى التازى . ونذكر من المصريين الأستاذة الدكتور أجمد فكرى أول باحث عربى فى مصر يقوم بدراسات أثرية علمية عن مساجد البلاد التونسية وآثارها ، والدكتور حسين مؤنس الذى قام بأبحاث مغربية موفقة ، والمرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى الذى تعمق فى دراسة تاريخ المغرب العربى فى العصر الاسلامى وكان يدرسه فى الجامعات المصرية . وبدأت الدراسات المغربية تتقدم تقدما محسوسا منذ أن تحررت أقطار المغرب العربى من الاستعمار الاوروبى، وتحطم الحاجز الوهمى الذى وضعه الاستعمار بين عرب المشرق والمغرب ، وفتح المغرب أبوابه الموصدة للباحثين من أبناء العروبة ، وأخذ هؤلاء يساهمون فى البحث والتنقيب عن تاريخ المغرب وآثاره فى العصر الاسلامى، ومن هؤلاء الباحثين الأستاذة : الدكتور سعد زغلول عبد الحميد الذى قام بأبحاث أصيلة عن المغرب الاسلامى وحضارته ، والدكتور أحمد مختار العبادى الذى ساهم بنصيب وافر فى نشر مصنفات لسان الدين بن الخطيب ورسائله ، والدكتور حسن محمود الذى اهتم بتاريخ المغرب فى عصر دولة المرابطين بوجه خاص ، والأستاذ محمد عبد الله عنان الذى بذل جهودا موفقة فى دراسة تاريخ المغرب والاندلس فى العصور الاسلامية، والدكتور عثمان إسماعيل الذى ساهم فى التنقيب عن آثار شالة الاسلامية وجعلها موضوع رسالته التى حصل بها على درجة الدكتوراه من جامعة الإسكندرية.

وعلى الرغم من هذه الجهود التي بذلها الباحثون من المستشرقين والعرب، فإن الدراسات المغربية الإسلامية تعتبر أحدث بكثير من الدراسات المشرقية، وما زال تاريخ المغرب وحضارته في العصر الإسلامي يحتاج إلى المزيد من هذه الجهود.

وهذا الكتاب الذي أقدمه لقراء العربية، وهو عرض سريع لتاريخ المغرب العربي في العصر الإسلامي، و خلاصة دراسات قمت بها في بلاد المغرب والأندلس، يؤلف الجزء الثاني من تاريخ كامل للمغرب العربي منذ أقدم العصور اشترك في تصنيفه زميلان عزيزان هما الأستاذ الدكتور رشيد الناضوري عن المغرب في العصر القديم حتى نهاية العصر الروماني، واشتركت فيه بهذا الجزء الثاني عن المغرب في العصر الإسلامي، وقبلت كتابة فصلين في بداية الكتاب عن تاريخ المغرب في ظل الوندال والبيزنطيين، تكملة للقسم الذي وضعه الدكتور الناضوري وبسبب العلاقة الوثيقة لهذه الفترة بالعصرين القديم والإسلامي، بحيث تعتبر تمهيدا لا بد منه للعصر الإسلامي. وأخيرا اشترك الأستاذ الدكتور جلال يحيى بالجزء الثالث عن تاريخ المغرب في العصر الحديث.

وقد قسمت العصر الإسلامي إلى أربعة أبواب، كل منها يتضمن عدداً من الفصول وتوقفت في حديثي إلى نهاية دولة الموحدين، واختتمت موضوع القسم الإسلامي بدراسة موجزة عن الدول التي ورثت دولة الموحدين في المغرب. ولقد حرصت على تسجيل التراث المادي للحضارة المغربية في العصر الإسلامي، فخصصت فصولا لدراسة آثار كل أسرة من الأسرات الحاكمة

للمغرب ، ولم أغفل الناحية العمرانية ، وهى جانب هام للحضارة المغربية ،
فضمنت الكتاب تاريخ المدن المغربية التى أنشئت فى العصر الإسلامى .
أرجو أن أكون قد حققت للقارئ العربى رغبته فى الإلمام بتاريخ المغرب
العربى فى العصر الإسلامى جملة واحدة ، والله أسأله التوفيق .

السيد عبد العزيز سالم

الفصل الأول

المغرب في ظل الوندال

(١)

جنسريك مؤسس دولة الوندال في المغرب (٤٢٨ - ٤٧٧)

١ - غزو الوندال للاندلس وتطلعهم لغزو المغرب :

منذ النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي أخذت الامبراطورية الرومانية تتعرض لانحلال سريع أمام الضربات التي سددتها لها أعداؤها الجرمان ، وبسبب ازدياد نفوذ الكنيسة ، وبسبب الفساد الإداري والخلل الاجتماعي . وسجل عام ٣٩٥ انقسام الامبراطورية الرومانية بين ولدي ثيودوسيوس إلى قسمين : شرقي من نصيب أركاديوس ، وغربي من نصيب هزريوس . ثم وصلت الامبراطورية في أوائل القرن الخامس الميلادي إلى أقصى درجات الضعف والانحلال وتوالت عليها العلل والأدواء المستعصية من انقسامات دينية وفتن داخلية ، وغارات جرمانية متواصلة بحيث استعصى عليها البرء منها : فقد انتقلت حاضرة الامبراطورية الرومانية الغربية في سنة ٤٠٤ من رومة إلى رافنا ، وتضعفت سلطة الامبراطورية في كل مكان بحيث تجرأت الشعوب المسماة بالمتبربرة عليها . وفي سنة ٤٠٩ تمكن الوندال والسواف والألان ، وهم شعوب جرمانية ، من التوطن في إسبانيا وأصبح من المحتم نزولهم في أرض المغرب ، إذ كان المغرب في نظرهم - ولأهـ فريسة سهلة يشتهونها لثرواته الزراعية الوفرة ، ويتحينون الفرص المواتية

للاقتضاض عليه (١) ، ففي سنة ٤١٠ عزم الأريك زعيم القوط الغربيين على غزو المغرب ، وأعد لهذا الغرض أسطولا ضخما في مدينة ريجيو Reggio (جنوب إيطاليا) حشد فيه عددا هائلا من قوائمه القوط الغربيين ، ولكن هذا الأسطول تعرض في مضيق ميسينا لعاصفة عاتية دمرته (٢) . وحاول واليا Wallia الذي تولى عرش دولة القوط الغربيين بإسبانيا (٤١٥ - ٤٢٠) بعد ذلك بست سنوات غزو المغرب ، ولكنه فشل في محاولته ، وغرق أسطوله بالقرب من قادس (٣) .

وفي هذه الآونة نجح الوندال في الاستيلاء على جزر البليار ، وظهروا بعد ذلك على السواحل الإفريقية ، ولم يجد ثيودوسيوس الثاني بدا من تسوير قرطاجنة سنة ٤٢٥ لحماية من خطرهم (٤) . وفي عهد فالنتينيان الثالث ، تقلد بونيفاس قيادة الجيش الروماني في المغرب ، واتخذ سبته مقرا له . ولكن بونيفاس لم يلبث أن اختلف مع البلاط الإمبراطوري في رافنا حيث كان رجال البلاط يكيّدون له ، فعمد إلى إدخال الوندال بلاط المغرب في مايو سنة ٤٢٩ تحت قيادة ملكهم جنزربك . ومادما تعرضنا للحديث عن غزو الوندال للمغرب فلا بد لنا أن نشير إلى ما يقتزن باسمهم من أعمال

(١) André Julien, Histoire de l' Afrique du Nord, dès origines à la conquête arabe, Paris, 1956, p. 232.

(٢) Ibid. P.232 ابراهيم على طرخان، دولة القوط الغربيين ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٨١

(٣) A. Julien, op. cit P. 232 - J. Guichot, historia de Andalucia, t. I, Madrid, 1869 P. 225

(٤) A. Pellegrin, Histoire de la Tunisie, Tunis, 1948, P. 62

التخريب والتدمير والقتل وسفك الدماء (١). الوندال قبائل جرمانية همجية كانت تعيش باديء ذي بدء على سواحل البحر البلقى ، ثم هاجرت جنوباً ، وأقامت في القرن الأول قبل الميلاد في السهول الواقعة بأعلى نهري الأودر والفيستولا (٢). ثم تشعب الوندال بعد هجرة القوط في القرن الثاني للميلاد إلى جماعتين رئيسيتين هما السلنيجيون والأسدنيجيون (٣). وكانت الامبراطورية الرومانية إبان قوتها لا تسمح للوندال بالاختلاط مع الشعب الروماني ، فلما سرى الضعف في كيان الامبراطورية الرومانية الغربية ، استعان الرومان بالوندال للمحافظة على الأمن في البلاد ، وانتهى بهم الأمر إلى الاعتماد عليهم في الدفاع عنهم . غير أن هذه العناصر لم تلبث أن أحست بعظم سلطانها ، فاستولت على مقاليد الأمور منذ طليعة القرن الخامس الميلادي ، وازدادت قواها بقدر ما أخذت قوى الرومان في الضعف والانحلال (٤).

ولكن شمل طائفتي الوندال ، السلنيجيين والأسدنيجيين ، لم يلبث أن التأم من جديد بعد قرنين من تشريد وتشتيت في وسط أوروبا . وانضمت إلى هؤلاء الوندال قبائل متبربرة أخرى من الألان والسواف أمام ضغط الهون،

(١) نلاحظ أن تاريخ الوندال لم يعرف إلا عن طريق ضحاياهم ، ولذلك فإن ما اتسموا به من وحشية وما وصم به اسمهم من همجية لا يعدو أن يكون أمراً مبالغاً فيه . وعلى هذا النحو يمكننا أن نتوقع بعض الافتراءات .

(٢) André Julien , P. 233 (٣) Ibid.

(٤) اعتمد الامبراطور هنريوس على قائد وندالي يعرف باسم ستيلكو ، كان له الفضل الأعظم في رد آلاريك عن غزو إيطاليا (سعيد ناشور ، أوروبا في العصور الوسطى، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٦٢)

وأدى تكتل الوندال من جديد إلى ازدياد قواهم ، وتمكنوا أمام دفعهم المتواصل من تحطيم خطوط الدفاع عن الامبراطورية ، فافتحموا نهر الرين وهزموا قوى الفرنجة والجرمان الذين عهد إليهم بالدفاع عنها. بالقرب من مايانس Mayance في ٣١ من ديسمبر سنة ٤٠٦^(١). ولم تتمكن الامبراطورية الرومانية من إيقاف هذه السيول الجارفة ، وبذلك نجح الوندال في اختراق الرين واقتحام غالة حيث نهبوا هذه البلاد ، ونثروا الدمار في كل ما قابلوه في زحفهم الجارف من عمران^(٢) ، وانتهى بهم الأمر إلى دخول إسبانيا في خريف عام ٤٠٩^(٣) ، بعد أن هزموا قوات الامبراطورية .

عبرت قبائل الوندال بقيادة جندريك ومن انضم إليهم من الآن وسواف جبال البرانس ، وقضت عامين كاملين تنثر الدمار والموت في البلاد (وفقا لما ذكره المؤرخ هيداثيو أسقف شافس Chaves) . واستقر الأسديجيون والسواف في الشمال الغربي (جليقية) بينما أقام السلنيجيون ، وكانوا يؤلفون السواد الأعظم من القبائل الوندالية ، في الجنوب (باطقة) . أما الآن فقد استوطنوا ولايتي لشدانية Lusitania وقرطاجنة Cartagena^(٤) .

ولم يدم الوضع السياسي في شبه جزيرة أيبيريا على هذا النحو ، فقد

(١) Aguado Bleye, Manuel de la historia de España, Madrid 1947, P. 336

(٢) Pellegrin , op. cit. P. 80

(٣) A. Bleye, op. cit. P. 336 - A. Julien, op. cit. P. 233

(٤) A. Bleye , op. cit. P. 336 - ibid. P. 234

دخل القوط الغربيون إسبانيا ، وشاركوا في الظهور على مسرح الأحداث، وتمكنوا من السيطرة على مقاطعة طركونة، واتخذوا برشلونة عاصمة لهم. وما إن تولى واليا عرش القوط بعد وفاة سيجيريكو سنة ٤١٥ حتى عقد اتفاقا مع الامبراطور هريوس سنة ٤١٦ ، يقوم واليا بمقتضاه بإعادة بلاسيديا زوجة أطاوولف إلى رافنا مقر أخيها الامبراطور ، وتحرير شبه جزيرة أيبيريا من قبائل الألان والوندال والسواف التي غزت البلاد منذ سنة ٤٠٩ ، واستقرت في معظم أراضيها ^(١) ، في نظير أن يقوم قنسطانز ، القائد العام للامبرطورية *Magister Militum* وصاحب السلطان الأعظم عليها ، بمدّه بستمئة ألف مد من القمح وتسليمه مقاطعة أكتانيا من منابع نهر اللوار حتى برودو ^(٢) . وهكذا استعان هريوس وقائده قنسطانز بالقوط الغربيين لاستخلاص إسبانيا من المتبربرين ، أو على الأقل لإرغامهم على التزام الهدوء في ممتلكاته . وقد أوفى واليا بالعهد ، وتمكن خلال عامي ٤١٧ - ٤١٨ من إيقاع الهزيمة بالوندال السلنجهيين والألان في لشدانية . ونتج عن ذلك أن اندمج الألان في قبائل الوندال الأسديجيين الذين تدفقوا متراجعين نحو جنوب شبه جزيرة أيبيريا تجنباً للكارثة ، وهناك انتزع ملكهم جندريك من الرومان مدينتي قرطاجنة وإشبيلية سنة ٤٢٥ ^(٣) . وهكذا أصبح الساحل الجنوبي الغربي من شبه جزيرة أيبيريا خاضعاً للوندال، ونجحوا بفضل أسطولهم البحري في فرض سيادتهم على الجانب الغربي من

(١) A. Bleye , op. cit. P. 338

(٢) A. Bleye , op. cit. P. 339

(٣) A. Julien, op. cit. P. 234

البحر المتوسط ، وما لبثوا أن استولوا على جزر البليار ، وأخذت سفنهم منذ سنة ٤٢٥ تغير بصفة دائمة على سواحل مورطانية الطنجية (١) ، تمهيدا للاستيلاء على المغرب ، فقد أصبح لزاما على جندريك أن يبحث له عن أراض جديدة لشعبه بعد أن ظل يقاوم القوط الغربيين نحو ١٤ سنة. وكانت بلاد المغرب بالاضافة إلى ذلك أرضا موعودة تشتملها قبائل المتبربرين جميعا لثرواتها الوفيرة (٢) ، فليس غريبا إذن أن يوجه الوندال ، وهم سادة القسم الجنوبي من أيبيريا أنظروهم إلى المغرب ، ولم يحول ملكهم -م جندريك نظره عن المغرب حتى وفاته سنة ٤٢٨ .

ب - عبور الوندال الزقاق الى المغرب :

خلف جندريك (أو جيصرىك) أخاه جندريك على زعامة الوندال سنة ٤٢٧ ، وكان على حد قول جوردانيس قصير القامة أعرجا (بسبب سقوطه من جواده) ، وكان قوى الإرادة لا تنقصه الكياسة والحكمة (٣) ، كما كان سياسيا قديرا ، يدل على ذلك نجاحه في تحقيق حلم أخيه في الاستيلاء على المغرب ، فقد استخدم مهارته وحنكته السياسية في تحقيق هذا الحلم ، وساعدته الظروف المواتية والأحداث الجارية سواء في المغرب أم في البلاط الروماني نفسه على ذلك : فقد نجم عن الاضطرابات التي تبعت وفاة الامبراطور هريوس سنة ٤٢٣ اضطرابات مماثلة في إفريقية ، ذلك أن هريوس مات دون أن يعقب ، خلفه فالنتينيان الثالث ابن أخته جالا بلاسيديا من قنسطانز

(١) Ibid .

(٢) محمد محي الدين المشرفي ، افريقيا الشمالية في العصر القديم ، الرباط ١٩٥٠ ص ١٢٢

(٣) Oman , the dark ages , London , 1928 , P.7

كان يعتقد معاهدات الصلح وهو يضمن في نفسه خرقها ، كما أنه كان يتعمل بأي عذر لتبرير غاراته .

على عرش الامبراطورية الغربية ، وكان عمره أربع سنوات ، ولذلك لم يبايعه ثيودوسيوس الثاني امبراطور الشرق قيصرا . غير أن الكونت بونيفاس قائد القوات الرومانية بالمغرب ساعد فالتينيان على ارتقاء العرش الامبراطوري تحت اسم أغسطس سنة ٤٢٥ ، وحارب خصومه ، وأصبح بونيفاس بذلك يحتل المكانة الأولى في الامبراطورية لما كسبه من شهرة حربية وما قام به من جهود لنصرة الامبراطور الشرعي . ولكنه لم يلبث أن خسر كل مكاسبه على أثر زواجه الثاني من فتاة أريوسية المذهب ^(١) . فقد نتج عن ذلك أن قامت أزمة حادة بينه وبين الكاثوليك ، كما أن موقفه الاستقلالي عقب الانتصار الذي أحرزه على المتبربرين ساعد على تشكك بلاسيدا في ولائه ، وأكد نواياه الانفصالية عن الامبراطورية الغربية . واستغل حاسدوه في البلاط هذه الظروف لإثارة بلاسيدا عليه ، في نفس الوقت الذي حذروا فيه بونيفاس من الأخطار التي تهدده في رافنا .

وهكذا توترت العلاقات بين بونيفاس وبين البلاط ، وتطور الأمر إلى عداوة مستحكم عندما شق بونيفاس عصا الطاعة على الامبراطورية برفضه الأمر باستدعائه إلى رافنا سنة ٤٢٧ ، واعتبر بذلك عدوا للشعب الروماني وتمكن بونيفاس بادیء ذي بدء من هزيمة قوات القائد الروماني فيليكس وذلك في سنة ٤٢٧ ، ولكن استيلاء الجيش الروماني بقيادة القائد القوطي سيجيسفولت Sigisvult على عنابة وقرطاجنة ، دفعه إلى طلب المعونة من الوندال . ولم يتردد جنسريك في تلبية نداء بونيفاس ، إذ وجد في ذلك فرصة موانية لتحقيق مآربه في بلاد المغرب . ويرجح المؤرخ أندريه جوليان

Cambridge Medieval History, vol. I, 1911, P. 408

(١)

A. Julien, op. cit. p. 235. — السيد عبدالعزيز سالم ، المغرب الاسلامي ، ج ١ ، ص ٤١

استنادا على ما ذكره بروسير الأكويتاني Prosper d'Aquitaine أن جنصرىك تلقى نداءين بالاستغاثة : أحدهما من سيبيسقولت ، والآخر من بونيفاس^(١). ويذكر المؤرخ أوجستين برنار أن بونيفاس عرض على جنصرىك أن يقتسم معه بلاد المغرب ، على أن يكون للوندال من مورطانية غربا حتى وادى الالمبساجا (الوادى الكبير الواقع شمال غربى قسنطينة) شرقا ، بينما يحتفظ بونيفاس ببقية بلاد المغرب . وقد أبدى جنصرىك قبوله واغتباطه لهذا المشروع^(٢). وقبل أن يقدم على هذه المغامرة الحربية ، عمد إلى تأمين ظهره ، وذلك بالغلب على السواف الذين غزوا لشدانية ، وأحرز عليهم انتصارا ساحقا بالقرب من ماردة^(٣). ثم أعد جيشا ضخما يتألف من ثمانين ألفا من شعب الوندال ، من بينهم ١٥ ألفا من المقاتلين الأشداء^(٤) ، عبر بهم الزقاق من نغر جوليا ترادوكتا Julia Trabubta (طريف) ، الواقع على مضيق جبل طارق ، فى مايو سنة ٤٢٩ ، وحطت قواته على ساحل الريف عند مدينة طنجة أو فى نواحي سبتة ، وقيل عند الساحل الجزائرى بالقرب

(١) Julien, op. cit. P. 235 - C. M. H. , vol. I. P. 401

(٢) Augustin Bernard, l'Algerie, Paris, 1929 , P. 117

(٣) Comision historica de las companas de Marruecos : Accion de España en Africa , t. I. Iberos y Berberes, Madrid, 1935, P. 93

(٤) Oman , op. cit. P. 7 - Arthur Péllegrin , op. cit. P 80

A. Julien, op. cit . P. 236

ويذكر جييون أنه أبحر إلى المغرب فى جيش عدته خمسون ألفا ، تضاعف بعد ذلك بمن انضم اليه من البربر المبعدين عن ديارهم ، والدونائين الذين تعرضوا لاضطهاد السكاثوليك (انظر: Gibbon, abridged edition, from the origin work. London, 1909 P. 280)

من مدينة الغزوات^(١) المعروفة باسم Ad Fratres^(٢). (أنظر خريطة رقم ١)
واقترن زحف جنصريك نحو الشرق بكثير من أعمال العنف والوحشية،
فقد كان الوندال في تقدمهم يدمرون ما كان يصادفهم من عمران، ويقتلون
الشيوخ والأطفال، ويبقرون بطون النساء الحوامل، ويمزقون الأجنة
الصغيرة، ويحرقون الكنائس الكاثوليكية والدور، ويتركون وراءهم الدمار
والخراب أينما حلوا.

ويبدو أن الوندال لم يلقوا مقاومة تذكر من جانب الرومان المتأمرين
مع بونيفاس على الإمبراطورية، ثم إن الدوناتيين، باعتبارهم خصوما
للكاثوليك، انضموا إلى جانب الوندال إذ اعتبروهم مخلصين لهم من نير
الرومان، ووجدوا في دخولهم البلاد سيفا مسلطا على خصومهم الذين
أذاقوهم من صنوف الاضطهاد ألوانا^(٣). كذلك لم يتردد البربر، الذين
طالما عانوا من استبداد الرومان بهم وتعسفهم، في الانضمام إلى جانب الغزاة
منذ اللحظة الأولى^(٤).

وكان بونيفاس يشهد أعمال العنف البشعة التي كان يقوم بها الوندال،
فأدركه الندم أخيرا على استنجاهه بهم، على أنه مع ذلك كان يأمل أن يقف
هؤلاء عند الحد الذي اتفق معهم عليه. فلا يتجاوزوه شرقا، ولكن جيوش
جنصريك الظافرة لم تقف عند هذا الحد، وواصلت زحفها متجاوزة الحد

(١) المشرق، ص ١٢٢

(٢) Julien , P. 236

(٣) Cambridge Medieval History t. I , P. 408

(٤) A. Bernard , l'Algerie , P. 117

الغربي من ولاية نوميديا . وهنا انقلب التحالف بين بونيفاس وجنصريك إلى عداة سافر ، ولم يلبث بونيفاس أن انضم إلى جانب الرومان ، بعد أن عفت عنه بلاسيديا ، وعهدت إليه بقيادة الجيوش الرومانية كلها بما فيها من أجناد قوطية مرتزقة . وما أن اشتبك بونيفاس مع الوندال حتى انهزم هزيمة نكراء ، ارتد على أثرها إلى عنابة Hippo Regius ، حيث اعتصم داخل أسوارها (١) انتظارا لوصول امدادات من إيطاليا .

ج - غزو الوندال لنوميديا و افريقية :

ضرب جنصريك الحصار على عنابة زهاء أربع عشرة شهرا دون جدوى فاضطر إلى رفع الحصار عنها ، وأخذ يستولى على سائر أراضى المغرب باستثناء عنابة وقسنطينة وقرطاجنة، وهى المراكز الثلاث الوحيدة التى بقيت فى أيدي الرومان . ويذكر الأسقف بوسيدىوس الذى شهد هذه الأحداث بعينيه ، أن حصار عنابة استغرق أربع عشرة شهرا، ثم أخلاها أهلها بعد وفاة القديس أوجستين فى ٢٨ أغسطس سنة ٤٣٠ ، وكان يتولى الدفاع عنها ، فأحرقها البرابرة (٢) ، ثم اتخذها جنصريك بعد ذلك عاصمة مؤقتة لمملكته فى المغرب . وهكذا تمكن الوندال فى أمد وجيز لا يتجاوز ثلاث سنوات من فتح بلاد تمتد من جبل طارق حتى بونة (٣) .

وبينا كان جنصريك يتأهب للقيام بأعمال حربية جديدة إذ بلغته الأنباء

(١) - A. Bernard, op. cit. P. 18 - Pellegrin, op. cit. P. 80

A. Julien , P. 237 .

(٢) Pellegrin , P. 80

(٣) Bernard , P. 118

بوصول نجدة إلى الجيش الروماني في قرطاجنة ، أتت من القسطنطينية ، يقودها أسبار ابن أحد قادة الألان ، واصطدم جيش بونيفاس بعد أن انضمت إليه كتائب أسبار مع قوات جنصريك في معركة عنيفة أسفرت عن انهزام الرومان هزيمة نكراء في سنة ٤٣١ (١) . وعاد أسبار على أثر الهزيمة إلى القسطنطينية ، بينما لحق بونيفاس برومة ، حيث قلدته بلاسيديا منصب القائد العام ، لمواجهة مطامع آتيوس . وهناك قضى أيامه الأخيرة بعد شهور قليلة من عودته ، وبقيت بلاد المغرب بدون مدافع عنها .

أما آتيوس فقد فرض نفسه على بلاسيديا قائدا عاما للجيش الروماني فركز جهوده على غالة ، وترك المغرب لمصيره التعس .

ولما تولى آتيوس الحكم الفعلي للامبراطورية تم الاتفاق بينه وبين جنصريك في عنابة (في ١١ فبراير سنة ٤٣٥) على أن يتعهد جنصريك بدفع جزية سنوية طفيفة ، ويلتزم بإرسال عدد من الرهائن إلى رافنا ، في مقدمتهم ابنه هونيريك ، وفي نظير ذلك يحتفظ بسلطانه على مورطانية الطنجية ، ومورطانية القيصرية ، وعلى جزء من نوميديا ، مع التعهد أيضا بعدم التعرض لولاية إفريقية (٢) .

لم يقبل جنصريك هذه الاتفاقية إلا لكي يكسب بعض الوقت ، يتمكن خلاله من تنظيم صفوف جيشه استعدادا للمعركة الفاصلة ، فالاتفاقية في نظره هدنة مؤقتة تحميه من تدخل الامبراطور الروماني ، وقائده آتيوس وقبوله لها يعني التخلص من خطر وشيك الوقوع ، ولذلك فانه تظاهر بقبول

(١) Cambridge Medieval History , vol. I, P. 410 - Julien, P. 237

(٢) المدبري ، ص ١٢٦ - Julien, p. 237 - Pellegrin , op. cit. p. 81

شروطها الجائرة وهو يضمّر في قرارة نفسه احتلال ولاية إفريقية الغنية بمزارع القمح بمجرد أن يسترد ابنه هونيريك ، ويعيد تنظيم قواته . ونجحت سياسة جنصريك على نحو تجاوز كل تقدير في الحسبان ، فقد استطاع أن يزيل وساوس رافنا وشكوكها نحوه ، فاطمأنت إليه ووثقت فيه ، وأعادت ولده إليه : ولما أحس جنصريك بأنه أصبح طليقا ، لاتقيده الامبراطورية بقيود أخرى فاجأ القوات الرومانية ، وضرب ضربته الكبرى دون سابق إنذار ، إذ انقض بجيشه على قرطاجنة ، واستولى عليها في ١٩ أكتوبر سنة ٣٩٤^(١) . وتبع سقوط المدينة كثير من أعمال السلب والنهب والقتل والاعتداءات الفاشمة ، فقد أمر جنصريك الأهل إلى بتسليم ذهبهم ومنسوجاتهم النفيسة ، وقضى بنفى أعيان المدينة ، وشيوخها ، ورجال الدين ، إلى إيطاليا أو القسطنطينية ، وصادر أملاك الكنائس الكاثوليكية ، وسلم القساوسة الأريوسيين جميع عمائر المدينة الدينية^(٢) . وينقل الأستاذ جوليان وصفا للقس الرسيلى سيلفيان يصور سقوط قرطاجنة بقوله : « بينما كانت طبول الغزاة تدق تحت أسوار قسنطينة وقرطاجنة ، كانت كنيسة هذه المدينة تفقد وظيفتها بما كان يقام داخلها من ألعاب ومصارعة حيوانات ، وتفقد هيبتها الروحية بالمشاهد التي تتمثل في المسارح والملاعب ، وكانت المذابح تجري خارج الأسوار ، بينما كانت شوارع المدينة مسرحا للزنا والفاحشة »^(٣) . ويفسر القس سيلفيان هذه الأعمال البشعة بأنها نوع من العقاب أنزله الله بهذه المدينة التي يعتبرها هذا القس مجمعا لكل الرذائل .

Julien, P. 237 (١)

Pellegrin , P. 81 (٢)

Julien , op. cit P. 237 (٣)

وأحدث سقوط قرطاجنة صدى عميقا في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية ، خاصة في رومة التي لم تكن قد حيت منها بعد الصورة البشعة التي تخلفت بعد غزو القوط لها . وعلى أثر سقوط قرطاجنة أخذ جنصرىك ينشئ أسطولا ضخما يهدف من ورائه فرض سيطرته على الامبراطورية الرومانية نفسها . عندئذ دقت رومة ناقوس الخطر ، وأخذت تعبى قواتها الموزعة في سائر أنحاء أوروبا للدفاع عن إيطاليا نفسها ، ووعد الامبراطور البيزنطى ثيودوسيوس بالتدخل لحماية الامبراطورية الغربية ، كما نظم سيجيسفولت القوطى الدفاع عن السواحل ، وفى نفس الوقت عاد القائد الرومانى آتيوس بجيوشه من بلاد غالة . ولم يكن جنصرىك ينوى وقتئذ مهاجمة رومة نفسها ، وإنما كان يسعى إلى تقليص أظافرها والاستيلاء على خطوطها الدفاعية الأمامية ، وهى جزر صقلية وقورشقه وسردانية .

وبادر جنصرىك بشن هجومه على صقلية ، وحاول الاستيلاء عبثا على بلرمة ، ولكنه تمكن من انتزاع مدينة رسالة دون أن يلقى ما يعترض سبيله من سفن الامبراطورية الغربية . ولما علم جنصرىك بقرب وصول الأسطول الرومانى الشرقى لمحاربتة ، اضطر إلى العودة إلى قرطاجنة ، إلا أن الامبراطورية الشرقية عدلت أخيراً عن التصدى له ، عندما جاءت الأنباء بتأهب الفرس وقبائل الهون للهجوم على حدودها الشرقية ، وهو أمر إن دل على شىء فعلى عبقرية جنصرىك الذى أكد من جديد كفايته الدبلوماسية^(١) . ولم يسع الامبراطوران ثيودوسيوس وفالنتينيان إلا الموافقة على التوقيع على معاهدة جديدة للتقسيم فى سنة ٤٤٢ ، كانت شروطها هذه

المرّة لصالح الوندال ، فبمقتضاها احتفظ الوندال بولاية إفريقية بعاصمتها قرطاجنة ، وولاية بيزاسين ، ومورطانية الطنجية ، وقسم من نوميديا بما في ذلك عنابة (١) . أما المناطق الفقيرة التي لا يرجى منها فائدة مثل مورطانية القيصرية ومورطانية الشطيفية والقسم الغربي من نوميديا بما فيه قسنطينة ، وولاية طرابلس ، فقد تخلى عنها جنصرىك للرومان .

ثم عمل جنصرىك بعد ذلك على محالفة القوط الغربيين عن طريق المصاهرة ، بقصد الاعتماد عليهم مستقبلا عند قيامه بمهاجمة رومة ، فزوج ابنه هونيرىك من إحدى بنات ثيودريك (٤٢٠ - ٤٥١) . غير أن آتيوس أغراه بمصاهرة الامبراطور فالنتينيان ، فما كان من جنصرىك إلا أن اتهم ابنة ثيودريك بمحاولة وضع السم لابنه ، فأرسلها إلى أبيها بطولوشة بعد أن جدد أنفها ، وقطع أذنيها (٢) .

د - التفوق الحربى للوندال على الرومان :

ظلت علاقات المودة بين جنصرىك والرومان قائمة حتى سنة ٤٥٥ ، شغل خلالها بتنظيم فتوحاته فى المغرب . وفى هذه السنة قتل الامبراطور فالنتينيان بيديه قائده آتيوس ، ونتج عن ذلك أن ثار أنصار القائد القتل على الامبراطور فالنتينيان ، وقتله أحدهم وبدعى بيترون مكسيم بعد ستة أشهر من مقتل آتيوس . وكان من الطبيعى أن تشتعل نيران الفتن فى البلاد عقب هذه الأحداث .

(١) F. Lot, la fin du monde antique et le début du

Moyen age, Paris, 1947, p. 244.

(٢) Julien, p. 238. — على ابراهيم طرخان ، دولة القوط الغربيين ، القاهرة

وفي هذه الآونة أرسلت الامبراطورة الأرملة أيودوكسى إلى جنصرىك تستغيث به، وتدعوه للقدوم إلى رومة لإتقاذها من قاتل الامبراطور، وتغريه نظير ذاك بالاستيلاء على ذخائر رومة وتفاصيلها^(١). ووجد جنصرىك الفرصة سانحة لغزو رومة وهو ما كان يتوق إليه منذ أمد بعيد، فأرسل أسطوله إلى إيطاليا، ونزلت جيوشه شمالى نهر التير، وتقدمت نحو رومة ودخلتها بدون مقاومة، فى ٢ يونيو سنة ٤٥٥، ونهبت المدينة خلال أسبوعين، وسلبت محتويات قصورها، وجردتها مما كانت تعز به من روائع^(٢)، ومن بينها كنوز سليمان التى كان قد حملها طيطس من ايلياء سنة ٧٠، وكان جنصرىك قد وعد البابا ليون الأول بأن يكف أيدي جنوده عن القيام بأى مذابح فى رومة، وقد أوفى جنصرىك بوعده فعلا، وعاد إلى قرطاجنة فى نهاية هذا العام، يحمل عددا كبيرا من الأسرى، يبلغ عددهم نحو سبعين ألفا، من بينهم الامبراطورة أيودوكسى نفسها التى كانت قد استنجدت به، وابنتيها: أيودوسيا التى تزوجها هونيرىك بن جنصرىك، وبلاسيديا التى تزوجها الامبراطور البيزنطى بعد ذلك، وابن القائد آنيوس، وعدد كبير من الصناع وأرباب الحرف. ويبدو أن المرض أصاب عددا كبيرا من الأسرى بسبب إهمال الوندال لهم، فاضطر ديوجرا سياسى، أسقف قرطاجنة الكاثولىكى، إلى تخصيص بازيليكتين لمعالجتهم^(٣)،

Pellegrin, op. cit. p. 82. (١)

Lot, la fin du monde antique, p. 244- Gibbon, op. cit. p. 299. (٢)

Pellegrin, p. 82. (٣)

وباع في سبيل ذلك معظم الكؤوس الفضية والذهبية المقدسة لاقتداء
بعضهم^(١).

وكان عرش رافنا ما يزال شاغرا منذ مصرع فالنتين ، فتولى
الامبراطور مارسيان الذي كان قد خلف ثيودوسيوس الثاني سنة ٤٥٠
مهمة إدارة الامبراطورية الرومانية كلها . ولكن القسطنطينية كانت قد
استنفذت كل قواها في الحروب الشرقية التي خاضتها بحيث لم يعد لديها من
القوة ما يكفل لها التدخل في إيطاليا حربيا ، وخاصة في إفريقيا ، وليس
أدل على ذلك من موقفه عندما دعا الامبراطور الغربي الجديد آفيتوس ،
القائد العام القديم في غالة ، في ٩ يوليو سنة ٤٥٥ ، الى اغريق للقيام بحملة
مشتركة ضد الوندال ، فقد اكتفى مارسيان بأن وجه إلى الوندال إنذاراً ،
لم يكثر له جنصر يك بطبيعة الحال^(٢) . فقد كان يدرك كل الإدراك أنه
أصبح يشغل المكان الأول في العالم الغربي بفضل جيشه القوي ، وأسطوله
العديد ، وبراعته السياسية ، ودفعه هذا الإحساس بقوته ، وشعوره بتفوق
الوندال الحربي وسيادتهم البحرية في البحر المتوسط إلى المبادرة باستئصال
الأطراف العظيمة من الامبراطورية الغربية ، فلم تلبث جزر قورشة
وسردانية والبلبار وصقلية أن سقطت في أيدي الوندال ، ثم إنه تمكن من
ضرب الرومان في مقاطعة طركونة في إسبانيا بالسواف بقيادة ريخاريو
Rekhiario وذلك في سنة ٤٥٦ . ولم يكتف بذلك بل وجه جيوشه في بلاد
المغرب شرقا وغربا ، فاستولت على إقليم مورطانية ، وإقليم طرابلس

Julien, p. 242. (١)

Julien, p. 242. (٢)

ويؤكد المؤرخ بروكويوس أن جنصريك كسب ولاء البربر له ، فتوافد عليه زعماءهم يعلنون خضوعهم له ، واشتركوا معه في حملاته الظافرة. ويبدو أنه لم يهتم بحكم الولايات القديمة مثل مورطانية ونوميديا حكما مباشراً ، بل منحها استقلالاً جزئياً .

وأدى الحصار الاقتصادي الذي فرضه جنصريك على الامبراطورية الغربية إلى إسقاط آفيتوس ، ولم يمض على ذلك عهد قصير حتى توفي الامبراطور الشرقي مارسيان ، وأصبح العرشان على هذا النحو شاغرين . وكانت الامبراطورية الرومانية الغربية قد فقدت على أيدي الوندال والقوط معظم أملاكها ، وأصبح زمام الحكم في إيطاليا في أيدي جماعة من قادة الفرق الجرمانية المرتزقة ، وأصبح الأباطرة العوبة في أيدي هؤلاء القادة ، ففي الامبراطورية الغربية أصبح ريسيمير السواني Ricimer ، قائد القوات الرومانية الجرمانية ، كل شيء في الدولة ، وفي القسطنطينية أصبح آسبار Aspar المحرك الأول للامبراطورية الشرقية . فنصب على العرش الامبراطوري أحد قواده القدامى وبدعى ليون لي ترأس الذي عين بدورته على عرش الامبراطورية الغربية قائدا جريئاً يعرف باسم ماجوريان ، وذلك في ابريل سنة ٤٥٧ (١) .

رأى ماجوريان لزاماً عليه قبل كل شيء أن يقضى على قوة الوندال بطريقة تجنبه الاشتباك معهم أول الأمر ، فأنشأ ضد جنصريك حلفاء يضم القوط الغربيين والسواف ، وحشد في خليج القنت Alicante باسبانيا ، قريباً من بلدة إلش Elche ، أسطولاً يتألف من ثلاثمائة سفينة ، كان يزعم تسييرها

لضرب جنصرىك فى المغرب . عندئذ طلب جنصرىك الصلح و لكن طلبه قوبل
بالرفض ، فعمل على تسميم الآبار فى مورطانية ، وتدمير العمران فيها ، ثم
إنه توسل لتحقيق رغبته فى الصلح بطريقتين : شرائه ولاء بعض القادة من
أعدائه ، أو مباغته أسطوله لسفن الرومان فى القنت واستيلائه على معظمها (١)
وبذلك أرغم ماجوريان على أن يعقد معه معاهدة للصلح فى سنة ٤٦٠ .

غضب ريسمير من تصرف ماجوريان ، فقبض عليه عند عودته وقتله
سنة ٤٦١ ، ونصب مكانه ليبيوس سفروس ، اتخذته ستارا ليحكم هو من
ورائه . أما جنصرىك فقد أبدى نشاطا سياسيا وحربيا لانظير لها فى هذه
الآونة ، محاولا أن يفيد من الصراع القائم حول تولية العرش ، فتعددت
غاراته على صقلية وكالابرية وكامبانية ، وتربص أسطوله فى البحر لسفن
الرومان . ثم إنه تحالف مع ايجيديوس القائد العام لجيوش رومشه فى شمال
غالة ، وتفاوض ايوريكو ملك القوط الغربيين ، ومع ريميسوندو ملك
السواف ، وكسب مودة القسطنطينية برده أرملة فالنتينيان وابنتها الصغرى ،
أملا فى المطالبة بعرش الامبراطورية الغربية لولده هونيرىك باعتباره صهرا
للأسرة الامبراطورية . كل ذلك يعبر تعبيرا صادقا عن أحوذية جنصرىك
وعن دهائه السياسى ، الذى هبأه المجال ليصبح سيد الموقف فى ذلك الجين .
غير أن مطالبته بالعرش الغربى لم يقابل إلا بالرفض الشديد فى القسطنطينية
وعندئذ استأنف جنصرىك صولاته فى البحر ، فاجتاح السواحل اليونانية ،
وقطع الاتصال فيما بين عامى ٤٦١ ، ٤٦٧ بين بيزنطة والاسكندرية . (٢)

(١) Pellegrin , P. 83 - Julien , P. 243

(٢) Pellegrin , P. 83 - Julien , p. 244

ولما شاهد الامبراطور الشرقى ليون عظم سطوة جنصرىك ، أراد أن يضع حدا لندخلاته الخطيرة ، فقرر ، بالاتفاق مع ريسيمير ، الوقوف فى وجه جنصرىك واستخدم كل طاقات الامبراطورية الرومانية لمهاجمته ، والقضاء عليه قضاء مبرما . فجهز أسطولاً عدته نحو ستمائة سفينة ، وقيل ١١١٣ سفينة ، تحمل نحو مائة ألف مقاتل ، تحت قيادة بازيليكوس . وكانت خطة الرومان تقضى بأن يهاجم الأسطول الرومانى مدينة قرطاجنة ، وأن يقوم مارسيلان بضرب الوندال فى صقلية وسردانية ، ويتولى هيراقليوس قائد الجيوش الرومانية فى مصر بالاستيلاء على طرابلس ويزاسين .

ونجح مارسيلان فى الاستيلاء على سردانية ، ونزلت القوات المصرية بنجاح فى طرابلس . غير أن الأسطول الرومانى الذى أرسى فى رأس بونة سنة ٤٦٨ لم يتزل قواته إلى الساحل ، وفى هذه الأثناء تظاهر جنصرىك باليأس وطلب من بازيليكوس هدنة لاتتجاوز خمسة أيام ، فمنحها له . وفى نفس الليلة باغت جنصرىك أسطول الرومان بهجوم عنيف ولم يترك هذا الأسطول إلا بعد أن جعله جظاما (١) .

وكان لهذه الكارثة صدى عميق فى أنحاء الامبراطورية ، رفع من معنوية الوندال ، ثم نالت الكوارث على الرومان بعد ذلك ، فقد انسحبت جيوش الرومان فى مصر من طرابلس إلى ليبيا ، واغتيل القائد مارسيلان فى صقلية ، واسترجع الأسطول الوندالى جميع الجزر الكبرى فى البحر المتوسط . وأثبتت هذه الكوارث تفوق البرابرة وضعف الرومان ، وخرجت الامبراطورية الرومانية من هذه المغامرة الحربية وقد اعتورتها الجراح ، بينما ظفر جنصرىك

بالمعاهدة التي يشتبهها ، وتنص على اعتراف الامبراطورية بسيادته المطلقة على سائر بلاد المغرب ^(١) ، نظير التزامه بتسهيل الإفراج عن الأسرى الرومان وافتدائهم ، وإعادة فتح الكنائس الكاثوليكية المعطلة في المغرب .

غير أن جنصريك لم يحترم شروط هذه المعاهدة ، ففي سنة ٤٧٤ ، اكتسحت غاراته السواحل اليونانية ، واضطر الامبراطور الشرقي زينون الإيسوري إلى عقد معاهدة ثانية ، تقضى بالالتزام السلام الدائم بين الطرفين ، وأرسل الامبراطور في سنة ٤٧٦ سفارة إلى قرطاجنة ، يعترف فيها بجنصريك ملكا مستقلا على المغرب وجزر البحر المتوسط . وفي نفس السنة عقد جنصريك مع أدواكرا سكير القائد الجرمانى الذى دخل رافنا فاتها في سبتمبر سنة ٤٧٦ ، فأسقط الامبراطور الغربي رومولوس أوغسطولس الصبي ، ونفاه إلى جنوب إيطاليا ، عقد جنصريك مع أدواكر المذكور معاهدة سلم ، واتفق معه على أن يحلو الوندال من صقلية باستثناء قاعدة مرسالة الحربية التي اعتبرها مركزا استراتيجيا هاما لأفريقية ^(٢) .

(١) Oman , op. cit. p. 10

(٢) Pellegrin , p. 843 - A. Bleye , op. cit. p. 343 - Julien , p. 245

سميد عاشور ، أوروبا في العصور الوسطى ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ٢٠

(٢)

خلفاء جنصريك

١ - هونيريك خايقة جنصريك (٤٧٧ - ٤٨٤) :

طال العمر بجنصريك ليشهد قيام امبراطورية وندالية ، أسسها بقوة سلاحه ومهارته الدبلوماسية ، وليشهد سقوط الامبراطورية الرومانية الشرقية على يدى أذواكر سنة ٤٧٦ ، ثم توفى فى قرطاجنة عاصمته فى ٢٤ يناير سنة ٤٧٧ . وكان جنصريك يحرص قبل وفاته على أن يولى العهد لابنته الأكبر هونيريك حتى لا تتمزق الامبراطورية التى جهد فى تأسيسها . فلما توفى خلفه ولى عهده هونيريك على عرش الوندال . وكان هونيريك فظا ، مستبدآ ، ظالما ، كما كان آريوسيا شديداً تعصب لمذهبه . ولذلك لى أصحاب المذهب الكاثوليكي الذى انتشر فى المغرب على حساب الآريوسية ، على يديه كثيرا من المحن وضروب الاضطهاد والتعسف . فقد كان يرغم الكاثوليك على اعتناق الآريوسية ^(١) وإلا تعرضوا لآلوان العذاب والاضطهاد الشديد . وقد اكتشف هونيريك عند اعتلائه العرش مؤامرة تهدف إلى عزله فقبض على المتآمرين من خاصته وأمر بذبح بعضهم وإحراق البعض الآخر أحياء . ^(٢)

وكان الامبراطور البيزنطى زينون الإيسورى (٤٧٤ - ٤٩١) قد فوض لهونيريك انتخاب أسقف جديد لآسقفية قرطاجنة الشاغرة منذ ٢٤ عاما

(١) Percy Neville Ure, Justinian and his age, London, 1951, p. 22

(٢) Pellegrin , p. 84

مضت تمهيدا لسياسة من التسامح الديني حيال الكاثوليك ، ولكن هونيريك اشترط في مقابل ذلك أن يعامل الآريوسيون في الشرق معاملة مماثلة ، بل إنه أندر القسطنطينية بنفى هذا الأسقف والقساوسة الكاثوليك في المغرب بدون استثناء في بلاد البربر ، لو أن الامبراطور رفض مطلبه ، وبدأ النزاع بين هونيريك وزينون يتطور تطورا خطيرا عندما أعلن زينون أنه لن يترشح عن موقفه بالنسبة للآريوسيين . وكان رد الفعل الوندالي عنيفا إذ تعرض الكاثوليك وعلى رأسهم الأسقف ابوجين للانتقام الوندال المروع ، ونسج عن ذلك سقوط عدد كبير من الضحايا الكاثوليك في أرض المغرب .

وأخيرا وافق هونيريك على عقد مؤتمر ديني في أول فبراير سنة ٤٨٤م ، يتفاهم فيه الأساقفة الكاثوليك مع الآريوسيين ، أملا في أن يتحول التدخل البيزنطي إلى أداة تبليل أفكار الكاثوليك الذين ظلوا يحتفلون بشعائهم الدينية في الأراضى الوندالية على الرغم من قرار التحريم . وكان غرض هونيريك من عقد المؤتمر حل مشكلة داخلية ، وذلك باشتراك ممثلي الكنائس الكاثوليكية في دولة الوندال وحرمان الأساقفة الوافدين من الخارج . وحضر المؤتمر بالفعل عدد كبير من الأساقفة الكاثوليك في المناطق التابعة للوندال أمثال إيوجين القرطاجني ، وفيجيليوس التابوسي . وما إن انعقد المؤتمر حتى أدرك الكاثوليك أن البطريك الآريوسي سيريلا ينوى اتخاذ قرار ضدهم ، فعمدوا إلى إثارة المظاهرات لصالحهم في قرطاجنة ، واعتبر هونيريك هذه المظاهرات نوعا من الشغب ، فاضطر إلى إصدار مرسوم بنقض المؤتمر في ٢٥ فبراير . ويتضمن هذا المرسوم قرارات ، اقتبسها من القرارات التي اتخذها القانون البيزنطي ضد الملحدين ، وعمل على تطبيقها على الكاثوليك ، من هذه

القرارات إبطال الشعائر الدينية الكاثوليكية ، وحل الجمعيات الكاثوليكية ، ومنع التجمهرات الدينية ، وحرق الكتب الدينية ، ومنع إنشاء كنائس كاثوليكية في داخل المدن أو خارجها، ومصادرة الأراضي التابعة للكنيسة، ونفى الخارجين على المذهب الآريوسي . . الخ .

وقد بالغت السلطات الوندالية في تطبيق هذه القرارات، فأخرج الأساقفة الكاثوليك من قرطاجنة وهم عراة، وأرغموا على العمل في الأراضي الصحراوية، فمات منهم نحو ٩٠ شخصاً في العامين التاليين . ولم يقف تنكيل الآريوسيين بالكاثوليك إلى هذا الحد ، فان القس الآريوسي، الذي تولى مراقبة الأسقف ابوجين المصاب بالشلل ، كان يصب الخلل في نفسه ، كما ضرب ١٢ طفلاً في كنيسة قرطاجنة بالعصى مرتين ، وجلد خمسمائة قس في هذه المدينة قبل نفيهم ، وقطعت ألسن الكاثوليك الذين حاولوا الفرار إلى أسبانيا (١) . وهكذا لم تعد الحياة ممكنة في المغرب إلا لمن تقبل التعميد الآريوسي، ونتج عن ذلك قيام أزمة اقتصادية خطيرة ، وانتشار المجاعة في البلاد ، بسبب تخلي المزارعين عن فلاحه الأرض ، وامتناع أرباب العمل عن الصناعة والتجارة، وتسببت المجاعة في وفاة عدد كبير من الأهالي ، وعمت الأوبئة أنحاء البلاد، وكثر عدد ضحايا هذه الأوبئة ، وكان هونيريك واحداً من هؤلاء ، إذ توفي في ١٢ ديسمبر سنة ٤٨٤ (٢) .

ب - عصر جنتا هوندو (٤٨٤ - ٤٩٦) وتراسا هوندو (٤٩٦ - ٥٢٣)

لم يتول عرش الوندال بعد وفاة هونيريك ابنة هيلدريك كما كان يأمل،

(١) Oman, p. 11 - Percy Ure, op. cit. p. 22 - Julien, p. 249

(٢) Oman , p. 12 - Julien , p. 250

وإنما تولاه اثنان من ذوي قرابته ، كانا أخف وطأة منه على الكاثوليك هما جنتاموندو ثم تراسا موندو. ولقد شهد الكاثوليك في عهد جنتاموندو أياما أفضل من سلفه ، إذ خفف الوندال في عهده من غلوائهم واضطهادهم للكاثوليك ، وتمكن الأسقف الكاثوليكي إيوجين من العودة إلى أسقفيته سنة ٤٨٧ ، كما عاد الأساقفة الآخرون بعده إلى أسقفياتهم في سنة ٤٩٤ ، وعادت الكنائس الكاثوليكية تمارس من جديد وظائفها في حرية. ويرجع السبب في تمتع الكاثوليك بهذه الحرية النسبية إلى عوامل سياسية ، فعلى أثر النزاع حول طبيعة المسيح ، أصدر البابا فيليكس الثالث قراراً بعزل أساقفة القسطنطينية وأنطاكية وحرمانهم ، وكانوا أصحاب القرار المعروف باسم هينوتيكون Henoticon ، الذي أصدره الامبراطور زينون سنة ٤٨٢ . وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى قيام جفوة بين الشرق والغرب أو بين البابوية والكنيسة اليونانية بالقسطنطينية دامت زهاء ثلاثين سنة (٤٨٤ - ٥١٨)^(١) . وهكذا لم يتردد جنتاموندو في إظهار تسامحه نحو رعاياه الكاثوليك إذ كان يدرك تماماً عدم قدرتهم على التآمر ضده مع الامبراطورية .

ثم تولى تراسا موندو عرش الوندال ، ويتميز تراسا موندو بأنه كان يتمتع بصفات خلاقية وفكرية وجثمانية طيبة على حد قول معاصريه ، ويبدو أنه كان مستنيراً ، يتمتع بثقافة واسعة ، كما كان ألعيا ، وهب قدرة لا نظير لها في السياسة الخارجية .^(٢) وبشير بروكوبيوس إلى أنه كان يجتذب إليه الكاثوليك عن طريق تكريمهم ومنحهم الثروات الطائلة والرتب السامية ، فإذا

(١) Charles Diehl, Histoire du moyen age, t. III, le monde

oriental, Paris, 1936, p. 35 - A. Julien, op. cit. p. 251

(٢) Pellegrin, p. 84

ألّف أحدهم جرما ، رغباعنه أو عن سبق اصرار ، عفاعنه، لكي يرتد عن مذهبه (١) . ومع ذلك فقد كان تراسا موندو يمنع تنصيب أساقفة جدد بدلا من الأساقفة المتوفين ، كما أن عاقب بالنفى من لم يكثرث لاوامره من أساقفة الكاثوليك أمثال إيوجين أسقف قرطاجنة الذي لقي حتفه في آلي بغالة سنة ٥٠٥ ، وفولجانس أسقف روسباى بولاية يزاسين الذي نفاه مع ما يزيد على ستين أسقفا إلى سردانية .

وقد عرف عن تراسا موندو أنه كان يداوم على ارتكاب الخطأ إذا لم يقتنع بالصواب ، فلقد أعاد فولجانس إلى بلاطه ليتناقش معه ، وكان فولجانس معروفا بمحاوراته وتبحره في اللاهوت، ولكن فولجانس انتهر فرصة وجوده بقرطاجنة للقيام علانية بالتأثير على المخلصين عن طريق أحاديثه وخطبه . ويبدو أن دعوته كان لها تأثير عميق في القصر لدرجة أن تراسا موندو أعاده من جديد إلى سردانية .

وكان تراسا موندو محبا للاداب والفنون ، وفي عهده ازدهرت فنون الشعر وعلى الأخص فن المديح، ومن أعظم شعرائه لو كسوريوس ودراكتيوس، كذلك كان تراسا موندو مولعا بالعمارة ، فأمر قرطاجنة بالإنشاء الجليلة ، والقصور الفخمة .

ولم يلهه اهتمامه بالثقافة والفنون عن السهر على استقلال دولته ، فقد عقد صلات من الود والصداقة مع الامبراطور أنستاسيوس (٤٩١ - ٥١٨) الذي لم يهتم بالمغرب اهتماما كبيرا ، لانشغاله وقتئذ بالنزاع الديني ، وبتأمين

الدفاع عن امبراطوريته . ولكن الوضع لم يلبث أن تغير منذ اعتلى جستين الأول عرش الامبراطورية (٥١٨ - ٥٢٧) ، فان الامبراطور الجديد الذي كان معروفا بتقواه الزائدة وصلابة رأيه ، لم يلبث أن اصطلح مع البابا ، وأبدى رغبته في مباشرة اسقفية إفريقية ، مما ساعد على تجديد شكوك تراسا موندو السياسية إزاء الكاثوليك ، وعندئذ عمد تراسا موندو إلى تولية وجهه شطر ثيودوريك الذي تولى عرش القوط الشرقيين بإيطاليا منذ عام ٤٩٣ ، وذلك حتى يضمن عدم تجديد العداء مع الامبراطور . ورأى تراسا موندو ضرورة عقد حلف مع الملك القوطي وذلك بزواجه من أمالافريد أخت ثيودوريك ، التي أمهرها بأراض صقلية بناحية رسالة . وقدمت العروس إلى قرطاجنة تصحبها حاشية تتألف من ألف سيد قوطي وخمسة آلاف من خيرة المحاربين وأشدّهم مراسا (١) . وقد كان هذا الزواج عاملا من عوامل تألق البلاط الوندالي ، وبداية لعهد وندالي جديد ، استغرق فيه الوندال في حياة الترف وانغمسوا في اللهو والملذات (٢) .

ولكن بقدر ما كان الملك يحرص على تجنب أية مشكلة خارجية ، بقدر ما كانت الثورات التي قام بها البربر في عهده تسبب ارتباكا خطيرا في مملكته . والواقع أن سلطان الوندال على عقباثل أخذ يضعف تدريجيا بعد وفاة جنصرىك ، وإذا بحثنا عن سر ذلك وجدنا أن الفتح الوندالي لقلب النظام الاقتصادي وقلب معه أيضا النظام الاجتماعى (فى نوميديا) ، فان الطبقة الزراعية الكادحة « البروليتاريا » ، وهى الطبقة التي كان يستغلها الملاك وأصحاب العقارات أسوأ استغلال انتهزت فرصة نشوب الاضطرابات التي

(١) Pellegrin , p. 84 - Julien , p. 252

(٢) Pellegrin , p. 84

شملت القرن الخامس كله لشور بدورها ، وتضرب ساداتها ، وتدمر مدنها ، وتستصفي أملاكهم ، وذلك بمصادرة وسائل الإنتاج . كذلك انقض سكان جبل أوراس على المدن الزاهرة في السهل ودمرتها ، من أمثال هذه المدن تبسا وتمجاد ولميزة . ولم يقف السيل المدمر إلا عند واحة قسنطينة . فقد استولى الثوار على هذا الإقليم ، حيث نهبوا البلاد وقتلوا أعدادا هائلة من الكاثوليك والوندال على السواء . وقامت بمورطانية دول مستقلة عاش فيها الروم والبربر جنبا إلى جنب ، من أمثال تلك الدول مملكة ماسونا التي قامت في عهد تراساموندو ، وكانت تضم لامورسير ، وصفر ، وكاسترا سيفيريانا ^(١) . ولكن الحكومة الوندالية لم تقف موقفا حازما تجاه هذه الحركات الاستقلالية والثورات ، فقد كانت حياة الترف التي كان يحياها الوندال قد استنزفت جانبا كبيرا من خشدونتهم التي جعلت منهم في الماضي محاربين أشداء ، وازداد الموقف سوءا عندما واجهت البلاد غارات قام بها البدو ورعاة الجبال من طرابلس بقيادة أمير يعرف باسم كابايون ، وعجز تراساموندو عن التصدي لهم ، إذ كانوا يتبعون طريقة الكر والفر ، وفشل فرسان الوندال في مواجهة هؤلاء البدو لأن جيادهم كانت تنفر من جماهم ، فتراجع ، وعندئذ يطبق عليهم فرسان البربر منحدرين من سفوح الجبال المجاورة ، وينقضون عليهم ، ويذرعون فيهم القتل . ولقد تعرض جيش الوندال في سنة ٥٢٣ لهزيمة شنعاء مات الملك تراساموندو على أثرها مغموما ^(٢)

ج - نهاية عصر الوندال في المغرب :

خاف تراساموندو الملك هيلدريك ابن هونديك من الأميرة ابودوسيا

Julien , p. 253 (١)

Oman , p. 28 - Pellegrin . p. 85 - Julien , p. 254 (٢)

(٤٩٦ - ٥٢٤) ، وكان شيخا مترفها ، رافق أمه في شبابه إلى القسطنطينية ، حيث أقام في بلاط الامبراطور البيزنطي زهاء أربعين سنة ، وهناك عقد مع جستنيان ولي عهد جستين ، علاقة من الصداقة الوطيدة . وقد كان لذلك أكبر الأثر في ارتباطه الوثيق بالبيزنطيين ، وفي تخليه عن روح القسوة والخشونة التي كان يتصف بها أبوه هونيريك ، وجده جنسريك ، ويتمثل ارتباطه بالامبراطورية في سكه العملات وعليها صورة الامبراطور جستين الأول (١) .

وقد اصطنع هيلدريك منذ ارتقائه عرش الوندال سياسة تقوم على التسامح الديني ، فأصدر أمره بإرجاع الأساقفة المبعدين عن قرطاجنة وفي مقدمتهم فولجانس دي روسباي ، الذي استقبله شعب قرطاجنة استقبالا حافلا ، كما أنه أعاد رئيس الأساقفة إلى قرطاجنة ، وأمر بإجراء انتخابات جديدة لاختيار أساقفة جدد ، وبإعادة افتتاح الكنائس المعطلة ، وبإقامة مجلس كاثوليكي في ٥ فبراير سنة ٥٢٥ . ولقد أدى هذا التصرف من جانب هيلدريك إلى تجرأ الامبراطور جستين على إصدار مرسوم بإلغاء الأريوسية من الامبراطورية في سنة ٥٢٣ ، كما أدى أيضا إلى قيام حركة معارضة شديدة عند الوندال تزعمتها الأميرة أما لافريد أرملة تراساموندو ، وكان من بين رجال هذه الحركة كبير الأساقفة الأريوسيين ومعظم طبقة النبلاء الوندال الذين أعلنوا سخطهم على هيلدريك لتسليمه إفريقية لقمة سائغة للبيزنطيين . وتطور الموقف بعد ذلك تطورا سريعا ، فقد خاطبت أما لافريد زعماء بربر جنوبي بيزاسين ، وحثتهم على الثورة . ولكن هيلدريك

قبض عليها في قفصة ، وزج بها في السجن حيث ذبحت هي ورجال حاشيتها القوط (١) . فغضب أخوها ثيودوريك ، وأعد حملة لمهاجمة قرطاجنة ، ولكن الموت عاجلة سنة ٥٢٦ ، فلم يتهيا له تحقيق هدفه ، ولم يكن أثالاريك ابن ثيودوريك ، وكان صبيا لا يتجاوز من العمر ثمان سنوات ، في ظروف تسمح له بمهاجمة صديق للإمبراطور البيزنطي (٢) .

ولكن الثورة البربرية ، والمعارضة الوندالية ، استفحلت استفحالا يندر بالخطر الشديد ، وكان البربر قد أصبحوا سادة على مورطانية الطنجية ، والقيصرية ، (باستثناء عاصمتها) ومورطانية الشطيفية ، ونوميديا الجنوبية ، وتجمعت حشودهم ، مع من انضم إليهم من الحزب المعارض للملك ، في جنوبي بيزاسين ، بقيادة آنتالاس ، لمهاجمة الوندال بقيادة هوامر ابن أخت هيلدريك . ولم يكن من بقى على ولائه للملكية من الوندال ، في حالة تسمح لهم بمقاولة هذه الحشود الهائلة ، بعدما استنزفت الحضارة الرومانية قوام وقضت على خشونتهم ، كما أن هوامر لم يكن يقاس من حيث الكفاية الحربية والسطوة والذكاء بآنتالاس زعيم البربر ، ولذلك لم يلبث جيش هيلدريك أن انهزم انهزاما مخزيا في المعركة عند أول اشتباك مع البربر في سنة ٥٣٠ ، وأعلن الثوار في ساحة المعركة سقوط الملك هيلدريك ، وبايعوا على أثر ذلك أحد أحفاد جنصرىك واسمه جليار (جليار بن جيلاريس بن جنزون بن جنصرىك) ولا شك أن جليار كان يسعى للظفر بالعرش ، إذ كان يخشى وهو أكبر أفراد الأسرة الملكية ، والمرشح لهذا العرش بعد

(١) Oman , p. 29

(٢) Pollegrin , p 85 - Julien , p. 255

هيلدريك ، أن يسلم هذا بلاد المغرب لجستنيان ، فيضيع عليه عرش الوندال ، وعلى هذا الأساس بدأ يتا مع نبلاء الوندال ^(١) .

زحف المنتصرون على قرطاجنة ودخلوها ، وتم القبض على الملك الشيخ ، وقتل أنصاره في مايو سنة ٥٣٠ هـ ، ولكن الامبراطور جستنيان ، ابن أخت جستين ، وكان قد تولى العرش البيزنطى قبل ذلك بثلاث سنوات ، لم يرض عن الأوضاع فى إفريقيا ، وأعلن غضبه على وضع صديقه هيلدريك فى السجن ، فأرسل إلى جليمار يتوعده ، وبطالبه بالتنازل عن العرش لهيلدريك ، مع احتفاظه بسلطانه كوصى له ^(٢) ، ولكن جليمار لم يعبأ بهذا التهديد ، وأعلن تحديه للامبراطور ، ورد عليه ردا قبيحا أثاره ، وجعله يفكر جديا فى محاربة الوندال واسترجاع المغرب ، واستعادة أمجاد الامبراطورية الرومانية .

(١) Percy Ure , op. cit. p. 23

(٢) Oman , p. 76

(٣)

نظم الوندال في الحكم ببلاد المغرب

أ - النظام الإداري :

لم يكن الوندال أهل حضارة ، بل كانوا شعبا همجيا ، عرف بوحشيته وقسوته . ويعتبرهم المؤرخون أكثر الشعوب المتبربرة تخريبا وحبالسفك الدماء ، حتى أن كلمة Vandalisme أصبحت تتضمن هذا المعنى . غير أن تاريخ الوندال لم يعرف إلا عن طريق روايات أعدائهم ، وهم كتاب اليونان أمثال بروكوبيوس ، أو الكاثوليك الذين يعتبرونهم ألد أعداء الكنيسة الأرثوذكسية أمثال فكتور أسقف فيتا . ولذلك فإن ما اقترن باسم الوندال من وحشية تفوق الوصف لا يعدو أن يكون من قبيل المبالغة والتحيز ، ولم يكن هذا التحيز والمبالغة إلا رد فعل لاضطهاد الوندال للكاثوليك .

صحيح أن الوندال لم يكونوا أهل حضارة ، ولكنهم مع ذلك احترموا الحضارة الرومانية ، شأنهم في ذلك شأن الشعوب المتبربرة ، فاحتفظوا بنظام الإدارة الروماني القديم بما في ذلك الموظفين والإدارات ^(١) . ولقد قسم جنسريك المغرب إلى ست مقاطعات ، تختلف في مساحتها وقيمتها الاقتصادية ، خمس مقاطعات منها تدخل في ولاية إفريقية القنصلية هي : مقاطعة قرطاجنة ، ومقاطعة زوجيتانيا (شمال تونس) ، ومقاطعة يزاسين (وسط وجنوب تونس) ، ومقاطعة نوميديا الشرقية (وتشتمل على

الأراضي الواقعة غربى تونس وتمتد حتى قسنطينة) ثم المنطقة الواقعة شرقى تبسا . أما المقاطعة السادسة فكانت تشتمل على نوميديا الغربية ومورطانية ، وذلك لضعف نفوذ الوندال فى القسم الغربى من المغرب (١) .

وكان الملك يتأسس الحكومة ، وله سلطات مطلقة فى الحكم ، ولذلك اتسم حكمه بالاستبداد ، فكان يباشر بنفسه تعيين الموظفين من الرومان ، وتنصيب القساوسة وأعضاء مجلس الشورى ، كما كان يحتفظ لنفسه بحق تعيين سائر الولاة والعمال (٢) . وكان يتولى العرش أكبر أعقاب الملك المتوفى من الذكور ، بصرف النظر عن نسبة قرابته إلى الملك ، وذلك تجنباً لنظام الوصاية فى دولة تقوم أساساً على النظام الحربى ، وهو النظام المتبع عند القبائل التيو تونية . فهيلدريك لم يتول العرش بعد أبيه هونيريك ، ولكنه تولاه بعد تراساموندو (٣) . وكان يشترط فى رئيس الوزراء أن يكون جرمانى الأصل ، وكذلك الشأن بالنسبة لرئيس الديوان أو أمين البلاط الذى يسجل المراسيم كما يقوم بتنفيذ البعثات السياسية التى تتصف بالسرية التامة .

وكانت دار السكة تضرب العملات بقرطاجنة ، باسم ملوك الوندال على نفس النظام الذى كان متبعاً فى العصر الرومانى (٤) . وكانت اللغة اللاتينية سائدة فى الإدارة والقضاء والتعليم (٥) . ومع ذلك فقد استخدمت اللغة الجرمانية فى التخاطب وفى المحافل الدينية .

(١) المشرقى ص ١٣٥ — أحمد بن عامر ، تونس عبر التاريخ ، تونس ، ١٩٦٠ ص ٧٢

(٢) المشرقى ص ١٣٦

(٣) Oman , p. 11

(٤) Pellegrin , p. 81

(٥) Lot , p. 290

ب - النظام الحربى :

أما النظام الحربى فقوامه شعب الوندال نفسه، فقد كان الوندال أنفسهم قلة ضئيلة جدا بالنسبة لمجموع سكان البلاد من البربر والأفارقة والروم، وكان عددهم يتراوح ما بين خمسين وثمانين ألفا^(١)، ولذلك اعتبر الوندال أنفسهم حامية ضرورية لبقاء البلاد فى حوزتهم، وكانوا أقرب إلى أن يكونوا جيشا للاحتلال من أن يؤلفوا أمة. وهكذا كان العنصر الحربى يفوق العنصر المدنى. ولم يكن للوندال لهذا السبب جيش نظامى تحت أهبه الاستعداد، ولكنهم كانوا يتحولون جميعا إلى جنود يحملون السلاح فى اللعظات الحرجة. ولهذا السبب أيضا كانوا يلتزمون بأعداد أبنائهم وتنشئتهم نشأة حربية^(٢). وكان المحاربون الوندال فى العادة فرسانا يقاتلون بالمزاريق والسيوف ولكنهم كانوا لا يعرفون استخدام السهام والحرايب، ولذلك فشلوا فى حروبهم مع البدو ورعاة الجمال الوفدين من طرابلس^(٣).

وكان من الضرورى أن يصطنع الوندال سياسة بحرية رضوا أم كرهوا، فان الاستيلاء على سواحل بلاد المغرب والتطلع إلى غزو إيطاليا وجزر البحر المتوسط كان يتطلب بطبيعة الحال أن يهتم الوندال اهتماما خاصا بإنشاء أسطول بحرى قوى، يناوئون به خصومهم فى البحر، ويفرضون سيادتهم على الجزر المواجهة لإيطاليا وإسبانيا مثل صقلية وسردانية وقورشة، ولذلك استأنفت دار الصناعة بقرطاجنة نشاطها فى إنشاء السفن والقطائع التى كان لها الفضل الأعظم فيما أحرزه الوندال من تفوق بحرى، بحيث أصبحوا

Bernard, p. 119 (١)

Pellegrin, p. 81 (٢)

Julien, p. 254 (٣)

بحق أعظم قوة بحرية في غرب البحر المتوسط ، « وأمست الدولة الرومانية لأول مرة منذ الحروب البونية في القرن الثالث قبل الميلاد تحت رحمة بحرية تفوق بحريتها ، وتستطيع أن تنتزع عنها صقلية وسردانية وقورشة » (١) . واستعان الوندال بالبربر في الملاحة البحرية لمهارتهم في دربته وثقافته ومقدرتهم على ركوبه .

ج - النظام القضائي :

على الرغم من أن ملوك الوندال كانوا يحكمون رعاياهم الوندال وفقا لقوانينهم وعاداتهم ، إلا أن اللاتين والأفارقة كانوا يخضعون للقانون الروماني ، الذي ظل يطبق عليهم في المدن وفي الأقاليم الخاضعة للوندال ، وكان يتولى تطبيقه قضاة رومان باسم الملك ، يتزعمهم قاض أعلى مقيم في قرطاجنة . أما القضايا المختلطة فكانت تعرض أمام محاكم وندالية .

د - النظام الإقطاعي :

احتفظ جنصريك بخراج بيزاسين وجزء من نوميديا لنفسه ، واختار لوالديه هونيريك وجنزون أخصب أراضي المغرب ثم وزع الأراضي المزروعة في إفريقية القنصلية وزوجيتانيا على جنوده وأسراهم بعد أن قسمها إلى إقطاعات ، كل إقطاع يشتمل على ألف أسرة من المحاربين يخضعون لسلطة رئيس يسمى المشرف على الألف Millenari ، واستثنى من التوزيع ، الأراضي قليلة الإنتاج ، فأعطاهم لأصحابها بعد أن أثقل كاهلهم بالضرائب الفادحة . وعلى هذا النحو انتقل الملاك القدامى إلى طبقة معدمة ، ولكنهم على الرغم

(١) نشر ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور السيد الباز العريبي ، القاهرة ، ١٩٥٤ ص ٣

من ذلك ظلوا يحتفظون بحرياتهم في الإقامة حيثما طاب لهم ذلك (١).

ويعتقد الأستاذ جوليان أن الوندال أقروا الملك القدامى من الأفرقة في زوجيتانيا على أراضيهم أو أذنوا لهم بالإقامة فيها بصفة العبيد في مستعمرات ساداتهم ، ذلك أن السادة الجدد لهذه الأراضي ، لكثرة ما كانوا يشتركون في الحروب والمعارك ، أو لطول إقامتهم في قرطاجنة ، كانوا يعهدون إلى سكان المستعمرات الوندالية بالعمل فيها ، والإشراف عليها وجمع خراجها ولهذا تدفقت الأموال على الوندال ، وراحوا يستغرقون في حياة الترف ، ويفقدون وراء البحث عن شهوات النفس خشونتهم التي كانت مصدر قوتهم .

أما فيما عدا زوجيتانيا ، فقد كانت الأراضي ملكا للدولة ، ولكنها تركت في أيدي أصحابها ، ونستدل من العقود المسجلة على اللوحات الخشبية التي اكتشفت جنوبي تبسا سنة ١٩٢٨ على أن الأراضي في هذه المنطقة كانت ملكا للأفراد يبيعونها كيفما شاءوا ، ومعنى ذلك أنه كان في إمكان المزارعين المستقرين في الأراضي البور الخاصة بأحد الملوك بيع حقوقهم في هذه الأرض بل وتوريثها لأحفادهم (٢).

هـ - سياسة الوندال نحو الكاثوليك وأهل البلاد :

كان الوندال يتعصبون لمذهبهم الآريوسي لأغراض سياسية أكثر منها دينية ، فنكّلوا بالكاثوليك ، وصادروا كنائسهم وما فيها من كنوز وتحف ،

(١) Julien , p. 239

(٢) Ibid. p. 240

وحولوا بازيليكية رستيتوتا وكنيستى سان سريان إلى كنائس آريوسية ، كانت تقام فيها الطقوس باللغة الجرمانية ، ولم يكتف ملك الوندال شعوره العدائى نحو الكاثوليك ، إذ اعتبرهم خطرا دائما على دولته لاتصالحهم بالامبراطورية البيزنطية وكنيسة القسطنطينية . وهذا يفسر استمرار تغير سياستهم نحو الكاثوليك تبعا للظروف السياسية ، فطورا نراهم يلتزمون حيالهم سياسة تعسفية غاشمة ، وطورا نراهم يتراخون معهم ويتبعون سياسة من التسامح ، كما حدث فى سنة ٤٥٤ عندما أمر جنصريك باختيار أسقف جديد لقرطاجنة ، مدهنة لآتيوس ، وكما حدث سنة ٤٧٦ عندما أعيد افتتاح الكنائس الكاثوليكية بغية الحصول على معاهدة مجزية مع الامبراطور زينون ^(١) .

أما بالنسبة للبربر والأفارقة ، فقد أثقل الوندال كواهلهم بمختلف أنواع الضرائب ، وحرص جنصريك على تخريب القلاع والتحصينات فى المدن البربرية كلها باستثناء قرطاجنة العاصمة ، حتى لا يفكر البربر يوما فى شق عصا الطاعة على الوندال ، فيتحصنون داخل أسوار حصونهم ومدنهم ^(٢) . ولقد كان البربر على مر العصور لا يرضون بالحكم الجائر أو السلطان المستبد ، ولذلك ثاروا من قبل على الرومان ^(٣) ، كما ثاروا على الوندال وعلى البيزنطيين

(١) Julien , p. 241

(٢) Percy Ure , p. 21 - Oman , p. 10

(٣) ثار حوجورتا على الرومان سنة ١٠٨ ق.م ، وثار البربر على الرومان فى عهد حوبا الثانى ، كما شق عليهم تاكفريناس النوميدي عصا الطاعة سنة ١٧م ، وثاروا أيضا على بطليموس ابن جوبا الثانى لموالاته للرومان فى مورطانية ، واعتصم الثوار تحت قيادة ايدمون فى جبال أطلس (ارجم الى المغرب الاسلامى ص ٢٧ - ٢٩) .

وعلى العرب بعد ذلك ، فالبربر لا يقبلون الخضوع للفاتحين والغازين ، ولقد نجح جنصريك بفضل هيئته وسطوته في كبح جماحهم ، ولكن خلفاءه أخفقوا في سياستهم مع البربر ، ويرجع السبب في ذلك إلى تراخيهم مع زعمائهم وإغماضهم أعينهم عن الحركات الاستقلالية التي يقومون بها في القسم الغربي من المغرب ، إذ كان كل منهم منصرفا إلى إفريقية القنصلية وما يليها من ولاية نوميديا في الغرب وبيزاسين في الجنوب ، ولم يعدم البربر في مورطانية زعماء يحركونهم ضد الغازين ، فلم تلبث الثورة البربرية أن اشتعلت في عهد تراساموندو في سائر أنحاء مورطانية ، وقامت في المغرب إمارات مستقلة ، واشتد خطر هذه الثورة في عصر هيلدريك ، وكانت العامل الأساسي في إسقاط دولة الوندال في المغرب .

الفصل الثاني

بلاد المغرب في العصر البيزنطي

(١)

استرجاع جستنيان لبلاد المغرب

١ - موقف جستنيان أمام تعدى جليمار :

لم تكن الظروف التي تولى فيها جستنيان عرش الامبراطورية البيزنطية ملائمة في ذلك الحين ، فقد كانت الامبراطورية الرومانية تجتاز فترة حرجية من تاريخها الطويل ، إذ انتزع الجرمان معظم أملاكها في الغرب في نفس الوقت الذي استفحل فيه خطر الساسانيين في الشرق ، وكان أعظم أمانى جستنيان استرجاع أملاك الدولة الرومانية في الغرب ، ولهذا السبب وجد في رفض جليمار لمقترحاته لإعادة هيلدريك إلى العرش فرصة موانية للتدخل الحربي في المغرب ، لغرضين : الأول الانتقام لصديقه هيلدريك ، والثاني بسط النفوذ البيزنطي على ولاية كانت تؤلف فيما مضى جزءاً هاماً من أملاك الامبراطورية الرومانية .

ولكن استرداد قطر كالمغرب كان يقتضى إعداد جيش قوى ، لمواجهة شعب بحري من الدرجة الأولى هو شعب الوندال ، ثم إن نقل هذا الجيش إلى المغرب كان لا بد أن يحدث نتائج خطيرة في الشرق حيث يتمثل خطر الفرس (١) . ومن أجل ذلك قرر الامبراطور أن يصنى حسابه مع الفرس

(١) Vasiliev, Histoire de l'Empire byzantine, trad. par Brodin et Borguina, t I, Paris, 1932, p. 178

حقى يتفرغ لتحقيق هدفه ، فاضطر إلى عقد معاهدة للصلح سنة ٥٣٢ مع كسرى أنو شيروان بشروط فيها إذلال لبيزنطة ، إذ قضت بأن يدفع الامبراطور جزية سنوية كبيرة إلى ملك الفرس . وهكذا توقفت الحرب بين الفرس والروم بعد ثلاث سنوات من معارك متواصلة (١) . وبذلك اطمأن الامبراطور إلى الجبهة الشرقية ، وأخذ يتطلع إلى استعادة أملاك الدولة الرومانية في الغرب .

ولكن فكرة قيام البيزنطيين بمحاربة الوندال لم تقابل في بلاط الامبراطور بحماس كبير ، بل على الضد من ذلك عارضت هذه الفكرة معارضة شديدة من رجال الامبراطور المخلصين له . فقد كانت الهزائم التي تلاحقت على البيزنطيين في القرن الماضي على أيدي الوندال مازال ماثلة في الذاكرة ، وأكبر هذه الهزائم ، تدمير الاسطول البيزنطي بقيادة بازيليكوس في رأس بونة (٢) وكانت الوندال على الرغم من اضمحلال قوتهم مازالوا يحتفظون بهيبتهم الحزبية وسطوتهم البحرية (٣) . فليس غريبا إذن أن تقابل فكرة غزو المغرب بمعارضة شديدة في بيزنطة ، وكان في مقدمة من عارضها رئيس المحكمة والقائم على الخزانة الامبراطورية ، وكانا يريان أن تعبئة الجيوش وإرسالها إلى المغرب ، والاتفاق عليها لمدة سنوات يستنزف مالية الدولة ، كذلك كان

(١) رجب كسرى بهذا الصلح بسبب ما كان يواجهه من مشكلات في الداخل (Lot, p. 301 - Oman, p. 69) . وعلى الرغم من أن هذه المعاهدة كانت في صالح الفرس أكثر مما كانت في صالح البيزنطيين ، إلا أن حستيان رأى فيها ضارا للمحافظة على حدوده عدة سنوات .

(٢) Cambridge Medieval History , vol. I, p. 426 - Lot, p. 302

(٣) Percy Ure , op. cit. p. 23

رأى قادة الجيش ، الذى خرج من الحرب الفارسية مثخنا بالجراح ، ليزج به فى حرب أخرى أشد ضراوة وقسوة .

عقد الامبراطور مجلسا مؤلفا من وزرائه ، وكبار القساوسة ، وعظماء رجال الدولة ، وناقشهم فى عزمه على إنقاذ المغرب من المذهب الآريوسى ، وإعادة المذهب الكاثوليكى فى هذه البلاد إلى مثل ما كان عليه من قوة ، ثم الانتقام من الوندال الذين اغتصبوا بلاد المغرب من الامبراطورية الرومانية الغربية ، وساهموا فى إسقاط هذه الامبراطورية ، وهزموا جيوش الامبراطورية الشرقية عندما توجهت لحصار قرطاجنة (١) . فاعترض الوزير يوحنا الكابادوكى ، وأشار إلى صعوبة السيطرة على المغرب لقوة الوندال الحربية والبحرية (٢) . وكان الامبراطور يدفعه وقتئذ عاملان : عامل الانسياق وراء صرخات الكاثوليك الآفارقة ، وتوسلاتهم ، لتخليصهم من نير الوندال ، وعامل تقبل الأمر الواقع ، والإذعان لنصائح رجال دولته بالتخلي عن هذه المغامرة الخطيرة التى تعرف نتائجها السيئة مقدما . ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، إذ أقبل أحد الأساقفة من المشرق ، وأفضى للامبراطور بأنه رأى فى الحلم أن الله أمره بمقاولة الامبراطور وحثه على إنقاذ مسيحيي المغرب من الغاشمين ، وأبلغه أن الله سيؤيده فى ذلك وينصره نصراً عزيزاً . ثم تبع ذلك وفود عدد من الأساقفة الكاثوليك إلى القسطنطينية وتحريضهم للامبراطور على غزو المغرب (٣) . وكان ذلك كفيلا

(١) المغرب الاسلامى ج ١ ص ٤٧

(٢) Cambridge Medieval History , vol. II, p. 12 - Percy Ure,

p. 24 - Julien , p. 256

(٣) Cambridge Medieval History, vol. II, p. 12

باقتناع الامبراطور بسياسة الحرب وضربه عرض الحائط بنصائح الخبراء والفنيين . وهكذا تغلبت العاطفة على الواقعية والمنطق ، وبدأ الامبراطور ينظم حملة كبرى عهد بقيادتها إلى قائده المظفر بلزاربوس ، وكان جستنيان يثق به ثقة عمياء لما أبداه من مقدرة حربية فائقة أثناء الحروب الفارسية ، وفي ثورة القسطنطينة سنة ٥٣٢ المعروفة باسم ثورة نيكا (١) .

ثم وقع حادث يعتبر عاملاً مساعداً لنجاح مشروع جستنيان ، وهو قيام أهالي طرابلس وجزيرة سردانية بالثورة على الوندال ، واشتغال جليار بقمع هاتين الثورتين على حساب قوة جيشه (٢) . وقبل أن نخوض في تفاصيل حملة بلزاربوس ينبغي أن نستعرض قوتي البيزنطيين والوندال . كان الجيش البيزنطي يتألف من عشرة آلاف من المشاة ، وخمسة أو ستة آلاف من الفرسان الذين تمرسوا أثناء الحروب الفارسية ، وأعدت لنقلهم نحو خمسمائة سفينة تبحرسها ٩٢ درومونز (طريدة سريعة) (٣) ، واشتركت في هذه الحملة فرقتان إحداهما من الهون عدتها ستمائة مقاتل ، والآخرى من الهول عدتها أربعمائة (٤) . أما قوة الوندال فكانت لا تتجاوز ثلاثين ألف مقاتل ، قليل

Cambridge Medieval History, vol. II. p. 8 - Charles Diehl, (١)
Histoire de l'Empire byzantine, Paris 1934, - p. 26 - Ch. Diehl &
Marçais, histoire du moyen age, t. III, p. 64 - Oman, p. 71- ٤٧ ص

A. Vasiliev, op. cit. t. I, p. 175 (٢)

Pellegrin, p. 68 - Cambridge Medieval History, vol. II, (٣)
p. 12 - Lot, p. 302 - Percy Ure, p. 24 - Ch. Diehl, Histoire de
l'Empire byzantine, p. 27 - Julien, p. 257

Julien; p. 257 (٤)

الخبرة على الحروب بعد سنين طويلة من الرخاوة والاستغراق في الترف ،
استقطع منها نحو خمسة آلاف من زهرة الجيش الوندالي ، حملتهم ١٢٠ سفينة
من الأسطول الوندالي ، وذلك لمواجهة ثورة أهل سردانية بزعامة جوداس
القوطي ، وكان جيش الوندال منقسما على نفسه ، ففريق يؤيد هيلدريك ،
وفريق يؤيد جليمار ، كما أن معظم الشعب المغربي لم يكن يساند الوندال ،
بل على الضد من ذلك كان يرحب بدخول البيزنطيين . يضاف إلى كل ذلك
أن الوندال خسروا حلفاءهم القوط الشرقيين ، الذين وقفوا من الوندال موقفا
عدائيا منذ قتل هيلدريك أمالافريد .

وهكذا كانت الظروف في صالح البيزنطيين .

ب - تحرك القوات البيزنطية نحو المغرب :

أبحرت القوات البيزنطية بقيادة بلزار يوس من القسطنطينية في ٢٢ يونيو
سنة ٥٣٣م بعد أن باركها ايفانيوس بطريرك القسطنطينية ، ورافقت أنطونينا
زوجها بلزار يوس في هذه الحملة ، كما صحبه أيضا صولومون القائد الأعلى
للجيش البيزنطي ، وهو شخصية من الشخصيات الكبرى التي ستلعب
دورا هاما في تاريخ العصر البيزنطي ، وصحبه أيضا كاتبه المؤرخ
بروكوبيوس الذي ترك لنا وصفا كاملا للحملة (١) .

أظهر بلزار يوس ، أثناء الرحلة البحرية الطويلة التي قطعها الأسطول
البيزنطي في البحر ، واستغرقت زهاء ثلاثة شهور (٢) . حزمًا وصرامة في
إدارة شئون عسكره ، ويريوي بروكوبيوس عن ذلك أمثلة كثيرة ، ففي

(١) Percy Ure , p. 24 - Julien , p. 257

(٢) Percy Ure , p. 26

ايدوس الواقعة على نهر الدردنيل ، عاقب بلزار يوس جنديين من الهون
كانا قد سكرا ، واعتديا على زميل لهما ، فقتلاه في مشاحنة ، فأمر باعدامها
« بالخازوق » على قمة تل قريب من تلك المدينة . ثم خطب في عساكره
مبيناً مساوىء السكر والعريضة وما يترتب عليهما من أعمال العنف . وكان
لهذه الخطبة أثرها الكبير في نفوسهم بحيث امتنعوا بعد ذلك عن تعاطي الخمر
خوفاً على أنفسهم من عقاب قائدهم . ثم أبحرت الحملة من الدردنيل مارة ببحر
إيجة ، ثم دارت السفن حول شبه جزيرة المورة ، فمرت من ماثابان إلى ميثون ،
وهنا ركبت الرياح ، وتوقفت السفن على الشاطئ . وحدث أن انتشر
وباء بين صفوف العسكر بسبب تعفن الخبز ، ولكن بلزار يوس عالج الموقف
بأن شحن السفن بمحمولة من الخبز المحلى . ثم ظهرت مشكلة أخرى أثناء سيرهم
نحو صقلية ، فقد فسدت المياه في السفن ، ولكن المياه التي خزنتها أنطونينا
في قدور الزجاج ودفنتها في الرمال داخل غرفة مظلمة بأحدى السفن ، أنقذت
الموقف . ويحملنا برو كوبيوس إلى جزيرة صقلية التي كانت تعتبر أهم قاعدة
للسيطرة البحرية في البحر المتوسط ، وعندما أرسى بها بلزار يوس كان مرتبكا
لا يعرف أين ينزل بقواته على الساحل الإفريقي ، ويذكر برو كوبيوس أنه
(أى برو كوبيوس) تعرف في سيرا قوصة على صديق قديم كان ملما بشؤون
الوندال ، فعرف منه أن الوندال أرسلوا جزءاً من جيوشهم لإخماد ثورة
سردانية ، وعن طريق هذا الصديق اتصل برو كوبيوس بخادم له كان قد
قدم منذ عهد حديث من قرطاجنة ، فاصطحبه معه ، وبفضل هذا الرجل
أبحرت الحملة من صقلية ، ومرت بجزيرتي جوزو ومالطه وأرست السفن
على الشاطئ التونسي في أوائل شهر سبتمبر ، في موضع يقال له رأس كبوديا

Caput Vada ويقع على بعد نحو مائة كم. جنوبي سوسة^(١). وتم نزول البيزنطيين في سكون ، وكان نزولهم مفاجأة للوندال ، فالملك كان غائبا في نوميدا ، وأعظم كتائبهم كانت تحارب في سردانية^(٢).

ج - استرجاع البيزنطيين للمغرب :

ما كادت سفن بليزاريوس ترسو على الساحل التونسي حتى أمر قواته بغدم التعرض بالأذى للسكان ، وتجنب تخريب العمران ، وانتساف المزارع ، وكان يهدف من وراء ذلك كسب محبة الأفارقة والبربر الذين استغاثوا بالامبراطور ، وتوسلوا إليه أن يخلصهم من نير الوندال . ويبدو أن بعض جنوده خالفوا هذا الأمر ، فعاقبهم عقابا صارما ليكونوا عبرة وعظة لغيرهم ممن تسول لهم أنفسهم العبث بخطته^(٣).

نزلت القوات البيزنطية على الساحل (أنظر خريطة رقم ٢) ، وزحفت فرقة الفرسان نحو سوسة ، يليهم المشاة ، وتكتنفهم إلى اليسار كتائب الهون ، بينما تتبع السفن الطريق الساحلي حتى تكون على أهبة الاستعداد للتدخل في حالة اكتشاف كمين ينصبه الوندال^(٤).

وما كادت الأنباء تصل إلى جليار بنزول الجيش البيزنطي بالقرب من سوسة Hadrumetum وزحفه نحو هذه المدينة ، حتى أمر بإعدام هيلدريك

(١) Cambridge Medieval History, vol. II, p. 12 - Percy Ure, p. 26

(٢) Oman , p. 77

(٣) Percy Ure , p. 28

(٤) Julien , p. 257

وأنصاره (١). وتابعت القوات البيزنطية زحفها حتى وصلت إلى سوسة ثم إلى جراس (سيدى خليفة). وفي هذه الأثناء تجنب الجيش البيزنطى أى احتكاك بينه وبين الأهالى ، فلم ينهب العسكر أى شىء خشية أن يثيروا عليهم نقمة السكان . وكان لهذا التصرف الحكيم من جانب بليزاريوس أثر كبير فى ازدياد ثقة السكان بالبيزنطيين ، فزودوهم بما كان يلزمهم من أقوات . وفى جراس تمكن الجند من تعويض مافاتهم نهبه منذ نزولهم بأرض المغرب ، وذلك بأخذ كل ما اشتته أنفسهم من فواكه البساتين الملكية (٢).

وصرف جليمار ما يقرب من أحد عشرة يوما لحشد قوات كافية لمنازلة بليزاريوس ، فى الوقت الذى وصلت فيه طلائع البيزنطيين إلى مسافة تبعد نحو عشرة أميال من قرطاجنة (٣). واستقبل الشعب المغربى البيزنطيين استقبالا حافلا خاصة عندما أعلن قائدهم بليزاريوس أنه إنما قدم إلى المغرب لتخليص الأهالى من نير الوندال وتعسفهم ، وضرب جنوده المثل الأعلى فى احترام مشاعرهم . وكانت خطة الوندال تقضى بخروج أماتاس أخى جليمار من قرطاجنة فى الوقت المناسب لإيقاف تقدم البيزنطيين ، والترصد لهم فى شعاب آد ديسيام ، وتبعد نحو ١٥ ك. م. جنوب غربى قرطاجنة ، ثم ينقض جيباموندو ابن أخى الملك على ميسرة الجيش البيزنطى

(١) Oman, p. 77 - Percy Ure, p. 28 - Julien, p. 258

(٢) Julien, p. 258

(٣) Oman, p. 77

بقوة تتألف من ألفى مقاتل ، ويتولى جليبار نفسه ضرب مؤخرة هذا الجيش بمعظم كتائب الجيش الوندالي . وعلى الرغم من إحكام هذه الخطة ودقتها ، والتأكد من نجاحها ، فإن خطأ واحدا من جانب أماتاس كان سببا في فشلها (١) .

تقدمت القوات البيزنطية تحت ستار من الحذر الشديد خشية أن تباغتها جيوش الوندال ، وأرسل بليزار يوس فرقة استطلاعية من الفرسان بقيادة يوحنا الأرميني . وفي نفس الوقت تقدم أماتاس مع عدد من الفرسان لاستكشاف مواقع البيزنطيين ، حتى أنه ابتعد كثيرا عن بقية الجيش الوندالي بمسافة يستغرق قطعها أربع ساعات . ولم يلبث أن اصطدم بفرقة يوحنا الأرميني ، وكان الموقف يحتم على أماتاس أن يقاتل متراجعا حتى يتمكن من إنذار قواته في الوقت المناسب ، ولكنه بدلا من ذلك التحم مع أعدائه في معركة غير متكافئة لقي فيها حتفه ، وفوجئت قوات الوندال بفلول فرسان أماتاس يقبلون عليهم وفي أعقابهم فرسان يوحنا الأرميني تطاردتهم . ولم يكن لدى الوندال الوقت الكافي لإعداد أنفسهم للقتال ، فلم تلبث سيوف البيزنطيين أن مزقت صفوفهم (٢) .

وفي أثناء ذلك اشتبكت قوات جيباموندو مع فرقة الهون البيزنطية بالقرب من سبخة السجومى ، وعلى الرغم من كثرة الوندال العددية فقد انهزموا هزيمة مخزية ، وأبادهم الهون إبادة تامة .

Julien p. 258 (١)

Ibid. (٢)

أما جليمار فقد مضى بمعظم قوات الجيش الوندالي ، وهاجم قلب الجيش البيزنطي ومؤخرته وفقا للخطة المرسومة ، وتمكن جليمار من اختراق صفوف البيزنطيين ، وتخرج موقف بليزار يوس تخرجاً بالغاً . وبدلاً من أن يواصل جليمار عملياته الحربية ضد فرقة يوحنا الأرميني لإحراز النصر النهائي ، فإنه انهار تماماً عندما شاهد جثة أخيه أماتاس ، فوقف باكياً فترة من الوقت كانت كافية لإعطاء بليزار يوس الفرصة لتنظيم صفوفه من جديد ، والقيام بدوره بالهجوم على الوندال في آد ديسيمام Ad Decimum . وفوجيء الوندال بهذا الهجوم ، وظلوا يقاتلون البيزنطيين حتى أقبل المساء ، وإذا بفرقة يوحنا الأرميني وفرقة الهون تقبلان على غير انتظار فتقويان صفوف البيزنطيين ، وتكتل هؤلاء على الجيش الوندالي وهزموه هزيمة نكراء (٣) فرقله على أثرها إلى نوميديا ، بينما دخل بليزار يوس وأجناده بعدها مدينة قرطاجنة فاتحين في ١٥ سبتمبر سنة ٥٣٣ .

استدعى جليمار أخاه ترازون من سردانية ، لتدعيم الجيش الوندالي الذي انكسر معنوياً أكثر من انكساره مادياً . وكان بليزار يوس قد اشتغل بعد دخوله قرطاجنة بترميم أسوارها ، قبل أن يستأنف فتوحاته في المغرب . وما إن انتظمت صفوف الوندال من جديد ، في منتصف ديسمبر سنة ٥٣٣ ، حتى بادر جليمار بالهجوم على الجيش البيزنطي بالقرب من قرطاجنة بقصد استرجاعها ، والتقى الجيشان في موضع يقال له تريكاماروم Tricamarum ويبعد نحو عشرين ميلاً عن المدينة . وكانت هذه المعركة أعنف بكثير من

المعركة الأولى ، وفيها انهزم البيزنطيون ثلاث مرات ، ولكنهم كانوا في كل مرة منها يتأسكون لثبات قائدهم بليزاريوس وأخيراً نجح الفرسان البيزنطيون في اختراق صفوف الوندال ، وتمكنوا من قتل ترازون أخى الملك . وأمام هذا المشهد المفجع ، تنازل جليار تخاذلاً أنساه واجبه كقائد للجيش ، وانهار انهياراً تاماً ، فركب جواده وانطلق به خارج ميدان المعركة ، بينما واصل رجاله القتال متراجعين إلى أن قطع عليهم البيزنطيون خط الرجعة وأبادوهم في هذه المعركة (١) . أما جليار فقد اعتصم بأعلى جبال نو ميديا في موضع يعرف باسم مونت بابو Mont Pappua (٢) ، حيث أقام عند بعض أنصاره من البربر . وذاق جليار مر العيش أثناء إقامته هناك بسبب قلة القوات في هذه المنطقة الجبلية وشدة البرد . وكانت قوات بليزاريوس قد جاءت في أثره بقيادة فاراس الهريولى ، وحاصرتة . وحاول فاراس إغراء جليار بالتسليم ، وذكر له أنه يعتز على الرغم من نبل أصله بكونه خادماً للإمبراطور ، ولكن جليار رفض التسليم ، وتوسل إلى فاراس أن يرسل إليه ثلاثة أشياء : قيثارة ، ورغيف من الخبز ، وقطعة من الاسفنج . أما الرغيف فلأنه لم يسبق له أن شاهد رغيفاً مخبوزاً بهذا الجبل ، وأما قطعة الاسفنج ، فلأن عينيه كانتا متورمتين ، وأما القيثارة فلأنه كتب قصيدة يرثي بها لجال نفسه ، ويأسف على ما أصابه من بؤس ، وهو لذلك يرغب فى تلحينها على أوتار القيثارة ، إذ كان بارعاً فى هذا الفن . وأمام هذا التوسل لم يجد

(١) Oman, p. 79 - Percy Ure, p. 29 - Julien, p. 259

(٢) Cambridge Medieval History, p. 13

فأراس بدا من إجابة مطلبه (١). ثم حدث أن شاهد جليمار بأعلى الجبل طفلين قد أضناهما الجوع يقتتلان من أجل لقمة من الخبز، فلم يحتمل جليمار هذا المشهد وآثر أن يستسلم لأعدائه على أن يبقى في هذا العذاب ويذكر بروكوبيوس أنه عندما أحضر أخيرا في أسره أمام بليزاريوس انفجر يضحك ضحكا متواصلا، حتى ظن الحاضرون أنه فقد السيطرة على عقله (٢). وكانت قوات البيزنطيين قد تفرقت في أنحاء المغرب لفتح كلة، كما أرسلت بعض الفرق إلى جزر سردانية وقورشقة والبلبار، وبعضها إلى شرشال وطينجة. وتم للبيزنطيين على هذا النحو استرجاع معظم بلاد المغرب والقضاء نهائيا على دولة الوندال. إلا أن جيوش الامبراطورية لم تنجح في التغلغل إلى داخل مورطانية القيصرية والطينجية. وعاد بليزاريوس إلى القسطنطينية في موكب هائل من أسرى الوندال، وفي مقدمتهم الملك جليمار، وذلك في ربيع سنة ٥٣٤. وكانت سفنه محملة بكل روائع وتحف القصر الملكي في قرطاجنة، وتضم الغنائم التي كان قد جمعها ملوك الوندال طوال قرن من الزمان من غاراتهم الموفقة على رومة وعلى جزر البحر المتوسط. وقد قيل إن الامبراطور تعرف بين تلك التحف التي حملها إليه بليزاريوس على حسك (شمعدان) ذي فروع سبع، وكان من بين الكنوز التي نهبها طيطس قيصر من معبد بيت المقدس، وحملها إلى رومة، وظل برومة إلى أن أغار جنصريك عليها واستولى على هذا الحسك. ولقد أمر جستنيان بإعادته إلى موضعه من

(١) Percy Ure, p. 30

(٢) Ibid.

كنيسة الضريح المقدس بيت المقدس (١). ولما أحضر جليمار أمامه أبدى
الأسف على ما فرط منه من غرور كاذب ، وقد عامله الامبراطور معاملة
كريمة ، فنجحه إقطاعا ، وأذن له بالاقامة في جالاتيا مع أسرته . ولما عرض
عليه أن ينبذ الآريوسية ليحظى بالقباب الشرف والسؤدد رفض ذلك
باباء وشمم .

(٢)

المشاكل التي واجهها البيزنطيون في المغرب

١ - ثورات البربر :

باستسلام جليمار سقطت دولة الوندال ، وأصبح المغرب تابعا بطبيعة الحال للامبراطورية البيزنطية . ولكن فتحا يتم بهذه السرعة الزمنية لا يمكن أن تكتب له أسباب الدوام فهو فتح وهمي غير حقيقي ، لأن بليزاريوس أغفل أمرا هاما كان لابد أن يحسب له حسابا كبيرا ، وهو سكان البلاد ، الذين ساعدوا من قبل على إدخال الوندال ، وهم أنفسهم الذين ساعدوا على إسقاطهم ، وهم الذين سيساعدون فيما بعد على إسقاط البيزنطيين . ولم يكد يمضي عامان على احتلال البيزنطيين للمغرب حتى احتدمت في البلاد نار الثورة وظلت بلاد المغرب فيما بين عامي ٥٣٥ ، ٥٤٨ شعلة تضطرم ، وقد بذل أفضل قواد الامبراطورية (بليزاريوس وجرمانوس وصولومون وتروجلينا) جهودهم عبثا ، خلال خمس وعشرين سنة لإعادة السلام في ربوع البلاد ، ولما نجحوا في ذلك أخيرا في منتصف القرن السادس ، كانت الولايات المغربية قد هجرها سكانها وشملها الخراب ^(١) . ونلاحظ أن كل من بليزاريوس ، منذ وطئت قوات البيزنطيين أرض المغرب ، وجليمار ، حاول أن يجتذب إليه سكان البلاد بكافة الوسائل ، ومع أنه نجح في كسب عدد كبير الفلاحين إلا فارقة إلى جانبه ، بفضل ما كان يقدقه عليهم من هبات تزيد أو تنقص بقدر ما كانوا يقتلون من الجنود البيزنطيين ، إلا أنه أخفق بالرغم من

ذلك في ضمان مقدار المساعدة الفعلية التي يمكن أن يقدمها له رؤساء القبائل. ويذكر بروكويوس أن هؤلاء الرؤساء أسرعوا بتقديم ولائهم وحلفهم لبلزار يوس عن طريق الرهائن ، وفي مقابل ذلك أكد لهم بلزار يوس سلطاتهم بأن أرسل إلى كل منهم صولجانا من الفضة المذهبة ، وتاجا من الفضة يزدان بعصائب بارزة ، ومعطفا أبيض له مشبك من الذهب ، وسروالا أبيض وحذاء موشى بالذهب ، هذا بالإضافة إلى مبالغ كبيرة من المال غمروهم بها . ومع ذلك ، اكتفى هؤلاء الرؤساء بأن وعدوا بنصرته بعد أن ينجلي الموقف (١)

ونجحت سياسة بلزار يوس نجاحا لم يكن في الحسبان ، وقدم إليه البربر بعد استيلائه على قرطاجنة فروض الطاعة والولاء ، فاطمأن إلى جانبهم ، ووثق في انضوائهم إليه ، وما كاد يغادر المغرب إلى القسطنطينية حتى أشعل بربر ييزاسين ونوميديا ، بقيادة كوتزيناس Coutzinas وإيفيسداياس Ifisdaias نار الثورة على البيزنطيين (٢). ومنذ ذلك الحين لم يذق البيزنطيون طعم الراحة ، وكان جيشهم قليل الدربة على حرب البربر ، ولكنه كان مع ذلك أفضل في هذا النوع من الحروب من جيش الوندال ، إذ كان يضم قواسين ورماة السهام حذقوا هذا الفن الحربي من كثرة احتكاكهم بالفرس .

وإلى جانب هذا الخطر الذي تمثله قبائل البربر الحضر بنوميديا ، كان

(١) Julien, p. 263

(٢) Pellegrin, p. 90

هناك خطرا آخر يتمثل في قبائل البربر البدو ، الضاربين في الصحراء ، وخاصة في إقليم طرابلس ، فقد تعددت غاراتهم منذ عصر صولومون (١) .

وعلى هذا النحو كان سلطان البيزنطيين في المغرب لا يتجاوز حدود إفريقية القتصلية ويزاسين وسواحل إقليم طرابلس . أما نفوذهم على سائر أنحاء المغرب فقد كان غير ثابت ، إذ كانت قبائل البربر في الأطراف تحيا حياة شبه مستقلة ، فكانت تنصل من التبعية لأي سلطان أجنبي .

ب - النزاع الديني :

حدثت في أيام جان تروجليتا Jean Troglita ، الحاكم البيزنطي على المغرب فتنة تعرف بالفصول الثلاثة Trois Chapîtres ، دفعت جانبا كبير من الكنيسة الإفريقية ضد بيزنطة . فقد كان مجمع خلقدونية قد أصدر قبل ذلك بقرن (أي سنة ٤٥١) قرارا بادانة مذهب نسطورس أسقف القسطنطينية الذي كان يقول بأن للمسيح طبيعتين : إلهية وبشرية ، والذي يقول أيضا بأن العذراء مريم كانت أما للمسيح باعتباره بشرا لا إله . كذلك أدان مجمع خلقدونية مذهب الطبيعة الإلهية الواحدة (٢) . ولم تنجح قرارات مجمع خلقدونية في فض النزاع واستقرار السلام ، وظل النزاع الديني قائما حتى أيام جستنيان . وكان

(١) Julien , p. 264

(٢) Julien, p. 270

جستنيان يرمى إلى السيطرة على شؤون الدولة والكنيسة معا ، بمعنى أن يجمع بين كونه امبراطورا وبابا شرقيا . لذلك عمل على إيجاد وحدة دينية في الامبراطورية البيزنطية ، أى توحيد جميع رعايا العالم البيزنطى فى ظل كنيسة واحدة يشرف هو عليها (١) ، وفى سبيل ذلك حارب الملحدين ، وأمر سنة ٥٢٩ باغلاق جامعة أثينا حيث كان يعمل بها فى الخفاء بعض الاساتذة الوثنيين (٢) . غير أن أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة المعروفين باسم المونوفيزيت ، انشقوا فيما بينهم على أيامه ، وأرادت الامبراطورة تيودورا التى كانت تميل إلى المذهب المونوفيزيقي أن توحد بينهم ، فأمرت عن طريق زوجها بتحريم ثلاثة نصوص أو رسائل كان قد كتبها فقهاء ثلاثة هم : تيودور دى موبوسقى ، وتيودورى دى سير ، وإيباس دى إيديسيا ، لم يكن جمع خلقدونية قد أقر إداتها . فصدر فى سنة ٥٤٤ مرسوم امبراطورى أدان فيه هؤلاء الفقهاء الثلاثة ، ويعرف هذا المرسوم باسم الفصول الثلاثة . وعندما عارض البابا فيجيليوس (٣) هذا القرار ، سيق إلى القسطنطينية سنة ٥٤٧ ، ولم يلبث تحت الضغط الشديد أن انثنى أمام رغبة جستنيان وتيودورا . وفى سنة ٥٤٨ ضم صوته إلى أصوات البطارقة الشرقيين الأربعة ، وأصدر إدانة للفصول الثلاثة تعرف باسم Judicatum (٤) ، وأعلنت المسيحية فى الغرب احتجاجها الشديد لهذا القرار ، وكان صدها عميقا فى المغرب ، فتولى

(١) سميذ عاشور ، أوربا فى العصور الوسطى ، مج ١ ، ص ٩٤ .

(٢) Ch. Diehl, Histoire de l' Empire byzantine, p. 40

(٣) كان الامبراطور جستنيان قد نصبه بعد أن عزل البابا سيلفريوس .

(٤) Vasiliev, Histoire, t. I, p 201

المعارضة الأسقف بونتيانوس والعالم فراندوس القرطاجنى ، وانعقد مجلس دينى فى قرطاجنه وأصدر قرارا بحرمان البابا من الايمان المشترك إلى أن يعلن توبته (١) .

وأمام هذه المعارضة الشديدة بدأ البابا فيجيليوس يتردد فى قراره ، وأخيرا سحب قرار الإدانة الذى أصدره من قبل فى سنة ٥٤٨ . وفى هذه الظروف قرر جستنيان عقد المجمع المسكونى الخامس . وعندما انعقد المجمع فى ٥ مايو سنة ٥٥٣ بحضور الامبراطور ، اعتذر البابا عن الحضور . وقام أعضاء المجمع بدراسة أبحاث الفقهاء الثلاثة ، وانتهوا أخيرا باقرار سياسة جستنيان الدينية ، وإدانة تيودور أسقف موبوسى ، كما أدان أبحاث تيودورى وإيباس (٢) . وعندئذ بدأ جستنيان يمارس سياسة تقوم على اضطهاد من وقف ضد إدانته للفصول الثلاثة . وعاقب البابا فيجيليوس بنفيه فى إحدى جزر بحر مرمرة ، ولما وافق البابا أخيرا على توقيع قرار الإدانة أذن له جستنيان بالعودة إلى رومة ، ولكنه توفى أثناء عودته ، فى سراقوصة .

وكان رد فعل قرارات المجمع المسكونى عنيقا ، فقد أعلن الأسقف فاكوندوس دى هرمين بالقسطنطينية بكتابات وخطبه حربا شعواء على الامبراطور ، ولم يلبث أن قدم لتأييده عدد من قساوسة قرطاجنة . ولم يتردد

(١) Julien, p. 270

(٢) Cambridge Medieval History, Vol. II, p.46 et 59.-Percy

Ure, p. 159 -Ch. Diehl, histoire de l'Empire byzantine,

سميد عاشورس ٩٠-١٠٩ p. 40 - Diehl, Histoire du moyen âge,

جستنيان في استخدام العنف ، فاستدعى رؤساء أسقفية قرطاجنة إلى القسطنطينية ، ووضع حدا لمقاومتهم بفضل سياسته القائمة على الترغيب والترهيب ، وأبدل المتزمتين منهم برجال مخلصين له . ولم تلبث إفرقية التي كانت قد أدانت البابا الحانت أن جرفها التيار ، ونسج عن ذلك تشدق البابا بلاجيوس سنة ٥٦٠ باجماع الآراء على إدانة الفصول الثلاثة (١) .

(١) Cambridge Medieval History, p. 48-Julien, pp. 270, 571.

(٣)

ولاية بزنطة في المغرب في عصر جستنيان

١ - صولومون (٥٣٤ - ٥٣٦)

قبل أن يعود بليزاريوس إلى القسطنطينية . عهد بقيادة القوات البيزنطية في المغرب إلى صولومون الخصى ، وكان قائدا من أعظم قواده ، وقد ترك له بليزاريوس جيشا ، تضخم بعد ذلك عندما أرسل إليه الامبراطور جستنيان مددا ، فأصبح الجيش البيزنطي يضم نحو ١٨ ألف مقاتل . وقد واجه صولومون كثيرا من الصعاب على أثر توليته القيادة العامة ، فقبائل البربر كانت تحتاج نوميديا ، تحت قيادة إيابداس Iabdas ملك جبل أوراس ، كما قام البدو في إقليم بيزاسين بقيادة كوتزيناس Cutzinas وثلاثة آخرين من زعماء البربر بالإغارة على إفريقية ، وتمكنوا من إبادة فرقة فرسان الهون . فاضطر صولومون إلى الاشتباك معهم في حرب طاحنة في موضع يقال له مامة أو ممس أو ساقية ممس Mamma ويقع بين سببية والقيروان في شعاب جبال تبسا ، انتهت بهزيمة البدو هزيمة شنعاء (١) ، إذ تمكن البيزنطيون من اختراق حلقة الجمال التي يتحصن وراءها البدو ، ثم أذرعوا فيهم بالسيوف حتى قيل أنهم قتلوا نحو عشرة آلاف من البربر ، وسبوا عددا كبيرا من النساء (٢) . ومع ذلك فإن هذه الهزيمة التي منى بها البدو لم تمنعهم من جمع شملهم من جديد ، والإغارة على إقليم بيزاسين . ولم يجد صولومون بدا من

(١) Julien, p. 265

(٢) Julien, p. 265

مقاتلتهم ، فأحرق بهم جنوبي بيزاسين ، قريبا من حدود نوميديا ، وانتصر عليهم انتصارا حاسما على سفح جبل بورجان في سنة ٥٣٥ ، وقيل أن عدد قتلى البدو بلغ خمسين ألفا (١) .

وما إن انتهى صولومون من إخماد ثورة البدو حتى أرسل فرقة من جيشه لمهاجمة إيابداس في أوراس . وكانت هذه الفرقة تضم جماعة من البربر المواليين للبيزنطيين يتزعمهم رجلان هما ماسوناس Massonas وأورتاياس Ortaias كانا خصمين لدودين لإيابداس . ويبدو أن صولومون تشكك في ولاء هذين الزعيمين ، ولم يثق فيهما في هذه المهمة ، فأمر بارسال مدد لنجدة الفرقة . وقبل أن يغادر المدد المطلوب مدينة قرطاجنة حدث تمرد في صفوف الجيش البيزنطي .

وكان الجيش البيزنطي تنقصه الوحدة والنظام إذ كان يتألف من أخلاط غير منظمة وفئات مختلفة الأجناس (٢) ، وكان صولومون قائدا فظا يعامل جنده معاملة الرقيق ، كذلك كرهه جنوده وحقد عليه ضباطه . وكان لا يدفع لعسكره مرتباتهم مما حملهم على نهب الغنائم ، وعلى الإغارة على المزارع باسم الامبراطور .

واقترنت حركة التمرد في الجيش بثورة قام بها الأهالي ، إذ كانوا يثنون من الضرائب الثقيلة التي كان يفرضها عليهم الحاكم الروماني ، مستعملا في جبايتها كل وسائل العنف . فزاد الاضطراب شدة ، وأدى ذلك في النهاية إلى قيام الأهالي بهذه الثورة العارمة سنة ٥٣٦ . وكان صولومون وقت قيام

(١) Pellegrin, p. 90 - Julien, Ibid.

(٢) Pellegrin, p. 90 - Julien, p. 265

التمرد والثورة في بازيليكية قرطاجنة يحتفل بعيد الفصح ، فاضطر إلى الفرار إلى صقلية ، واستنجد هناك بـ بليزاريوس .

نصب الثوار على أنفسهم ضابطا منهم كان معروفا بشجاعته الفائقة يعرف باسم استوزاس Stozas ، ونجح هذا التأثير الفذ في اجتذاب جميع ضحايا البيزنطيين : من جنود صولومون ، ومن عساكر الوندال الذين فروا من المشرق ، ومن بربر نوميديا (١) ، وكون جيشا من هؤلاء عدته ثمانية آلاف مقاتل، وأقبل بهذا الجيش لضرب الحصار على قرطاجنة . أسرع بليزاريوس بالهجوم إلى قرطاجنة . وتمكن بفضل وجوده من أن يحبط هجوما شنه المتمردون ، على قرطاجنة . ولم يكن معه عند وصوله إلى هذه المدينة سوى مائة من الجنود ، انضموا إلى القوة الباقية على ولائها لبيزنطة ، وكانت هيئة بليزاريوس عظيمة لدرجة أن المتمردين عندما علموا بقدومه إلى أرض إفريقية ولوا هاربين إلى بولارجيا ، فترصدهم بليزاريوس عند مجازي الباب (ممراسا) على وادي مجردة حيث هزمهم هزيمة نكراء ، وقضى على معظمهم (٢) ، وفر استوزاس على أثر هزيمته مع فل جيشه إلى نوميديا حيث اعتصم بجبالها ، ولم يتمكن بليزاريوس من مطاردته بسبب قلة إمكاناته وضيق وقته . وقبل أن يعود إلى صقلية، أمر باعتقال صولومون ، وقلد على القيادة العليا للجيش البيزنطي ضابطين كبيرين هما الديجر Ildiger وتيودور الكابادوكي Théodore de Capadoce . أما صولومون فقد أرسله إلى القسطنطينية للتحقيق معه (٣) .

(١) Pellegrin, p. 90 - Julien, p. 266

(٢) Cambridge Medieval History,

vol. 11, p. 13 - Julien, p. 266.

(٣) Pellegrin, p. 91

وازداد الموقف سوءا على أثر تمرد الجند مرة ثانية على ضباطهم ، وكان لابد لجستينان من وضع حد لهذه الثورة ، فأسرع بتولية ابن عم له يدعى النبيل جرمانوس على القيادة العامة للجيش بافريقية ، ومنحه سلطات استثنائية لمواجهة الموقف^(١) .

ب - ولاية جرمانوس (٥٣٦ - ٥٣٩)

كان يتمتع بشهرة حربية واسعة ، ولذلك وقع عليه اختيار جستينان للقضاء على حركة التمرد في الجيش . وكان على جرمانوس أن يقوم أول كل شيء بتهدئة خواطر الجنود ، فخفف القيود عنهم ، واستنكر السياسة الوحشية التي جرى عليها صولومون ، ونصب نفسه حاميا لجنوده ، ووعد الثوار من البربر بالرفق في معاملته لهم ، كما وعد جنوده بدفع مائتاخر من مرتباتهم ، بما في ذلك ما اقتطع منها أثناء حركة التمرد : ونجحت سياسته نجاحا لم يكن في الحسبان . وهكذا قضى على حركة التمرد في صفوف الجيش ولم يبق أمامه سوى استوزاس الذي لم يجد أمامه بعد أن تفكك جيشه بعودة الجند إلى ثكناتهم إلا استخدام عنصر المفاجأة في الاستيلاء على قرطاجنة . ولكنه فشل في محاولته ، واشتبكت قواته مع جيش جرمانوس في موقعة دارت في سيلاس فاتاري Cellas Vatri بنوميديا ، وكان لامتناع إيابداس وأوتاباس عن مساعدة استوزاس أثر كبير في تحول مصير المعركة إلى صالح جرمانوس ، وانتهى الأمر بانسحاب استوزاس وجماعة من الوندال إلى مورطانية حيث تزوج ابنة أحد زعماء البربر^(٢) .

(١) Julien, p. 266

(٢) Ibid. p. 266

ويبدو أن جرمانوس لم يف بوعوده للعسكر البيزنطى ، وتبين لهم أنه خدعهم ، ونجح ما كسيمين Maximin فى إثارتهم من جديد بقرطاجنة ، ولكن جرمانوس استطاع أن يقمع الحركة قبل أن يستفحل خطرهما ، وشنق مثيرها ، ومدبرها .

ورأى جستنيان أن جرمانوس قد أدى مهمته ، فأعاد صولومون إلى ولاية المغرب للمرة الثانية ، على الرغم من اعتباره المسؤول الأول عن الفوضى والاضطرابات التى احتدمت فى ولايته فى إفريقية .

ج - ولاية صولومون الثانية (٥٣٩ - ٥٤٤)

عزم صولومون هذه المرة على القضاء نهائيا على أعدائه الأبديين وهم جماعة البربر المحتشدين بجبل أوراس ، فخرج فى سنة ٥٤٠ على رأس جيش كثيف وضرب معسكره فى سفح هذا الجبل بالقرب من نهر أبيجاس Abigas (١) (المعروف اليوم بوادى بورغال) ، فمن هذا الجبل كان بربر نوמידيا ويزاسين يشنون هجماتهم ويثنون غاراتهم على قرطاجنة . ولم تلبث قوات صولومون أن اشتبكت مع إيابداس فى معركة عنيفة انتهت بهزيمة إيابداس ، وفراره إلى مورطانية (٢) . وسار صولومون عقب ذلك مطاردا فلول إيابداس فى الجبال وتمكن من تدمير تحصينات طومار المنيع الواقعة بأعلى قمم أوراس . وأخيرا هاجم صخرة جيمينيانوس Geminianus الحصينة حيث أخفى إيابداس نساءه وكنوزه .

(١) Ibid. p. 267

(٢) Pellegrin, p. 94

نجحت حملة صولومون نجاحا منقطع النظير ، وأكد صولومون هذا النجاح بشبكة من القلاع أقامها في عجلة في قلب إقليم أوراس بنوميدا ومورطانية القيصرية . فأقام لتبرسق وباجة ودوجا وتونجا ولمطة قلاعا حصينة لوقوعها في داخل المناطق الغنية بالقمح والماشية . ومن بين القلاع الهامة التي أقامها ، وما تزال آثارها قائمة ، قلعة حيدرة ويبلغ طولها نحو ٢٠٠ مترا ، وعرضها ١١٠ مترا وارتفاع أسوارها يتراوح ما بين ٨ ، ١٠ مترا وسلك هذه الأسوار متران . وكانت تشتمل على ثكنات حربية وعلى دور وأبراشية وخزانات للمياه (١) . ولقد أدى هذا النظام الدفاعي الذي وضعه صولومون خدمات جليلة لإفريقية ، ولكنه لم يكن كافيا لإيقاف غزوات البربر المتواصلة .

ثم كانت الكارثة التي أدت إلى مصرعه في سنة ٥٤٤ ، فقد توسط عند الامبراطور جستنيان لكي يعين له ابن أخيه سرجيوس دوقا على إقليم طرابلس . ولم يكن سرجيوس جديرا بهذا المنصب ، إذ كانت تنقصه الواقعية والفهم وتقدير المواقف ، وكان مغرورا بنفسه متجبرا ، يظن أنه لكي يحتفظ بهيبته لابد له أن يحكم البلاد بيد من حديد (٢) . واستاء الأهالي من سياسته القائمة على البطش والإرهاب ، وأرسلوا وفدا من ثمانين عينا من أعيانهم يشكون إليه ما أصابهم من تعسف جنوده ، وما لاقوه على أيديهم من نهب محاصيلهم ، وسلب أموالهم . وبدلا من إنصافهم ، تصرف تصرفا مشينا ، فأمر حرسه بقتلهم جميعا ، ظنا منه أنه يستطيع بهذا التصرف الاجرامى

Ibid. (١)

Julien, p 267 (٢)

أن يفرض سيطرته على الأهالي . وكانت هذه المذبحة الشرارة الأولى لثورة عارمة ، فقد تارت قبيلة لواته على أثرها ، واختار الثوار أحد زعمائهم ويسمى أنطالاس زعيما لهم . وكان أنطالاس يعمل في خدمة الامبراطورية البيزنطية طوال عشر سنوات ، ولكن صولومون قطع عليه أرزاقه بعد أن تغلب (أى صولومون) على إيابداس ، ولم يكتف صولومون بذلك بل قتل أخاه ، وعندئذ لم يجد أنطالاس ، وقد أعماه الغضب ، بدا من نبذ صداقته للبيزنطيين ، وتولى القيادة الثورية .

واشتبك صولومون مع البربر في سيليام Gillium (القصرين) ، ولكن قواته خذلته لتقتيره عليهم في الأرزاق ، وأحاط الثوار البربر به وبمن والاه من رجال جيشه وقضوا عليهم قضاء مبرما . وسقط صولومون في هذه المعركة صريعا . أما سرجيوس فقد اعتصم بأسوار قرطاجنة .

د - ولاية سرجيوس وأريو بندوس واستحكام الفوضى في البلاد:

كان من الطبيعي أن يتدارك الامبراطور الموقف ، فيقتلع جذور الفساد قبل أن تضيع منه بلاد المغرب ، ولكنه على العكس من ذلك ذلك واصل استخدام المسؤولين عن تلك الكوارث ، ذلك أنه اعتبر أى تغيير في سياسته بالمغرب ضعفا ، يمس من هيبة الامبراطورية وكرامتها . وعلى هذا الأساس نصب جستنيان على قيادة جيوش المغرب سرجيوس نفسه مكان صولومون ، وكان رجال الجيش يجمعون على كرهه لخشونته وقسوته ، كما كان السكان يبغضونه لظلمه وجوره . ورأى الامبراطور أن يدعم الحكم البيزنطى بقائد آخر ، فأقام النبيل أريو بندوس مع سرجيوس في القيادة العامة للجيش البيزنطى . وكان أريو بندوس ضعيفا ، طاعنا في السن ، وكانت

تنقصه الكفاية ويعوزه الحزم . والواقع أن الامبراطور أخطأ خطأ فاحشا بتعيينه قائدين يفسد كل منهما سياسة الآخر ، فيتعهد إحباط مشاريع زميله ، وكان الموقف يستلزم قيادة موحدة ، أو رئيسا واحدا يتميز بمضاء العزيمة ، وقوة المراس ، لإيقاف تقدم قبيلة لواتة وبطونها ، وقبائل أنطالاس التي انضمت إليها حشود مورطانية بقيادة استوزاس .

كان على كل من سرجيوس وأريوبندوس مهمات محدودة يجب أن يقوم بها كل منها فورا . فكان على سرجيوس الإشراف على نوميديا ، كما كان على أريوبندوس الإشراف على قرطاجنة ويزاسين . ولكن سرجيوس كان يعتبر زميله منافسا له ، ولذلك أضمر له الحقد ، وعمل على إزالته . فلما استنجد أريوبندوس بزميله سرجيوس ، تصامم هذا عن سماع ندائه ، ولم يهب لنجدته ، وترك البربر يسحقون جيشه في تاسيا (برج المسعودي ، بين تبرسق والكاف) في أواخر سنة ٤٥ هـ دون أن يسعى لإنقاذه (١) وعلى الرغم من هزيمة أريوبندوس فقد أسفرت الموقعة عن مقتل استوزاس البربري . وعلى أثر هذه الهزيمة استدعى جستنيان سرجيوس إلى القسطنطينية ، بينما أقام أريوبندوس في بداية عام ٤٥٦ قائدا عاما لجيش الاحتلال وحاكما عاما على المغرب . ولكن قائدا من قوات نوميديا واسمه جثناريس أراد أن يستغل الموقف ليحل محل أريوبندوس . وتمكن جثناريس من دخول قرطاجنة ، فاضطر أريوبندوس إلى الاحتماء في دير حصين يقع قريبا من المرفأ ، وهناك قبض عليه جثناريس واحتز رأسه وأرسلها إلى أنطالاس زعيم نوار البربر اللواتيين ، توددا له ، وسعيا لكسب صداقته .

وأثار مصرع أريوبندوس عاصفة من السخط . على قائله ، وثارت نحوه أحد قواد الامبراطورية ويدعى أرتوبانس الأرميني ، فقبض على جنثاريس وأمر بإعدامه وإعدام أنصاره من مثيرى القلاقل والفتنة ، وقد كافأه الامبراطور على هذا العمل الجريء بأن نصبه قائدا عاما للجيش البيزنطى ، كما ولى أثناس حاكما على بلاد المغرب . وتضافرت جهود كل منهما فى سبيل تهدئة الخواطر ، وفى سبيل مواجهة الخطر الكبير الممثل فى شخص أنطالاس . فقد كان أنطالاس يعد عدته للاستيلاء على قرطاجنة ، ولكن الفوضى كانت قد استحكمت فى البلاد ، وعجز القواد عن السيطرة على الجيش ، وأخذ البربر يغرون على الولايات . وأخيرا عزم جستنيان على وضع حد لهذه الفتنة ، فاستدعى من الجبهة الشرقية قائدا من أعظم قواده يدعى جان تروجليطة ، وعهد إليه بحكومة إفريقية فى نهاية سنة ٥٤٦ (١) .

• جان تروجليطة واخماد الثورة ٥٤٧ - ٥٦٣ :

يعتبر جان تروجليطة ثالث بطلين لها الفضل الأعظم فى تدعيم النفوذ البيزنطى فى المغرب هما بليزارىوس وصولومون . قدم تروجليطة إلى إفريقية ومعه فرقة من الفرسان استقدمها من القسطنطينية لتعاونته فى مهمته العسيرة . ولقد نجح تروجليطة فى مهمته نجاحا تجاوز كل تقدير فى الحسبان ، وكانت له معارك ظافرة مجدها الشاعر كوريباس Corippus فى ملحمة المعروفة

باسم لاجوهانيد La Johannide نسبة إليه . وفي هذه الملحمة زودنا بأخبار تاريخية واثنوجرافية على جانب كبير من الأهمية ، ولهذا السبب اعتبره العلامة جزل مؤرخا قبل أن يكون شاعرا .

رأى تروجليطة أنه لا يستطيع أن يواجه أعداءه مجتمعين ، فاصطنع سياسة قوامها التفريق بينهم ثم مواجهة كل فريق على حدة . ولذلك أرسل إلى بعض قبائل البربر يساومها على التزام الحياد بالنسبة للثوار ، وعدم التدخل في الصراع بينه وبين هؤلاء الثوار . ونجح في عقد تحالف مع الزعيمين كوتزيناس وإيفيسداياس وذلك في بداية عام ٥٤٧ . ثم عمل على مهاجمة أنطالاس ، واشتبك معه أخيرا في معركة وقعت بين سوسة وسيطة ، انتهت بهزيمة أنطالاس هزيمة نكراء ، واسترد تروجليطة على أثر ذلك كل مدن بيزاسين^(١) .

وما إن انتصر على أنطالاس حتى بلغته الأخبار بزحف قبائل البربر الضاربة على حدود طرابلس ، بقيادة كاركاسان Carcassan . فآثر الخروج للقائهم ، وإيقاف تقدمهم ، ونجح في هزيمتهم بالقرب من قابس ، وطاردهم في جوف الصحراء . ولكن جنوده - وقد أمضهم التعب ، وأرهقتهم حرارة الصيف ، امتنعوا عن السير إلى أبعد من ذلك ، ولم يجد تروجليطة بدا من التقهقر نحو قابس . وفي الطريق تمكنت قوات كاركاسان من تطويق الجيش البيزنطي بالقرب من ماريت Mareth ، وكبدته خسائر كبيرة في الأرواح . واستطاع تروجليطة أخيرا أن يقود بقايا جيشه إلى يونجا Yonga ويحصن

في قلعتها التي نشاهد آثارها حتى اليوم . ثم سار من هناك إلى الأربس حيث تلقى مددا من قرطاجنة ومن أمراء البربر الذين ظلوا موالين له . وهناك أعاد تنظيم قواته ، فلما أتم ذلك شن هجوما عنيفا على قوات كاركاسان وأنطالاس اللذين تحالفا معا ، واشتبك معهما في موقعة كاتون . وانهار جيش البربر أمام دفع البيزنطيين ، ولم تلبث صفوفه أن تمزقت ، وانهزم البربر هزيمة مخزية ، قتل فيها كاركاسان و ١٧ من خيرة قواده ، واستسلم أنطالاس .

وهكذا أحمد تروجليطة ثورة البربر في أوائل عام ٥٤٨ ، ونشر الأمن في ربوع البلاد ، فكافأه الامبراطور على ذلك بأن منحه لقب نبيل Patrico ، وشغل تروجليطة زهاء ١٥ سنة في تحصين البلاد والدفاع عنها (١) .

ثم بدأ اسم جان روجاتينوس يظهر منذ سنة ٥٦٣ كممثل للامبراطور في قرطاجنة بعد جان تروجليطة ، ولم يكن هذا القائد الجديد في كفاية سلفه في الشؤون السياسية والحربية ، فقد أمر بقتل كوتريناس في هذه السنة . وأثار مقتل هذا الزعيم البربري الفتن من جديد ، واضطربت نار الثورة في نوميديا ، واضطر الامبراطور إلى إرسال مارسيان (ابن أخى الامبراطور) مع جيش بيزنطى جديد لمواجهة غارات البربر الذين نهبوا البلاد ، ودمروا المزارع ، وقضوا على العمران .

(١) Cambridge Medieval History, p. 14 - Pellegrin, p. 93 -

Julien, p. 269.

و - كلمة نقد على سياسة البيزنطيين في المغرب في عصر جستنيان :

في سنة ٥٦٥ توفى الامبراطور جستنيان بالقسطنطينية بعد عهد طويل ازدهرت فيه البلاد ، وتألفت الحضارة البيزنطية تألقا لم تشهده من قبل . ولقد اتبع جستنيان في الغرب سياسة تقوم على إعادة الامبراطورية الرومانية إلى مثل ما كانت عليه من اتساع ، وفي سبيل ذلك عمل على بسط النفوذ البيزنطي في بلاد المغرب وإيطاليا وإسبانيا . ولا يهملنا من سياسة جستنيان إلا ما يخص المغرب موضوع البحث .

لم يكن الفتح البيزنطي للمغرب ، على الرغم من مظهره ، فتحا حاسما وإنما كان في حقيقة الأمر غير قائم على أساس متين ثابت ، فقد ظل النفوذ البيزنطي مزعزعا في البلاد على الرغم من قيام قواد الدولة البيزنطية بحملات موفقة أحيانا ضد البربر ، وعلى الرغم من إنشاء التحصينات الحربية والقلاع التي أقيمت سريعا للدفاع عن إفريقية ، وعلى الرغم من الإدارة البيزنطية المنظمة ، ومن وجود بعض القادة الممتازين الذين تمكنوا من المحافظة على هيبة الامبراطورية في المغرب أمثال بليزارىوس ، وجرمانوس ، وجان تروجليطة . أما عن أسباب ضعف هذا النفوذ البيزنطي ، فترجع إلى إسراف بليزارىوس في بذل الأموال على زعماء البربر لشراء ولائهم له ، منذ الأيام الأولى للفتح ، وإلى وحشية بعض القادة البيزنطيين أمثال صولومون ، وإلى تخطيط سياسة سرجيوس وعدم كفاية أريوبندوس في الشؤون الإدارية والحربية ، وإلى احتكار الأراضي ، ونهب الجند وقوادهم وحكام البلاد للأهالي ، وإلى الاضطهادات الدينية ، وإلى الفوضى المتأصلة في صفوف الجيش ، وإلى اصطناع البيزنطيين لسياسة

تحويل المزارعين إلى طبقة من أنصاف الرقيق ، وإلى الضرائب الثقيلة التي كانوا يرهقون بها سكان البلاد .

وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد كانت هيئة جستنيان في حد ذاتها كفيلة بتأخير الكارثة المحتومة ، التي تنبأ بها بروكوبيوس نفسه (١) .

(٤)

اضمحلال النفوذ البيزنطى فى المغرب بعد جستينيان

١- فى عصر الامبراطور جستين الثانى (٥٦٥ - ٥٨٧) وطيبيريوس
(٥٧٨ - ٥٨٢) :

ترك جستينيان الامبراطورية البيزنطية وقد سرت فيها عوامل الضعف والاضمحلال ، إذ أرهاقها ، وأجهد خزائنها بسبب حروبه الكثيرة التى خاضها فى الغرب والشرق . وعلى الرغم من أن جستين الثانى كان يتمتع بحيوية كبيرة إلا أنه لم يقو على مواجهة الفرس والآقاريين والهون ، فلم تمض ثلاث سنوات على وفاة جستينيان حتى كان اللبارديون قد دخلوا إيطاليا ، وتمكن القوط الغربيون من طرد البيزنطيين من أيبيريا .

اهتم جستين بشؤون المغرب الذى يبدو أنه تمتع ببعض الهدوء بفضل حسن إدارة الحاكم البيزنطى توماس ، وسياسته الطيبة إزاء البربر . ولقد حرص توماس على تعزيز وسائل الدفاع عن المغرب ، وذلك بإقامة قلاع وتحصينات جديدة . إلا أن ذلك لم يكن سوى وهما ، وكان الهدوء الذى ساد البلاد فى عهده أشبه بالهدوء الذى يسبق العاصفة ، فلم تمنع هذه الصفات الطيبة من امتداد جذور الفساد إلى شؤون الإدارة ، ولم تمنع أيضا من زيادته للضرائب لدفع مرتبات الجنود ، ولم تمنع أيضا من إغارة البربر على البلاد . ففى أيامه قام بربر مورطانية بقيادة ملكهم جارمول باكتساح البلاد خلال ١٥ سنة ، واشتبك البيزنطيون معهم فى عدة مواقع قتل فيها ثلاث من كبار قادتهم هم : تيودور (سنة ٥٦٩) ، وتيوكتيستوس (٥٧٠) ، وأما ييليس (٥٧١) . ولم تخف هذه الموجة العاتية من الاضطرابات التى سببت هجرة

عدد كبير من السكان إلى إسبانيا إلا في سنة ٥٧٨ ، عندما تمكن ضابط شجاع اسمه جناديوس من قتل جامول (١) .

هدأت الأحوال في المغرب نوعا ما في عهد الامبراطور طيريوس ، وتفصيل ذلك أن الامبراطور الجديد نصب توماس حاكم المغرب من جديد . وعمل توماس على شراء ولاء أمراء البربر ، وكسب ثقتهم ، ثم باغتهم جناديوس المذكور بالمعجوم دون سابق إنذار وذلك في سنة ٥٧٨ ، وقتل جامول بيديه . ومع ذلك فقد ظلت حالة التوتر والفوضى قائمة في البلاد لدرجة أن السكان أصبحوا لا يأمنون على أموالهم وأرواحهم ، فبدأوا يكثر من بناء القلاع في داخل الحدود (٢) .

ب - في عصر الامبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢) :

كانت الاضطرابات الناشئة في أرض المغرب سببا في تفكير الامبراطور موريس في إعادة تنظيم الولايات البيزنطية في المغرب . فولاية طرابلس ضمت إلى مصر ، وانقطعت الصلات السياسية منذ ذلك الحين بين برقة وطرابلس وبين بقية بلاد المغرب ، ومورطانية بأقسامها الثلاثة : القيصرية والشطيفية والطنجية ، أصبحت اثنتان ، الأولى تعرف بمورطانية الأولى ، والأخرى تعرف بمورطانية الثانية ، وكانت لا تضم سوى سبتة مع عدد من المدن الإسبانية وجزر البليار . أما فيما يختص بالإدارة فقد أصبح الاتجاه يرمى إلى جعل الموظفين المدنيين يتبعون العسكريين . ثم أدى الضغط

(١) Pellegriin, p. 92

(٢) Julien ,P 273

المتواصل الذى كان يمارسه المتبرمون فى إيطاليا إلى ابتكار نظام جديد للحكم يقوم أساسا على العنصر العسكرى . فالى جانب وظيفة حاكم المغرب المقيم فى قرطاجنة ، ظهرت وظيفة جديدة يشغلها شخص أقوى من الحاكم فى السلطات المخولة له ، هى وظيفة البطريق يشغلها القائد العام للجيش البيزنطى ، ويتميز هذا النظام الإدارى الجديد أيضا باحلال دوقات فى الأقاليم محل المديرين السابقين . ولكن هذا النظام الجديد ، وإن كان قد أثمر فى بداية تطبيقه ، لم يحقق الغرض من وضعه ، فقد كان تحويل إفريقية البيزنطية من ولاية إلى منطقة عسكرية نذيرا بانفصالها عن الامبراطورية (١) .

وكان أول بطارقة المغرب البطريق جناديوس الذى ذكرنا أنه تغلب على جارمول البربرى وقتله . وقد تولى هذا المنصب على أثر الثورات العنيفة التى قامت فى سنة ٥٨٧ ، وظل فى منصبه زهاء ثمان سنوات . وعلى الرغم مما أبداه من نشاط ، فإنه لم يستطع أن يمنع البربر من دخول قرطاجنة إلا بفضل حيلته . فقد كان الامبراطور قد أمره بأن يبعث إليه ببعض القوات لمواجهة المتبربرين السلاف . فاستغل البربر هذه الفرصة للقيام بالثورة وغزو إفريقية فى سننى ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، وأوشكوا على الاستيلاء على قرطاجنة . ولما لم يكن فى إمكان جناديوس منعهم من ذلك ، فقد تظاهر بقبول وجهة نظرهم ، ودعا رؤساءهم إلى حفل كبير ، ثم أمر باغلاق أبواب المدينة ، وبقتل ضيوفه . وعلى هذا النحو أرغم الغزاة بالانسحاب إلى الجبال (٢) .

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٢٢ .

(٢) Pollegriin, p. 95 - Julien, p. 273

ولكن حكومة البطريق لم تكلف نفسها بالبحث عند مصدر الخلل الذي أصيبت به الإدارة البيزنطية وتستأصله من جذوره ، بل زاد على يديها هذا الخلل ، وتشعبت جذوره ، بتسترها على مظالم الأغنياء ، وفوضى موظفي الإدارة ، وانتشار وباء الرشوة في الدواوين الحكومية ، ونتج عن ذلك انهيار القيم الأخلاقية ، واستهتار الحكومة بمصالح البلاد . ولم تكن الكنيسة بعيدة عن مجال الفساد الذي استشرى في أجهزة الدولة ، فقد أصيبت هي الأخرى بالفساد ، وانتشرت السيمونية (١) والمعاصي بين القساوسة ، وكانت هذه الكنيسة تمثل في هذه الفترة المشحونة بالفوضى ، القوة المنظمة الوحيدة التي يتطلع إليها المؤمنون ، ولكنها كانت ترتبط برومة ارتباط وثيقا ، إذ كان البابا جريجوري العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) يعتبر الكنيسة الإفريقية بنتا لكنيسة رومة يجب خضوعها تماما للأُم ، ولهذا السبب لم يكن يتدخل في الشؤون الكنسية فحسب ، بل في الشؤون الإدارية والاجتماعية أيضا ، مستهدفا من وراء ذلك محاربة المذهب الدوناتي ، الذي كان يجتذب البائسين ، والضحايا الاجتماعية للامبراطورية البيزنطية (٢) .

ج - المغرب قبيل الفتح العربي (فيما بين ٦٠٢ - ٦٤٧) :

سقط الامبراطور موريس صريعا على أثر ثورة قام بها الجيش في سنة ٦٠٢ بزعامة فوكاس ، الذي اعتلى عرش الامبراطورية البيزنطية ، ولكن هذا

(١) نغنى بالسيمونية متاجرة القساوسة بالأدوات المقدسة ، والسيمونية نسبة الى سيمون الساحر الذي أراد أن يشتري من القديس بطرس القدرة على عمل المعجزات .

(٢) Pellegrin. p. 95 - Julien, p. 274

الامبراطور الجديد كان مولعا بسفك الدماء وأعمال الإرهاب ، فسخط عليه أقرب المقربين إليه ، وأخذوا يدبرون المؤامرات والدسائس لخلعه. وكان البطريق هرقل ، القائد الأعلى للامبراطور موريس ، قد خلف جناديوس على المغرب في سنة ٦٠٠ ، وكان مواليا للامبراطور موريس ، فعز عليه أن يقتل على يدي فوكاس ، ورأى ضرورة الخروج على فوكاس ومعاداته ، وأعلن هذا الرأي صراحة عندما أقدم على حجب السفن التي خصصت لحمل القمح من قرطاجنة إلى القسطنطينية في مياه قرطاجنة . وعلى هذا النحو تطلع إليه الموتورون من فوكاس ، واعتبروه منقذا للدولة ومخلصا للشعب ، وتوالت على الكتب والرسائل تستحثه على القيام بالثورة ضد الامبراطور المقتصب . غير أنه كان طاعنا في السن لا يحتمل القيام بمثل هذه الرسالة ، فرشح لهذا المنصب ابنه الشاب هرقل . ولم يتردد هرقل الكبير ، لقوة نفوذه وشعبيته في المغرب ، عن العمل للقضاء على فوكاس ، ورفع ابنه هرقل الشاب إلى عرش الامبراطورية . فأعد جيشا من البربر بقيادة ميسيتاس (ابن أخيه) الذي تمكن من الاستيلاء على الاسكندرية فيما بين سنتي ٦٠٨ - ٦٠٩ . وفي نفس الوقت كان ابنه هرقل يقود أحد الأساطيل الحربية بقصد الاستيلاء على القسطنطينية (١) .

وتم الانقلاب بفضل وزراء فوكاس أنفسهم الذين أسلموه إلى الشعب ، فصب عليه الشعب جام غضبه وانتقامه ، فقتل فوكاس في ١٥ أكتوبر سنة ٦١٠ ، وفي نفس هذا اليوم توج البطريك سرجيوس هرقل الشاب امبراطورا على الدولة البيزنطية ، وأصبحت إفريقية مركزا لاهتمامه ومحط

(١) Oman, p. 127-Ch. Diehl, histoire du moyen âge, p. 141

آمال الامبراطورية في أشد فترات حيلاتها حرجا ، فعندما احتل الفرس أرمينيا وحاصروا الاسكندرية بقصد منع تزويد القسطنطينية بالرجال والأقوات ، تولت إفريقية هذه المهمة ، وكانت تزود القسطنطينية بالأجناد والأساطيل .

وشهدت إفريقية في أيام هرقل عصرا من السلام لم تشهده من قبل ، وتمتع الأهالي بقسط كبير من الحرية والاطمئنان في ظل الامبراطور الجديد ، ووجد البابا جريجوري الأكبر في هذا الهدوء فرصة لإرسال بعوته التبشيرية إلى إفريقية ، ونشر المسيحية في داخل المناطق الجبلية . ونجح القساوسة في نشر الدين المسيحي بين كثير من القبائل البربرية ، وتمكنوا من التغلغل في المواقع الداخلية التي كان البيزنطيون قد انسحبوا منها فيما مضى ، وأصبح هؤلاء القساوسة يقومون مقام حكام بزنطة . وأصبح البابا القطب الذي يتوجه إليه الناس يطلبون حمايته من مظالم الإدارة البيزنطية . وكان البابا لا يتردد في حمايتهم ، وبالتدريج ازداد نفوذه في البلاد ، وأصبح يتدخل في الشؤون الإدارية . ثم أصبحت لرومة سلطة جديدة في إفريقية بحسب حسابها ، وأصبح الناس يعتمدون عليها في كثير من شؤونهم ^(١) .

ولكن الوضع لم يلبث أن تغير عندما مرت المسيحية في إفريقية بأزمة أخيرة ، فقد أنكر بطريرك القسطنطينية (سرجيوس) أن المسيح أظهر كل من طبيعته بارادة واحدة إلهيه وبشرية في آن واحد . وأيد هرقل هذا المذهب الجديد القائل بالإرادة الواحدة Monothélisme (المونوثيلية)

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

ظنا منه أن هذا المذهب ستقبله الطوائف المختلفة راضية ، وأصدر بيانا في سنة ٦٣٨ بذلك يعرف باسم Ecthêsis (١) ، أثار عاصفة من المعارضة في العالم المسيحي . وأدى ذلك إلى انشقاق كثير من الأساقفة عن مذهب الدولة ، وانتهى الأمر إلى قيام صراع كبير بينهم . كما ثار الأهالي على الامبراطور ، وأنكروا مذهب المونوثيلية ، وأبوا الانحراف عن كرسي البابوية . وكان ألد أعداء المونوثيلية أو مذهب الإرادة الواحدة الأسقف مكسيموس ، وكان خطيبا ثوريا قديرا ، عميق التأثير في النفوس ، ونجح مكسيموس في نثر بذور المعارضة لهذا المذهب في إفريقية ، ودخل في جدال عنيف مع البطريرك القديم فيرهوس في حضور البطريق جريجوريوس الثاني ابن نقيتاس ، وتغلب عليه باعتراف فيرهوس في يوليو سنة ٦٤٥ . وبدأت حملات المعارضة تزداد قوة : فمن رسائل توجه إلى الامبراطور وإلى البابا وإلى البطريرك سرجيوس ، إلى مجامع دينية تعقد في قرطاجنة . ولم تكن الأسقفية الإفريقية ترضى بأنصاف الحلول ، ولذلك نظرت في مسألة إسقاط الامبراطور . وتعقد الموقف على أثر وفود بعض القساوسة المونوفيزيت من مصر أثناء الفتح العربي ، وكان لحاسهم في الدعوة لمذهبهم ، وما صاحب ذلك من اضطهاد واستشهاد أثر كبير في جعل قسطنطين الثالث بن هرقل ، وكان يكره المونوثيلية ، يسمح لهم بحرية ممارسة شعائر مذهبهم . وأدى انتشار مذهبهم إلى وقوف قساوسة إفريقية الكاثوليك في وجه الامبراطور وإلى انفصالهم شيئا فشيئا عن الامبراطورية . وعندما تولى كنستانتز الثاني العرش سنة ٦٤١ ،

(١) Diehl , Histoire du Moyen âge, p. 155

بعد وفاة قسطنطين الثالث بعدة شهور ، وكان معروفا باعتناقه مذهب الإرادة الواحدة ، لم يأل مكسيموس جهده في دفع معظم سكان المغرب وقبائل البربر إلى محاربة الامبراطور وتنصيب جريجوريوس على العرش (١) ، والتف الناس حول الطريق جريجوريوس الذي كان يحظى بشعبية كبيرة لما كان يديه وأسرته من كفاية وعدل . ولم يكن جريجوريوس يزهد في الاستقلال عن الامبراطورية ، فقد كانت أمورهما قد سادها الاضطراب ، وفقدت الحكومة هيبتها بعد أن اجتاحت الفرس أملاكها ، مما جعل الامبراطور يفكر في الفرار من القسطنطينية إلى صقلية أو إلى إفريقية (٢) .

ثم إن المغرب كان قد انتعش في العهد البيزنطي الأخير انتعاشا تنعكس آثاره على ما وجدته العرب عند الفتح في هذه البلاد من وفرة الزروع وكثافة الأشجار وكثرة العمران . وكان أهل برقة وطرابلس أول من أيد جريجوريوس على الانفصال عن الدولة البيزنطية على الرغم من أن هاتين الولايتين كانتا تابعتين رسميا لمصر منذ سنة ٥٨٢ .

وفي سنة ٦٤٦ أعلن جريجوريوس استقلاله عن الامبراطورية البيزنطية ، وتلقب بالامبراطور بموافقة الشعب المغربي الذي كان يقدره ، لتعظيمه للتقاليد الكاثوليكية رغم بيزنطة . وقد ضرب جريجوريوس العملات باسمه ، ولكنه لغرض ما لا نعرفه على وجه اليقين غدر قرطاجنة واستقر في سبيطة . ولعل جريجوريوس أراد بعد ثورته على بيزنطة أن يختار حاضرة

(١) Julien, p. 276

(٢) نقل الامبراطور كونسطنطين الثاني عاصمة الامبراطورية إلى صقلية ، وظلت صقلية

عاصمة للامبراطورية عدة سنوات .

تقع في موضع بعيد عن البحر ، إذ كان يتوقع بعد إعلان خروجه وانشقاقه عن الامبراطورية البيزنطية أن تغزو الأساطيل البيزنطية عاصمته . وقد يكون انتقاله إلى سبيطة ناتجا عن رغبته في حماية عاصمته من الغزو العربي ، وراء خط من التحصينات الأمامية^(١) ، وقد يكون أيضا ناشئا عن رغبته في ضم برقة وطرابلس إلى ولاية إفريقية ، وهذا التفسير فيما يظهر أقرب إلى الصحة ، بدليل أن جريجوريا أخت جريجوريوس كانت مقيمة ببرقة حين خطبها الامبراطور هرقل لابنه قسطنطين^(٢) .

(١) Pellegriin, pp. 96 - 97

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٥٠

(٥)

نظام البيزنطيين الإدارى والدفاعى فى المغرب

١ - النظام الادارى :

أصدر الامبراطور جستنيان فى أبريل سنة ٥٣٤ مخططا لإعادة تنظيم الإدارة الإفريقية ، اقتبس من التنظيم الرومانى السابق لغزو الوندال ، بعد إجراء التعديلات اللازمة ، فلم تعد إفريقية تتبع إيطاليا كما كان الحال فى القرن الرابع ، فأصبحت ولاية مستقلة لها إدارتها الخاصة . ولقد أبدى جستنيان اهتماما خاصا بإفريقية ، فلم يقلدها لقنصل كما كان الوضع قائما فى العصر الرومانى ، وإنما أقام عليها حاكما عاما يمثلها فى البلاد ، زوده بسلطات واسعة ، فهو يطبق القوانين ، ويشرف على الأحكام القضائية ، ويحجى الضرائب ، ويوزع مصروفات الدولة ، ويدير الأملاك الامبراطورية ، ويفصل فى المنازعات الدينية ، وكان يساعده عدد كبير من الأعوان ، منهم المستشارين وكبار القضاة . وكان يساعده أيضا عشرة دواوين يقوم بالعمل فيها نحو ١١٨ موظفا ، و ٩ نقابات تضم مساعدين يقومون بالأعمال الإدارية ، وخاصة ما يتصل منها بشؤون المالية^(١) . وكان الحاكم العام إذا جمع بين سلطاته كحاكم عام وسلطات القائد الأعلى للجيش البيزنطى فى إفريقية ، (كما حدث لصولومون) ينظر إليه كما لو كان امبراطورا مصغرا . وكان الحاكم العام يرأس سبع ولايات أو مديرين يديرون سبع ولايات : منها ثلاث قنصلية هى زوجيتانيا (إفريقية ، أو القسم الشمالى من تونس الحالية ومركزها

قرطاجنة) ، وبيزاسين (جنوبي تونس) وطرابلس ، ثم اربع مديريات :
هي نوهديا (شرقي قسنطينة) ، ومورطانية الأولى ومركزها شطيف ،
ومورطانية الثانية ومركزها شرشال ، وكانت تضم مورطانية الطنجية
وسردانية (١) .

وانصرفت جهود الحاكم العام إلى جمع الأموال بالقوة ، والضغط على
السكان ، دون التفرغ للإشراف على أعمال الإصلاح في البلاد ، فكانت
الإدارة البيزنطية تبذل كل جهدها لاستغلال السكان استغلالا فاحشا وذلك
بارهاقهم بالضرائب الثقيلة وامتصاص كل مواردهم . واضطر المزارعون
في نهاية الأمر إلى ترك مزارعهم ، والتجار إلى غلق متاجرهم ، وتصفية
تجاراتهم ، وعمد الكثيرون إلى احتراف اللصوصية والاعتماد على قوائم
سيوفهم . وكانت هذه المظالم عاملا أساسيا فيما أصاب المغرب من اضطهاد ،
كما كان السبب في قيام الأهالي بالفتن والثورات المتواصلة على نحو
ما فصلناه سابقا (٢) .

ب - النظام الدفاعي :

كان يتولى القيادة العامة للجيش البيزنطي المرابط في بلاد المغرب قائد
أعلى يعرف باسم *Magister Militum* ، يعينه الامبراطور ، ومركزه قرطاجنة ،

(١) — المشرقي ص ١٥٥ — Julien, p. 260 - Pellegrin, p. 89

حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٥ — عبد الميزن سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم
في الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٢٢ .

(٢) Pellegrin, p. 89 - Julien p. 261.

وظيفته تأمين النظام والدفاع عن جميع أراضي المغرب الخاضعة للدولة. وكان المغرب ينقسم أيضا من الناحية الحربية إلى إدارات على كل منها رئيس أو دوق. هذه الإدارات هي : طرابلس ومركزها بلدة *Leptis Magna* ، ويزاسين ومركزها قفصة ، ونوميديا ومركزها قسنطينة ، ومورطانية ومركزها شرشال^(١).

وكان يعاون القائد العام قائد للمشاة *Magister Peditum* ، وقائد للفرسان .

وكان الجيش البيزنطي يتألف من قوات نظامية من الفرسان على وجه خاص ، والمشاة ، ومن المرتزقة الذين كان بكل إليهم البيزنطيون أمر الدفاع عن الحدود الجنوبية ، ويقيمون في قلاع وحصون أسست في هذه المناطق النائية المتطرفة ، ومن الموالي الذين جندوا من البربر ويعرفون باسم *Gentiles* أو *Federati* .

وكان البيزنطيون في المغرب يعتمدون أيضا في الدفاع عن البلاد على التحصينات المعمارية التي قاموا بإنشائها تنفيذا لسياسة جستنيان الدفاعية ، بقصد حماية السكان في المناطق المعرضة لغزوات البدو والثوار البربر ، وكانت هذه التحصينات تعتبر بمثابة حدود بين المناطق الخاضعة فعلا للدولة والمناطق الصحراوية والجبلية الوعرة . وكان الوندال قد خربوا الأسوار والتحصينات الرومانية حتى لا ييسر للثوار التحصن بداخلها .

(١) - *Cambridge Medieval History*, p. 22 - *Pollegrin*, p. 89 -

Julien, p. 261.

ويرجع إلى صولومون الفضل في بناء التحصينات البيزنطية ، وترميم الأسوار والقلاع الرومانية ، ولم يكن امتداد التحصينات البيزنطية في طرابلس وبزاسين ونوميديا يختلف كثيرا عن امتداد التحصينات الرومانية ، حيث أن الخط الذي رسمه هذه التحصينات كان يمر، كما كان الشأن في العصر الروماني ، جنوبي أوراس . ولكن هذا الخط كان ينحسر تدريجيا كلما اتجه غربا وذلك ابتداء من تهودة . أما في مورطانية الثانية ، فقد كان النفوذ البيزنطي لا يتجاوز بضعة مرافق محصنة ، بينما لم يكن هذا النفوذ يتعدى في مورطانية الأولى مدينة سبتة التي جعل منها جستنيان مركزا هاما للمراقبة . ومع ذلك فقد استعمل البيزنطيون القلاع الرومانية القديمة في التخوم ، وذلك بعد ترميمها ، وكانت قلعة قصر بلزمة تسيطر على مداخل شط حدنة ، كما أن قلاع لمبزه وتمجاد ، وطولها ١٢٠ مترا ، وعرضها ٨٠ مترا ، أقيمت على مجموع من الأبنية يرجع تاريخها إلى عصر سفروس .

كذلك كانت القلاع البيزنطية تقام في قلب البلاد ، ومن أمثال هذه القلاع الداخلية قصر لمسة ، ويبعد نحو ٤٠ كم. شمال شرقي مكنتار ، وقلعة عين تونقة في الشمال الشرقي من تبرسق ، وقلعة حيدرة . وكل هذه القلاع وصلت إلينا في حالة ممتازة . وكانت التحصينات البيزنطية تقام في عجلة حول الآثار القديمة كالملاعب والمسارح والحمامات ، كما هو الحال في سبيطلة ودوجا^(١) ، ولذلك كانت هذه التحصينات ضعيفة . وكانت المدن الكبرى تحاط عادة بأسوار قوية ضخمة تحميها من الغزو الخارجي مثل شطيف وتبسا .

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٩ .

رعمارة القلاع البيزنطية تقوم أساسا على سور رئيسي ضخم يتألف من طابقين ، تكتنفه أبراج مشرفة الذروة ويتقدم هذا للسور حزام أمامي يحمي مقدمات القلعة ، ويسبق هذا الحزام خندق واسع عميق يرتفع عليه جسر . ويتراوح ارتفاع السور في العادة ما بين ثمانية أمتار وعشرة ، ويبلغ سمكه عادة ٢م٣٠ مترا (١) .

مراجع المصريين الوندالي والبيزنطي

١ - المراجع العربية والمعرّبة :

- سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : المغرب الاسلامي ، كتاب الشعب
رقم ١٣٨ ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- طرخان (دكتور ابراهيم علي) : دولة القوط الغربيين ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- عامر (الأستاذ أحمد) : تونس عبر التاريخ ، تونس ، ١٩٦٠ .
- عاشور (دكتور سعيد عبد الفتاح) : أوروبا في العصور الوسطى ، ج ١ ،
القاهرة ، ١٩٥٨ .
- فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة
والدكتور السيد الباز العربي ، القاهرة ١٩٥٤ .
- مؤنس (دكتور حسين) : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ، ١٩٤٧ .
- المشرفي (الأستاذ محمد محيي الدين) : إفريقيا الشمالية في العصر القديم ،
الرباط ، ١٩٥٠ .

ب - المراجع الاوربية الحديثة :

- Bernard (Augustin) : l' Algerie, paris, 1929.
- Bleye (Aguado) : Manuel de la historia de España, Madrid, 1947.
- Cambridge Medieval History, Cambridge, 1911.
- Comision historica de las campanas de Marruecos : Accion de
España en Africa, t. 1, Iberos y Berberes, Madrid, 1935.
- Diehl (Charles): L' Afrique byzantine, Histoire de la domination
byzantine en Afrique, Paris, 1896.

_____ : Histoire de l' Empire byzantin, Paris,

Diehl & Marçais : Histoire du Moyen - âge, t. III : le monde oriental, Paris, 1936.

Gibbon : abridged edition (by William Smith) from the origin work, "The history of the decline and fall of the Roman empire, part one, by Greenidge, London, 1909.

Guichot (Joaquin) : Historia de Andalucia, t. 1. Madrid, 1869.

Julien (André) : Histoire de l' Afrique du Nord, des origines à la conquête arabe, Paris, 1956.

Lot (Ferdinand) : la fin du monde antique et le début du moyen âge, Paris, 1927.

Oman (ch.) : The dark ages, London, 1928.

Pellegrin (Arthur) : Histoire de la Tunisie, Tunis, 1948.

Ure (Percy Neville) : Justinian and his age, Pelican Books, No A 217, London, 1951.

Vasiliev (A. A.) : Histoire de l' Empire Byzantin, trad. par Brodin et Bourguina, t. 1, Paris, 1932.

القسم الثاني

المغرب في العصر الاسلامي

تمهيد

دراسة لأهم مصادر تاريخ المغرب في العصر الإسلامي

أولا - الآثار الإسلامية في المغرب :

تعتبر الآثار الباقية ، سواء الثابتة منها كالعماير ، أو المنقولة كالتحف والعملات ، من أهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخون في كتاباتهم عن المغرب الإسلامي ، ذلك لأن الوثائق التاريخية لا تكفي وحدها لهذا الغرض ، إما لندرتها ، أو لتناقض ما جاء فيها ، أو لاختلاط الحقائق التاريخية فيها بالقصص والأساطير . ثم إن الآثار تعتبر سجلا تاريخيا حيا للأعمال التي قام بها الولاة والأمراء في العصور الإسلامية المختلفة ، وشاهدا ماديا ماثلا لحضارة الإسلام في المغرب ، فمن هذه الآثار استطعنا أن نقف على مدى ما وصل إليه رجال الفن والصناعات من تقدم في المجال الحضاري ، ومن نقوشها استطعنا أن نصحيح كثيرا من الأخطاء التاريخية التي وقع فيها بعض المؤرخين ، ونميط اللثام عن حقائق تاريخية جديدة ، فالنقوش الكتابية التي تدور بقباب المحراب والبهو بجامعي القيروان وتونس ، والكتابات التي نطالعها فيما تبقى من آثار المغرب في العصر الإسلامي من أبواب أثرية وأسوار وقلاع وحمامات وفنادق وقصور وقناطر وجسور تتضمن توارخا دقيقة لهذه المنشآت ، كما تتضمن في كثير من الأحيان أسماء منشئها من الأمراء والسلاطين ، وفي بعض الأحيان أسماء العرفاء والمهندسين الذين أشرفوا على إنشائها ، وهي أمور غفلت الوثائق التاريخية عن ذكرها على هذا النحو من الدقة . وهكذا تبدو لنا الآثار المغربية بنقوشها الكتابية ، وأساليبها الفنية المختلفة وكأنها أحياء تنطق بلغة

يفهمها الناس جميعا . كذلك تحدد لنا العملات توارينا هامة قد ترد خطأ في المصادر المكتوبة أو المنقولة ، ثم هي تشتمل على ألقاب السلاطين والأمراء وتتضمن أيضا أسماء المدن التي سكنت فيها . ودراسة العملات تفيدنا في دراسة الأحوال الاقتصادية للمغرب في العصر الاسلامي .

والآثار الاسلامية في المغرب تصور لنا جانبا هاما من جوانب الحضارة العربية الاسلامية في هذا الجزء من الوطن العربي الكبير ، وهي خير ما ينطق بما كانت عليه هذه الحضارة من تقدم وازدهار ، والوثائق الحقيقية الصادرة التي نستند عليها في كتابة تاريخنا عن المغرب العربي ، فالنفوذ الأندلسي على المغرب الأقصى في العصر الأموي يتجلى بصورة واضحة في آثار فاس (مسجد القرويين والأندلسيين) ، وسيطرة المرابطين والموحدين على الأندلس يعبر عنها الأسلوب الفني المشترك السائد في كل من المغرب والأندلس في هذين العصرين ، وغلبة الطابع الغرناطي على آثار المغرب كله منذ أوائل القرن الرابع عشر يعبر عن أثر العلاقات السياسية بين بني مرين وبني الأحمر في الفنون المعمارية ، كما يعبر أيضا عن حقيقة تاريخية ثابتة ، هي هجرة الفن الأندلسي الغرناطي إلى المغرب بعد انتهاء دولة الاسلام في الأندلس .

فدراسة الآثار الاسلامية ببلاد المغرب تعتبر ضرورة لازمة لدراسة تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ، كما أنها تعتبر كذلك ضرورة لازمة لدراسة تاريخ العمران الاسلامي في إفريقيا: فمدينة القيروان أسست عند الفتح العربي لتكون قاعدة ارتكاز للجيوش العربية في أرض المغرب ، كما أن تونس أسست أيضا لتكون دار صناعة ومحرسا للساحل التونسي في ولاية حسان ابن النعمان ، ومدينة فاس أقيمت في سنة ٩١ هـ لتكون مركزا لدولة الأدارسة

الشيعة ، أما مراکش فقد أقامها المرابطون في أيام أبي بكر عمر الممتوني ،
والرباط أسسها الموحدون في عهد المنصور لتكون رباطاً للمشاغرين من أهل
المغرب ينتقلون منه للجهاد في أرض الأندلس . وما زالت آثار تونس ،
والقيروان ، ووهران ، وتلمسان ، وفاس ، والرباط ، ومراكش ، وغيرها
من مدن المغرب تعبر عن الدور الكبير الذي قام به الأمراء والخلفاء والولاة
في العمران المغربي ، ولا يخفى أهمية ذلك بالنسبة للحضارة المغربية ، لاتصاله
الوثيق بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية : فالمدن تتضمن بؤرات اقتصادية
 واجتماعية من أسواق ، ومصانع ، وحمامات ، وفنادق ، ودور للصناعة ، لعبت
دورا هاما في الاقتصاد المغربي في العصر الوسيط .

وبلاد المغرب تزخر بالآثار الإسلامية التي يمتد تاريخها من الفتح العربي
سنة ٥٠ هـ إلى سقوط غرناطة ، آخر معقل للمسلمين في الأندلس ، سنة
٤٩٢ هـ . ويهمننا من دراسة الآثار المغربية ، الآثار المعمارية بالذات ، لأنها
آثار مادية ثابتة . وتنقسم المنشآت الأثرية إلى ثلاثة أنواع :

١ - المنشآت الدينية ، وهي أكثر العمارات القائمة في أرض المغرب ،
وتشتمل على المساجد ، والزوايا ، والأضرحة . وتعتبر أهم أنواع الآثار
المعمارية لما تتضمنه من نقوش زخرفية وكتابية تعد ذخيرة تاريخية طيبة ،
ولما تضمه بين جدرانها من أساليب فنية ذات مستويات مختلفة ، تعكس روح
العصر الذي أقيمت فيه ، وتعبر عن طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية
في هذا العصر .

٢ - المنشآت الحربية ، ونعني بها أعمال التحصينات من قلاع ، وقصاب ،
وأسوار تتحصن بها المدن ، وترد هجمات الغازين والمعتدين . ونلاحظ أن

معظم مدن المغرب مازال يحتفظ بهذه الأسوار والقلاع ، كما أن أبوابها مازالت تحمل أسماءها القديمة ، وهو أمر يساعد على دراسة طبوغرافية المدن المغربية في العصر الإسلامي .

٣- المنشآت المدنية ، وتشتمل على عمائر المنافع العامة من خزانات وجسور وقناطر ومواصل ، كما تشتمل على العمائر الخاصة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية من حمامات ودور وقصور ومصانع وفنادق .

ونرجو أن يتسع المجال لدراسة بعض أمثلة من هذه المنشآت بأنواعها الثلاثة في بلاد المغرب في العصور الإسلامية المختلفة .

ثانيا - أهم المصادر العربية :

نعني بالمصادر العربية التوايف والمصنفات المطبوعة ، والمدونات المخطوطة التي صنفها مؤرخو العرب وجغرافيوهم القدامى في تاريخ الفتح العربي للمغرب ، أو في تاريخ الدول الإسلامية التي قامت في المغرب ، أو في دراسة مدنه ووصف المغرب . وسنستعرض أهم هذه المصادر .

١- مصادر تاريخ الفتح العربي للمغرب :

١- عبد الرحمن بن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ (٨٧١ م)) : كتاب فتوح

مصر والمغرب والأندلس :

هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري ، ولد بمصر فيما يقرب من سنة ١٨٧ هـ ، وتوفي بالفسطاط في عام ٢٥٧ هـ ، ودفن إلى جوار قبر الإمام الشافعي مما يلي القبلة . وكان ابن عبد الحكم

من أسرة اشتهرت بمعرفة علوم الحديث والفقه ، وكان أبوه عبد الله بن عبد الحكم^(١) من كبار المحدثين في مصر ، وله مصنفات كثيرة في الفقه والحديث . وورث ابنه عبد الرحمن عنه هذا العلم ، فكان من أهل الحديث ، عالما بالتواريخ . وقد انعكست دراسات ابن عبد الحكم القائمة على الحديث في كتابه فتوح مصر والمغرب والاندلس ، فقد اعتمد في رواياته التاريخية على الأسانيد الكاملة ، فأعاد الرواية في أشكالها التي حفظت بها في ذاكرة الناس^(٢) . ويتضح هذا المنهج في كثرة عدد الروايات غير الموثوق بها ، عرضها ابن عبد الحكم على هذه الأشكال المختلفة من الرواية ، حرصا على بيان روايتها ، وأمانة في النقل ، دون أن يعنى بنقدها ، فهو يذكر مثلا عند تعرضه لغزوة عمرو في الخيل إلى برقة : « ... حدثنا عثمان بن صالح ، حدثنا ابن لهيعة أن أنطابلس فتحت بعهد من عمرو بن العاص . حدثنا عبد الملك ابن مسلمة ، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن عبد الله الحضرمي : أن ابن دياس حين ولي أنطابلس أتاه بكتاب عهدهم . حدثنا عبد الملك بن مسلمة ، حدثنا ابن لهيعة ، عن يزيد بن عبد الله الحضرمي ، عن أبي قنان أيوب بن أبي العالية الحضرمي ، عن أبيه قال : سمعت عمرو بن العاص على المنبر يقول لأهل أنطابلس عهد يوفي لهم به »^(٣) . ونفهم من هذا النص أن ابن عبد الحكم

(١) ولد عبد الله بن عبد الحكم بالاسكندرية في سنة ١٥٥ ، وتوفي بالفسطاط في

سنة ٢١٤ هـ .

(٢) مقدمة كتاب فتوح مصر والمغرب ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١

صفحة ك .

(٣) Ibn 'Abd al - Hakam, Conquête de l'Afrique du Nord et de

l'Espagne. texte et trad. par. Albert Gateau Alger, 1947, p. 36.

اعتمد على روايات شفوية تناقلها الرواة ، ومعلومات مكتوبة نقلها عن طريق المشايخ الذين رأوا السجلات الرسمية الخاصة بفتح مصر والمغرب ، أو نسخوها قبل احتراق ديوان القسطنطينية (١) ، هذه المعلومات المكتوبة التي نقلها ابن عبد الحكم تتمثل فيما كتبه الواقدي (المتوفى سنة ٢٠٧) ، وابن لهيعة (المتوفى سنة ١٧٤ هـ) . وكان ابن لهيعة حجة في الحديث ، ومصدرا هاما في التاريخ المصري ، ونستنتج أيضا من النص السابق ، ومن غيره من النصوص أن ابن عبد الحكم اعتمد كثيرا في تأريخه للحوادث على عثمان بن صالح المتوفى سنة ٢١٩ هـ . وهو مصدر مصري هام كان له فضل كبير في التأريخ العربي لفتح العرب للمغرب والاندلس . فرواية ابن عبد الحكم إذن تمثل الرواية الشرقية لقصة فتح العرب للمغرب (٢) .

ونلاحظ أن ابن عبد الحكم يقل من ذكر الإسناد كلما توسع في تأريخ حوادث الفتح ، لقلة الحقائق التي يجمعها أو لقلة الأحاديث ، وإن كان يتخذ من رواية عثمان بن صالح قاعدة أساسية لتأريخه ومن بين من ذكرهم ابن عبد الحكم من المحدثين ، في فتوح المغرب ، بخلاف ابن لهيعة ، عبد الملك ابن مسلمة ، ويذكره ابن عبد الحكم دائما في نهاية الإسناد ، والليث بن سعد (المتوفى سنة ١٧٥) أعظم راوية للتاريخ ، ومنهم يزيد بن أبي حبيب ، أستاذ ابن لهيعة والليث ، وكان مصدرا أخياريا دقيقا من أقدم مصادر الرواية التاريخية . ولا يخفى أن مصر كانت مركزا يمر عليه علماء المغرب وطلاب العلم ، يأخذون فيها عن علمائها ، وقد ذكر ابن عبد الحكم بعض

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية ، ص ٨ . (٢) نفس المرجع .

أسماء لهؤلاء منهم هلال بن ثروان اللواتي الذي اشترك في حملة حسان ابن النعمان .

ويعتبر كتاب فتوح المغرب أقدم المصادر العربية في تاريخ الفتح العربي للمغرب ، وقد كتبه ابن عبد الحكم كستمة لفتح مصر . ويبدأ تاريخ فتح المغرب بالمحاولات الأولى للفتح ، وذلك منذ قيام عمرو بن العاص بغزو برقة وطرابلس ، ومعاودة عبد الله بن سعد ، ومعاوية بن حديج الكرة على إفريقية . ثم يستمر في سياق الروايات عن الفتح على أيدي عقبة بن نافع ، وأبي المهاجر دينار ، وزهير بن قيس ، وحسان بن النعمان ، ويستكمل روايته بولاية موسى بن نصير على إفريقية . وقد اهتم المؤرخون بنشر فصول من هذا الكتاب منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ففي الترجمة الفرنسية لكتاب العبر لابن خلدون التي نشرها دي سلان بعنوان : l' Histoire des Berbères t I. قطعة من فتوح المغرب لابن عبد الحكم تنتهي حتى إنشاء القيروان . كذلك نشر جون هاريس جونز سنة ١٨٥٦ ترجمة من فتوح الأندلس لابن عبد الحكم ، وقد استعان السنيور لافونتي القنطرة المستشرق الأسباني بهذه الترجمة الفرنسية وترجم منها عدة صفحات إلى الأسبانية في مقدمته لكتاب « أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس » ، وفي سنة ١٩١٤ نشر هنري ماسيه الجزء الخاص بفتوح مصر . وفي سنة ١٩٢٢ صدر النص الكامل لكتاب فتوح مصر وإفريقية نشره شارل توري بعنوان Kitab Futuh' Micr . ومنذ نحو ١٧ سنة تقريبا قام المستشرق الفرنسي الأستاذ البيرجاتو بنشر القسم الخاص بفتوح المغرب والأندلس مع الترجمة الفرنسية ومقدمة نقدية رائعة ، بعنوان :

Conquête de l' Afrique du Nord et de l' Espagne; dans :
Bibliothèque Arabe - Française, No II, Alger, 1947.

وأخيرا نشر الأستاذ عبد المنعم عامر النص التاريخي كله متضمنا فتوح
مصر والمغرب والأندلس بالقاهرة في ١٩٦١ ، عن نسخة من كتاب فتوح
مصر والمغرب محفوظة بمكتبة فاتح بالآستانة .

٢ - البلاذري (ت ٢٧٩) كتاب فتوح البلدان :

هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود المعروف بالبلاذري ، غير معروف
الأصل ، وإن كان الأستاذ سوفاجيه يميل إلى إرجاع أصله إلى الفرس .
ولد البلاذري في بغداد في أواخر القرن الثاني للهجرة ، ونشأ في فترة من
أزهى عصور الحضارة العباسية في القرن الثالث الهجري ، وأخذ عن علماء
بغداد أمثال الحسين بن علي الأسود ، والقاسم بن سلام ، والمدائني ،
ومحمد بن سعد ، ثم رحل إلى الشام في صباه رغبة في التحصيل ، واكتساب
ثقافات جديدة ، وتنقل بين مدن الشام آخذا على علمائها ، ففي دمشق سمع
على هشام بن عمار وأبي حفص الدمشقي ، وفي حمص سمع على محمد بن مصفى .
وعلى هذا النحو استطاع البلاذري أن يجمع بين علم أهل العراق وعلم أهل
الشام ، وكان لأسانده وثقافته ورحلاته وتردده على قصور الخلفاء أثر
كبير في إنتاجه التاريخي (١) . وقد لازم البلاذري الخليفة المتوكل ، وارتفعت
مكانته عنده ، فنراه يجالسه ويناديه . وعاش البلاذري فترة من عصر النفوذ

(١) مقدمة كتاب فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة

التركي الأول ، وشهد مقتل المتوكل سنة ٢٤٨ هـ ، والمتنصر سنة ٢٤٨ هـ أيضا ، ثم اتصل بالمستعين ، وعاش في كنفه ، ولكن المستعين لم يطل به العمر في الخلافة ، إذ قتل بعد أربع سنوات من خلافته ، وتولى المعتز سنة ٢٥٢ هـ ، وعهد إلى البلاذري بتأديب ابنه ، وكان مصير المعتز أيضا نفس مصير أسلافه من خلفاء بني العباس ، ومنذ مقتل المعتز أخذ البلاذري يتوارى عن حياة البلاط الخلافي ، وقاسى شظف العيش في خلافة المعتمد ، وتوفي أخيرا في آخر خلافة المعتمد سنة ٢٧٩ هـ .

ويبدو أن البلاذري تأثر بما دونه الواقدي والمدائني وابن الحكم وغيرهم في الفتوح ، فألف كتابه « فتوح البلدان » على غرار كتب الفتوح التي صنفها المدائني والواقدي وأبو حذيفة وابن المثنى ، واستقى معظم أخباره عن الواقدي ، والقاسم بن سلام ، والمدائني ، والعباس بن هشام ، كما أخذ بعض أخباره عن أشخاص من أجناس مختلفة ذكر أسماء بعضهم أحيانا ، وأغفلها أحيانا أخرى .

ويهمنا من كتابه ، القسم الخاص بفتح إفريقية ، وهو قسم موجز ، اعتمد فيه أكثر ما اعتمد على ما حدثه به محمد بن سعد عن الواقدي . وتتميز أخباره بملاحظات الشخصية التي يرجح فيها رواية علي . رواية ، غير أنه أخطأ في بعض أخباره التي رواها ، ولعل سبب وقوعه في هذه الأخطاء يرجع إلى اعتماده على مصادر شرقية لا تتضمن أخبار صحيحة عن إفريقية .

وقد نشر « فتوح البلدان » عدة مرات ، وأهم هذه النشرات ، نشرة دي غوية ، الذي نشره كاملا في ثلاثة أقسام من سنة ١٨٦٣ إلى سنة

١٨٦٦ ، ومنها نشرة الدكتور صلاح الدين المنجد ، في ثلاثة أجزاء .
سنة ١٩٥٦ .

٣ - ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ، الكامل في التاريخ :

يتناول تاريخ العالم عامة والعالم الإسلامي بوجه خاص ، وقد رتب ابن الأثير هــ هذا التاريخ حسب السنين ، وضمن المؤرخ حوارياته أحداث المغرب حتى سنة ٦٢٨ هـ وهي السنة التي توفي فيها . وقد جرد المستشرق Fagnan من هذا الكتاب الكبير كل ما يتصل بأحداث المغرب ، ونشره بعنوان : *Annales du Maghreb et de l' Espagne du Tarikh d' Ibn al - Athir, Alger, 1901* . وتعتبر الأخبار الخاصة بفتح العرب للمغرب ، والواردة في الكامل من أهم المصادر العربية ، وأكثرها دقة ، فقد اعتمد المؤرخ فيها على مصادر أندلسية مغربية ، وكانت هذه المصادر متوفرة في عصر ابن الأثير .

٤ - أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي (ت . بعد سنة ٤٥٣)

كتاب رياض النفوس :

من أهم مصادر تاريخ الفتح العربي للمغرب ، إذ يتضمن فصلا يستعرض فيه المؤلف حوادث الفتح العربي كاملة وافية ، منذ المحاولات الأولى التي قام بها عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ حتى استكمال حسان بن النعمان للفتح في سنة ٨٥ هـ . وقد اعتمد المالكي في هذا القسم التاريخي على مصادر شرقية كالواقدي وابن اسحق^(١) ، بالإضافة إلى روايات اقتبسها من مصنفات

(١) أبو بكر عبد الله المالكي ، كتاب رياض النفوس ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٢١ مقدمة .

مغربية قديمة ضاعت ولم تصل إلينا . وبقية الكتاب تراجم لعلماء إفريقية وفقهاءها ، طبقة بعد طبقة حتى سنة ٣٥٦ . وقد نشر الأستاذ الدكتور حسين مؤنس الجزء الأول من هذا الكتاب ، ويشمل الفترة الواقعة ما بين الفتح العربى إلى آخر سنة ٣٠٠ هـ . وقد صدر الكتاب فى القاهرة فى سنة ١٩٥١ .

٥ - النويرى (ت . ٧٣٢ هـ) ، نهاية الأرب فى فنون الأدب :

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم البكرى المعروف بالنويرى ، ولد سنة ٦٧٧ بمدينة قوص ، وتلقى العلوم الدينية فى بلدته بالصعيد ، فسمع الحديث على عدد من كبار المحدثين . ونبغ فى الإنشاء حتى أنه تولى كتابة الإنشاء فى عصر الناصر محمد بن قلاوون ، ثم تدرج فى سلك الدواوين ، وجمع كتابه الكبير « نهاية الأرب فى فنون الأدب » فى ثلاثين مجلدا (١) . وقد قسم النويرى هذه الموسوعة إلى خمسة أقسام : الأول فى الجغرافيا (فى السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية) ، والثانى فى الإنسان وما يتعلق به ، والثالث فى الحيوان الصامت ، والرابع فى النبات ، والخامس فى التاريخ (٢) . ويتضمن هذا القسم الأخير جزئين هما الخامس والسادس ، أفردهما لتاريخ إفريقية والأندلس . وفى هذين الجزئين يعتمد فى أخباره اعتمادا كبيرا على مؤرخ أندلسى اسمه الزهرى ، لعلة المسور بن مخرمة بن نوفل الزهرى ، ويتشابه ما كتبه النويرى عن المغرب مع ما كتبه المالكى ، مما يؤكد اعتماد المؤرخين على مصدر واحد . ويعتقد الأستاذ

(١) نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ، ١٩٦٢ ص ٩٥ .

(٢) النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، القاهرة ، مطبوعات دار السكتب المصرية ،

حسن حسنى عبد الوهاب أن هذا المصدر هو كتاب بعنوان مغازى إفريقية لمؤلف مجهول ، مات فى حدود القرن الثانى للهجرة (١) ، ولعله نفس كتاب المغازى الذى ينسب إلى الواقدى .

وكتابة النويرى عن الفتح العربى للمغرب تتضمن أخبارا تختلط فيها الأقاويص بالحقيقة . وقد نشر ماريانو جسيار ريمى وهذين الجزئين مع الترجمة الأسبانية فى عامى ١٩١٧ ، ١٩١٨ (٢) .

ب - أهم المصادر العربية فى تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى :

١ - ابن عذارى المراكشى (ت . فى أواخر القرن السابع الهجرى) :

البيان المغرب فى أخبار المغرب :

هو مؤرخ مغربى عاش فى عصر الموحدين ، ولا يعتبر كتابه المذكور من أهم مصادر الفتح العربى للمغرب فحسب ، بل أهم مصادر تاريخ بلاد المغرب والأندلس فى العصر الإسلامى على الإطلاق ، إذ يتميز بتضمنه لأخبار عن تاريخ الفتح أكثر دقة من الأخبار التى أوردها ابن عبد الحكم والبلاذرى . ويتناول ابن عذارى فى كتابه « البيان المغرب » تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح حتى أواخر القرن السادس الهجرى . وقد اعتمد ابن عذارى فيه على مصادر مغربية أندلسية ، ترجع إلى القرنين الخامس والسادس الهجرى ، فروايته عن الفتح تمثل الروايتين الأندلسية المغربية

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٣١٠ .

(٢) آنخل جيتان بالثيا ، تاريخ الفسك الأندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ،

القاهرة ١٩٥٥ ص ٢٥١ .

والإفريقية (١) . ويذكر ابن عذارى نفسه أنه نقل من عدد من المصادر منها تاريخ الطبري والبكري والرقيق والقضاعى ، وابن شرف ومن كتاب الأنوار الجلية فى الدولة المرابطية ، ومن نظم الجمان ومن كتابي الأشيرى والبيدق، وكتاب يوسف الكاتب .. إلى آخره . وقد اعتمد ابن عذارى فى تاريخ المغرب خاصة على كتاب صفة المغرب للبكري الذى نقل عن محمد الوراق ، وكتاب العبر لابن أبى الفياض وهو أندلسى من مدينة استجة ، وكتاب نظم الجمان لابن القطان وهو مؤرخ مغربى ، وكتاب الاستيعاب لابن عبد البر ، وهو قرطبي .

ويقسم ابن عذارى « البيان المغرب » إلى ثلاثة أجزاء : الأول يشتمل على أخبار إفريقية منذ الفتح الأول فى خلافة عثمان ، وذكر أمراء المغرب فى عصر الدولة الأموية ، والدولة العباسية حتى انتقال الفاطميين إلى مصر واستخلافهم صنهاجة على إفريقية ، ويعالج أيضا فتنة العرب وأسبابها وأخبار أمراء بنى زيرى وبنى حماد حتى ظهور المرابطين . والجزء الثانى : خصصه لتاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامى حتى دخول اللاتونيين (المرابطين) الأندلس فى سنة ٤٧٨ . أما الجزء الثالث فيضم تاريخ دولى المرابطين والموحدين حتى انقراض دولة الموحدين وقيام الدول الوارثة للموحدين فى المغرب .

وقد نشر المستشرق الهولندى دوزى قسما من كتاب البيان المغرب فيما

(١) ليفى بروفنسال ، نس جديد عن فتح العرب للمغرب ، صحيفة المهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد الثانى ، عدد ١ ، ٢ ، مدريد ١٩٥٤ ص ١٩٨ .
(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب تحقيق ليفى بروفنسال ج ١ ، ١٩٤٨ ، ص ٢ ، ٣ .

بين عامي ١٨٤٧ ، ١٨٥١ ، بليدن ، عن مخطوطة رقم ٦٧ بمكتبة ليدن ،
وتتكون من ١٦٠ صفحة مكتوبة بخط مغربي ، ولكن المخطوطة التي اعتمد
عليها دوزي مبتورة في بدايتها ونهايتها ، كما أن صفحاتها الأولى تأكلت بفعل
الرطوبة ، وتنتهي أخبارها إلى نهاية القرن الرابع الهجري ، ويشتمل هذا
القسم المنشور من البيان على الجزء الأول من الكتاب وقسم من الجزء الثاني ،
نشرها دوزي في جزئين الأول : يتعلق بتاريخ المغرب منذ الفتح العربي حتى
ظهور المرابطين مرتبة حوادثه حسب الدول والعهود ، أما الجزء الثاني
فينتهي بوفاة المنصور محمد بن أبي عامر ، وقد أعيد طبع هذا الكتاب ببيروت
(دار صادر - بيروت) في عام ١٩٥٠ . ولكن هذه النشرة الجديدة هي
صورة مشوهة من طبعة ليدن ، إذ تكر فيها الأخطاء والمآخذ. ثم أعاد المستشرقان
ليفي بروفنسال و كولان طبع القسم الذي نشره دوزي من البيان ، وراعيا
في هذه الطبعة الجديدة أن يصححوا الأخطاء التي وردت في طبعة دوزي ، من
واقع مخطوطة جديدة عثر عليها الأستاذ ليفي بالمغرب . وكان هذا المستشرق
الكبير قد نشر في سنة ١٩٣٠ بباريس القسم الخاص بملوك الطوائف في
الاندلس أي من وفاة ابن أبي عامر إلى سنة ٤٦٠ هـ . وقد اعتقد ليفي
بروفنسال أن هذا القسم الذي نشره هو الجزء الثالث من البيان ، ولكن
انضح فيما بعد أنه تنمة للجزء الثاني من هذا الكتاب .

ثم اهتم المستشرق الأسباني امبروسيو إويثي ميراندا بالجزء الثالث من
البيان ، وكان قد نشر هذا الجزء في سنة ١٩١٧ ظنا منه أنه لمؤرخ مجهول ،
وذلك من مخطوطة تعرف بمجهول مدريد و كوينهاجن ، وقد تبين فيما بعد

أن هذا القسم هو نسخة مختصرة بعض الشيء من الجزء الثالث من البيان المغرب^(١).

وأخيرا قام هذا المستشرق نفسه فيما بين عامي ١٩٦٠ ، ١٩٦٣ بتحقيق هذا الجزء الثالث كاملا ، مستعينا في هذا بالأستاذين محمد بن تاويت ، ومحمد ابراهيم الكنانى ، ونشرته جامعة الرباط . وقد اعتمد المحققون في نشر هذا الجزء على عدة مخطوطات . وفي سنة ١٩٦١ ، نشر السنيور امبروسيو إويثي ميراندا قطعة من البيان تتعلق بتاريخ المرابطين في مجله Hesperis^(٢) .

٢ - عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر :

ينتسب عبد الرحمن بن محمد بن خلدون إلى بني خلدون من عرب اليمن الذين استقروا عند فتح الأندلس بمدينة إشبيلية ، وكانت لهم الرئاسة إبان عصر الاضمحلال الأول . وظل بنو خلدون يقيمون بهذه المدينة إلى أن كانت ثورة ابن الأحمر بحصن أرجونه ، وقيام الفتنة التي انتهت بسقوط قرطبة في أيدي النصارى سنة ٦٣٦ هـ ، فارتحلوا إلى العدو ، ونزلوا سبتة . وكان محمد بن الحسن بن خلدون ، جد المؤرخ ، يعمل في خدمة بني حفص بافريقية ، فنشأ ابنه أبو بكر محمد في بلاط السلطان بتونس ، وكان أبو بكر هذا على حد قول ابنه عبد الرحمن المؤرخ « مقدما في صناعة العربية ، وله بصر بالشعر وفنونه »^(٣) .

(١) آنخل جنتا ث بالنثيا ، ص ٢٥٠ .

(٢) لسان الدين بن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، والأستاذ محمد ابراهيم الكنانى ، الدار البيضاء ١٩٦٤ ص ٢٨٥ .

(٣) عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، ورحلته شرقا وغربا ، تحقيق

محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٩٥١ ص ١٤٠ .

ونشأ عبد الرحمن بن خلدون بتونس في بيئة علمية ، وقد عكف منذ نشأته على تحصيل العلم ، فقرأ على كبار أساتذته الأندلس والمغرب ، ودرس النحو وعلوم اللغة على يدى والده وأساتذة آخرين أمثال الشيخ أبو عبد الله محمد بن العربي ، وأبو عبد الله محمد بن الشواش الزرزالى والشيخ أحمد بن القصار ، ومحمد بن بحر ، كما لازم كبار المحدثين والفقهاء بتونس وفي مقدمتهم شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر الوادى ، ثم انصل بالسلطان المرينى أبي عنان ، فاستخدمه في كتابته سنة ٧٥٥ ، ومنذ هذا التاريخ بدأ نجم ابن خلدون يلمع في سماء السياسة ، وكانت امتجاريه الطويلة وخبرته الفائقة في ميدان السياسة في المغرب والأندلس أثر كبير في تعرفه لطبيعة الظواهر الاجتماعية والسياسية ، وتطور التاريخ والمجتمع وقيام الأسر وسقوطها^(١) ، كما كانت لدراساته الطويلة على علماء عصره فضل كبير في تكوينه العلمى . ويعتبر كتابه « العبر » أعظم ما صنفه في تاريخ العرب والعجم والبربر ، ولا غناء لمن يبحث في تاريخ المغرب عن دراسة هذا المصنف العظيم الذى يعتبر أساسا لهذا التاريخ ، فهو موسوعة عظمى تتضمن خلاصة تجارب المؤلف . وقد قام بتأليفه في المغرب فيما بين عامى ٧٧٦ هـ ، ٧٨٠ هـ ، ورفع أجزاء منه إلى السلطان أبي العباس بتونس سنة ٧٨٤ هـ ، أى في السنة التى رحل فيها إلى مصر ، ولكن يبدو أنه أضاف وعدل في هذا الكتاب أثناء مقامه في مصر ، بعد أن استوسع علمه لكثرة ما قرأه وبحث فيه ، ولكثرة ملاحظاته في رحلاته وأسفاره . ويهمننا من هذا الكتاب

(٢) ولترج . فشل ، نشاط ابن خلدون في مصر المملوكية ، مقال في كتاب دراسات إسلامية ، ترجمة الأستاذ أنيس فريجة وآخرين ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ١٧٨ .

الجزء الثالث (طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ) إذ يضم ثلاثة فصول هامة :
الأول في ذكر مواطن البربر في المغرب ، والثاني في ذكر فضائلهم ، والثالث
في ذكر أخبارهم منذ الفتح العربي وقد نشر البارون دي سلان الجزء الخاص
بالبربر في مجلدين ، وذلك فيما بين عامي ١٨٤٨ ، ١٨٥١ ، بعنوان :
Histoire des Berbères, extraite du kitab al - Ibar ، وترجم النص
العربي إلى الفرنسية فيما بين عامي ١٨٥٢ ، ١٨٥٦ في ثلاثة أجزاء . كذلك
تولى دي فرجير نشر الجزء التاريخي الخاص بتاريخ المغرب منذ الفتح حتى
بداية دولة بني الأغلب ، وذلك في سنة ١٨٤١ .

٣ - لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦) ، كتاب أعمال الأعلام ، القسم

الثالث الخاص بالمغرب :

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن
الخطيب السلماني ، وأصل بيتهم من قرطبة (١) ، ولد في لوشة من مدن مملكة
غرناطة سنة ٧١٣ هـ ، ونشأ بقرطبة في بيئة يسودها العلم والأدب ، وشغف
منذ صباه بدراسة علوم الطب والفلسفة ، فأخذ عن الطبيب المشهور يحيى بن
هذيل ، كما برع في نظم الشعر والكتابة ، ولم يلبث أن دخل في خدمة سلطان
غرناطة أبي الحجاج يوسف بن محمد الخامس (٧٣٣ - ٧٥٥) ، واختير
وزيرا له بعد وفاة الوزير ابن الجياب في وباء سنة ٧٤٩ (٢) . ومنذ ذلك الحين

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، المجلد الأول ، نشره الأستاذ محمد

عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥ ، المقدمة ص ٣١ .

(٢) آنخل جثالث بالنثيا ص ٢٥٢ . F. Pons Boigues, Ensayo bio - bibliografico sobre los historiadores y Geografos arabigo espanoles, Madrid, 1898, p. 335.

ظهرت براءته في الكتابة والنظم ، وتلقى نجمه في الأدب والتاريخ والطب والفلسفة تألقا يشهد به وصوله إلى منصب الوزارة ، وإيفاده إلى المغرب سفيرا من سلطان غرناطة محمد الغني بالله سنة ٧٥٥ هـ إلى سلطانها أبي عنان المريني ، ليستنصره ، ويطلب معونته على ملك قشتالة . ونجح ابن الخطيب في مهمته ، ونال حظوة كبيرة عند السلطان الغرناطي . ثم نفى في سنة ٧٦٠ مع سلطانه محمد الخامس إلى المغرب على أثر الانقلاب الذي قام به أنصار اسماعيل ابن يوسف . وأقام ابن الخطيب في فاس زهاء ثلاث سنوات ، استأثر فيها بزعامة الفكر والكتابة ، وعكف خلالها على القراءة والتأليف والرحلة ، وقد كتب في فترة تقيده عدة كتب ، منها كتاب « اللوحة البدرية في الدولة النصرية » (١) ، وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة سنة ١٣٧٤ هـ ، وكتاب « نفاضة الجواب في علالة الاغتراب » ، سجل فيه مشاهداته في المغرب ، وضمنه ما وقع له من أحداث سياسية في تلك الفترة (٢) ، وكتاب « معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار » ، وهي رسالة كتبها ابن الخطيب في وصف بعض مدن المغرب والأندلس ، نشرها الأستاذ الدكتور مختار العبادي مع مجموعة من رسائل ابن الخطيب (٣) .

ثم انتهت فترة النفي باسترجاع الغني بالله ملكه سنة ٧٦٣ هـ ، فعاد إلى غرناطة وظل يقوم بوظيفته كوزير للسلطان حتى إذا ما أحس بتغير السلطان عليه

(١) أحمد مختار العبادي ، مؤلفات لسان الدين بن الخطيب في المغرب ، مقال في مجلة Hespéris سنة ١٩٥٩ العدد ٣ ، ٤ ، ص ٢٥٢ .

(٢) أحمد مختار العبادي ، مقدمة لكتاب أعمال الأعلام ص ٠ ح ٠ .

(٣) أحمد مختار العبادي ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، مجموعة رسائله ، الاسكندرية ١٩٥٨ ص ٦٩ .

بتأثير وشايات الواشين ، وعلى رأسهم تليذه ابن زمرك الشاعر ، رحل إلى المغرب ، ولاد بالسلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني في تلمسان ، الذي أحسن وفادته ، وأبى أن يسلمه إلى حكومة غرناطة . وظل ابن الخطيب مقيما في المغرب . ولم يتركه أعداؤه ينعم باقامته في المغرب ، فقد عملوا على تدميره في منفاه ، فاتهموه بالزندقة ، وأحرقوا كتبه في غرناطة ، ومازالوا به ينادون باعدامه ، حتى نكبه السلطان أبو العباس أحمد ابن أبي سالم المريني ، فاعتقله ، ودس عليه الوزير سليمان من قتله في السجن خنقا ، ثم حملت جثته وأحرقت .

ويعتبر كتابه « أعمال الأعلام » من الكتب الكبرى التي تناولت تاريخ الدول الإسلامية (١) ، وقد قسمه ابن الخطيب إلى ثلاثة أقسام كبرى : الأول ، وما يزال مخطوطا ، أفرده لتاريخ المشرق الاسلامي ، والثاني خصصه لتاريخ الأندلس منذ الفتح الاسلامي حتى عصر السلطان محمد بن يوسف بن اسماعيل ، وقد نشره الأستاذ ليفي بروفنسال في سنة ١٩٣٤ بالرباط ، وأعيد نشره في بيروت سنة ١٩٥٦ . والثالث أهم الأقسام الثلاثة بالنسبة لتاريخ المغرب ، إذ تناول فيه تاريخ المغرب منذ قيام دولة الأغالة حتى قيام دولة الموحدين . ويبدو أن ابن الخطيب كان ينوى استكمال هذا القسم حتى عصره ، إذ نص على ذلك في فهرسه ، ولسكن لم يتح له أن

(١) يعتبر كتاب أعمال الأعلام آخر إنتاج علمي له قام بتأليفه قبيل مقتله سنة ٧٧٦، وقد صنفه في فاس حينما التجأ إليها بمناسبة تولية أبي زيان محمد السعيد بن عبد المزين سلطنة المغرب أي في الفترة ما بين عامي ٧٧٤ ، ٧٧٦ هـ ، وذلك رغبة في خطب ود السلطان الجديد .

يتمه بعد نكته . وكان هذا القسم ما يزال مخطوطا حتى عهد قريب ، فتولى نشره الأستاذان : الدكتور أحمد مختار العبادي ، ومحمد ابراهيم الكتاني ، بالدار البيضاء سنة ١٩٦٤ .

٤ - محيى الدين عبد الواحد بن على المراكشى ، (ت . النصف الثانى من القرن السابع) : كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب :

ولد عبد الواحد المراكشى فى مراكش فى سنة ٥٨١ هـ فى عهد خليفة الموحدين أبى يوسف يعقوب المنصور ، وتلقى العلوم الدينية فى مراكش وفاس ، على أيدي كبار علماء هذا العصر أمثال أبى بكر بن زهر ، ثم رحل فى سن الثانية والعشرين إلى الأندلس حيث تلقى العلم على شيوخ الأندلس ، فى قرطبة أخذ على أستاذه أبى جعفر الحميرى . وفى إشبيلية اتصل بالسيد ابراهيم بن أبى يعقوب يوسف . فأحبه وقربه إليه . ثم عاد إلى مراكش بعد ذلك فى سنة ٦١٠ هـ . وفى سنة ٦١٣ غادر المغرب الإسلامى إلى المشرق ، وطاف فى أقطاره من مصر إلى الحجاز إلى الشام إلى العراق . وفى أثناء طوافه فى هذه البلاد صنف كتابه المعجب ، استجابة لرغبة أحد الوزراء العباسيين ، وتم الفراغ من هذا الكتاب فى سنة ٦٢١ .

وقد عنى المراكشى فى كتابه « المعجب » ، بتلخيص تاريخ الأندلس والمغرب منذ الفتح العربى حتى عصر الخليفة أبى محمد عبد العزيز بن أبى يعقوب يوسف ، واهتم بوجه خاص بعصر الموحدين ، ثم أضاف إلى كتابه فصلا عن سير المصامدة ، وأخبارهم ، وأحوالهم ، وفصلا آخر عن جغرافية

المغرب . ويعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر التاريخ الاسلامى فى المغرب فى عصر الموحدين ، فقد عاصر المؤلف كثيرا من الأحداث التى وقعت فى هذا العصر ، واعتمد فى الأجزاء السابقة على أخبار الحميدى لم تصل إلينا .

وقد نشر العلامة دوزى هذا الكتاب للمرة الأولى سنة ١٨٤٧ عن المخطوطة الوحيدة المحفوظة فى مكتبة ليدن ، بعنوان The history of the Almohads ، وأعاد طبعه مرة ثانية فى سنة ١٨٨١ ، ثم ترجمه المستشرق الفرنسى فانيان Fagnan إلى الفرنسية ، بالجزائر فى سنة ١٨٩٣^(١) وفى مصر نشر مرتين بالقاهرة ، بعنوان تاريخ الأندلس ، عن طبعة دوزى الأولى ، دون أن يقوم الناشر بتحقيق النص . ثم أعاد الأستاذ محمد الفاسى المراكشى طبعه بفاس سنة ١٩٣٨ ، وأخيرا نشره الأستاذان محمد سعيد العريان ، ومحمد العربى العلمى بالقاهرة فى سنة ١٩٥٠^(٢) .

٦ - الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول :

ذكر صاحب الحلل أنه فرغ من تأليف هذا الكتاب فى ١٢ ربيع الأول سنة ٧٨٣ ، أى فى عصر محمد الغنى بالله سلطان غرناطة ، وأبى زيد بن عبد الرحمن بن أبى الحسن المربى سلطان المغرب^(٣) .

(١) Pons Boigues, op. cit. p. 413.

(٢) عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، حققه الأستاذان محمد . سعيد العريان ، ومحمد العربى العلمى ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، أنظر المقدمة .

(٣) أحمد مختار العبادى ، دراسة حول كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، وأهميته فى تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، ١٩٦٠ ، ص ١٣٩ .

ويتناول صاحب الكتاب تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين والموحدين في شيء من التفصيل ، وقد اعتمد في تصنيف كتابه على مصادر معاصرة ، ذكر أسماء أصحابها ، منهم ابن الصيرفي (المتوفى سنة ٥٧٠) وكان كاتباً للامير تاشفين بن علي بن يوسف ، ألف كتاباً بعنوان الأندلس نوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية ، ومنهم ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان في أخبار الزمان ، ومنهم الجغرافي عبيد الله البكري . كما اعتمد في عصر الموحدين على أبي بكر الصنهاجي الملقب بالبيذق ، صاحب كتاب أخبار المهدي بن تومرت ، وعلى ابن صاحب الصلاة . وكتاب «الحلل الموشية» من الكتب الهامة التي لا يمكن الاستغناء عنها ، في تاريخ دولتي المرابطين والموحدين ، ويمتاز بدقة أخباره التاريخية وصحتها ، خاصة فيما يختص بقيام دولة المرابطين . كما يمتاز أيضاً بمعالجته للنظام الحزبي وأساليب القتال ، وذكره لأنواع الأسلحة المستخدمة في عصر المرابطين والموحدين . وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة في تونس سنة ١٩١٠ ، وأعيد طبعه للمرة الثانية بالرباط في سنة ١٩٣٦ ، ولكن هاتين الطبعتين مليئتان بالأخطاء والتحريف . وفي سنة ١٩٥٢ نشر المستشرق الأسباني امبروسيو إويشي ميراندا الترجمة الأسبانية لهذا الكتاب بمدينة تطوان من بين منشورات معهد الجبال فرانكو (١) .

A.Huici Miranda, " Al - Hulal al - Muwsiyya", Cronica (١)
arabe de las dinastias Almoravide, Almohade y Benimerin,
Tetuan, 1952,

ج — بعض المصادر العربية في وصف مدن المغرب :

١ — البكري [عبيد الله (تونس سنة ٤٨٧ هـ)] ، المغرب في ذكر بلاد

إفريقية والمغرب :

هو أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري ، من أهالي قرطبة ، ولد بها في سنة ٤٣٢ هـ وفيها توفي سنة ٤٨٧ هـ . وكان البكري من بيت معروف بالعلم مشهور بالشرف ، فنشأ البكري نشأة علمية في عصر ارتفعت فيه مكانة العلماء والأدباء ، على الرغم من التفتت السياسي الذي منيت به بلاد الأندلس بعد سقوط الخلافة . أقام البكري في قرطبة ، في ظل بني جهور ، أصحاب هذه المدينة ، وهناك اتصل بالمؤرخ القرطبي الكبير ابن حيان ، وقد كان لهذا الاتصال أثره في تكوينه التاريخي . ثم رحل البكري بعد وفاة ابن حيان في سنة ٤٥٦ هـ إلى المرية ، ثم غادر المرية إلى إشبيلية ، واستقر فيها في كنف المعتمد بن عباد .

لم يغادر البكري في حياته أرض الأندلس ، ولذلك فإن كتبه الجغرافية لاتعدو أن تكون جمعا منظما لجهود من سبقه من المؤرخين والجغرافيين (١) . كذلك أفاد البكري من تواليف لاتينية معربة ككتاب : Etimologia لايذيدور الاشيلي (٢) . ويعتبر كتابه المسالك والممالك أعظم ما صنفه من تواليف جغرافية ، إلا أنه للأسف لم يصل إلينا منه سوى الجزء الخاص بوصف المغرب . ويضمن البكري دراسته للمسالك المؤدية إلى المدن نتفا

(١) Pons Boigues, op. cit. p. 162

(٢) Ibid — آنخل جنثالث بالثيا ، ص ٣١١ .

تاريخية وأخبارا هامة ، استقى قسما كبيرا منها من محمد بن يوسف الوراق ،
وهو مؤرخ مغربي كان قد هاجر من القيروان واستقر بقرطبة .
وقد بدأ كاترمير بترجمة هذا القسم المغربي في الجزء الثاني عشر
من كتابه :

“ Notices et extraits des manuscrits de la bibliothèque du Roi ”

ثم نشر دي سلان النص العربي لهذا الجزء في الجزائر سنة ١٨٥٧
بعنوان :

“ Description de l' Afrique Septentrionale ”

ثم أعاد نشره للمرة الثانية في سنة ١٩١١ ، ونشر الترجمة الفرنسية له في
سنة ١٩١٣ .

٢ - الشيخ الإدرسي (ت ٥٦٤) ، وصف المغرب وأرض السودان
ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » :

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ، ينتسب إلى بيت
الأشراف الأدارسة الحموديين ، ويؤكد العلامة غزيري أن الإدرسي ولد
بسبته في سنة ٤٩٣ ، ولكن دوزي لا يوافق على ذلك^(١) . وتلقى الإدرسي
علومه الأولى في المغرب ، ثم انتقل إلى الأندلس ، حيث أقام فترة من الوقت
في قرطبة ، أتم فيها دراساته ، ثم رحل إلى الأندلس والمغرب ومصر وآسيا
الصغرى ، وزار صقلية ، واتصل بملكها رجار (Roger II) ، فقربه هذا

إليه ، وكان رجار مولعا بعلوم الفلك والجغرافيا ، ووجد في علم الإدريسي واتساع أفقه الجغرافي ، ما جعله يتمسك به ، ولم يزهد الإدريسي الإقامة في الجزيرة في كنف هذا الملك ، وعندئذ عهد إليه رجار بتصنيف كتاب في صفة الأرض من واقع مشاهداته ، فعكف الإدريسي على تصنيفه حتى أتمه في سنة ٥٤٨ هـ . وأضاف إليه قسما سماه : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ويعرف في كتب الجغرافيا العربية باسم الكتاب الرجاري Libro Rogeriano . والكتاب يزخر بالمعلومات القيمة عن بلاد المغرب والأندلس ، ومعظمها معلومات شخصية استقها من مشاهداته في رحلاته وأسفاره ، ومن مصادر أخرى .

وقد نشر دوزي ودي غويه الجزء الخاص بأفريقية والأندلس من نزهة المشتاق ، في ليدن سنة ١٨٦٦ بعنوان : Description de l' Afrique et de l' Espagne.

وقد أعاد سافدرا نشر هذا الكتاب مصححا ، في مدريد سنة ١٨٨١ .

٣ - كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، لـ كاتب مراكشي من

كتاب القرن السادس الهجري :

تدل المعلومات الوافية ، والتفصيلات الغزيرة التي وصف بها صاحب هذا الكتاب بلاد المغرب على أنه مغربي الأصل ، وأنه كان يعمل في ديوان الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور ، والكتاب يشتمل على معلومات تاريخية وجغرافية وأثرية وعمرانية دقيقة ، تبعده عن التواليف الجغرافية الخالصة . وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام مختلفة : الأول منها يتضمن وصفا للمدن المقدسة بالحجاز ، والثاني مخصص لوصف مصر ، والثالث ، وهو أهم

هذه الأقسام وأكثرها دقة ، إذ ضمنه المؤلف مشاهداته وملاحظاته في المغرب ، باعتباره مراكشياً أكثر إحاطة بمواضع بلاده من مدن المشرق التي طاف بها ، ولا تقف أهمية هذا القسم المغربي إلى هذا الحد ، فقد اهتم أيضاً بثروات بلاده الزراعية والمعدنية والمائية في كل مدينة من مدنه ، وقد نشر المستشرق فون كرامر هذا الجزء الخاص بالمغرب في فيينا في سنة ١٨٥٢ بعنوان : Description de l' Afrique, par un géographe arabe anonyme du VI^e siècle de l' Hégire .

وقام فانيان بترجمته إلى الفرنسية في سنة ١٩٠٠ بعنوان : L' Afrique Septentrionale au XII^e siècle de notre ère; extrait du Recueil des notices et mémoires de la Société Archéologique de Constantine .

وأخيراً قام الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد سنة ١٩٥٨ ، بتحقيق الكتاب كله ، معتمداً في ذلك على ثلاثة مخطوطات^(١) .

٤ - ابن أبي زرع (ت . في منتصف القرن الثالث الهجري) : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس :

هو علي بن محمد بن أحمد بن عمر بن أبي زرع الفاسي ، وكان كاتباً لأبي سعيد عثمان المريني (٧١٩ - ٧٣١) ، وكتابه « روض القرطاس » من أهم مصادر تاريخ المغرب الإسلامي كله ، إذ ضمنه المؤلف معلومات هامة لتاريخ هذه البلاد منذ قيام دولة الأدراسة وتأسيس فاس حتى عصره .

(١) كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، لكتاب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري ، نشره وعلق عليه الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الإسكندرية ، ١٩٥٨

ولكن هذه المعلومات يشوبها الخطأ في كثير من الأحيان ، ومن أمثلة ذلك ، أنه ينسب بناء مدينة مراکش خطأ إلى يوسف بن تاشفين ، في حين يتفق ابن عذاري وصاحب الحلل الموشية على أن مراکش من بناء أبي بكر عمر اللمتوني سنة ٤٦٢هـ (١) .

وقد نشر تورنبرج هذا الكتاب في أبسالة سنة ١٨٤٣ ، فصدر في جزئين مع ترجمة لاتينية ، ثم ترجمه الأستاذ بومييه إلى الفرنسية في سنة ١٨٦٠ ، بينما تولى الأستاذ أمبروسيو إويشي ميراندا نقله إلى الإسبانية في سنة ١٩١٨ (٢) . وطبع هذا الكتاب طبعة حديثة في الرباط سنة ١٩٣٦ ، ولكنها للأسف طبعة غير كاملة .

(١) أحمد مختار العبادي ، دراسة حول كتاب الحلل الموشية ، ملاحظة رقم ٢١ ،

ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٢) أنخل جنتالت بالثيا ، ص ٢٥١ .

الباب الأول

فتح العرب لبلاد المغرب

الفصل الأول

المرحلة الأولى من فتح المغرب

- (١) صعوبة البحث في تاريخ الفتح العربي للمغرب .
- (٢) جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية .
- (٣) مرحلة الغارات (٢١ - ٤٩ هـ / ٦٤٢ - ٦٦٩ م) .
 - أ - المحاولات الأولى في زمن عمرو بن العاص : غزو برقة .
 - ب - حملة عبد الله بن سعد : غزوة سبيطرة .
 - ج - حملة معاوية بن حديج على إفريقية (٤٥ - ٦٦٦ م) .

الفصل الأول

المرحلة الأولى من فتح المغرب

(١)

صعوبة البحث في تاريخ الفتح العربي للمغرب

يعانى الباحثون في تاريخ الفتح العربي للمغرب صعوبات كبيرة في كتابة هذا التاريخ ، إذ أن معظم ما ورد في المصادر العربية من أخبار على قلتها ، يعوزها الدقة ، وينقصها الترابط ، ويكتنفها الغموض ، بسبب ما يحيط بها من روايات خرافية ذات طابع أسطوري ، منقولة من مصادر مختلفة من حيث الزمان والمكان ، وأقدمها يرجع إلى عصر متأخر كثيرا عن حوادث الفتح . ولهذا فإن الباحث في تاريخ الفتح العربي يواجه مشكلة كبيرة للتوفيق بين هذه المعلومات المتناقضة فيما بينها ، في معظم الأحيان ، من حيث الترتيب الزمني ، ولضبط الحقائق التاريخية واستخلاصها من بين ما يحيط بها من قصص خرافية وأساطير . صحيح أن ما لدينا من معلومات يوضح لنا بصورة إجمالية المراحل التي تم بها فتح العرب للمغرب ، ولكن الباحث في تفاصيل هذا الفتح ، لا بد له أن يخوض وسط خليط متباين من الأخبار التي يغلب عليها الطابع الخرافي ، حتى يتيسر له تصفية هذه الأخبار مما يشوبها من عوامل الخرافة والتباين ، ومثل هذه المهمة الصعبة تتطلب من الباحث صبرا وجلدا في مقابلة الروايات بعضها ببعض ، وتمييز الفث من الثمين ، والأصلي من الزائف .

ويرجع هذا الارتباك والغموض في أخبار الفتح إلى عدة عوامل : منها أن هذه الأخبار كانت تنقل شفاهاً قبل أن يتم تدوينها ، مما يجعلها عرضة للتحويل والتبديل أثناء تنقلها بين الرواة ، كما يتمثل فيما ورد في « فتوح إفريقية » للواقدي ، إذ أشار إلى فتح سببية ، وجعل منها قصة من قصص البطولة ، في حين أن فتح سببية لم يرد في سياق الحديث عن الفتوح المغربية في المصادر الموثوق بها ، وإنما ورد ذكرها كوقعة كبرى بين العرب الهلالية ، وبين بني حماد الصنهاجيين ، وذلك سنة ٤٥٦ هـ ، مما يدل على وجود خلط واضح بين هذه الرواية وبين هجرة قبائل بني هلال إلى المغرب ^(١) . ومنها أن معظم هذه الأخبار ، على حد قول الأستاذ ليفي بروفنسال ، « تشوبه شوائب التحيز الظاهر » ^(٢) ، نتيجة لخضوعها للعامل القبلي النابع من طبيعة تنظيم العرب القبلي ، حسبما يراه الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، فكل جماعة « تأخذ بالرواية التي ترضى نزعتها أو نعرتها القبلية ، بل وتغير فيها حتى تلائم منزعها هذا » ^(٣) ، ومن أمثلة هذا التحيز القبلي ، أن الواقدي نسب في كتابه فتوح إفريقية نحر فتح المغرب إلى قبائل اليمن ، وإلى قبيلة حمير بالذات ^(٤) . ومنها أن روايات الفتح كانت تخضع أيضاً للميول السياسية

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية ، والأسطورة الشعبية ، مقال بمجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، العدد ١٦ ، سنة ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ ص ٤٠ .

(٢) ليفي بروفنسال ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤ ص ١٩٣ .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ص ١ .

(٤) نفس المرجع ص ٣٦ .

والأهواء الحزبية ، فكل فريق يسعى جاهدا إلى تحطيم خصومه عن طريق الطعن ، والغمز ، وتشويه الواقع التاريخي ، فهناك من مؤرخي الفتح من يمجّد بنى الزبير كأبطال للفتح العربى لمصر والمغرب ، ومعظم هؤلاء المؤرخين استقى أخباره عن طريق ابن لهيعة الذى أخذ عن عروة بن الزبير ، وهشام ابن عروة ، أو من نافع مولى آل الزبير الذى نقل عنه الواقدي . وهناك من تغنى بأجداد العلويين ، فخلطوا المهديّة التى أسسها الفاطميون بالقيروان التى أسسها عقبة بن نافع ، ونسبوا بطولة الفتح إلى أبطال علويين بدلا من أبطاله الحقيقيين^(١) . ومنها إطلاق العرب العنان لملكاتهم الحسية والخيالية الخصبية فى تصويرهم للحوادث التاريخية .

ومع هذه الصعوبات التى تعترض سبيل الباحثين فى تاريخ الفتح العربى للمغرب ، توصل بعض المؤرخين المحدثين إلى معالجة تاريخ هذا الفتح بطريقة علمية منظمة ، فقابلوا بين النصوص ، واستخلصوا الحقائق الثابتة من سياق الروايات الأسطورية ، فظهرت أبحاث نقدية قيمة نذكر منها على سبيل المثال كتاب : Georges Marçais, La Berberie musulmane et l' Orient au Moyen âge, Paris, 1946, pp. 19 - 40.

وبحث الأستاذ برنشفيج عن ابن عبد الحكم وفتح العرب للمغرب :

Brunchvig, Ibn Abd alhakam et la conquête de l' Afrique du Nord, par les Arabes, étude critique, dans A. I. E. O. VI, 1945 - 1947.

والدراسة النقدية لمخطوط « فتوح مدينة إفريقية » للواقدي ، وهى دراسة قيمة قام بها الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، بعنوان

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ٣٠ .

« فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية » ، بمجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، العدد ١٦ سنة ٦٣ - ١٩٦٣^(١)، والبحث الكبير الذي قام به الأستاذ الدكتور حسين مؤنس عن فتح العرب للمغرب ، وهي دراسة متكاملة لكل جوانب الفتح منذ المحاولات الأولى حتى دور الاستقرار والتعريب ، قابل فيها المؤلف بين النصوص المختلفة ، والروايات المتعارضة ، واستخلص منها مادة علمية كبيرة ، تعتبر من المصادر الرئيسية في هذا الموضوع .

ومع ذلك فما زالت بعض جوانب من تاريخ الفتح العربي للمغرب يكتنفها الغموض ، ويحتاج الأمر إلى معلومات تاريخية جديدة تلقى ضوءاً على هذا الغموض ، فتبيده ، وتسد الفجوات التي تتخلل معلوماتنا عن هذا الفتح .

(١) للدكتور سعد زغلول كتاب حديث ما يزال تحت الطبع خصصه لتاريخ الفتح العربي للمغرب ، ونعتقد أن هذا الكتاب سيوضح مواضع الغموض في هذا التاريخ .

(٢)

جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية

١ - حدود افريقية والمغرب :

عرفت بلاد المغرب منذ أقدم العصور بأسماء مختلفة ، فكان الإغريق يسمون القسم الشمالى منها الذى كان يسكنه العنصر الأيبىض باسم لیبو أو لیبیا ، بينما كانوا يطلقون على الصحراء اسم بلاد الأحابش السود^(١) . أما لفظ إفريقية Africa ، فقد أطلقه الرومان على الإقليم الذى يقابل اليوم الجزء الشمالى الشرقى من الجمهورية التونسية ، ويشتمل على قرطاجنة وما حولها حتى نوميديا غربا ، وكان يعرف باسم ولاية إفريقية القنصلية Africa Proconsularis^(٢) ، وهو الاسم الذى عرب فيما بعد إلى إفريقية ، وأطلقه العرب بادئ ذي بدء على كل ما يلى إقليم طرابلس غربا^(٣) . ثم تحدد مدلول إفريقية ، فاقصر على ما يلى إقليم طرابلس غربا حتى بجاية ، فافريقية فى معظم المصادر العربية تعنى الإقليم الذى توسطه القيروان ، ويمتد من إطرابلس حتى بجاية .

(١) André Julién, Histoire de l'Afrique du Nord, Paris 1921, p.9

(٢) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب ، ص ٢ .

(٣) ذكر ابن عبد الحكم أن عمرو كتب إلى الخليفة عمر يستأذنه فى غزوة إفريقية فقال : « ان الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين افريقية الا تسعة أيام » (ص ٤٠ ط . البيرجاتو) . ونفهم من هذا أن المقصود بإفريقية الإقليم الذى يلى إطرابلس من جهة الغرب .

أما المغرب فيشمل كل ما يلي مصر غربا حتى المحيط الاطلسي (١) ،
وتوسطه إفريقية . (٢) وعلى هذا النحو يمكننا أن نقسم بلاد المغرب إلى
أربعة أقسام هي :

١ - برقة وإطرابلس، وهما أول كور المغرب من جهة الشرق ، وبعض
المؤرخين يدمج هذه الكورة إلى إفريقية ، وبعضهم يفصلها عن المغرب (٣) .
ولكن الغالب أن برقة وطرابلس كانا جزءا لا يتجزأ من المغرب
الإسلامي .

٢ - إفريقية ، وهي الولاية الشرقية من مجموع بلاد أطلس وهي البلاد

(١) ذكر ابن حوقل أن المغرب « من مصر وبرقة الى افريقية وثاحية تنس الى
سبته وطنجة » (أنظر كتاب صورة الأرض ، طبعة بيروت ١٩٦٢ ص ٦٤ . والمقدسي
يجعل حدود المغرب من مصر الى السوس الاثقي وجزيرة صقلية والاندلس ، وأول
كورة من ناحية مصر برقة (أنظر المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعة ليدن
سنة ١٩٠٦ ، ص ٢١٦) . كذلك يدخل اليعقوبي بلاد برقة من جملة أقاليم المغرب (كتاب
البلدان طبعة ليدن ، ١٨٩١ ، ص ٣٠٢ - ٣٤٣) .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة افريقية ، المجلد الأول ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥
ص ٢٢٨ . ويذكر ياقوت أن « افريقية اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة
صقلية ، وينتهي آخرها الى قبالة جزيرة الأندلس » ، ويذكر في موضع آخر « وحد
افريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والاسكندرية الى بجاية » . وينقل عن البيروني
أنها سميت افريقية لأنها فرقت بين مصر والمغرب . ويحدد عبد الواحد المراكشي افريقية
من أنطابلس (برقة) شرقا الى قسطنطينة غربا وتدخل طرابلس في هذه الحدود
(المراكشي ، المعجب ، ص ٣٤٩) . أما المغرب ، فما بعد قسطنطينة الى المحيط (ص ٣٥٧)

(٣) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب
الاثقي ، ج ١ ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ص ٧١ .

التي تمتد من خليج سرت الكبير شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، وسمهاها العرب لذلك بالمغرب الأدنى لأنها أقرب إلى بلاد العرب ودار الخلافة بالحجاز والشام . وتمتد من إطرابلس شرقا حتى بجاية أو تاهرت غربا ، وقاعدة إفريقية هي مدينة القيروان .

٣ - المغرب الأوسط ، ويمتد من تاهرت حتى وادي ملوية وجبال تازة غربا ، وقاعدته تلمسان وجزائر بني مزغنة .

٤ - المغرب الأقصى ، وسمى كذلك لأنه أبعد أقسام المغرب عن دار الخلافة ، ويمتد من وادي ملوية شرقا حتى مدينة آسفي على المحيط الأطلسي غربا ، وجبال درن جنوبا (١) .

ولفظ إفريقية مشتق من كلمة أفري Aphri التي أطلقها الفينيقيون على سكان أوتيكا Utica وقرطاجنة ، ثم عممه اليونان بعد ذلك ، فأطلقوه على سكان المغرب من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي (٢) .

ب - جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية :

واجه العرب عند فتحهم لبلاد المغرب صعوبات كثيرة ، فاستغرق نحو سبعين سنة ، بينما استغرق فتحهم لمصر والشام والعراق وفارس أقل من عشر سنوات ، ويرجع سبب ذلك إلى ثلاثة عوامل : عامل جغرافي ناشئ من طبيعة بلاد المغرب الجبلية ، ووعورة مسالكها ، وعامل اجتماعي ، وهو النعرة .

(١) نفس المرجع - حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ ص ١٣

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢٠

القبلية ؛ وعامل نفسي نتج عن ذلك من تكتل وتضامن بين قبائل البربر ضد الفاتحين .

تؤلف بلاد المغرب ، ابتداء من خليج سرت الكبير حتى المحيط الأطلسي ، أى باستثناء بلاد برقة وطرابلس ، بأقسامها السياسية الثلاثة ، تونس والجزائر ومراكش ، وحدة جغرافية واثنولوجية مستقلة عن بقية أجزاء القارة ، حتى أنها عرفت في القرن التاسع عشر لدى الجغرافيين باسم أفريقيا الصغرى ، تميزا لها عن بقية القارة الإفريقية ، أو ببلاد أطلس ، توكيدا لسطحها الجبلي ^(١) ، ولارتباطها منذ أقدم العصور بروابط طبيعية وسياسية وثيقة . أما إقليم برقة وطرابلس الذي يعرف اليوم بالمملكة الليبية فكان امتدادا لمصر من الناحية الجغرافية ، ولذلك فاننا نجد المغرب بأقسامه الثلاثة المذكورة يتسم خلال عصور التاريخ بطابع خاص يميزه عن غيره ^(٢) ، وقد أثر ذلك على حضارته التي ظلت منعزلة ، منطوية على نفسها ، محافظة على أصولها عبر التاريخ . فهو مغلق من الناحية التضاريسية أمام أى تأثيرات خارجية ، بينما نجد القطر الليبي مفتوحا للتأثيرات الحضارية الشرقية التي كانت تندفق عليه من مصر والشام .

ويعتبر المغرب الأقصى أكثر أقطار المغرب عزلة ، ولا يربطه ببقية المغرب إلا طريقان فقط ، ولذلك كان المغرب الأقصى أقل أجزاء المغرب تأثرا بالأحداث السياسية الكبرى التي تمر عليه ، كما أنه كان أقل أجزاء المغرب

A. Julien, p. 9 (١)

(٢) لاحظ ابن خلدون ذلك ، اذ يذكر أن « المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار ،

(أنظر كتاب المهز وديوان المبتدأ والخبر ط . بولاق ١٢٨٤ هـ ، ج ٦ ص ٩٨) .

تأثرا بالأحداث السياسية الكبرى التي تمر عليه ، كما أنه كان أقل أجزاء المغرب تعرضا للغزوات القادمة من الشرق ، إذ لم تكن تصل إليه إلا بعد أن تكون قد استنفذت كل قواها . ودليل ذلك أن بني هلال الذين غزوا برقة واطرابلس وإفريقية والمغرب الأوسط في القرن الخامس الهجري ، وأتوا على معالم حضارة هذه الأقاليم ، لم يتمكنوا من النفاذ إلى المغرب الأقصى ، في الوقت الذي احتلوا فيه طرابلس وتونس والجزائر .

وارتباط بلاد المغرب جغرافيا وإثنولوجيا يرجع قبل كل شيء إلى امتداد جبال أطلس من المجموعة الألبية في قلب المغرب من أقصاه الغربي إلى أقصاه الشرقي (أنظر خريطة رقم ٣) ، في سلسلتين :

إحداهما شمالية ، وتتفرع إلى فرعين ، فرع يمتد من الشمال الغربي ابتداء من طنجة إلى الشرق بحذاء ساحل العدو حتى مليلة ، ويعرف بجبال الريف ، وهي جبال متوسطة الارتفاع ، تتخذ شكل قوس يحتضن الساحل الشمالي من سبتة إلى مليلة ، تاركا سهلا ساحليا ضيقا في هذه المنطقة (١) . والفرع الأساسي من هذه السلسلة يمتد من المحيط الأطلسي ، شمالي وادي سوس نحو الشمال الشرقي ، ويعرف باسم أطلس التل . وتمتاز هذه الجبال بارتفاعها وانحدارها الشديد نحو السواحل الشمالية ونحو الأحواض الجنوبية المنعزلة بين أطلس التل وأطلس الصحراوي ، وعلى الأخص في القسم الغربي من

(٣) محمد عبد المنعم الشرقاوي ، ومحمد محمود الصياد ، ملامح المغرب العربي ،

المغرب الأوسط (١) والجزء الشرقي من هذه الجبال أقل ارتفاعا ، وأكثر تقطعا ، وتنتهى هذه الجبال شرقا بجبل خمير في تونس .

أما السلسلة الجنوبية من جبال أطلس فتتمدد في جوف الصحراء من جنوبي وادي سوس حيث تحمل اسم جبال أطلس الكبرى ، وإلى جنوب هذه السلسلة سلسلة أخرى صغيرة يسميها ابن خلدون بجبال درن (٢) . وتمتد جبال هذه السلسلة المسماة بأطلس الكبرى في موازاة جبال أطلس التل ، وتنتهى جنوبي تونس بجبال زغوان . وجبال أطلس الكبرى أكثر جبال أطلس ارتفاعا ، ولا توجد بها ممرات تيسر الاتصال بين المغرب الأقصى والمغربين الأوسط والأدنى ، ولذلك كان لهذه الجبال أثر كبير في العزلة التي فرضت على المغرب الأقصى . وتشتمل هذه السلسلة من الجبال على جبال القصور ، وجبال العمور ، وجبال أولاد نايل ، وجبال الزاب ، وجبال أوراس ، ومعظم هذه الجبال تكسوه الغابات وتتوجه الثلوج .

وتنحصر بين هاتين السلسلتين الجبليتين هضاب يشغل سكانها برعى الماشية ، وأغلبها يقع ما بين جبال أطلس التل وأطلس الكبرى في المغرب الأوسط (٣) ، وتعرف الهضاب في المغرب الأوسط باسم هضبة الشطوط ، أما هضاب الجنوب الغربي منها فأكثر ارتفاعا ، وتبدو حدودها الجنوبية الغربية واضحة المعالم حيث تشرف على سهل تادلا ، وكذلك حدودها

(١) نفس المرجع — Julien, p. 18

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٠٠ .

(٣) المشرقي ، تاريخ إفريقيا الشمالية ، ص ١٣ — Julien, pp. 18, 19.

الشرقية حيث يجري وادي ملوية ، وفي الشمال حيث يقع ممر تازة ، المدخل الوحيد إلى المغرب الأقصى . أما الحدود الجنوبية فيصعب تمييزها نظرا لأقترابها من جبال أطلس الصحراوي لدرجة الالتصاق .

وسهول المغرب تقع غالبا على ساحل المحيط الأطلسي وساحل العدو والبحر المتوسط ، وأشهرها سهل شاوية ودكالة وعبدة بالمغرب الأقصى . أما السهول الساحلية بالمغرب الأدنى فتكاد لا تذكر لضيقها ، وذلك بسبب اقتراب الجبال من الساحل التونسي . وهناك سهول تكونت حول وديان صغيرة تجري فيها الأنهار ، منها سهل ماكتة ، وسهل زيق بوهران ، وسهل وادي شليف في المغرب الأوسط ، وسهل وادي مجردة في المغرب الأدنى ، وسهلا فاس ومكناس في المغرب الأقصى . كما أن هناك مجموعتان من السهول الداخلية : الأولى تمتد من مصب نهر تنسيفت إلى وادي ملوية ، وتشتمل على السهل المطل على المحيط ، وسهول سبو ، وممر تازة ، وسهول ملوية الدنيا التي تؤلف الطريق الطبيعي ما بين جبال أطلس والمغرب الأوسط ، والأخرى تشتمل على سهل الحوز الذي يخترقه نهر تنسيفت^(١) ثم منخفض تادلا . أما المغرب الأدنى فيشتمل على سهول داخلية تقع حول الواحات نذكر منها نقطة وتوزر وققصية ، وتسمى جميعا بلاد قسطيلة . أما الواحات فتوجد جنوبي إقليم طرابلس في منطقتي فزان وودان (٢).

وهكذا كان لطبيعة بلاد المغرب أثر حاسم في مصائرنا التاريخية ، فان انقسامها إلى ولايات مستقلة ، قضى على وحدتها السياسية خلال العصور

(١) Julien p. 18

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٠١ .

المختلفة ، وأتاح تكوين جماعات بشرية محافظة على تقاليدھا وتراثھا الإجتماعی والأدبی ، قاومت حتى وقتنا الحاضر أحداث التاريخ . ثم إن الاتجاه العام لسلاسل الجبال فی صفوف موازية للساحل قد یسر سبل الاتصال بین شرق البلاد وغربھا حتى بداية المغرب الأقصى ، فی الوقت الذی أقام فیہ الحواجز المنیعة بین الساحل وجوف البلاد ، مما جعل بلاد المغرب بلادا مغلقة أمام التأثيرات الأوربية بوجه خاص . وتقتصر هذه التأثيرات على المناطق الساحلية ، إذ تقف أمامها جبال أطلس التل أما التأثيرات الإفريقية فخطها أعظم ، فهي تنفذ من جبال درن وتخترق الهضبة الواقعة بین سلسلتی جبال أطلس حتى تصل إلى داخل المغرب . وكما أثرت هذه الطبيعة الجبلية الوعرة على حضارة المغرب ، فانھا أثرت أيضا على سكان المغرب ، فقد كان لغلبة الطابع الجبلی وبعد المسافات بین المراكز العمرانية المختلفة، وصعوبة الاتصال فیما بینھا أثر عمیق فی حياة السكان . فقد طبعتهم بطابع الخشونة والشجاعة والجلد وحب القتال والاكتفاء بالغذاء الضروري ، وأثرت فی أبدانهم ، فأكسبتها النحولة والضمور مع القدرة على الاحتمال والسير مسافات طويلة دون كلل أو تعب ، كذلك أكسبتهم هذه البيئة الوعرة حدة الخلق والعناد والمقاومة، وهذا یفسر قیام السكان فی العصور المختلفة بمقاومة الغازین والفاطحین، وساعدتهم الطبيعة على المقاومة ، فهم یتحصنون فی قمم الجبال ، وفی مناطق یصعب على الفاتحین الوصول إليها ، ثم ینحدرون من مضاربهم فی الجبال والهضاب فی موجات عاتية ، یتدفقون على الغزاة ، ویقطعون علیهم خط الرجعة ، یمزقون صفوفهم ، ثم یغیرون على الحواضر ، ویدمرون العمران . ولذلك تأخر فتح العرب للمغرب سنین طويلة ، فبینما أتم العرب فتح مصر والشام والعراق وفارس فی فترة لا تزيد على عشر سنوات ، استغرق فتحهم للمغرب

ما يقرب من ستين سنة ، وتم لهم ذلك بعد محاولات طويلة مضنية ، تعرضوا فيها لمقاومة لم يشهد العرب لها نظيرا في فتوحاتهم . ولم يكد العرب يستقرون في بلاد المغرب ويعربونها حتى اشتعلت نيران الثورة عليهم في المغرب الأقصى ، ولم ينجح خلفاء بنى مزوان في القضاء على هذه الثورة إلا بعد أن عبأوا لها الجيوش على نحو ما سنفصله فيما بعد .

أما العامل الاجتماعى فأساسه سكان المغرب أنفسهم ، وكانوا يتألفون من ثلاث طوائف :

١ - الروم ، وهم البيزنطيون . ٢ - الأفارق أو الأفارقة ، وهم بقايا شعب قرطاجنة وأخلاق من المستعمرين اللاتين ، والوطنيين الذين تأثروا بالحضارة الرومانية والبيزنطية ، وكانوا يدينون بالطاعة والولاء لساداتهم البيزنطيين ، ويشغلون لهم بالزراعة والصناعة (١) .

٣ - البربر وهم سواد سكان المغرب .

والبربر من Barbari ، وهو اسم أطلقه الرومان على سكان المغرب ، لأنهم كانوا يعتبرونهم أعاجم على حضارتهم ، فسموهم برابرة ، وعربت إلى بربر وبرابر (٢) . والبربر هم سكان المغرب الأصليون ، وقد اختلف المؤرخون في إثبات وطنهم الأصلي ، فمنهم من يزعم أنهم وفدوا من أوروبا ، ومنهم

(١) يقول ابن عبد الحكم عن الأفارق « وأقام الأفارق وكانوا خدما للروم على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم » (أنظر فتوح إفريقية والأندلس ، ص ٣٤) . وقد يكون الأفارق من كلمة أفرى وهو الاسم الذى أطلقه الفينيقيون على سكان البلاد .

من يزعم أنهم قدموا من آسيا في عصر ما قبل التاريخ (١). ويعتقد بعض علماء الأنثروبولوجيا (علم دراسة الإنسان) أمثال سيرجي وسليجمان في وجود ثمة قرابة جنسية بين البربر والساميين، معتمدين في ذلك على تقارب لغة البربر الدارجة مع اللغات السامية (٢)، وعلى وجود بعض التشابه في الصفات الجثمانية، ويعتقد هؤلاء أيضا أن تغفل السامية في بلاد المغرب لم يتم إلا في العصر النيوليتي، لأن البربر ظهرُوا في التاريخ منذ ثلاثة آلاف سنة، تحت اسم ليبو، وكان هؤلاء الليبو يتميزون بشقرة لون الشعر وزرقة العينين وبياض الوجه، وهي صفات ما تزال تنطبق على بعض سكان المغرب في الريف وجبال جرجرة (قبيلي) بالمغرب الأوسط. على أنه لم تلبث أن تداخلت مع هؤلاء السكان عناصر جديدة قدمت في موجات متتابة منذ أقدم العصور، بعضها يهودية، وبعضها سامية، وبعضها هندو أوروبية، كاللاتين والوندال والافريق، وبعضها زنجية. ولعل هذا يفسر انقسام البربر من حيث الصفات البدنية إلى نوعين مختلفين: الأول ويشمل أغلبية سكان البلاد، ويتميز بلونه الأسمر، وشعره الأسود، ورأسه المستدير، وخديه البارزين وأنفه القصير، وجبهته المقوسة. ويشبه هذا النوع من البربر سكان جنوبي إسبانيا وإيطاليا: والثاني يتميز بشقرة لون الشعر، وزرقة العينين (٣).

(١) Pellegrin, p. 31 — المرفى، ص ٢٥.

(٢) هناك تشابه كذلك بين اللغة البربرية الدارجة وبين اللغة المصرية القديمة والقبطية

وبعض اللغات الزنجية.

(٣) Terrasse, Histoire du Maroc, t. I, Casablanca. 1949, p. 17

وينقسم البربر من الوجهة الاجتماعية إلى مجموعتين مختلفتين : البربر الحضري ، ويسكنون السهول الخصبة والمدن أو الهضاب المزروعة ، ويتصلون بالحضارة القرطاجنية واللاتينية ، ويعيشون على الزراعة والصناعة ، والبربر الرحل ، ويعيشون على الرعي ، ويميلون للاغارة على السهول وما يجاورهم من عمران (١) . فلما فتح العرب بلاد المغرب وفطنوا إلى التشابه الكبير بينهم وبين البربر في انقسامهم إلى قبائل وبطون وفي صفاتهم (الشجاعة ، والخشونة ، وحب القتال ، وحدة الخلق) قسموا البربر إلى جذمين عظيمين : برنس ومادغيش الأتر ، على نحو انقسامهم هم إلى قحطانيين وعدنانيين . وينسب البتر إلى مادغيش بن بر الملقب بالأتر ، فسموا لذلك بتراء ، وينسب البرانس إلى برنس بن بر فسموا لذلك برانسا (٢) . ويعتقد ابن خلدون أن البتر والبرانس من ولد مازيغ بن كنعان الذي يرتفع نسبه إلى حام بن نوح (٣) . وهناك من المؤرخين من يفسر تسمية البرانس والبتر على أساس اجتماعي ، فيقسمون البربر إلى قسمين : قسم يسكن المدن ، ويحضر بالحضارة اللاتينية ويسمون بالبرانس ، وقسم متبدى يسكن البادية ويسمون بالبتر . ويبدو أن أصحاب هذا الرأي يعتمدون على مصادر عربية ، منها ما ذكره اليعقوبي في البلدان عند تعرضه لقبائل البربر البرانس فيقول : « ثم مدن بعد ذلك سكانها صنهاجة وزواوة يعرفون بالبرانس ، وهم أصحاب عمارة وزرع وضرع » (٤) .

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦ وما يليها .

(٢) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ٨٩ — السلاوي ، ج ١ ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٨٩ .

(٤) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٣٥٢ .

وهذا التقسيم لا يمكن إلا أخذ به لأن قبيلة زناتة البترية الأصل كانت على حد قول ابن خلدون أكثر قبائل البربر حضارة وعمرانا (١) ، ولذلك يجعلها فرعاً مستقلاً عن سائر البربر، ثم إن المتبدين من البربر كانوا يؤلفون السواد الأعظم من سكان المغرب ، ولا يعقل أن ينقسم شعب البربر هذا التقسيم غير المتكافئ من ناحية النسبة العددية. وأما تفسير البتر بأنهم سموا كذلك لتجردهم من زى معين يعرف بالبرنس بعكس البرانس الذين يتدثرون به (٢) ، فهو تفسير لغوى لا يقوم على أساس علمى متين ، فليس لزاماً على البترى أن يلبس البرنس ، وليس شرطاً على البرانسي أن يرتديه . وقد أشار الدكتور حسن محمود إلى وجود خلاف عميق الجذور بين طائفتي البتر والبرانس جعل كل طائفة منها تقف للآخرى بالمرصاد ، وتربص بها الدوائر لتنتقم منها ، وهو لذلك لا يستبعد أن يكون « القسمان يمثلان موجتين بشريتين مختلفتين ، واحدة تمثل أهل البلاد الأصليين ، والآخرى تمثل الوافدين الجدد الذين اغتصبوا من أهل البلاد بلادهم ، وخصوصاً إذا لاحظنا أن أغلب المؤرخين يقولون أن صنهاجة البرنسية ، تنسب إلى العرب ، إلى حمير (٣) . ويفسر صاحب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية اسم البتر نسبة إلى مادغيس بن بر الذى كان يلقب بالآبتر ، ولذلك سموا بالبتر ، « وهو أبو البتر من

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٨٩ — حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٠ .

(٢) René Basset, Enc. de l' Islam — عبد الحميد العبادى ، الجمل في تاريخ الأندلس ، العدد الأول من سلسلة المكتبة التاريخية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٢ .

(٣) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣١ .

البربر وإليه يرفعون أنسابهم (١) .

وينقسم بربر البرانس إلى سبع قبائل كبرى هي: أوربة، وصنهاجة، وكتامة، ومصمودة، وأوريفة، وأزداجة، وقيل عشرة، وهي السبعة السابقة، يضاف إليها لمطة، وهسكورة وجزولة (٢). وتعتبر قبيلة صنهاجة أكبر قبائل البربر حتى لقد زعموا أنهم يؤلفون ثلث شعب البربر، وكان منهم بنو زيري بن مناد أصحاب إفريقية بعد استقرار الفاطميين في مصر، والملثمون (٣). وقد غلب على صنهاجة طابع التبدى، ففرقت في كثير من أنحاء المغرب، وكانت أكبر بطون صنهاجة قبيلة زناجة، وتعيش على جبال أطلس جنوبي تازة، كما احتلت بعض قبائل صنهاجية جزءا هاما من إقليم الريف، واختصت قبائل أخرى بمنطقة آزمور (٤).

وكتامة من القبائل البرانسية الكبرى التي لعبت دورا هاما في تاريخ المغرب، فعلى أكتافها قامت دولة الفاطميين بالمغرب ومصر. وتعتبر مصمودة من أهم قبائل بربر البرانس حتى أن بعض المؤرخين يجعلها فرعاً قائماً بذاته. ومن المصامدة غمارة التي تحتل منطقة العدو من الريف، وبرغواطة أهل تامسنا، وأهل جبل درن الذين قاموا بدعوة المهدي ابن تومرت، وكانوا يعيشون فيما بين بورجرج وأم الربيع، ومن المصامدة المستقرين في السهول

(١) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر،

١٩٢٠ ص ١٣ .

(٢) ابن خلدون، ج ٦، ص ٩٠ - الاستقصا، ج ١، ص ٦٥ .

(٣) الاستقصا، ج ١، ص ٦٥ .

(٤) Terrasse, op. cit. p. 23

د كالة جنوبي وادى أم الربيع ، ورجراجة ، على وادى تنسيفت . وجميع المصامدة متحضرون قد ألفوا حياة الاستقرار في المدن ^(١) . ويزعم بعض نسابة العرب أن كتامة وصنهاجة من حمير ، وأن إفريقش الحميري تركهم بافريقية ، فتناسلوا بها واستحال لسانهم إلى البربرية ^(٢) . ولكن المحققين من نساب البربر ينكرون ذلك ، ويؤكدون أنهما قبيلتان عريقتان في البربر ^(٣) . وليس من المستبعد أن يكون انتساب صنهاجة لحمير نتيجة خضوعها لتأثيرات فينيقية قديمة ، جعلت النسابة يربطون بينها وبين حمير ، وهو رأى يؤيده جوتييه وفورنل ودي لاشابل ^(٤) .

وتنتشر قبائل البرانس في كل بلاد المغرب ، ولكن بعض قبائلهم توغل في قلب قارة أفريقيا حتى تصل إلى منحى نهر النيجر ، ومصب السنغال ، ومعظمها ينزل في مواضع زراعية متحضرة .

أما بربر البتر فينقسمون إلى أربع قبائل هي : ضريسة ، ونفوسة ، وأداسة ، وبنولواي أولوالة ، ^(٥) وتنقسم ضريسة إلى نخذين : مكناسة وزناتة . ويعتبر ابن خلدون قبيلة زناتة فرعا من البربر قائما بذاته . ومن

(١) Ibid. p. 22

(٢) يؤكد هذا ما ذكره الإدريسي من أن قبائل العرب (صنهاجة) نزلت على قبائل البربر ، فنقلهم إلى ألسنتهم بطول المجاورة (أنظر الإدريسي ، المغرب وأرض السودان واهر والأندلس ، ليدن ١٨٩٤ ص ٥٧) .

(٣) الاستقصا ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(٤) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٥) الاستقصا ، ج ١ ، ص ٦٦ .

زناتة جراويوة ، ومغراويوة ، وبنو يفرن ، وبنو زيان ، وبنو مرين ، ولكل قبيلة بطون وأنحاذ ، لا يمكن حصرها . وتنزل هذه القبائل في السهول المرتفعة أو المنخفضة ، وعلى الهضاب التي تمتد من طرابلس إلى تازة ، كما ينتشرون في أقاليم النخيل الممتدة من غدامس إلى السوس الأقصى ، ويؤلفون أغلبية سكان القرى الصحراوية . كذلك توجد بطون بترية في أقاليم التل قرب طرابلس ، وفي داخل سهول أفريقية ، وعلى سفوح جبال أوراس . فقبيلة نفوسة تنزل بجبل نفوسة الواقع جنوبي طرابلس ، ومطاطة تنزل في إقليم الجريد التونسي ، وزناتة تنزل في المغرب الأوسط وعلى سفوح أوراس (١) .

والعداء بين البرانس والبتري متأصل قديم ، ويتمثل هذا العداء بين قبيلة زناتة أكبر قبائل البتري ، وقبيلة صنهاجة أهم قبائل البرانس ، ويرجع سبب هذا العداء بينهما ، إلى اختلاف أحوالها الاجتماعية ، وإغارة الرجل من زناتة على مزارع صنهاجة ، واضطرار صنهاجة إلى الاستعانة بالرومان . وقد أدى ذلك إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل واضح ، واستغل الرومان هذا الخلاف لمصالحهم الذاتية ، فوسعوا شقة الخلاف بينهما ، بأن ضربوا فريقا بفريق ، وتمكنوا بذلك من السيادة وتثبيت أقدامهم في البلاد ، وبذروا بذور الشقاق بين عنصرى السكان البرانس والبتري ، وضمنوا بذلك لأنفسهم السيطرة على بلاد المغرب ، وهى نفس السياسة التي اتبعها المستعمرون الفرنسيون في العصر الحديث عندما فرقوا بين العرب والبربر . وقد ازداد العداء القائم بين البرانس والبتري في العصر الاسلامي زيادة خطيرة ، عندما

(١) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٢ .

حالت قبيلة زناتة البترية العرب الفاتحين منذ السنين الأولى للفتح ، بينما تولى البرانس عبء المقاومة وأيدهم في ذلك الروم ، وعندما حالت كتامة الفاطميين ، في حين حالت زناتة الأمويين في الأندلس ، وعندما اشتد النزاع بين زناتة وصنهاجة في الأندلس عقب سقوط الدولة الأموية .

وقد يكون تحالف البتر مع العرب ناتجا من تشابههم معهم في البداوة ، في حين يختلف البرانس عن العرب في كونهم متحضرين بالحضارة اللاتينية ، ومستقرين في المدن . ويستمر تحالف البتر للعرب بعد قيام الدولة الأموية بينما توالى صنهاجة البرانسية العلويين ، وهم الحزب المعارض للأمويين ، فتؤيد إدريس بن عبد الله بن الحسن ، وتخدم كتامة البرانسية مصالح الفاطميين ضد الأمويين ، ثم ظهر البرانس ممثلين في صنهاجة مرة ثانية بعد رحيل الفاطميين من المغرب ، وظهروا مرة ثالثة عندما تغلبت صنهاجة على المغرب كله وأسست دولة اللمتوينين أو المرابطيين ، ثم ظهروا مرة رابعة عندما قامت دولة الموحدين على أكتاف المصامدة .

(٣)

مرحلة الغارات

(٢١ - ٤٩ هـ / ٦٢٢ - ٦٦٩ م)

١ - المعاولات الأولى في زمن عمرو بن العاص : غزو برقة :

كان طبيعيا أن يفكر عمرو بن العاص جديا ، بعد أن استكمل فتح مصر ، في فتح برقة وطرابلس ، لعاملين :

الأول : أن برقة كانت تعتبر امتدادا لمصر ، وإقليما متما لها ، إذ هي تجاور لوبيا ومراقية وهما كورتان من كور مصر الغربية^(١) . وكانت برقة وطرابلس قد انفصلتا عن ولاية إفريقية منذ عهد الامبراطور البيزنطي موريس (٥٨٢ - ٦٠٢) وأصبحتا رسميا تابعتين لمصر ، وإن كانتا في حقيقة الأمر شبه مستقلتين . ولما اشتعلت نيران الثورة في المغرب ضد الامبراطور المعتصب فوكاس ، كانت برقة وطرابلس في مقدمة الولايات المغربية التي آزرت جريجوريوس على الانفصال عن الامبراطورية البيزنطية^(٢) . ولذلك كان لابد لعمرو بن العاص بعد أن استكمل فتح مصر ، من التأهب لفتح برقة وطرابلس ، تأمينا لحدود مصر الغربية من خطر الروم .

والعامل الثاني ، هو رغبة عمرو في تطبيق سياسة الاستمرار في الفتح نحو الغرب ، وهو أمر يدل عليه خط سير الفتوحات العربية في فلسطين ومصر

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح افريقية والاندلس ، ط . البيرجاتو ، ص ٣٤ .

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٥٠ .

وبرقة وإفريقية والمغرب والاندلس وجنوبي فرنسا ، ولم يسكن المحاربون العرب يزهدون في مواصلة القتال بعد انتهاءهم من فتح مصر ، التماسا للمغانم التي كانت تعود عليهم من الغزو . ولم ينتظر عمرو حتى ينتهي تماما من فتح مصر ، ويتفرغ لفتح برقة ، فراه يبادر بإرسال عقبة بن نافع الفهري على رأس حملة استطلاعية إلى برقة (أنطابلس) (١) .

ويذكر ابن عذارى أن عمرو بعد أن افتتح مصر سنة ٢٠ من الهجرة وجه عقبة بن نافع إلى زويلة وبرقة فافتحهما (٢) . ويؤيد ابن أبي دينار القيرواني هذه الرواية في كتابه المؤنس (٣) . ويبدو أن عمرو بن العاص اطمأن إلى تقرير عقبة بن نافع عن بلاد برقة ، فعجل بتسيير جيوشه لفتحها . سار عمرو بن العاص على رأس جيش من فرسانه غربا حتى قدم برقة ،

(١) ذكر ياقوت أن برقة « اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وإفريقية » واسم مدينتها انطابلس ، وتفسيره الخمس مدن « (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ص ٣٨٨ ، وانظر ما ذكره عن أنطابلس ص ٢٦٦) » وذكر الأستاذ الظاهر أحمد الزاوي أن برقة كانت تسمى قبل الإسلام انطابلس ، وكانت تضم خمس مدن هي طوشيرا (بالعربية طوشيرة) وقورين وردبرنيق ، وقد بنيت بني غازي على أنقاضها ، وأبولونيا ، وبارش (وتسمى الآن المرج) (أنظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٢) . وذكر اليعقوبي في البلدان أن برقة مدينة تقع في مرج واسع ، ويضيف قائلا أن لبرقة أقاليم كثيرة يسكنها بطون من بربرة لواتة ، ولها من المدن برنيق (اليعقوبي ، ص ٣٤٣) . كذلك يشير ابن حوقل إلى أن برقة « مدينة وسطية » ولها كور عامرة ، وهي في بقعة نسيحة « (ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٦٩) .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ط . ليفي بروفنسال ص ٨ .

(٣) ابن أبي دينار القيرواني ، المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ، ط . تونس

وكانت وقتئذ أشبه بولاية بربرية مستقلة عن الدولة البيزنطية ، وكان يسكنها بطون من قبيلة لواتة البثرية ، وهى من أكبر قبائل البربر شأنا ، وأشدّها بأسا ، ومن هذه البطون قبيلة زواغة ولماية ، وقد رأينا مدى قوة لواتة عندما ثارت قبائلها بزعامة أنطالاس على الحكم البيزنطى ، وانهت ثورتهم بمقتل صولومون ، القائد العام لجيوش يزنطة فى المغرب . وكان بربر لواتة ساخطين على البيزنطيين ، كارهين لحكمهم الجائر ، وتعسفهم فى جباية الضرائب ، كما نعموا منهم لكثرة مظالمهم . ويبدو أيضا أنهم أرادوا التخلص من الحكم البيزنطى ، وكانت قد بلغتهم الأخبار باستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر ، فتطلعوا إلى الخلاص على أيدي العرب ، وهذا يفسر مبادرتهم بتقديم فروض الولاء للجيش الفارزى ، واستسلامهم للعرب طائعين مختارين . فصالحهم عمرو نظير جزية يؤدونها إليه ، وهى دينار على كل حالم^(١) . وذكر ابن عبد الحكم نقلا عن عثمان بن صالح أن أهل برقة كانوا يبعثون له الجزية إذا جاء وقتها ، وأنه لم يدخل برقة يومئذ جابى خراج^(٢) ، مما يدل على أنهم رحبوا بالعرب ، واطمأنوا إليهم .

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٨٠ . ويذكر مؤرخو العرب أنه صالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار جزية ، على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم فى جزيتهم (ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ص ٣٤ - البلاذرى ، فتوح البلدان ، القسم الأول تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٢٦٤ - أبو عبيد الله البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، الجزائر ، ١٩١١ ص ٤ - ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ط ٠ بولاق ، ١٢٩٠ هـ ، ج ٣ ، ص ١١) . ويستبعد الدكتور حسين مؤنس أن يطلب العرب منهم بيع أبنائهم فى حالة عجزهم عن دفع الجزية ، ويعتقد أنهم هم الذين اقترحوا على عمرو ذلك مبالغة منهم فى اظهار حسن نيتهم ، وقد كان يسمع الذرارى والآباء للوفاء بالجزية أمرا شائعا عند البربر فى ذلك الحين (فتح العرب للمغرب ص ٥٦) .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٣٦ .

وما إن أتم عمر بن العاص فتح برقة ، حتى شرع في فتح طرابلس ،
تمهيدا للدخول في إفريقية . وكان الأمر يستلزم أن يجهز جيشين ، أحدهما
يسير بحذاء الساحل ، بقصد الاستيلاء على طرابلس ، وما يليها من مدن
ساحلية ، والثاني يتجه نحو جوف البلاد حيث الواحات الداخلية التي تؤلف
مراكز للمقاومة في قلب البلاد ، والتي لو تركت وشأنها ، لقطع عليه أهلها خط
الرجعة ، وأهم هذه الواحات واحة فزان . فبعث عمرو قائده عقبة بن نافع
إلى فزان ، فافتتحها ، ثم واصل زحفه حتى بلغ زويلة^(١) . ويبدو
أن عمل عقبة اقتصر على الاستيثار من طاعة أهل هذه الواحات
أولى الأقاليم من وقوفهم موقفا حياديا^(٢) . ونجح عقبة في مهمته ، وأصبحت
المنطقة الممتدة ما بين برقة وزويلة مأمونة الجانب ، لا خوف على المسلمين
من سكانها^(٣) . وعلى هذا النحو ضمن عمر بن العاص إخضاع هذه الواحات
الداخلية التي كانت تهدد سلطان العرب على مدن الساحل . وبينما كان عقبة
يفتح فزان ، كان عمر بن العاص يغزو إقليم طرابلس . فبدأ بمدينة سرت^(٤) ،

(١) زويلة من مدن فزان القديمة ، وتقع على بعد ٧٧٠ كم جنوب شرق طرابلس ،
وتعرف باسم زويلة السودان ، تميزا لها عن زويلة إفريقية التي بناها عبيد الله المهدي بالقرب
من تونس (الظاهر أحمد الزاوي ، ص ٣٥) .

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦٠ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ، ص ٣٦ - البلاذري ، فتوح
البلدان ، ص ١٦٦ - البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١٠ .

(٤) « مدينة على ساحل البحر الرومي من برقة وطرابلس الغرب ، لا بأس بها وفي
سمتها من ناحية الجنوب في البر أجداية » (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ص ٢٠٦)
وذكر ابن حوقل أنها مدينة ذات سور صالح كالمسيح من طين وطايب ، وبها قبائل من
البربر ، ولهم مزارع في نفس السور ، تقصد نواحيها ، إذا مطرت ، وتتجمع مراعيها ، =

فاستولى عليها ، ثم زحف إلى بلدة (١) ، فوجدها مدينة خربة ، قليلة العمران ، ولم يجد أهلها أى مقاومة بل استسلموا لهم طائعين .

ثم واصل سيره بعد ذلك حتى أدرك اطرابلس (٢) ، وكانت مدينة

== (ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٧٠) . ويضيف ابن حوقل قائلاً أنها غنية بالغلات والفواكه ، منها التمر والأعناب ، ومن منتجاتها الشب السرى والصوف ولحوم المعز . ويشرب أهلها من مياه المواجه (نفس المرجع ، ص ٧١) .

(١) مدينة بين برقة وأفريقية ، تقع على بعد ٩٠ كم. شرق طرابلس ، أسسها الفينيقيون في أوائل القرن العاشر ق.م. وأطلقوا عليها اسم لبكى ، ثم حرمها الإغريق إلى لبش ، ثم حرفت بعد ذلك إلى لبس ، وأضيفت إليها لفظة ماجنا فأصبحت لبس ماجنا أى بلدة العظيمة . وكانت في أيام الفينيقيين مدينة عامرة لخصوبة أرضها ، واعتدال مناخها ، ولأن لها ميناء مأمونا صالحا للملاحة ، ولوقوعها على نهر عين كعام . وقد حكمها النوميديون ، ثم خضعت أخيراً للرومان ، وتألفت في العصر الرومانى ، وخاصة في عهد سبتيميوس سفروس . ثم استولى عليها الوندال في سنة ٤٥٥ م. ومنذ ذلك الحين أخذت في الانحلال إلى أن احتلها البيزنطيون في سنة ٥٣٣ ، فاستعادت بعض عظمتها القديمة ، وأقام فيها البيزنطيون الآثار الكثيرة ، وجعلوها بمختلف أنواع الأبنية . لكنها تأثرت تأثراً بالغاً بالاضطرابات الصليبية التي سادت هذه البلاد على أثر ثورة قبائل لواتة (أنظر : الظاهر أحمد الزاوى ص ٣٩ - ٤٣) وذكر ابن حوقل أنها قرية ، بينها وبين طرابلس إلى جهة الشرق مرحلتان (١ ص ٧١) .

(٢) اطرابلس مدينة فينيقية البناء ، أسست بعد سبوت ولبده ، وكانت تعرف باسم أوياس أو أوياس (أنظر ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، المكتبة الجغرافية العربية ، العدد السادس ، تحقيق دى غوية ، ليدن ١٨٨٩ ص ٩١ - الاستبصار ، ص ١١٠) واطرابلس تسمية عربية لكلمة تريبوليس Tripolis التي أطلقها الرومان عليها وتعنى المدن الثلاث ، فقد أقاموا في القرن الثالث الميلادى خطاً دفاعياً لمواجهة غارات البدو الضاربين في الصحراء جنوب أوياس ، وقد سموا هذا الخط الدفاعى باسم ليمس تريبوليتانوس ، ومنذ ذلك الحين

حصينة مسورة من سائر الجهات ماعدا الجهة الشمالية التي تطل على البحر ،
وذلك لتتلقى من هنالك الإمدادات ، ويذكر ابن عبد الحكم نقلا عن عثمان بن
صالح أن عمرو « نزل على القبة التي عن الشرف من شرقيها »^(١) ، وحاصر
المدينة شهرا ، فامتنعت عليه ، ويذكر ابن عذارى ، أن أهل طرابلس
استغاثوا بقبيلة نفوسة البربرية^(٢) ، وهي قبيلة بترية من أكبر قبائل البربر
وأعظمها ، وكانت مدينة سبرت (صبراتا) من أهم معاقلهم ، وتنسب
إليهم^(٣) . ويبدو أن عمرو أراد أن يحول دون وصول هذه النجدة ،
فأسرع بإرسال بعث من قواته إلى سبرت قبل أن يفتتح طرابلس ، ولكن
جنده ألفوا أهل سبرت متحصنين في أسوارهم^(٤) ، وقد أيقنوا استحالة
فتح العرب لطرابلس ، فعاد الجند أدراجهم إلى طرابلس . ويتفق مؤرخو
العرب على أن جماعة من جنود عمرو ، فاجأوا الروم من جهة ساحل
طرابلس ، حيث انحسرت عنها مياه البحر ، واستولى المسلمون بذلك على

أطلقوا اسم تريبوليتانوس على المنطقة الواقعة بين خليج قابس وخليج سرت ، وتضم
ثلاث مدن هي بلدة ، وأويا ، وسبرت . وقد أصبحت أويا (طرابلس) مركزا لولاية طرابلس
في عصر دقلديانوس . واهتم الرومان بطرابلس اهتماما كبيرا ، فحيطوها بسور منيع ،
وكان معظم سكانها عند الفتح العربي من الروم (أنظر الظاهر أحمد الزاوي ، ص ٤٥-٤٨) .

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٣٦ . ويرجح الأستاذ الظاهر أن هذه القبة هي قبة الشيخ
عبد الله الشعاب المتوفى سنة ٢٤٣ (تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٤٩) .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٨

(٣) حسن محمود ص ٣٣ — الظاهر أحمد الزاوي ، ص ٢٢ . يقع جبل نفوسة جنوبي
سبرت وعليه تقوم مدينة شروس (الادريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ، ص ١٠٥) .

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٣٨

المدينة (١) . وفي ذلك يقول ابن عبد الحكم نقلاً عن عثمان بن صالح :
 « . . . فخرج رجل من بني مداح ذات يوم من معسكر عمرو متصيداً في
 سبعة نفر ، فمضوا غربى المدينة حتى أمعنوا عن المعسكر ، ثم رجعوا ،
 فأصابهم الحر ، فأخذوا على ضفة البحر ، وكان البحر لاصقاً بسور المدينة ،
 ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور ، وكانت سفن الروم شارعة في مراسها
 إلى بيوتهم ، فنظر المدلى وأصحابه ، فإذا البحر قد غاض من ناحية
 المدينة ، ووجدوا مسلكاً إليها من الموضع الذى غاض منه البحر ، فدخلوا
 منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا ، فلم يكن للروم مفرع إلا سفنهم ،
 وأبصر عمرو وأصحابه السبلة (٢) في جوف المدينة ، فأقبل بجيشه حتى دخل
 عليهم ، فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم من مراكبهم ، وغنم عمرو ما كان في
 المدينة » (٣) .

ويستبعد الدكتور مؤنس قصة التكبير في فتح طرابلس ، ويعتقد أن
 رواية فتح طرابلس اختلط عليهم الأمر ، فوضعوا في هذا الفتح ما وضعوه
 في فتح حصن بابليون بمصر ، الذى نشبه قصته قصة فتح طرابلس ، ويستند
 في ذلك إلى أن ابن عبد الحكم كتب تاريخ هذا الفتح بعد انقضاء قرنين
 ونصف من هذه الحوادث ، كما يستند إلى أن كثيراً من المصادر أشارت

(١) نفس المرجع ص ٣٦ - البلاذرى ، فتوح البلدان ، قسم ١ ص ٢٦٦ - ابن الأثير ،

الكامل ج ٣ ص ١١ - السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ٧٣

(٢) لعلها التلة أى جماعة المعسكر وهو أقرب إلى الصواب ، فقد كان من اليسير على عمرو
 الذى عسكر بأعلى التل الواقع شرقي المدينة أن يشاهد ما يجرى بداخلها بعد أن انزبه إلى
 تكبير رجاله ، فأدركهم ودخل المدينة من الجهة التى رآهم دخلوا منها .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٣٨

إلى أن عمرا قوتل حتى افتتح طرابلس عنوة (١) .

ولكننا لانرى رأى الدكتور مؤنس فى فتح اطرابلس ، ولا نستبعد على الاطلاق مارواه ابن عبد الحكم من قيام المسلمين بالتكبير ، فعادة التكبير من العادات المتأصلة عند المسلمين فى أوقات القتال والحرب ، والأمثلة كثيرة على ذلك ، فقد كبر المسلمون عندما ارتقوا الباب الشرقى من دمشق ودخلوها عنوة (٢) ، كذلك كبر أبو محجن الثقفى فى القادسية (٣) ، وكبر المسلمون فى نهاوند (٤) ، وكبروا أيضا وعند فتح حصن بابلين (٥) ، وكبر المسلمون فى موقعة سببيلة (٦) ، وكبر المسلمون كذلك عند فتح قرطبة (٧) ، ولاشك أن عمرا عندما أدرك أصحابه بدخول المدينة اشتبك مع حامية المدينة وتغاب عليهم ، فليس فى قتال عمرو تعارض مع قصة فتح طرابلس ، وفقا لرواية ابن عبد الحكم . وما إن دخل عمرو طرابلس حتى عاهد أهلها (٨) .

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦٢

(٢) الواقدى ، فتوح الشام ، ج ١ ، طبعة القاهرة سنة ١٣٦٨ ، ص ٤٣ ، ٤٤ —

عبد الوهاب النجار ، الخلفاء الراشدون ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٠٨

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، تحقيق الأستاذ محبى الدين عبد الحميد ، ج ٢ القاهرة

١٩٥٨ ص ٣٢٣ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٤ — ٦

(٥) البلاذرى ، ج ١ ، ص ٦٤ ، ٦٥

(٦) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٤

(٧) فتح الأندلس لمؤلف مجهول ، نشره Joaquin Gonzalez ، الجزائر ١٨٨٩

ص ٩ من الترجمة .

(٨) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٦٦

ولما ظفر عمرو بمدينة طرابلس « جرد خيلا كثيفة من ليلته ، وأمرهم بسرعة السير ، فصبحت خيله مدينة سبرت ، وقد غفلوا ، وقد فتحو أبوابهم لتسرح ماشيتهم ، فدخلوها ، فلم ينبج منهم أحد ، واحتوى عمرو على ما فيها » (١) .

وكان عمرو قد بعث ، أثناء حصاره لطرابلس ، قائدة سرين أرطاة إلى ودان ، فافتتحها سنة ٢٣ هـ (٢) ، وأعتقد أن المسلمين افتتحوا ودان وسبرت بقصد القضاء على أى محاولة من جانب بربر نفوسة لنجدة أهل طرابلس ، وفي نفس الوقت لتأمين فتحهم للساحل ، على نحو ما فعله عمرو عند افتتاحه برقة ، إذ ضمن خضوع زويلة وفزان للمسلمين ، خشية أن ينقض أهل هذه المناطق الداخلية على جيوشه ، فيقطعون عليها خط الرجعة .

تم فتح العرب لبرقة والقسم الشرقى من ولاية طرابلس دون أن يتدخل جريجوريوس ويدافع المسلمين ، ذلك لأن إقليم طرابلس الممتد ما بين سبرت ومصر لم يكن تابعا له رسميا ، وهذا يفسر موقفه السلبي من غزو العرب لهذه البلاد ، وأعتقد أن القسم الغربى من طرابلس كان تابعا له ، وكان هذا القسم المذكور يضم جزيرة جربة Meninx ومساحة جرجس Girgis ، وحصن جيجتى Gigthi (بوغارة) ، ومدينة تاكاباى Tacapae (قابس) (٣) . وكانت أخبار

(١) ابن عبد الحكم ص ٣٨ - ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ١١

(٢) نفس المرجع ، ص ٦٠ - البكرى ، المغرب ص ١٢

(٣) قابس مدينة جليلة عامرة حفت من نواحيها جنات ملتفة ، وحداثق مصطنعة ، وهوا كه عامة رخيصة ، وبها من التعر والزروع والصناع ما ليس بغيرها من البلاد ، وفيها زيتون وزيت وغللات ، وعليها سور منيع يحيط به من خارجه خندق (الإدريسي ، صفة المغرب والسودان ص ١٠٦) .

انتصارات العرب في برقة وطرابلس وفزان وزويلة وودان قد وصلت إليه ، فاحتاط لنفسه ، وبادر بتحصين بلاده ، وإقامة المحارس ، والمساح ، والحاميات ، فيما يلي سبوت ، تعزيزا للدفاع عن إفريقية ، واستعداداً لملاقاة العرب ^(١) ، يدل على ذلك أن الادريسي ذكر أن الساحل الممتد ما بين قابس وسبوت كثير القصور والحصون ومنها قصر زجونة ، وقصر بنى مأمون ، وقصر الجرف ، وجزيرة جربة ، وقصر بنى خطاب ، وقصور الزارات ، وقصر بنى ذكومين ، وقصر الهرى ، وقصر جرجيس ، وقصر صالح ، وقصر كوطين ، وقصر بنى ولول ، وقصر مركيا ، وقصر عفسلات .. إلى آخره ^(٢) .

وبستنتج الدكتور حسين مؤنس من تحاشي العرب مهاجمة قابس في حملة عبد الله ابن سعد ، واتجاههم مباشرة إلى سبوت ، أن جريجوريوس حصنها بقلاع منيعة لا ترام ، فتفادها العرب بعد ذلك ^(٣) . ويبدو أن عمرو بن العاص قد حاول فتح بعض هذه الحصون المتناثرة فيما يلي سبوت غربا ، ولكنها استعصت عليه لمناعتها ، فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بفتوحاته ، ويستأذنه في فتح إفريقية ، ويغلب على الظن أنه طلب منه مدداً لذلك الغرض ، وذكر له في جملة ما ذكره « إن الله قد فتح علينا إطرابلس ، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل » ^(٤) . ويضيف

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦٧ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٢٨ .

(٢) الادريسي ، ص ١٢٧ - ١٢٩ .

(٣) حسين مؤنس ، ص ٦٧ .

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٤٠ - البلاذري ، ص ٢٦٦ .

ابن عذارى عبارة تؤكد رأينا في أنه حاول فتح أحد الحصون ، فاصطدم بمقاومة عنيفة . يقول ابن عذارى : « وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يخبره بما أفاء الله عليه من الفتح والنصر ، وأن ليس أمامه إلا بلاد إفريقية ، وملوكها كثيرة ، وأهلها عديدون وأكثر ركوهم الخيل (١) . »

ونستدل من رد الخليفة عمر بن الخطاب على كتاب عمرو بن العاص أن الخليفة كان مطلعاً على الأحوال السياسية في إفريقية ، وكان محيطاً بشورات أهلها ونكتهم باليهود ، وغدرهم بأصحاب السلطان ، وكان من الطبيعي أن يرفض عمر طلب عمرو بمواصلة الفتح والتغريب بالمسلمين في مخاطرة لا يعلم نتائجها إلا الله ، فأثر أن يقف المسلمون إلى هذا الحد من الفتوحات وكتب إلى عمرو قائلاً : « لا إنها ليست بإفريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة مغدورها ، لا يغزوها أحد ما بقيت » (٢) وقد أورد البلاذري صيغة أخرى لرد عمر بن الخطاب ، تدل على معرفته بشؤون البربر ، جاء فيه : « فكتب إليه بنها عنها ويقول : ما هي بإفريقية ، ولكنها مفرقة ، غادرة مغدورها ، وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئاً ، فكانوا يغدرون به كثيراً ، وكان ملك الأندلس صالحهم ، ثم غدر بهم ، وكان خبرهم قد بلغ عمر » (٣) .

(١) ابن عذارى ، ج ١ طبعة بيروت ص ٢٠ وقد ورد في طبعة ليفي بروغنسال وكولان

ما يلي : « ملوكها كثير ، وأهلها في عدد عظيم ، وأكثر ركوهم الخيل » ص ٨

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٤٠

(٣) البلاذري ، ص ٢٦٦

وكان لابد لعمر و من الاستجابة لرغبة عمر في عدم الاستمرار في الفتح،
ولذلك اضطر إلى الانصراف عن إفريقية مرغما ، فعاد إلى مصر ، بعد أن
أقام قائده عقبة بن نافع على هذه البلاد الصحراوية ، بركة ، يدعو للإسلام،
ونجح عقبة في كسب كثير من سكان البلاد من قبائل لواتة ونفوسة ونفزاوة
وهراوة وزواغة ، فدخلوا في الإسلام .

ثم أصبحت بركة قاعدة لجيش المسلمين في غرب مصر ، أما عمرو ، فقد
عاد إلى الفسطاط مقر ولايته ، وظل مقيم بها حتى استشهد الخليفة عمر بن الخطاب
وخلفه عثمان بن عفان . وكان أول ما فعله عثمان أن عزل عمر بن العاص
من ولاية مصر ، فقلدها لعبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٤ هـ .

ب - حملة عبد الله بن سعد : غزوة سببلة :

أحس البطريق جريجوريوس بالخطر العربي يهدد بلاده من الشرق ،
وكانت عاصمته قرطاجنة تقع في أقصى الطرف الشمالى الشرقى من ولاية
إفريقية على البحر ، فرأى أن يتخذ عاصمة جديدة تقع في جوف البلاد حتى
لا تتعرض لغزو العرب من الشرق ، وغزو البيزنطيين من البحر (١) . ثم إنه
كان يعمل على التقرب من البربر طمعا في أن ينصروه على العرب ، فأراد أن
يحتسب بينهم ، فاختار سببلة لهذا الغرض ، وجعلها حاضرة لولايته في سنة
٢٤ هـ (٦٤٦ م) . وفي نفس الوقت حصن المدن الشرقية مثل قابس وسفاقس
وقفصة حتى تؤلف خطا دفاعيا أماميا ، يعرقل جيوش العرب ويؤخر من تقدمهم،
ويبدو أن سلطان العرب في المغرب انحسر إلى بركة ، فخرجت طرابلس

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ٧٥ ، ٧٦

من طاعتهم عقب انصراف عمرو بن العاص إلى مصر ، وكان عقبة قد اتخذ سرت بركة مركزاً لقواته ، وقاعدة لغزواته في داخل البلاد ، فصرف همه إلى غزو الواحات القريبة من فزان وودان وزويلة والسودان ^(١) ، وكان يرسل تقاريره عن حالة هذه البلاد إلى عبد الله بن سعد ، ولعله أبلغه خروج طرابلس عن طاعة المسلمين ، بدليل أن عبد الله بن سعد « كان يبعث المسلمين في جرائد الخيل كما كانوا يفعلون في أيام عمرو ، فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون ^(٢) . وكان عبد الله بن سعد يكتب إلى عثمان » يخبره بما نال المسلمون من عدوهم ، وقربهم من حوز المسلمين ^(٣) ، ويستأذنه في غزو إفريقية ^(٤) . ويبدو أنه طلب من الخليفة أن يرسل إليه مدداً يعينه على افتتاح إفريقية ، ولكن عثمان ، رغم ميله إلى إجابة رغبة أخيه في الرضاع في فتح إفريقية ليكسبه بذلك مجداً يزيد من هيئته ، ويعزز مكانته ^(٥) ، كان متوقفاً عن غزوها ^(٦) ، بسبب رفض عمر بن الخطاب من قبل المضي فيه ، ولكن ميله إلى إجابة رغبة عبد الله بن سعد غلب عليه في نهاية الأمر ، فعزم على غزو إفريقية ، ولكن بعد أن يستشير الصحابة في ذلك .

(١) البكري ، المغرب ص ١٤٥

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢ — البلاذري ، ٢٦٧ — المالكى ، كتاب رياض النفوس تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥١ ص ٨ — ابن عذارى ، طبعة ليفي بروفنسال وكولان ج ١ ص ٩

(٣) المالكى ، ص ٨

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٩ .

(٦) البلاذري ، ص ٢٦٧

ولما يدل على عزمه على الفتح ما ذكره المالكى فى رياض النفوس ، نقل عن المسور بن محرمه عن طريق الزهرى « قال المسور : خرجت من منزلى بليل طويل أريد المسجد ، فاذا عثمان رضى الله تعالى عنه فى مصلى النبى صلى الله عليه وسلم يصلى ، فصليت خلفه ، ثم جلس فدعا ليلا طويلا ، حتى أذن المؤذنون ، ثم قام منصرفا إلى بيته ، فقامت فى وجهه ، فسلمت عليه ، فقال : يا ابن محرمه ، وانكأ على بدى ، إني استخرت الله فى ليلتى هذه فى بعث الجيوش إلى إفريقية ، وقد كتب إلى عبد الله بن سعد ، يخبر بخبره مع المشركين ، وغلبهم وقرب حوزهم من المسلمين . فقلت : خار الله لأمر المسلمين ، قال : فما رأيك يا ابن محرمه ؟ قلت : اغزوهم . قال : أجمع اليوم الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأستشيرهم ، فما أجمعوا عليه فعلته ، أو ما أجمع عليه أكثرهم فعلته ، ولتكن أنت رسولهم ، واحضر معهم ^(١) . »

واجتمع الخليفة عثمان بوجوه الصحابة وذوى الراى فى سنة ٢٧ هـ (٦٤٧ م) ، واستشارهم فى أمر الفتح ، فأجمعوا على موافقته ، باستثناء الأعور سعيد بن زيد الذى تمسك برأى عمر بن الخطاب فى ألا يغزوها أحد من المسلمين ^(٢) . وما إن أقر الصحابة رأى الخليفة فى الفتح ، حتى استنفر المسلمين ، وندبهم إلى الغزو إلى إفريقية ، وفتح مستودعات السلاح ، فتوافى الناس وانضموا إلى الجيش ، وخرج جماعة من الصحابة ، منهم معبد بن العباس بن عبد المطلب ، ومروان بن الحكم بن أبى العاص ، والحارث بن

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ص ٨ ، ٩

(٢) نفس المرجع .

الحكم أخوه ، وعبد الله بن الزبير ، والمسور بن محرمة بن نوفل ،
وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعاصم
ابن عمر ، وعبيد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عمرو
ابن العاص ، وبسر بن أرطاة بن عويمر العامري ، وأبو ذؤيب خويلد بن
خالد الهذلي (١) . ويضيف المالكي إلى هؤلاء أسماء عدد كبير من الصحابة .
ورافق كل من هؤلاء جماعة من قومه ، فخرج من أسلم ثلاثمائة رجل ،
وخرج من مزينة ثمانمائة ، وخرج من بنى سليم أربعمائة وخمسون ، وغيرهم
من قبائل شتى (٢) . وأمر عليهم عثمان الحارث بن الحكم حتى وصلوا إلى
عبد الله بن سعد في مصر فتكون له القيادة بعد ذلك (٣) . ثم خطب فيهم ،
وحثهم على الجهاد في سبيل الله ، وقال لهم : « قد استعملت عليكم الحارث
ابن الحكم حتى تصلوا إلى عبد الله بن سعد ، وقد قدمت عليكم عبد الله بن
سعد لما علمت من ثقته ودينه وجسـن رأيه وشجاعته ؛ وأخذت عليه العهد
والميثاق أن يحسن لمحسنكم ؛ ويتجاوز عن سيئكم ، ولا يحملـه غرض
الدنيا على هلاك رجل واحد منكم ، وأرجو لعبد الله أن يقف عند عهدي
وأمرى . وأوصيكم وإياه أن لانـهولنكم كثرة العدو ، وقد علمتم ما أنزل
الله عليكم حيث يقول : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله . أما
علمتم أن أول هذه الأمة مانـصروا إلا بكثرة الصبر وقوة اليقين ؟ ولا حول
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . أستودعكم الله وهو خير الحافظين ، سيروا

(١) البلاذري ، ص ٢٦٧

(٢) المالكي ، ص ١٠

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢

على بركة الله ، وعليه فتوكلوا ، وبه فاتقوا » (١) .

وأعان عثمان المسلمين في هذه الغزوة بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس ٢ ، ثم سار الجيش من المدينة بقيادة الحارث بن الحكم ، فلما وصل إلى مصر ، ضم إليه ابن أبي سرح جيوش مصر وفيهم بعض الأقباط (٣) ، فكل عدد الجيش عشرين ألفا (٤) . ثم استخلف عبد الله على مصر عقبة بن عامر الجهني ، وخرج في مقدمة جيشه إلى إفريقية . وفي برقة استقبله عقبة ابن نافع الفهري فيمن معه من المسلمين (٥) . ومن برقة أرسل سرية ، تقدمت الجيش إلى طرابلس ، وكان أهل هذه المدينة قد تلقنوا باستيلاء المسلمين على مدينتهم في أيام عمرو درسا لم ينسوه ، ولذلك عملوا على تحصين أسوار المدينة منذ أن خرجوا عن طاعة المسلمين ، فلما وصلت السرية العربية إلى طرابلس ، استولت على مركب كان راسيا بالقرب منها ، وأسر المسلمون من فيه ؛ حتى أدركهم عبد الله بن سعد بجموع جيشه ، فأمر بقتل الأسرى ، وكان أهل طرابلس قد تحصنوا داخل أسوارهم عندما أقبل العرب ؛ وحاول المسلمون اقتحام المدينة ، ولكنها استعصت عليهم ، فعدلوا عن ضرب الحصار عليها حتى لا يعطلهم هذا الحصار عن غرضهم الأساسي ، وواصلوا السير نحو

(١) نص عبيد الله بن صالح ، بعنوان : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشره الأستاذ ليفي بروفنسال ، بصحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤ ص ٢١٥ - ابن عذارى ، ج ١ ص ٩

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩

(٣) المالكي ، ص ١١

(٤) المالكي ، ص ١٠ - ابن عذارى ، ص ٩ - عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٦

(٥) ابن الأثير ، ج ٣ ، ٤٣ - الاستقصا ، ج ١ ، ص ٧٥

إفريقية (١) . ولما وصلوا إلى قابس وجدوا الروم قد تحصنوا داخل أسوارهم ، فأشار المسلمون على عبد الله بن سعد ألا يبدأوا بمهاجمة الحصون قبل أن يشتبكوا مع جيوش الروم (٢) ، فعزل عبد الله عن محاصرة قابس ، وبعث السرايا في آفاق إفريقية ، فغنموا في كل وجه (٣) . وعندئذ اضطر البطريق جريجوريوس ، ويسميه العرب جرجير (٤) أو جرجيس (٥) ، إلى الخروج من سبيطة لملاقاة جيوش العرب ، فخرج في جيش عدته مائة وعشرين ألف مقاتل وفقا لرواية ابن عذارى وعبيد الله بن صالح (٦) ، ومائة ألف وفقا لرواية المالكى (٧) . والتقى الجيشان بالقرب من سبيطة . وهنا تتعارض الروايات العربية فيما بينها :

(١) المالكى ، ص ١٠ .

(٢) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٦ .

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ٩ .

(٤) يقول ابن عذارى : « وصاحبها بطريق يقال له جرجير ، وكان سلطانا من اطرابلس الى طنجة » (البيان المغرب ج ١ ص ٩) . ويقول المالكى : « فخرج عبد الله بن سعد... يريد الى البطريق بإفريقية ، وكان قد غلب على المغرب » (المالكى ، ص ١٠) . ويقول ابن عبد الحكم : « وكان مستقر سلطان إفريقية يومئذ مدينة يقال لها قرطاجنة ، وكان عليها ملك يقال له جرجير كان هرقل قد استخلفه ، فخلع هرقل ، وضرب الدنانير على وجهه ، وكان سلطانا ما بين طرابلس الى طنجة » (ابن عبد الحكم ، ص ٤٢) . كذلك يتفق البلاذرى مع ابن عبد الحكم وابن عذارى في تحديد منطقة نفوذ جريجوريوس في المغرب (البلاذرى ص ٢٦٧) .

(٥) الادريسي ، ص ١١٠

(٦) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٣ — عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٦ — ابن عذارى ج ١ ،

ص ١٠ — السلاوى ، الاستقصا ج ١ ص ٧٥

(٧) المالكى ، ص ١١

يقول ابن عبد الحكم : « ثم رجع إلى حديث عثمان بن صالح وغيره قال ،
فلقيه جرجير ، فقاتله فقتله الله ، وكان الذي ولي قتله فيما يزعمون عبد الله
ابن الزبير » (١) .

ويقول البلاذري : « حدثني محمد بن سعد ، عن الواقدي ، عن أسامة
بن أسلم ، عن نافع مولى آل الزبير ، عن عبد الله بن الزبير قال : أغزانا
عثمان بن عفان إفريقية ، وكان بها بطريق ، سلطانه من أطرابلس إلى طنجة ،
فسار عبد الله بن سعد بن أبي سرح حتى حل بعقوبة ، فقاتله أياما فقتله الله ،
وكنت أنا الذي قتله ، وهرب جيشه فتمزقوا » (٢) . وأورد المالكي
عدة روايات (٣) :

١ - منها رواية عن الواقدي عن ربيعة الديلمي قال : « ثم تمادينا إلى
إفريقية ، ونحرقنا إلا بل ، وذبحنا البقر ، وأخذنا العلف والسبد ، وجعلنا
نضرب في كل جهة ، وأقمنا أياما تجرى بيننا وبين جرجير ملكهم الرسل ،
ندعوه إلى الإسلام . فكلما دعوناه إلى الإسلام نخر ، ثم استطال وقال : لا
أفعل هذا أبدا . فقلنا له : فتخرج الجزية في كل عام ، فقال لو سألتوني درهما
لم أفعل . فتهيأ الناس للقتال ، وعبأ عبد الله بن سعد ميمنة وميسرة وقلبا
وسار بأصحابه ، فقال له رجل من القبط من كان معه : إن القوم لا يصافونك ،
هم أروع منك من أن يصافوك ، وهم يهربون منك ، فاجعل منك ، فاجعل
لهم كميننا ، وفرقهم في أماكن . ففعل ذلك عبد الله ، وغدا بنا على تعبئة ،

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢

(٢) البلاذري ص ٢٦٧

(٣) المالكي ، ص ١٠ - ١٥

وتلاقينا مع الروم قد رفعوا الصليب وعليهم من السلاح ما الله أعلم به ،
ومعهم من الخيل ما لا يحصى ، فضاولنا ساعة من نهار حتى صارت الشمس
قدر رحين ، وحمل عبد الله بالناس فكانت الهزيمة عليهم ، وكر المسلمون
عليهم في كل مكان ، فأكثروا فيهم القتل والأسر . لقد رأيت في موضع
واحد ألف أسير ، فلما أصابهم الأمر والقتل طلبوا الصلح ، فصالحهم
عبد الله بن سعد على خرج ، قيل صالحهم على ألفي ألف دينار وخمسمائة
ألف دينار .

ب - ومنها رواية عن سباب العصفري قال : « غزا عبد الله بن سعد
إفريقيه مع جماعة من الصحابة فلقى جرجير في سبيلة وهي مدينة مسورة
على سبعين ميلا من القيروان فقتل جرجير وهو في مائة ألف ، وصالحه أهل
الدائن والحصون على مائة ألف رطل ذهب . »

ج - ومنها رواية لابن عثمان سعيد بن عفير ، قال : « لما سمعت الروم
والأزارقة ^(١) يخرج عبد الله ووصوله إلى إفريقية ، خرجوا إليه ومعهم
جرجير في جمع كثير من الروم . فلما التقوا بالمسلمين نادى جرجير بالبراز
فبرز إليه عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم ، فقتله ابن الزبير ، ومنهم من
قال قتلاه جميعا . ثم كانت الهزيمة ، واتخذ المسلمون ذلك المنزل معسكرا ،
وأصابوا لهم غنائم كثيرة ، فأصاب الفارس في سهمه ثلاثة آلاف دينار ،
ثم ساروا إلى البلاد ففتحوها كل مدينة عنوة . »

د - ومنها رواية نقلها عن الواقدي عن عبد الله بن الزبير قال : « أغزانا

(١) الأزارقة خطأ وتصحيحها الأزارقة .

عمان رضى الله تعالى عنه إفريقية ، وكان بها بطريق يسمى جرجير ، سلطانه من طرابلس إلى طنجة فسار عبد الله حتى حل به ، فقاتله أياما ، فقتله الله عز وجل ، وكنت أنا الذى قتلت ، فهرب جيشه ، وقطع ابن أبى سرح السرايا ، وفرقها فى البلاد ، فأصابوا غنائم كثيرة .»

هـ - ومنها رواية نقلها عن أهل العلم بالسيرة ومغازى إفريقية نصها : «إن عبد الله بن سعد نزل بموضع يسمى قونية ، وهو موضع مدينة القيروان (انظر خريطة رقم ٤) ، فسأل عن أشراف من بافريقية من الروم ، ف قيل جرجير ، وهو صاحب مدينة سيطة . فزحف عبد الله إلى جرجير الملك ، فلقى فيه فى خلق عظيم من الروم ، فقاتله عبد الله بمن معه ، والتحم القتال ، ووقع الصبر ، حتى ظن الناس أنه الفناء ، فانهزم جرجير ولزمه عبد الله بن الزبير فى عجاج الموت ، فعرفه بمن معه من أشراف قومه ، ففرق عنه أصحابه وقتله إلى جانب السور ، وابنته تنظر من السور إلى قاتله ، وسبقت خيول المسلمين الروم إلى باب الحصن ، فخالوا بينهم وبين الدخول إلى حصنهم ، فركبهم المسلمون يميننا وشمالا فى السهل والوعر ، فقتلوا أنجادهم وفرسانهم ، ونزل عبد الله بن أبى سرح باب المدينة ، وحصرها بمن معه حصارا شديدا حتى فتحها ، وأخذ ابنة جرجير فوهبها لعبد الله بن الزبير ، وهو صاحب الأفاعيل فى ذلك اليوم ، وهو المستشهد فى سبيل الله . ودخل عبد الله المدينة ، فوجد فيها سبيا كثيرا وأموالا جمة عظيمة ، ووجد أكثرها ذهب ، وسرى على الروم فبلغت خيوله قصور قفصة ، وبلغت موضعها يقال له قرطاجنة ، فسبى فيها ما تأتى ، وذهب بعد تلك الواقعة ملك الروم بافريقية ، ولجأوا إلى الحصون ، وأصابهم رعب عظيم .»

ويقول ابن الأثير^(١) : « وسار (عبد الله بن سعد) نحو إفريقية ، وبث السرايا في كل ناحية ، وكان ملكهم اسمه جرجير ، وملكه من طرابلس إلى طنجة ، وكان هرقل ملك الروم قد ولاه إفريقية ، فهو يحمل إليه الخراج كل سنة ، فلما بلغه خبر المسلمين تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد ، فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس ، والتي هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سبیطلة يوم وليلة ، وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك ، فأقاموا هناك يقتتلون كل يوم ، وراسله عبد الله بن سعد ، يدعوهُ إلى الإسلام أو الجزية ، فامتنع منها ، وتكبر عن قبول أحدهما ، وانقطع خبر المسلمين عن عثمان ، فسير عبد الله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم ، فسار مجدا ، ووصل إليهم ، وأقام معهم ، ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين ، فسأل جرجير عن الخبر ، فقيل قد أتاكم عسكر ، ففت ذلك في عضده ، ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر ، فاذا أذن بالظهر عاد كل فريق إلى خيامه ، وشهد القتال من الغد ، فلم ير ابن أبي سرح معهم ، فسأل عنه ، فقيل إنه سمع منادى جرجير يقول : من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي ، وهو يخاف ، فحضر عنده ، وقال له : تأمر مناديا ينادى من أتى برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته ، واستعملته على بلاده ، ففعل ذلك ، فصار يخاف أشد من عبد الله . ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد ، إن أمرنا بطول مع هؤلاء ، وهم في أمداد متصلة ، وبلادهم لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن تترك غدا جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٤٣ ، ٤٤

متأهبين ، ونقاتل نحن الروم في باقى العسكر ، إلى أن يضجروا ، ويملوا ،
 فاذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ، ركب من كان فى الخيام من
 المسلمين ، ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ، ونقصدهم على غرة ، فلعل
 الله ينصرنا عليهم . فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه
 على ذلك . فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه ، وأقام جميع شجعان
 المسلمين فى خيامهم ، وخيولهم عندهم مسرجة ، ومضى الباقون ، فقاتلوا
 الروم إلى الظهر قتالا شديدا ، فلما أذن بالظهر هم الروم بالانصراف على
 العادة ، فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أنعبهم ، ثم عاد عنهم
 هو والمسلمون ، فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعباً ، فعند ذلك أخذ
 عبد الله بن الزبير من كان مستريحا من شجعان المسلمين ، وقصد الروم ،
 فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم ، وحملوا حملة رجل واحد وكبروا ، فلم
 يتمكن الروم من لبس سلاحهم ، حتى غشيمهم المسلمون ، وقتل جرجير ،
 قتله ابن الزبير ، وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأخذت ابنة الملك
 جرجير سبية ، ونازل عبد الله بن سعد المدينة ، فحصرها حتى فتحها ... » .

ويقول ابن عذارى^(١) : « والتى عبد الله مع البطريق ضحى النهار فى
 موضع يعرف بسبيلة ، وكان جرجير فى مائة وعشرين ألفاً ، فضاق المسلمون
 فى أمرهم ، واختلفوا على ابن سعد فى رأى ، فدخل فسطاطه مفكرا فى
 الأمر ... قال عبد الله بن الزبير : فرأيت عورة من جرجير ، والناس على
 مصافهم ، رأيت على برذون أشهب خلف أصحابه ، منقطعا عنهم ، معه

(١) ابن عذارى ج ١ ص ١٠ ، ١١ . وقد ورد هذا النص أيضا فى رياض النفوس

جاريثان له تظلاله من الشمس بریش الطواويس ، فأثبت فسقاط عبد الله ابن سعد ، فطلبت الإذن عليه ، فقال له حاجبه : دعه فإنه يفكر في شأنكم ، ولو اتجه إليه رأى لدعا بالناس . فقلت : إني محتاج إلى مذاكرته . فقال له : أمرني أن أحبس الناس عنه حتى يدعوني . قال : فدرت حتى كنت من وراء الفسقاط ، فرأى وجهي ، فأومأ إلى برأسه ، أن تعال . فدخلت عليه وهو مستلق على فراشه ، فقال : ما جاء بك يا ابن الزبير ؟ . فقلت : رأيت عورة من عدونا ، فرجوت أن تكون فرصة هيأها الله لنا ، وخشيت الفوت . فقام من فوره ، وخرج حتى رأى ما رأيت ، فقال : أيها الناس ، انتدبوا مع ابن الزبير إلى عدوكم ، فتسارع إلى جماعة اخترت منهم ثلاثين فارسا ، ثم قلت : إني حامل ، فاصرفوا عن ظهري من أرادني ، فاني أكفيكم ما أمانى إن شاء الله تعالى . قال عبد الله : فحملت في الوجه الذي هو فيه ، وذب عني الذين انتدبوا معي ، وأتبعوني حتى خرقت صفوفهم إلى أرض خالية فضاء بيني وبينهم ، فوالله ما حسب إلا إني رسول إليه حتى رأى ما بي من أثر السلاح ، فقدر إني هارب إليه ، فلما أدركته طعنته ، فسقط ، فرميت نفسي عليه ، وألقت جاريثاه عليه أنفسهما ، فقطعت يد إحداهما ، وأجهزت عليه ، ورفعت رأسه على رمح . وجال أصحابه ، وحمل المسلمون في ناحيتي وكبروا ، فانهزم الروم ، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا . وثارت الكمائن من كل جهة ومكان ، وسبقت خيول المسلمين ورجلهم إلى حصن سيطة ، فمنعواهم من دخوله ، وركبهم المسلمون يمينا وشمالا في السهل والوعر ، فقتلوا أنجادهم وفرسانهم ، وأكثروا فيهم الأسارى حتى لقد كنت أرى في موضع واحد أكثر من ألف أسير .

هذه هي معظم الروايات العربية التي تصور لنا انتصار العرب على الروم

في سيطرة ، وهي وإن كانت متباينة في التفصيلات من جهة ، ويغلب عليها الطابع القصصى من جهة ثانية ، إلا أن معظمها تتفق على أن عبد الله بن الزبير هو قاتل جريجوريوس . ويشك الدكتور الدكتور حسين مؤنس في الروايات القائلة بخوف عبد الله بن سعد من الظهور أمام جنده خشية أن يترصده أحد جنوده فيقتله ، واختبائه في فسطاطه حتى قدوم عبد الله بن الزبير في مدد بعثه عثمان بن عفان إليه لما أبطأت عليه أخبار المسلمين ^(١) . كما يشك في دور البطولة الذي أسبغته الروايات العربية المتأخرة على عبد الله بن الزبير لعاملين :

الاول : أن ابن عبد الحكم ، وهو أقدم من كتب من مؤرخى العرب في فتح المغرب ، اكتفى بقوله : « وكان الذى ولي قتله فيما يزعمون عبد الله ابن الزبير » ، أى أنه ذكر الخبر فى شيء من الحذر والاحتراز مما يشكك فى أصالة الرواية .

والثانى : أنه بينما تشير معظم الروايات إلى أن ابنة جريجوريوس كانت من نصيب قاتل أبيها عبد الله بن الزبير ، ومن جملة هذه الروايات رواية ذكرها ابن عبد الحكم ، فإن ابن عبد الحكم نفسه أورد رواية أخرى جاء فيها : « وكانت ابنة جرجير ، كما حدثنا أبو عبد الله بن عبد الحكم ، وسعيد بن عفير ، قد هارت لرجل من الأنصار فى سهمه ، فأقبل بها منصوراً ، قد حملها على بعير له ، فجعل يرتجز .

يا ابنة جرجير تمشى عقبك . . . إن هليك بالحجاز ربك
لتحملن عن قباء قربك

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٨٩

فسألت ما يقول هذا الكلباء، فأخبرت بذلك ، فألقت بنفسها عن البعير الذى كانت عليه ، فدقت عنقها فماتت « (١) . ويتساءل الدكتور مؤنس : كيف يتفق أن تصير ابنة جرجير لابن الزبير ، ولرجلى من الأنصار في وقت واحد ؟

ويستنتج الدكتور مؤنس من رواية ابن عبد الحكم أن قصة قتل ابن الزبير لجرجير ، وأخذه ابنته لا أصل له في الحقيقة ، ولا يعدو ذلك أن يكون من اختراع الرواة (٢) . ويؤيد الدكتور سعد زغلول عبد الحميد هذا الرأي ، ويرى « أن الزبيرين هم الذين عملوا على إذاعة هذه الأبحاث عن أسرهم ، فنسبوا إلى عميد الأسرة الأول - الزبير بن العوام - نحر الأنصار في بابلون في مصر ، كما نسبوا إلى ابنه عبيد الله - الذى بلغت الأسرة على أيام مطالبته بالخلافة أوج عظمتها - شرف الانتصار في سبيلة بافريقية (٣) .

وقبل أن نبحث في الدور الذى لعبه ابن الزبير في موقعة سبيلة ينبغي أن نشير إلى أمرين :

الأول : أنه إذا كان ابن الزبير من بين الصحابة الذين اشتركوا في الحملة التى سورها عثمان بن عفان من المدينة ، فكيف يتفق إذن قدومه بعد ذلك إلى المغرب قبل وقوع الاشتباك في سبيلة بين العرب والروم ؟

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٤٦

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٩٢

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية ، والأسطورة

الشعبية ، ص ٢٩

والثاني : إذا كان الدكتور حسين مؤنس يستند على نص ابن عبد الحكم الذى يشير إلى أن ابنة جرجير آلت إلى رجل من الأنصار فى سهمه ، وذلك تعزيزا لرأيه فى أن ابن الزبير لم يكن بطل سبيطة ، فان المالكى يروى فى رياض النفوس خبرين نستنتج منهما أن عبد الله بن سعد كافأ عبد الله ابن الزبير على بطولته بأن نقله ابنة الملك . وفى الخبر الأول آيات قاهسا ابن الزبير فى ابنة جرجير حين بلغه أنها سألت أباه أن ينحلها العرب :

ابنة جرجير تلى نحلته . . . لقيت بالنحلة ثكلى أبك
لتأخذن فى الطريق عقبك . . . لتسقين شرماء قربك
شر عجوز بالحجاز ربك (١)

وفى الخبر الثانى أن عبد الله كان يرتجز لابنة جرجير البطريق ويقول :

يا ابنة جرجير نهى غضبتك . . . ستبصرين فى الحجاز ربك
ما أحسن الوجه وأجل مقلتك . . . لتجملن من تدير قربك
لتعظمن فى الإماء لقمته (٢)

ويروى ابن عذارى أيضا أن عبد الله بن سعد نقل ابن الزبير ابنة الملك المقتول جرجير ، وأنه اتخذها أم ولد (٣) . كذلك يروى ابن الأثير ، أن

(١) المالكى ، ص ١٣

(٢) نفس المرجع ، ص ١٥

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٢

عبد الله بن سعد قتل ابن الزبير ابنة جرجير ، وأرسله إلى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية . ثم يضيف قائلا : « وقيل أن ابنة الملك وقعت لرجل من الأنصار (١) » .

ولا جدال في أن معظم الروايات السابقة تتضمن كثيرا من المبالغة في تصوير بطولة ابن الزبير ، ومن الطبيعي أن تمجد هذه الروايات المستقاة من آل الزبير بطولته ، فتقلل من شأن ما قام به عبد الله بن سعد . ولكن ليس معنى هذا أن نستبعد ما أجمعت عليه الروايات من أن ابن الزبير هو الذي توصل إلى قتل جرجير (جريجوريوس) . فلو أن ابن عبد الحكم كان يشك بعبارته « فيما يزعمون » في قيام عبد الله بن الزبير بقتل جرجير ، فلماذا لم يشر إذن إلى رواية أخرى تتضمن اسم البطل الحقيقي؟. ونعتقد أن عبد الله ابن الزبير كان من بين أبناء الصحابة الذين اشتركوا في حملة الحجاز ، فاسمه يرد في رواية البلاذري والمالكي وابن عذارى والنويري ، وقد تصادف اشتراك عدد من أبناء الصحابة في هذه الحملة تبدأ أسمائهم بعبد الله ، فسميت الغزوة لذلك بغزوة العبادلة (٢) . وأعتقد أن ابن الأثير هو المؤرخ الوحيد الذي أشار إلى تسيير عثمان بن عفان لعبد الله بن الزبير في جماعة إلى إفريقية ليأتيه بأخبار المسلمين ، وعنه أخذ النويري . والنويري على هذا النحو يناقض نفسه ، فقد روى في موضع آخر أن حملة الحجاز كانت تضم بين قوادها عبد الله بن الزبير (٣) . إذن ليس هناك إجماع بين الروايات على أن ابن الزبير

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٤٤

(٢) المالكي ، ص ١٠

(٣) النويري ، نهاية الأرب ، عن حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ٨١ ،

ملاحظة رقم ٢٠

كان مبعوثا للخليفة عثمان إلى عبد الله بن سعد بعد أن انقطعت أخبار الفتح . وقد تكون رواية ابن الأثير في هذا الشأن منقولة عن مصدر زبيرى لتصوير إلى أى حد كان وصول ابن الزبير نجدة للمسلمين . وظاهر أن هذه الرواية من اختراع الرواة ، خاصة بعد أن اختار ابن سعد عبد الله بن الزبير ليكون رسولا منه إلى الخليفة ليبشره بما أحرزه المسلمون من انتصارات على الروم ، فقد روى ابن عبد الحكم (عن عبد الملك بن مسلمة ، عن ابن لهيعة) قال أن عبد الله بن سعد « بعث بالفتح عقبة بن نافع ، ويقال بل عبد الله ابن الزبير وذلك أصبح ، وسار - زعموا - عبد الله بن الزبير على راحلته إلى المدينة من إفريقية عشرين ليلة » . وروى أيضا نقلا عن سعيد بن عفير ، « حدثني المنذر بن عبد الله الحزامي ، عن هشام بن عروة أن عبد الله بن سعد بعث عبد الله بن الزبير بفتح إفريقية ، فدخل على عثمان ، فجعل يخبره بلقائهم العدو ، وما كان في تلك الغزوة ، فأعجب عثمان (١) » . وقال ابن عبد الحكم أيضا نقلا عن مسلمة بن عبد الملك عن الليث بن سعد ، قال : « بعث عبد الله بن سعد عبد الله بن الزبير - وكان في الجيش - بالفتح ، فقدم على عثمان بن عفان (٢) » . ويؤيد المالكي هذه الرواية بقوله إن عبد الله بن أبي سرح لما أراد أن يوجه بشيرا إلى عثمان رضى الله عنه ، قال (لابن الزبير) : « أنت أولى من هنا بذلك (وذلك لقتله جريجوريوس) . انطلق إلى أمير المؤمنين ، فأخبره بالخبر (٣) » . وقال ابن عذارى أن الأمير

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٤٨ - ٥٠

(٢) نفس المرجع ص ٥٠

(٣) المالكي ، ص ١٠

عبد الله بن سعد دعا عبد الله بن الزبير ، فقال له « ما أحد أحق بالبشارة منك ، فامض ، فبشر أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه بالمدينة ، بما أفاء الله على المسلمين ^(١) » .

فوصل عبد الله إلى المدينة في شهر ، وقيل في ثمانية عشر يوما (٢) ، وذكر ابن عذارى أنه وافى المدينة في أربعة وعشرين يوما ، وكانت إقامته بإفريقية سنة وشهرين (٣) . وأغلب الظن أن الرواة وجدوا في سفره إلى المدينة رسولا من ابن سعد فرصة مواتية ومبررا لتجديد شخصيته ، فنسجوا قصة بطولته الخارقة في أنه قدم إلى إفريقية مبعوثا من الخليفة ، فوجد ابن سعد مهوما في فسطاطه ، فدبر له خطة قتل جريجوريوس ، هذه القصة فيها تعظيم لشأن عبد الله بن الزبير وتقليل من شأن عبد الله بن سعد . ولو أن عبد الله بن الزبير لم يكن قد اشترك في الحملة ، وأبدى من البطولة في قتال الروم ، وقتل جريجوريوس ، لما كان جديرا باختياره رسولا إلى الخليفة يبشره بالفتح .

أما ما ذكره ابن عبد الحكم من أن عبد الله بن سعد وجه مروان بن الحكم إلى عثمان من إفريقية ، فإن ابن عبد الحكم نفسه لم يستطع أن يعرف إذا ما كان ذلك قد حدث قبل الفتح أم بعده ، والأقرب إلى الصواب أنه أرسله إليه قبيل موقعة سبيلة ، عندما شاهد ضخامة جيش الروم ومنعتهم ، وذلك لكي يستمد عثمان بمدد آخر . وأعتقد أن عبد الله بن سعد بادر بعد نجاح ابن الزبير في قتل جريجوريوس ودخول المسلمين سبيلة بارساله إلى المدينة وذلك حق

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢

(٢) المالكى ، ص ١٠

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣

يردف به مروان بن الحكم، فيصل ابن الزبير ومعه آخر أنباء الفتح .
ولو افترضنا جدلاً أن عبد الله بن سعد أرسل مروان بن الحكم إلى الخليفة
قبل المعركة ليطلب مدداً جديداً، فليس من المعقول أن يصل مروان ، ويأتي
عبد الله بن الزبير في فترة وجيزة بحيث يسبق مجيئه نشوب المعركة ، وليس
من المعقول أن يأتي عبد الله بن الزبير على رأس اثني عشر رجلاً فقط على
حد قول النويري^(١) .

ونخرج من كل ذلك بالتائج الآتية :

١ - أن عبد الله بن سعد بعد أن استعصت عليه قابس ، واصل زحفه
بجذاء الساحل التونسي حتى وصل إلى بلدة قونية ، وهي موضع مدينة
القيروان^(٢) ، ولعلها ميناء Caput Vada البيزنطي أو مدينة قودة التي أشار
إليها الإدريسي ، وكتلها قرية من القيروان^(٣) . وهناك أرسل رسله إلى
جريجوريوس يدعوهم إلى خصال ثلاثة : الإسلام ، أو الجزية أو القتال^(٤) ،
وهي عادة اتبعها الفاتحون العرب في كل فتوحاتهم . فلما رفض جريجوريوس
ما عرضه عليه عبد الله بن سعد ، بدأت الاشتباكات بين الطرفين ، وتهيأ
القوم للقتال ، « وعبأ الناس عبد الله بن سعد ميمنة وميسرة وقلبا ، وسار
بأصحابه^(٥) » خلف جيوش الروم ، وكان جريجوريوس قد حصن سبيطلة

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٨٧ .

(٢) المالكي ، ص ١٢ .

(٣) حسين مؤنس ، ص ٨٦ ، ملحوظة رقم ٢

(٤) المالكي ، ص ١٠

(٥) المالكي ، ص ١١ .

بسلسلة من الحصون والقلاع ، واختار جريجوريوس فخص عقوبة ، ويقع
قريبا من سبيطة ليكون ميدانا للمعركة بينه وبين العرب .

ويبدو أن جيش الروم تضخم بمن انضم اليه من الروم والبربر المواليين لهم،
من العاصمة ومن الحصون القريبة من سبيطة (١) . وظهر جيش العرب ضئيلا
بالنسبة لجيش الروم ، وخاف عبد الله بن سعد أن يلقى العرب ، وهم فئة
قليلة جيوش الروم والأفارقة مجتمعة ، فعظم عليه الأمر ، ولعله أرسل في
هذه الآونة مروان بن الحكم إلى عثمان ليستمده . وهنا تصور الروايات
العربية شدة ما أصابه من غم وضيق ، واختلاف المسلمين عليه في الرأي ،
وانزوائه في فسطاطه مفكرا .

٢ - كان جريجوريوس يخاف أن يشتبك مع العرب في موقعة فاصلة ،
فتدور عليه الدائرة (٢) ، فقد كانت أنباء انتصاراتهم في الشام ومصر والعراق
وبرقة قد وصلته ، ولذلك اقتصر القتال بادئ ذي بدء على اشتباكات فاترة .
وكان جيش الروم ينقسم إلى كراديس ، واختار جريجوريوس لنفسه
موضعا مرتفعا نائيا عن جنوده يشرف منه على القتال . واستغرقت المناوشات
أياما كان القتال يمتد أثناءها من الصباح حتى الظهر . ويبدو أن جيوش
الروم كانت متفوقة على جيوش المسلمين . مما دعا ابن الزبير إلى التفكير
في طريقة تكفل النصر للمسلمين ، فاتفق مع عبد الله بن سعد على أن يباغت

(١) يروى المالكى عن أبي عثمان سعيد بن عفير ، أن الروم والأفارقة ، لما سمعوا
بوصول عبد الله بن سعد إلى إفريقية خرجوا إليه وهم جرجير في جمع كثير من الروم
(رياض النفوس ، ص ١١)

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٠

عبد الله بن الزبير الروم بالهجوم بعد انتهاء القتال اليومى ، عندما يكون التعب والجهد قد أخذ منهم مأخذا عظيما (١) ، ونجحت الخطة نجاحا لم يكن فى الحسبان ، واخترق عبد الله بن الزبير وأصحابه معسكر الروم ، وهم متعبون ، لا يتوقعون القتال ، واستطاع أن يصل فى سر إلى مخيم البطريق ، وتمكن أخيرا من قتله ، وانهزم الروم بعد مصرع ملكهم هزيمة نكراء ، وسبقتهم خيول المسلمين إلى باب الحصن ، فحاولوا بينهم وبين دخوله ، وأذرع فيهم المسلمون قتلا (٢) ، واستولوا على حصن عقوبة .

٣ - زحف عبد الله بن سعد إلى سبيلطة بعد ذلك ، فحاصرها حصارا محكما وتمكن من الاستيلاء عليها ، وغنم فيها غنائم كثيرة . وأراد أن يستغل هذا الانتصار الكبير فى الاستيلاء على قرطاجنة ، « فبث جيوشه فى البلاد فبلغت قفصة ، فسبوا وغنموا ، وسير عسكرا إلى حصن الاجم (٣) ، وقد احتسى به أهل البلاد فحاصره ، وفتح على الأمان (٤) » . فلما رأى رؤساء المدن فى إفريقية ذلك طلبوا من عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ويعود من حيث أتى ، ففعل (٥) ، وتأهب للعودة إلى مصر ، دون أن يتخذ بالمغرب قيروانا ، ويستغل هذا النصر العظيم فى

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ص ٤٣ .

(٢) المالكي ، ص ١٢ .

(٣) هو حصن منيع من أعظم حصون إفريقية ، ويقع جنوبى مدينة القيروان ، وكان يعرف فى العصر البيزنطى باسم Thysderas (حسين مؤنس ، ص ٩٧ ملحوظة ٤) .

(٤) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٤ - الاستقصا ، ج ١ ص ٧٦ .

(٥) البلاذرى ، ص ٢٦٨ .

إقامة قاعدة للمسلمين في إفريقية (١). وكانت قد وصلتته أنباء بقيام الروم في المساح والحصون الشمالية بالتجمع لقصد (٢)، فخاف أن يشتبك معهم في قتال ينتهي بهزيمته، خاصة وأنه كان قد فقد عددا كبيرا من عسكره في معركة سبيلة، يضاف إلى ذلك أن غيبته عن مصر، مقر ولايته، كانت قد طالت إلى ١٥ شهرا، وكان لابد له من العودة للنظر في شؤون ولايته من جهة، وللقضاء على مظاهر الاضطراب النباشة من سخط المسلمين على سياسة الخليفة عامة من جهة ثانية، ثم إن جيش المسلمين كان قد جمع من الغنائم الكثيرة ما جعل الجند يحرصون إلى العودة بها إلى مصر. هذه الدوافع جرحت عبد الله بن سعد إلى التفكير في العودة إلى مصر، فكتب إلى نائبه في مصر عقبة بن عامر الجهني، يأمره بأن يرسل إليه بطرابلس مراكب في البحر لتحمل غنائم المسلمين، وسار هو وجيشه إلى طرابلس حيث وافته السفن بها (٣).

ويعلق الدكتور حسين مؤنس على موقعة سبيلة بأنهم لم تفتح أمام العرب كل سهل تونس، بل جزءا محدودا منه يحدده الخط الممتد من سبيلة نفسها إلى سوسة من الشمال، ثم من سبيلة إلى قفصة جهة الشرق، وشريط

(١) وفي ذلك يقول البلاذري: « لما صالح عبد الله بن سعد بطريق إفريقية رجع إلى مصر، ولم يول على إفريقية أحدا، وأم يكن لها يومئذ قيروان ولا مصر جامع » (فتوح البلدان، ص ٢٦٨).

(٢) المالكي، ص ١٧ - Julien, Histoire de l' Afrique du Nord, depuis la conquête arabe, Paris, 1952, p. 14.

(٣) المالكي، ص ١٠.

ساحلى ضيق فيما بين قابس وشط الجريد فى الجنوب (١) . ومع ذلك فان غزوة عبد الله بن سعد كانت تجربة مفيدة للعرب ، إذ أوقفنهم على حالة هذه البلاد ، وعلى مدى أهميتها بالنسبة لهم ، وسرى أن جهود عبد الله بن سعد ستعقبها جهود موفقة أخرى .

ج . حملة معاوية بن حديج على إفريقية سنة ٤٥ هـ (٦٦٦ م) :

ما كاد البطريق جريجوريوس يقتل فى سبيطلة حتى أقام الافارقة على أنفسهم بطريقا جديدا يقوم بشؤونهم ويسميه العرب حبا حبة (٢) ، وهو الذى عقد معه عبد الله بن سعد معاهدة الصلح (٣) . ولم يعاود العرب الاغارة على إفريقية ، ولم يبدوا اهتماما بشؤون المغرب على الإطلاق منذ سنة ٢٨ هـ التى عقد فيها الصلح بين العرب والأفارقة ، حتى سنة ٣٨ هـ ، وهى السنة التى تولى فيها عمرو بن العاص ولاية مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان ، ذلك أنهم شغلوا بفتنة الأمصار التى أسفرت عن مقتل الخليفة عثمان ، ونشوب النزاع بين الأمويين والعلويين ، وهو النزاع الذى انتهى بمقتل على بن أبى طالب . وقيام الدولة الأموية .

وكان عمرو بن العاص ما يزال يضع فتح إفريقية على رأس جدول

(١) فتح العرب للمغرب، ص ٩٩

(٢) ابن عذارى، ج ١، ص ١٦ ، ١٧ . وبسميه النويرى باسم جناحه (عن حسين مؤنس ، ص ١١٤ ، ملاحظة ٢) . وبسميه اندريه جوليان جناديوس Gonnadius (Julien, op. cit. p. 15.)

(٣) البلاذرى، ص ٢٦٨ .

أعماله ، وكانت المغنم الكثيرة والمكاسب الوفيرة التي أسفرت عنها حملة عبد الله بن سعد ، طاملا هاما في تحريك مطامع عمرو في المغرب من جديد ، ودفعه إلى غزو هذه البلاد للمرة الثانية . غير أن الصراع القائم بين علي ومعاوية ، ومشكلات التحكيم ، شغله عن إعداد حملة منظمة لهذا الغرض ، فلما استقر الأمر لمعاوية على الخلافة ، بعد تنازل الحسن له عنها في أواخر ربيع الأول سنة ٤١ هـ ، استأنف عمرو غزواته السابقة على برقة وطرابلس ، فكان يبعث إليها جندا يغنمون من أراضيها ما شاء لهم ذلك ، ويعودون من حيث أتوا ، دون أن يشتبكوا مع الروم في مواقع حاسمة . فقد ذكر ابن الأثير أن عمرو استعمل في سنة ٤١ هـ « عقبة بن نافع بن عبد قيس وهو ابن خالة عمرو ، على أفريقية ، فأنتهى إلى لوانة ومزاةة فأطاعوا ثم كفروا ، فغزاهم من سنته ، وقتل وسي ، ثم افتتح في سنة اثنتين وأربعين غدامس فقتل وسي ، وفتح في سنة ثلاث وأربعين كورا من كور السودان ، وافتتح ودان ، وهي من برقة »^(١) . ويؤيد ذلك ما ذكره ابن عذارى إذ يقول : « (وفي سنة ٤٢ هـ) غزا عقبة بن نافع أفريقية »^(٢) . قال غريب في مختصره للطبرى : فيها غزا عقبة بن نافع المغرب ، وافتتح غدامس ، فقتل فيها وسي « ويشير ابن تغرى بردى كذلك إلى افتتاح عقبة بن نافع في سنة ٤٣ هـ كورا من بلاد السودان وودان من برقة »^(٣) .

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٢١٢

(٢) ابن عذارى ، ص ١٥

(٣) أبو المحاسن بن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، طبعة دار الكتب المصرية ،

القاهرة ١٩٢٩ ص ١٢٤

وكان معاوية بن أبي سفيان يرى أن اهتمام عمرو بشؤون المغرب ينحفي وراءه طمعا في غنائمها ، وكان يتطلع هو إلى هذه المغانم ، فلما توفي عمرو ابن العاص سنة ٤٣هـ (٦٦٤م) فصل معاوية ولاية إفريقية عن مصر ، واعتبرها ولاية مستقلة تتبع دمشق مباشرة ، وبولى هو عليها من شاء من رجاله . فأقام على مصر عقبة بن عامر الجهني ، بعد أن عزل عبد الله بن عمرو عنها ، ثم ولى معاوية بن حـديج التجيبي رئيس حزب العثمانية في مصر على قيادة الجيوش في إفريقية ، مكافأة له على خدماته التي أداها لبني أمية ، وتجاهل بذلك عقبة بن نافع الفهري الذي كان ما يزال يقوم بالغزو في نواحي برقة والواحات .

وكانت إفريقية في تلك الأثناء تجتاز مرحلة من الفوضى والاضطرابات، فقد غضب الامبراطور البيزنطي كدسطنز الثاني عندما بلغته أنباء الصلح بين العرب والأفارقة ، والجزية التي يدفعها هؤلاء للعرب ، فأرسل إليهم بطريقا من قبله يقال له أوليمة^(١) (ولعله أوليمبوس) ليطالب أهل إفريقية بأن يقدموا إليه ثلاثة مائة قنطار من الذهب على نحو ما فعلوه مع عبد الله ابن سعد . فنزل أوليمة قرطاجنة ، وخاطبهم في ذلك ، فأبوا عليه ، وقالوا : « إن الذي كان بأيدينا من الأموال فدينا به أنفسنا من العرب ، وأما الملك فهو سيدنا ، فيأخذ عادته منا »^(٢) . ونتيجة لذلك أمر البطريق الجديد أوليمة بإبعاد حباكية من إفريقية . وتمكن بعد فترة طويلة من طرده من البلاد .

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧

(٢) نفس المرجع .

فسار إلى معاوية بن أبي سفيان في الشام ، فوصف له سوء حال البلاد ، وسأله أن يبعث معه جيشا إلى المغرب^(١) . ويذكر ابن الأثير أن معاوية استجاب لرجائه ، فسير معه معاوية بن حديج السكوني ، فلما وصلوا إلى الاسكندرية ، توفي حباحبة ، ومضى ابن حديج في طريقه إلى إفريقية ، فوصلها وهي نار تضطرم^(٢) ، فان سكان إفريقية لم يسكتوا على تصرف أوليمة وجوره ، فثاروا عليه ، وقدموا على أنفسهم رجلا يعرف باسم الاطريون^(٣) . ويعتقد الدكتور حسين مؤنس أن نزاعا شديدا بين البيزنطيين وأهل إفريقية كان يثير البلاد ، ويقسم أهلها شيعا وأحزابا ، وأن الامبراطور قسطنطين الثاني أراد أن يرغم هؤلاء السكان على أن يقدموا له قدرا من المال يماثل ما قدموه للعرب ، فقد كانت ظروف الدولة المالية في غاية السوء في هذه الآونة ، وأنها أرهقت صقلية وسردانية وكلايريا بالضرائب ، ويخرج الدكتور مؤنس من ذلك بأن أهل إفريقية وجدوا في العرب منقذا لهم مما كانوا يلاقونه من نير الروم^(٤) . وقد أدى النزاع القائم في إفريقية بين الأهل والحكومة البيزنطية إلى قيام الأفرقة بطرد عامل الامبراطور فعاد إلى بلاده^(٥) .

خرج معاوية بن حديج في جيش كثيف عدته عشرة آلاف مقاتل ،

(١) ابن الأثير، ج ٣ ص ٤٥ — ابن عذاري ، ج ١ ص ١٧

(٢) ابن الأثير، ج ٣ ص ٤٥ — ابن عذاري ، ص ١٧

(٣) ابن عذاري ، ص ١٧

(٤) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب ، ص ١١٥

(٥) نفس المرجع ، ص ١٢٠

من بينهم الأمير عبد الملك بن مروان ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، ويحيى بن الحكم بن العاص ، والأكدر بن حمام اللخمي ، وكريب بن أبرهة ابن الصباح ، وخالد بن ثابت الثقفي ، وأشرف من جند مصر (١) . ويختلف مؤرخو العرب في تحديد تاريخ سير هذه الحملة إلى إفريقية ، فابن عبد الحكم يذكر نصبا نقله عن عبد الملك بن مسleme ، عن ابن لهيعة ، عن يزيد بن حبيب ، أن معاوية بن حديج غزا إفريقية ثلاث مرات ، الأولى سنة ٣٤ هـ ، وهي غزوة لا يعرفها كثير من الناس ، والثانية سنة ٤٤ هـ ، والثالثة سنة ٥٥ هـ (٢) . وقد جراه في ذلك المالكي ، وإن كان قد ذكر غزوتين لمعاوية بن حديج بدلا من ثلاثة (٣) ، وأبو العرب تميم في طبقات علماء إفريقية (٤) ، وابن أبي دينار القيرواني في المؤنس (٥) ، وابن عذارى المراكشي (٦) . ولكن ابن عبد الحكم يجمع كل أعمال معاوية بن حديج في إفريقية في غزوة سنة ٣٤ هـ (٧) ، ويجاربه ابن خلدون في ذلك ، مع إضافة أن ذلك حدث في خلافة معاوية (٨) . أما عبيد الله بن صالح فيذكر نقلا عن أبي عمر بن عبد البر في الاستيعاب ، أن عقبة بن نافع هو الذي غزا لواتة في سنة ٤١ هـ ، وفتح غدامس

(١) المالكي ، ص ١٨ — ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦٠

(٣) المالكي ، ص ١٩

(٤) أبو العرب تميم ، طبقات علماء إفريقية ، طبعة ابن شب ، الجزائر ، ١٩١٥-١٩٢٠

(٥) ابن أبي دينار القيرواني ، المؤنس ، ص ٣٤

(٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤ — ١٦

(٧) ابن عبد الحكم ، ص ٥٩

(٨) ابن خلدون ، كتاب العبر

في سنة ٥٤٢هـ ، وافتتح كورا من كور السودان في سنة ٥٤٣هـ ، واختط القيروان وأقام بها ثلاث سنين إلى أن عزله معاوية سنة ٥٥١هـ^(١) ، ولا يشير إلى شيء من غزوات ابن حديج . وهناك من المؤرخين من يحمل غزوات معاوية بن حديج في سنة ٥٤٥هـ (المالكى ، وابن عذارى) ؛ أما البكرى فيجعلها في سنة ٥٤١هـ^(٢) ؛

وإذا بحثنا في أى هذه التواريخ أجدر بالثقة ، وجدنا أنه لا يعقل أن يقوم ابن حديج بغزو إفريقية في سنة ٥٣٤هـ ، وفتنة الأمصار التي أطاحت بخلافة عثمان على أشدها ، ولا يعقل أيضا أن يقوم ابن حديج بكل ما قام به من أعمال غزوية في سنة واحدة ، ثم يعود إلى مصر في سنة ٥٣٥هـ ، لكي يتزعم حزب العثمانية في مصر ، ويطالب بدم عثمان . ونستبعد أيضا قيام ابن حديج بغزو المغرب في سنتي ٤٠ ، ٤١هـ ، فقد كان عمرو بن العاص ما يزال عاملا على مصر ، ولم يرد قط في المصادر العربية ما يشير إلى أنه أرسل معاوية ابن حديج إلى المغرب .

وأما رواية عبيد الله بن صالح ، فقد فندها الدكتور مؤنس ، وعزا هذه الرواية إلى حدوث خلط في رواية عبيد الله بن صالح ، في سرد أعمال عقبة بن نافع من دخوله إلى إفريقية مع عمرو بن العاص إلى عزله عن الولاية الأولى ، وأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال الأخذ برواية عبيد الله ابن صالح ، القائلة بأن عقبة اختط القيروان في سنة ٥٤٣هـ ، لأن الثابت أنه

(١) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٨

(٢) البكرى ، المغرب ، ص ٣٤ ، ٣٥

بناها في ولايته الأولى لإفريقية سنة ٥٠هـ^(١). والواقع أن عبيد الله بن صالح لم يخلط بين أعمال عقبة في ولايته على إفريقية وأعماله وهو قائد لعمر و ابن العاص والى مصر (في المرة الثانية) ، فان ما ذكره عبيد الله لا يتجاوز عن كونه نصبا نقله عن أبي عمر بن عبد البر ، وذكر فيه أعمال عقبة فيما بين عامي ٤١ ، ٤٣ . أما عن بنائه لمدينة القيروان سنة ٤٣هـ فلم يرد إطلاقا في النص المذكور ، وكل ما في الأمر أنه أشار إلى بناء القيروان على يدى عقبة وبقائه فيها ثلاث سنوات حتى عزل سنة ٥١هـ ، ومعنى ذلك أنه اختط القيروان سنة ٤٨هـ وليس في ٤٣هـ كما يزعم الدكتور مؤنس .

وبما يؤكد هذا الرأي ما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ٤١هـ ، إذ يقول : « وفي هذه السنة استعمل عمرو بن العاص عقبة بن نافع بن عبد قيس ، وهو ابن خالة عمرو على إفريقية فأنهى إلى لوانة ومزاتة ، فأطاعوا ثم كفروا ، فغزاهم من سنته ، فقتل وسبى ، ثم افتتح في سنة اثنتين وأربعين غدامس ، فقتل وسبى ، وفتح في سنة ثلاث وأربعين كورا من كور السودان ، وافتتح ودان وهي من برقة^(٢) » . وكذلك أشار المقرئ في الخطط أن « عمرو عقد لشريك بن سمي على غزو لوانة من البربر ، فغزاهم سنة أربعين ، وصالحهم ، ثم انتقضوا ، فبعث إليهم عقبة بن نافع في سنة إحدى وأربعين ، فغزاهم حتى هزمهم ، وعقد لعقبة أيضا على غزو هواره ، وعقد لشريك بن سمي على غزوة لبدة ، فغزواها في سنة ثلاثة وأربعين

(١) تعليق الدكتور مؤنس على نص عبيد الله ، ص ٢٣٤

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٢١٢

فقفلا^(١) . ولعل المقرئى نقل ذلك عن الكندى الذى أورد نفس النص^(٢) .

ومن المعروف أن عقبة كان خيرا عسكريا بشؤون برقة وطرابلس فى ولاية عمرو الأولى على مصر ، فعمره هو الذى أرسله لغزو فزان وزويلة سنة ٥٢٢ هـ ، وهو الذى تركه على برقة حتى غزوة عبد الله بن سعد ، وقد قضى عقبة هذه السنين الستة (٢٢ - ٥٢٨) فى مغازاة الواحات الداخلية ، ثم عاد مع عبد الله بن سعد إلى مصر فى سنة ٥٢٨ هـ فلما تولى عمرو بن العاص ولاية مصر للمرة الثانية فى سنة ٥٣٨ هـ (شهر ربيع الأول) ، استعان بعقبة فى بعوثه وسراياه فى برقة وطرابلس على النحو الذى ذكره ابن الأثير . ثم عاد عقبة إلى مصر وعمرو على فراش الموت فى أول شوال سنة ٥٣٨ هـ (٣) .

أما غزوة معاوية بن حديج فى سنة ٥٥٠ هـ فأمر مستبعد لأن والى مصر فى هذه السنة هو مسلمة بن مخلد الأنصارى الذى عزل عقبة من ولاية إفريقية وقلدها لأبى المهاجر دينار . وبى تاريخ سنة ٥٤٥ هـ لغزوة معاوية ابن حديج لإفريقية ، وأعتقد أنه أصبح التواريخ المذكورة ، فقد كان معاوية ابن حديج قائدا لجند مصر فى ولاية عتبة بن أبى سفيان لمصر سنة ٥٤٣ هـ ، وظل فى منصبه على قيادة جند مصر حتى عزله عنها مسلمة بن مخلد فى سنة ٥٤٧ هـ (٤) .

(١) المقرئى ، الخطط ، المجلد الثانى ، طبعة بيروت ، ص ٦٩

(٢) الكندى ، كتاب القضاء والولاية ، ص ٣٢

(٣) المقرئى ، الخطط ، مجلد ٢ ، ص ٦٩

(٤) حسين مؤنس ، فتح الغرب للمغرب ، ص ١١٨

وأعتقد أن تاريخ ٤٥ هـ يتفق مع حوادث الغزو التي استمرت ما يقرب من عامين .

خرج معاوية بن حديج من مصر في سنة خمس وأربعين على رأس جيش ضخم (١) لغزو إفريقية . وسار جيشه في نفس الاتجاه الذي سار فيه جيشا عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد من قبل ، حتى وصل إلى جنوب قرطاجنة في موضع يعرف بقمونية (٢) أو قونية (٣) ، وتقع في نفس الموضع الذي تقوم عليه القيروان (٤) ، وهو نفس المكان الذي التقى فيه عبد الله بن سعد وجريجوريوس لأول مرة ، ولعلها الميناء البيزنطي المعروف باسم Caput Vada أو مدينة قودة التي ورد ذكرها في صفة المغرب والسودان ومصر للأدريسي (٥) .

وكان الامبراطور البيزنطي قد بعث إلى إفريقية بطريقا يقال له نجفور (لعله نقفور) في ثلاثين ألف مقاتل (٦) ، وذلك بعد أن علم بطرد أهالي

(١) يذكر الدكتور مؤنس أن جيش معاوية بن حديج كان يتألف من عشرة آلاف مقاتل استنادا إلى ما ذكره ياقوت . والواقع أن ياقوت لم يكن يقصد بهذا العدد جيش ابن حديج ولكنه كان يقصد عدد جنود الجيش الذي سيره معاوية بن أبي سفيان إلى عقبة بن نافع الفهري عندما ولاء إفريقية سنة ٤٨ هـ (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ٤٢٠) ويؤيد ذلك ما ذكره ابن الأثير إذ يقول : « فلما استعمله معاوية (أي عقبة بن نافع) سير عليه عشرة آلاف فارس فدخل إفريقية » (ابن الأثير ، ج ٣ ص ٢٣٤) .

(٢) المالكى ، ص ١٨ — ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٥ — السلاوى ، ج ١ ص ٧٧

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨

(٤) نفس المرجع ، ص ٥٨ — المالكى ، ص ١٨

(٥) الأدريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ص ١٠٣

(٦) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٥ — ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦

إفريقية لعامله أولية . ونزل هؤلاء المحاربون البيزنطيون على الساحل التونسي ، وتقدموا في الداخل لمواجهة الغزو العربي . وفي قمونية التقى الجيشان : جيش ابن حديج ، وجيش نجفور ، فانهزم البيزنطيون عند أول اشتباك ، وانسحبوا إلى مدينة سوسة ، وتحصنوا داخل أسوارها ، فتقدمت جيوش ابن حديج شمالا ، وعسكرت في موضع مرتفع من جبل يعرف باسم القرن^(١). ومن هناك سير جيشين : أحدهما بقيادة عبد الله بن الزبير ووجهته سوسة ، والثاني بقيادة عبد الملك بن مروان ووجهته حصن جلولا^(٢) . ويبدو أن معاوية بن حديج أقام في معسكره بالقرن فترة طويلة ، فقد ذكر المالكي أنه بنى بناحية القرن مساكن سماها قيروان ، واحتفر هناك الآبار المعروفة باسم آبار حديج^(٣) .

ونجح عبد الله بن الزبير في مهمته نجاحا تجاوز كل تقدير في الحسبان ، وتجمع المصادر العربية على أنه افتتح سوسة ، ويذكر ابن عذارى أن عبد الله بن الزبير نزل على شرف عال ينظر منه إلى البحر ، ويبعد عن سوسة بنحو ١٢ ميلا ، فلما بلغ ذلك نجفورا أقلع في البحر منهما من غير قتال ، فأقبل ابن الزبير حتى نزل على باب سوسة ، ووقف على البحر وصلى بالمسلمين صلاة العصر ، والروم يتعجبون من جرأته ، فأخرجوا إليه خيلا ، وابن الزبير مقبل على صلاته ، لا يهوله خبرها حتى قضى الصلاة ، ثم ركب وحمل على الروم بمن معه ، فأنكشفوا منهزمين » ، ورجع ابن الزبير إلى معاوية بن حديج في القرن بعد أن افتتح سوسة^(٤) .

(١) ابن عبد الحكم ص ٥٨ — المالكي ، ص ١٨ — السلاوي ، ج ١ ص ٧٦

(٢) ابن عبد الحكم ص ٥٨ — البكري ، ص ٣٢ — ابن عذارى ج ١ ص ١٦

(٣) المالكي ، ص ١٩

(٤) ابن عذارى ج ١ ص ١٦

أما عبد الملك بن مروان ، فقد سار إلى حصن جلولاء في جيش عدته ألفي فارس ، وقيل ألف ، فحاصره أياما « فلم يصنع شيئا ، فانصرف راجعا ، فلم يسر إلا يسيرا حتى رأى في ساقة الناس غبارا شديداً ، فظن أن العدو قد طلبهم ، فكر جماعة من الناس لذلك ، وبقي من بقي على مصافهم ، وتسرع سرعان الناس ، فاذا مدينة جلولاء قد وقع حائطها ، فدخلها المسلمون ، وغنموا ما فيها ، وانصرف عبد الملك إلى معاوية بن حديج « (١) . ومن المؤرخين من ينسب فتح حصن جلولاء إلى معاوية بن حديج نفسه (٢) .

مضى معاوية بن حديج بعد ذلك نحو الشمال ، فافتتح ثغر بئرت (٣) . وبذكر البلاذري أنه غزا صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان ، وكان أول من غزاها (٤) . وفي موضع آخر يذكر البلاذري نقلا عن الواقدي أن عبد الله بن قيس بن مخلد الدزقي سبي صقلية ، « فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالجواهر ، فبعث بها إلى معاوية ، فوجه بها معاوية إلى البصرة لتحمل إلى الهند فتباع هناك ليثمن بها » (٥) . ويروي ابن عذاري خبر هذه الغزوة نقلا عن البلاذري مع إضافة سنة ٤٦ هـ كتاريخ لها (٦) . وكذلك ينقل عن

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ — البكري ، ص ٣٢ — ابن عذاري ، ص ١٧ — ياقوت ،
مجلد ٢ ، ص ١٥٦

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ — المالكي ، ص ١٨ — ابن عذاري ، ص ١٧

(٣) البكري ، ص ٥٨ — ياقوت ، مجلد ١ ، ص ٥٠٠ — السلاوي ، ص ٧٨

(٤) البلاذري ، قسم ١ ، ص ٢٧٨

(٥) نفس المرجع

(٦) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٨

عريب في مختصره للطبرى، أن معاوية بن حديج « أغزى جيشا في البحر إلى صقلية في مائتي مركب ، فسبوا وغنموا ، وأقاموا شهرا ، ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة ، ورقيق وأصنام منظومة بالجواهر ، فاقسموا فيهم^(١) ». إلا أن الدكتور حسين مؤنس يعتقد أن البلاذري يقصد بهذه الغزوة الحملة التي بعث فيها معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج حوالي سنة ٢٧ هـ أو ٢٨ هـ ، في خلافة عثمان ، لغزو رودس ثم صقلية ، ويرجح أن ابن عذارى أخطأ في النقل عن البلاذري فذكر سنة ٤٦ هـ وصحتها ٢٦ هـ (٢) . ويستند الدكتور مؤنس في هذا الرأي على ما ذكره أماري من قيام معاوية بن حديج بغزو رودس وصقلية في سنة ٦٥٢ م (٣٢٢ هـ) في مائتي سفينة (٣) ، مما دعا كنسطنطين الثاني إلى نقل عاصمته إلى مدينة سرقوسة بصقلية صيانة لأملاكه في إفريقية وصقلية وإيطاليا من الغزو العربي^(٤) . ولا ندري من أين استقى أماري هذا الخبر ، فالبلاذري الذي يزعم أماري أنه استقى منه لم يشر إلى تاريخ غزوة معاوية بن حديج لصقلية ، كما أن ابن الأثير لم يشر

(١) نفس المرجع ص ١٦، ١٧

(٢) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب ، ص ١٢٦

(٣) Amari, Storia dei Musulmani di sicilia, Catania, 1933, t. I

P. 194 — حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب ، ص ١٢٥

Marçais, La Berberie musulmane et l' Orient : وأنظر أيضا :

au moyen âge, Paris 1946, p. 64

وانظر كذلك : أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ،

ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٩١ .

(٤) أرشيبالد لويس ، ص ٩٤

أيضا إلى غزو صقلية في هذه السنة، وإنما ذكر أن أهل قبرص أعانوا الروم سنة ٥٣٢هـ على الغزاة في البحر بمراكب أعطوهم إياها فغزاهم معاوية سنة ثلاثة وثلاثين، ففتحها عنوة فقتل وسي، ثم أقرهم على صلحهم وبعث إليهم اثني عشر ألفا، فبنوا المساجد، وبنى مدينة. وقيل كانت غزوته الثانية سنة خمس وثلاثين^(١). كذلك يشير ابن الأثير إلى أن قسطنطين بن هرقل أتى إلى صقلية سنة ٥٣٥هـ فقتله أهلها هناك^(٢). وأعتقد أن أماري خلط بين غزو قبرص سنة ٥٣٣هـ، وغزو صقلية التي تم في سنة ٥٤٦هـ. كما حدده ابن عذاري. وليس من المعقول أن يتولى المسلمون غزو صقلية سنة ٥٣٢هـ بحرا في هذا التاريخ المبكر، لأن صقلية متطرفة في البحر المتوسط، ويحتاج غزوها إلى سيطرة كاملة على قسم من أراضي المغرب، يخرج منه الغزاة. وقد عرفنا أن المسلمين تركوا المغرب منذ حملة عبد الله بن سعد سنة ٥٢٨هـ حتى معاودتهم غزو إفريقية من جديد في ولاية عمرو الثانية. كذلك يحتاج غزو صقلية إلى معرفة تامة بالبحر المتوسط وبثقافة بحرية واسعة، والعرب في ذلك الوقت كانوا حديثي عهد بالبحر. وإذا كان معاوية بن أبي سفيان قد غزا قبرص سنة ٥٢٨هـ، فذلك لأن قبرص قريبة من ساحل الشام، ومع ذلك فقد استلزم الأمر فتحها مرة ثانية كما رأينا في سنة ٥٣٢هـ أو ٥٣٣هـ، ولم يتمكن المسلمون من فتح جزيرة أرواد وهي جزيرة قريبة من ساحل الشام إلا في سنة ٥٥٤هـ^(٣).

(١) ابن الأثير، ج ٣ ص ٦٧

(٢) نفس المرجع، ص ٩٨

(٣) البلاذري، قسم ١، ص ٢٦٨

كذلك لم يتم فتح رودس إلا في سنة ٥٢ هـ (١) .

ونضيف إلى ما سبق ذكره أن أماري اعتمد مرة ثانية على التاريخ الذي حدده ابن عذارى لغزوة معاوية بن حديج لصقلية وهو سنة ٤٦ هـ ، فقد ذكر أن العرب أغاروا على صقلية في سنة ٦٦٩ م (٤٩ هـ) (٢) .

ونخرج من ذلك كله بترجيح التاريخ الذي حدده ابن عذارى لغزوة صقلية في سنة ٤٦ هـ ، على يدى ابن حديج ، وخروجه منها بغنائم كثيرة ، ويؤيدنا في هذا القول أن عبيد الله بن صالح يؤكّد أن معاوية بن أبي سفيان عزل ابن حديج بعد أن غزا صقلية (٣) .

واختتم ابن حديج غزواته في إفريقية بارساله روفع بن ثابت الأنصاري لفتح جزيرة جربة (٤) . وقد تمت هذه الغزوة في سنة ٤٧ هـ ، وفقا لأبي المحاسن (٥) .

ولم يتح لابن حديج أن يستكمل فتح إفريقية ، إذ عزله معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٨ هـ (٦٦٩ م) ، وقيل سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) ، وولى على إفريقية عقبة بن نافع الفهري ، وتولية عقبة على إفريقية تبدأ المرحلة الثانية من فتح المغرب ، وهي مرحلة الفتح الثابت المنظم .

(١) نفس المرجع ، ص ٢٧٨

(٢) أرشيبالد لويس ، ص ٩٦ — ٦٤ Marçais, la Berberie, p.

(٣) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٨

(٤) البكري ، ص ١٩ — المالكى ، ص ٥٣ — ياقوت ، مجلد ٢ ، ص ١١٨

(٥) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٣٢

الفصل الثاني

مرحلة الفتح المنظم

(١) الفترة الأولى (٥٠ - ٨٦٤)

- أ - عقبة بن نافع قبل توليته إمارة إفريقية
- ب - تأسيس القيروان وأثره في تثبيت قواعد الفتح
- ج - عزل عقبة بن نافع ، وولاية أبو المهاجر دينار (٨٥٥ - ٨٦٢)
- د - ولاية عقبة بن نافع الثانية (٦٢ - ٨٦٤)

(٢) الفترة الثانية (٦٩ - ٨٩٠)

- أ - انسحاب العرب من القيروان في سنة ٨٦٤
- ب - حملة زهير بن قيس واسترجاع العرب للقيروان
- ج - حملة حسان بن النعمان الأولى ، وتخریب قرطاجنة
- د - حملة حسان بن النعمان الثانية
- هـ - موسى بن نصير واستكمال فتح المغرب

الفصل الثاني

مرحلة الفتح المنظم

(١)

الفترة الأولى (٥٠ - ٦٤ هـ)

١ - عقبة بن نافع قبل توليته إمارة المغرب :

يعتبر عقبة بن نافع الفهري من أكابر التابعين وأفاضلهم ، فقد قيل أنه ولد قبل وفاة الرسول بعام واحد^(١) ، واشترك في فتح مصر ، ولكن لا يجوز ذلك منطقيا لأن فتح مصر بدأ سنة ١٨ هـ ، فيكون عمر عقبة في هذه الحالة تسع سنوات . وأغلب الظن أنه ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) ، واشترك في حملة عمرو على مصر^(٣) ، وكان عمرو يقدر بلاءه ، ويرفع منزلته ، ويثق في كفايته الحربية ، ولذلك عهد إليه بفتح الواحات الداخلية من إقليم برقة ، فنجح في افتتاح فزان وزويلة ، وأصبح ما بين برقة وزويلة ملكا للمسلمين . وقبل أن يعود عمرو بن العاص إلى مصر بعد أن افتتح سبرت ، ترك عقبة أميرا على برقة وطرابلس ، فظل عقبة مقبلا ببرقة حتى سنة ٢٨ هـ^(٤) ، عندما قابل عبد الله بن سعد عند قدومه إلى برقة في طريقه لغزو إفريقية^(٥) . ولكن عقبة لم يشترك مع عبد الله بن سعد في

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٩

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ج ٣ ص ٤٢٠ - ياقوت ، مجلد ٤ ،

ص ٤٢٠ مادة القيروان .

(٣) كان عقبة ابن خالة عمرو بن العاص ، ولذلك أشركه معه في حملته على مصر .

(٤) ذكر ابن الأثير أنه كان مقبلا ببرقة منذ أن ولاه عمرو بن العاص لها (ابن الأثير ،

المرجع السابق ص ٤٢٠ - ياقوت ، معجم البلدان ، مادة القيروان ، مجلد ٤ ، ص ٤٢٠) .

(٥) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ص ٤٣

حملته على إفريقية ، و أثر البقاء في برقة ليراقب أهالي هذه البلاد ، ويؤمن مؤخرة جيش المسلمين من أى هجوم يقوم به الروم أو الأفارقة. ولا شك أن عقبة اكتسب خلال هذه السنين الستة التي قضها منذ حملته الأولى مع عمرو حتى قدوم عبد الله بن سعد ، خبرات إفريقية واسعة، نتجت عن تجاربه الكثيرة في محاربة البربر ، واحتكاكه بسكان البلاد . وكان طبيعيا أن يحيط بنواحي البلاد، ويلم بطبيعة أهلها، كما كان طبيعيا أن تنمو مواهبه العسكرية، لكثرة ما أحرزه من انتصارات ، وتزداد بذلك هيئته عند الأهالي . وكان لذلك أثره الكبير في بقاء برقة على ولائها للعرب ، في الفترات الطويلة التي كان ينقطع فيها غزو العرب لبلاد المغرب (من ٢٣ هـ إلى ٢٨ هـ ، ومن ٢٩ هـ إلى ٤٥ هـ) . وقد كسب الإسلام والعروبة بجهود عقبة مكسبا كبيرا ، فقد كان عقبة قوى الإيمان بدينه ، شديد الحماس لنشره ، لا يجد في حياته سعادة تعادل سعادة الجهاد في سبيل الله ، وفي سبيل نصرته دينه . وقد كان لذلك أعمق الأثر في فتح برقة ، إذ لم يكن فتحا حربيا فحسب ، بل كان فتحا دينيا ، انتقل سكان هذا الإقليم على أثره إلى الإسلام والعروبة ، واستطاع عقبة بفضل زهده عن الدنيا ، وسعيه على الاستشهاد في سبيل الله ، أن يكون لنفسه أسطورة دينية عاشت منذ الفتح العربي لهذه البلاد ، حتى العصر الحاضر .

وعندما عاد عقبة إلى مصر في أعقاب حملة عبد الله بن سعد ، نجده يعتزل الحياة السياسية ، ولا يشترك في معمعة الفتنة التي عصفت ريحها العاتية بالدولة العربية الإسلامية في خلافة عثمان بن عفان ، وانتهت أخيرا بمقتله ، ولكنه ما يلبث أن يستأنف الجهاد في صحراء برقة وطرابلس عندما

يتولى عمرو بن العاص مصر للمرة الثانية ، « فأتتهى إلى لوانة ومزانة في سنة ٤١ هـ ، وافتتح غدامس في سنة ٤٢ هـ ، وافتتح مواضع من بلاد السودان وودان من حيز برقة في سنة ٤٣ هـ ^(١) . ثم عاد عقبة بن نافع بعد ذلك إلى مصر ، فشهد وفاة عمرو بن العاص ، ويبدو أنه عاد إلى برقة بعد وفاة عمرو ، ولكنه لم يشترك اشتراكا فعليا في حملة ابن حديج ، وأغلب الظن أنه أقام ببرقة اتى اتخذها مركزا له ، بدليل أن ابن الأثير يذكر أن عقبة كان مقيا ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص ^(٢) . ويذكر أبو الفداء أن برقة وزويلة كانتا مقر الولاية ^(٣) . ويذهب ابن عبد الحكم والبكري إلى أنه خرج إلى المغرب بعد معاوية بن حديج سنة ستة وأربعين ، « ومعه بسر بن أبي أرطاة ، وشريك بن سمى المرادى ، فأقبل حتى نزل بمغمداش من سرت (خريطة رقم ٥) ، وكان توجهه بسر إليها كما حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير عن الليث بن سعد سنة ست وعشرين من سرت ، فأدركه الشتاء ، وكان مضعفا ، وبلغه أن أهل ودان قد نقضوا عهدهم ، ومنعوا ما كان بسر ابن أبي أرطاة فرض عليهم ، وكان عمرو بن العاص قد بعث إليها بسرا قبل ذلك وهو محاصر لأهل إطرابلس ، فافتتحها . فخلف عقبة بن نافع جيشه هنالك ، واستخلف عليهم عمرو بن على القرشى وزهير بن قيس البلوى ، ثم سار بنفسه وبمن خف معه أربع مائة فارس ، وأربعمائة بعير ، وثمانى مائة قرية حتى قدم ودان ، فافتتحها ، وأخذ ما كانهم فجدع أذنه ، فقال : لم فعلت

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ص ٢١٢ - أسد الغابة ، ج ٣ ص ٤٢٠ -

ابن عذارى ج ١ ص ١٥ - أبو المحاسن ، ج ١ ص ١٢٥ - الخطط ، مجلد ٢ ص ٦٩

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٣٤

(٣) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، طبعة بيروت ، ١٩٥٦ ، ج ٢ ص ١٠١

هذا بي وقد عاهدتني؟ فقال عقبة : فعلت هذا بك أدبا لك ، إذا مسست أذنك ذكرته ، فلم تحارب العرب . واستخرج منهم ما كان بسر فرضه عليهم ثلثمائة وستين رأسا . ثم سأهم عقبة ، هل من وراءكم أحد ، فقيل له : جريمة ، وهي مدينة فزان العظمى ، فسار إليها ثمانى ليال من ودان ، فلما دنا منها ، أرسل ، فدعاهم إلى الاسلام ، فأجابوا . فنزل منها على ستة أميال . وخرج ملكهم يريد عقبة ، وأرسل عقبة خيلا لحالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه راحلا حتى أتى عقبة ، وقد لغب ، وكان ناعما ، فجعل يبصق الدم ، فقال له : لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعا ؟ فقال عقبة : أدبا لك إذا ذكرته لم تحارب العرب ، وفرض عليه ثلثمائة عبد وستين عبدا . « . ويواصل المؤرخان روايتهما فيذكران أن عقبة مضى إلى قصور فزان ، فافتتحها قصرا قصرا ، ولكنه عجز عن فتح حصن خاوار^(١) بعد حصار دام شهرا ، وانتهى إلى قصور كوار ، فافتتحها ، وأدب ملكها بأن قطع له إصبعها ، وفرض عليه ٣٦٠ عبدا . ثم عاد بعد ذلك عن طريق خاوار ، فلم يتعرض للحصن ، ومضى في طريقه ، فظن أهل خاوار أنه لن يعود إليهم ، فأمنوا ، وفتحوا مدينتهم . أما عقبة فأقام بموضع صحراوي جذب ، فأصاب أصحابه العطش ، فدعا الله أن ينقذهم ، فاستجاب الله لدعائه ، إذ تدفقت المياه من موضع كان فرسه ينقب برجليه فيه ، فسمى الموضع لذلك بماء فرس ثم باغت عقبة أهل خاوار من طريق آخر ، ودخل الحصن فاستباح ما فيه من أموال وذريات ، ثم عاد بعد ذلك إلى زويلة ، ومنها إلى معسكره بسرت ، وذلك بعد غزوة دامت خمسة أشهر . ولم يطل به المقام بسرت ، فخرج منها مغازيا ، واتجه إلى قصور مزانة ، فغزاها ، ثم افتتح غدامس ، ووجه خيله بعد ذلك إلى قفصه فافتتحها ، وافتتح

(١) يسميه صاحب الاستبصار قصر واجان .

قصطيلية . ووصل أخيرا إلى القيروان الذي كان معاوية بن حديج قد اختطه من قبل ، فلم يعجبه موضعه ، واختار لذلك موضع مدينة القيروان ^(١) .

ويعتقد الدكتور حسين مؤنس أن تاريخ هذه الغزوة دون خطأ ، فذكر المؤرخان سنة ٤٦ هـ بدلا من ٤٩ هـ . فالثابت أن القيروان أسست في سنة ٥٥ هـ ، ولا يعقل أن تستغرق غزوته هذه السنين . ويرى الدكتور مؤنس أن ابن حديج عاد إلى مضر في أوائل سنة ٤٨ هـ ، وأن عقبة شرع في السير لغزوته الكبرى في أوائل سنة ٤٩ هـ ، فقضى خمسة أشهر في الجـولة الصحراوية المذكورة ، ثم عاد إلى معسكره بسرت حيث قضى فترة كافية أراح فيها جنده وخيله ، وهناك ولاه معاوية بن أبي سفيان إمارة إفريقية : فسار من سرت متجها إلى إفريقية ، ويرجح الدكتور حسين مؤنس أن عقبة « قام بحملته في الصحراء عقب عودة معاوية بن حديج من إفريقية ، وقبل تولية معاوية إياه ، وإرساله الإمداد إليه ، ولهذا عاد إلى مركزه الأول على مقربة من صرت (سرت) ، فلما وصله الأمر والمند شرع في المسير إلى الغرب ، واحتل غدامس ، وربما كان هذا هو السبب في إغفال أكثر المؤرخين ذكر هذه الغزوة الداخلية ، إذ أن معظمهم بدأ تاريخ غزوة عقبة من ساعة وصول العشرة آلاف جندي إليه في أوائل سنة ٥٥ هـ ^(٢) . ونحن نؤيد الدكتور مؤنس في رأيه ، فان معظم المصادر العربية تذكر أن عقبة ولي إمارة إفريقية في سنة ٥٥ هـ ^(٣) ، ويعتمد ابن الأثير على مصادر مغربية في ذكر هذا التاريخ

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٠ - ٦٤ ، البكري ، ص ١٣ ، ١٤ - المالكي ، ص

٦٣ - الاستبصار ، ص ١٤٦

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ١٣٨

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٣٤ - أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ،

ج ٢ ص ١٠١ - ابن عذاري ، ج ١ ص ١٩ - السلاوي ، ج ١ ص ٧٨

فيقول : « والذي ذكره أهل التاريخ من المغاربة أن ولاية عقبة بن نافع إفريقية كانت هذه السنة ، وبني القيروان ، ثم بقى إلى سنة خمس وخمسين ووليها مسامة بن مخلد ، وهم أخبر ببلادهم ، وأنا أذكر ما أثبتوه في كتبهم ، قالوا إن معاوية بن أبي سفيان عزل معاوية بن حديج عن إفريقية حسب واستعمل ، واستعمل عليها عقبة بن نافع الفهري ، وكان مقيا ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص ، وله في تلك البلاد جهاد وفتوح ، فلما استعمله معاوية سير إليه عشرة آلاف فارس ، فدخل إفريقية ، وانضاف إليه من أسلم من البربر ، فكثر جمعه ، ووضع السيف في أهل البلاد ، لأنهم كانوا إذا دخل عليهم أمير أطاعوا ، وأظهر بعضهم الاسلام ، فاذا عاد الأمير عنهم ، نكثوا ، وارتد من أسلم . » (١) .

ويروى ابن عذارى نصا مماثلا نقله عن ابراهيم بن القاسم فيقول : « ووصل عقبة بن نافع الفهري إلى إفريقية في عشرة آلاف من المسلمين ، فافتتحها ، ودخلها ووضع السيف في أهلها ، فأفنى من بها من النصاري » ، ثم قال : « إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الاسلام ، فاذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يامعشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للاسلام إلى آخر الدهر » (٢) .

ويبدو أن استعمال عقبة على المغرب لم يتم مباشرة بعد غزوته الصحراوية ،

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ - ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ،

(٢) ابن عذارى ، ص ١٩

فقد ذكر المؤرخون أنه غزا بأهل مصر الروم في البحر سنة ٤٩٩هـ (١)، وليس لدينا أية تفصيلات تاريخية أخرى عن ذلك، وأغلب الظن أن معاوية بن حديج عاد إلى مصر بعد أن ترك بسرت فرقة من جيش مصر لتدعم النفوذ العربي في أرض طرابلس وإفريقية، وربما استخدمهم عقبة بن نافع معه في هذه الشاتية البحرية، وقد يكون اشترك في هذه الشاتية جماعة من التابعين أمثال أبو عقيل زهرة بن معبد التميمي، وأبو عبد الرحمن الحبلي، وإسماعيل ابن عبيد الله، وأبو ليلى دجين بن عامر الحجري الذي شهد حروب عقبة كلها في إفريقية والمغرب، فإن المالكى يذكر أن أبا عقيل زهرة «دخل إفريقية وأقام بها، وغزا برها وبحرها مع إسماعيل بن عبيد الله أمير إفريقية، وكان معه في غزو إفريقية في البحر أبو عبيد الرحمن الحبلي التابعي (٢)».

ب - تأسيس القيروان وأثره في تثبيت قواعد الفتح :

سار عقبة على رأس جيش كبير يتألف من :

- ١ - فرقة التي غزا بها فزان و كوار ، وتتألف من ٤٠٠ فارس .
- ٢ - الجيش المرابط بمدينة سرت بركة .
- ٣ - المدد الذي أرسله معاوية إليه ، وقوامه عشرة آلاف من الفرسان .
- ٤ - جماعة البربر الذين اعتنقوا الاسلام منذ أن فتح عمرو بركة سنة ٥٢٢هـ ، وحسن اسلامهم .

وقد أشرنا إلى رواية ابن عبد الحكم والبكري التي توضح لنا خط سير جيشه إلى إفريقية، يقول ابن عبد الحكم : « فسار متوجها إلى المغرب ،

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢٣١ - ابن عذاري ص ١٩ - ابن تغري بردي ' ج ١

ص ١٣٨

(٢) المالكى ، ص ٩٠

وجانب الطريق الاعظم ، واخذ إلى أرض مزاة ، فافتتح كل قصر بها ، ثم مضى إلى صفر (١) ، فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم بعث خيلا إلى غدامس ، فلما انصرف إليه خيله سار إلى قفصة فافتتحها ، وافتتح قصطيلية « (٢) .

ونخرج من هذا النص بالحقيقة التالية : أن عقبة تجنب السير في الجادة الرومانية ، وهي الطريق الساحلية التي تربط سرت بقابس ، إما لكثرة الحصون والمحارس في هذه المنطقة الساحلية ، وقد عددها من قبل ، وإما لأنه أراد أن يباغت أهل إفريقية باقتحامه بلادهم قادما من داخل الصحراء ، قبل أن يكونوا قد تهيأوا بعد لدفعه ومقاومته ، إذ أن أخبار حملته عندما يسلك الطريق الصحراوي لا يمكن أن تصل إلى أهل إفريقية بمثل سرعة وصولها إليهم لو سلك الطريق الساحلية . وأعتقد أن السبب الثاني هو الذي دفع عقبة إلى التزام الطريق الداخلية ، فقد ذكر المؤرخون أنه وضع السيف في أهل إفريقية ، « فأفنى من بها من النصارى » (٣) .

لاحظ عقبة أن أهل إفريقية يدخلون في طاعة العرب ، وربما دخل منهم البعض في الإسلام ، طالما بقي العرب في بلادهم ، فاذا انصرف العرب عن البلاد ، شق أهالي إفريقية عليهم عصا الطاعة ، وارتد من دخل منهم في الإسلام إلى النصرانية . وكانت برقة وزويلة قاعدة الفتح العربي للمغرب حتى ذلك الحين ، ولكنها كانتا متطرفتين للغاية عن إفريقية مما كان يساعد

(١) لعلها شبرو من أرض ودان (انظر الإدريسي ، ص ٤١)

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦٤ - الاستبصار ، ص ١٤٧ . تضم بلاد قصطيلية ودين توزرو وننطة ونيوس والحامة .

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٩

أهل إفريقية على خروجهم على العرب ، في كل مرة ينتهي العرب من الإغارة عليها . فرأى عقبة أنه لفتح هذه البلاد يتحتم على العرب إنشاء قاعدة عربية إسلامية في إفريقية ، « يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ، ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد » (١) . ويذكر ابن عذارى أن عقبة خطب في عسكره فقال : « إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام فاذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر . فاتفق الناس على ذلك ، وأن يكون أهلها مرابطين » (٢) .

ولم يكن عقبة أول من فكر في بناء قاعدة للمسلمين في إفريقية ، فقد ذكر ابن الأثير أن معاوية بن حديج كان « قد اختط القيروان بموضع يدعى اليوم بالقرن ، فلما رآه عقبة بن نافع لم يعجبه » (٣) . وذكر المالكي في رياض النفوس أنه « اختط مدينة عند القرن قبل تأسيس عقبة للقيروان ، وأقام بها مدة إقامته بإفريقية ، وحفر آباراً عند باب تونس في ناحية الجبل منه منحرفة للشرق ، بالقرب من مصلى الجنائز ، تسمى للآن آبار حديج ، غلب عليها اسم أبيه ، وذلك قبل تأسيس القيروان » (٤) .

ويبدو أن عدول عقبة عن اتخاذ قيروان ابن حديج قاعدة للمسلمين يرجع إلى أنها قريبة من البحر ، أو لأنها في موضع غير مسكون ولا

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٣١

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ١٩

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٦٤ — ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ٤٢١

(٤) المالكي ، ص ٦٠

معمور^(١) ، واصل ابن حديج اختار هذا القيروان ليكون قريبا من البحر حتى يتيسر له وللمسلمين الجهاد والرباط ، وقد رأينا أنه غزا صقلية في سنة ٤٦ هـ ، أما عقبة فقد كان له رأى آخر ، فقد آثر أن تكون قاعدة المسلمين في إفريقية مدينة برية ، إذ كان يخشى أن يطرقها الروم بالأساطيل فجأة فتعرض للغزو بسهولة ، بينما يستطيع المسلمون التأهب لمدافعة الغزاة لو كانت قاعدتهم داخلية . وفي ذلك يذكر ابن عذارى أن أصحاب عقبة اقترحوا عليه أن يتخذوا مدينتهم قريبة من البحر ليتم لهم الجهاد والرباط ، فرد عليهم قائلاً : « إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة ، فيملكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا يدركها صاحب البحر إلا وقد علم به ، وإذا كان بينها وبين البحر مالا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون »^(٢) . وبالإضافة إلى هذا الموقع الداخلى الذى تتميز به قيروان عقبة ، فقد كانت تقع ايضا قريبا من السبخة لتمكن الابل والدواب من الرعى بسهولة ، وتكون فى مأمن من عادية البربر والنصارى^(٣) . وهكذا كان موقع القيروان يمتاز ببعده عن البحر ، فلا تتعرض لغزو يقوم به الروم من جهة البحر ، كما يمتاز بكثرة مراعيها ، وهما صفتان لا بد من توافرها فى بناء المدن ، وفى ذلك يقول ابن خلدون فى مقدمته : « إعلم أن المدن قرار تتخذها الأمم عند حصول العناية المطلوبة من الترف ودواعيه ، فتؤثر الدعة والسكون ، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار ، ولما كان ذلك القرار والمأوى ، وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها ، وجلب

(١) نفس المرجع ، ص ١٩

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٩

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٠

المنافع وتسهيل المرافق لها : فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار ، وأن يكون وضع ذلك فى متمنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعدة من الجبل ، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها ... وأما جلب المنافع والمرافق للبلد ، فيراعى فيه أمور منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بآرائها عيون عذبة ثرة ، فان وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهى ضرورة ... ومما يراعى من المرافق فى المدن طيب المراعى لساكنيهم إذ صاحب كل قرار لابد له من دوجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولابد لها من المرعى « (١) . ويبدو أن عقبة كان متأثرا فى اختياره لموقع القيوان بما تعرضت له الاسكندرية سنة ٢٥ هـ من نكبات بسبب غزو البيزنطيين لها من البحر ، وكان ما يزال يتذكر الجهد الكبير الذى بذله عمرو بن العاص لاستردادها (٢) ، ولعله قدر ما كان يصيب البلاد المصرية لو أن الاسكندرية كانت عاصمة مصر الاسلامية كما كان يريده عمرو ، وأعتقد أن الدرس الذى تلقينه عمرو بغزو الروم للاسكندرية وندمه على تركه سورها عند الفتح دون أن يهدمه قد أفاد عقبة بن نافع كثيرا ، ولا نستغرب أن يكون لذلك الحادث أثر عميق فى اختيار عقبة لموضع القيوان ، فقد كان عقبة أحد قواد عمرو، ثم إنه كانت تربطه به صلات من القرابة . ولكن عقبة

(١) مقدمة ابن خلدون ، طبع المكتبة التجارية بمصر ، بدون تاريخ ، ص ٣٤٧ —

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ،

في سعيه لاختيار موضع يتوافر فيه طيب المراعى ، ويبعد في نفس الوقت عن البحر ، أغفل أمرا هاما هو الماء والمزارع ، فلم يراع إلا توافر مراعى الابل ، ولذلك تعرضت القيروان عدة مرات ، في العصر الاسلامى للخراب ، ولولا صفة هذه المدينة الدينية ووجود مسجد الجاهل المعروف بالقيروان ، لكانت قد بادت واندثرت .

يذكر ابن عبد الحكم أن عقبة ركب ، « والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم ، وكان واديا كثير الشجر ، كثير القطف ، تأوى إليه الوحوش والسباع والهوام ، ثم نادى بأعلى صوته : يا أهل الوادى ، ارتحلوا رحمكم الله ، فانا نازلون ، نادى بذلك ثلاثة أيام ، فلم يبق من السباع شئ ، ولا الوحوش والهوام إلا خرج . وأمر الناس بالتنقية والخطط ، ونقل الناس من الموضع الذى كان معاوية بن حديج نزله إلى مكان القيروان اليوم ، وركز رجمه وقال : هذا قيروانكم » . ثم يذكر رواية أخرى عن عبد الملك ابن مسلمة ، عن الليث بن سعد ، تماثل هذا النص مع اختلاف بسيط هو أنه نادى ثلاث مرات بدلا من ثلاثة أيام ^(١) . وقد أخذ معظم المؤرخين بهذه الرواية مع بعض التحريف ^(٢) ، باستثناء المالسكى الذى يذكر أنه « كان في موضع القيروان حصن لطيف للروم يسمى قونية ، وكان فيها كنيسة ، وفيها الساريتان الحمراء واللتان هما اليوم في المسجد الجامع ، كانت عليهما حنيتان مبيتان ، أقامتا إلى أيام زيادة الله بن الأغلب ، فهدمها زيادة الله ،

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٤ ، ٦٦

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٣٤ — ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠ — ياقوت

معجم البلدان مجلد ٤ ص ٤٢٠

وحملها إلى المسجد الجامع ، فجعلها في المكان الذي هما فيه اليوم « (١) .
ويعتقد الدكتور مؤنس أن رواية المالكى هي الصواب ، فمن المعقول - في
رأيه - أن يكون هذا الحصن قد تعرض للتخريب ، وأصبح في أوائل
القرن السابع الميلادى خربا مهجورا ، فسكنته بعض الذئاب والوحوش ،
فاختاره عقبة لبناء القيروان ، « ففزعت الضواري من جلبة الجيش الذي
عسكر إلى جوارها ، فأخذت تتسرب هاربة ، فرآها العرب تفعل ذلك ،
فظنوا أنها معجزة من معجزات عقبة ، فكان ذلك موضعا خصبيا لخيال الرواة
فأضافوا خطابه للوحوش ، وصوروا الكرم هذا التصوير المبالغ فيه حتى
تم المعجزة ويصبح للقيروان ما يريدونه لها من القداسة والجلال » (٢) .
ولكننا لانوافق الدكتور مؤنس على رأيه في أن موضع القيروان كان
حصنا لطيف الكروم ، ولا في تفسيره لخروج الوحوش من الشعراء ، فان
المصادر العربية تجمع على أن الموضع الذي أقيمت فيه القيروان كان
« دجلة مشبكة » (٣) أو واديا كثير الشجر كثير القطف تأوى إليه
الوحوش والسباع والموام (٤) ، أو شعاري وغياض لاترام (٥) ، أو غيضة
كثيرة الأشجار مأوى الوحوش والحيات (٦) . ولم يكن موضع القيروان
حصنا لطيف الكروم ، ولعل الدكتور مؤنس قرأ حصنا لطيفا للكروم

(١) المالكى ، ص ٢١

(٢) حسين مؤنس ، ص ١٤٢

(٣) أبو الفدا ، ج ٢ ، ص ١٠١

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٦٤

(٥) ابن حنبار ، ج ١ ، ص ٢٠

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ - أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ٤٢١

بدلاً من « حصن لطيف للروم » الواردة في رياض النفوس ، بدليل أن صاحب هذا الكتاب يذكر أن موضع القيروان كان ودياً تسكنه الوحوش والحيات . وليس معنى هذا أننا ننكر وجود حصن في الموضع الذي أقيمت عليه القيروان ، فلاشك أن موضع القيروان كان قريباً من حصن روماني قديم كالأشأن في القسطنطينية مثلاً والكوفة . أما بالنسبة لخروج الوحوش والسباع بالطريقة التي شرحها الدكتور مؤنس فنستبعده ، وقد أشار الدكتور سعد زغلول عبد الحميد إلى ما يمكن أن تتضمنه رواية الواقدي من تعليل مقبول لخروج الوحوش من الغيضة . فقد ذكر الواقدي أن موضع القيروان كان كثير الأشجار ، فاقترح أصحاب عقبة عليه أن يحرقوه بالنار ويبنوا فيه المدينة ، فقال لهم : « يا قوم ، إن الوحوش والهوام ودواب الأرض كثيرة بهذه الأرض ، وأخاف أن أحرقها بالنار فيحاسبني الله عز وجل عليها ، ولكن إذا كان آخر النهار أنادي في هذا الموضع بأعلى صوتي : أيتها الوحوش الساكنة في هذا المكان ، ارحلوا منه ، فاني أريد حرق أشجاره بالنار لأن المسلمين يريدون أن يبنوا فيه بلدة لتستقر فيها رحالهم ونساؤهم ، وفي آخر النهار نادى عقبة رضى الله عنه في الوحوش بالارتحال ، فما أتم النداء حتى رفعت الوحوش أولادها في أفواهها من غزلان وذئاب ونمور وغيرها ، وبقي ينتظر خروجها مدة ثلاثة أيام لم يكن دأب الناس فيها إلا الفرجة واللعب ، فلما كان اليوم الرابع ، أمر بالنار فأطلقت ، فأكلت الأشجار عن آخرها » (١) . ويستنتج الدكتور سعد زغلول من تلك الرواية أن خروج الوحوش والهوام فزعة من الشعراء جاء

(١) الواقدي ، فتوح إفريقية ، ج ١ ، طبعة تونس ، ١٣١٥ هـ ، ص ٣

نتيجة للحريق ، الذى أطلق فى الموضع لتنظيفه من الأشجار قبل البناء ،
ويذكر الدكتور سعد زغلول أن « هذا أمر طبيعى يحدث عندما تلتهم
النيران بعض الغابات ، فتفزع حيواناتها ، وقد يفر بعضها وهو مشتعل
فيتسبب فى زيادة الرقعة المنكوبة بالحريق ، وهذا ما نظنه تفسيراً مقبولاً
لأصل الأسطورة » (١) .

وعلى الرغم من أن نص الواقدي لا يشير إلى قيام المسلمين بحرق الأشجار
إلا بعد رحيل الوحوش ، فإننا نؤيد الدكتور سعد فيما ذهب إليه اعتماداً على
ما ذكره الواقدي بالإضافة إلى ما ذكره ابن الأثير فى أسد الغابة إذ يقول :
« وكان (موضع القيروان) غيضة ، كثير الأشجار ، مأوى الوحوش
والحيات ، فأمر بقطع ذلك وإحراقه ، واختط المدينة » (٢) . وقد يكون
عقبة قد بدأ باجتثاث الأشجار عن طريق قطعها أول الأمر ، فنشرت السباع
والوحوش من الوادى ، فلما تأكد له ذلك أحرقها ، إسراراً بازالتها ، وتوفيراً
لجهود أصحابه ، ويؤيد ذلك رأى قول ابن عذارى : « فأمرهم أن يقطعوا
الشجر » (٣)

وما إن أتم المسلمون تنقية الموضع من الأشجار ، حتى شرع عقبة فى
اختطاط دار الامارة ، والمسجد الجامع ، ولكنه لم يقم به أى بناء ، وكان
يصلى فى أرضه دون أن يكون قد أقيمت فيه جدران ، ويبدو أن الناس

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة

الشعبية ، ص ٢٠

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ٤٢١

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٠

اختلفوا معه في تحديد الاتجاه الصحيح للقبلة ، باعتباره أول المساجد الجامعة في هذا القطر المفتوح ، وباعتبار قبلته النموذج الذي تحتذي به سائر محاربي المساجد الجامعة في بلاد إفريقية ، « فأقاموا أياما ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ، ومشارق الشمس فلما رأى أمرهم قد اختلف ، بات مغموما فدعا الله عز وجل أن يفرج عنه . فأناه آت في منامه ، فقال له : إذا أصبحت فخذ اللواء في يدك ، واجعله على عنقك ، فانك تسمع بين يدك تكبيرا لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك ، فانظر الموضع الذي ينقطع فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك ، وقد رضى الله لك أمر هذا العسكر ، وهذا المسجد ، وهذه المدينة ، وسوف يعز الله بها دينه ، ويذل بها من كفر به . فاستيقظ من منامه وهو جزع ، فتوضأ للصلاة ، وأخذ يصلي وهو في المسجد ومعه أشرف الناس ، فلما انفجر الصبح ، وصلى ركعتي الصبح بالمسلمين ، إذا بالتكبير بين يديه . فقال لمن حوله : أسمعون ما أسمع ؟ فقالوا : لا . فعلم أن الأمر من عند الله . فأخذ اللواء فوضعه على عنقه ، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب ، فانقطع التكبير ، فركز لواءه ، وقال : هذا محرابكم ، فاقتدى به سائر مساجد المدينة » (١) .

وهكذا أحيط تركيز القبلة على يدي عقبة بما يشبه القصص والاساطير . وما كاد يتم تركيز القبلة بالمسجد حتى بدأ المسلمون في بناء الجامع ، وفي تشييد دورهم ومسكنهم ومساجدهم بالقيروان : وقد وصل إلينا اسم أحد

(١) الدباغ ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تونس ١٩٠١ ، ج ١ ، ص ٩ — ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ — ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٠ وما يليها .

من ساهم في بناء الجامع وهو اسماعيل بن عبيد الانصاري^(١). ويقال أيضا أن عبد الله بن الزبير أسس مسجد القيروان^(٢)، وكان ممن اختط في القيروان من التابعين أبو عبد الله علي بن رباح بن نصير اللخمي، الذي اختط بالقيروان داراً ومسجداً، « ومسجده عند باب نافع على يمين الخارج قبل أن يخرج »^(٣)، ومنهم أبو رشيد حنش بن عبد الله السبأى الصنعاني الذي اختط بالقيروان داراً ومسجداً ينسب إليه، وكان يقع بالقرب من باب الريح^(٤)، ومنهم زياد بن أنعم السفيناني، واختط بالقيروان داراً ومسجداً بالقرب من باب نافع^(٥).

عمرت القيروان بمختلف أنواع البنية والمنشآت، وشد الناس إليها الرحال وانتجعوها من كل مكان، واتسعت بالأسواق والمرافق، ودامت حركة البناء فيها نحو خمس سنوات، فاكتملت عمارتها في سنة ٥٥ هـ^(٦). وذكر ابن عذاري أن دورها في ذلك الحين بلغ ١٣٦٠٠ ذراع أى ما يعادل سبعة آلاف وخمسمائة متر، وواضح أن هذا الرقم مبالغ فيه، وكانت مدينة القيروان في بداية نشأتها، قاعدة حربية، ومركزاً توجه منه الغزوات على جبال أوراس المواجهة لها^(٧). وكان عقبة أثناء عمارته لها، يغزو، « ويبعث سرايا فتغير وتنهب، ودخل كثير من البربر في الإسلام، واتسعت خطة المسلمين، وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان، وآمنوا

(١) المالكي، ص ٧٠ (٢) نفس المرجع، ص ٤٣ (٣) نفس المرجع، ص ٧٧

(٤) نفس المرجع ص ٧٩ (٥) المالكي، ص ٨٣

(٦) ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٢٣٤

(٧) Terrasse, histoire du Maroc, t.I, p. 80 — حسين مؤنس، فجر

واطمأنوا على المقام ، فثبت الإسلام فيها » (١). وكانت القيروان مسورة
بسور من اللبن والطين ، هدم زمن زيادة الله ، (٢)، وأقيم عليها سور تراب
بعد ذلك (٣) .

وقدر للقيروان أن تصبح حاضرة المغرب الإسلامي كله في عصر الخلافة
الأموية ، إلى أن انفصل المغرب عن الدولة العباسية في أواخر القرن الثاني
للهجرة ، وتكونت بذلك إمارات مستقلة فيه ، وفي هذه الفترة كانت القيروان
على حد قول ابن حوقل « أعظم مدينة بالمغرب ، وأكثرها تجراً وأموالاً ،
وأحسنها منازل وأسواقاً ، وكان فيها ديوان جميع المغرب ، وإليها تجبى
أموالها ، وبها دار سلطانها » (٤) . ويصفها الإدريسي في القرن الخامس
المهجري فيقول : « ومدينة القيروان أم أمصار ، وقاعدة أقطار ، وكانت
أعظم مدن الغرب قطراً ، وأكثرها بشراً ، وأكثرها جباية ، وأنفقها سلعة ،
وأثماها ربها ، وأجهرهم عصياناً ، وأطغاهم أغماراً ... » (٥)

ج - عزل عقبة بن نافع وتولية أبو المهاجر دينار (٥٥ - ٦٢ هـ) :

بتأسيس مدينة القيروان أخذت إفريقية تظهر كولاية هامة من ولايات
الدول العربية الإسلامية ، فتطلعت إليها أنظار الطامعين في ولايتها . والظاهر
أن اشتغال عقبة بتأسيس القيروان طوال خمسة أعوام ، وعزوفه عن الغزو

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٢٣٥

(٢) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، طبعة ليدن ١٨٩٢ ، ص ٣٤٧

(٣) الإدريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ص ١١٠

(٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ص ٩٤

(٥) الإدريسي ، المرجع السابق ، ص ١١٠

أثناء ذلك ، حرم الخلافة من مورد هام لها وهو الغنائم الكثيرة التي كانت ترد من هذه البلاد . وهنا أخذت السعاليات ضد عقبة تلعب دوراً هاماً في بلاط الخليفة بدمشق ، وكان مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر في مقدمة من سعى لعزل عقبة وضم ولاية إفريقية لمصر ، طمعاً في مواردها الوفيرة (١) ، وقد نجح في ذلك ، وأصبحت له منذ سنة ٥٥ هـ ولاية مصر والمغرب ، من أطراف إقليم مصر إلى إفريقية ، « وهو أول من جمعت له مصر والمغرب » (٢) . وذكر الأستاذ هنري ترانس أن معاوية عزل عقبة من ولاية إفريقية خوفاً من أن يستقل بالمغرب عن الخلافة (٣) ، وليس من المستبعد أن يتجه تفكير معاوية إلى ذلك ، فقد كان يخشى أيضاً من مطامع عمرو بن العاص ، في مصر وإفريقية ، ولذلك جعل ولاية إفريقية تتبعه مباشرة بعد وفاة عمرو ، ولعله رأى في اهتمام عقبة بإفريقية ، وشعبيته في بلاد برقة وإفريقية . وتأسيسه للقيروان ، اتجاهها منه نحو الاستقلال بحكم هذا الإقليم الغني بخيراته ، المتطرف عن أملاك الدولة الأموية ، وكان يعرف صلة القرابة التي تربط عقبة بعمرو ، فأسرع بضم ولاية إفريقية إلى مسلمة ابن مخلد الأنصاري عامله في مصر ، ولعله أشار على مسلمة بعزل عقبة عن ولاية إفريقية ، بدليل أنه لم يرد عقبة إلى ولايتها بعد أن قدم إليه شاكياً ، من سوء عزل أبي المهاجر له .

وذكر المالكي أن مسلمة وجه خالد بن ثابت الفهمي التـابعي إلى

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٤٧

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦٦ - ابن عذاري ، ص ٢١

(٣) Terrasse op. cit p. 80

إفريقية في سنة ٥٥ هـ^(١)، ولكنه لم يلبث أن عزله، واستعمل على إفريقية مولاة ديناراً وبكى أبا المهاجر، فقدم إلى القيروان في سنة ٥٥ هـ (٦٧٤ م) في جيش من أهل الشام ومصر. وتجمع المصادر العربية على أن أبا المهاجر أساء عزل عقبة^(٢)، ويذكر ابن عبد الحكم أن مسلمة كان قد أوصاه بالرفق في عزله، وحسن معاملته. ولكنه خالفه، «وسجنه وأقره حديداً»^(٣) ويذكر المؤرخون أن خبر هذه الإساءة قد وصل إلى مسامع الخليفة معاوية في دمشق عن طريق أنصار عقبة، فكتب إلى أبي المهاجر مباشرة، يأمره بتخليه سبيله، وإطلاقه من حبسه، وإشخاصه إليه^(٤) فأطلقه أبو المهاجر وأرسله في صحبة بعض أتباعه حتى قابس^(٥)، ومن هناك واصل عقبة السير حتى وصل إلى دمشق. ويعتقد الدكتور حسين مؤنس أن أبا المهاجر لم يتصرف من تلقاء نفسه، وأنه أرغم على الإساءة إلى عقبة، مدفوعاً في ذلك بتعليقات تلقاها من مسلمة بن مخلد الذي كان يحقد على عقبة لما ناله من شرف غزو إفريقية، وقد اعتمد الدكتور حسين مؤنس في ذلك الرأي على أدلة ثلاثة مستقاة من ابن عبد الحكم:

الأول - أن ابن عبد الحكم قال: «فلما قدم عقبة مصر، ركب إليه مسلمة بن مخلد، فأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبو المهاجر، ولقد

(١) المالكي، ص ١٩

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٦٦ - المالكي، ص ٢١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٣

ص ٢٣٥ - ابن عذاري، ج ١، ص ٢٢

(٣) ابن عبد الحكم، ص ٦٦

(٤) نفس المرجع، ص ٦٨

(٥) المالكي، ص ٢١

أوصيته بك خاصة» (١). ويستنتج الدكتور مؤنس من هذا النص أن «سعى مسلمة إلى عقبة، واعتذاره له، وتقيده التهمة عن نفسه، لا يعال إلا بأن مسلمة خشي أن يغضب معاوية عليه حين يقص عليه عقبة ما نزل به من مساءة على يديه، فأسرع وألقى التهمة على أبي المهاجر خوفا من معاوية» (٢). على أن ابن عذاري يذكر أن اعتذار مسلمة حدث في عهد يزيد عندما أعاد عقبة إلى ولاية إفريقية سنة ٥٦٢ هـ، فمر عقبة على مسلمة بن مخلد في مصر، فاعتذر له مسلمة عما فعله به أبو المهاجر، وأقسم له أنه خالفه فيما صنع، وأنه كان قد أوصاه بتقوى الله وحسن السيرة، فقبل منه عقبة هذا الاعتذار، فلما وصل إلى إفريقية «أوثق أبا المهاجر في الحديد، وأمر بتخريب مدينته التي بناها، ورد الناس إلى القيروان» (٣). وأعتقد أن ما ذكره ابن عذاري أقرب إلى الصواب والمنطق، فلو كان مسلمة قد اعتذر لعقبة عما فعله أبو المهاجر، وثبت لعقبة بعد ذلك أن مسلمة هو المسؤول عما لحقه لكان قد عذر أبا المهاجر، ولما كان قد انتقم منه بعد ذلك عندما أعيد إلى ولايته. ومن الطبيعي أن يتوجه مسلمة بالاعتذار لعقبة عن تصرف أبي المهاجر نحوه بعد أن استرد عقبة كرامته وكبرياهه باسترداد إمارته على إفريقية، وهذا يفسر تحامل عقبة على أبي المهاجر بعد ذلك. ونضيف إلى ما سبق أنه لا يعقل أن يتوجه عقبة بعد أن أطلق أبو المهاجر سراحه بأمر الخليفة إلى مصر ويقابل مسلمة، وهو يعلم أنه هو الذي عزله. وقد ذكر المالكي أن

(١) ابن عبد الحكم، ص ٦٨

(٢) حسين مؤنس، ص ١٥١

(٣) ابن عذاري، ص ٢٣

عقبة وصل إلى قابس ، ومن هناك رحل إلى معاوية ، وأغلب الظن أنه سافر إلى دمشق رأسا عن طريق البحر .

الثاني - أن عقبة لم يكذب بساطا للخليفة ظلامته من أبي المهاجر ومسلمة بقوله « فتحت البلاد ، وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ، ودانت لي ، ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عذلي » ، حتى اعتذر له معاوية وقال : « قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم ، وتقديمه إياه ، وقيامه بدمه ، وبذل مهجته ، وقد رددتك على عملك » (١) . ويرى الدكتور مؤنس في ذلك الاعتذار اعترافا من معاوية بأن مسلمة هو المسؤول عما نزل بعقبة لا أبا المهاجر ، وأن عزل عقبة كان على هوى منه ، وأن عقاب الخليفة لأبي المهاجر جزاء إساءته إلى عقبة كان يسوء مسلمة ، الذي كان يتمتع بمكانة كبيرة عند بني أمية لما قام به من جهود في سبيل المطالبة بدم عثمان ٢٠

الثالث - أن ما ذكره ابن عبد الحكم وغيره من مؤرخي العرب من أن عقبة دعا على أبي المهاجر ، وخوف أبي المهاجر من دعاء عقبة ، لأنه كان محاب الدعوة ، يتضمن براءة أبي المهاجر من تهمة الإساءة إلى عقبة (٣) .

وعلى هذا النحو نجد أن الأدلة التي استند عليها الدكتور مؤنس هي في الواقع دليلان : الثاني والثالث ويمكننا أن نضيف إليهما دليلين آخرين هما :

١ - أنه لو لم يكن مسلمة بن مخلد هو الذي حرض أبا المهاجر على إيذاء عقبة لما كان مسلمة قد ترك القضية تمر كذلك دون أن يلحق العقاب

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٠

(٢) حسين مؤنس ، ص ١٥١

(٣) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٥٢

بأبي المهاجر جزاء مخالفتة إياه ، وإساءته إلى عقبة الذي كان يعتبر شخصية من الشخصيات الإسلامية الجلية ، والذي ساهم بنصيب وافر في الفتوح ، والذي ثبت فتح إفريقية بتأسيس القيروان ، وبإنشاء مسجدها الجامع ، بل إن ما قام به أبو المهاجر من هجر قيروان وعقبة وإنشاء قاعدة أخرى للفتح ، إنما يعبر عما كان يحس به مسلمة من تحاسد وتغاير لعقبة ، على ما ظفر به من شرف بقيروانه .

٢ — لو أن مسلمة لم يكن هو الذي دفع أبا المهاجر على الإساءة إلى عقبة ، لما كان كتاب التخليّة عن عقبة وإطلاق سراحه من سجنه ، قد ورد من الخليفة رأسا . وأغلب الظن أن معاوية كان يعلم مقدما أن تصرف أبي المهاجر لم يكن من تلقاء نفسه ، وأنه كان مرغما على ذلك التصرف ، والا لما كان قد كتب إليه بالإفراج عن عقبة ، وإشخاصه إليه ، والا لكان قد أمر بعزل أبي المهاجر وتأديبه .

* * *

كره أبو المهاجر دينار أن يستقر في قيروان وعقبة ، وآثر أن يبني مدينة ينزل فيها ، ويجعلها قاعدة للمسلمين بدلا من القيروان ، ولعله تلقى من مسلمة تعليمات بهذا الشأن . ويذكر ابن عبد الحكم أنه خلف الموضع الذي اختطه عقبة بميلين ، « فابتنى ونزل » ^(١) . وذكر المالكي : « أنه نزل بفحص تونس ، ويقال إنه نزل بسبخة وبني بها » ^(٢) . أما ابن عذارى فيقول : « ونزل خارجا عن المدينة ، وكره أن ينزل الموضع الذي اختطه عقبة ،

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٨

(٢) المالكي ، ص ٢٠

ومضى حتى خلفه بميلين ، مما يلي طريق تونس ، فاخطبها مدينة ، وأراد أن يكون له ذكرها ، ويفسد عمل عقبة ، فبنى مدينة ، وأخذ في عمرانها ، وأمر الناس أن تحرق القيروان ، ويعمروا مدينته . (١)

وإذا بحثنا في هذه الروايات وجدنا أن أبا المهاجر لم يكن لديه الوقت الكافي لبناء مدينة جديدة بدلا من القيروان ، صحيح أننا لا ننكر كراهية أبي المهاجر لقيروان عقبة ، وعزوفه عن اتخاذها مركزا للجيوش في إفريقية ، العربية ولكننا لا نقبل ما ذكره المؤرخون من أنه أسس مدينة جديدة ، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن يصل التغايز بين مسلمة وعقبة إلى حد تقويض الأول لأعمال الثاني التي استغرقت سنوات خمس ، وأغلب الظن أن أبا المهاجر نزل في موضع آخر غير القيروان ، ولعله اختار مدينة أو قرية إفريقية لهذا الغرض ، ويذكر المالكي أنه « انصرف فنزل بذكرور مدينة البربر ، بالقرب من موضع القيروان » (٢) . ولعله أقام فيها قصرا للامارة ومسجدا جامعاً ، وأضاف إليها بعض المنشآت اللازمة لعسكره ، بعد أن رحل هذا العسكر من قيروان عقبة ، ولهذا السبب اختلط الأمر على الرواة ، فنسبوا إليه بناء مدينة جديدة . ونشك أيضا فيما ذكره المؤرخون خاصة باحراقه لقيروان عقبة ، ولا شك أن تدمير مدينة كالقيروان أخذ بناؤها من جهود المسلمين ما أخذه ، يعتبر عملا إجراميا لا يمكن أن يحدث بأيحاء من شخصية جليلة كشخصية مسلمة بن محمد الأنصاري أو مولاه دينار . واعتقد أن الأمر لم يزد على هجر القيروان وإخلائها من العسكر وإدارة

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٢

(٢) المالكي ، ص ٢٠

وقد يكون هذا التصرف نابعا من رغبة أبي المهاجر في التقرب إلى البربر والإقامة في قرية من قراهم حتى يوجههم أن القيروانه لا يمثل احتلالا أجنبيا لبلادهم .

وتمر المصادر العربية — سرا سريعا على ولاية أبي المهاجر ، إما لأنها وقعت بين ولايتي عقبة الأولى والثانية ، أو بسبب استياء الرواة من تصرفات أبي المهاجر وإساءته إلى عقبة . ولكن نثنا قليلة من أخبار أبي المهاجر وصلتنا في بعض المصادر . ونستخلص منها أن أبا المهاجر أحس بتكوين حلف ضد المسلمين يضم بربر أوربة البرانس والروم . ولا شك أن البيزنطيين على أيام قسطنطين الرابع تفرغوا لشؤون المغرب بعد أن شغلوا عنه طويلا بغزوات العرب لبلادهم ، وحصارهم للقسطنطينية مرتين في سنة ٤٨ هـ ، وفي سنة ٥٥ هـ ^(١) ، واستيلائهم على جزر قبرص ورودس وأرواد واقريش؛ ويبدو أن بربر أوربة الذين كانت تربطهم بالبيزنطيين روابط وثيقة بدأوا يحسون بخطر العرب على بلادهم منذ أن أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان ، فأخذ زعيمهم كسيلة بن لزم يجمع القبائل ويؤايبها على العرب، تمهيدا لطردهم من البلاد . لذلك آثر أبو المهاجر أن يبدأ بمهاجمة بربر أوربة وأحلافهم الذين كانوا يضربون في نواحي تلمسان ، حتى يقضى على ما بداله من بؤادر مقاومتهم ^(٢) . خرج أبو المهاجر على رأس جيش من المسلمين متجها إلى مراكز أوربة وأحلافها من البرانس ، « ففتح كل

(١) إبراهيم أحمد العدوي ، الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط ، القاهرة

١٩٥٧ ، ص ٤٧ - ٥٥

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٧٢

مامر عليه حتى انتهى إلى العيون المعروفة بأبي المهاجر نحو تلمسان « (١) .
ثم صالح كسيلة الأوربي وأحسن إليه بعد أن اعتنق الإسلام ، وأسلم
معه كثير من بني قومه . ونجح أبو المهاجر بفضل مؤازرة كسيلة له في
الاستيلاء على تلمسان (٢) . ويعتبر أبو المهاجر أول أمير عربي وطئت خيله
أرض المغرب الأوسط ، وتدل نتائج هذه الحملة على مقدرته السياسية ،
وكيافته في كسب زعيم بربر أوربة إلى جانب المسلمين .

وما إن انتهى أبو المهاجر من القضاء على مقاومة البربر ، ومن تحطيم
الحلف القائم بين أوربة والروم وذلك بانضمام كسيلة ومن ورائه بربر أوربة
إلى جانب المسلمين ، حتى ولى وجهه شطر قرطاجنة ، معقل الروم في
إفريقية ، ليضرب ضربته الثانية . ويذكر أبو المحاسن أن أبا المهاجر خرج
في سنة ٥٥٩ هـ لغزو قرطاجنة ، « فخرج إليه أهلها ، فالتقوا ، وكثر القتل
بين الفريقين حتى حجز الليل بينهم ، وانحاز المسلمون من ليلتهم ، فنزلوا جبلا
في قبلة بولس (يقصد تونس) ، ثم عاودوهم ، وصالحوهم على أن يجلوا لهم
الجزيرة (جزيرة شريك) . ثم افتتح أبو المهاجر المذكور ميلة (٣) ، وكانت
إقامته بها في هذا الغزو نحواً من سنتين « (٤) . وعاد أبو المهاجر بعد ذلك
سنة ٥٦١ هـ إلى مدينته التي أسسها ، وأقام بها عاما واحدا حتى عزل .

(١) المالكي ، ص ٦١ - ابن عذاري ، ص ٢٨

(٢) السلاوي ، الاستقصا ، ج ١ ص ٨٠

(٣) مدينة ميلة تقع على أربع مراحل شرقي قلعة بني حماد ، ويصفها الإدريسي بأنها
« مدينة حسنة » كثيرة الأشجار ممكنة الثمار « (الإدريسي ، ص ٩٤) . ويذكر
اليعقوبي أنها مدينة عامرة محصنة تقع على البحر ولها مراسي عديدة . (البلدان ، ص ٣٥١)

(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٥٢ - السلاوي ، ج ١ ص ٨٠

د - ولاية عقبة الثانية (٦٢ - ٦٤ هـ) :

توفي معاوية بن أبي سفيان في منتصف رجب سنة ٦٠ هـ ، وأفضت الخلافة من بعده إلى ابنه يزيد ، وكان يزيد مقتنعا بفضل عقبة على الإسلام وحسن بلائه في فتح إفريقية ، فاستقطع ولاية إفريقية من مسلمة بن مخلد والى مصر ، وعزل أبا المهاجر دينار في سنة ٦٢ هـ ، ورد عقبة بن نافع إلى ولاية إفريقية للمرة الثانية . وبذلك استرد عقبة كرامته التي نال منها مسلمة ابن مخلد عن طريق مولاه أبي المهاجر ، وتلاشى من نفسه الاحساس بالمرارة منذ أن أهانه أبو المهاجر بالسجن ، وتخریب العمل الجليل الذي جهـد في إنشائه وهو مدينة القيروان .

ويرى الدكتور مؤنس أن عقبة رد إلى ولاية إفريقية عقب وفاة مسلمة ، ويستند في ذلك على الربط بين تاريخ مشترك هو سنة ٦٢ هـ يسجل وفاة مسلمة ، وتولية عقبة ، « فلو كان عقبة رد قبل وفاة مسلمة ، فلماذا تحدد المراجع سنة ٦٢ هـ بالذات ، أى بعد سنتين من ولاية يزيد؟ ولم لم يردده يزيد من أول ولايته؟ وفيما كان الانتظار؟ بل لو كان مسلمة حيا حين رد عقبة إلى عمله لتولى حماية أبي المهاجر منه أولا ستغاث به هذا الأخير على الأقل . فأما وقد كان عقبة مطلق اليد يفعل بأبي المهاجر ما يشاء ، فان في ذلك ادليلا على أن هذا الأخير كان قد فقد وليه ونصيره ، فهان أمره على الناس » (١) ولكننا نرى تقيض ذلك ، فليس من الضروري أن يرد يزيد عقبة إلى ولاية إفريقية عند توليه الخلافة مباشرة ، وتذكر المصادر العربية أن يزيد واجه عند توليه الخلافة صعوبات كثيرة في العراق والحجاز ، وكانت بداية

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٧٩

خلافته إيدانا بفترة طويلة من الصراع بين الشيعة وبنى أمية ، على أثر امتناع الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير عن مبايعته ، فأما الحسين فقد استشهد في ١٠ محرم سنة ٦١ هـ في كربلاء بعد أحداث طويلة ، وأما ابن الزبير فقد فرغ له الجو ، ودعا لنفسه بالخلافة بعد شهادة الحسين ، وبايعه أهل الحجاز وتهامة . ولا جدال في أن هذه الأحداث شغلته كثيرا عن قضية عقبة ومسامة ، ولا شك في أن عقبة لم يغامر بعرض قضيته على يزيد بعد توليته الخلافة مباشرة ، إذ كان كل هم يزيد وقتئذ منصرفا إلى السعي للحصول على مبايعة إجماعية في الحجاز والعراق . ونرجح أنه توجه إليه بعد أن أسفر الصراع القائم بين الشيعة وبنى أمية عن مقتل الحسين . وهنا ننتقل إلى مناقشة السند الثاني الذي اعتمد عليه الدكتور مؤنس لإثبات رأيه وهو أنه لو كان مسامة بن مخلد حيا عندما رد عقبة إلى ولاية إفريقية ، لكان قد تولى حماية أبي المهاجر من عقبة . ونرد على هذا الاستنتاج بنص تاريخي ورد في رياض النفوس ، جاء فيه أن عقبة توجه إلى يزيد ، فأخبره بما صنع أبو المهاجر وما دخل عليه منه ، وقال له : لما افتتحت إفريقية بنيت مسجد الجماعة ، ثم بعثت عبد الأنصارى ، فأهانني ، وأساء عزلي ، فغضب يزيد وقال : أدركوها قبل أن يخربها . ورد عقبة إليها ، وأزال مسامة عنها ، وأقره بمصر ، وذلك سنة اثنتين وستين ^(١) . ونستنتج من هذا النص أن يزيد فصل ولاية إفريقية والمغرب عن ولاية مصر ، وأنه قصر ولاية مسامة بن مخلد على مصر ، وأنه رد عقبة إلى ولاية إفريقية والمغرب . ويؤيد ذلك أيضا ما ذكره ابن عذارى بقوله : « وفي سنة ٦٢ ، ولي يزيد

(١) المالكى ، ص ٢٢

ابن معاوية على بلاد إفريقية والمغرب كله عقبة بن نافع الفهري ، وهي ولايته الثانية على إفريقية » ^(١) . ونخرج من ذلك بحقيقة هامة ، هي أن الأمر الخلفي بتولية عقبة على إفريقية ، وفصل هذه الولاية عن مصر ، صدر قبل وفاة مسلمة في ٢٥ رجب سنة ٦٢ هـ . ونعتقد أن مسلمة كان ما يزال حيا عندما رحل عقبة من الشام مارا بمصر ، في طريقه إلى المغرب . ويذكر ابن عذارى ، أنه لما مر على مسلمة صاحب مصر خرج إليه ، واعتذر من فعل أبي المهاجر ، وأقسم له أنه خالفه فيما صنع ، وأنه كان قد أوصاه بتقوى الله وحسن السيرة ، وأن يحسن عشرة عقبة ، فقبل منه عقبة ، ومضى حنقا على أبي المهاجر » ^(٢) . وهذا يفسر تحامل عقبة على أبي المهاجر ، ومبادرته بالافتصاص منه بمجرد وصوله إلى إفريقية . ولم يكن مسلمة وقتئذ قادرا على حمايته من عقبة ، لأن ولاية إفريقية لم تعد تابعة له . وقد يكون رد عقبة إلى ولاية إفريقية قد تم قبل وفاة مسلمة ببضعة أشهر .

قدم عقبة إلى القيروان ومعه جيش من المسلمين من بينهم ٢٥ رجلا من أصحاب رسول الله ^(٣) ، وكان عقبة ما يزال حانقا على أبي المهاجر ، ولذلك بادر بالقبض عليه وتقييده ، وصادر مامعه من الأموال ، وجملتها مائة ألف دينار ، وجدد بناء القيروان ، ورسم ماوى من مبانيها ، وأمر الناس بتعميرها والانتقال إليها ، فعادت إليها عظمتها ^(٤) . ثم أشفى غليله

(١) ابن عذارى ، ص ٢٣

(٢) ابن عذارى ، نفس الصفحة .

(٣) ابن عذارى نفس الصفحة

(٤) المالكي ، ص ٢٢ — ابن عذارى ص ٢٣

من أبي المهاجر ، « بتخريب مدينته التي بناها » ^(١) . ويبدو أنه كان يسعى لنقض سياسة أبي المهاجر من أساسها ، وهي سياسة أثبتت نجاحا عظيما ، إذ انتهت بضم بربر أوربة إلى جانب المسلمين ، وبدخول عدد كبير منهم في الإسلام ، ولو أن عقبة تابع سياسة أبي المهاجر ، لقد رآه أن يستكمل فتح المغرب كله دون أن يريق كثيرا من دماء المسلمين ، ولكن اصطناعه سياسة مناقضة ، مدفوعا في ذلك بعامل السخط على أبي المهاجر ، كان السبب في حدوث الكارثة التي أسفرت عنها غزوته الكبرى إلى السوس الأقصى . وقد حاول أبو المهاجر أن يقنعه بجدوى الاستمرار في سياسة اصطناع البربر ، وقدم له كسيلة على أنه من زعمائهم ، ولكن هم عقبة كان منصرفا إلى تحدى أبي المهاجر ، وإلى إذلاله وإذلال من لاذ به ، فاستخف بكسيلة وهو حديث عهد بالاسلام ، على الرغم مما أوصاه به أبو المهاجر . ويذكر المالكي وابن عذارى أن عقبة أتى يوما « بذود غنم للعسكر ، فذبح الذود ، فأمر عقبة كسيلة أن يسليخ مع السالخين . فقال له : أصلح الله الأمير ، هؤلاء فتيانى وغلمانى يكفوننى . فنهزه عقبة ، وقال له : قم . فقام كسيلة مغضبا . فكان كلما دحس في الشاه مسح يده بالحيته مما علق بيده من بلل ذلك . وجعل العرب يمرون عليه وهو يسليخ ، ويقولون له : يا بربرى ، ما هذا الذى تصنع ؟ فيقول : هذا جيد للشعر . فمر به شيخ من العرب ، فقال : كلا ، إن البربرى ليتوعدكم . فقال أبو المهاجر لعقبة : أصلح الله الأمير ، ما هذا الذى صنعت ؟ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمي ، وعيينة بن حصن ،

وَأنت تجيء إلى رجل هو خيار قومه في دار عزه ، قريب عهد بالكفر ،
فتفسد قلبه ؟ توثق من الرجل فاني أخاف فتكه ، فتهاون به عقبة . فلما
انصرف ، نكث البربر ما كانوا عليه ، وأقبلت النفرة إلى عقبة ، فقال له
أبو المهاجر : عاجله قبل أن يجتمع أمره ، فزحف إليه عقبة ، فتنحى من
بين يديه ، فقالت البربر لكسيلة : لم تهرب من بين يديه ، ونحن في خمسين
ألفا ، وهو في خمسة آلاف ؟ فقال : إنكم كل يوم في زيادة وهو في نقصان ،
ومدد الرجل قد افترق عنه . فاذا طلب إفريقية زحفت إليه » (١) .

ونستنتج من هذا النص أن عقبة أساء إلى كسيلة وأهانته بسلخ جلود
الغنم ، ففر كسيلة من معسكر عقبة ومعه جموع بربر أوربة ، وتمكن كسيلة
من تكوين جيش ضخم من البربر ، لمقاتلة المسلمين ، ولكنه لم يشأ أن
يشتبك معهم في القتال إلا بعد أن يعود عقبة من غزوته ، فيكون عسكره
قد نقص عدده ، وعندئذ ينقض عليه كسيلة ويفتك به وبمن معه . وأعتقد
أن عقبة أهان كسيلة بعد موقعة باغاية وهو في طريقه إلى طنجة ، وأنه فر
من معسكر المسلمين إلى جبل أوراس ، حيث جمع جيشا ضخما من البربر
وعزم على التردد لعقبة وهو في طريق عودته من غزوة السوس ، بعد أن
يكون التعب قد أرهق عسكره .

ركب عقبة في وجوه عسكره ومن معه من الصحابة والتابعين . ويذكر
ابن عذاري أنه دار بهم حول مدينة القيروان وهو يدعوها ويقول :
« يارب أملاها علما وفقها ، وأملاها بالمطيعين لك ، واجعلها عزا لدينك ،

(١) المالكي ، ص ٢٦ - ابن عذاري ، ص ٢٩

وذلا على من كفر بك » (١) . ويذكر المالكي أنه جمع أولاده وقال لهم :
« إني بعت نفسي من الله ، وما أدرى ما يأتي علي في سفري » ، ثم قال :
« يا بني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها : اياكم أن تملأوا
صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن ، فإن القرآن دليل علي الله عز وجل ،
وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ، ويدلكم على مكارم الأخلاق ،
ثم انتهوا عما وراءه ، وأوصيكم أن لاتدأبنوا ولولبستم العباء ، فإن الدين
ذل بالنهار وهم بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم ، وتبقى لكم
الحرمة في الناس ما بقيتم . ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين ،
فيجهلوكم دين الله ، ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى ، ولا تأخذوا دينكم إلا
من أهل الورع والاحتياط ، فهو أسلم لكم ، ومن احتاط سلم ، ونجا فيمن
نجا » ، ثم قال : « عليكم سلام الله ، وأروكم لا تروني بعد يومكم هذا » ،
ثم قال : « اللهم تقبل نفسي في رضاك ، واجعل الجهاد رحمة ودار كرامتي
عندك » (٢) .

ولما أتم حديثه مع أولاده ، وأبدى لهم النصيحة استخلف زهير بن قيس
البلوي وعمر بن علي القرشي على رأس حامية من المسلمين عدتهم ستة آلاف
مقاتل (٣) . ثم خرج في جيش عدته خمسة عشر ألفا (٤) ، من القيروان ،

(١) ابن عذاري ، ص ٢٣

(٢) المالكي ، ص ٢٢

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٧٢

(٤) الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٣ . وفي نص عبيد الله بن صالح أنه « خرج
مع عسكر عظيم » ، ولكنه لم يحدد عدد هذا العسكر (عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٩)

خروج من عزم على التماس الشهادة والموت في سبيل الله . ولم يترك عقبة أبا المهاجر في القيروان ، وإنما أغزاه معه إلى السوس ، وهو مكبل بالأغلال^(١) . واشترك مع عقبة في هذه الغزوة جموع كثيرة من مسلمي البربر يتزعمهم كسيلة البرانسي ومن معه من أوربة . وزحف جيش المسلمين غربا حتى وصلت إلى مدينة باغاية أو باغاي أو بغاية^(٢) ، وحاصرتها (خريطة رقم ٦) ، وهناك اصطدمت بجيوش الروم وانتصرت عليها انتصاراً حاسماً^(٣) ، وظفر المسلمون بغنائم كثيرة . ثم زحف عقبة غرباً متخذاً طريق الزاب الصحراوي وقاتل الروم وحلفاءهم من البربر على وادي المسيلة فهزمهم^(٤) . واتجه بعد ذلك إلى تاهرت ، وجعلها هدفه الرئيسي حيث تجمعت فيها جموع قبائل لواتة وهوارة وزواغة ومطماطة وزناتة ومكناسة ، مع من انضم إليهم من الروم^(٥) ، واشتبك المسلمون معهم في قتال عنيف انتهى بهزيمة البربر وحلفائهم الروم هزيمة شتاء ، ذل لها الروم^(٦) . ويذكر المالكى أنه عندما نزل تاهرت ، استغاث « الروم بالبربر ، فأجابوهم ونصروهم ، فقام عقبة في الناس خطيباً ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : أيها الناس ، إن أشرافكم

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٠ - المالكى ، ص ٢٢

(٢) يذكر الإدريسي أنها مدينة كبيرة عليها سوران من حجر وريض عليه سور ، وأنها أول بلاد التمر ، ولها واد يجرى إليها من جهة القبلة ، وشربهم منه ومن آبار عذبة . وعلى أميال منها جبل أوراس (الإدريسي ص ١٠٣)

(٣) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٩ - المالكى ، ص ٢٣ - ابن عذارى ، ص ٢٤

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٤

(٥) نفس المرجع ص ٢٥ - عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٩

(٦) نفس المرجع ، ص ٢٤

وخياركم الذين رضى الله تعالى عنهم ؛ وأنزل فيهم كتابه ، بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان ، على من كفر بالله إلى يوم القيامة ، وهم أشرافكم ، والسابقون منكم إلى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة ؛ وأنتم اليوم فى دار غربة ، وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر إليكم فى مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبا لرضاه ، وإعزازاً لدينه . فابشروا ، فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى ، وربكم - عز وجل - يسامكم . فالقوم بقلوب صادقة ، فان الله - عز وجل - جعلكم بأسه الذى لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه ، والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين (١) .

وهكذا قضى عقبة على كل مقاومة للبربر والروم فى المغرب الأوسط ، ومضى فى سيره متجها إلى طنجة ، ولكن أبا المهاجر نصيحه بألا يفعل ، فان قبيلة أوربة البرانسية قد أسلمت باسلام كسيلة ، وليس هناك ما يدعو إلى غزوها ، ونصيحه أيضا بأن يبعث مع كسيلة واليا . فأبى عقبة أن ينتصح (٢) ولم يلبث أن انحرف من طريقه الداخلى نحو الساحل ، وعبر ممر تازة . ثم أوغل تجاه طنجة . وتطارت فلول البربر والأفارقة بعد أن توالت عليهم الهزائم ، وكثر فيهم القتل على أيدي المسلمين إلى الحصون والمعقل . ولكن عقبة كان حريصا على مواصلة الغزو ، « فكره المقام على محاصرتهم ، فيفوته الغزو وقتل غيرهم من طوائف الكفار ، إذ كانت أمم المغرب من نصارى

(١) المالكى ، ص ٢٤

(٢) لعل ذلك كان سببا من أسباب تحامل كسيلة على عقبة ، وخروجه عليه ، وترصده

له فى طريق عودته

وبرابر لا يحصون كثرة وانتشاراً ، ولا يكاثرون بالرمل والحصا . فترك
أهل إفريقية متحصنين بحصونهم ، وأوغل في الغرب يقتل ويأسر أمة بعد
أمة ، وطائفة بعد طائفة ، بائعاً نفسه من مولاه ، لا تروجه كثرة ، ولا تعتربه
هو ومن معه سامة ولا كثرة ، حتى صار بأحواز طنجة » (١) .

وكان حاكم طنجة وسبته روميا اسمه يليان ، وكان سياسيا محنكا ،
فبادر بمهاداة عقبة ومهادنته ، وأعلن استعداداه للنزول على حكمه ، وعقد معه
عقبة معاهدة صالح ومسالمة ، ودله على مواطن البربر فيما وراء جبال الأطلس ،
وأرشده إلى عوراتهم . وبفضل توجيهات يليان تمكن عقبة من الوصول إلى
وليلي Volubilis ، وهناك تلقته جموع كثيفة من البربر بالقتال ، فهزمهم
هزيمة نكراء ، وطاردهم حتى درعة (٢) . وهناك تجمعت حشود هائلة من
البربر لا تحصى أعدادها ، فقاتلهم قتالا عنيفا لم يشهد البربر مثل عنفه وشدته .
فدارت الدائرة على البربر وقتل منهم عدد كبير (٣) . وذكر بعض المؤرخين
أن عقبة انحدر من بلاد تامسنا بالسوس الأدنى ، وتوغل في « صنهاجة ثم
إلى بلاد هسكورة ، ثم نزل أغمات وريكة ، ثم نزل منها على وادي نفيس ،
وقام عقبة من وادي نفيس وسار حتى نزل إيجلى بالسوس ، وبني فيه مسجداً...
قال أبو علي : ثم سار عقبة من إيجلى حتى وصل ماسة ، فأدخل فرسه في
الماء » (٤) . ويصور المؤرخون نهاية مطاف عقبة عند المحيط تصويراً قصصياً

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٦

(٢) نفس المرجع ، نص عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٩

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٧

(٤) نفس المرجع

أسطوريا ، تؤكد البطولة عقبه ، فيذكر ابن عذارى نقلا عن ابن أبي الفيض
« إنه لما بلغ الماء بطن فرسه رفع يديه إلى السماء وقال : يا رب لولا أن
البحر منعني لمضيت في البلاد إلى مسلك القرنين مدافعا عن دينك ، مقاتلا من
كفر بك » (١) .

وهكذا وصل عقبه حتى بلاد جزولة بالسوس الأقصى (خريطة رقم
٧) ؛ فبعد أن دخل بلاد صنهاجة وهسكوره ، ومر بأغمت وافتتحها ،
وافتح مدينة نفيس وتارودانت ، نزل بوادي سوس (٢) ، واتصل بقبائل
جزولة فأسلمت . ورأى عقبه أن مهمته انتهت إلى هذا الحد ، فعزم على
العودة بعساكره . فدار جنوبا ماسة ماراً بإيغيران يطوف (٣) ، ومضى
مصبداً نحو الشمال ، فوصل إلى تارنا ، ثم وصل إلى موضع شاكر الذي سمي
باسم أحد أصحابه تركه هناك ، حيث أنشأ رباطا عرف باسمه ، وما زال
يسمى هذا الموضع حتى اليوم باسم سيدى ثيكر (٤) . ثم رحل من هناك إلى
سرنوبلاد دكالة (٥) ، فوجد فيها قوما دعاهم إلى الإسلام فامتنعوا ، فاشتبك
معه في قتال انتهى بقتل جماعة كبيرة من جنوده ، فسمى هذا الموضع باسم
مقبرة الشهداء . ثم مضى من دكالة إلى بلاد هسكوره ، وقاتل سكان هذه
النواحي وشتتهم ، وعبر نهر أم الربيع ، وأوغل في البلاد شرقا حتى دخل

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٢ — المالكى ، ص ٢٥ — ابن عذارى ، ص ٢٧

(٢) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٩

(٣) نفس المرجع ص ٢١٩ — ابن عذارى ص ٢٧

(٤) تعليق الأستاذ ابن بروفنسال على نص عبيد الله بن صالح ، ص ٢٠٩

(٥) ابن عذارى ، ص ٢٨

المغرب الأوسط . وما زال يواصل سيره إلى القيروان ، حتى أوشك على دخول المغرب الأدنى ، وقبل أن يدخل هذا الإقليم وصلته أنباء مقلقة من إفريقية ، فأرسل طائفة من عسكره إلى القيروان ، ولم يبق معه من جيشه سوى خمسة آلاف ^(١) . ويعمل ابن عذارى إرساله هذا العسكر إلى القيروان برغبتهم في الإسراع « بالإياب إلى أحيائهم ، والبدار إلى عيالهم » ^(٢) . وأغلب الظن أن كسيلة ، الذي انقلب على العرب ، بعد أن أهانه عقبة وحارب قبيلته ، تحالف مع الروم ، وهاجم القيروان في حشود ضخمة حتى يدفع عقبة إلى الإسراع بإرسال كتائب من جيشه لحمايتها ، فيتفرغ هو بعد ذلك لمهاجمة عقبة ، فان ابن عبد الحكم يذكر أن عقبة لما تقدم إلى السوس ، « خالفه رجل من العجم في ثلاثين ألفا إلى عمر بن علي وزهير بن قيس ، وهما في ستة آلاف فهزمه الله » ^(٣) . وفي موضع آخر يقول : « ثم زحف ابن الكاهنة (لعله يقصد به كسيلة) إلى القيروان يريد عمر بن علي وزهير ابن قيس ، فقاتلاه قتالا شديداً ، فهزم ابن الكاهنة ، وقتل أصحابه » ^(٤) . ويغلب على الظن أن عقبة أذن لمعظم رجاله بالانصراف إلى القيروان عندما وصل إلى مدينة طينة ^(٥) من أرض الزاب ، واثّر عقبة أن يعرج على مدينتي تهوذه وباديس في أحواز الزاب بمن بقي معه من جنوده ، للاستيلاء

(١) عبيد الله بن صالح ص ٢٢٠ - ابن عذارى ، ص ٢٨

(٢) ابن عذارى ، ص ٢٨

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٧٢

(٤) نفس المرجع ، ص ٧٤

(٥) المالكى ، ص ٢٥ - ابن عذارى ، ص ٢٨ - السلاوى ، ج ١ ص ٨٣

عليها وإقامة حامية دائمة من فرسانه فيها (١). وكانت عيون الروم وجواسيسهم في هذه النواحي قد بعثوا إلى كسيلة الأوربي ، « فأعلموه بقلعة من معه ، فجمع له جمعا كبيرا من الروم والبربر ، وزحف إليه ليلا حتى نزل بالقرب منه » (٢) .

وكان كسيلة قد جمع أكثر من خمسين ألف مقاتل ، فلما رأى عقبة عظم هذا الجيش ، وتطويق البربر لجيش المسلمين ، أيقن بقرب النهاية ، فأراد أن يبعث أبا المهاجر مع من يتبعه من المسلمين إلى القيروان ، حتى يعفيهم من القتل على أيدي البربر والروم ، فأبى أبو المهاجر إلا أن يفتنم الشهادة معه . فنزل المسلمون عن دوابهم ، وكسروا أغصان سيوفهم ، ودارت الموقعة عند تهوذه في نهاية سنة ٦٣٣ هـ (٣) . فاستشهد عقبة وأبو المهاجر وسيفاهما في أيديهما ، واستشهد معهما عدد كبير من المسلمين ، ولم يفلت من الموت إلا من وقع أسيرا في أيدي البربر أمثال محمد بن أوس الأنصاري ، وبزيد بن خلف العبسي ، ففداهم ابن مصاد صاحب قفصة ، وبعث بهم إلى زهير بن قيس (٤) .

(١) عبيد الله بن صالح ، ص ٢٢٠ . يذكر عبيد الله أن عقبة قال لعساكره : « أريد أن أسلك على مدينة تهوذه ومدينة باديس أجعل فيهما مائة يوم بهما من العدة والعساكر »

(٢) المالكي ، ص ٢٥ — ابن عذاري ، ص ٢٩

(٣) يرى الدكتور حسين مؤنس أن موقعة تهوذه حدثت سنة ٦٤ هـ ، وأن زهير بن قيس قرر الانسحاب إلى برقة سنة ٦٥ هـ (انظر تعليق الدكتور حسين مؤنس على نص عبيد الله بن صالح ، ص ٢٣٦)

(٤) المالكي ، ص ٢٧ — ابن عذاري ، ص ٢٩ — ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٦ —

أبو المحاسن ج ١ ص ١٥٩ — السلاوي ج ١ ص ٨٤

ودوى خبر مقتل عقبة في إفريقية والمغرب دوبا هائلا ، وكان له أثر
عميق في نفوس المسلمين ، وكان كسيلة قد زحف بجيوش لا حصر لها من
البربر والروم إلى القيروان ، « فانقلبت إفريقية نارا ، وعظم البلاء على
المسلمين » (١) .

(١) المالكي ، ص ٢٨ — ابن عذاري ، ص ٣١

(٢)

الفترة الثانية (٦٩ - ٨٩٠)

١ - انسحاب العرب من القيروان في سنة ٦٤ هـ (٦٨٣ م) :

اختلف المؤرخون في توضيح موقف زهير بن قيس، قائد جيش المسلمين في القيروان، فبعضهم يذكر أن زهير لما بلغه خبر الكارثة التي نكب بها جيش عقبة في تهودة، تولاه الذعر والخوف وأراد الانسحاب إلى مصر، فأبى ابن حيسان الحضرمي، إذ اعتبر ذلك هزيمة إلى مصر، وكان أول من برز، فضرب خباءه مبارزا للعدو، فلما رأى زهير بن قيس عزمه، قرر البقاء في القيروان لمحاربة كسيلة. فلما أقبل كسيلة إلى القيروان، قاتله المسلمون قتالا شديداً، فانهزم، وقتل عدد كبير من أصحابه وتفرقوا. أما زهير فقد أقام يسيراً في القيروان، ثم خرج إلى مصر، فأقام بلوبية ومراقبة عام ٦٥ هـ، حتى أمده عبد الملك بن مروان بجيش استرد به إفريقية^(١). هذه الرواية تتناقض تفصيلاً ولا تتفق مع الأحداث التي تلت مقتل عقبة وأصحابه في تهوده، ونسأل لماذا ترك زهير القيروان بعد انتصاره المزعوم إلى لوبية ومراقبة، ولماذا أقام هنالك حتى أمده عبد الملك بجيش لاسترداد إفريقية؟ ونفهم منها على الرغم من ذلك أن إفريقية ضاعت على المسلمين إلى أن اشتردها زهير ابن قيس بعد ذلك بفترة من الوقت.

ويتفق معظم المؤرخين على أن زهيراً خطب في الناس بعد كارثة تهودة قائلاً: « يا معشر المسلمين، إن أصحابكم قد دخلوا الجنة، وقد من الله

(١) المالكي، ص ٢٨، ٢٩ - ابن عذاري، ج ١ ص ٢٩

عليهم بالشهادة ، فاسلكوا سبيلهم ، ويفتح الله لكم دون ذلك » فاعترض عليه حنش الصنعاني التابعي ، وطالبه بالانسحاب مع بقية الجيش العربي إلى المشرق حتى لا يتعرض المسلمون لسيوف البربر ، وقال : « يامعشر المسلمين ، من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعن » . فاتبعه الناس ، ولم يبق مع زهير إلا أسرته وذويه . فاضطر إلى اللحاق بهم ، ونزل بقصره في برقة ، وأقام بها مرابطا إلى دولة عبد الملك بن مروان (١) .

ولا يعقل أن تؤثر حامية القيروان البقاء بها لكي تذبج على أيدي البربر ، فالمعروف أنهم كانوا قلة ضئيلة بالقياس إلى حشود البربر الكثيفة التي كان يقودها كسيلة ، وواضح أن معظم الجنود العرب قد سئموا القتال في غزوة عقبة ، فمالوا للعودة إلى المشرق . يضاف إلى ذلك أن فاجعة تهوذة التي لم ينج منها إلا النذر اليسير من رجال عقبة الذين بقوا معه بعد رحيل معظم عسكره إلى القيروان (عند طينة) ، أفزعت المسلمين ، وحطمت من روحهم المعنوية ، وفقت من عزائمهم ، فلم يكن هناك بدامن الانسحاب السريع ، وإلا فكيف نقبر رحيل زهير بن قيس من القيروان إلى برقة ، وانتظاره هناك لمدة يسترد به القيروان ؟ . وتقدم كسيلة بعسكره بعد انتصاره في تهوذة نحو القيروان ، فلما اقترب منها ، ولى من كان قد بقى فيها من العرب هاربين ، إذ لم يكن لهم طاقة بقتاله بعد انسحاب الجيش ، ولعظم ما اجتمع لديه من بربر وروم . ويذكر المالكى أنه لم يبق في القيروان بعد رحيلهم إلا الشيوخ الهرم ، والنساء ، والأطفال ، وكل مثقل بالأولاد ، فأرسلوا إلى كسيلة

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٠ ، ٧٤ - المالكى ، ص ٢٨ - ابن عذارى ، ص ٣١

عبد الله بن صالح ، ص ٢٢١ - السلاوى ، ص ٨٤

يسألونه الأمان ، فأجابهم إلى ذلك ، ودخل القيروان في المحرم سنة ٦٤ هـ ، وجلس في قصر الإمارة أميرا على البربر ومن بقى في القيروان من العرب^(١).

وأسفر انسحاب الجيش العربي إلى برقة عن خروج إفريقية من أيدي العرب ، وضاعت بذلك جهود أربعين عاما قضاهم المسلمون في غزو وفتح. ولكن العرب لم يفقدوا كل شيء ، فقد تركوا بإفريقية طائفة من البربر تحولت إلى الإسلام^(٢). ويستنتج الدكتور حسين مؤنس من سعى صاحب قصة لا فتداء أسرى المسلمين في تهوذة وإرسالهم إلى زهير بن قيس بالقيروان ، أن العرب تجحوا في نقل جماعات من البربر إلى الإسلام ، أو أنهم أفلحوا على الأقل في إنشاء طوائف بربرية تميل إليهم. ولذلك يشير مؤرخو العرب إلى أن استشهاد عقبة في القيروان أحدث اضطرابا كبيرا في إفريقية ، فابن عذارى يقول : « واضطربت إفريقية »^(٣) ، والمالكي يقول : « فانقلبت إفريقية نارا »^(٤). ولا حدال في أن المقصود بذلك هو قيام ثورة كبيرة شملت البلاد بأسرها بعد انسحاب جيش العرب من القيروان . ويعتقد الدكتور مؤنس أنه « كان في إفريقية في ذلك الحين نفر عظيم لم يرضهم سقوط القيروان في يد كسيلة ، فأثارهم ذلك ، وثارَت المنازعات بينهم وبين أنصاره . ومن يكون هؤلاء الذين ثاروا تلك الثورة إلا بربرا مسلمين أو أنصارا للمسلمين ؟ »^(٥)

(١) المالكي ، ص ٢٨ — ابن عذارى ، ص ٣١ — السلاوى ، ص ٨٤

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢١١

(٣) ابن عذارى ، ص ٣٠

(٤) المالكي ، ص ٢٨

(٥) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٢٠٧

وإذا كان كسيلة قد نجح حربيا في احتلال القيروان ، فإنه لم يستطع أن يكسب إليه المسلمين من البربر ، فلم يلبث هؤلاء أن تنازعوا معه ، فعم الاضطراب صفوفه ، واختلت أحواله ، وسرى بعد قليل أن هؤلاء البربر سينضمون طائعين إلى جيوش المسلمين .

ب - حملة زهير بن قيس واسترجاع العرب للقيروان :

عاد زهير بن قيس إلى برقة ، فأقام بها في قصره بسرت انتظارا لمدد يبعثه إليه الخليفة الأموي لاسترداد إفريقية ، أما ضعفاء المسلمين ومن خرجوا معه من القيروان من موالى إفريقية فقد تفرقوا في إقليم إطرابلس (١) . وكان يزيد بن معاوية قد توفي في سنة ٦٤ هـ وخلفه ابنه معاوية الثاني الذي لم يمتد عهده أكثر من أربعين يوما ثم توفي ، وظل عرش الخلافة شاغرا زهاء ستة شهور ، قام خلالها عبد الله بن الزبير بالدعوة لنفسه في الحجاز ، وبإيعه أهل الحجاز والعراق وخراسان ومصر . وفي ذى القعدة سنة ٦٤ هـ ، انعقد مؤتمر الجابية ، وفيه تمتبيعة مروان بن الحكم . وشغل مروان منذ اعتلائه دست الخلافة بمحاربة المضربة بزعامة الضحاك بن قيس ، وكان انتصار مروان وحزبه اليمنى على المضربة في موقعة مرج راهط ، في المحرم سنة ٦٥ هـ ، أشبه بوقود أضرمت فيه نار ، كما كان ايذانا بهبوب ريح العصبية القبلية في أنحاء البلاد . كذلك شغل مروان بن الحكم بمحاربة الزبيريين في مصر والحجاز ، ونجح في إعادة مصر إلى سلطان الخلافة الأموية ، ولكن لم يطل به العهد للقضاء ، على حركة الزبيرية في الحجاز ، ومات في رمضان سنة ٦٥ هـ قبل أن يقوم بأي عمل حاسم في إفريقية . وخلفه ابنه عبد الملك الذي ولى

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٤

الخلافة الأموية والبلاد قد مزقتها العصبية القبلية ، والفتن قد اجتاحتها من كل مكان^(١) وكان زهير بن قيس وهو مقيم ببرقة منذ انسحاب العرب من القيروان ، لا يكف في أثناء ذلك عن حث مروان وابنه عبد الملك من بعده على تخلص إفريقية من أيدي الروم والبربر . وعلى الرغم من كل هذه المشكلات التي صادفته منذ توليه الخلافة ، فقد عز على عبد الملك ، وكان رجلا مجاهدا ، قد شارك في فتوح إفريقية في حملة معاوية بن حديج ، أن يضيع المغرب على الإسلام ضياعا نهائيا بعد سنين طويلة من جهاد واستشهاد ، فجعل مشكلة استرداد إفريقية في مقدمة مشكلاته ، وآثر أن ينظر في استردادها قبل أن يقضى على فتنة ابن الزبير . وكان أمر المغرب يتطلب رجلا يماثل عقبة « دينا وعقلا » ، فاستشار وزراءه ، فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوي ، باعتباره صاحب عقبة ، وأعلم الناس وأخبرهم بسيرته وتدريبه ، وأولاهم بطلب دمه . ويذكر المؤرخون أنه بعث في سنة ٥٦٩ إلى زهير وهو مقيم ببرقة يأمره بالخروج على أعنة الخيل إلى إفريقية ليستنقذ من بالقيروان من المسلمين . فكتب إليه زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم ، وقلة من معه من الرجال والأموال^(٢) . ولم يبخل عبد الملك على زهير بن قيس بالمال والرجال ، ويقول المالكي أن عبد الملك أرسل « إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام ، وأفرغ عليهم أموال مصر ، فسارع الناس إلى الجهاد . واجتمع منهم خلق عظيم ، فأمرهم أن يلحقوا

(١) يعتقد الدكتور مؤنس أن زهيرا أقام بعض هذه الفترة في مصر ، وبعضها الآخر

في برقة (فتح العرب للمغرب ، ص ٢١٧)

(٢) المالكي ، ص ٢٩ - ابن عذاري ، ص ٣١

بزهير»^(١) . ووفدت جيوش العرب على زهير وهو مقيم ببرقة ، وتسرع الناس للسير معه إلى إفريقية^(٢) .

خرج زهير بن قيس من برقة في سنة ٦٩ هـ في عسكر ضخم متجها نحو إفريقية . وبلغ كسيلة قدوم العرب إليه ، فحشد للقائهم جيشا كشيئا من البربر والروم ، بالغ المؤرخون في تقدير عدده ، فذكروا أنه كان «أضعاف ما على زهير مضاعفة»^(٣) . وعلى الرغم من كثرة جيشه ، فقد أبدى تخوفا كبيرا من موقف مسلمي القيروان نحوه عند وصول جيوش العرب ، وخشى أن يقع بين عدوين : عدو داخلي يتمثل في الحزب الإسلامي الذي يتألف من مسلمي القيروان ومن يميل إليهم من البربر ، وعدو خارجي هم العرب . فدعا كسيلة أشراف البربر ، وقال لهم : « إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة ، فان بها قوما من المسلمين لهم علينا عهد ، ونحن نخاف إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا ، ولكن نزل على موضع ممس (Mamma) وهي على الماء ، فان عسكرنا خلق عظيم ، فان هزمناهم إلى طرابلس قطعنا آثارهم ، فيكون لنا الغرب إلى آخر الدهر ، وإن هزمونا كان الجبل منا قريبا ، والشعراء فتتحصن بها»^(٤) .

ونقهم من هذا النص ، أن مدينة القيروان كانت ما تزال تضم داخل أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين عربا وبربرا ، كما كانت تضم حزبا قويا

(١) المالكى ، ص ٣٠

(٢) ابن عذارى ، ص ٣١

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٢

(٤) المالكى ، ص ٣٠ — ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٥٥ — ابن عذارى ،

يناصر العرب وينادى كسيلة وكان كسيلة يخشى بأسهم ويعمل لهم حسابا كبيرا .

خرج كسيلة من القيروان ، ونزل بقرية ممس ، وهو موضع يسميه البكرى ساقية ممس^(١) ، ويقع جنوبي القيروان ، بين القيروان والأربس (تبسا)^(٢) ، ويبدو أنه انتقل إلى هذا الموضع لخصائمه ، ومناعة موقعه ، إذ تقع ساقية ممس هذه على مرتفع من هضبة تتصل بجبال أوراس ، كما تقع في ذات الوقت على ماء ، وكان كسيلة ينوي - إذا دارت عليه الدائرة - أن يتحصن بالجبال . أما قوات المسلمين ، فقد نزلت في ظاهر القيروان ، بقرية يقال لها قرشانه^(٣) ، وأقام بجيوشه هناك ثلاثة أيام لم يدخل خلالها القيروان ، حتى لا يفاجئه كسيلة بجيشه ، أو لكي يتمكن من دراسة الموضع الذي ستقوم فيه المعركة القادمة . وفي اليوم الرابع زحف بكل جيوشه حتى أشرف على معسكر كسيلة بممس ، واشتبك الجيشان في قتال عنيف انتهى بهزيمة كسيلة ومصرعه ، وأمعن فرسان العرب في طلب أتباع كسيلة من البربر والروم ، وطاردهم في البلاد وأتبعوهم إلى مرماجنة^(٤) ، ثم إلى وادي ملوية بالمغرب

(١) البكرى ، المغرب ص ١٤٦

(٢) تعليق الأستاذ ليني بررنسفال على نص عبيد الله بن صالح ، ص ٢١١

(٣) المالسكى ، ص ٣٠ . اعلمها قرية قلمشانة ، وهي المعرس لمن خرج من القيروان وقدم إليها « (انظر اليقوتى ، البلدان ، ص ٣٤٧ ، أنظر أيضا ياقوت ، معجم البلدان مجلد ٤ ، ص ٣٨٩)

(٤) مدينة صغيرة تقع بين الأربس ونامديت بالقرب من القيروان ، وكان يسكنها بربر من هوارنة . (الإدريسي ص ١١٨ - ١١٩ ، ابن حوقل ، ص ٨٤ - ياقوت ، مجلد ٥ ص ١٠٩)

الأوسط . وتمكن زهير من افتتاح شقبنارية وغيرها من القلاع ^(١) . وتعتبر موقعة وادي ممس من المواقع الحاسمة في تاريخ الفتح العربي للمغرب ، ويعلق السلاوي عليها بقوله : « وفي هذه الواقعة ذل البربر ، وفنيت فرسانهم ، ورجالهم ، وخضدت شوكتهم ، واضمححل أمر الفرنجة ، فلم يعد ، وخاف البربر من زهير والعرب خوفا شديدا ، فلبثوا إلى القلاع والحصون ، وكسرت شوكة أوربة من بينهم ، واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى ، وملكوا مدينة ويلي » ^(٢) .

عاد زهير إلى القيروان ، فأوطنها حيناً ، نظم فيه إدارتها ، وأقام عليها كثير من أصحابه ، ولكن لسبب ما لا يمكننا تعليله قرر زهير القفول إلى برقة . ويفسر ابن عذارى والمالكي عودته بعد انتصاره على كسيلة ، بأنه أبقى المقام في القيروان حتى لا يجرفه تيسار الدنيا وفتنتها لرفاهية العيش فيها ، وأنه ما قصد إلا الجهاد ^(٣) ، ولكن هذا التفسير لا يقوم على أساس قوى ، فان إفريقية كانت من أصلح الأقطار في العالم للجهاد والمثاغرة ، وقد كانت إفريقية حق أيام حسان بن النعمان دار حرب وجهاد ، إذن فهناك سبب آخر دفع زهيراً إلى هذا الرحيل السريع . وأعتقد أن مهمة زهير انتهت باسترداد العرب للقيروان ، والثأر من كسيلة الذي ترصد لصاحبه عقبة وقتله . وكان زهير يزهد في الإمارة . لذلك آثر العودة إلى مصر ^(٤) .

ويتفق المؤرخون على أن زهير بن قيس لم يصرعه في برقة ، ولكنهم

(١) المالكي ، ص ٣٠

(٢) الاستقبا ، ص ٩١

(٣) المالكي ، ص ٣٠ — ابن عذارى ، ص ٣٢

(٤) المالكي ، ص ٦٠

يختلفون في التفاصيل ، فان ابن عبد الحكم يذكر أنه أقام بمصر ، واتفق أن أغار الروم على أنطابلس (برقة) ، واستولوا عليها ، فبلغ عبد العزيز ابن مروان ذلك ، فأرسل في طلب زهير ، وأمره بالخروج لمحاربة الروم ، غير أنه لم يجتمع لزهير من أصحابه إلا سبعون رجلا ، سار بهم إلى برقة ، فلما وصل إلى درنة من طبرق باقليم أنطابلس ، لقي الروم وهو في سبعين رجلا ، فتوقف حتى يتمكن من جمع بعض المسلمين في هذه النواحي لمحاربة الروم ، ولكن الروم لم يملوه ، فلقاهم ، واستشهد هو وأصحابه جميعا في سنة ٧٦ هـ . وبضيف ابن عبد الحكم أن رجلا من مذحج يقال له عطية بن يربوع كان مقيا ببلدة أملس من برية أنطابلس ، استغاث بجأسة من المسلمين ، فاجتمع إليه سبعائة رجل ، زحف بهم إلى الروم ، فقاتلهم ، وهزمهم ، فركبوا سفنهم ولوا هارين (١) .

هذه الرواية ينفرد بها ابن عبد الحكم ، وتتضمن خلطا بين أعمال حسان ابن النعمان وأعمال زهير ، فتجعل إغارة الروم على أنطابلس بعد عودة حسان بن النعمان إلى دمشق ، وتشير إلى أن زهير عاد مع حسان من إفريقية ، فاستقر بمصر إلى أن أمره عبد العزيز بن مروان بالانحوض إلى الروم ، ولو أن ذلك كان صحيحا ، لكان عبد العزيز قد أمده بجيش كبير لمقاتلة الروم . ولكن زهير - وفقا لهذه الرواية - لم يجمع أكثر من سبعين رجلا ، وأنه اختلف مع عبد العزيز بن مروان ، ومضى برجاله السبعين لملاقاة الروم ، وهذا لا يمكن اعتباره إلا عملا انتحاريا من جانب زهير . ثم إن تاريخ مقتل زهير وفقا لهذه الرواية (سنة ٧٦) غير صحيح لأن هذا التاريخ يسجل عودة

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٨٢ - ٨٤

حسان بن النعمان من إفريقية إلى برقة في معظم المصادر .

وتتفق معظم المصادر العربية : على أن زهير « رحل إلى المشرق في خلق عظيم ، فبلغ الروم خروجه من إفريقية إلى برقة ، فأمكنهم ما يريدون ، فخرجوا إليها في مراكب كثيرة ، وقوة عظيمة ، فأغاروا على برقة ، فأصابوا فيها سبيا كثيرا ، وقتلوا ونهبوا . ووافق ذلك قدوم عسكر زهير إلى برقة من إفريقية ، فأخبر زهير بخبرهم . فأمر عسكره بالمسير إلى الساحل طمعا في أن يدرك سبي المسلمين فيستنقذهم . فأشرف على الروم ، وإذا هم في خلق عظيم ، فلم يقدر على الرجوع ، وقد استغاث به المسلمون وصاحوا ، والروم يدخلونهم المراكب ، فنادى بأصحابه النزول ، فنزلوا ، وكانوا أشراف العابدين ، ورؤساء العرب المجاهدين ، أكثرهم من التسابغين . فنزل الروم إليهم ، وتلقوهم بعدد عظيم ، والتحم القتال ، وتكاثرت عليهم الروم ، فقتل زهير - رضه - وأشراف من كان معه من العرب ، ومضى المسلمون إلى دمشق ، فدخلوا على عبد الملك بن مروان ، فأخبروه أن أميرهم وأشراف رجالهم قد استشهدوا . فعظم ذلك عليه ، لفضل زهير ودينه ، وكانت مصيبتهم مثل مصيبة عقبة قبله » (١) .

ونعتقد أن هذه الرواية أقرب إلى الحقيقة ، فإن الروم كانوا يضمرون لزهير السوء لقضائه على حليفهم كسيلة ، ومن معه من بربر أوربة البرانس ، الذين كانت تربطهم بهم روابط وثيقة من الحلف ، فلما علموا برحيله من القيروان ، قطعوا عليه الطريق عند برقة بحشود ضخمة ، ولم يكن مع زهير من العسكر إلا عدد قليل من أشراف العرب ، كان يزعم العودة بهم إلى مصر ، ولم يجد

(١) ابن عذارى ، ص ٣٣ - ورواية المالكى قريية من رواية ابن عذارى .

زهير بدا من الالتحام معهم ، فقتل ، وقتل معظم من كان معه من أشراف العرب . فمقتل زهير تم إذن بتدبير من الروم . وهكذا اختتم زهير بن قيس حياته شهيدا ، بعد أن قضى على مقاومة بربر أوربة البرانس . وكانت مهمة خلقه حسان بن النعمان أن يثار أولا لمقتل زهير ، فيبادر بمهاجمة وكرهم في قرطاجنة .

ج - حملة حسان بن النعمان الأولى ، وتخريب قرطاجنة :

لما استشهد زهير بركة اضطربت بلاد المغرب من بعده ، واضطربت فيها نار الفتن ، وافترق أمر البربر ، وتعدد سلطانهم في رؤسائهم ، وكان من أعظم زعماء البربر وقتئذ الكاهنة الزناتية الجراوية « صاحبة جبل أوراس » التي سنتحدث عنها بعد قليل . وانقضت بعد ذلك أربع سنوات توقف فيها الفتح . لانشغال عبد الملك بن مروان بالقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز ، فقد تصادف بعد مقتل زهير ، أن نزل الجراجمة الذين كانوا يسكنون فيما بين مدينتي بياس وبوقاس بجبل اللكام^(١) بايعاز من البيزنطيين ،

(١) هي سلسلة الجبال الممتدة من أنطاكية شمالا ، وهي تعرف اليوم بجبال العلويين (عجاج نويهض ، لحم والمردة ، بيروت ١٩٦٢ ص ١٧) . والجراجمة على حد قول الأستاد عجاج نويهض ، اعلمهم بقية من الحثيين بقوا في هذه المنطقة الجبلية بعد اندثار دولتهم ، وكانوا على النصرانية كالردة في شرقي الأناضول ، وتربطهم بالروم روابط وثيقة . وقد ظل الجراجمة بعد فتح العرب لبلاد الشام يتجسسون حينا للعرب على الروم وأحيانا لبيزنطة على العرب ، فلما قدم المردة إلى الجراجمة ، ألّفوا عصابات كانت تروح على الجبال من اللكام إلى لبنان وفلسطين ، وكانوا يستغلون فترات الفتن في الدولة العربية فيغيرون دلي الشام (نفس المرجع ص ١٧ ، ١٨) . ويجعل الدكتور فليب حتى من المردة والجراجمة شعبا واحدا ، ويذكر أنهم كانوا شوكة في جانب الدولة العربية يمدون الروم من معانهم في جبل =

على لبنان^(١) في سنة ٧٠ هـ ، في الوقت الذي خرج فيه عبد الملك بن مروان لمحاربة زفر بن الحارث الكلبي بقرقيسياً وبلاد الرحبة يبغي استزاله ، بعد أن استخلف على دمشق عمرو بن سعيد بن العاص . فاستغل عمرو فرصة غياب عبد الملك ودعا الناس إلى بيعته بدمشق وتحصن داخل أسوارها ، فاضطر عبد الملك إلى الرجوع ، وحاصر دمشق ، ودخلها . وقتل عمرا^(٢) . ثم شغل عبد الملك بعد ذلك باجلاء الجراجمة من لبنان والشام ، وخرج في سنة ٧٢ هـ لمحاربة مصعب بن الزبير ، واصطدم مع جيش مصعب في دير الجائليق ، في ١٥ جمادى الأولى من تلك السنة ، وانتهت الموقعة بمقتل مصعب ، وهزيمة جيشه^(٣) . وعهد عبد الملك وهو في الكوفة إلى الحجاج بن يوسف الثقفي بالتوجه إلى مكة على رأس جيش كبير لمحاربة ابن الزبير ، وعاد هو إلى دمشق ونجح الحجاج في دخول مكة ، وقتل ابن الزبير في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ .

وكان عبد الملك يعتقد أن إفريقية لا يمكن أن تفتح فتحة منظماً ثابتاً إلا إذا أعد لذلك جيشاً ضخماً مسلحاً بكل أنواع الأسلحة والمعدات ، ولم يكن ذلك مهيئاً له وهو يحارب في جبهات متعددة ، فلما انتهى من القضاء على عبد الله بن الزبير ، أخذ يتفرغ لشؤون المغرب . ويذكر المالكي أنه جهز

== الاسكاف وطوروس بالرجال والجنود غير النظاميين . ويذكر أيضاً أن هؤلاء الجراجمة سبوا للدولة الأموية متاعب كثيرة (أنظر تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ترجمة كمال اليازجي ، بيروت ١٩٥٩ ص ٥٢-٥٤ ، لبنان في التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريجة ، بيروت ١٩٥٩ ص ٢٩٨-٢٩٩)

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، قسم ١ ص ١٩٠

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ١١٢

(٣) نفس المرجع ، ص ١١٧

لهذا الغرض جيشا عدته ستة آلاف مقاتل^(١)، وجعل على قيادة هذا الجيش قائداً قديرأ هو حسان بن النعمان الغساني. وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ سير هذه الحملة إلى إفريقية، فابن عبد الحكم يحدد لها سنة ٧٣ هـ^(٢)، وابن الأثير يحدد لها عام ٧٤ هـ^(٣)، ويؤيده في ذلك ابن خلدون^(٤). أما ابن عذاري، فقد حدد لهذه الحملة سنة ٧٨ هـ^(٥). ويرجع سبب هذا الاختلاف، إلى أن المؤرخين العرب يخلطون بين تاريخي حملتين قام بهما حسان، الأولى سنة ٧٤ هـ، والثانية سنة ٧٨ هـ.

لما اختار عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان قائداً على جيوش إفريقية، أمره بالإقامة مع عسكره باديء ذي بدء في مصر. فأقام بها بعض الوقت حتى انتهى عبد الملك من مشكلة ابن الزبير، فكتب إليه بأمره بالسير إلى إفريقية، وقال له: «إني قد أطلقت يدك في أموال مصر، فاعط من معك ومن ورد عليك، واعط الناس، واخرج إلى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه^(٦). فخرج حسان إلى إفريقية في جيش هائل لم يسبق أن دخل المسلمون قطر إفريقية بمثل هذا العدد من عسكر حسان. وفي إفريقية انضم إلى هذا الجيش الكثيف عدد آخر من المسلمين البربر يقودهم هلال بن ثروان اللواتي، تضخم بهم جيش حسان، وكان حسان يهدف قبل كل شيء إلى

(١) المالكي، ص ٣٤

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٧٦

(٣) ابن الأثير، السكامل، ج ٤، ص ١٧٩

(٤) ابن خلدون، المعبر، ج ٤، ص ٨٧

(٥) ابن عذاري، ج ١، ص ٣٤

(٦) ابن عذاري، ص ٣٤

محاربة الروم في عاصمتهم قرطاجنة ، ويذكر ابن عذارى أنه لما وصل إلى القيروان سأل أهل إفريقية : « من أعظم الملوك بها قدراً ؟ فقالوا : صاحب قرطاجنة ، دار ملك إفريقية » . فسار حسان حتى نزل بالقرب منها . ويذكر المالكي أنه نزل في ترشيش على شاطئ البحر ^(١) ، وترشيش هو الموضع القديم لمدينة تونس ، ولما افتتحها المسلمون ، وأحدثوا البناء بها سموها تونس ^(٢) . وكان بقرطاجنة من الروم عدد كبير لا يحصى كثرة ، ونجح حسان في إيقاع الهزيمة بهم ، وحاصر قرطاجنة حصاراً شديداً من البر ، ويبدو أيضاً أنه أحكم حصارها من البحر حتى يمنع عنها الإمدادات ، حتى افتتحها ، وفر معظم من كان بها من الروم في مراكبهم إلى صقلية والأندلس ، وتعرض من بقي منهم فيها لسيوف المسلمين . ولاحظ حسان أن هذه المدينة أصبحت تشكل خطراً دائماً على الفتح العربي لإفريقية ، فرأى ضرورة تهديمها ، فأمر بتخريب عمرانها ، فحرب حتى صارت كأمس الغابر ، ^(٣) وقطع القناة عنها ^(٤) .

وعلم حسان بعد ذلك أن الروم جمعوا شتاتهم ، وانضمت إليهم جماعات من البربر المواليين لهم ، اختشدت حشودهم في بلاد صطفورة ^(٥) ، فزحف إليهم بكامل جيشه ، واشتبك معهم في قتال عنيف ، انتصر فيه عليهم انتصاراً

(١) المالكي ، ص ٣١

(٢) الإدريسي ، ص ١١١

(٣) ابن عذارى ، ص ٣٥

(٤) المالكي ، ص ٣٢

(٥) ذكر الإدريسي أن إقليم سطنورة يتصل بأرض قرطاجنة من جهة الغرب ، وهو إقليم جليل ، به ثلاث مدائن هي بالترتيب من الشرق إلى الغرب : اشلوثة وتينجة وبثرت (الإدريسي ص ١١٤)

حاسما ، وسحق قواتهم سحقا ، وأذرع فيهم فاستأصلهم ، « ثم حمل عليهم أعنة خيله ، فما ترك من بلادهم موضعا إلا وطئه » ، ولجأ الروم هاربين خائفين إلى مدينة باجة ، فتحصنوا بها ، وهرب البربر إلى إقليم بونة (١) ، ثم عاد حسان بعد ذلك إلى القيروان .

وأقام حسان بالقيروان بعض الوقت حتى برئت جراح أصحابه ، فتأهب لمواجهة المشكلة الثانية ، وهي مشكلة بربر البتر الذين اجتمعوا حول زعيمة لهم تعرف بالكاهنة . ويقال لها داهية بنت ماتية بن تيغان ملكة جبل أوراس ، وقد سأل حسان جماعة مسلمي البربر عنها فذكروا له « أن جميع من بافريقية منها خائفون ، وجميع البربر لها مطيعون ، فان قتلتها دان لك المغرب كله ، ولم يبق لك مضاد ولا معاند » (٢) . ولم يتردد حسان في السير نحو حشود الكاهنة ، فلما علمت بذلك سبقتها إلى مدينة باغاية ، فأجلت عنها الروم ، وهدمتها ظنا منها أن حسان يريد الاستيلاء عليها والتحصن فيها ، أما حسان فنزل بوادي مسكيانة (٣) المعروف بوادي العذارى . وزحفت الكاهنة حتى دنت من معسكر المسلمين ، والتقى الجيشان على الأرجح في سنة ٧٥ هـ في قتال شديد أسفر عن هزيمة جيش حسان ، وأسر من أصحابه

(١) المالكى ، ص ٣٢ - ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ١٨٠ - ابن عذارى

ن ٣٥ - السلاوى ، ص ٩٢

(٢) المالكى ، ص ٣٢ - ابن عذارى ، ص ٣٥

(٣) يسميه ابن عبد الحكم بنهر البلاء (ص ٧٦) ، ويسميه ابن الأثير نهر نيني

أسد الغابة ، ج ٤ ص ١٤٤ ، ويسميه عبيد الله بن صالح وادى ترضى (نهر عبيد الله

ن ٢٢٢) . ويذكر البكرى أن قرية مسكيانة تقع على نهر قريبا من باغاية (البكرى ،

ن ٥٠) . ويذكر الإدريسي أن هذه القرية عامرة قديمة أزلية وبها زروع وكاسب وعيون ،

نهرها تقع بين سبيبة وباغاية (الإدريسي ، ص ١١٩)

ثمانين رجلا . فتراجعت فلول جيشه في منطقة الجسر يد ، وأتبعها حشود الكاهنة حتى تجاوز فل المسلمين بقيادة حسان مدينة قابس منسحبا إلى برقه . وهكذا تراجع جيش حسان إلى برقة ولكن بعد أن استخلف على إفريقية رجلا يسمى أبو صالح ^(١) . أما الكاهنة ، فلم تتعرض للقيروان بسوء ، ولم تدخلها ، وإنما عادت إلى جبل أوراس . وعملت الكاهنة على القضاء على مظاهر العمران بإفريقية اعتقادا منها بأن العرب إنما يسعون وراء العمران حيث الذهب والفضة ، فوجهت قومها إلى كل ناحية من بلاد إفريقية والمغرب ينتسفون المزارع ويهدمون الحصون ، فبعد أن كانت إفريقية ظلا واحدا من إطرابلس إلى طنجة قرى متصلة ، ومدنا منتظمة ، تلاشى ذلك كله ، وشمل الخراب سائر هذه البلاد ^(٢) . إلا أن ذلك التدمير والتخريب أضر بالكاهنة ضرراً بالغاً ، فقد انقض عنها معظم أنصارها من النصارى والأفارقة ، واتصل عدد كبير منهم بخسان يستنجدون به من الكاهنة . وكان البيزنطيون بعد سقوط قرطاجنة في أيدي المسلمين ، ينتظرون فرصة مواتية يستردون بها هذه المدينة ، فانتهاز الامبراطور ليونتيوس فرصة انتصار الكاهنة على العرب ، وأعد حملة بحرية بقيادة البطريق يوحنا ، أغارت على قرطاجنة في سنة ٧٨ هـ ، وقتل البيزنطيون من بها من المسلمين ، وسلبوا ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم ^(٣) .

وكانت الكاهنة قد أسرت بعد انتصارها على المسلمين في وادي مسكيانة

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٦

(٢) ابن عذاري ، ص ٣٦

(٣) البكري ، ص ٣٨ — Ch. Diehl & Marcais, Histoire du moyen

نحو ثمانين رجلا من أشرف العرب ، أفرجت عنهم بعد انسحاب حسان من إفريقية ، وانتثنت منهم رجلا واحدا هو خالد بن يزيد العيسى ، أعجبت بشجاعته ووسامته ، فرغبت في أن تتبناه ، وكان لها ولدان : أحدهما بربري والآخر يوناني ، « فعمدت إلى دقيق الشعير فلقته بزيت ، وجعلته على ثديها ، ودعت ولديها وقالت : كلا معه على ثديي ، ففعلا ، فقالت ، قد صرتم أخوة » (١) :

د - حملة حسان الثانية:

أقام حسان بركة منتظرا للامدادات التي وعده الخليفة عبد الملك بارساها إليه لاسترداد إفريقية ، فأسس هناك قصورا ، كانت تعرف في أيام ابن عذارى باسم قصور حسان (٢) ، وكانت انطابلس ولوية ومراقية إلى حد أجدابية من عمله (٣) . وكان حسان على اتصال دائم بخالد بن يزيد ، فكانت الكتب تردد بينها سرآء ، إذ كانا يحرصان على إخفاؤها عن الكاهنة أورجالها ، إما في شقق الخبز أو في القرايبس ، ولا شك أن حسان أفاد من الأخبار التي زوده بها خالد بن يزيد عن طريق كتبه إليه ، في معرفة أحوال الكاهنة ، وخططها في الحرب . وكان حسان أثناء إقامته ببرقة ، يلح على عبد الملك بأن يمهده بجيش كبير ليستعيد به إفريقية ، ويحتفظ المسلمون بها نهائيا ، ولكن عبد الملك رأى ألا يغامر من جديد في المغرب حتى ينتهي تماما من القضاء على ثورات البربر والأزارقة والصفريّة ، وكان قد سخر لهذا الغرض كل إمكاناته ، ونجح واليه الحجاج بن يوسف في القضاء أولا على الأزارقة

(١) المالكي ، ص ٣٤ - ابن عذارى ، ص ٣٧

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٧٦ - ابن عذارى ، ص ٣٦

(٣) ابن عبد الحكم ، نفس الصفحة

سنة ٧٧ هـ ، ثم تمكن أخيراً ، وبعد معارك طاحنة ، خاضها مع الخوارج من القضاء على الصفرية في حدود سنة ٧٨ هـ . وبذلك أخذ عبد الملك يتفرغ من جديد لشؤون المغرب . ويذكر المالكي أن حسان أقام ببرقة زهاء ثلاث سنين ^(١) ، إلى أن وصلته الإمدادات التي بعثها إليه عبد الملك ، بينما يذكر ابن عذاري أنه أقام بها خمس سنين ^(٢) . وأغلب الظن أن عبد الملك أمده في سنة ٨٠ هـ ، أي بعد مضي خمس سنوات على انسحاب الجيش العربي من إفريقية ، بجيش ضخم للغاية ، عدته أربعون ألف مقاتل ^(٣) ، لم تشهد إفريقية جيشاً يماثله ضخامة وعدداً . واعتقد أن المؤرخين اختلط عليهم أمر هذه الحملة ، فنسبوا هذا العدد الضخم إلى الحملة الأولى التي قادها حسان ضد الروم . ولو افترضنا أن حملة حسان الأولى كانت تضم أربعين ألفاً ، لما كان من المعقول أن ينهزم هذا الجيش على أيدي رجال الكاهنة . ولو لم يكن جيش حسان الثاني يمثل هذا القدر العظيم لما تنبأت الكاهنة بزوال ملكها ومقتلها بيد حسان مقدما ^(٤) . ولا شك أن ضخامة هذا الجيش كان نتيجة انضمام البربر إلى العرب في محاربة الكاهنة ، فان ابن عذاري يذكر « أنه كان مع حسان جماعة من البربر استأمنوا إليه ، فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من

(١) المالكي ، ص ٣٣

(٢) ابن عذاري ، ص ٣٦

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٤

(٤) ذكر ابن عبد الحكم ، أنه لما أقبل حسان من برقة لغزو الكاهنة ، خرجت ناشرة شعرها ، فقالت : يا بني أنظروا ماذا ترون في السماء ؟ قالوا نرى شيئاً من سحب أحمراً ، قالت لا وإلهي ولكنها رهج خيل العرب ، (ابن عبد الحكم ، ٧٨ — وقد ذكر المالكي ذلك أيضاً ص ٣٤)

قبائلهم اثني عشر ألفا يجاهدون مع العرب ، فأجابوه وأسلموا على يديه»^(١) ،
وذكر المالكي إنه كان مع حسان جماعة من البربر يقال لهم البتر^(٢) .

ما كادت الكاهنة تعلم بقرب وصول حسان بجيشه إلى إفريقية حتى رحلت
من جبل أوراس ، بعد أن أوصت خالد بن يزيد بأن يصحب ولديها ، ويستأمن
لها عند حسان ، فأمنها ، أما هي فقررت أن تقاتل حتى الموت . وزحف
حسان بكامل قواته لمقاتلة الكاهنة ، فلما وصل قريبا من قابس « لقيته الكاهنة
في جيوش عظيمة ، فقاتلهم حسان ، فهزمهم الله عز وجل ، وهربت الكاهنة
تريد قلعة بشر ، تتحصن بها ، فأصبحت القلعة لاصقة بالأرض ، فهربت
تريد جبل أوراس ، ومعها صنم عظيم من خشب كانت تعبد به ، يحمل بين
يديها على جمل ، فتبعها حسان حتى قرب من موضعها^(٣) . وما زال حسان
يطاردها حتى التقى بجيشها في سنة ٨٢ هـ عند بر الكاهنة^(٤) . فهزمها
هزيمة شنعاء ، وسحق جيشها ، وقتلها ، وبذلك قضى حسان على كل أثر
للمقاومة في المغرب الأدنى ، واستقامت له البلاد . فاتجه إلى قرطاجنة للمرة
الثانية لتطهيرها من البيزنطيين ، فاضطر هؤلاء إلى الفرار بحرا^(٥) ، واسترد
حسان المدينة^(٦) ، ولكنه كان يخشى أن يفاجأه الروم من البحر مرة أخرى ،

(١) ابن عذاري ، ص ٣٨ — المالكي ، ص ٣٦

(٢) المالكي ، ص ٣٥

(٣) المالكي ، ص ٣٥

(٤) عبيد الله بن صالح ، ص ٢٢٣

(٥) ذكر البكري أن أهلها كانت عند سفن معدة من ناحية باب النساء فحملوا فيها
أموالهم وأولادهم وهربوا ليلا ، ولم يبق فيها غير مرزاق صاحبها (البكري ، المغرب ،
ص ٣٧ — أنظر أيضا المالكي ، ص ٣٧)

(٦) Ch. Diehl, op. cit p. 207 — حسين مؤنس ، ص ٢٦٠

فرأى أن يقيم ثجاء قرطاجنة مدينة عربية إسلامية ، تقع على البحر ، وتشرف على مدخل قرطاجنة ، فبنى تونس على بعد نحو ١٢ ميلا شرق قرطاجنة ، وكان يصلها بها طريق روماني قديم . وتونس هذه هي ترشيش القديمة ، ولم تكن تزيد عند بنائها عن قرية صغيرة ، فحولها حسان إلى قاعدة بحرية تفلح منها الأساطيل ، وأنشأ بها داراً لصناعة الأسطول^(١) ، وأخرق إليها البحر ، وحفره إليها ، وبذلك أصبحت ميناء بحرياً هاماً ، وشيد فيها مسجداً جامعاً^(١) وداراً للامارة وثكنات للجند للرباطة . وقدر لهذه المدينة الصغيرة أو المحرس البحري أن تصبح أعظم ثغور إفريقية بعد ذلك بثلاثين عاماً ، على يد عبيد الله بن الحبحاب ، فقد نمت واتسع عمرانها ، وأقبل إليها الناس يستوطنونها ، وأقيم فيها مسجد جامع ، هو الجامع المعروف بالزيتونة ، وقد سمي كذلك نسبة إلى القديسة زيتونة التي عاشت في زمن الوندال . كذلك أمر حسان بتجديد المسجد الجامع بالقيروان ، فبناه بناء حسناً ، وجده في شهر رمضان سنة ٨٤ هـ (٣) . وذكر البكري ، أنه هدم المسجد الذي بناه عقبة « حاشى المحراب » وبناه ، وحمل إليه الساريتين الحمراءين الموشاتين بصفرة ، اللتين لم ير الراءون مثلها ، من كنيسة كانت للأول في الموضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق المغرب « (٤) .

(١) المالكي ، ص ٣٨ . أرسل عبد العزيز بن مروان الى حسان ألف قبلى بأهله وولده الى ترشيش وأمره بأن يبنى لهم دار صناعة يصنع فيها المراكب ويجهز الروم في البر والبحر ، وأن يضار منها على ساحل الروم فيسفلهم ذلك عن مهاجمة القيروان (البكري ، ص ٣٨)

(٢) المالكي ، ص ٣٧

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٧

(٤) البكري ، ص ٢٢

وبعد أن فرغ حسان من استرداد إفريقية ، والقضاء على مقاومة البربر والروم ، أخذ يوجه عنايته لتنظيم البلاد إداريا على نحو ما فعله العرب في مصر والشام والعراق وفارس ، فدون الدواوين ، ونظم الخراج ، وكتبه على عجم إفريقية ، وعلى من أقام معهم على دين النصرانية « (١) . ثم بعث عماله على سائر بلاد المغرب ، وعمل على نشر الدين الاسلامي بين البربر ، فوزع الفقهاء إلى سائر أنحاء البلاد لتعليم البربر قواعد الدين ، ونشر اللغة العربية لغة القرآن ، فأقبل البربر على الإسلام في جماس منقطع النظر ، وحسن إسلامهم (٢) ، فوجد حسان منهم أجناده حتى أصبح أكثر جيشه من البربر ، ووزع بينهم الخطط على نحو ما كان يفعله قواد الفتوحات في مصر على الفاتحين العرب ، وكان حسان يقسم الفىء والأرض بينهم (٣) .

وهكذا فتح حسان بلاد المغرب حربيا ومعنويا في آن واحد ، واستطاع أن يحول إفريقية قلبا وقالبا إلى ولاية عربية إسلامية ، مستقلة نوعا ما عن والى مصر . ويبدو أن نزاعا حدث بينه وبين عبد العزيز بن مروان ، والى مصر من قبل أخيه عبد الملك بن مروان ، بسبب ذلك . فأخذ عبد العزيز يضيق عليه ، ويحد من سلطاته ، ويكف يده عن إتمام ما شرع فيه من إصلاحات ، ثم عزله عن ولاية إفريقية في سنة ٨٥ هـ . ويرجع سبب هذا النزاع إلى رغبة عبد العزيز في الاستئثار بغنائم المغرب لنفسه ، وذلك باستعمال أحد أتباعه بدلا من حسان ، وقد حاول حسان أن يتجنب الاحتكاك

(١) ابن عذارى ، ص ٣٨

(٢) ابن عذارى ، ص ٣٨ — السلاوى ، ص ٩٤

(٣) المالكي ، ٣٦

بعبد العزيز ، فلما شرع حسان في تأسيس مدينة تونس ، اتصل بعبد الملك ابن مروان مباشرة يطلب منه أن يزوده بجماة من الأقباط ليستخدمهم في تأسيس دار للصناعة ، فكتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز بأمره أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطن بأهله وولده وأن يحملهم من مصر ، ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش ، وهي تونس .

هـ - موسى بن نصير واستكمال فتح المغرب :

عاد حسان إلى مصر يجر وراءه ماغنمه في فتوحاته وغزواته ، وكان قد أخفى الجوهر والذهب والفضة في قرب الماء ، وأظهر ما سوى ذلك من أمتعة ودواب ورقيق وأموال ، فصادها عبد العزيز بن مروان في مصر . فلما وصل حسان إلى دمشق ، شكاً للخليفة ما صنع به عبد العزيز ، وأفرغ له ما كان قد أخفاه عن عبد العزيز من جوهر ، فغضب الخليفة على عبد العزيز وأبدى استعداداً لرد حسان إلى عمله على إفريقية ، فأبى حسان منه ذلك ، وأقسم قائلاً : « لا أولى لبني أمية أبداً ^(١) » :

وكان عبد العزيز بن مروان قد ولي موسى بن نصير على إفريقية بدلا من حسان ، وذلك في أواخر سنة ٨٥ هـ ، وكان موسى بن نصير عاملاً لعبد الملك بن مروان على العراق مع بشر بن مروان أخى الخليفة ليكون له وزيراً ومشيراً ، وكان موسى هو المأخوذ بكل خلل وتقصير في ديوان العراق . ثم أخذ عليه عبد الملك عدة ما أخذ ، وكتب إليه الحجاج من

(١) ابن عذارى ، ص ٣٩ . لاشك أن ابن عذارى أخطأ في اسم الخليفة ، فذكر

الوليد بدلا من عبد الملك . ولكن من المعروف أن عبد الملك توفي في أول سنة ٨٦ هـ ،

أي أن حسان عزل من إفريقية قبل وفاة عبد الملك بما يقرب من ستة أشهر

العراق يقول : « يا أمير المؤمنين ، إنه لا قدر لما اقتطعه موسى بن نصير من أموال العراق ، وليس بالعراق فابعث به إلى » (١) . فتوجه موسى إلى بلاط الخليفة بدمشق ، وتصادف وجود عبد العزيز بن مروان ، الذي وفد إلى دمشق ومعه أموال مصر ، وكانت لموسى يد عظيمة عند عبد العزيز بن مروان ، فأدخله علي عبد الملك . وذكر بعض المؤرخين أن عبد الملك أراد قتل موسى ، (٢) فافتداه منه عبد العزيز بن مروان بمال (٣) . وقيل أن عبد الملك أغرم موسى مائة ألف دينار ، فأعانه عبد العزيز بخمسين ألفاً ، أدى هو خمسين ألفاً في ثلاثة أشهر (٤) . وعاد موسى مع الأمير عبد العزيز إلى مصر ، فولاه منها إفريقية (٥) ، وأمدّه بجيش سار به إلى المغرب . ولما علم عبد الملك بتولية موسى بن نصير على المغرب ، استاء استيلاء كبيراً ، وأنكر على عبد العزيز ذلك ، وهم بعزل موسى ، لسوء رأيه فيه ، ثم رأى ألا ينقص ما فعله أخوه عبد العزيز ، فأقره على ولاية إفريقية مرغماً ، وأوصى أخاه بحسان خيراً (٦) .

فلما قدم موسى بن نصير إلى إفريقية ، وشاهد جبالها ، جمع المسلمين ، وخطب فيهم خطبة جاء فيها : « أيها الناس ، إنما كان قبلي على إفريقية

(١) ابن قتيبة الدينوري ، كتاب الامامة والسياسة ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص

٦٢ ، ٦٣

(٢) نفس المرجع ، ص ٦٣

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٨٤

(٤) ابن قتيبة ، ص ٦٤ — ابن عذارى ، ص ٤٠

(٥) ابن عبد الحكم ، ص ٨٤ — ابن عذارى ، ص ٣٩

(٦) ابن قتيبة ، ص ٦٨

أحد رجلين : مسلم يحب العافية ، ويرضى بالدون من العطية ، ويكره أن يكلم ، ويحب أن يسلم ، أو رجل ضعيف العقيدة ، قليل المعرفة ، راض بالهوينى ، وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر ، وأحسن النظر ، وخاض الفمر ، وسمت به همته ، ولم يرض بالدون من المغنم لينجو ، ويسلم دون أن يكلم ، أو يكلم ويبلغ النفس عذرها فى غير حرق يريده ، ولا عنف يقاسيه ، متوكلا فى حزمه ، جازما فى عزيمه ، مستزيدا فى علمه ، مستشيراً لأهل الرأى فى إحكام رأيه ، متحنكا بتجاربه ، ليس بالمتعاجن إقحاما ، ولا بالمتخاذل إحياما ، إن ظفر لم يزد الظفر إلا حذراً ، وإن نكب ، أظهر جلادة وصبراً ، راجيا من الله حسن العاقبة ، فذكر بها المؤمنين ، ورجاهم إياها لقول الله تعالى « إن العاقبة للمتقين » ، أى الحذرين . وبعد : فإن كل من كان قبلى كان يعمد إلى العدو الأقصى ، ويترك عدواً منه أدنى ، ينتهز منه الفرصة ، ويدل منه على العورة ، ويكون عوناً عليه عند النكبة ، وإيم الله لا أرى هذه القلاع ، والجبال الممتعة حتى يضع الله أرفعها ، ويدل أضعفها ، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جمعها ، أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين^(١) .

ومن هذه الخطبة ندرك السياسة الجديدة التى اصطنعها موسى بن نصير فى فتح المغرب ، وهى سياسة تتضمن عزماً أكيداً على فتح المغرب بالسيف والعنف مع اصطناع الحذر ، والبده بالعدو القريب قبل البعيد ، وعلى هذا الأساس نراه يبدأ بفتح قلعة زغوان وما يجاورها فى أواخر سنة ٨٥ هـ ، وهى منطقة جبلية تقع ما بين القيروان وتونس^(٢) ، وكان يسكن زغوان

(١) ابن قتيلة ، ص ٦٦

(٢) الإدريسى ، ص ١١٦

قوم من البربر ، يزعمهم أمير يقال له ورقطان ، وكانوا يشكون خطرا على القيروان ، إذ كانوا يغيرون على سرح المسلمين ويرصدون غرتهم ، فوجه إليهم موسى خمسمائة فارس بقيادة عبد الملك الخشيني ، فهزمهم وقتل أميرهم وافتتح قلعته ، فبلغ سبيهم يومئذ عشرة آلاف رأس ، وكان أول سبي دخل القيروان في ولاية موسى (١) .

ثم بعث ابنه عبد الرحمن . وقيل عبد الله ، إلى بعض نواحي القيروان ، فسبي مائة ألف رأس ، ثم وجه ابنه مروان إلى منطقة أخرى من إفريقية ، فسبي مثل ذلك ، فبلغ الخمس يومئذ ستين ألف رأس من السبي ، وبادر بالكتابة من فوره إلى عبد العزيز بن مروان يبشره بأول فتحه ، ويخبره بما وصل إليه الخمس من السبي ، فأعجب عبد العزيز بذلك ، وكتب إلى الخليفة بما ظفر به موسى ، حتى يغير رأيه فيه .

وكانت الخطوة التالية في فتوحات موسى أن بعث قائده عياش بن أخيل إلى قبائل هواره وزناتة (٢) ، فأغار عليهم ، وقتل منهم جماعات كثيرة ، وبلغ سبيهم خمسة آلاف رأس ، وكان من بين من أسره منهم أميرهم كمامون ، فبعث به موسى إلى عبد العزيز بن مروان في وجوه الأسرى ، فقتله عبد العزيز ولقد أرغمهم عياش بن أخيل على الصلح ، وقدم على موسى

(١) ابن قتيبة ، ص ٦٧ — ابن عذاري ، ص ٤٠

(٢) زناتة قبيلة من بربر البتر كانت عشائرها تنزل في إقليم المغرب الأوسط والإقليم الصحراوي الممتد جنوبي تونس ، وعلى سفوح أوراس والهضاب العليا . أما كتامة من البرانس ، فكانت تنزل في سهول الجزائر . وقبيلة هواره بطن من البرانس ، كان منها من ينزل في المنطقة المجاورة لطرابلس ، ومنها من ينزل في نواحي وهران .

بوجودهم رهائن عنده ، أما كتامة ، فقد صاحلت موسى ، فولى عليها رجلا منهم بعد أن قدموا إليه رهائن من خيارهم ^(١) . وكان موسى يبعث عيونه إلى القبائل ليتجسس عليها ، ويستقصي أحوالها ، ويذكر ابن قتيبة أن عيونه أبلغوه أن صنهاجة « بغرة منهم وغفلة ، وأن إبلهم تنتج ولا يستطيعون براجا ، فأغار عليهم موسى بأربعة آلاف من أهل الديوان ، وألفين من المتطوعة من قبائل البربر ، وخلف عياشا على أنقال المسلمين وعيالهم بظبية في ألقى فارس ، وعلى مقدمة موسى عياض بن عقبة ، وعلى ميمنته المغيرة ابن أبي بردة ، وعلى ميسرته زريعة بن أبي مدرك ، فسار موسى حتى غشى صنهاجة ومن كان معها من قبائل البربر وهم لا يشعرون ، فقتلهم قتل الفناء ، فبلغ سبيهم يومئذ مائة ألف رأس ، ومن الإبل والبقر والغنم والخيل والحارث والثياب ما لا يحصى ، ثم انصرف قافلا إلى القيروان » ^(٢) .

ثم أعاد موسى الكرة مرة ثانية على صنهاجة ، فغزا سجومة ، من المغرب الأوسط . وتفصيل هذه الغزوة أنه خرج من القيروان ، بعد أن استخلف عليها ولده عبد الله ، على رأس عشرة آلاف من المسلمين ، جعل على المقدمة عياض بن عقبة بن نافع ، وعلى الميمنة زريعة بن أبي مدرك ، وعلى الميسرة المغيرة بن أبي بردة القرشي ، وعلى ساقة الجيش نجدة بن مقسم ، فزحف موسى بكل جيشه غربا حتى وصل إلى نهر ملوية ، وهناك اصطدم مع ملكهم ، فقتله وسبي ذراريهم ، وحمل من مدينة سجومة بنات كسيلة ^(٣) ، ثم بعث

(١) ابن قتيبة ، ص ٧٠ - ابن عذاري ، ص ٤١

(٢) ابن قتيبة ، ص ٧٠

(٣) عبيد الله بن صالح ، ص ٢٢٤

موسى إلى عياض وعثمان وعبيدة، بنى عقبة، وأذن لهم بالتشفي من قتلة أبيهم عقبة، فقتل منهم عياض ستمائة رجل من خيارهم، وكان يود قتل المزيد لولا أن أمره موسى بالتوقف عن ذلك^(١). ثم عاد إلى القيروان، بعد أن دانت له بلاد المغرب الأوسط.

ثم غزا موسى في البحر في آخر سنة ٨٥ هـ، الغزوة المعروفة بالأشراف، وصل فيها إلى صقلية، وعاد بغنائم كثيرة^(٢) في أوائل سنة ٨٦ هـ، فبلغه وفاة عبد العزيز بن مروان في جمادى الآخرة سنة ٨٥ هـ، وفاته عبد الملك ابن مروان في أول سنة ٨٦ هـ، فبعث موسى ببيعته إلى الوليد، فكتب الوليد إلى موسى بن نصير يقر له بولاية إفريقية والمغرب.

وفي سنة ٨٦ هـ، عقد موسى لعياش بن أخيل على المراكب، فشتا في البحر، وأصاب سرقوسة، كما أصاب عبد الله بن مرة سردانية، وافتتح مدائنها في نفس السنة^(٣). وكان المغرب قد فتح معظمه، ولم يبق منه سوى المغرب الأقصى، فخرج موسى غازيا من إفريقية إلى طنجة، فوجد البربر قد فروا إلى أقصى الغرب خوفا من بطش العرب بهم، فتبعهم موسى على جيش مؤلف من وجوه العرب ومن اتصف من البربر بالقوة والجلد، فقتل منهم بأقليم مورطانية عددا كبيرا، وسبى منهم سبيا كثيرا^(٤). وما زال يفتتح قلاع البربر ومعاقلهم حتى بلغ السوس الأدنى، وهو بلاد درعة^(٥)، وأرسل

(١) ابن قتيبة، ص ٧٢

(٢) نفس المرجع ص ٧٥

(٣) نفس المرجع — ابن عذارى، ص ٤٢

(٤) ابن عذارى، ص ٤٢

(٥) نفس المرجع

ابنه مروان إلى السوس الأقصى في سنة ٨٨٧هـ. وكان ملك البربر في ذلك الحين رجلا يعرف باسم مزدانة الأسواري، فاشتبك جيش مروان مع جيش البربر في قتال عنيف أسفر عن هزيمة أهل السوس هزيمة نكراء، وبلغ سبيهم في هذه الغزوة أربعين ألفا (١).

وأحدثت غزوات موسى هزة كبرى بين قبائل البربر، وسببت لهم الذعر والهلع، فأخذوا يستأمنون العرب على أنفسهم، ويستسلمون لهم، وتسابقوا في إعلان خضوعهم لهم، والدخول في طاعتهم، واعتناق الإسلام. وأقام موسى طارق بن زياد على طنجة وما والاها، وترك معه ١٧ رجلا من العرب يعلمون البربر القرآن وشرائع الدين الإسلامي، فتم إسلام أهل المغرب الأقصى على يد هؤلاء (٢). وأقام موسى أبا الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي التابعي قاضيا على القيروان، فكان أول من استقضى بها من المسلمين (٣).

وهكذا نجح موسى بن نصير في إخضاع بلاد المغرب كلها للإسلام، ولم تستعص عليه سوى مدينة سبتة لمناعتها، ووصول الإمدادات إليها من البحر، وكان يحكمها من قبل القوط يليان النصراني.

ونلاحظ أن موسى بن نصير كان يهتم في حروبه بما كان يجنيه من مغانم وسبايا، ولم يكن يحفل بعد ذلك بما كانت تثيره هذه الغزوات في

(١) ابن قتيبة، ص ٧٦.

(٢) عبيد الله بن صالح، ص ٢٢٤.

(٣) المالكي، ص ٧٢.

نفوس الوطنيين من سوء الظن ، وتأصل الحقد ، بل إن هذه السياسة التي اتبعها موسى نحو البربر أدت إلى غرس عوامل الحقد والكراهية للعرب في نفوسهم ، حتى لقد أصبح من العسير انتزاع هذا الشعور من نفوسهم . وإذا كان البربر قد قبلوا ذلك صاغرين ، فلاّتهم أرغموا على ذلك بقوة السلاح ، ولكن شعورهم أدى مع مضي الزمن إلى إقامة حواجز فاصلة بين العرب والبربر ، وإلى انحراف كثير من السكان إلى تقبل مذاهب ثورية انتقالية من خارجية وصفورية وشيعية^(١) . وقد يكون سبب إصرار موسى في غزوه لقبائل البربر ، واصطناعه العنف معهم ، رغبته في إرضاء الخليفة عبد الملك ابن مروان عنه بعد أن أساء به الظن ، فأخذ يقاتل البربر ويفتح مدائنهم وبلادهم ، وينزع البلاد من شرقها إلى غربها ، ويبعث بغنائمه إلى عبد العزيز ابن مروان والخليفة عبد الملك ، حتى زال ما كان يحمله الخليفة عليه في نفسه من ضغائن وأحقاد^(٢) .

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٧ وما يليها — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ص ٤٦ .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٨٦ .

الباب الثاني

المغرب الاسلامي في عصر الدولتين الاموية والعباسية

الفصل الثالث

المغرب في ظل الدولة الأموية

(١) فتح المسلمين للأندلس

أ - مقدمات الفتح

ب - الدور الذي قام به بربر المغرب في فتح الأندلس

ج - عودة موسى بن نصير إلى المشرق

(٢) ولاية المغرب بعد موسى بن نصير

أ - جهود محمد بن يزيد القرشي (٩٧-١٠٠هـ) وإسماعيل بن عبيد الله

(١٠٠-١٠١هـ) في نشر الإسلام

ب - سياسة الاستبداد مع البربر ونتائجها

ج - مقدمات ثورة البربر على العرب في المغرب

د - ثورة البربر في المغرب (موقعة بقدورة على وادي سبو سنة ١٢٤هـ)

هـ - ثورة البربر في الأندلس وقيام النزاع بين البلديين والشاميين

(٣) المغرب في السنوات الخمس الأخيرة من عصر الدولة الأموية

أ - فشل حنظلة بن صفوان في مواجهة الفتن في المغرب وخروجه

إلى المشرق .

ب - ثورات البربر في المغرب في ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهري

الفصل الثالث

المغرب في ظل الدولة الأموية

(١)

فتح المسلمين للأندلس

١ - مقدمات الفتح :

قلد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير ولاية إفريقية والمغرب سنة ٨٦ هـ، بعد وفاة عبد العزيز بن مروان ، وأصبح المغرب في هذا الوقت ولاية مستقلة عن مصر^(١) . ونجح موسى بن نصير في افتتاح المغرب كله ، ولم تستعص عليه سوى مدينة سبتة لمناعتها ، وشدة تحصنها ، واختلاف سفن القوط إليها بالميرة والإمدادات عن طريق البحر ، فلم يتمكن من التغلب عليها . وكان يحكمها من قبل القوط الغربيين^(٢) حاكم اسمه جوليان ، ويسميه العرب بليان النصراني أو وليان أو إليان^(٣) .

(١) ابن عذاري ، البيان، ج ١ طبعة بيروت ٣٥٥

(٢) ذكر صاحب أخبار مجموعة أن موسى بن نصير سار إلى مداين تقع على شاطئ البحر ، فيها عمال صاحب الأندلس وعلى رأسها سبتة (أخبار مجموعة في فتح الأندلس، نشره دون لافونتي القنطرة Lafuente Alcantra، مدريد ١٨٦٧، ص ٤

(٣) البكري ، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر ١٩١١ ص ١٠٤
E. Saavedra, Estudio Sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892, p. 48 - Lévi - Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, Leiden, 1950, t. I, p. 13.

وقد اختلفت المصادر العربية في شخصية يليان ، فبعضها يذكر أنه قوطي^(١) وبعضها يزعم أنه رومي^(٢) ، وبعضها ينسبه إلى بربر غمارة^(٣) . وأغلب الظن أن يليان كان حاكما عاما من قبل الدولة البيزنطية على ولاية مورطانية الطنجية ، وكانت تابعة لمورطانية القيصرية ، إحدى الولايات السبع الخاضعة للدولة البيزنطية ، بدليل أنه كان يحكم سبتة وطنجة عندما قام عقبة بحملته الكبرى إلى السوس الأدنى ، فلما عجزت الدولة البيزنطية عن حمايتها ، وات سبتة وجهها شطر إسبانيا القوطية^(٤) . والظاهر أن يليان المذكور تولى شئون هذا الإقليم في سن مبكرة ، وأنه أقام طويلا بأرض المغرب حتى توثقت علاقته بمن جاوره من قبائل البربر ، واستطاع أن يكتسب صداقة البربر له ، حتى أصبح ملما بشئونهم ، وأصبح يعد نفسه واحداً منهم ، لذلك اختلط الأمر على الناس فظنوه بربريا ، ومن هنا كان مرجع الرواية التي تنسبه إلى غمارة . أما علاقته بالدولة القوطية ، فرجعه أنه كان يتوجه بطلب المعونة إلى هذه الدولة ، لبعده مدينته عن بيزنطة ، واضطراب أحوال الدولة البيزنطية في هذه الفترة .

وحدث إبان الفتح العربي للمغرب ، في ولاية عقبة أن اغتصب لذريق

(١) ابن عذاري ، البيان ، ج ٢ ، طبعة بيروت ، ص ٢ ، ٣

(٢) ابن خلدون ، كتاب العبر ، طبعة بيروت (دار الكتاب اللبناني) ١٩٥٨ ،

ج ٤ ، ص ٢٥٣

(٣) السلاوي ، الاستقصا ، ج ١ ص ٩٧

(٤) ابن عبد المنعم الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، نشره إيني بروفنسال ، القاهرة

١٩٣٧ ص ٧

Rodrigo ، دوق باطقة وحاكمها بقرطبة ^(١)، عرش القوط بإسبانيا من أبناء غيطشة Witiza ، وأثار ذلك نقمة أنصار غيطشة وأبنائه عليه، فهبوا ضد هذا المعتصب المتصور الذي اتزعج الملك من البيت الشرعى لنفسه ، وبدأت حركة استقلالية فى أطراف البلاد ، ظلت مستمرة حتى دخول المسلمين أرقى الأنداس ، واشتعلت نيران الثورات فى طليطلة وغيرها ، وتعذر على وقلة Achila أن يتوجه إلى العاصمة بعد وفاة أبيه غيطشه ، واضطرت أمه، التى أرادت أن تضبط ملك أبيه ، إلى الفرار مع وأخواه أرتباس Artavasdes والمند Olmundo ، وعمه أبه Oppa أسقف إشبيلية ، والتجأ الجميع إلى جليقيه ^(٢) . وحاول وقلة أن يسترد عرشه ، فأعد جيشا بقيادة عمه ووصيه رخشندش Rechesindo ، فأسرع لذريرق بالسير على رأس جيش كثيف واشتبك مع جيش رخشندش، وهزمه فى موقعة كبرى قتل فيها الوصى، وتفرق أتباعه ^(٣) ويغلب على الظن أن وقلة فر إلى إفريقية بعد ذلك ، وأقام عند يلىان حاكم سبتة ^(٤) ، وكان ما يزال على ولائه للملك غيطشه وأبنائه . أما لذريرق فقد استبقى ولدى غيطشة الآخرين : وهما أرتباس والمند ، إلى جواره ، حتى يستوثق من إخلاصهما له ، ويقضى بذلك على الثورات الموالية لبيت غيطشة . وأمعن لذريرق فى مطاردة أنصار وقلة بالأذى ، فقرروا من إسبانيا، والتمسوا

(١) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Lévi - Provençal, Leyde, 1932, p. 70.

(٢) Lévi - Provençal, op. cit. t. I, p 7

(٣) البيان ، ج ٢ ص ٣ - Aguado Bløye, Manuel de la historia de Espana, t. I, Madrid, 1947, p. 355

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٩ - 54 Saavedra, op. cit.

سبل النجاة إلى أقصى الشمال ، أو إلى سبتة ، ولاذوا بحماية يليان الذي كان مخلصا للذريق . وبمساعدة يليان ، نجح هؤلاء اللاجئون في الاتصال بالعرب ، وحشوم على فتح الأندلس^(١) ، أملا في استرداد العرش لأمرهم وقلعة ، اعتقادا منهم أن العرب الطارقين للأندلس لمساعدتهم ، لن يكونوا في حاجة إلى استيطانه بعد افتتاحهم له ، وأن مرادهم لا يعدو ملأ أيديهم من الغنائم ، ثم يخرجوا عنها لأصحابها^(٢) . ويعتقد سافدرا أن يليان كان يمت بصلة القرابة والنسب إلى أسرة غيطشة^(٣) ، وكان من الطبيعي لذلك السبب ، أن ينضم إلى صفوف الخارجين على للذريق ، ويفتح لهم أبواب مدينته ، ويعمل على مساعدتهم لاسترداد ملكهم السليب ، مستعينا في ذلك بالعرب . ولكن يليان ، فيما يظهر ، لم يشأ أن يعلن عداؤه للذريق مرة واحدة ، حتى لا ينقلب عليه ، فتظاهر بولائه له حتى لا تنقطع إمدادات القوط عنه ، وكان يضمير في قرارة نفسه الكيد له . ولكن حادثا وقع في ذلك الوقت كان سببا في انضمامه صراحة إلى جانب الثوار ، وإقدامه على طلب العون من العرب ، وتحريضهم على فتح الأندلس . فقد زعموا أنه كانت له ابنة على حظ كبير من الجمال تدهى فلورندا ، وكان قد بعثها منذ أيام غيطشة - شأنها في ذلك شأن غيرها من بنات الأمراء والنبلاء - إلى بلاط الملك بطليطلة للتأديب بآداب

(١) أنظر تعليق على هذه القضية في كتابي : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ،

ص ٦٦ ، ملحوظة ١

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٧ - المقرئ ، فتح الطيب ، طبعة محي الدين عبد الحميد ،

ج ١ ، ص ٢٤١

Saavedra, op. cit. p. 53 (٣)

الملوك^(١) ، فو قعت موقعا حسنا في عيني الملك ، ويقال أنه استكرهها على نفسها ، فاحتالت الفتاة على إبلاغ أبيها سرّاً بما أصابها على يدي لذريق ، فتضاعف حقهده عليه ، وعزم على الانتقام ، ورأى ألا عقوبة له إلا إذا أدخل عليه العرب ، فبعث إلى طارق بن زياد الذي ولاء موسى أميراً على طنجة قائلاً : « إني مدخلك الأندلس »^(٢) . وقد تكون هذه الرواية

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة مصر ١٣٥٧ هـ ، ج ٤ ، ص ١٢١
(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح المغرب والأندلس ، ص ٩٠ . وذكر صاحب أخبار مجموعة أنه قال : « ودين المسيح لأزيلن ملكه » ولأخرن تحت قدميه » (راجع أخبار مجموعة ص ٥ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٣٦) . وأضاف المقرئ نقلاً عن كتاب الخزائني : أنه ركب بحر الزقاق من سبتة في أصعب الأوقات في صنبر (ديسمبر) قلب الشتاء ، فصار بالأندلس ، وأقبل إلى الملك في قصره بطليطلة ، فأنكر عليه قدومه في مثل هذا الوقت ، وسأله عن سبب ذلك ، فاعلل بمرض زوجته وشدة شوقها إلى رؤية ابنتها فلورندا ، وتلهفها على لقاءها قبل أن تموت ، فاستجاب لذريق إلى رغبة يليان ، ورد إليه ابنته بعد أن توفى منها بالكتمان عليه ، وأجزل العطاء على يليان . وقيل أنه لما ودعه ، قال له لذريق : « إذا قدمت علينا ، فاستفره لنا من الشذائقات التي لم تزل تطرفنا بها ، فانها آثر جوارحنا لدينا » . فقال له : « أيها الملك ، وحق المسيح ، لئن بقيت لأدخلن عليك شذائقات ، ما دخل عليك مثلها قط » (المقرئ ج ١ ص ٢٣٦) ، وكان يؤمى بذلك إلى عزمه على إدخال العرب في الأندلس .

ونلاحظ أن اسم فلورندا المذكور لم يرد في المدونات العربية أو المسيحية ، ولكن ظهر مكانه la cava ، في مدونة بندرودل كورال Pedro del Corral المسماة بمدونة الملك دون رودريجو « Cronica del Rey don Rodrigo » ، و ترجع إلى منتصف القرن الخامس عشر ، وفيها ينسب المؤرخ اسم la Cava إلى ابنة يليان ، وكان ميغل دي لونا Miguel de luna أول من ناقش الترجمة العربية لهذه الكلمة في سنة ١٥٨٩ في بحثه الطويل Historia verdadera del rey don Rodrigo ، وذكر فيه أن =

صحيحة ، ولكننا لانرجح صحتها ، وأغلب الظن أنها من ابتكار القصاص والأخباريين ، بدليل أن كلمة cava التي ينسبونها إلى ابنة يليان تتضمن في الإسبانية معان أخرى غير المعنى الذي زعم مؤرخو إسبانيا أنه ترجمة للكلمة العربية « قجباء » ، وحتى إذا افترضنا صحة هذه التسمية ، وانطباقها على الكلمة العربية المذكورة ، فإنها مع ذلك لاتصدق على ابنة يليان التي كانت ضحية للذريق .

وأيا ما كانت أسباب موجدة يليان على لذريق ، فانه مما لاشك فيه أن يليان هو الذي سعى عند العرب لفتح الأندلس ، وأنه ذل للمسلمين جميع الصعوبات ، وهو الذي ضمن للعرب انحياز أنصار وقلة إليهم ، وهو ما حدث بالفعل عند افتتاح الأندلس ، فقد مالأ آل غيطشة العرب ، ودبروا الغدر بلذريق ، وأجمعوا على سخره في المعركة الحاسمة ، ويدل على ذلك أن المسلمين كافأوهم برد جزء كبير من ضياع غيطشة إليهم ^(١) .

== هذه الفتاة فلورندا ، أطلق عليها العرب اسم « القجباء » ، وتسمى المرأة العاهرة ، ومن ثم ورد اسم فلورندا في عدد كبير من الروايات الإسبانية المتأخرة ، كما ورد في أشعار الرومانسيرو ، وجاء في بعض هذه الأشعار أن لذريق شاهد فلورندا تستحم يوما في وادي تاجه بطليطلة ، فأطلق على هذا الحمام منذ ذلك الحين اسم Bano de la Cava . ويبدو أن المؤرخين الإسبان كانوا يحملون في هذه التسمية على ابنة يليان لاعتقادهم الراسخ في أنها السبب في دخول العرب بلاد الأندلس . ارجع الى المصادر الآتية :

Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 8 - Aguado Bleye, op cit. p. 357

Saavedra, op. cit. p. 60 - وقد وردت قصة ابنة يليان في المصادر العربية الآتية :

ابن القوطية ، ص ٨ - أخبار مجموعة ، ص ٩ - الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٧

(١) ابن القوطية ، ص ٤

وتجمع المصادر العربية للفتح على أن يليان توجه بنفسه إلى طنجة لمقابلة طارق بن زياد ، وعرض عليه أن يساعده في إدخاله الأندلس ، ولم يتردد طارق في الاتصال فورا بموسى بن نصير ، وكان مقيما في القيروان ، فأبلغه ما كان من أمر يليان ، فرحب موسى بما عرضه عليه يليان (١) ، فقد كان يطمع في المزيد من الفتح والجهاد ، وعلى الرغم من تلفقه على انتهاز هذه الفرصة ، ودخول الأندلس بمساعدة يليان وأنصار غيطشة ، فإنه لم يشأ أن يقحم المسلمين في معامرة لا يعلم نتائجها إلا الله ، فلم يكن قد وثق بعد بيليان ، ثم إنه كان يعمل على كسب رضا الخليفة الوليد بن عبد الملك عليه ، وكانت فتوحات موسى في المغرب قد رفعت منزلته عند عبد الملك ، ثم الوليد ، فرأى موسى ضرورة إطلاع الخليفة على ما هو مقبل عليه ، فكتب من فوره إلى الخليفة بفتوحاته في المغرب ، وضمن رسالته ما ذكره يليان من تذليل الأمور وتهوينها على المسلمين ، واكن الوليد تردد في الأمر ، وخاف على المسلمين مغبة مخاطرة كهذه في أراض مجهولة ، يفصل بينها وبين بلاد المسلمين بحر الزقاق ، فكتب إلى موسى يأمره بأن يخوضها بالسرايا حتى يختبرها ، وأمره ألا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال (٢) . وعمل موسى برأى الخليفة ، واختار أحد كبار قواده اسمه طريف بن مالك الماعفري ، وقيل النخعي (٣) ، ويكنى أبا زرعة ، ويبدو أن طريف هذا كان عربى الأصل (٤) ، وأنه

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٩٠ - ابن القوطية ، ص ٨ - أخبار مجموعة ، ص ٦ - ابن

عذارى ، ج ٢ ، ص ٦ - الحميرى ، ص ٨ - المقرئ ، ج ١ ، ص ٦ ، ٧١ ، ٢٣٧

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٦ - ابن الأثير ، ج ٤ ، ١٢٢ - الحميرى ، ص ٨ - المقرئ ،

ج ١ ص ٢٣٧

(٣) ابن خلدون ، المعبر (طبعة بيروت) ج ٤ ص ٢٥٤

(٤) يعد مؤرخو العرب طريف بن مالك هذا بربريا ، فالحميرى يقول (ص ٨) =

كان قائدا بارعا في فنون الحرب والقتال ، فجعله موسى على رأس سرية مؤلفة من خمسمائة مقاتل ، منهم أربعمائة من المشاة ومائة من الفرسان ، وأعد لهم يليان سفنه الأربعة لعبور الزقاق ، ونزل طريف بفرقة في جزيرة تعرف باسم لاس بالوماس Isla de las Palomas ^(١) ، تقع على مقربة من مدينة طريف الحالية التي سميت باسمه لنزوله فيها ، وذلك في رمضان سنة ٩١ هـ (يوليو سنة ٧١٠ م) . ومن هذا الموضع شن طريف ورجاله سلسلة من الغارات على الساحل الجنوبي للأندلس ، المقابل لساحل سبتة ، فيما بين طريف والجزيرة الخضراء . وعاد طريف بفرقة سالما ، يجر وراءه غنائم كثيرة ، فأنس موسى إلى يليان ، ووثق فيه ، واطمأنت إليه نفسه ، واشتد عزمه على فتح الأندلس ، وتلف شوقا إلى السير في هذه المغامرة . ثم إنه استدعى مولاة طارقا ، وأمره على سبعة آلاف رجل جلهم بربر ^(٢) .

ب - الدور الذي قام به بربر المغرب في فتح الأندلس :

اختار موسى بن نصير على الحملة التي أعدها لفتح الأندلس قائدا من

== فبعث موسى عند ذلك رجلا من مواليه من البربر اسمه طريف بن ملوك الماغري ، ويكنى أبا زرعة . كذلك ذكر المقرئ نقلا عن الجباري (ج ١ ، ص ٢١٤) ونقلا عن الكتاب الخزائني (ج ١ ص ٢٣٧) . ولا شك في أن طريف كان عربيا ، فهو ينتسب إلى معافر أو نخع اليمانيين ، ثم اتنا نستبعد أن يبعث موسى الطليعة الكشفية الأولى تحت قيادة بربري

(١) Saavedra, op. cit. p. 64

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٦ — ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٢ — ابن خلدون ج ٤ ص ٢٥٤ —

المقرئ ، ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٣٨

قواده المشهورين بحسن القيادة والبلاء ، هو مولاه طارق بن زياد . وقد اختلف مؤرخو العرب في أصله ، فذهب بعضهم إلى أنه كان فارسيا همدانيا^(١)، وذهب فريق آخر إلى أنه كان بربريا من نفزة^(٢)، وذهب فريق ثالث إلى أنه كان عربيا من صدف^(٣) . وأغلب الظن أنه كان بربريا من سبى البربر الذين ظفر بهم موسى بن نصير وقواده ، فأصبح مولى لموسى^(٤) . وكان طارق طويل القامة ، ضخمة الهامة ، أشقر اللون^(٥)، وهى صفات تتوفر فى البربر ، ثم إنه كان من المنطقى أن يتولى قائد من أهل البلاد قيادة جيش كله من البربر ، حتى يستميل موسى إليه قلوب الجنود فلا يشعروا عليه، كما حدث فى عهد عقبة وفى أيام حسان . ويبدو أن موسى كان يثق بطارق كل الثقة، بدليل أنه آثره فى قيادة هذه الحملة الكبرى . على أعظم قواده العرب أمثال طريف بن مالك . وعياش بن أخيل ، وزرعة بن أبى مدرك ، والمغيرة بن أبى بردة العذرى . وكان موسى قد ولاه على طنجة، وهو منصب خطير لا يعطى إلا لذوى الثقة والكفاية . ومن الغريب أن يكون الجيش الذى أعده موسى للحملة مكونا كله من البربر ، باستثناء ثلاثمائة من العرب ، وهذه هى المرة الأولى فى تاريخ الفتوح العربية يتولى فيها جيش بأكمله من المغلوبين فتح قطر من الأقطار الكبرى كالأندلس .

(١) أخبار مجموعة ، ص ٦ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٣٨

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧ - الحميرى ، ص ٨ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٣٨

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٢٦ - الحميرى ، ص ٩ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٣٨

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٧

(٥) نص عبد الملك بن حبيب ، نشره الدكتور محمود على مكي ، مجلة معهد الدراسات

وبدل هذا دلالة واضحة على أن بربر المغرب قد أسلموا ، وحسن إسلامهم ، وأصبحوا على هذا النحو يؤلفون القوة الكبرى التي اعتمد عليها موسى في فتح الأندلس . وكان معظم أجناد هذه الحملة الأندلسية من رهائن المصامدة ^(١) . ويمكننا تفسير اعتماد موسى على البربر في هذه الحملة بأن البربر كانوا أكثر إلماما من العرب ببلاد الأندلس ، فالمغرب والأندلس يؤلفان وحدة جغرافية وتاريخية ، وقديما عبر هانديال المجاز إلى إسبانيا مع جيوشه البربرية . ونضيف إلى هذا التفسير تفسيراً آخر هو أن موسى ربما خاف على جيشه العربي من هذه المغامرة ، فأثر أن يجعل الطليعة الأولى من البربر ، فلما استوثق من نجاح الفتح بعد انتصار طارق في وادي لكّة ، واقتحامه البلاد حتى طليطلة ، عبر المجاز بدوره على رأس جيش كثيف جله هذه المرة من العرب . ولما نعرف الكثير عن نشأة طارق بن زياد بطل الفتح ، وكل ما عرفه عنه قبل أن يوليه موسى القيادة على الحملة إلى الأندلس ، أنه اشترك في مقاتلة البربر في ولاية زهير بن قيس على إفريقية ، فلما قتل زهير في برقة ، نصب طارق أميرا على برقة ، غير أنه لم يلبث طويلا في هذا المنصب ، إذ اختاره موسى قائدا في جيشه ، فأبلى بلاء حسنا في حروبه التي خاضها مع موسى ، وظهرت لدى موسى سطوته الحربية ومهارته في قيادة الجيوش ، فولاه على مقدمة جيوشه في المغرب . ويذكر عبيد الله بن صالح أن موسى جمع رهائن كتامة وزناتنه وهوارة مع رهائن حسان وعدتهم اثني عشر ألف فارس ^(٢) ، « وولى عليهم

(١) ابن عبيد الله بن صالح ، نغمه ليني بروفسال ، بعنوان : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الثاني ١٩٥٤ ، ص ٢٢٤

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٣

طارق بن زياد ، ورجع إلى إفريقية ، وترك معهم سبعة عشر رجلا من العرب يعلمون لهم القرآن وشرائع الإسلام ،^(١) . ويعتبر اختيار موسى لطارق على قيادة جيوشه مآثرة من مآثره العديدة ، إذ أثبت بذلك درابته بالعناصر الصالحة في البربر واستخدامه لهم في قيادة جيشه . وهكذا أتيح لطارق بن زياد أن يتولى قيادة جيوش موسى ، ويشترك معه في فتح بقية بلاد المغرب والسيطرة على حصون المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسي^(٢) .

كان جيش طارق يتألف كما ذكرنا من سبعة آلاف مقاتل من البربر باستثناء ثلثمائة من العرب ، على رأسهم رجال سيكون لهم شأن كبير فيما بعد ، نخص بالذكر منهم عبد الملك بن أبي عامر الماعري ، ومغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك ، وعلقمة اللخمي . وأبحرت حملة طارق من ميناء طنجة في ٥ رجب سنة ٩٢ هـ (إبريل سنة ٧١١ م) ، في السفن الأربعة التي كانت ملكا ليليان ، ووضعها في خدمة العرب^(٣) . ولا شك أن موسى استعان ببعض قطع من أسطوله الإسلامي الذي أنتجته دار الصناعة بتونس في جـواز رجاله ، واختلفت السفن بالرجال والخيول بين شاطئ الزقاق تنقل العسكر إلى «جبل على شط البحر منيع»^(٤) ، كان يعرف باسم جبل كالبي Calpe^(٥) ،

(١) نص عبيد الله بن صالح ، ص ٢٤٤

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، طارق بن زياد ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦٧ ص ٢٣٧

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٦

(٤) نفس المرجع ص ٧

(٥) Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 18

وعرف منذ ذلك الحين باسم جبل طارق أو جبل الفتح . وكان نزول الحملة الإسلامية في ذلك الوقت مناسباً للغاية ، إذ كان لذريق مشغولاً إذ ذاك باخماد ثورة قام بها البشكنس في بنبلونه ^(١) ، كما اتفق نزول جيش طارق في الوقت الذي كان كثير من سكان الأندلس ساخطين على حكم لذريق الجائر ، فوقفوا موقفاً سلبيّاً من الغزو الإسلامي . وما كادت تتوافى حشود المسلمين بعد أن تم نزولها بأدنى الجبل حتى بادر طارق بإنشاء قاعدة لجيشه ، ومرسى يصل بينه وبين سبتة ، وأقام طارق حول الجبل المسمى باسمه سوراً سمي بسور العرب ^(٢) .

ثم بعث طارق عبد الملك بن أبي عامر في فرقة سارت بمحذاة الساحل شمالاً ، فاستولت على قرية حصينة تعرف بقرطاجنة الجزيرة ^(٣) « Carteya » ، وتقع جوفى خليج جبل طارق عند مصب نهر يسمى بوادي البحر ^(٤) ، ثم زحف طارق غرباً ، واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة ، وأقام قاعدة لقواته في موضع يقابل الجزيرة الخضراء ، أقيمت عليه هذه المدينة فيما بعد ^(٥) . وقد عهد طارق إلى بليان ومن معه من الجند بمهمة حراسة

(١) أخبار مجموعة ، ص ٧ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٣٩

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣ - المقرئ ، ج ١ ص ٢١٨

(٣) ابن القوطية ، ص ٩ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣

ونذكر سافدراً أن هذا الموضع هو المعروف اليوم باسم برج قرطاجنة Torre Cartagena أو برج الروكاديو Rocadillo (Saavedra, op. cit. p. 65)

(٤) الحميري ، ص ١١٥ - ١٩ - Lévi - provençal, Histoire, t. I, p. 19

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، طارق بن زياد ، ص ٢٣٩ - تاريخ المسلمين وآثارهم

في الأندلس ، ص ٧٣ .

هذه القاعدة ، والدفاع عنها في حالة قيام القوط بأى هجوم .

ووقع على لذريق خبر نزول المسلمين على الساحل الجنوبي للاندلس وقوع الصاعقة ، فانزعج لذلك ، وكر راجعا إلى عاصمته طليطلة ، ومنها زحف في جموع كثيفة تقدر بنحو مائة ألف مقاتل ^(١) ، وقيل سبعين ألفا ^(٢) ، وقبل أربعين ألفا ^(٣) . فلما علم طارق بذلك كتب إلى موسى يستمده ، ويخبره أنه فتح الجزيرة الخضراء ، وملك المجاز إلى الاندلس ، واستولى على بعض أعمالها حتى البحيرة ، وأن لذريق زحف إليه بما لا قبل له به ، فأرسل إليه موسى مدداً من خمسة آلاف من المسلمين ، كملت بهم عدة من معه إثني عشر ألفا ^(٤) ، أقوياء على المغانم ، حراصا على اللقاء ، ومعهم يلبان ورجاله ، يدلون المسلمين على العورات ، ويتجسسون الأخبار .

ثم أقبلت جيوش لذريق حتى عسكرت غربى طريف ، بالقرب من بحيرة خنده Janda ، على طول نهر برباط الذى يخترق البحيرة ويصب في البحر ، ويسميه العرب وادى لكه ، تحريفا للكلمة الاسبانية Lago أى البحيرة . والتقى الجيشان في يوم الأحد ٢٨ من رمضان سنة ٩٢ هـ (١٩ يوليو سنة ٧١١) أى بعد ٨٣ يوما من نزول المسلمين بجبل الفتح ^(٥) ، في موضع على

(١) أخبار مجموعة ، ص ٧ - المقرئ ، ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٤١

(٢) نص ابن حبيب ، ص ٢٢٢ - المقرئ ، ج ١ ، ص ٢٢٥

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥٤ - المقرئ ، ج ١ ص ٢١٦

(٤) أخبار مجموعة ، ص ٧ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٤١

(٥) المقرئ ، ج ١ ، ص ٢٣٣

وادی برباط أو لكة ، قرب مدينة شذونة . واستمرت المعركة عدة أيام و انتهت بهزيمة لذريق هزيمة ساحقة ، بعد أن خذله ابننا غيطشة ، ونكص عدد كبير من قواته . وأذرع المسلمون في فلول جيشه بالقتل ، ولم يرفعوا عنهم السيف ثلاثة أيام ^(١) . أما لذريق فقد غاب شخصه ، فلم يثر له أحد على أثر ، ويبدو أنه فر في جملة الفارين ، ليعيد تنظيم قواته من جديد . ويبدو أن طارق لم ينتزع النصر بسهولة ، فقد قتل من رجاله ما يقرب من ثلاثة آلاف ، استناداً على ما ذكره المقرئ من أنه قسم النىء على تسعة آلاف من المسلمين ^(٢) ، وكان من بين القتلى ششبرت ^(٣) . وأحدث انتصار طارق في وادی لكة دويًا هائلاً ، في المغرب والمشرق ، الأمر الذى يعزز ما كنا نعتقد من أن حملة طارق كان ينظر إليها على أنها مغامرة حربية مصيرها الفشل قبل النجاح ، وإلا فما الداعى لتطير أهل العدو من البربر والعرب إلى الأندلس بعد انتصار المسلمين ، وإقبالهم على الفتح بقلوب مجبورة ^(٤) ، وما السبب في الروايات القائلة بحسد موسى بن نصير لطارق ، وإصداره الأوامر له بالتوقف عن الفتح ؟ ^(٥) .

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٩٦ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٠

(٢) المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٣

(٣) فتح الأندلس لؤرخ مجهول ، نشره دون خواكين جنتاث ، الجزائر ١٨٨٩ ص ٧

(٤) يقول الرازى : « وتسامع الناس من أهل بر العدو بالفتح على طارق بالأندلس ، وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلاحقوا بطارق » المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٣

(٥) الحميدى ، جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ، ١٣٧١ هـ ،

ص ٥ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥٤ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٥٤

واندفعت جيوش طارق في أثر فلول القوط، تستولي على المدن، وتفتح
المعاقل، وكان جيشه قد تضخم بمن وفد إليه من أهل العدو، بغية التماس
الفنائم، أو الاستقزار في هذه البلاد الغنية، ففرق أجناده إلى بعوث جانبية
ومضى هو إلى طليطلة، حيث احتشدت فلول القوط، فافتتحها في سنة ٨٩٣ هـ
دون مقاومة تذكر، وألقاها خالية، قد فر عنها سندر رئيس الكنيسة
الاسبانية إلى رومه، كما فر عنها أهلها.

ثم كانت الحملة الثانية التي قام بها موسى بن نصير نفسه، استجابة لطلب
طارق في معاونته على فتح بلاد الاندلس، وعبر موسى إلى الجزيرة الخضراء
في سنة ٩٣ هـ في جيش ضخم عدته ثمانية عشر ألفا جلهم من العرب، وسلك
موسى طريقا غير طريق طارق، واستطاع أن يفتح المدن الواقعة في غرب
الاندلس مثل شذونة، وقرمونة، وقلعة رعواق، وإشبيلية، ولبله،
وأكشونة، وباجة، وماردة.

وكانت مقاومة القوط بقيادة لذريق قد اشتدت في هذه النواحي لتعوق
مسير موسى، وتقضي على قواته.

فما كادت ماردة تسقط حتى تحصن لذريق ورجاله في شعاب جبال سيرا
دي فرانثيا مما يلي وادي أنه من الشمال، وأقاموا هنالك ينتظرون الفرصة
المواتية للوثوب على جيش المسلمين^(١). وشم موسى رائحة كمين بعده له
الأعداء في الطريق إلى طليطلة. فبعث موسى يستدعي طارقا وقواته في
منتصف الطريق ما بين ماردة وطيطة، وتم لقاء القائدين في موضع يقال

(١) Saavedra, p. 98 — حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٩٧ — عبد العزيز

سالم، تاريخ المسلمين، ص ٩٧

له تايد أو تايتز (١)، وخرج طارق معظما له، ونزل بين يديه . وذكر المؤرخون أن موسى وبخ طارقا على مخالفته لرأيه، وخروجه عليه، ثم صالحه موسى، وأقره على قيادة الجيش، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه، بينما تبعه موسى في جيشه (٢). وسلك طارق وموسى الطريق الرومانية الممتدة من ماردة إلى شلمنقة عبر السيرا، ثم مضى موسى من فيج منسوب إليه (٣) بحذاء نهر سمي منذ ذلك الحين بوادي موسى (٤). واجتاز موسى طريقا وعرة متبعا في سيره الانحدارات الهائلة التي تنبع منها مياه نهر الهويرا، وراء القمم الشمالية من جبال سيرا دي فرانثيا (٥). فاتهز لذريق هذه الفرصة، وانقض على جيش موسى بقواته، تبجاء بلدة سيجويلا دي لوس كورنيخوس (٦)، قريبا من بلدة تمارس، حيث قامت الموقعة الفاصلة الثانية في تاريخ الفتح الاسلامي للأندلس، في سنة ٩٤ هـ. ونظراً لأن المسكان الذي وقعت فيه الموقعة كان قريبا من بحيرات تمارس ونهر بربالوس Barbalos الذي ينتهى عند السواقي، فقد اختلط عند المؤرخين بنهر برباط وبحيرة خندة.

(١) وردت كلمة تايد (في أخبار مجموعة ، ١٨) بدون نقط ، ولعلها تايتز ، وهو اسم ذكره رودريجو الطليطلي لنهر Teitar في هذه المنطقة.

(٢) المقرئ ، ج ١ ص ٢٥٥

(٣) ابن القوطية ، ص ١٠ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٥٣

(٤) Saavedra, p. 99 - حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ٩٨

(٥) Saavedra, p. 100

(٦) يقابل اسم سيجويلا في المصادر العربية كلمة السواقي أو السواني (أنظر فتح الأندلس ، لمؤرخ مجهول ، ص ٨) . وذكر الرازي Seguyue وهو لفظ قريب من لفظ السواقي (Saavedra, p. 100 - Lévi - Provençal, - Histoire, t. I, p. 26 - فجر الأندلس ، ص ٩٩)

وفي هذه الموقعة لقي لذريق مصرعه على يد مروان بن موسى بن نصير^(١) وهزم المسلمون القوط هزيمة نكراء . وعلى أثر ذلك دخل موسى وطارق مدينة طليطلة ، وبعث موسى من هناك رسولين من قبله إلى الوليد يشترانه بالفتح ، هما مغيث الرومي^(٢) ، وعلى بن رباح التابعي^(٣)

قضت الجيوش الإسلامية فصل الشتاء بطليطلة ، فلما انقضى ، تعاون القائدان موسى بن نصير وطارق بن زياد على افتتاح شمال شبه الجزيرة ، وصحبت الفتح في هذه المرة موجة ثانية من التدمير والتخريب ، وكان لذلك أثر كبير في بث الذعر في نفوس السكان^(٤) . وبينما كان موسى يتأهب لاقتحام بلاد جليقية ، إذ أتاه مغيث الرومي رسولا من قبل الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج من الأندلس ، والكف عن التوسع في البلاد . فعز على موسى أن يعود المشرق قبل أن تكون قد استكمل فتح شبه الجزيرة كلها ، باقتحامه جليقية^(٥) . فسلط مغيثا ، وسأله أن يمهله حتى ينفذ عزمه في الدخول إلى جليقية ، ويكون شريكه في الأجر والغنيمة^(٦) ، ووعدده موسى بأن يهبه الموضع المعروف باسم بلاط مغيث بقرطبة بجميع أرضه من

(١) Saavedra, op. cit. p. 101 . يعتمد سافدرا على نسوورد في كتابه «الإمامة والسياسة» لابن قتيبة جاء فيه على لسان موسى : « إن ابني أتى بملك الأندلس لذريق » ص ١٥٦ من كتاب ابن القوطية

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٠٢

(٣) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة من كتاب ابن القوطية « تاريخ افتتاح الأندلس »

ص ١٢٦

(٤) المقرئ ، ج ١ ص ٢٥٥

(٥) نفس المرجع ، ص ٢٥٨

(٦) نفس المرجع

أرض الخمس^(١) ، نظير إمهاله له بعض الوقت ومصاحبته في غزو جليقية .
فقسم موسى جيشه إلى قسمين : قسم بقيادته ، يسلك الطريق الممتدة من
سرقسطة إلى قلوونية وبلنسية ، وقسم بقيادة طارق يسير بحذاء نهر إبرة حتى
هارو ، ومن هناك يتبع برفيسكا ثم أماية ثم ليون واسترقة . ونجح طارق في
افتتاح أماية واسترقة ، أما موسى فقد سار بحذاء الضفة اليمنى من نهر إبرة
وافتح حصن بارو ، واستولى على قلعة لك بأشتوريش ، ثم تابع السير في
جليقية ، فاستولى على خيخون ولك الجليقية ، وهناك أتاه رسول آخر يكنى
أبا نصر بعثه الخليفة إليه لما استبطأه في القفول^(٢) . وذكر بعض المؤرخين
أن موسى بعد أن افتتح سرقسطة بث سراياه إلى قطلونية ، فاستولت على
برشلونة ، واخترقت جبال البرتات ، وتوغلت في غالة ، فاستولت على أربونة
وصخرة إينيون ، وحصن لودون على وادي ردونه (الرون)^(٣) . ونستبعد
قيام موسى بفتح هذه الأقاليم ، واكتساحه أراضى إفريقية حتى ليون .
والأرجح أن موسى افتتح إقليم قطلونية ، وأن بعض قواته وصلت إلى
قرقشونة^(٤) .

ولقد لعب البربر دوراً هاماً في فتح بلاد الأندلس ، فقد كانت الطالعة

(١) الرسالة الشريفة في الأقطار الأندلسية ، من كتاب ابن القوطية ، ص ٢٠٤

(٢) المقرئ ، ج ١ ص ٢٥٨ — تاريخ المسلمين في الأندلس ، ص ١٠٣ ، ملحوظة ٥

(٣) المقرئ ، ج ١ ص ٢٥٦ — Codera, Limites probables de la conquista

arabe en la Cordillera Pirenaica, en Estudios Criticos de la historia
arabe espanola, VIII, Madrid, 1917, p. 107.

(٤) المقرئ ، ج ١ ص ٢٦٠ — شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، مصر ، ١٣٥٢

ص ١٤ — تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٠٤ ، ١٠٥

الأولى للفتح من البربر ، ومنذ سجل طارق انتصاره على لذريق في وادي لكه ، لم يكف البربر عن الجواز إلى الأندلس ، بغية التماس المغنم أو الاستقرار في هذه البلاد الغنية بنخيلاتها . وقد زودنا ابن خلدون بأسماء قبائل أربعة كان يتألف منها جيش طارق ، وهي : مطغرة ، ومديونة ، ومكناسة ، وهوارة ، وكلها متفرعة من زنانة . ويضيف ابن حزم في جمهرة أنساب العرب قائمة بقبائل أخرى وفدت إلى الأندلس وهي : مغيلة ، وملزوزه ، ونفزة ، وأوربة ، ومصموده (١) .

وقد استقر هؤلاء البربر منذ الفتح في المناطق الجبلية ، إذ كان العرب قد اختصوا أنفسهم بأكثر مناطق الأندلس خصبا ، ونعني بها فحوص الأندلس الأوسط والجنوبي ، ومنيات شرق الأندلس . وعلى الرغم من صعوبة الحياة في المناطق الجبلية ، فقد تمكن البربر ، بمضى الزمن ، من التكيف فيها ، وأصبحوا يعتبرون هذه البلاد وطنهم ، فسموا أنفسهم بالبلديين ، وهم في ذلك يختلفون عن البربر الطارئین الذين دخلوا الأندلس في عصر الخلافة الأموية .

ج - عودة موسى بن نصير إلى المشرق :

لم يجد موسى بن نصير بدا من الاستجابة لرغبة الخليفة في العودة إلى دمشق ، فقفل بعد فتحه لبلاد جليقية عائداً إلى إفريقية ، في رفقة طارق ، ورسولي الخليفة إليه ، مارين في طريقهم بقرطبة ، حيث أخرج موسى مغينا

(١) ابن حزم القرطبي ' جمهرة أنساب العرب ' ، تحقيق ليني بروغنسال ' القاهرة ١٩٤٨ ،

من بلاط قرطبة ، ووهبه داراً أخرى بغرب المدينة ^(١) . ولعل ذلك كان سبباً في تحامل مغيت الرومي عليه . ثم مضى موسى إلى إشبيلية ، وهناك استخلف ابنه عبد العزيز في ذي الحجة سنة ٩٥ هـ ، بعد أن اختارها له عاصمة للأندلس ^(٢) . وعبر القائدان الزقاق إلى إفريقية يحملان معها غنائم هائلة من الذهب والفضة والجواهر على ما يقرب من ١١٣ عجلة ^(٣) . واستخلف موسى ابنه الأكبر عبد الله على إفريقية ، وكان عبد الله قد واپها عوضاً عن أبيه عندما قاد حملته إلى الأندلس ، إلى أن رحل أبوه منها متوجهاً إلى المشرق ^(٤) في سنة ٩٥ هـ . وذكروا أنه استخلف ابنه عبد الملك على طنجة وسبته وما إليها ^(٥) . ولكن ابن قتيبة يذكر أن موسى لم يترك على إفريقية وطنجه والسوس إلا ولده الأكبر عبد الله ، وأنه اصطحب معه عند عودته إلى المشرق أولاده مروان وعبد الأعلى وعبد الملك ^(٦) .

ثم سار هو وولده عبد الأعلى ومروان ، وصحبهم طارق ، ورسولا الخليفة ، وبعض الأسرى من قواد القوط ، ومائة رجل من أشرف الناس من قريش والأَنْصار وسائر العرب ، نخص بالذكر منهم : عياض بن عتبة وأبو عبيدة وعبد الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، والمغيرة بن

(١) أخبار مجموعة ، ص ٢١ — المقري ، ج ٢ ص ١٣

(٢) ابن القوطية ، ص ١٠ — أخبار مجموعة ، ص ١٩ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٠

(٣) ابن عذارى ، ج ١ طبعة بيروت ص ٣٩

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٨

(٥) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٢٤ — ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٩

(٦) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة (من تاريخ فتح الأندلس ص ١٤٣)

أبي بردة، وزرعه بن أبي مذرك، وسليمان بن بحر، ومن البربر مائة رجل^(١) منهم « بنو كسيلة بن لزم، وبنو يسدد ومزدانة ملك السوس، وملك ميورقة ومنورقة، ومن أولاد الكاهنة، ومائة من وجوه ملوك الروم الأندلسيين وعشرون ملكا من ملوك المدائن التي افتتحها بافريقية، وخرجوا معه بأصناف ما كان في كل بلد من طرفها، واستخلف بطرابلس رجلا اسمه بكر بن عيسى القيسى، حتى انتهى إلى مصر، فلم يبق بها فقيه ولا شريف إلا وصله وأعطاه. ثم خرج من مصر متوجها إلى فلسطين، فتلقاها آل روح بن زنباع. ونحروا له خمسين بعيرا. ثم خرج وترك عندهم بعض أهله، وصغار ولده، وأعطى آل روح بن زنباع عطاء جزلا^(٢).

وذكر بعض المؤرخين أن الوليد بن عبد الملك كان مريضا، وأنه كتب إلى موسى يأمره بالإسراع إليه ليدركه وهو على قيد الحياة، وفي نفس الوقت كتب سليمان ولي عهد الخليفة إلى موسى يأمره بالتأني في سيره رجاء أن يصل بعد وفاة الوليد، فتكون كل غنائم المغرب والأندلس له، ولكن موسى استجاب لرغبة الخليفة، وجد في سيره حتى قدم إلى دمشق، والوليد ما يزال حيا، فسلم له الأثمان والمغانم والتحف والذخائر، ولم يطل العهد بالوليد، فلم يمكث إلا ثلاثة أيام بعد قدوم موسى إليه، ثم توفي. وأفضت الخلافة إلى سليمان، وكان يحقد على موسى لمخالفته له، فصب عليه جام غضبه^(٣). وقيل أن موسى وصل دمشق بعد وفاة الوليد، فقدم على

(١) ارجع الى تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ١٠٦

(٢) ابن عذاري، ج ١ ص ٤٠

(٣) ابن عذاري، ج ١ ص ٤١ - المقرئ، ج ١ ص ٢٦٢

سليمان حين استخلف . وكان منحرفا عليه ، إذ كان طارق ومغيث قد سبقاه إليه ، ورمىاه بالتهمة عند سليمان ، فعزله سليمان عن عمله ، وأقصاه ، وحبساه ، وأغرماه غرما عظيما ^(١) . وذكر ابن عذارى أن سليمان أمر به ، فأوقف في يوم شديد الحر في الشمس ، وكان موسى بادنا ، فلم يتحمل حرارة الشمس فسقط مغشيا عليه ، وأن سليمان أغرمه ثلثمائة ألف دينار ، وأمر بتعذيبه ، وعزم على قتله ، فاستجار يزيد بن المهلب ، وكانت له حظوة عند سليمان ، فاستوهبه منه ^(٢) . ويضيف ابن الأثير أن موسى احتاج أن يسأل العرب في معونته ^(٣) . ونستبعد صحة هذه الروايات ، فليس من اليسير أن يقوم سليمان بتعذيب تابعي جليل مثل موسى بن نصير ، أسس ملكا من عدمه ، ووقف حياته مجاهداً في سبيل الله لمجرد قالة ظالمة ، أو وشاية في حقه من خصومه . ولو أننا صدقنا هذه الروايات ، لكان أولى بسليمان أن يعاقب موسى بعزل ولديه عبد العزيز من ولاية الأندلس ، وعبد الله من ولاية إفريقية والمغرب ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل ظل عبد العزيز يقوم بولاية الأندلس حتى مصرعه في سنة ٩٨ هـ (٧١٥ م) بتدبير بعض رؤساء الجيش من العرب أمثال أيوب بن حبيب اللخمي ، وحبيب بن أبي عبيدة ، وزيد ابن عذرة البلوي ، وزيد بن نايغة التميمي . وأما ما ذكره المؤرخون من تعريم سليمان له ، فلا شك أنهم خلطوا بين سليمان بن عبد الملك وبين أبيه عبد الملك ابن مروان ، الذي أغرمه حسبا ذكرناه سابقا . حقيقة أن عبد العزيز بن موسى لقي مصرعه باشبيلية على أيدي كبار الجند ، وحقيقة أن عبد الله عزل على أيدي

(١) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٦٢

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤١ ، ٤٢

(٣) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٢٤

محمد بن يزيد ، ثم قتل على يدى خالد بن حبيب القرشى فى أواخر عام ٩٧ هـ أو
أوائل عام ٩٨ هـ ^(١) ، ولكن لم يكن لسليمان بن عبد الملك يد فى مقتلها ،
على الرغم مما زعمه المؤرخون أنه دس عليها من قتلها ^(٢) ، وأنه أمر بطرح
رأسيها أمام موسى بن نصير ^(٣) ، فلو أن سليمان كان هو المدبر لجريمة قتل
عبد العزيز ، لكان قد بادر بتنصيب وال مكانه ، ولما مكث أهل الأندلس
شهوراً لا يجمعهم وال حتى اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمي ^(٤) ، ولما
شق على الخليفة نبأ مقتله ، فأمر والى إفريقية عبد الله بن يزيد بالتحقيق فى
مقتله ، والقبض على قتلته ، وإرسالهم إليه ^(٥) ، ولما أسف على قتله بعد أن
ثبت له براءة عبد العزيز مما اتهم به ^(٦) من الانتزاع بالأندلس .

ويعتقد الاستاذ محمد على دبوز ، أن سليمان أنكر على موسى سلوكه فى
المغرب ، وأنه كان حائقاً عليه لمبالغته فى السبى ، وعدم عدله فى البربر ،

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٤

(٢) ابن القوطية ، ص ١١ — ابن قتيبة ، ص ١٧٠ (من كتاب ابن القوطية) -

بن عذارى ، ج ٢ ص ٣٢ — المقرئ ، ج ١ ص ٢٦٣

(٣) ابن قتيبة ، ص ١٧٤ (من كتاب ابن القوطية) — ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٥

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣

(٥) يقول صاحب أخبار مجموعة : « ولما بلغ سليمان مقتل عبد العزيز بن موسى شق
ذلك عليه ، فولى إفريقية عبيد الله بن يزيد لقريش . ، والى والى إفريقية كان أمر الأندلس
وطنجة ، وكل ما وراء إفريقية ، وأمره سليمان فيما فعله حبيب بن أبى عبيدة ، وزباد بن
النايفة من قتل عبد العزيز بأن يتشدد فى ذلك ، وأن يقتلها ليه ، ومن شركهما فى قتله
من وجوه الناس . ثم مات سليمان ، فصرح عبد الله بن يزيد والى إفريقية على الأندلس
الحمر بن عبد الله الثقفى وأمره بالنظر فى شأن قتل عبد العزيز » (أخبار مجموعة ، ص ٢٢)

(٦) ابن قتيبة (من كتاب ابن القوطية) ص ١٧٦

واحتجانه للأموال وتفريقها في الأولياء والأانصار^(١). ونعتقد أن سليمان أخذ على موسى بعض الهفوات ، وأنه كان حائقا عليه إما لأن مغيب الرومي وطارق قد شكياه إليه ، أو لأنه قد بلغه سعي موسى لفصل المغرب والأندلس عن الخلافة بعد أن ولي ولديه عبد العزيز وعبد الله عليهما ، وضرب العملات باسمه ، وفرق قسما من غنائم المغرب والأندلس على صنائعه في مصر . وأيا ما كانت أسباب حنقه عليه ، فلم يكن ذلك مبرراً لتنكيله به على النحو الذي ذكره المؤرخون ، وأغلب الظن أن سليمان عفا عنه بفضل وساطة عمر بن عبد العزيز فاستبقاه سليمان إلى جواره رحمة بشيخوخته ، إذ كان قد قارب الثمانين من عمره ، بدليل أنه كان يخرج معه في نزهاته^(٢) ، وأنه حج معه إلى مكة في سنة ٩٧ هـ (٧١٥ م) حيث توفي موسى هناك^(٣).

ونعتقد أيضا أن عبد العزيز بن موسى لقي مصرعه على أيدي كبار جنده لأسباب منها : أن زوجته أيلة ، وهي أرملة لذريق ، كانت تعرضه على الاستقلال بالأندلس ، وتأسيس دولة يكون ملكا عليها ، ونجحت في التأثير عليه ، ولعل ذلك كان أساسا للرواية القائلة بأنها أقنعت بوضع التساج على رأسه تشبها بالملوك . ومن أسباب مصرعه أيضا أنه أظهر امتعاضا على تصرف الخليفة سليمان نحو أبيه ، بعد كل ما قام به موسى من خدمات للدولة الأموية ، فاضطر عبد العزيز إلى التنفيس عن نفسه « بكلام خفيف »^(٤) ،

(١) محمد علي دبور ، تاريخ المغرب الكبير ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٦٥

(٢) ابن قتيبة ، ص ١٧٨ — نص عبد الملك بن حبيب ، ص ٢٢٥

(٣) ابن قتيبة ، ص ١٨٤ — ابن عذاري ، ج ١ ص ٤٣

(٤) نفس المرجع ، ص ١٧٠

أساء إلى الخليفة ، فتناول الناس هذا الكلام محرفاً مشوهاً ، فوصل إلى رؤساء الجند ، وعلى رأسهم حبيب بن أبي عبيده بن عقبة ، الذي كان موسى قد أقامه وزيراً لابنه ، وأيوب بن حبيب اللخمي ، ابن أخت موسى بن نصير وغيرهما ، فأجمعوا على قتله ، غيرة على الخلافة الأموية ، ثم أبلغوا الخليفة بمقتله بسبب خروجه عليه ، وخلعه دعوة بني مروان ، واستبداده بأمره « لما بلغه ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته » (١) . وقد يكونوا قد قتلوه بدافع من الغيرة والحسد لما صار إليه بنو موسى من علو الذكر ، فقتلوه ، واختلقوا هذه التهم كذباً . وقد حقق سليمان في قضية عبد العزيز ، فأنضح له أنه بريء مما نسبوه إليه ، « وألني ذلك باطلاً ، وأن عبد العزيز لم يزل صحيح الطاعة مستقيم الطريقة » (٢) .

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٤٤

(٢) ابن قتيبة ، ص ١٧٦

(٢)

ولاية المغرب بعد موسى بن نصير

أ - جهود محمد بن يزيد (٩٧ - ١٠٠) واسماعيل بن عبيد الله (١٠٠ - ١٠١) في نشر الاسلام :

لم يكن سليمان بن عبد الملك راضيا عن تصرف موسى بن نصير في استبداده بحكم المغرب والأندلس ، ولعل ذلك كان من الأسباب التي أدت إلى استغنائه عن خدماته ، فقد رأى سليمان في استئثار موسى بحكم المغرب والأندلس بواسطة ولديه عبد العزيز وعبد الله ميلا إلى الخروج عن الخلافة ، وجنوحا إلى الانشقاق عن الدولة . وعلى الرغم من ذلك فقد استبقى الخليفة سليمان عبد العزيز بن موسى على ولاية الأندلس لآثره العديدة ، وجهوده المفضنية في استكمال فتح البلاد ، وتنظيم الدولة الأندلسية . أما بالنسبة لعبد الله بن موسى ، فقد كان يستهجن سياسته القائمة على العنف والتسلط في معاملة البربر . فاستشار وزيره رجاء بن حيوة فيمن يصلح لولاية المغرب ، وقال له : « أريد رجلا له فضل في نفسه ، أوليه إفريقية » ، فاستمهل ابن حيوة أيا ما ليفكر ويبحث عن شخص تتوفر فيه هذه الصفة ، ثم قدم عليه وقال له : « قد وجدت رجلا له فضل . قال : من هو ؟ . قال : محمد بن يزيد مولى قریش . فقال : ادخله علي ، فأدخله عليه ، فقال سليمان : يا محمد بن يزيد ، اتق الله وحده لا شريك له ، وقم فيما وليتك بالحق والعدل ، وقد وليتك إفريقية والمغرب كله » (١) .

ويذكر ابن عذارى أن محمداً بن يزيد استقر بإفريقية بأحسن سيرة وأعد لها ، وكان سليمان قد أمره بالقبض على عبد الله بن موسى وتعذيبه ومصادرة أمواله وأموال بني موسى حتى يؤدوا ثلاثمائة ألف دينار (١) . ولكن هذا الخبر يتناقض مع ما ذكره ابن عذارى قبل ذلك ، من أن موسى افتدى من سليمان بألف ألف دينار (٢) . وقد استبعدنا من قبل قيام سليمان بتعذيب آل موسى بن نصير . وأغلب الظن أن ذلك تم في عهد يزيد بن عبد الملك ، عندما اتهم عبد الله بن موسى بقتل يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه ، وتولى بشر بن صفوان مهمة قتله ، ومصادرة أموال ذويه (٣) .

وساد للسلام والأمن بلاد المغرب في ولاية محمد بن يزيد ، وفي خلال هذه الفترة السامية القصيرة ، التي نعم فيها البربر بالاطمئنان والعدل ، قام محمد بن يزيد بفتح المناطق الداخلية من المغرب الأقصى ، كما بعث السرايا إلى تغور إفريقية والجزر المجاورة لها (٤) . وكان محمد بن يزيد يقسم ما يصبه من غنائم على جنوده دون أن يحتجز لنفسه شيئاً منها ، فكان مثلاً طيباً للوالى العادل التزيه . وقد كان لهذه السياسة الحكيمة أثرها العميق في كسب أفواج جديدة من البربر إلى الإسلام . فلما توفي سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ ، استعمل الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز تابعياً جليلاً وإماماً زاهداً هو إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر دينار على إفريقية في

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٤٤

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٤٢ — نص عبد الملك بن حبيب ص ٢٣٣

(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٥٣

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٤٥

محرم سنة ١٠٠ هـ ، وكان اسماعيل هذا مصلحا من أعظم ولاية بني أمية على المغرب ، فقد ورث عن جده صفات الحزم والحكمة وحسن التدبير ، وكان يجمع إلى جانب كياسته وحكمته ورعا وتقوى ، ولذلك نراه يتفانى في نشر الإسلام بين قبائل البربر ، ويعمل جهده على تعليم البربر وتثقيفهم بالتعليم والثقافة الإسلامية (١) . ويذكر المؤرخون أن الخليفة عمر بن عبد العزيز بعث معه عشرة من التابعين أهل علم وفضل ، وأمرهم بأن يبذلوا جهودهم لتفقيه البربر في علوم الدين حتى يقوم إسلامهم على أساس متين ، وهؤلاء التابعون هم : أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد الماعفري الحبلى (المتوفى سنة ١٠٠ هـ) ، وأبو مسعود سعيد بن مسعود التجيبى ، واسماعيل بن عبيد الأنصارى المعروف بتاجر الله (ت . سنة ١٠٧ هـ) ، وأبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخى (ت . سنة ١١٣ هـ) ، وأبو سعيد جعثل بن عاهان بن عمير الرعيني الغساني (ت . فيما يقرب من سنة ١١٥ هـ) ، وحيان بن أبي جبله القرشى (ت . سنة ١٢٥) ، وموهب بن جنى الماعفري ، وطلق بن حابان الفارسي ، وبكر بن سودة الجذامي (ت . سنة ١٢٨) ، واسماعيل بن عبيد الله الأعور (٢) (ت . سنة ١٣٢) . وقد تولى اسماعيل بن أبي المهاجر توزيع هؤلاء التابعين في أنحاء المغرب ، وتحول البربر بفضل هؤلاء وبفضل الفقهاء الذين كانت قد وزعهم حسان بن النعمان وموسى بن نصير من قبل في بلاد البربر إلى أمة إسلامية ، ولم يبق على غير الإسلام في المغرب سوى جماعة من الروم ، وطائفة من اليهود . ويجمع المؤرخون على أن بربر إفريقيا أسلموا جميعهم في أيام

(١) ابن عذارى، ج١، ص ٤٥

(٢) المالكي، رياض النفوس، أنظر الفصل الخاص بتراجم هؤلاء التابعين، ص ٦٤-٧٦

اسماعيل بن أبي المهاجر^(١) . وعلق الأستاذ جورج مارسيه على انتقال البربر إلى الإسلام بمثل هذه السرعة بقوله : « ففي أقل من قرن واحد اعتنق العدد الأعظم من أبناء أولئك المسيحيين^(٢) الإسلام في حماس يجعلهم راغبين في اغتنام الشهادة ، وقد تمت النقلة بصورة نهائية في خلال القرنين الأول والثاني للهجرة أو القرون الثلاثة التالية ، غير تاركة من بلاد المغرب سوى بقع ضئيلة ، أصبح حتى مجرد الاعتقاد في وجودها أمرا مشكوكا فيه . وبينما كانت معظم البلاد التي انتشر فيها الإسلام تحتفظ بطوائف مسيحية ، كانت لها مكانة مرموقة في الدولة في بعض الأحيان كالشأن مع سكان جبل لبنان في بلاد الشام ، والأقباط في مصر ، والمعاهدة المستعربين في الأندلس ، الذين كانوا يعيشون جميعا جنبا إلى جنب مع ساداتهم المسلمين ، فان وطن سان أوجستين لم يعرف نظيرا لذلك »^(٣) .

وننتج عن انتقال البربر إلى الإسلام انتشار اللغة العربية ، لغة القرآن ، في بلاد المغرب . ويذكر الأستاذ عثمان الكعاك أن الفتح العربي للمغرب يمتاز عن غيره من الفتوحات السابقة للمغرب كالفتح الفينيقي والروماني ، بأنه فتح ثقافي ، فقد حمل الفاتحون معهم اللغة والدين ممثلين في القرآن الكريم « الذي هو قوام دين ، ودستور سياسة ، وبحر إخلق ، وقاموس

(١) ابن عذارى ج ١ ، ص ٤٥ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٣ ، ج ٦ ص ٢٢٠

(٢) يقصد بهم نصارى البربر الذين كانوا يؤلفون الأغلبية العظمى لسكان المغرب . ويذكر الأستاذ مارسيه أن بعض سكان المغرب كانوا وثنيين ، ويعتقد استنادا إلى ابن خلدون أن هؤلاء الوثنيين هم من حاجة السوس .

(٣) G. Marcais : la Berberie musulmane et l'Orient au Moyen

لغة ، ودبوان ثقافة ، لذلك بنى الفتح على الثقافة في يوم الفتح نفسه « (١) ، وكان من الطبيعي أن يحرص البربر الذين دخلوا في الإسلام على تعلم العربية لدراسة ما جاء في القرآن الكريم من آيات بينات. ولكن انتشار اللغة العربية التي حلت محل اللاتينية لم يقض على اللغة البربرية التي كانت منتشرة على وجه خاص في أطراف المغرب وفي المناطق الجبلية والرعوية ، إلا أن لغة البربر كانت وسيلة للتعبير الشفوي عند البدو ، ولم تكن قط لغة حضارة . ويرجع الفضل في انتشار الإسلام واللغة العربية إلى عقبة بن نافع الفهري الذي أسس القيروان ومسجدها الجامع ، وإلى حسان بن النعمان الذي أسس مدينة تونس ووزع الفقهاء في سائر البلاد لتثقيف البربر وتعليمهم أصول الإسلام ، وإلى موسى بن نصير الذي أرسل المعلمين إلى السوس الأقصى وحول الكنائس فيها إلى مساجد ، فجعلها مراكز لتحصيل العلوم الدينية ، وأسس مسجدي تلمسان وأغاث هيلانه (٢) ، وأخيرا إلى إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الذي كان لتقواه وورعه وزهده وحرصه على الإصلاح أعمق الأثر في انتقال البربر إلى الإسلام جملة ، بفضل التابعين العشرة الذين بعثهم معه الخليفة العظيم عمر بن عبد العزيز . ومن بين المساجد التي أسست على أيدي هؤلاء التابعين مسجد الرباطي الذي بناه أبو عبد الرحمن عبد الله ابن يزيد الماعري الإفريقي ، وجامع الزيتونة بتونس الذي بناه إسماعيل بن عبيد الله المعروف بتاجر الله . ولقد كانت المساجد الأولى التي بناها المسلمون مراكز علمية هامة ، ومعاهد للدرس والتحصيل قبل أن تظهر الجامعات

(١) عثمان الكعاك ، مراكز الثقافة في المغرب ، مطبوعات معهد الدراسات العربية

العالية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٢

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٣٧

والمدارس ، فقيه كان يسمع التلاميذ على أساتذتهم في الفقه ، واللغة ، والحديث ، والقراءات ، والطب ، والفلك ، وغيرها من الدراسات العلمية الدينية وأدبية ولغوية ؛ ولهذا السبب نشهد ثلاث ظواهر في هذا القرن الثاني الهجري في بلاد المغرب ، الظاهرة الأولى ، إنشاء المساجد في داخل بلاد البربر ، وفي بلاد السوس . والظاهرة الثانية ، إرسال بعثات من علماء العرب وفقهائهم ومن التابعين إلى سائر أنحاء بلاد المغرب . والظاهرة الثالثة ، تأسيس مساجد خاصة بقصد الأعمال الخيرية ، وأشهرها بالقيروان مسجد الرباطي أو الحبلي ، ومسجد أبي ميسرة ، ومسجد محمد بن خيرون الاندلسي^(١) ، والمسجدان اللذان أسستهما مريم بنت محمد بن عبد الله الفهري وأختها فاطمة القروية أم البنين بربضى الأندلسيين والقرويين بفاس^(٢) .

ب - سياسة الاستبداد مع البربر ونتائجها :

توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز بدير سمعان في ٦ شعبان سنة ١٠١ هـ ، وولى الخلافة المروانية بعده يزيد بن عبد الملك ، وكان يزيد هذا لا يقر سياسة التسامح واللين التي اتبعها الخليفة المصلح عمر بن عبد العزيز ، وإنما كان يرى أن سياسة الترهيب والعنف أجدي على الدولة ، كذلك كان يرى أن انتقال البربر إلى الإسلام قد أدى بطبيعة الحال إلى ضياع مورد هام من موارد الدولة وهو الجزية التي كانت تفرض على المعاهدين من النصارى وأهل الذمة ، ولذلك بادر منذ توليه الخلافة بعزل إسماعيل بن أبي المهاجر ،

(١) عثمان الكماك ، مراكز الثقافة في المغرب ، ص ١٤

(٢) الجز ناءى ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، الجزائر ١٩٢٢ ، ص ٣٤

وولي على إفريقية صاحباً للحجاج بن يوسف هو يزيد بن أبي مسلم ،
 كاتب الحجاج وصاحب شرطته ، ليطبق على البربر نفس السياسة التي طبقها
 الحجاج الطاغية على أهل العراق . فقدم يزيد بن أبي مسلم إلى إفريقية
 سنة ١٠٢ هـ ، وعزم على أن يسير في البربر « بسيرة الحجاج في أهل الإسلام
 الذين سكنوا الأمصار ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة » ، فأسلم
 بالعراق ، فانه ردهم إلى قراهم ، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت
 تؤخذ منهم وهم كفار^(١) . وهكذا تشبه يزيد بن مسلم بالحجاج ،
 واستبد مع البربر ، وفرض عليهم الجزية ، واستخف بهم ، واشتد عليهم في
 جمع أموالهم ، وسبى نساءهم ، وأسرف في ذلك حتى أوغر عليه صدورهم .
 ويذكر ابن عبد الحكم أنه قبض على محمد بن يزيد القرشي ، فعذبه وجلده
 جلداً وبجيعاً ، فاستسقاه ، فسقاه رماداً ، وكان قد بنى له في السجن
 بيتاً ضيقاً ، فجعله فيه ، وكساه جبة من الصوف الغليظ وختمها بالرصاص^(٢) .
 وذكر ابن عذاري أنه « كان ظلوماً غشوها » ، وكان البربر يحرسونه ،
 فقام على المنبر خطيباً : إني رأيت أن أرسم اسم حرسى في أيديهم كما تصنع
 ملوك الروم بحرسها ، فأرسم في يمين الرجل اسمه ، وفي يساره حرسى ،
 ليعرفوا بذلك من بين سائر الناس ، فاذا وقفوا على أحد أسرع لما أمرت
 به : فلما سمعوا ذلك منه ، أعنى حرسه ، اتفقوا على قتله ، وقالوا : جعلنا
 بمنزلة النصارى^(٣) . وأخذ هؤلاء الحراس ومعظمهم من موالى عبد الله

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، طبعة القاهرة ١٩٣٩ ، ج ٥ ، ص ١٠٣ - ابن
 الأثير ج ٤ ، ص ١٨٢

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ص ٢٨٨

(٣) ابن عذري ، ج ١ ، ص ٤٦

ابن موسى بن نصير ، يترقبون الفرصة المواتية للوثوب عليه ، وقد نجحوا في قتله وهو يؤدي الصلاة بعد شهر واحد من ولايته (١) . ثم اتفق القوم على تولية المغيرة بن أبي بردة ، ولكن ابنه عبد الله نصحبهم بأن يختاروا محمداً بن يزيد ، وكان غازيا بصقلية ، لأن أباه شهد مقتل يزيد بن أبي مسلم ، فخشى أن يتهم بقتله ، فوافق القوم على ذلك ، فلما قدم محمد بن يزيد ، قلده أمر إفريقية والمغرب ، وكتبوا إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك : « إنا لم نخلع أيدينا من طاعة ، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون ، فقتلناه ، وأعدنا عاملك » ، فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك : « إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم » وأقر محمد بن يزيد على عمله « (٢) .

لم يجد يزيد بن عبد الملك بدا من الإذعان لرغبة البربر ، وقبول الأمر الواقع ، ولكنه بدأ يحتز من البربر ويعمل لهم حسابا كبيرا ، فرأى أن يغير سياسته معهم ، ثم أقام عليهم بشر بن صفوان الكلابي والياسنة سنة ١٠٣ هـ ، وكان بشر واليا على مصر عند مقتل يزيد بن أبي مسلم ، فقدم إلى القيروان . واصطنع مع البربر سياسة تقوم على المساواة بينهم وبين العرب ، وحسن المعاملة والعدل ، تهدئة لخواطرهم ، ونجح في تمهيد المغرب ، وتسكين أرجائه بحسن سيرته ولينه ، وساد البلاد في عهده فترة من السلم والهدوء . ويبدو أن يزيد بن عبد الملك كان غاضبا على بني موسى بن نصير في المغرب ، إذ كان يعتقد أن لهم يدا في تحريك مواليتهم على الثورة على يزيد و قتله ، وكان

(١) ابن عبد الحكم ، طبعة عبد المنعم عامر ، ص ٢٨٩ - السلاوي ، الاستقصا ،

ج ١ ، ص ١٠٣

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ١٨٢ - ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٣ - السلاوي ، ص ١٠٣

معظم الثأرين على يزيد بن أبي مسلم من موالى موسى بن نصير ، فعظم ذلك على يزيد بن عبد الملك ، وأمر عامله يشرأ بقتل عميهم عبد الله بن موسى ومصادرة أموالهم ، فكان أول ما فعله بشر قتل عبد الله بن موسى وتعذيب آله واستتصفاء أموالهم ^(١) ، ولعله كان يطمع في أخذ هذه الأموال الطائلة لنفسه عن هذا الطريق بعد أن انقطع عنه المورد الآخر وهو الجزيات بمقتل يزيد بن أبي مسلم . ثم رحل بشر بعد ذلك إلى دمشق ليقيم هذه الأموال والتحف إلى الخليفة ، ولكن يزيد كان قد توفي قبل وصول بشر إلى دمشق ، فقدم بشر الهدايا والأموال إلى هشام بن عبد الملك ، فأقره على عمله بالمغرب فقدمها وتبع أموال موسى بن نصير بالمصادرة وعذب مواليه . وفي سنة ١٠٩ هـ خرج بشر بن صفوان بنفسه لغزو صقلية ، فأصاب بها سبياً كثيراً ^(٢) ، ولكنه أصيب عند عودته بمرض خطير يقال له الديبيلة مات على أثره بالقيرون في شوال سنة ١٠٩ هـ ، وكان بشر قد استخلف على المغرب أثناء مرضه العباس بن باضعة الكلبي ، فظل العباس يقوم بولاية المغرب حتى وصل عبيدة بن عبد الرحمن الساسي ، الوالي الجديد إلى القيروان في ربيع الأول سنة ١١٠ . وكان عبيدة هذا قيسياً متعصباً ، فتحامل على عمال بشر وأنصاره ، فسجنهم ، وأغرمهم ، وعذب بعضهم ، ثم ولي على الأندلس من قبله ولاية أربعة على التوالي هم . عثمان بن أبي نسيعة الخثعمي في شعبان سنة ١١٠ هـ ، وحذيفة بن الأحوص القيسي ، في أول محرم سنة ١١١ هـ ، والهيثم بن عبيد الكتاني في محرم سنة ١١٢ هـ ، وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، في محرم

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٩٠

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٤٨ — ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٠١

سنة ١١٣ هـ وكان من ضحايا سياسته التعصبية عامل من عمال بشر بن صفوان هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى، عزله عبدة ونكل به، فكتب أبو الخطار الأبيات الثلاثة الآتية:

أفأتم بنى مروان قيساً دماءنا
وفى الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راھـط
ولم تعلموا من كان تم له الفضل
تعاميتم عنا بعين جلية
وأنتم كذا ما قد علمنا لنا فعل

وبعث بهذه الأبيات إلى الخليفة هشام، فأمر هشام بعزل عبدة عن إفريقية والمغرب، فاستخلف عبدة أحد أصحابه هو عقبة بن قدامة، فى شوال سنة ١١٤ هـ، وتوجه إلى الشام ومعه من الهدايا والتحف العظيمة والإماء والدواب الكثير^(١)، وذكر ابن عبد الحكم أنه حمل إلى هشام من الجوارى المتخيرة سبعمائة جارية وغير ذلك من الخصيان والخيول والدواب والذهب والفضة والآنية^(٢).

وكان عبدة رغم حسن رأيه وحزمه شديداً فى معاملته للبربر، فأسرف فى غزو قبائلهم وسبى نسايتهم، وبالغ فى التعسف معهم والجور بهم، وقد كان لهذه السياسة العاشقة أثرها فى تقبل البربر لمبادئ الخوارج، على النحو الذى سنفصله فيما بعد. ومن جلائل أعمال عبدة إرساله المستنير بن الحارث الحريق

(١) نفس المرجع ص ٥٠ - ابن الأثير، ج ٤، ص ٢١٥

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٢٩٢

إلى صقلية حيث قضى فيها الشتاء غازيا ، وعند قفوله من غزواته ثار البحر ، ففرق من معه من المسلمين ، ونجا المستنير في مركبة ، ونزل بساحل طرابلس ثم قدم إلى القيروان ، فعاقبه عبيدة بالجلد والتشهير بالقيروان ، ثم أمر بسجنه فظل به إلى أن قدم عبيد الله بن الحبحاب واليا على إفريقية سنة ١١٤ هـ ، فأفرج عن المستنير ، وولاه تونس^(١) .

وكان عبيد الله بن الحبحاب قد أثبت مهارة كبيرة في إدارة شئون مصر ، فاختره الخليفة هشام بن عبد الملك واليا على المغرب كله لصرامته وشدة ، فاستخلف عبيد الله بن الحبحاب على مصر ابنه القاسم ، واستعمل على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى القيسى ، واستعمل على طنجة وما والاها من المغرب الأقصى ابنه اسماعيل ، ثم عمر بن عبد الله المرادى^(٢) . وكان عبيد الله قيسيا متعصبا لقيسيته ، كما كان متعصبا للعرب عامة على البربر ، فجعل يتعسف معهم كما كان يتعسف مع اليمنية ، ويسدو أن بربر السوس الأقصى شقوا عليه عصا الطاعة ، فبعث إليهم حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع سنة ١١٦ هـ غازيا ، فباغ أرض السودان ، وتغلب عليهم ، وأصاب كثيرا من السبي^(٣) والذهب والفضة ، كذلك سير عبيد الله بن الحبحاب جيشا إلى صقلية لغزوها ، واشتبكت سفن المسلمين مع سفن الروم في قتال عنيف انتهى بهزيمة الروم^(٤) .

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢١٥

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٥١

(٣) ابن عذارى ، ص ٥١ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢١٩ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص

٤٠٤ ، ج ٦ ، ص ٢٢١

(٤) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢١٩

وأساء عمال ابن الحبّاب في المغرب السيرة مع البربر ، واعتبروهم فيئاً-
للمسلمين وعبيداً لهم ، وكان أشد هؤلاء العمال ظلماً واستبداداً عامله على
طنجة عمر بن عبد الله المرادي ، الذي « أساء السيرة ، وتعدى في الصدقات
والعشر ، وأراد تخميس البربر ، وزعم أنهم فيء المسلمين ، وذلك ما لم
يرتكبه عامل قبله ، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام ، فكان
فعله الذميمة - هذا سبباً لانتقاص البلاد ، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى
كثير من القتل في العباد » (١) . وكان هشام بن عبد الملك يستحب طرائف
المغرب ويكتب إلى عامله بطنجة أن يرسل إليه « جلود الخرفان العسلية »
التي تسليخ من جلود سخال الضأن عند ولادتها أي قبل أن تصبح خشنة بنمو
الخرفان ، فيصنعون منها الجباب الصوفية الناعمة ، وكان الخليفة يؤثر اللون
العسلي ، ويطلب من عامله أن يأتيه بها عسلية اللون غير مصبوغة . ولما كان
من العسير للغاية التوصل إلى خراف وليدة بهذا اللون العسلي ، فقد عمد
العامل إلى النعاج الحاملة ، فيأمر بقر بطونها واستخراج أجنتها بحشا عن
هذه الجلود العسلية . ويذكر صاحب أخبار مجموعة أنه كانت تذبح « مائة
شاة فربما لم يوجد فيها جلد واحد » (٢) . وكان من الطبيعي أن يتعذب
صاحب قطع الغنم إذ يرى غنمه تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ،
ويعز عليه ضياع كل ماله بهذه الكيفية الوحشية ، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً
أمام هذا الظلم والاستبداد . وكان الخلفاء يستحبون أيضاً طرائف المغرب
ونسائه ، ويعثون إلى عامل إفريقية بطلبهن ، فكان العامل يحرص كل

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٢

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٣٢

الحرص على إرسال البربريات المسيبات^(١)، وهو أمر كان ينكره البربر على عاملهم . ويذكر ابن عذاري أنه « لما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب ، مناهم بالكثير ، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان ، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة »^(٢) .

ويلخص ابن خلدون أسباب ثورة البربر بقوله: استعمل ابن الحبحاب « عمر بن عبد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى ، وابنه اسماعيل على السوس وما وراءه ، واتصل أمر ولايتهم ، وساءت سيرتهم في البربر ، ونقموا عليهم أحوالهم ، وما كانوا يطالبونهم به من الوصائف البربريات والأفريفة العسلية الألوان وأنواع طرف المغرب . فكانوا يتغالبون في جمعهم ذلك وانتحاله ، حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه ، فكثر عبثهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم »^(٣) .

وهكذا كانت نفوس البربر تغلي لهذه المظالم في الوقت الذي انقسم فيه العرب إلى عصبيتين: يمنية وقيسية . وفي أثناء ذلك ، كثرت وفود الخوارج إلى بلاد المغرب لبعدها عن مركز الخلافة ، وتسلبوا بين البربر ، وأخذوا يشنون تعاليمهم بينهم ، مستغلين الخصومات القائمة بين العصبيتين اليمنية والقيسية واشتغال الولاة بهذه المنازعات . ويقبل البربر هذه التعاليم المنادية بالمساواة بينهم وبين العرب ، وفتحوا للخوارج صدورهم واحتضنواهم ، وكان لبربر البتر ، وعلى الأخص هواره وزناته الفضل الأعظم في استكمال فتح المغرب

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٣

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٠

وفتح الأندلس ، وكانوا لذلك يتوقعون من العرب أن يعاملوهم معاملة الأنداد ، ولكنهم صدموا لاستذلال الولاة لهم ، فتغيرت نفوسهم نحو العرب وبدأوا ينقلبون عليهم ، وتحالفت زناتة مع الأفرقة الذين ساء لهم أن يضعهم العرب في منزلة الروم ، فاعتبروا الأفرقة موالى ، وغنموا أراضيهم وأموالهم ، وهذا يفسر انضمام عبد الأعلى بن جريج الأفريقي إلى ميسرة المطغرى في الثورة (١) .

ج - مقدمات ثورة البربر على العرب في المغرب (موقعة الأشراف سنة ٥١٢٢ هـ) :
فر عدد كبير من العلويين والخوارج إلى الطرف الغربي من الدولة العربية ونعنى به بلاد المغرب من بطش الأمويين بهم ، والتمسوا الأمان بين البربر الساخطين على عمال بني أمية في المغرب . ووجد دعاة الخوارج من العرب في بلاد المغرب أرضا خصبة لغرس تعاليمهم القائمة على المساواة بين المسلمين والثورة على الظلم ، ولكن البربر اختلفوا في مدى تقبلهم لهذه التعاليم ، فبربر القسم الشمالى من المغرب الأقصى والمغرب الأوسط قبلوا المذهب الإباضى المعتدل ، بينما اعتنق بربر القسم الجنوبي من المغرب الأقصى - في المناطق الجبلية الممتدة من السوس الأدنى إلى جبال درن - مذهب الصفرية المتطرف . وبينما كان المعتدلون من البربر يدعون إلى الثورة على الظلم ، كان الغلاة وقد داخلتهم الشعوبية البربرية يدعون إلى إقامة حكومة بربرية دينها الإسلام ، أو إسلام متبربر ، ولغتها البربرية ، وظهرت هذه النزعة في برغواطية (٢) التى كانت تدين بديانة شرعها لها صالح بن طريف الذى تسمى بصالح المؤمنين

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ - حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٤٨

(٢) عثمان السكك ، المرجع السابق ص ١٥

وزعم أنه المشار إليه في القرآن (١) . ومن الغريب أن تنقلب فرقنا الإباضية والصفيرية اللتين لم تكونا حربا على الخلافة في المشرق ، إلى حركة تفوق في قسوتها وتطرفها حركة الأزارقة بالمشرق (٢) ، مما دعا الدكتور حسين مؤنس إلى أن يشك في نسبة حركات البربر في المغرب الأقصى إلى الصفيرية والإباضية لاعتدال هذين المذهبين ، فيرجعها إلى أسباب سياسية (٣) . فالمذهب الإباضى يتفق في كثير من أصوله وفروعه مع مذاهب أهل السنة ، وهو أقرب إلى أهل السنة من بقية الفرق الأخرى ، كما أن مذهب الصفيرية يكاد يكون أكثر مذاهب الخارجية اعتدالا (٤) .

وأول من أدخل مذهب الإباضية إلى إفريقية سلمة بن سعيد الذي قدم إليها من المشرق في أوائل القرن الثالث لينشره هناك بين البربر ، وأخذ عنه فيها عاصم السدراتي ، واسماعيل بن درار الغدامسى ، وداود القبلى النفزاوى وعبد الرحمن بن رستم الفارسي . وقد رحل هؤلاء إلى البصرة ، وتلقوا هناك أصول المذهب على أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة البصري من كبار علماء الإباضية ، وانضم إليهم بالبصرة عبد الأعلى بن السمح ، ثم عادوا إلى المغرب بعد أن أقاموا عند أبي عبيدة خمسة أعوام حتى أصبحوا من أعلام الإباضية، وعرفوا لذلك عند الإباضية في المغرب بحملة العلم (٥) .

(١) البكري ، ص ١٣٤ - ١٤١ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، تحقيق الدكتور مختار العبادي ، ص ١٨٢

(٢) عبد المنعم هاجد ، التاريخ السياسى للدولة العربية ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٨٨

(٣) حسين مؤنس ، هجر الأندلس ، ص ١٤٩

(٤) نفس المرجع

(٥) الطاهر احمد الزاوى ، ص ١٢١

ذكرنا أن بربر البتر بالذات تقبلوا التعاليم التي نشرها دعاة الخارجية ، ولم يشرع البربر في إعلان ثورتهم على العرب إلا بعد أن يشسوا من الإصلاح. ويبدو أن دعاة الخارجية بذلوا جهدا كبيرا في إقناع البربر على الوثوب بالعرب ، ولكن البربر آثروا إبلاغ أولى الأمر من الخلفاء عن مساوئ عمالهم في المغرب ، فسيروا وفدا إلى الخليفة هشام لمطالبته بإصلاح الوضع في المغرب ، ولكنهم لم يتمكنوا من مقابله ، إذ حال الأبرش وزيره بينهم وبينه ، فعادوا إلى المغرب وقد عزموا على الثورة . وفي ذلك يقول الطبري : « ... فما زال أهل المغرب من أسمح أهل البلدان ، وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك ، فلما دب إليهم أهل العراق ، واستثاروهم ، قالوا : إنا لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال ، ولا نحمل ذلك عليهم ، فقالوا لهم : إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك . فقالوا لهم : لا نقبل ذلك حتى نخبرهم . فخرج ميسرة المضغرى في بضعة عشر إنسانا (١) حتى قدم على هشام . فطلبوا الإذن ، فصعب عليهم ، فأتوا الأبرش (٢) ، فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزونا وبجنده ، فإذا أصاب ثقلهم دوننا ، وقال هم أحق به ، فقلنا ، هو أخلص لجهادنا . وإذا حاصرنا مدينة قال : تقدموا ، وآخر جنده . فقلنا : تقدموا ، فانه ازدياد في الجهاد ، ومثلكم كفى إخوانه . فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم . ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا ، فجعلوا يبقرونها عن السخال ، يطلبون القراء الأبيض لأمر المؤمنين ، فيقتلون ألف شاة في جلد ، فقلنا : ما أيسر هذا لأمر المؤمنين ، فاحتملنا ذلك ، وخليناهم وذلك .

(١) ذكر المالكي في رياض النفوس ، وابن خلدون في العبر أنه خرج في بضعة

وعشرين رجلا .

(٢) كان الأبرش رئيسا لوزراء هشام بن عبد الملك .

ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا ، فقلنا : لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ، نحن مسلمون . فأحينا أن نعلم ، أعن رأى أمير المؤمنين ذلك أم لا ؟ قال الأبرش : تفعل . فلما طال عليهم ، ونفذت تفقاتهم ، كتبوا أسماءهم في رقاع ورفعوها إلى الوزراء ، وقالوا : هذه أسماؤنا ، وأنسابنا ، فان سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه . ثم كان وجههم إلى إفريقية ، فخرجوا على عامل هشام فقتلوه ، واستولوا على إفريقية ، وبلغ هشام الخبر . فسأل عن النفر ، فرفعت إليه أسماؤهم ، فاذا هم الذين صنعوا ما صنعوا « (١) .

ولما لم يجد ميسرة المطعري ورفاقه من الخليفة هشام اهتماما ببحث شكائهم ، لجئوا إلى الثورة على عامل الخليفة في المغرب ، وكان ميسرة هذا شيخا من شيوخ قبيلة مطهرة البتية (٢) . وكان عالما مستنيرا ، فسأه أن لا يصغى الخليفة لشكاية قومه ، فعزم على الانتقاض على العرب ، فتولى دعوة الصنفية في المغرب الأقصى بين ذويه وقومه من بني مطهرة ، ولم يلبث أن انضم إليه بربر مكناسة وبرغواطة بزعامه صالح بن طريف ، كما انضم إليه الأفارقة في طنجة بزعامه عبد الأعلى بن جريج ، وبايعه البربر إماما « وخاطبوه بأمر المؤمنين ، وفشت مقالته في سائر القبائل بإفريقية » (٣) . وهكذا وجد

(١) الطبرى ، عن دبور ج ٢ ص ٢٤٨ ، ٢٤٩

(٢) ميسرة المطعري المعروف في المصادر العربية بالحقير أو الفقير ، أو الحقير كانت سقاء يبيع الماء بسوق القيروان (ابن القوطية ص ١٤ — البكرى ص ١٣٤ — ابن الأثير ج ٤ ص ٢٢٤ — ابن عذارى ج ١ ص ٥٢) ، ولكن الدكتور مؤنس يستبعد أن يكون كذلك ، ويعتقد استنادا على ابن خلدون أنه كان رئيسا لقبيلة مطهرة ، أو عينا من أعيانها وقد أثبتت الأحداث أنه كانت له عصبية لها خطرهما (حسين مؤنس ، هجر الأندلس ، ص ١٦٥)

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٠٥

البربر لهم رئيس يقودهم ، فاقتدوا بخوارج الأزارقة وأهمل النهران أصحاب عبد الله بن وهب الراسبي ، وحلقوا الرؤوس^(١) . وذكر ابن خلدون أنهم «فحصوا عن أوساط رؤوسهم ، ونادوا بشعار الخارجية»^(٢) . وسنحت الفرصة لميسرة للخروج على العرب عندما خرج جيشهم بقيادة حبيب بن أبي عبدة في حملة إلى صقلية ، فجمع أنصاره ، ونقضوا الطاعة لعبيد الله بن الحبحاب بطنجة وأقاليمها ، وتداعت براثر المغرب بأسره ، فثار البربر في المغرب الأقصى سنة ١٢٢ هـ (٧٣٩ م) ، وخرج ميسرة المطعري ، ووثب على عمر بن عبد الله المرادي بطنجة فقتله ، وولى ميسرة مكانه مولى من موالى موسى بن نصير هو عبد الأعلى بن جريج الإفريقي الرومي الأصل ، وكان مقبدا للصفرية في طنجة . وسار ميسرة إلى السوس ، وهاجم قوات اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ، فهزمه وقتله ، واضطرم المغرب على أثر ذلك نارا ، فانتقض أمره على خلفاء بني مروان في المشرق^(٣) .

وهكذا تخرج موقف عبيد الله بن الحبحاب في بلاد المغرب ، وساء مركز العرب ، وفي نفس الوقت ، عظمت مكانة ميسرة وأتباعه من البربر الخوارج ، وكثر جمعه من البربر ، وقوى أمره في المغرب الأقصى . وغضب عبيد الله لزوال هيبة العرب بقتل عامله على طنجة وولده اسماعيل ،

(١) أخبار مجموعة، ص ٣٢

(٢) ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤٣

(٣) ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤٠ . أخطأ الأستاذ محمد علي ديبوز إذ ذكر أن اسماعيل

لقب عبيد الله بن الحبحاب تغلب على ابن جريج وقتله لتفوق اسماعيل عليه في العدد والسلاح (ج ٢ ص ٢٥٦)

فكتب إلى حبيب بن أبي عبدة يأمره بالرجوع من صقلية حتى يتمكن العرب من التكتل ، ومواجهة ثورة البربر ^(١) .

وأعد عبيد الله بن الحبحاب بالقيروان جيشا مؤلفا من خيار العرب ، جعل على مقدمته خالد بن حبيب بن أبي عبدة الفهرى ، وتقدم هذا الجيش قاصدا إلى طنجة لمقابلة حشود ميسرة من البربر ، وعبر خالد وادى شليف بالقرب من تاهرت ، والتقى هناك بجيش أبيه حبيب الذى عاد من صقلية ، فزل حبيب على مجاز الوادى وآثر البقاء هناك ، فلم يبارحه . أما ابنه خالد فقد مضى من فوره حتى لقي ميسرة بالقرب من طنجة ، فاقتتل جيشاهما ، وتراجع ميسرة ، فثار عليه البربر وقتلوه ، وولوا أمرهم مكانه زعيما من الغلاة المتطرفين هو خالد بن حميد الزناتى ، فالتقى خالد بن حبيب بالبربر بقيادة ابن حميد الزناتى ، ولكنه لم يستطع أن يصمد أمام جيوشهم الكثيفة ، فانهزم ، وانهزم وراءه العرب هزيمة مخزية لم يسمع بمثلها ، وقتل ابن حبيب ومن معه ، ولم يبق من أصحابه رجل واحد ، فقتل فى تلك الواقعة حماة العرب وفرسانها وكماثها وأبطالها ، فسميت الغزوة «غزوة الأشراف» ^(٢) .

د - ثورة البربر فى المغرب (موقعة بقدورة على وادى سبو سنة ٥١٢٤ هـ) :
انقضت البلاد بعد انهزام العرب فى موقعة الأشراف ، ومرج أمر الناس ^(٣) ، ووصلت أخبار هزيمة العرب فى طنجة إلى مسامع بربر

(١) ابن عذارى ج ١ ، ص ٥٤ - ابن الأثير ج ٤ ، ص ٢٢٢

(٢) نفس المرجع ص ٥٥ - ابن الأثير ج ٤ ، ص ٢٢٣ . ويذكر ابن خلدون أن

موقعة الأشراف حدثت على وادى شلف (ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢)

(٣) ابن الأثير ج ٤ ، ص ٢٢٣ - ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٥ - ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٢

الأندلس ، فثاروا على عاملهم عقبة بن الحجاج السلولى ، وعزلوه فى صفر سنة ١٢٣ ، وولوا عبد الملك بن قطن الفهرى ^(١) ، وتخرج موقف ابن الحبجاب فى المغرب لذلك ، فاجتمع أعيان العرب فى القيروان وعزلوه ^(٢) .

ولما علم هشام بالكارثة التى أصابت العرب فى المغرب ، كتب يستدعى عبيد الله بن الحبجاب من إفريقية ، فخرج منها فى جمادى الأولى سنة ١٢٣ (٧٤٠ م) ، وعزم هشام على الانتقام من البربر وعبر عن ذلك بقوله : « والله لا أغضبهم لهم غصبة عربية ، ولا أبعث لهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي » ^(٣) . وشرع فى العمل ، فأقام على المغرب بدلاً من ابن الحبجاب رجلاً قيسياً آخر من غلاة القيسية هو كاثوم بن عياض القشيري ، وسير معه جيشاً كثيفاً عدته ١٢ ألفاً من الشاميين ، انضم إليهم ثلاثة آلاف من مصر ، وثلاثة آلاف من جند قنسرين ، كما انضم إليه فى طرابلس حشد هائل من جند طرابلس ، وتولى قيادة الجيش ابن أخيه بلج بن بشر القشيري . وكان هشام قد أوصى كلثوما بأن يجعل الأمر عند إصابته إلى ابن أخيه بلج ، ثم إلى ثعلبة بن سلامة العاملى ^(٤) ، وكلاهما من غلاة القيسية . وكان معظم عرب إفريقية ، الذين توطنوا هذه البلاد منذ أيام الفتح العربى للمغرب ، وأصبحوا بلديين ، شأنهم فى ذلك شأن عرب الأندلس ، من

(١) ابن القوطية ص ١٤ — ابن الأثير، ج ٤ ، ص ٢٢٣ — ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٥

ابن خلدون ج ٦ ، ص ٢٤٠

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٥٥

(٣) قس المرجع — ابن القوطية ، ص ١٤

(٤) ابن القوطية ، ص ١٤ — أخبار مجموعة ، ص ٣٠

اليمنيين . وكانت بين الفريقين ثارات وأحقاد قديمة ترجع إلى أيام وقعة
الجرة التي حدثت في سنة ٦٣ هـ في عهد يزيد بن معاوية ، وكان الموقف
يستلزم نسيان هذه الأحقاد ، ودفنها أمام الخطر الجاثم ، ولكن الأحداث
أثبتت غير ذلك .

وصل كلثوم بن عياض إلى إفريقية في رمضان سنة ١٢٣ هـ ، ولكنه
تنحى عن دخول القيروان ^(١) ، وعامل بلج بن بشر العرب الأفارقة بحفاء ،
وقال لهم : « لا تغلقوا أبوابكم حتى يعرف أهل الشام منازلمهم » ، فغضب
العرب البلديون من قوله ، وكتبوا إلى قائد قواتهم حبيب بن أبي عبدة وهو
تلمسان موافق للبربر ، يشكون إليه بلجسا و كلثوما . فكتب حبيب إلى
كلثوم رسالة جاء فيها : « إن ابن عمك السفية قال كذا وكذا ، فارحل
بعسكرك عنهم وإلا حولنا أعنة الخيل إليك » ، فكتب كلثوم يعتذر إليه ،
وبأمره أن يقيم بشلف حتى يقدم عليه ^(٢) . فأقام كلثوم على القيروان
عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ، ومسلمة بن سودة القرشي ، وزحف بجيشه
إلى تلمسان مارا ببلدة سببية ^(٣) . ويذكر ابن عبد الحكم أنه استخلف على
القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ، وعلى الحرب مسلمة بن سودة
القرشي ، ثم رحل من إفريقية متجها إلى طنجة . فقام عكاشة بن أيوب
الفزاري ، وكان من الخوارج الصفرية ، من ناحية قابس ، وبعث أخاه في
جمع من البربر فتحاصروا حبيب بن ميمون ومن معه من العرب في سرت .

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٥٦

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن علدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٦

فاستنجد ابن ميمون بصنفوان بن مالك ، أمير طرابلس ، فقدم لنجدته ، فانهمزم البربر وتراجعوا إلى قابس . وكان خبر هذه الغزوة قد وصل إلى القيروان ، فخرج القائد مسلمة بن سودة القرشي إلى قابس للقضاء على حركة البربر ، ولكنه انهمزم في جموعه بأحواز قابس ، وقتل عامة من خرج معه ، وتراجع إلى القيروان حيث تبعته حشود البربر وحاصرتة فيها (١) ، وازداد بذلك تخرج موقف العرب . ثم خرجت فرقة من العرب إلى جيش عكاشة ، فهزمته ، فلاحق ببلاد الرمل (٢) .

ولما وصل كلثوم إلى معسكر حبيب بن أبي عبيدة على وادي شليف ، استخف بحبيب وأهانته ، وسبه ببلج وتنقصه ، وقال : « هذا الذي يحول أعنة الخيل إلينا ؟ » (٣) . فغضب عبد الرحمن بن حبيب ، ودعا إلى المنازلة ، وتوترت النفوس توتراً يؤذن بالقتال ، وانفصل العرب الأفارقة إلى جانب ، وانضم إليهم عسكر مصر . وكاد القتال ينشب بين الشاميين والأفارقة العرب ، بل إن ابن عبد الحكم وابن خلدون يؤكدان نشوب القتال بين الجانبين قبل أن يلقوا البربر ، ولم يتمكن كلثوم من إقرار الصلح إلا بعد جهد كبير . فتصافى الفريقان ، واتحدا فيما بينهما للقاء العدو المشترك . ولكن هذا الصفاء لم يكن إلا ستاراً زائفاً يخفى تحته ما كان قائماً بالفعل بينهما من انقسام وتغاير . ويعلق ابن عذارى على ذلك بقوله : « فكان هذا الاختلاف سبب هلاكهم مع سوء رأى كلثوم وبلج » (٤) . ثم زحف كلثوم مع جيوش العرب

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٩٥ — حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٧٢

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٢٣

(٣) ابن عذارى ، ص ٥٦

(٤) نفس المرجع ، ص ٥٧

مجتمعة^(١) نحو البربر وكان الخليفة هشام قد أمر كلثوم بأن يستخدم هرون القرني مولى معاوية بن هشام ، ومغيثا الرومي مولى الوليد لمعرفة أهلها بالبلاد ، فجعل كلثوم على رجالة إفريقية مغيثا ، وجعل على خيلها هرون القرني . واشتبك العرب بقيادة كلثوم مع البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتي عند بلدة بقدورة الواقعة على وادي سبو ، بالقرب من مدينة تاهرت ، في طليعة عام ١٢٤ . ولما رأى مغيث وهرون كثرة حشود البربر ، نصحا كلثوم بأقامة خندق يحيط بمعسكر المسلمين ، وقال له : « خندق أيها الأمير ، وتلوم بالكراديس ، واعطنا الخيل نخالفهم إلى قرارهم ودراريهم »^(٢) . ويبدو أن كلثوم قد اتنع بوجاهة رأيها ، وهم بحفر الخندق حول المعسكر ، غير أن بلج ، وقد ملأه الفرور ، قاطعه في ذلك ، وكان كلثوم لا يعصى له أمراً ، فقال له بلج : « لا تفعل ، ولا يرعك كثرة هؤلاء ، فان أكثرهم عريان أعزل ، لا سلاح لهم »^(٣) . فناشبههم كلثوم القتال ، وجعل بلجا ابن أخيه على قيادة الخيالة الشاميين ، وهرون القرني على خيالة عرب إفريقية ، ومغيثا على رجالة عرب إفريقية ، بينما قاد كلثوم رجالة أهل الشام . وبذكر ابن عذارى أن كلثوم « وجه بلجا ليلا ليوقع بالبربر ، فسرى ليلته ، وأوقع بهم عند الصباح ، فخرجوا إليه عراة ، فهزموه ، ووصلوا إلى كلثوم »^(٤) ،

(١) يذكر ابن عذارى أن جيوش العرب بلغت ثلاثين ألفا (البيان ص ٥٧) ، بينما يذكر صاحب أخبار مجموعة أنها وصلت سبعين ألفا (أخبار مجموعة ص ٣١) . والظاهر أن هذا الرقم الأخير يتضمن جيش عرب إفريقية كذلك .

(٢) أخبار مجموعة ص ٣٢

(٣) نفس المرجع .

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٥٧

فاشتد القتال ، ولجأ البربر إلى وسيلة مبتكرة كسيروا بها المعركة ، فقد كانوا يستقبلون خيل بلج بالجلود اليابسة المحشوة بالحجارة ، فيرغمون خيل أهل الشام على النكوص والتراجع ، كما عمدوا إلى الرمك الصعبة فعلقوا في أذانها القرب والأنطاع اليابسة ، ثم وجهوها نحو معسكر كلثوم ، فنفرت الخيل^(١) واختل مصاف العرب ، واضطر كلثوم إلى المناداة بالنزول عن الخيل ، وكان ذلك ما يرمى إليه البربر ، إذ لم تكن لديهم خيول تكافئ خيول المسلمين ، فاعتمدوا على كثرتهم العددية ، وأعملوا في العرب سيوفهم ، وبدأت أعراض الهزيمة على جيش كلثوم . ثم خالطت خيالة البربر ورجالاتهم كلثوما ورجاله ، فاستشهد كلثوم وحبيب بن أبي عبدة ، وسليمان بن أبي المهاجر ، وهرون القرني ، ومغيث الرومي ، وعدد هائل من وجوه العرب وانتهت المعركة بآبادة البربر لجيش كلثوم ، وأسفرت الواقعة عن هزيمة شنعاء أصيب بها جيش العرب . وركب من نجا من العرب منهزماً إلى إفريقية وتبعهم البربر يقتلونهم ويأسرونهم ، حتى ذكروا أن البربر قتلوا ثلث الجيش . وأسروا ثلثه الثاني ، وطاردوا الثلث المنهزم^(٢) . أما بلج فلم يجد بداً من الفرار هو ومن بقى من فرقته وعددهم عشرة آلاف ، فسلذ بمدينة سبتة ، وأقبل البربر وراءه يحاصرون المدينة ويهاجمونها المرة بعد المرة ، ولكنهم لم يتمكنوا من اقتحام أسوارها ، لحصاتها ومناعتها ، فعمدوا إلى نسف مزارعها وتخريبها ، فأقفرت الأرض حول سبتة مسيرة يومين ، وبذلك قطعوا على العرب المعاش ، فجاعوا حتى أكلوا دوابهم ، وأكلوا الجلود وأشرفوا على الهلاك^(٣) .

(١) أخبار مجموعة ص ٣٣ — ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٤٣

(٢) ابن القوطية ، ص ١٥ — أخبار مجموعة ، ص ٣٤

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٣٧ — ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٤٢

وكان عبد الرحمن بن حبيب قد فر إلى الأندلس عقب موقعة بقدورة التي استشهد فيها أبوه^(١) ، وأقام في قرطبة في كنف أميرها عبد الملك بن قطن ، وكان يحمي مثله وبلديا . أما بليج فقد اضطر إلى الاستنجاد بعبد الملك ابن قطن ، واستأذنه في العبور هو وأصحابه إلى الأندلس وذكر له ما صار إليه فل عرب الشام من الجهد ، فنصحه عبد الرحمن بن حبيب بألا يأذن لهؤلاء الشاميين بالجواز إلى الأندلس ، وخوفه من غدرهم^(٢) ، فتغافل ابن قطن عن إنجادهم ، وسره هلاكهم ، وخافهم على سلطانه^(٣) . فاشتدت الحال ببليج وأصحابه ، وضاق عليهم الأمر . واتفق أن ثار بربر الأندلس على عربها عندما بلغهم ظهور بربر العدو على عرب الشام والعرب البلديين ، فاضطر عبد الملك إلى الاستعانة ببليج ورجاله المحصورين بسبتة ، واتفق معهم على أن يبارحوا الأندلس بعد قضاء مهمتهم ، ثم أرسل إليهم السفن والأطعمة .

ازدادت ثورة البربر في المغرب عنفا بعد انتصارهم على العرب في موقعة بقدورة ، وظهر في هذه الآونة زعيان بربريان هما : أبو يوسف الهواري ، وعكاشه بن أيوب الفزاري الصفري الذي رأيناه يهاجم العرب في القيروان ، وأخذ هذان الزعيان يتأهبان للزحف على القيروان ، وأخذت حشودهم تتجمع في منطقة الزاب . وكانت أنباء الهزيمة التي مني بها العرب في بقدورة وما تبعها من استشهاد كلثوم وحبيب وغيرهما من كبار قادة العرب قد

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٦٥

(٢) نفس المرجع ، ص ٥٩

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٣٧ — ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٤٢

وصلت إلى الخليفة هشام ، فكان لها صدى أليم في نفسه ، فغضب غضبا شديداً ، ورأى ضرورة اتخاذ موقف إيجابى حاسم تجاه الثورة البربرية العاتية قبل أن يستفحل خطرهما ، فینتهى الأمر بضیاع المغرب والأندلس نهائیا على العرب ، فأمر حنظلة بن صفوان عامله على مصر ، بالسیر فوراً إلى المغرب ، وقلده ولاية المغرب ، وأمدّه بجيش ضخم من العرب ، فخرج حنظلة من الفسطاط في صفر سنة ١٢٤ هـ ، ووصل إلى إفريقية في ربيع الآخر ، واستقر بالقيروان . فلما علم عكاشة وعبد الواحد بوصول حنظلة زحفا بقواتها من الزاب في طريقين ليصلا إلى القيروان من جهتين ويطوقانها ، فسلك عكاشة طريق مجانة واقترب من القيروان ، وعسكر عند القرن ، بينما سار عبد الواحد في طريق الجبال ، وجعل على مقدمته أبا قرّة المغيلي (١) .

وآثر حنظلة أن يقابل كل منها على حدة (٢) ، إذ لا طاقة له بمواجهة أعدائه مجتمعين ، فلما اقترب عكاشة من القيروان خرج إليه حنظلة بجماعة من أهل القيروان ، واشتبك مع قوات عكاشة في القرن ، واشتد القتال بينهما ، فدارت الدائرة على عكاشة ، وقتل من البربر أعداد هائلة . وبادر حنظلة بالعودة إلى القيروان بعد انتصاره خوفاً من أن يصل إليها عبد الواحد ويذكر ابن عذارى ، نقلاً عن عبد الله بن أبي حسان ، أن حنظلة « أخرج كل ما كان في الخزائن من السلاح ، وأحضر الأموال ، وتنادى في الناس ، فأول من دخل عليه رجل من محصب ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : نصر بن نعم ، قال : فتبسم حنظلة كالمكذب له ، وقال له : بالله اصدق . فقال : والله مالى اسم غير ما قلت ... فتفاهل به وقال : نصر وفتح . فأعطى الناس ، وخرج

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٢ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٢٣

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٣٧ — ابن الأثير ، ص ٢٢٣

لمقابلة الصفريّة» (١) وكان عبد الواحد قد نزل على بعد ثلاثة أميال من القيروان في موضع يقال له الأصنام ، على مقربة من طبنة . وقد تجمع له من الجيوش ما يقدر بثلاثمائة ألف مقاتل (٢) . فحشد حنظلة كل من بالقيروان من العرب ، ووزع عليهم الأسلحة ، فكثّر جمعه . ويصف ابن الأثير موقف المسلمين أمام هذا الخطر البربري فيقول : « فلما دنا الخوارج مع عبد الواحد خرج إليهم حنظلة من القيروان ، واصطفوا للقتال ، وقام العلماء في أهل القيروان يحثونهم على الجهاد وقاتل الخوارج ، ويذكرونهم ما يفعلونه بالنساء من السبي وبالإبلاء من الاسترقاق وبالرجال من القتل ، فكسر الناس أجفان سيوفهم ، وخرج إليهم نساؤهم يحرضهم ، فحصى الناس ، وحملوا على الخوارج حملة واحدة ، وثبت بعضهم لبعض ، فاشتد اللزام ، وكثّر الزحام ، وصبر الفريقان ، ثم أن الله تعالى هزم الخوارج والبربر ونصر العرب . وكثّر القتل في البربر ، وتبعوهم إلى جلولا . يقتلون ، ولم يعلموا أن عبد الواحد قد قتل حتى حمل رأسه إلى حنظله ، فخر الناس لله سجداً » (٣) . وبلغ عدد القتلى نحو ١٨٠ ألفاً (٤) ، ووقع عكاشة أسيراً في يد العرب ، فأمر حنظلة بقتله . وقد هلك الإمام الليث بن سعد على هذا الانتصار المؤزر الذي أحرزه العرب على البربر بقوله : ما من غزوة كنت أحب أن أشهد لها بعد غزوة بدر أحب إلي من غزوة القرن والأصنام » (٥) . وتوفي هشام في ٦ ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ

(١) ابن عذاري ، ص ٦٣

(٢) ابن الأثير ج ٤ ، ص ٢٢٣

(٣) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٢٤

(٤) نفس المرجع — ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٦٤ — ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٢

(٥) نفس المرجع — ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٦٤ — ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٣

قبل أن يصل إليه خبر انتصار العرب في الأصبهان ، وخلفه الوليد بن يزيد ،
فأمر حنظله على ولاية إفريقية .

• ثروة البربر في الأندلس وقيام الصراع بين البلدين والشاهيين :

لما علم بربر الأندلس بانتصار إخوانهم في المغرب على جيوش العرب ،
ثاروا بدورهم على عرب الأندلس ، فأخرجوا عرب جليقية وقتلواهم ،
وأخرجوا عرب استرقة والمدائين التي خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن إلا
فلمهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس (١) .
ويبدو أن البربر وثبوا على العرب في المناطق البعيدة عن مركز الإمارة
الواقعة في أطراف الأندلس ، مثل المناطق الشمالية في جليقية وأشتوريش
وغرب الأندلس ، وهي المناطق التي يسكنها جمهور البربر حيث يؤلفون هناك
أغلبية السكان ، بينما كان العرب أقلية بالنسبة إلى كثرتهم العددية فيها (٢) .
ويدل على ذلك أن البربر لم يهاجموا عرب سرقسطة ونغرهم ، لأنهم كانوا
مخفوقون عليهم في العدد . والتف بربر الأندلس حول زعيم لهم يقال له
ابن هدين (٣) ، وبسميه صاحب فتح الأندلس زقطرتق (٤) ، على نحو ما فعله
بربر المغرب عندما بايعوا ميسرة ثم ابن حميد الزناتي . فلما تخرج موقف

(١) أخبار مجموعة ، ص ٣٨

(٢) يوضح صاحب فتح الأندلس ذلك فيقول : « وتناولت البربر أيضا بالأندلس
على العرب الساكنين بجليقية واسترقة والمدائين التي خلف الدروب ، وقتلواهم وطردوهم
لكنهم هناك وفلة العرب » (فتح الأندلس ، ص ٣١)

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٣٩

(٤) فتح الأندلس ، ص ٣١

عبد الملك بن قطن بشيرة بربر الاندلس، أخرج إليهم جيوشا هزموها، وقتلوا العرب في الآفاق، فيخاف أن يكون مصير عرب الاندلس نفس مصير عرب المغرب، فاضطر إلى الاستعانة بالشاميين المحصورين في سبتة، للقضاء على عدوهم المشترك، وعزم على السماح لهم بالمجاز إلى الاندلس، على شريطة أن يبارحوها بعد انتهاء مهمتهم، واشترط عليهم مقام سنة بالاندلس ثم يخرجون عنها إلى المغرب. فرضى عرب الشام بكل ما اشترط عليهم، إذ وجدوا في الانتقال إلى الاندلس فرصة مواتية لتقوية أنفسهم، وعندئذ يمكنهم أن يملوا على ابن قطن رغباتهم. كذلك اشترط ابن قطن عليهم، تأكيداً لعدم نكثهم، أن يسلموه عدداً من رهائهم، أنزلهم بنجيزة أم حكيم. ثم أذن لبلج بالعبور إلى الاندلس، وأرسل إليهم السفن وعليها الاطعمة والأدم. فدخلوا الاندلس عراة لا توارهم إلا دروعهم، وقد بلغ بهم الجهد كل غاية، «وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام، فلما دخلوا كساهم عرب الاندلس على قدر أقدارهم، قرب رجل يكسو مائة رجل، وآخر عشرة، وآخر واحداً، إلى ما بين ذلك» (١)، وأعطاهم ابن قطن العطايا.

بدأ عرب الشام مهمتهم بمهاجمة جماعة من البربر بقيادة رجل من زناتة، «كانوا قد انتقضوا على عبد الملك بن قطن في شدونة، فلم يكن للعرب فيهم إلا نهضة حتى أبادوهم، وأصابوا أمتعتهم ودوابهم، فاكتسى أصحاب بلج وانتعشوا، وأصابوا المغانم، ثم مضوا مع عبد الملك إلى قرطبة (٢)، ومنها زحفوا إلى الشمال. أما البربر فقد أقبلوا في حشود هائلة من جليقية واسترقه

(١) أخبار مجموعة، ص ٣٩

(٢) ابن عذاري، ج ٢، ص ٤٣

وماردة وقورية وطلبيرة متجهين جنوباً نحو قرطبة، وعبروا وادي تاجسة،
والتقوا مع قوات العرب مجتمعة من الشاميين والبلديين في حوز طليطلة،
على وادي سليط، فحاق البربر رؤوسهم اقتداءً بميسرة المطغرى، حتى
لا يختلطوا في جموع العرب فلا يخفى أمرهم (١). ثم انحط الشاميون على
البربر كاللبواشق حائقين، فمزقوا صفوفهم، وأذرعوا فيهم القتل وأبادوهم،
فأطفئوا بذلك جمرة نقيمتهم بحيث لم ينج من البربر إلا من فر بحياته. وبذلك
انتهت مهمة بلج. وطالبه عبد الملك بن قطن بالخروج من الأندلس،
فسأله بلج وأصحابه أن يهيء لهم الرحيل من ساحل إلبيرة أو ساحل تدمير (٢)
في سفن تنقلهم إلى تونس. فاعتذر عبد الملك بن قطن عن ذلك بوجود السفن
في الجزيرة الخضراء، لكي تنقلهم إلى سبتة. فقالوا له: «نعرضنا لبربر طنجة.
أقذف بنا في لجة البحر أهون لنا» (٣) فلما تبين لهم أن قصده من ذلك
إهلاكهم، ثاروا عليه وأخرجوه من القصر، وأقاموا على إمارة الأندلس
بلجا في أول ذي القعدة سنة ١٢٥. أما ابن قطن فتزل داره، وقد أذهله
تطور الأحداث ضده. ونتج عن تغلب الشاميين وظفرهم بالإمارة استحكام
القوضى في الأندلس، وأمسك والى الجزيرة الخضراء عن إمداد رهائن
الشاميين الذين كان قد وضعهم ابن قطن في جزيرة أم حكيم بالطعام والشراب
تضامناً منه مع ابن قطن. فمات من الرهائن رجل غساني من أشرف الشام،
واتهم عرب الشام ابن قطن بأنه قد تسبب في موته، فثار عرب اليمن لموت
الغساني، وطالبوا بلجا بأن يسلم لهم ابن قطن ليقتلوه مقابل الغساني، فحاول

(١) أخبار مجموعة، ص ٤٠

(٢) ابن عذارى، ج ٢، ص ٤٤

(٣) أخبار مجموعة، ص ٤١

بلغ أن يردهم عن ذلك عبثاً ، إذ اتهموه بأنه يحصى مضرأً ، فخاف أن تتفرق كلمتهم ، فأمر باخراجه من داره ، فأخرجوه وهو شيخ كبير تجاوز التسعين ، وهم ينادونه : « يا قال ، فلت من سيوفنا يوم الحرة » ، ثم عرضتنا أكل الكلاب والجلود طلباً بثأر الحرة ، ثم بعث جند أمير المؤمنين (١) . فقتلوه عند رأس القنطرة ، وصلبوه .

وأثار مقتل ابن قطن موجة من الغضب في الأندلس ، واتحد العرب البلديون بقيادة قطن وأمية ابني عبد الملك بن قطن مع البربر الذين كانوا يتلفهون لنيل ثأرهم من أهل الشام ، وانضم إليهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي عامل عبد الملك في أربونة ، كما انضم إليهم نفر من أصحاب عبد الملك أمثال عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة الذي كان يطمع في الظفر بامارة الأندلس (٢) . والتقى هذا الجيش مع جيش الشاميين في موضع يقال له أقوة برطورة ، وانهت الموقعة بهزيمة البلديين من العرب والبربر وانتصار الشاميين ، وقتل بلغ في هذه الموقعة ، فخلفه ثعلبة بن سلامة العاملي . ولما بلغ الخليفة هشام ما أصاب اليمنيين على أيدي القيسية من أهل الشام ، شاور أخاه العباس بن الوليد في هذا الأمر ، فنصحه بأن يولي على الأندلس أحد اليمنيين وكان الخليفة قد تلقى بضعة أبيات كتبها أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي أحد عمال بشر بن صفوان ، ممن نكبهم عبدة بن عبد الرحمن السامي نصيباً :

(١) نفس المرجع ، ص ٤٢

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٦٥

أفأتم بنى مروان قيسا دماءنا
وفى الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط
ولم تعلموا من كان تم له الفضل
وقيناكم حسر الوغى بصددورنا
وليست لكم خيل تعدو ولا رجل
فلما رأيتم واعد الحرب قد خبا
وطاب لكم منها المشارب والأكل
تغافلتم عنا كأن لم يكن لنا
بلاء وأنتم ما علمت لها فعل
فلا تجزعوا إن عضت الحرب مرة
وزلت عن المرقاة بالقدم النعل
أصرم جبل الوصل وانقطع القوى
ألا ربما يلوى فينقطع الجبل (١)

فكتب الخليفة يأمر حنظلة بن صفوان بأن يولى أبا الخطار الاندلس
ليضع حدا للفتنة القائمة بين البلديين والبربر وبين الشاميين . فقد قدم إليها في
رجب سنة ١٢٥ هـ (مايو سنة ٧٤٣ م) ، وكان عبد الرحمن بن حبيب مقبلا
بقرطبة عند قدوم أبي الخطار إليها ، فخاف على نفسه منه ، وخرج مستترا ،
فركب البحر إلى تونس ، فنزل بها أملا في الدعوة إلى نفسه .

(٣)

المغرب في السنوات الخمس الأخيرة من عصر الدولة الأموية

١ - فشل حنظلة بن صفوان في مواجهة الفتن في المغرب وخروجه إلى المشرق:

لم يكن حنظلة بن صفوان قيسيا كما يذكر الدكتور حسين مؤنس^(١)، ولكنه كان كلبيا يمينيا، وكان معتدلا في سياسته، فلم يتعصب للكلبيين على القيسيين، ولذلك ساد الأمن والهدوء ربوع إفريقيا في السنة التالية لانتصاره على عبد الواحد الهواري وعكاشة الفزاري الخارجيين، في خلافة الوليد ابن يزيد الذي عرف باعتداله في عصبيته. ولكن فترة السلام كانت قصيرة الأمد، إذ وردت الأخبار بنزول عبد الرحمن بن حبيب الفهري بتونس في جمادى الأولى سنة ١٢٦ هـ، وقيامه بالدعوة إلى نفسه في تونس. وقد كان عبد الرحمن بن حبيب قد سار إلى الأندلس بعد انهزام العرب في بقدورة،

(١) يبدو أن الدكتور مؤنس قد اختلط عليه أمر حنظلة بن صفوان فذكر أنه كان قيسيا بقوله: « ولكن الثابت أن حنظلة بذل أقصى جهده في الاستعداد لهذه المعركة الخطيرة الحاسمة، وأنه تناسى قيسيته في هذه اللحظة الحاسمة... » (أنظر فجر الأندلس ص ١٧٧) . وعلى هذا الأساس عرض الدكتور مؤنس رأيه في أن مقتل الوليد بن يزيد كان لبذانا بانتصار اليمينيين وعودتهم إلى السلطان، ويعنى باليمينيين عبد الرحمن بن حبيب الفهري وأنصاره من العرب. وحقيقة الأمر أن المسألة لاتعدو صراعا بين البلديين من عرب المغرب وبين العرب الطارئين على المغرب من المشرق وهم الشاميون من القيسية واليمينية معا. ولم يكن خطر الصراع بين المصبيتين اليمنية والقيسية قد قام بعد، إنما قام في الأندلس عندما تضامن أبو الخطار ويحيى بن حريث الجذامي على الصميل ويوسف في سنة ١٣٠ هـ، واشتعلت نار الحرب بين المصبيتين اليمنية والقيسية، وهي أول حرب كانت في الاسلام بهذه الدوة ولم تكن حرب قبل هذه الواقعة » (أخبار مجموعة، ص ٥٩)

عسى أن يجد لنفسه هناك سبيلا للوصول إلى الإمارة ، ولكنه لم يتمكن من الظفر بها في دوامة الصراع بين البلديين والشاميين ، فلما وجه حنظلة أبا الخطار إلى الأندلس أميرا ، يش عبد الرحمن مما كان يرجوه ، وخاف أن يقع في قبضة أبي الخطار الذي كان لا يتردد في القضاء على كل متمرّد نائر . فركب سفينة حملته إلى تونس . وكان عبد الرحمن ما يزال متعطشا إلى الإمارة . ولم يكن يبالى بركوب الصعاب في سبيل نيلها ، ولا ندرى لماذا عاد إلى المغرب ، فقد كان حنظلة بن صفوان كليا يمينيا مثله ، كما أن تعليل مجيئه بأن مقتل الوليد بن يزيد كان يعنى انتصار اليمنيين على القيسيين لا يعدو أن أن يكون تعليل ضعيفا ، فحنظلة بن صفوان كان كليا ، وأبو الخطار الحسام كان كليا كذلك ، بل إن الأحداث التي جرت في الأندلس ستثبت انتصار القيسية على اليمنية ^(١) ، وأعتقد أن وفود عبد الرحمن بن حبيب إلى المغرب وقيامه بالدعوة لنفسه يرجع إلى أنه آثر أن يتعاون مع العرب الأفرارقة والبربر الزناتيين ، فقد كان لا يهمه إلا أن يحظى بتأييد البربر ما دام في ذلك سبيلا يوصله إلى الإمارة ^(٢) . وقد فعل عمه يوسف بن عبد الرحمن الفهري ما يشبه ذلك بتحالفه مع القيسية ضد اليمنية ، لكي يصل إلى إمارة الأندلس . ولا شك أن عبد الرحمن بن حبيب كان يشعر بأنه زعيم العرب الأفرارقة ، فهو من أقدم بيوت العرب الفاتحين الذين استقروا بأفريقية منذ أسس جده الأول عقبة بن نافع مدينة القيروان ، وساهم أبوه حبيب ابن أبي عبدة وجده أبو عبدة بن عقبة بنصيب وافر في الفتح العربي للمغرب .

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٦٢ وما يليها .

(٢) كانت أمه بربرية من جبال أوراس وربما كان ذلك سببا في توكيد أفريقية.

فلما أجاب أهل تونس من العرب البلديين والبربر عبد الرحمن بن حبيب إلى دعوته، فكر حنظلة بن صفوان في الخروج إليه، والزحف لمقاتلته، ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا الخطر حقنا لدماء العرب^(١)، فقد كان حنظلة لا يرى القتال إلا لكافر أو خارجي^(٢)، وآثر أن يبعث إليه وفدا من وجوه إفريقية عددهم خمسين رجلا، ليراجعوه فيها هو بسبيله، ويدعوه إلى مراجعة الطاعة، فلما قدموا إليه، انتهز هذه الفرصة وقبض عليهم، وأوثقهم في الحديد، وأقبل بهم إلى القيروان^(٣)، مع أنصاره الأفاارقة، وعسكر بهم في موضع قريب من القيروان يعرف بسبخة سجوم في أوائل سنة ١٢٧ هـ (٧٤٥ م)^(٤). وكتب من هناك إلى حنظلة ومن معه يطلب إليهم ترك القيروان وإخلاء البلاد، وأمهلهم ثلاثة أيام للخروج منها، وذكر لهم أنه سيدخل القيروان، وأنذرهم بقوله: «إن رمى أحد من أوليائهم بحجر قتلته»^(٥). وكان في إمكان حنظلة أن يقاوم عبد الرحمن ابن حبيب، ولكنه أنف من مقابلة إخوان له، لأن في ذلك تمكين لأعداء العرب من البربر الصفرية الذين كانوا يترصدون للعرب، ويبتغون فرصة مواتية للوثوب عليهم وإبادتهم، وهم الذين يفيدون بطبيعة الحال من انقسام

(١) ابن عذاري، ج ١ ص ٦٥

(٢) ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٧٨

(٣) ابن عبد الحكم، ص ٣٠٠ - ابن عذاري، ج ١، ص ٦٥ - ابن الأثير، ج ٤

ص ٢٧٨ - ابن خلدون، ج ٤، ص ٤٠٧

(٤) حسين مؤنس، نقلا عن النويري، فجر الأندلس، ص ١٧٩

(٥) ابن عذاري، ج ١، ص ٦٥ - ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٧٨ - السلاوي، ج

الصف العربي ، ثم إن حنظلة كان قد زهد في الإمارة ، وكره أن يقاتل ، من أجل الاحتفاظ بها ، عربا مثله وعربا يمينين بالذات ، يضاف إلى ذلك أن إنذار عبد الرحمن بن حبيب كان يعنى ذبح رجال أبرياء ، وهم الرسل الذين كان قد بعثهم حنظلة إلى عبد الرحمن ليراجعوه عن قصده ، لذلك كله أثر أن يتنازل عن الإمارة له ، ويعود إلى دمشق ، « فدما القاضى والعـدول ، وفتح بيت المال ، فأخذ منه ألف دينار ، وترك الباقى ، وقال : لا ألبس منه إلا بقدر ما يكفينى ويبلغنى » (١) . ثم إنه جمع أتباعه وخرج عن إفريقية في جمادى الأولى سنة ١٢٧ هـ ، متجها إلى دمشق . ودخل عبد الرحمن بن حبيب القيروان ، ونهى الناس عن تشييع حنظلة .

ب - ثورات البربر في المغرب في ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهرى :

لم يمكث الخليفة يزيد بن الوليد المعروف بالناقص في الخلافة سوى ستة أشهر ثم توفى في ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٦ هـ ، فتولى الخلافة من بعده أخوه إبراهيم بن الوليد بعهد منه ، ثم خلع نفسه لمروان الجعدى بعد مضي نحو شهر ونصف شهر فقط من توليته الخلافة ، وذلك بعد أن انهزم جيشه بقيادة سليمان بن هشام أمام جيش مروان الجعدى في عين الجر (عنجر بلبنان) ، وبايع أهل دمشق مروان بالخلافة في سنة ١٢٧ هـ . فبادر عبد الرحمن ابن حبيب بارسال بيعته إلى مروان مع بعض الهدايا (٢) . فأقره مروان على ولاية إفريقية . ولم يكن ابن حبيب في حاجة إلى هذه الولاية ، إذ كان قد اغتصبها بالفعل ، وأصبح أميراً شبه مستقل عن الخلافة ، ولكنه أراد أن يسبغ على

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٦٧ .

(٢) نفس المرجع

حكمه شرعية تدعم سلطانه عند البربر ، وإن كان البربر في المغرب كله أصبحوا لا يقيمون وزنا للخلافة الأموية بعد أن فقدت هيبتها ، بل كانوا يتطلعون للقضاء على أى نفوذ لها ، ويتربصون الفرص المواتية للاستقلال ببلادهم . فلم يمس شهر واحد على إمارة عبد الرحمن بن حبيب حتى تفجرت براكين الثورة في أنحاء المغرب . ففى تونس ثار عليه عروة بن الوليد الصدي ، واستولى على تونس ، وفى الساحل شق عليه العرب عصا الطاعة تحت زعامة أبى عطف عمران بن عطف الأزدي ، فزل بطيفاس ^(١) ، وثار البربر فى المناطق الجبلية ، « واستشرى داء البربر ، واعضل أمر الخارجية ورؤوسها ، فانتقضوا من أطراف البقاع ، وتواثبوا على الأمر بكل ما كان ، داعين إلى بدعتهم ، وتولى كبر ذلك يومئذ صنهاجـة » ^(٢) . والتفت صنهاجـة حول زعيم من زعمائهم اسمه ثابت الصنهاجى واستولوا على باجة ، كما ثار معه عبد الله بن سكرديد من أمراءهم فيمن تبعه من بربر صنهاجـة . وفى طرابلس ثار عبد الجبار والحارث من هواره ، وكانوا على مذهب الإباضية ، لقيام الياس بن حبيب الفهرى بقتل زعيمهم عبد الله بن مسعود التجيبى . فقتلوا عامل طرابلس بكر بن غيسى القيسى عندما خرج يدعوهم إلى السلم ^(٣) ، كذلك ثار إسماعيل بن زياد الإباضى فيمن معه من بربر نفوسة ، واستولى على قابس . وكان لا بد لعبد الرحمن بن حبيب الذى نشبت بالإمارة أن يعمل على إخماد هذه الثورات ، فبدأ بثابت الصنهاجى

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٧٩

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٢٣

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٦ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٧٩ — ابن خلدون ، ج

بباجة ، وأرسل أخاه الياس بن حبيب القهرى على رأس ستمائة فارس لمهاجمة
أبى عطف الازدى ، وأوصاه أن يتظاهر بمتابعة السير إلى تونس لقتال
عروة بن الوليد الصدفى ، فيخدعهم بذلك . فيامنون عاديته ، ثم ينقلب عليهم
ويفاجأهم بالمهجوم . ففعل إلياس ما أوصاه به أخوه ، وأغار على طيفاس
وأهلها غافلون ، لا يتوقعون منه ذلك ، فدهمهم برجاله . فقتل منهم عددا
عظيما . من بينهم أبو عطف نفسه ، وذلك فى سنة ١٣٠ هـ . ثم كتب إلى
عبد الرحمن يبشره بهذا النصر ، فأمره بالسير إلى تونس ، ومفاجأة عروة
ابن الوليد وأصحابه قبل أن يتنبهوا له . ففعل ما أمره به ، ونجح فى هزيمة
عروة بن الوليد ، وقتله ، واسترجع تونس ، وأقام بها (١) .

ثم ولّى عبد الرحمن وجهه بعد ذلك نحو الحارث بن تليد الهوارى ،
وعبد الجبار بن قيس الهوارى الشائرين بطرابلس ، فزحف إليهما بجيش
كثيف فى سنة ١٣١ هـ ، وتمكن من قتلتهما بالخدعة ، وقضى بذلك على
ثورتها ، كما هاجم اسماعيل بن زياد النفوسى وقتله ، وهزم جيشه ، واستعاد
طرابلس ، وعمر سورها فى العام التالى سنة ١٣٢ هـ (٢) ، فانتقل الناس إليها
من كل مكان (٣) . وما كاد عبد الرحمن ينتهى من خوارج طرابلس حتى
عاد إلى القيروان ، ثم غزا تلمسان فى سنة ١٣٥ هـ . وقضى على الثائرين فيها
من البربر (٤) .

(١) نفس المرجع - ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٧٩

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٧٩

(٣) أنظر تفاصيل مقتلتهما فى فتوح الأندلس لابن عبد الحكم - ابن عذارى

ج ١ ، ص ٦٩ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٧٩ - ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٢٣

وهكذا بطش عبدالرحمن بن حبيب بأعدائه البربر الإباضية في كل مكان، وكان سفاكا للدماء، وفي ذلك يقول ابن عذارى : « وأمعن عبد الرحمن ابن حبيب في قتل البربر، وامتحن الناس بهم، وابتلاهم بقتل الرجال صبرا، يؤتى بالأسير من البربر، فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله، فيقتله » (١). وكان يصطنع الحيلة والخديعة في التغلب على أعدائه، فقد رأينا كيف انتصر على خصميه أبي عطف عمران الأزدى في طيفاس، وعروة بن الوليد في تونس، كذلك استعمل دهاءه في القضاء على ثورة طرابلس التي تأسست فيها إمامة عبد الله بن مسعود التجيبي، وهي إمامة كانت من تمتد من سرت إلى قابس، وكانت هذه الإمامة قد تقوت بانضواء بربر هوارنة ونفوسه إلى الإباضية، فعمد عبد الرحمن بن حبيب إلى تولية أخيه إلياس على طرابلس حتى يقضى على حركة الإباضية قبل أن تستفحل، ولم يتردد إلياس في قتل عبد الله بن مسعود التجيبي زعيم الإباضية ظنا منه أنه إذا قضى على الرئيس تفرق شمل الإباضية (٢)، ولكن الإباضية بايعوا الحارث بن تليد الحضرمي بالإمامة عليهم فاتخذ عبد الجبار بن قيس وزيرا، وأسس الحارث بذلك جمهورية مستقلة عن المغرب، ولما لم يتمكن عبد الرحمن من التغلب على خصميه بقوة السلاح لجأ إلى الخديعة، فدس عليها عصاة من أتباعه في طرابلس قتلوها في دار الندوة، ثم أدخلوا على كل منها سيفا وجعلوا مقبضه إلى جهة الآخر ليوهمو الناس بأنها تنازعا، فتقاتلا فقتل كل منها الآخر. وأحدث عبد الرحمن بذلك انقسامًا بين الإباضية حول قضية

(١) ابن عذارى، ج ١، ص ٦٦

(٢) محمد علي دبور، تاريخ المغرب الكبير، ج ٢، القاهرة ١٩٦٣، ص ١١١

القتيلين ، فانقسم الإباضية على أنفسهم ، وقامت إمامة اسماعيل بن زياد النفوسى
بين مظاهر الاضطراب والانقسام ، فعاجله عبد الرحمن بالهجوم قبل أن
يتمكن الإباضية من توحيد صفوفهم ، ففعل اسماعيل ، وانهزم جيشه .

وعلى هذا النحو تغلب عبد الرحمن بن حبيب على جميع خصومه .

الفصل الرابع

المغرب في فترة الانتقال بين سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية

(١) النزاع بين بني عبد الرحمن بن حبيب

أ — مقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية إلياس

ب — انقراض بني حبيب الفهري في المغرب

(٢) الصراع بين الإباضية في طرابلس والصفورية في إفريقية

أ — غلبة الخارجية على المغرب

ب — موقف الخلافة العباسية من الخوارج في المغرب

ج -- ولاية إفريقية في العصر العباسي حتى قيام دولة بني الأغلب:

١ - الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي (١٤٨ - ١٥٠ هـ)

٢ - أبو جعفر عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة المعروف بهزار مرد

٣ - يزيد بن حاتم وقضاؤه على ثورة البربر الإباضية

٤ - روح بن حاتم بن قبيصة

٥ - الفضل بن روح بن حاتم

٦ - هرثمة بن أعين

٧ - محمد بن مقاتل المعكي

الفصل الرابع

المغرب في فترة لإنتقال بين سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

(١)

النزاع بين بني عبد الرحمن بن حبيب

١ - مقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية الياس :

سقطت الدولة الأموية في سنة ١٣٢ هـ ، وقامت الدولة العباسية على أنقاضها ، فأعلن عبد الرحمن بن حبيب دخوله في طاعة أبي العباس السفاح ، ولما توفي السفاح في سنة ١٣٦ هـ ، وبويع أبو جعفر المنصور بالخلافة ، أقر عبد الرحمن بن حبيب على ولاية إفريقية ، وأرسل إليه خلعة سوداء ، وهو أول سواد دخل إفريقية ، ثم كتب إلى عبد الرحمن بن حبيب يدعو إلى الطاعة ، فأجابته ، ودما له ، ووجه إليه بهدية من بينها بعض الذهب ويزاة وكلاب ، وكتب إليه يقول : « إن إفريقية اليوم إسلامية كلها ، وقد انقطع السبي منها والمال ، فلا تطلب مني مالا » (١) . فغضب المنصور ، وأرسل إلى عبد الرحمن كتابا يهدده فيه ويتوعده . فلما وصل الكتاب ، جمع عبد الرحمن الناس للصلاة ، ثم صعد المنبر ، وأخذ يسب أبي جعفر ويقول : « إني ظننت أن هذا الخائن يدعو إلى

الحق ، ويقوم به ، حتى تبين لي خلاف ما بايعته عليه من إقامة العدل ، وإني الآن قد خلعتك ، كما خلعت نعلي هذا ، وقذفه من رجله . ثم دعا بنخلع السود . وأمد بتخريقها ، وقيل إنه أحرقها (١) .

وكان العباسيون يتعقبون أمراء بني أمية حيث كانوا ، ويقتلونهم أينما وجدوهم ، فتنفرق بنو أمية في أطراف البلاد للنجاة بأرواحهم ، وكان في جملة من فر إلى المغرب إبنان للوليد بن يزيد ، هما العاص وعبد المؤمن ، وكان عبد الرحمن بن حبيب وأخوه عبد الوارث وإلياس ، قد تزوجوا من بنات أعمامهما ، فلما قدما إلى المغرب استضافهما عبد الرحمن في دار من دوره ، ولكنه علم أنهما يسعيان للظفر بالإمارة ، فقتلها . فخرضت بنت أبان ، زوجة إلياس ، زوجها على قتل أخيه عبد الرحمن ، ويذكر ابن الأثير أنها قالت : « إن أخاك قد قتل أختانك ولم يراقبك فيهم ، وتهلون بك ، وأنت سيفك الذي يضرب به ، وكلما فتحت له فتحا كتب إلى الخلفاء إن إبنى حبيبا فتحه ، وقد جعل له العهد بعده ، وعزلك عنه ، ولم تزل تغريه به ، فتحرك لقولها ، وأعمل الحيلة على أخيه » (٢) . ووافقه على ذلك أخوه عبد الوارث ومجموعة من القيروان . واتفق أن خلع عبد الرحمن بن حبيب في هذه الآونة طاعة المنصور ، فاتخذ المتآمرون من ذلك وسيلة لقتله ، وتأمير إلياس ، وإعادة الدعوة لابن جعفر المنصور . ويبدو أن عبد الرحمن أحس بشيء من تلك المؤامرة (٣) . فولى أخاه إلياس على تونس ، فأناه إلياس ليودعه قبل رحيله ،

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٧٦

(٢) نفس المرجع ص ٦٨ — ابن الأثير ص ٢٨٠

(٣) ابن الأثير ، ص ٢٨٠

ثم قتله . و يروى ابن عذارى قصة قتله بقوله : « وكان عبد الرحمن قد ولي أخاه الياس تونس ، وودعه للخروج إليها ، وعبد الرحمن إذ ذاك مريض ، فدخل عليه وهو في غلالة ورداء ، وابن له صغير في حجره ، فقدم طوبلا ، وعبد الوارث يغمزه ، فلما قام يودعه ، أكب عليه ووضع السكين بين كتفيه حتى وصل إلى صدره ، ثم رد يده على السيف فضربه ، وخرج هاربا دهشا . فقال له أصحابه : ما فعلت ؟ قال : قتلته . قالوا : إرجع فحز رأسه . فرجع وحزه ، وثارت الصبيحة ، وأخذ إلياس أبواب دار الإمارة . وسمع ابنه حبيب الصبيحة ، فأخبر بقتل والده ، فاخفى ، ثم تحاول على وجهه إلى باب تونس ، أحد أبواب القيروان . فخرج منه ، ومضى إلى عمه عمران بن حبيب ، وهو والى تونس لوالده » (١) . وتم قتل عبد الرحمن في ذى الحجة سنة ١٣٧ هـ .

وهكذا أسدل الستار على عبد الرحمن بن حبيب الفهرى بعد أن قضى في الإمارة عشر سنوات وسبعة أشهر ، قضاهما كلها في حروب مع البربر ، وقد كان عبد الرحمن هذا يطمع في التغلب على الاندلس منذ أن فر إليها بعد هزيمة البربر للعرب في بقدورة ، ومع أنه ظفر بإمارة المغرب ، إلا أنه كان ما يزال طامعا في احتلال الاندلس ، وفي ذلك يروى المؤرخون أن كان في بلاط ابن حبيب يهودى عالم بالحدثن ، قد صاحب مسلمة بن عبد الملك ، فذكر لابن حبيب أنه يغلب على الاندلس رجل من أبناء الملوك يقال له عبد الرحمن له ضفيريّتان ، ومن بيت الملك ، فاتخذ ابن حبيب ضفيريّتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية ، فلما قدم عبد الرحمن بن معاوية إلى المغرب

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٧

بعد أن أفلت من أيدي العباسيين ، وكانت له ضميرتان ، هم بقتله حتى لا تتحقق نبوءة اليهودي^(١) ، وطارده ولكن ابن معاوية تمكن من دخول الأندلس ، والتغلب على يوسف بن عبد الرحمن الفهري^(٢) ، وأحيا بذلك ملك بني أمية في الأندلس بعد انقطاعه .

ب - انقراض بني حبيب الفهري في المغرب :

لما قتل عبد الرحمن بن حبيب على يدي أخيه الياس ضبط هذا أبواب قصر الإمارة حتى يمنع حبيبا بن عبد الرحمن من الفرار ، ولكن حبيبا تمكن من الإفلات ، ولاذ بعمه عمران الذي كان يطمع في إمارة إفريقية . واتفق حبيب وعمه عمران على محاربة إلياس وعبد الوارث ، فأعدا جيشا لذلك الغرض ، ولكن الياس فضل أن يبدأ هو بالهجوم ، فسار إليها على رأس جيشه ، وبذكر ابن الأثير أن الياس سار إليها « واقتتلوا قتالا يسيرا » ثم اصطالحوا على أن يكون لحبيب قفصة وقسطيلة ونفزة (لعلها نقطة باقليم الجريد) ويكون لعمران تونس وصطفورة والجزيرة ، ويكون سائر

(١) أخبار مجموعة ص ٥٥٥ . ارجع الى تعليق على هذه القصة في كتابي « تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس » ص ١٧٧

(٢) ذكر السلاوي أن يوسف الفهري كان ابنا لعبد الرحمن بن حبيب الفهري (السلاوي ج ١ ، ص ١١٨) . والواقع أن يوسف الفهري كان ابنا لعبد الرحمن بن عقبة بن نافع ، وكان طاعنا في السن عندما ولاء الصميل إمارة قرطبة ، فليس من المعقول أن يكون ابنا لعبد الرحمن بن حبيب . وتذكر مدونة موسى أنه كان حاكما لمدينة أربونة في عام ١١٦ هـ (٧٣٤) (أنظر Chronicon Moissiacense, Apud. Ajbar Machmuâ, p.166) كذلك أشار المقرئ إلى أنه كان عاملا بأربونة في عهد عبد الملك بن قطن في ولايته الأولى على الأندلس ، وفي عهده صار رباط المسلمين على نهر ردونة (المقرئ ، ج ١ ، ص ٢٢٠)

إفريقية لإلياس ، وكان هذا الصلح سنة ثمان وثلاثين ومائة (١) . ولكن إلياس كان يضر السوء بأخيه عمران ، إذ كان يخشى منه على إمارة إفريقية ، فعمل على التخلص منه أولا ، ثم يتفرغ بعد ذلك للتخلص من حبيب . فلما سار حبيب إلى عمله من بلاد الجريد ، ورحل عمه عمران إلى تونس غدر إلياس بعمران فقتله ، وقتل أنصاره من أشرف العرب واسترجع تونس ، ثم عاد إلى القيروان (٢) . وذكر ابن عذاري أن إلياس وثب على عمران ، وبعث به إلى الأندلس ، وولى على تونس محمد بن المغيرة ، وانصرف بعد ذلك إلى القيروان (٣) ولكن الأرجح أن إلياس قتل عمرا ، لأنه كان يخاف منه على ملكه ، ويؤيد ذلك ابن خلدون (٤) . فلما قتل عمران ، لم يعد إلياس يخاف من حبيب وظن أنه أصبح سيد الموقف ، فبعث بطاعته إلى أبي جعفر المنصور مع وفد من العرب منهم عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضي إفريقية (٥) .

وكان من الطبيعي أن يستاء حبيب لغدر إلياس به ، عمران ، ونكثه لعهد معه ، ويبدو أنه عزم على محاربة إلياس ، وبلغ إلياس ذلك ، ففدس له من زين له الخروج إلى الأندلس ، ففعل ، ووجه معه شقيقه عبد الوارث ومن أحب من مواليه ، فركبوا البحر ، وقد تعذرت بهم الرياح ، فكتب حبيب إلى إلياس ، إن الرياح ردت ، ووقفوا بطريقة ، فكتب إلياس إلى عامله بها يحذره من أمره . فسمع به موالي عبد الرحمن وأهل طاعته ، فأتوا

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٠

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٧٨

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٨

(٥) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ - ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٩

إليه من كل ناحية ، وطرقوا سليمان بن زياد عامل الياس ، وهو في معسكره يحرس حبيبا ، فأسروه ، وشدوا وثاقه ، وركبوا إلى حبيب ، فأخرجوه إلى البر » (١) .

التف موالى عبد الرحمن بن حبيب بابن مولا ، فاجتمعوا على طاعته ، ثم زحف نحو القيروان ، فاستولى على الأربس ، وعندئذ خرج الياس بعد أن استخلف على القيروان محمد بن خالد الفرشى (٢) . فلما التقيا تقاتل الفريقان قتالا خفيفا ، فلما أمسى حبيب أوقد النيران ليظن الناس أنه مقيم ، ثم أسرى ، فأصبح بجلولاً ، ثم نفذ إلى القيروان فاستولى عليها (٣) ، وأخرج من سجنها من كان محبوسا ، فكثر جموعه ، وعاد الياس لمحاربة ولكن أكثر جنده افرقوا عنه ، وانضموا إلى عسكر حبيب . عندئذ خرج إليه حبيب في حشود كثيفة ، فلما التقيا ناداه حبيب : لم نقتل صنائعا وموالينا ، وهم لنا حصن ، ولكن أبرز أنت وأنا ، فأينا قتل صاحبه إستراح منه فناداه الناس : قد أنصفك يا إلياس . فخرج كل واحد منهما إلى صاحبه ، ووقف أهل العسكر ينظرون . فتطاعنا حتى تكسرت قناتاها . ثم تضاربا بسيوفهما ، وعجب الناس من طول صبرهما على القتال ، ولكن التعب بدأ يظهر على الياس ، وبدأت قواه تخور ، فضربه حبيب ضربة أسقطته . ثم أكب عليه فحز رأسه ، وأمر برفعه على رمح ، وأقبل به إلى

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٧٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٧٩

(٣) نفس المرجع .

القيروان فدخلها ، في سنة ١٣٨ هـ (١) .

ولاذ إخوة الياس بعد مقتله بطن من بطون بربر نفزة يقال لهم ورفجومة ، وكانوا من غلاة الصفرية ، ونزلوا في كنف أمير ورفجومة ويدعى عاصم بن جميل ، فكتب إليه حبيب بأمره بردهم إليه ، ولكن عاصم نصرهم وحماهم من بطش حبيب بهم . فزحف إليه حبيب ، واصطدم معه في موقعة انتهت بهزيمة حبيب ، فتراجع إلى قابس ، وقوى أمر ورفجومة على أثر ذلك ، وتضخم عسكرهم بمن انضم إليهم من الخوارج . وكان عاصم زعيمهم كاهنا « ادعى النبوة والكهانة ، فبدل الدين ، وزاد الصلاة ، وأسقط ذكر النبي ﷺ من الأذان » (٢) . ولما رأى أهل القيروان تغلب عاصم على حبيب ، كتبوا إليه يدعونه للولاية عليهم على أن يدعو لأبي جعفر المنصور ، فزحف عاصم وأخوه مكرم على رأس جموع البربر ومن انضم إليهم من العرب ، إلى القيروان ، وخرج القاضي أبو كريب جميل ابن كريب ، نائب حبيب في القيروان ، لمقاتلة ورفجومة ، ولكن الناس تفرقوا عنه ، وبقي أبو كريب مع ما يقرب من ألف رجل يقاتلون حتى الموت ، فقتل أبو كريب وأكثر رجاله ، ودخل بربر ورفجومة القيروان في ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ ، فاستحلوا المحارم . وارتكبوا الكبائر . ونزل عاصم بمصلى روح (٣) ، وذكر ابن الأثير أنهم ربطوا دوابهم في جامع القيروان

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٨٠ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ — ابن خلدون ،

ج ٤ ، ص ٤٠٩ — السلاوي ، ج ١ ، ص ١٢١

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٩

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٨١

وأفسدوا فيه (١).

ثم استخلف عاصم بن جميل عبد الملك بن أبي الجعد الورفجوى على القيروان ، وسار لقتال حبيب فى قابس ، فهزمه ، وفر حبيب إلى جبل أوراس ، واحتوى ببربره ، وطارده عاصم واشتبك معه فى قتال عنيف أسفر عن قتل عاصم فى جملة أصحابه . فسار حبيب على أثر ذلك إلى القيروان ، للقضاء على عبد الملك بن أبي الجعد ، خليفة عاصم بن جميل ، فهزمه عبد الملك وقتله فى المحرم سنة ١٤٠ هـ . (٢) .

وبمقتل حبيب تمت سيادة البربر الصفرية على إفريقية والمغرب ، وفقد العرب كل سلطان لهم فى هذه البلاد .

(١) ابن الأثير ، ص ٢٨٠

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٨١ — ابن مغازى ، ج ١ ، ص ٨١ — ابن خلدون ، ص ٤٠٩

(٢)

الصراع بين الخوارج الاباضية في تونس والصفورية في إفريقية

١ - غلبة الخارجية على المغرب :

بعد أن قضى عبد الرحمن بن حبيب على إمامة الإباضية بطرابلس بقتل مؤسسها الحارث بن تليد ، وعبد الجبار بن قيس الهواري ، وخليفتهما إسماعيل بن زياد النفوسي ، استعمل على طرابلس عمرو بن سويد المرادي (١). ولكن قضاء ابن حبيب الفهرى على زعماء الإباضية لم يقض على الحركة نفسها في ولاية طرابلس ، فقد كانت تعاليمها قد رسخت في النفوس ، بل إن الوسيلة البشعة التي توسل بها ابن حبيب للقضاء على الإمامة الإباضية أثارت عليه نفوس سكان هذا الإقليم . ولما انتصرت ورفجومة على حبيب بن عبد الرحمن ، وتغلبت على القيروان ، وانقرضت بذلك دولة بني حبيب الفهرى في إفريقية والمغرب ، انتهز الإباضية بنو أحي طرابلس هذه الفرصة ، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافى إماما عليهم في طرابلس سنة ١٤٠هـ ، من خليج سرت إلى قابس . وقد رأينا أنه كان واحدا من حملة العلم الخمسة الذين أخذوا في البصرة أصول الخارجية الإباضية على أبي عبيدة مسلم ابن أبي كريمة البصرى . وكان سكان المغرب الأوسط قد تشبعوا أيضا بتعاليم الإباضية ، فلم يلبث معظم هؤلاء السكان أن انضموا تحت لواء أبي الخطاب ، وبايعوه بالإمامة . وعلى هذا النحو أصبحت إمامة الإباضية تضم إقليم طرابلس ، وقسما كبيرا من المغرب الأوسط .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٣٠٢

أما إفريقية فقد خضعت لورفجومة ، بعد أن استولى زعيمهم عاصم بن جميل على القيروان . فلما قتل عاصم خلفه عبد الملك بن أبي الجعد على القيروان ، وكانت ورفجومة صفرية متطرفة ، قد خرج زعمائها عن الدين الإسلامي ، وقد ذكرنا أن عاصم بن جميل ادعى النبوة ، والكهانة ، ولذلك فقد كانوا من الفساد والظلم والاستمثار بالدين ^(١) بحيث يستحلون المحرمات ويستهنون بالمساجد . وقد قام بربر ورفجومة بارتكاب كثير من الفظائع في القيروان بعد مقتل زعيمهم عاصم ، فسفكوا كثيرا من دماء أهل القيروان ، وهتكوا الحرمات ، وأساءوا إلى الدين الإسلامي . ويذكر بن الأثير ، أن رجلا من الإباضية شاهد قوما من ورفجومة ، « قد أخذوا امرأة قهرا والناس ينظرون ، فأدخلوها الجامع ، فترك الإباضى حاجته ، وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافى ، فأعلمه بذلك ، فخرج أبو الخطاب وهو يقول : بيتك اللهم بيتك ، فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان ، وقصدوا طرابلس الغرب ، واجتمع إليه الناس من الإباضية والخوارج وغيرهم ^(٢) . أما المغرب الأقصى ، فقد كان يخضع منذ هزيمة العرب في وقعة الأشرف للخوارج الصفرية البربر ، وقد حاول الصفرية بزعامة أبي يوسف الهواري وعكاشة بن أيوب الفزاري ، وعبد الواحد بن يزيد الهواري ، وأبي قرعة المغيلي ، القضاء على العرب في إفريقية ، ولكن حنظلة تمكن من التغلب على حشود الصفرية ، فتفرق عسكرهم في نواحي المغرب الأقصى ، وكان من جملةهم عسكر برغواطة بزعامة طريف بن شمعون ^(٣) ، فسار طريف إلى

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١

(٢) نفس المرجع

(٣) في أعمال الأعلام صالح بن طريف (ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث

تأمسنا ، وبأيعه الناس هناك ، ويذكر ابن عذارى أنه شرع لهم تشريعا مخالفا
للإسلام ، فلما مات خلفه ابنه صالح ، فادعى أنه أنزل عليه قرآن الصفرية
الذى كانوا يقرأونه ، « وعهد صالح إلى ابنه إلياس بديانته ، وعلمه شرائعه ،
وفقهه في دينه ، وأمره ألا يظهر الديانة حتى يظهر أمره ، وينتشر خبره ،
فيقتل حينئذ من خالفه » ، وزعم أنه المهدي الذي يكون في آخر الزمان
لقتال الدجال . ثم إنه خرج إلى المشرق في سنة ١٢٤ هـ ، وخلفه ابنه إلياس
الذي ظل يحكم خمسين سنة ^(١) . وهكذا كانت المغرب الإسلامي كله بعد
انقراض دولة بني حبيب القهري في قبضة الخوارج الإباضية والصفرية
والمراطقة البرغواطيين ، وسنرى موقف الخلافة العباسية إزاء هؤلاء
الخوارج .

ب - موقف الخلافة العباسية من الخوارج في المغرب

لما استولت ورفجومة على القيروان سامت أهلها الظلم والعسف ، وأسرفوا
في ارتكاب المعاصي والفظائع وأعمال المنكر من سفك الدماء ، وهتك الحرمات ،
ففر كثير من أهل القيروان إلى طرابلس لا ئذين في حمى أبي الخطاب عبد
الأعلى بن السمخ ، وطالعوه بما ارتكبه الورفجوميون من ضروب البطش
والظلم والطغيان والفساد ، واستباحة الأعراض ، وتدنيس المساجد . وكان
عبد الأعلى عرييا من وجوه العرب الذين تقبلوا الخارجية على المذهب
الإباضي المعتدل ، فلما بلغه ذلك غضب وأنكر من ورفجومة سلوكها ،
فتحركت في نفسه عوامل الغيرة على الإسلام ، فاستنقر أتباعه من الإباضية ،

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٠ ، ٦١ - ابن الخطيب ، المرجع السابق ، ص ١٨٤

وشأبه بربر طرابلس وفي مقدمتهم هواره ، وزحف بمجموعه نحو القيروان لتطهيرها من دنس ورجومه ، وتحرير أهل القيروان من استبدادها وطغيانها ، وما إن علم عبد الملك بن أبي الجعد الوردجوى بذلك حتى خرج من القيروان في حشود كثيفة من ورجومة ومن أهل القيروان ، واشتبك الفريقان بالقرب من القيروان في صفر سنة ١٤١ هـ ، واشتد القتال ، ودارت الدائرة على عبد الملك ، إذ خذله أهل القيروان وانهزموا عنه ، فأثنى فيهم عبد الأعلى ، وهزمهم ، وقتل منهم عدداً كبيراً ، من بينهم عبد الملك نفسه ، وتمكن عبد الأعلى من دخول القيروان ^(١) ، واستخلف عليها زميله عبد الرحمن بن رستم الفارسي أحد كبار علماء الإباضية ، وماد هو إلى طرابلس استعداداً لملاقاة القوات العباسية التي سيرها الخليفة أبو جعفر المنصور لمقاتلته .

واضطرب أمر الصفرية في المغرب الأقصى بعد تغلب عبد الأعلى على إفريقية ، فاجتمع الصفرية من مكناسة على أبي القاسم بن سمغون بن واسول المكناسي في الموضع الذي قامت عليه سجالاسة ، وشرعوا في بناء هذه المدينة ، ثم قدموا على أنفسهم عيسى بن يزيد الأسود ، أحد موالى العرب ، ثم أخذوا عليه بعض ما أخذ فعزلوه وولوا على أنفسهم أبا القاسم بن سمغون للمرة الثانية ، فلم يزل والياً عليهم حتى سنة ١٦٨ هـ ، وهو جد بني المدرار أصحاب سجالاسة ، وسنحدث عنهم في الفصل القادم .

وكان قد وفد على أبي جعفر المنصور بعض عساكر العرب ، منهم نافع ابن عبد الرحمن ، وعبد الرحمن بن أنعم ، يستصرخونه لإنقاذ إفريقية من فساد

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٨٢ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١ — ابن خلدون ،

ج ٤ ، ص ٤١٠ — السلاوي ، ج ١ ، ص ١٢٤

ورجومة ، كما وفد إليه أيضا جميل السدراتي أحد جنود عبد الأعلى الإباضي الخارجين عليه ^(١) ، فولى المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي على مصر وإفريقية ، وسير من مصر جيشا من المسودة بقيادة أبي الاحوص عمر ابن الاحوص العجلي لاسترجاع المغرب ، وكان ذلك هو السبب في عودة عبد الأعلى إلى طرابلس بعد تغلبه على عبد الملك بن أبي الجعد . فاشتبك عبد الأعلى مع القوات العباسية في سرت ، وهزمهم في سنة ١٤٢ هـ ^(٢) ، وعاد فلهم إلى مصر . فعزل المنصور محمد بن الأشعث عن ولاية مصر ، وولاه قيادة الجيوش إلى المغرب ، وأقام مكانه على مصر حميد بن قحطبة ، فخرج ابن الأشعث على رأس جيش كثيف عدته خمسون ألف مقاتل ^(٣) ، وكان في جملة عساكره عدد من كبار القواد العباسيين ، نخص بالذكر منهم : الأغلب ابن سالم التميمي ، والمحارب بن هلال ، والمخارق بن غفار الطائي وكان جيش عبد الأعلى يضم عسكرا من زناتة وهوارة ، فتنازعت هاتان القبيلتان ، واتهمت زناتة عبد الأعلى بالميل إلى هوارة ومحاباتها ، وفارقه جماعة كبيرة من الزناتيين . وبلغ ابن الأشعث تخلي الزناتيين عن عبد الأعلى ، فقوى عزمه . ثم إنه تظاهر بأن المنصور أمره بالعودة إلى مصر ، وتباطأ في سيره ، وتراجع بالفعل مسيرة ثلاثة أيام ، فوصل عيون أبي الخطاب وأخبروه بعودة ابن

(١) محمد على دبور ، المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٥ ، ٦

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤١١ . ويذكر ابن عذاري أن المعركة حدثت في

مغنداس على شاطئ البحر .

(٣) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١ . أشار ابن عذاري إلى أن ابن الأشعث خرج في

زهاء ٢٠٠ ألف مقاتل عسكرهم في أرض سرت (ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٨٣) ، وفي

موضع آخر يذكر أنه خرج في أربعين ألفا عليهم ٢٨ قائدا ، وهو الأقرب إلى الصواب .

الاشعث ، فثفرق عنه كثير من أتباعه ، واطمأن الباقر ، فعاد ابن الاشعث مسرعاً ، وفاجأ قوات عبد الاعلى على غير استعداد للحرب ، وهاجمها ، فوضع العباسيون السيوف في الخوارج ، واشتد القتال ، وأسفرت الموقعة عن مقتل عبد الاعلى وعامة أصحابه في صفر سنة ١٤٤ هـ^(١) . حدثت هذه الموقعة بالقرب من تورغا الواقعة إلى الشرق من طرابلس ومسراطه ، وقد أبدى فيها الإباضية مع قلة عددهم وعدم تأهبهم للقتال كثيراً من ضروب الشجاعة والإقدام ، واستماتوا في القتال حتى استشهدوا جميعاً ، فاحتز ابن الاشعث رأس أبي الخطاب وأرسله إلى المنصور .

وكان أبو الخطاب قد استنفر الإباضية في سائر نواحي طرابلس للجهاد ، وبادر هو للقاء بن الاشعث . فلما انتصر بن الاشعث على أبي الخطاب وقتله في عامة أصحابه ظن أنه ضمن بذلك القضاء نهائياً على الإباضية ، ولكنه فوجئ بوصول أبي هريرة الزناتي أحد قادة أبي الخطاب في ستة عشر ألفاً من زناتة وغيرها^(٢) ، جاءوا ملبين نداء أبي الخطاب ، ولكن بعد فوات الأوان ، فتلقاهم ابن الاشعث ، ومزق صفوفهم ، وتمكن من إلحاق الهزيمة بهم في ربيع الأول من سنة ١٤٤ هـ^(٣) . وكان عبد الرحمن ابن رستم قد تأهب لنجدة أبي الخطاب ، فلما وصل إلى قابس ، بلغه ما انتهى إليه مصير أبي الخطاب ، فحمل ولده ، وخرج من القيروان ، ولحق باباضية المغرب الاوسط ، فنزل في لمايه ، وهي بطن من بني فائق بن تامصيت من البتر ،

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٣ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١

(٣) نفس المرجع .

لحلف كان بينه وبينهم ، فالتفوا حوله ، وبايعوه بالخلافة ، ورأى ابن رستم أن يقيم مدينة تكون قاعدة له في المغرب الأوسط على نحو ما فعله بنو المدرار في سجلماسة ، فشرع في بناء مدينة تاهرت في سنة ١٤٤ هـ . ، وأتمها واستقر بها في سنة ١٤٥ (١) .

وكان ابن رستم قد استخلف أحد أتباعه على القيروان ، فأوثقه أهلها في الحديد ، ولوا على أنفسهم عمرو بن عثمان القرشي ، فظل يقوم بأمرهم إلى أن وصل ابن الأشعث إلى القيروان ، ودخلها في غرة جمادى الأولى من نفس السنة (٢) . ثم كتب ابن الأشعث بانتصاراته إلى المنصور ، وأخذ يولى عماله على المغرب ، فأقام على طرابلس المخارق بن غفار الطائي ، كما ولى على طبنة والزاب الاغلب بن سالم (٣) . وأقام ابن الأشعث في القيروان سنة ١٤٥ هـ ، وأمر ببناء سورها في ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ ، وتم بناء السور في رجب سنة ١٤٦ هـ (٤) . وسير من هناك جيشا بقيادة قائده إسماعيل بن عكرمة الخزاعي فدخل زويلة وودان ، وقتل زعيم الاباضية بزويلة ويدعى عبد الله بن حيان الاباضى (٥) . وهكذا فرض ابن الأشعث سطوته على البربر ، فأذعنوا له بالطاعة . ولم يشأ ابن الأشعث أن يقاتل الاباضية في المغرب الأوسط ، واكتفى باستيلائه على إفريقية ، إذ كان العباسيون يحرسون على الاحتفاظ بها في أيديهم لتكون سداً منيعاً أمام حركة الخارجية (٦) .

(١) السلاوى ، ج ١ ص ١٢٨

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٤

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤١١

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٨٤ وما يليها

(٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٤ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١

(٦) محمد على دبور ، ج ٢ ص ٢٠

ثم اشتعلت نار العصبية العربية من جديد في بلاد المغرب ، فقد كان ابن الأشعث يمنيًا ، وكان معظم عسكره من المضرية ، فثار عليه رجل من جنده يقال له هاشم بن الشامج بقمونية وتبعه عدد كبير من الجنود ، فسير إليهم ابن الأشعث فرقة من جيشه هزمها هاشم ، وهنا أخذ القواد المضرية في جيش ابن الأشعث يخرجون عليه وينضمون إلى هاشم كراهية لابن الأشعث (١) ، فسير إليهم ابن الأشعث جيشا آخر تمكن من إلحاق الهزيمة بهم ، وفر هاشم إلى تاهرت ، وجمع هناك جموعا كثيفة من البربر بلغ عددهم نحو وعشرين ألفا سار بهم إلى تهودة ، فخرج إليهم جيش ابن الأشعث فهزمهم ، ففر هاشم وفلول جيشه إلى طرابلس ، وهناك قتله رسول من الخليفة المنصور في صفر سنة ١٤٧هـ ، وبذل الأمان لاتباع هاشم ، فعادوا ، ولكن ابن الأشعث طاردهم وقتل منهم عددا كبيرا . فثار المضرية على ابن الأشعث ، وانفقوا على خلعه ، وأقاموا على إفريقية بعده عيسى بن موسى بن عجلان الخراساني ، وذلك في ربيع الآخر سنة ١٤٨هـ (٢) . فخرج ابن الأشعث من إفريقية إلى المشرق ، وظل عيسى بن موسى على إمارة المغرب إلى أن ولي المنصور على إفريقية الأغلب بن سالم .

ج - ولاية إفريقية في العصر العباسي حتى قيام دولة بني الأغلب :

١ - الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي (١٤٨ - ١٥٠) :

هو جد بني الأغلب الذين استقلوا بإفريقية على أيام ابنه إبراهيم ، وكان

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٨٢

(٢) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٨٣

الأغلب من أصحاب أبي مسلم الخراساني ، وسام في نشر الدعوة العباسية
بخراسان وعرف بالشجاعة والبلاء وحسن الرأي ، واشترك في حملة محمد بن
الاشعث على المغرب ، فولاه على طينة والزاب . فلما قام المضرية بشورتهم في
القيروان على ابن الاشعث ، وخاعوه من ولاية إفريقية ، وطردوه إلى المشرق ،
واختار أبو جعفر المنصور لهذا المنصب الخطير القائد الأغلب بن سالم ، لما
عرفه عنه من الحزم والشجاعة وحسن الرأي ، ولكونه مضرباً يرضاه
المضربون الذين ثاروا على ابن الاشعث ، وبعث إليه المنصور عهده بولايته
في آخر جمادى الآخرة سنة ١٤٨ هـ ، ثم كتب إليه المنصور يأمره بالعدل في
الرعية وحسن السيرة في الجند ، وأوصاه بأن يحصن مدينة القيروان ،
وينتدق حولها ، وينظم حاميتها ، ومن ينوب عنه فيها إذا ما استلزم الأمر رحيله
لقتال الأعداء (١) . هذا الحرص على تحصين القيروان يدل دلالة واضحة
على إلمام المنصور بشئون البربر وعلى بعد نظره ، فقد كان يدرك كل الإدراك
أن شعب البربر يتأهب من جديد لجولة ثانية مع العرب ، وقد صدق المنصور
في ظنه وحده ، فان زناتة التي تمثل أكبر قبائل البربر البر والقيروان
للمذاهب الخارجية منها ، أحست بأن ولاية العباسيين على المغرب يسعون إلى
محاربة الخارجية ، والقضاء عليها في المغرب كله ، ولذلك بايعت زناتة في
نفس العام الذي تولى فيه الأغلب إمارة إفريقية بالإمامة رجلاً لا يقل عن
خالد بن حميد الزناتي الصفري في الشجاعة والبأس ، هو أبو قررة بن دوناس
اليفرنى الصفري ، الذي ضم الصفرية في المغرب الأوسط والأقصى ، ونظم
صفوفهم (٢) ، واتخذ من تلمسان قاعدة له في المغرب الأوسط ، ومن طنجة

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٦

(٢) محمد علي دبور ، المغرب الكبير ج ٣ ص ٣٦

قاعدة له في المغرب الأقصى ثم خرج أبو قرّة على رأس جيش كثيف من البربر الزناتيين ، فأثر الأغلب أن يسير للقائهم ، فزحف بجيوشه حتى انتهى إلى الزاب ، فخاف أبو قرّة أن يشتبك معه هناك في قتال ، فيتمكن الأغلب من التغلب عليه بسبب كثرة أنصاره في الزاب ، وقربها من القيروان قاعدة الأغلب في إفريقية ، فانسحب غربا إلى طنجة يستدرج الأغلب وجيوشه إلى المغرب الأقصى موطن الصفرية ، فيقضى عليه كما قضى خالد بن حميد الزناتي من قبل على كلثوم بن عياض القشيري ومعظم من كان معه . ولم يكن للأغلب يهاب شيئا من ذلك ، فأراد أن يتابع زحفه ، ولكن جنده بدأوا بتفرقون من حوله ، فاضطر الأغلب إلى العودة إلى القيروان ، فعاد أبو قرّة إلى تلمسان (١) .

ثم جهز الأغلب جيشا آخر ، وخرج به للمرة الثانية لغزو الصفرية في المغرب الأوسط والأقصى في سنة ١٥٠ هـ ، بعد أن استخلف على القيروان سالم بن سودة ، ولما أوغل في بلاد المغرب أخذ جنده وقواده ينفضون من حوله ويتسللون إلى القيروان ، واتفق أن ثار على الأغلب أثناء مسيره أحد أجناده من اليمنية بتونس وهو الحسن بن حرب الكندي ، وكان قد نجح في إيقار قلوب القواد والجند على الأغلب ، واستألم إليه ، وكان ذلك هو السبب الذي دعا عسكر الأغلب إلى الانفضاض من حوله وتفرقهم عنه إلى القيروان . وتمكن الحسن بن حرب من الاستيلاء على تونس ، وخرج في حشود كثيفة من أنصاره ومن انضم إليه من عسكر الأغلب إلى القيروان ،

فاستولى عليها ، وقبض على عاملها سالم بن سواده وحبسه ^(١). وبلغ الأغلـب هذه الأخبار ، فاعتم ، وانحرف عن خطته في مقاتلة أبي قررة ، وعاد في عدة يسيرة إلى القيروان ، وكتب إلى الحسن بن حرب « يعرفه بفضل الطاعة ووبال المعصية ، فأعاد الجواب إلى الأغلـب ، وفي آخره :

ألا قولاً لا غلب غير سر * مغفلة عن الحسن بن حرب
بأن البغي مرتعـه وخيم * عليك وقربه لك شر قرب
فان لم تدعني لتنال سامي * وعفوى فادن من طعن وضرب ^(٢)

غضب الأغلـب عند قراءة هذه الأبيات التي تتضمن معنى الوعيد والتهديد ، وعزم على السير إلى الحسن ومقاتلته ، ولكن أصحابه نصحوه بالسير إلى قابس ، وحشد عساكره هناك ، وقالوا له : « ليس من الرأي أن تعدل إلى لقاء العدو في هذه العدة القليلة ، ولكن الرأي أن تعدل إلى قابس ، فان أكثر من معه يحىء إليك لا أنهم إنما كرهوا المسير إلى طنجة لا غير ، وتقوى بهم ، وتقاتل عدوك » ^(٣). ففعل الأغلـب ما نصحوه به ، وتمكن من جمع حشود كثيفة من الجند ، واشتبك مع قوات الحسن ، فتغلب عليه ، وانهمز الحسن بن حرب إلى تونس ، ودخل الأغلـب القيروان ^(٤) ولم يسكت الحسن على ما أصابه من الهزيمة ، فكر بجيشه - ائـل على الأغلـب ، فخرج إليه الأغلـب في جمادى الآخرة سنة ١٥٠ هـ ، واقتتل الفريقان ، واشتد القتال

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٧

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٦

(٤) نفس المرجع - ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٧

فأصيب الأُغلب بسهم قتله ، بينما ثبت رجاله وقدموا على أنفسهم المخارق بن غفار الطائي، عامل الأُغلب على القيروان ، وكان في ميمنة جيش الأُغلب . وانتهت المعركة بهزيمة الحسن بن حرب وفراره إلى تونس في شعبان سنة ١٤٠ هـ . وتولى المخارق إفريقية في رمضان من نفس السنة ، فوجه الخيل في أثر الحسن، فلجأ الحسن إلى كتامة ، فأقام في كنفهم شهرين ثم عاد إلى تونس ، فقتله بعض الجند هناك ^(١)، وصلبوه. أما الأُغلب، فقد اعتنى جنده بدفنه، وسموه الشهيد ^(٢) .

٢ - أبو جعفر عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة المعروف بهزار مرد :

عرف عمر بن حفص بشجاعته المفرطة في ميادين القتال ، ولذلك لقب بهزار مرد ، وهي لفظة فارسية معناها ألف رجل ، دلالة على شدة بأسه ومراسه ، ولأه المنصور على المغرب ليقضى على الفتن والثورات التي احتدمت في أرضه ، ويعيد الجيش العباسي إلى الطاعة ، وأرسل معه فرقة تتألف من خمسمائة فارس ليستعين بهم في مهمته الكبرى ^(٣) . فقدم عمر بن حفص إلى القيروان في صفر سنة ١٥١ هـ . وأول ما عني به عمر هو تهدئة خواطر الجند ، وتسكين الأهالي في القيروان ، فاجتمع فور وصوله بوجوه المدينة ، ووصلهم وأحسن إليهم ، فهدأت الأحوال ثلاث سنوات ، واستقامت أمور البربر طوال هذه الفترة .

ويبدو أن المنصور اغتر بهذا السكون ، فتطلع بنظره إلى امتلاك المغرب

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩١ - ابن الأثير ج ٥ ص ٢٦

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٦

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٨ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١

الاًوسط ، فأمر واليه عمر بالتوجه إلى طينة قاعدة إقليم الزاب وتحصينها بسور حتى تكون مركزا لغاراته المقبلة على المغربين الاًوسط والاقصى ، للقضاء على دولة الرستميين بتاهرت ، ودولى الصفرية فى تلمسان وسجلماسة فاستخلف عمر بن حفص على القيروان حبيب بن حبيب بن يزيد بن المهلب ، وعزم على السير لقضاء مهمته ، وأحس الرستميون بالخطر الذى يهدد دولتهم من تحصين مدينة طينة ، فاتفق ابن رستم مع أنصاره فى طرابلس وجنوب إفريقية وتلمسان على الانتفاض ، ومحاربة العباسيين ، فما كاد عمر بن حفص يخرج إلى طينة ، وتخلو إفريقية من عسكر العباسيين حتى ثار بها البربر ، ولما خرج إاليهم حبيب لملاقاتهم ، قتلوه بعد أن هزموا جيشه وجيش طرابلس الذى سيره الجنيد بن بشار عامل عمر بن حفص على طرابلس (١) . ونشج عن انتصار البربر فى إفريقية قيام الفتنة فى سائر أنحائها . واجتمعت حشود البربر من كل فج ، وولوا على أنفسهم أبا حاتم يعقوب بن حبيب الإباضى ، فكتب الجنيد ابن بشار الأسدى عامل طرابلس إلى عمر يستمده ، فأمدّه من طينة بعسكر فتقوى بهم ، واشتبكت قوات الجنيد مع قوات أبي حاتم ، فانتصر البربر ، وسحقوا قوات العباسيين سحقا ، وتراجع فل العباسيين إلى قابس ، فحاصروهم أبو حاتم (٢) .

احتشدت جموع البربر من كل ناحية لمهاجمة عمر بن حفص فى طينة . ويجمع مؤرخو العرب على أنه تجمع للبربر اثنى عشر عسكرا ، توجهوا جميعا نحو الزاب ، منهم أبو قرّة الصفرى الذى قدم فى أربعين ألف مقاتل ، وعبد

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤١٢

(٢) نفس المرجع

الرحمن بن رستم الاباضى فى خمسة عشر ألفا ، وأقبل عاصم السدراتى من سدراته فى ستة آلاف مقاتل ، وأبو حاتم فى جيش كبير ، وعبد الملك بن سكرديد فى ألفين ، والمسور بن هانيء الزناتى فى عشرة آلاف (١) . وأسهم من جوارج صنهاجه وزناتة وهوارة أعداد لا تحصى من البربر غير أن ابن رستم آثر أن يعسكر بمسكره فى تهودة التى تقع جنوبى طبنة ، ليكون مدداً لقوات أبى قررة عند الحاجة .

ولم يكن مع عمر بن حفص من العسكر سوى خمسة عشر ألفا وخمسمائة ، فهاله ما رآه من حشود البربر الهائلة التى تجمعت بالقرب من طبنة ، فتحصن داخل أسوار المدينة ، ولما طال عليه حصار البربر له ، أنف أن يكون سجيناً لهم فى طبنة ، وعزم على الخروج مع عسكره مرة واحدة خروج من وطن نفسه على الموت . فأشار عليه قواده بأن يبقى فى طبنة حتى لا يعرض نفسه للهلاك ، ونصحوه بأعمال الحيلة والدهاء ، فتبع نصيحتهم ، وكان يعرف ما للمال من تأثير كبير فى نفوس من يحتاج إليه ، وكان اضطراب الأحوال السياسية فى المغرب منذ أواخر عصر الدولة الأموية قد سبب ارتباكاً فى البناء الاقتصادى ، فكثرت المجاعات ، وعم القحط فى البلاد ، وعانى البربر كثيراً من ضروب البؤس والفقر ، وكان ذاك من أسباب تقبلهم لمبادئ الخارجية ، فوجه عمر رسالته إلى أبى قررة يعرضون عليه ستين ألف درهم وكسى كثيرة حتى ينصرف برجاله ، فرد عليهم بقوله « بعد أن سلم على بالخلافة أربعين سنة أبيع حربكم بعرض قليل من الدنيا » ، ولم يجبههم إلى ذلك (٢) . ولما

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٨ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢

(٢) نفس المرجع ، ص ٨٩ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢

رأى عمر أن إغراء المال وبريق الذهب لم ينجحاً في تحويل أبي قرّة عن عزمه ، أعاد المحاولة مع أخ لا بنى قرّة ، فدفع رسوله إليه قدراً من المال مقداره أربعة آلاف درهم وبعض الثياب ، بشرط أن يعمل على صرف أخيه أبي قرّة والصفريّة إلى بلادهم . ونجح عمر هذه المرة ، فقد ضعف عزم شقيق أبي قرّة أمام هذا العرض ، فشرع من ليلته في إنشاء الصفريّة عن محاصرة العرب ، ولم يعلم أبو قرّة حتى انصرف عنه أكثر العسكر ، فلم يجد بداً من اتباعهم ^(١) . وهكذا نجح عمر في تفريق كلمة البربر بأمواله ، وعندئذ وجه عسكره إلى عبد الرحمن بن رستم ، وكان مرابطاً في تهوذه ، فانهزم ابن رستم وتراجع إلى تاهرت ، ولم يجد من بقى من الإباضية على حصار طبنّة بداً من التراجع إلى القيروان ومحاصرتها ، وزحف عمر بعسكره من طبنّة متجهاً إلى القيروان لفك الحصار عنها بعد أن استخلف على طبنّة بعض عسكره . وفي هذه الأثناء علم أبو قرّة بخروج عمر من طبنّة ، فقدم إليها ، واشتبك مع عسكر العباسيين ، فولى منهزماً بعد أن قتل من رجاله عدد كبير .

وكان أبو حاتم قد لازم حصار القيروان مدة ثمانية شهور حتى نفذ الطعام من أهرائها ، وأكل الناس دوابهم وكلابهم ، وجهدم الجوع ، وجاءت الأخبار بوصول عمر بن حفص من طبنّة في سبعمائة فارس ، ففك أبو حاتم الحصار عن المدينة ، واتجه إلى الأربس حيث نزل عمر ، فعاد عمر الأربس إلى تونس ، فتبعه البربر ، فعاد إلى القيروان مجدداً ، وأدخل إليها ما يحتاج من طعام ودواب وحطب وكل ما يصلحه من المرافق استعداداً لحصار طويل ، وتحصن العباسيون في داخل أسوار المدينة ، ثم أقبل أبو حاتم في

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٩

حشود كثيفة من البربر قيل أن عدتهم ١٣٠ ألف مقاتل^(١) ، وحاصروا القيروان ، وكان عمر بن حفص يخرج لمتازاتهم كل يوم ثم يعود إلى المدينة . فلما طال الحصار على أهل القيروان ، وقلت لديهم القوات ، وانعدمت المؤن ، وضاق أمرهم « أكلوا دوابهم وكلابهم وسنانيرهم ، وانتهى الملح عندهم أوقية بدرهم »^(٢)

ثم بلغه أن المنصور قد سير إليه يزيد بن حاتم على رأس جيش قوامه ستين ألف مقاتل لنصرة أهل القيروان . فعز على عمر أن تكون نجاة القيروان على يدي قائد آخر ، فقال : « لاخير في الحياة بعد هذا أن يقال : يزيد أخرجه من الحصار ، إنما هي رقدة وأبعث إلى الحساب »^(٣) . وخرج بمقاتل البربر ، وبطن فيهم حتى قتل في ١٥ ذى الحجة من سنة ١٥٤ هـ ، فخلفه على قيادة جيش العباسيين أخوه جميل بن حفص^(٤) ، وقيل حميد بن صخر أخو عمر لأمه^(٥) . ولما طال الحصار على العباسيين دون أن تصل إليهم قوات يزيد بن حاتم ، وساءت أحوال المسلمين بداخل القيروان ، اضطر جميل بن حفص إلى مصالحة أبي حاتم بشرط أن يظل العباسيون في القيروان مواليين للمنصور العباسي ، لا ينازعهم أبو حاتم في سوادهم وسلاحهم ،

(١) ذكر ابن عذارى أن عد قوات البربر التي كان يقودها أبو حاتم الإباضى وأبو غادي بلغت ٣٥٠ ألفا ، والخيل منها ٣٥ ألفا ، وأربعين ألفا مع أبي قرة اليفرنى (البيان ص ٩١)

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٩٠

(٣) نفس المرجع ص ٩١

(٤) نفس المرجع

(٥) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٣

فرفض أبو حاتم هذا الشرط ، ثم هاجم القيروان ، وأحرق أبوابها ، وهدم سورها (١) ، ودخلها فلم يسفك دماء أهلها ومن كان فيها من عسكر العباسيين ، ثم إنه أمر بإخراج معظم هؤلاء العسكر من القيروان حتى يتجنب بذلك قيامهم بالثورة عليه مستقبلا ، وبأن لنفسه الإقامة بها دون أن يقرصده حدو يقيم معه بها ، وأنزلهم بطبنة . ولم يبق في القيروان من جنود العباسيين إلا عدد قليل .

وجاءته الأنباء بوصول يزيد بن حاتم إلى طرابلس ، فاستخلف على القيروان عبد العزيز بن السمح الماعري (٢) . وترك معه عددا قليلا من الجند ، وسار هو بمعظم جيشه إلى طرابلس لملاقاة جيش يزيد بن حاتم قبل أن يصل إلى إفريقية . ومبالغة منه في الحذر من العباسيين المقيمين في القيروان ، أمر أبو حاتم عامله على القيروان بأن يجرد هؤلاء العرب من السلاح ، وأن يفرق بينهم حتى لا يفكروا في القيام بثورة مسلحة عليه داخل المدينة . ولما علم العباسيون في القيروان بما اعتزم عليه أبو حاتم من تجريدهم من سلاحهم ، قدموا على أنفسهم عمر بن عثمان الفهري ، ووثبوا على عسكر أبي حاتم في القيروان ، وقتلوه ، واسترجعوا المدينة . وبلغ أبو حاتم غدرهم به ، فعاد أدراجه إلى القيروان ، فهرب عمر بن عثمان إلى تونس ، بينما نجح جميل بن حفص ، والجند العباسيون في التوجه شرقا ، وانضموا إلى قوات يزيد بن حاتم بسرت .

أسرع أبو حاتم إلى العمل ، فأرسل فرقة من جيشه بقيادة جرير بن

(١) المرجع السابق - ابن خلدون ص ١١٣

(٢) ابن عذاري ، ص ٩٠ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ١١٤

مسعود المديوني للقبض على عمر بن عثمان والمخارق بن غفاربثونس ، فان ابن خلدون يذكر أنها فرا إلى جيغل من سواحل كتامة ، فتركهما ، واستخلف على القيروان عبد العزيز بن السميج المعافري ، ومضى هو لملاقة جيوش العباسيين بقيادة يزيد بن حاتم . أما جرير المديوني فقد أدرك عمر ابن عثمان بجيغل ، فتقاتلا ، فقتل جرير وأصحابه ، وتمكن عمر بن عثمان والمخارق بن غفار من دخول تونس (١) .

٣ - يزيد بن حاتم وقضاؤه على ثورة البربر الإباضية :

كانت أخبار الثورات التي أشعلها البربر في المغرب الأدنى قد وصلت إلى مسامع أبي جعفر المنصور ، فبادر بتولية يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب على المغرب ، وسيره إلى إفريقية في جيش من عرب الشام والعراق وخراسان عدته ستون ألفا (٢) . ووصل يزيد إلى سرت في عام ١٥٥ هـ ، وانضم إلى جيشه هناك عدد كبير من عرب إفريقية وطرابلس ، كما انضم إليه جماعة من البربر ، فتضخم بهم جيشه . وكان أبو حاتم قد خرج من القيروان على رأس جيشه من الإباضية لملاقة يزيد بن حاتم ، وانضم إليه قائد عربي من أعقاب عقبة بن نافع هو عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهري (٣) . وآثر أبو حاتم أمام كثرة أعدائه أن يلاقيهم في منطقة جبلية يسهل عليه أن يتغلب فيها عليهم ، فاختار لهذا الغرض جبل نفوسة لكثرة من فيه من المشايخين له ولحركته ، فسير يزيد بن حاتم طائفة من عسكره إلى قابس ،

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٢ ، عن محمد علي ديبوز ، المغرب الكبير ، ج ٣ ص ٧٤

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٣ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤٤

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٤ - ابن الأثير ، ص ٣٣ - ابن خلدون ، ص ١٤٤

فاشتبك معهم أبو حاتم ورجاله في معركة دامية انتهت بهزيمة العباسيين، وحاد
فلهم إلى يزيد بن حاتم (١). ورأى يزيد أنه أمام خصم شديد المراس، فعزم
على السير بنفسه لملاقاته ومقاتلته، ولما علم أبو حاتم بقدومه إليه تحصن في مكان
وعر، وخندق على عسكريه، ثم اتى الجيشان في ربيع الأول سنة ١٥٥ هـ،
واشتد القتال بينهما، واستمات أبو حاتم في مسدافة العباسيين حتى قتل هو
وأهل نجدته، وطارد يزيد فلول جيشه في السهول والجبال، وقتل منهم
ما يقرب من ثلاثين ألفا. وظل العباسيون يقتلون الإباضية في جبل نفوسة
شهرًا حتى سحقوهم، ثم استخلف يزيد على طرابلس سعيد بن شداد، ومضى
بجيشه إلى القيروان، فدخلها في ٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٥٥ هـ (٢).

وكان عبد الرحمن بن حبيب جفيد عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الثامر
على حنظلة بن صفوان، قدا نضوى تحت لواء أبي حاتم والإباضية، واشترك
في معركة جبل نفوسة، فلما انهزم جيش أبي حاتم، فر عبد الرحمن مع من فر من
أصحاب أبي حاتم إلى جبال كتامة الواقعة في شمال قسنطينة، واعتصم بقلعة
صحاب، فبعث إليه يزيد بن حاتم المخارق بن غفار الطائى وإلى طينة
لمحاصرته، ويبدو أن المخارق أبدى عجزا في استئزال عبد الرحمن بن حبيب،
فوجه يزيد بن حاتم مددا إلى المخارق بقيادة العلاء بن سعيد المهلبى
سنة ١٥٦ هـ (٣). ونجح القائدان هذه المرة في التغلب عليه، ففر عبد الرحمن
بن حبيب عن القلعة، وعبر البحر إلى الأندلس (٤). وفي نفس هذا التاريخ

(١) ابن الأثير، ج ٥ ص ٣٣

(٢) ابن عذارى، ج ١ ص ٩٤

(٣) نفس المرجع

(٤) ابن الأثير، ج ٥ ص ٦٠

ثار بطرابلس على يزيد ، أبو يحيى بن قرياس الهواري ، فالتف حوله كثير البربر ، فاشتبك معه عبد الله بن السمط الكندي ، قائد جيش يزيد في إطرابلس في قتال عنيف ، انتهى بهزيمة أبي يحيى وسحق ثورته (١) .

وكان يزيد من خيرة ولالة إفريقية ، إذ قضى على الثورات ، وضبط البلاد ، وأمن الناس على معاشهم ، وأموالهم ، وبدأت بعده صفحة جديدة في تاريخ المغرب الأدنى . وظل الهدوء نحيما على المغرب الأدنى في عهده حتى سنة ١٦٤ هـ ، عندما انتفضت قبيلة ورفجومة بزعامة أيوب الهواري . فسير إليهم يزيد جيشا ضخما بقيادة يزيد بن مجزأة المهلبى ، والمخارق بن همار الطائي ، فالتقى الفريقان بالزاب في معركة حامية ، انهزم فيها يزيد ، وقتل المخارق والى الزاب ، فولى يزيد بن حاتم مكانه المهلب بن يزيد المهلبى ، إلى أن استعمل على الزاب العلاء بن سعيد المهلبى ، وأمدّه يزيد بن حاتم بجيش كثيف تمكن بواسطته من القضاء على ثورة ورفجومة (٢) .

ثم ساد البلاد فترة من الهدوء مرة ثانية ، عكف خلالها يزيد بن حاتم على الإصلاحات الداخلية ، وترميم ما أفسدته الحروب والثورات . اهتم يزيد بالعمارة والفنون ، فأعاد تنظيم مدينة القيروان ، وجعل لكل حرفة من الحرف سوقا خاصة بها ، وجدد بناء المسجد الجامع بالقيروان (٣) ، وأزاد فيه سنة ١٥٧ هـ . وشهدت البلاد الإفريقية في أيامه ازدهارا لم تشهده منذ أيام حسان بن النعمان ، وظلت إفريقية تنعم بالهدوء والأمن حتى توفي يزيد بن

(١) ابن عذارى ، ص ٩٤

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٣

(٣) ابن الأبار ، كتاب الحلة السراء ، ج ١ ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ،

القاهرة ، ١٩٦٣ ص ٧٣

حاتم في رمضان سنة ١٧٠ هـ ، في خلافة الرشيد (١) ، وقيل توفي في سنة ١٧١ (٢) .

٤ - روح بن حاتم بن قبيصة :

لما مرض يزيد بن حاتم استخلف ولده داود على ولاية إفريقية ، فلما توفي يزيد ظل داود يقوم بولايتها زهاء تسعة أشهر قضاهما في محاربة الإباضية النافرين عليه ، فقد انتقض الإباضية ببجبال باجة ، وتزعمهم نصير ابن صالح الإباضي ، فسير إليهم داود جيشا بقيادة المهلب بن يزيد ، فهزمه الإباضية ، وقتلوا جملة من عسكره ، فوجه إليهم داود جيشا بقيادة سليمان ابن يزيد ، يتألف من عشرة آلاف مقاتل ، ونجح جيشه هذه المرة في تمزيق صفوف الثوار والقضاء على ثورتهم . وأقام داود على ولاية إفريقية إلى أن قدم إليها عمه روح بن حاتم أميرا على المغرب من قبل الرشيد (٣) .

وفي عهد روح ساد الهدوء إفريقية ، فقد هادن عبد الوهاب بن رستم بهاهرت ، ووادعه (٤) . ولم يطل عهده إذ توفي في القيروان في ٢٣ رمضان سنة ١٧٤ هـ .

٥ - الفضل بن روح بن حاتم :

لما توفي روح بويج ابنه قبيصة في المسجد الجامع ، وكان الفضل بن

(١) ابن الأثير ص ٣٣ ، ٨٢ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٥ - ابن الخطيب ، أعمال

الاعلام ، القسم الثالث ص ٩

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٦ ، ٩٨

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩٩ - ابن الأثير ج ٥ ص ٨٣

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٥

روح عاملا لآبيه في الزاب ، ولكن الرشيد استعمل على إفريقية بعد وفاة روح ، حبيبا بن نصر المهلبى في رمضان سنة ١٧٤ ، فخرج الفضل بن روح إلى بغداد ، وطالب الرشيد بولاية إفريقية باعتباره أحق بها من حبيب بن نصر ، فولاه الرشيد على إفريقية ، وعندئذ عاد الفضل إلى القيروان في سنة ١٧٧ هـ ، فولى ابن أخيه المغيرة بن بشر على مدينة تونس ، وكان أرعنا ، فاستخف بالجند ، وأساء السيرة معهم ، فشكوا إلى الفضل ، فلم يحرك ساكنا ، فاتفق الجند فيما بينهم على تقديم قائد منهم يقال له عبدالله ابن الجارود ، ويعرف بعبدويه الأبارى ، والتف حوله عدد كبير من الساخطين على الفضل ، وأعلنوا الثورة عليه ، وطرّدوا عامله على تونس ، وكتب ابن الجارود إلى الفضل بن روح : « أما بعد ، فانا لم نخرج على المغيرة خروجاً عن الطاعة ، ولكن لأحداث أحدثها فينا ، ظهر فيها فساد الدولة ، فعجل لنا من ترضاه ليقوم بأمرنا ، وإلا نظرنا لأنفسنا » ، فأجابه الفضل : « أما بعد ، فان الله يجرى قضاؤه على ما أحب الناس أو كرهوا ، وليس اختياري واليا اخترته لكم أو اخترتموه بحائل دون شيء أمداد الله عز وجل بلوغه فيكم ، وقد وليت عليكم عاملا ، فان دفعتموه فهو آية النكت منكم والسلام » ^(١) . وبعث إليهم عبد الله بن يزيد المهلبى ، عاملا على تونس ، في ضجة النضر بن حفص ، وأبو العنبر والجنيد بن سيار ، فلما وصلوا إلى ظاهر تونس أدرك ابن الجارود أن مجيء العامل في رفقة ثلاث من القواد يعنى عزمه على القبض على رؤساء الثورة والتنكيل بهم ، فحث رجاله على القبض عليهم ، فخرجوا إلى عبد الله بن يزيد فقتلوه ، وأسروا من معه .

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٦ - ابن الأبار ، الحلة السراء ص ٧٧

فسير إليهم الفضل جيشا لمقاتلتهم ، ولكن جيشه منى بهزيمة نكراء ، وارتد منهزما إلى القيروان ، وأقبل ابن الجارود بعسكره ، وحاصر القيروان ، وتمكن من اقتحام المدينة في جمادى الآخرة سنة ١٧٨ ، وأخرج الفضل ومن معه إلى قابس ، ثم ردهم ابن الجارود وقتل الفضل خوفا من أن يتوجه إلى طرابلس ويعود منها بجيش يحاربه . وعندما عبر الجند عن غضبهم لمقتل الفضل قاتلهم ابن الجارود وهزمهم ، ففروا إلى الأربس . وأقاموا على أنفسهم العلاء بن سعيد وإلى الزاب (١).

٦ - هرثة بن أعين :

لما بلغ الرشيد مقتل الفضل بن روح وما أثاره ذلك من عوامل الفوضى والاضطراب في إفريقية ، ولي على إفريقية هرثة بن أعين ، وبعث إلى ابن الجارود يحيى بن موسى ، لمكانته عند أهل خراسان (٢) ، وقصد من إرساله أن يستميل ابن الجارود ليعاود الطاعة قبل وصول هرثة . ونجح يحيى بن موسى في استمالة جماعة من أجناد ابن الجارود على رأسهم محمد بن الفارسي ، ولكن ابن الجارود قتل محمد بن الفارسي وهزم عسكره ، فعاد يحيى إلى هرثة بطرابلس ، وفي نفس الوقت تمكن العلاء بن سعيد من جمع قوات كثيرة للزحف بهم إلى القيروان ، فكتب ابن الجارود إلى يحيى في أول صفر سنة ١٧٩ هـ بدعوه للحضور إلى القيروان قبل العلاء . ولكن العلاء سبق يحيى في دخول القيروان ، وقتل من أتباع ابن الجارود عددا كبيرا ، ثم أقبل يحيى بن موسى إلى القيروان ، وأمر العلاء بالخروج منها ، فخرج

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩٥

(٢) نفس المرجع - ابن خلدون ج ٤ ، ص ٤١٧

إلى طرابلس^(١) . ثم قدم هرثمة إلى إفريقية ، ودخل القيروان في غرة ربيع الآخر سنة ١٧٩ . فهدأ نفوس أهلها ، وأقام على الزاب إبراهيم بن الأغلب . وكان هرثمة مولعا بالبناء ، فأقام القصر الكبير بالمنستير سنة ١٨٠ هـ ، وبني سور مدينة طرابلس مما يلي البحر^(٢) .

وفي سنة ١٨٠ هـ ثار على هرثمة عياض بن وهب الهواري ، وكنيب ابن جميع الكلبي ، ووجهها إليه جيشا لمحاربتة ، فسير هرثمة إليهما يحيى بن موسى في جيش كثيف ، تمكن من إيقاع الهزيمة بهما ، والتغلب عليهما^(٣) . ولكن هرثمة لم يرض بالبقاء أكثر من ذلك في إفريقية لكثرة ثورات أهلها . وتقلب أجنادهما ، فطلب من الرشيد الاستعفاء ، فأمره بالقدوم إليه ، فخرج من إفريقية في رمضان سنة ١٨١ هـ .

٧ - محمد بن مقاتل العكي :

استعمل الرشيد على إفريقية بعد هرثمة محمداً بن مقاتل بن حكيم العكي وكان أخاه في الرضاع ، فقدم إليها في أول رمضان سنة ١٨١ هـ . ولم ينجح ابن مقاتل في تهدئة نفوس الجند ، بل على العكس من ذلك أثار عليه كراهية الجند لسوء سيرته ، وقبيح ما يؤثر من أخباره ، من ذلك إقدامه على ضرب البهلول بن راشد بالسياط ، وتسببه في قتله بسبب وعظه له ، ومعارضته في تصرفاته ، خاصة عندما أمد الروم في صقلية بالأسلحة . وكان البهلول من كبار أئمة البربر في الشريعة ، ولذلك كان مقتله سببا في بغض الناس لابن مقاتل ،

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٠٩ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩٦

(٢) قصص المرجع ص ١١٠ - ابن الأثير ص ٩٦

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩٦ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٨

يضاف إلى ذلك أنه اقتطع أرزاق الجند ، وأساء السيرة فيهم وفي الرعيعة ،
ولذلك اختلف جنده عليه ^(١) ، وانفقوا على تقديم مخلد بن مرة الأزدي .
ولما علم ابن مقاتل بذلك ، سير إليه جيشا للقضاء على ثورته ، وتمكن هذا
الجيش من هزيمة أنصار مخلد ، فاخفى في مسجد ، ولكن جند ابن مقاتل
تمكنوا من القبض عليه ، وذبحوه ^(٢) .

ثم ثار عليه أبو الجهم تمام بن تميم التميمي عامله في تونس ، لاستهجانه
تصرفات ابن مقاتل ، وسار تمام في جموع هائلة إلى القيروان في رمضان سنة
١٨٣ هـ ، واشتبك مع ابن مقاتل في منية الخيل من القيروان ، فانهزم ابن
مقاتل ، وتحصن في داره التي بناها ، وترك دار الإمارة ، وأقبل تمام ،
فزل بعسكره خلف باب أبي الربيع . فلما أصبح تمام فتحت له الأبواب ،
فدخل القيروان يوم الأربعاء لخمس بقين من رمضان سنة ١٨٣ هـ ، فأمن تمام
العكي على دمه وأهله وماله . فكانت ولايته إلى أن أخرجه تمام من القيروان
سنتين وعشرة أشهر ^(٣) .

خرج العكي من القيروان بعد أن أمته تمام ، وسار إلى طرابلس ،
فأدركه قوم من الخراسانيين ، منهم طرحون صاحب شرطته ، فدخل بهم
طرابلس وأقام بها . واستاء إبراهيم بن الأغلب التميمي من خروج تمام
على والي إفريقية الشرعي ، فجمع ابن الأغلب جيشا من الزاب سار به
إلى القيروان ، وقبل أن يصل إليها كان تمام قد فر إلى تونس ، فدخل

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١١١ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٠٤

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٠٤

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١١٢

ابراهيم بن الاغلب القيروان واتجه مباشرة إلى المسجد الجامع ، وصعد المنبر ، وخطب في الناس خطبة بليغة ، أشار فيها إلى أنه قدم إلى القيروان لنصرة محمد بن مقاتل العكي ، لأنه الامير الشرعى على إفريقية (١) . ثم كتب ابراهيم إلى العكي بطرابلس بدعوه إلى دخول القيروان . فعاد العكي إلى القيروان ، فانزعج الناس لعودته ، وبدأوا يفزعون إلى تمام بتونس . فلما عاين تمام كثرة من وفد إليه من الجند والمشايخين ، عزم على مهاجمة القيروان ، فخرج ابن الاغلب لمقاتلته ، فانهزم تمام ، وانسحب إلى تونس ، فطارده ابن الاغلب ، وتاهب لمحاصرته فيها في محرم سنة ٨١٨٤ . فلما رأى تمام ألا طاقة له على مقاتلة ابن الاغلب ، استأمنه على نفسه ، فأمنه ، وأقبل به إلى القيروان في ٨ من المحرم ، ثم أرسله إلى بغداد ، فأمر الرشيد بحبسه في المطبق (٢) .

أصبح ابراهيم بن الاغلب رجل إفريقية القوى ، بعد أن هزم تمام ، وأعاد ابن مقاتل إلى مقر ولايته ، ولكن أهل البلاد والجند كانوا قد سئبوا حكم ابن مقاتل ، وكرهوا عسفه ، فانصلت جماعة منهم بابراهيم بن الاغلب وطلبوا منه أن يتولى شؤونهم بدلا من ابن مقاتل ، وحملوه على أن يكتب إلى الرشيد طالبا منه أن يقره على ولاية إفريقية ، فكتب إليه في ذلك ، وأبلغه أنه مستعد في مقابل ذلك أن يتنازل عن المائة ألف دينار التي كانت تبعثها حكومة مصر كل عام معونة لإفريقية ، بالإضافة إلى استعداده لإرسال أربعين ألف دينار كل عام إلى الخليفة . فلما عرض الرشيد الأمر

(١) ابن عذارى ، ص ١١٣

(٢) ابن خلدون ، ص ٤١٩ — التويرى ، عن دبور ، ج ٣ ، ص ١٢٧

على هرثمة بن أعين ليسأله النصيحة ، أشار إليه بأن يوافق على منحه ولاية إفريقية لكفايته ، وحزمه ، ومقدرته الحربية في إخماد الثورات والقضاء على الفتن . فكتب له الرشيد عهدا بولاية إفريقية في جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ ، ففعل بن مقاتل عائدا إلى المشرق ^(١) .

وبولاية ابن الأغلب يبدأ عهد جديد في تاريخ إفريقية والمغرب .

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٦ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٠٤ - ابن خلدون ، ج ٤

ص ٤١٩ - السلاوي ، ج ١ ص ١٣٥

الباب الثالث

الولايات المستقلة بالمغرب في القرن الثالث الهجري

الفصل الخامس

دولة الأغالبة في المغرب الأدنى

(١) عصر الأمراء الأقوياء :

- ١ - إبراهيم بن الأغلب (١٨١ - ١٩٦ هـ) .
- ٢ - أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (١٩٦ - ٢٠١ هـ) .
- ٣ - زيادة الله بن إبراهيم (٢٠١ - ٢٢٣)

(٢) خلفاء زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب :

- ١ - أبو عقال الأغلب (٢٢٣ - ٢٢٦ هـ) .
- ٢ - أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم (٢٢٦ - ٢٤٢) .
- ٣ - أبو إبراهيم أحمد بن محمد (٢٤٢ - ٢٤٩) .
- ٤ - أبو محمد زيادة الله بن محمد (٢٤٩ - ٢٥٠) .
- ٥ - أبو الغرائيق محمد بن أحمد (٢٥٠ - ٢٦١) .
- ٦ - إبراهيم بن أحمد (٢٦١ - ٢٨٩) .
- ٧ - أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (٢٨٩ - ٢٩٠) .
- ٨ - زيادة الله بن عبد الله ، آخر أمراء بني الأغالب (٢٩٠ - ٢٩٦) .

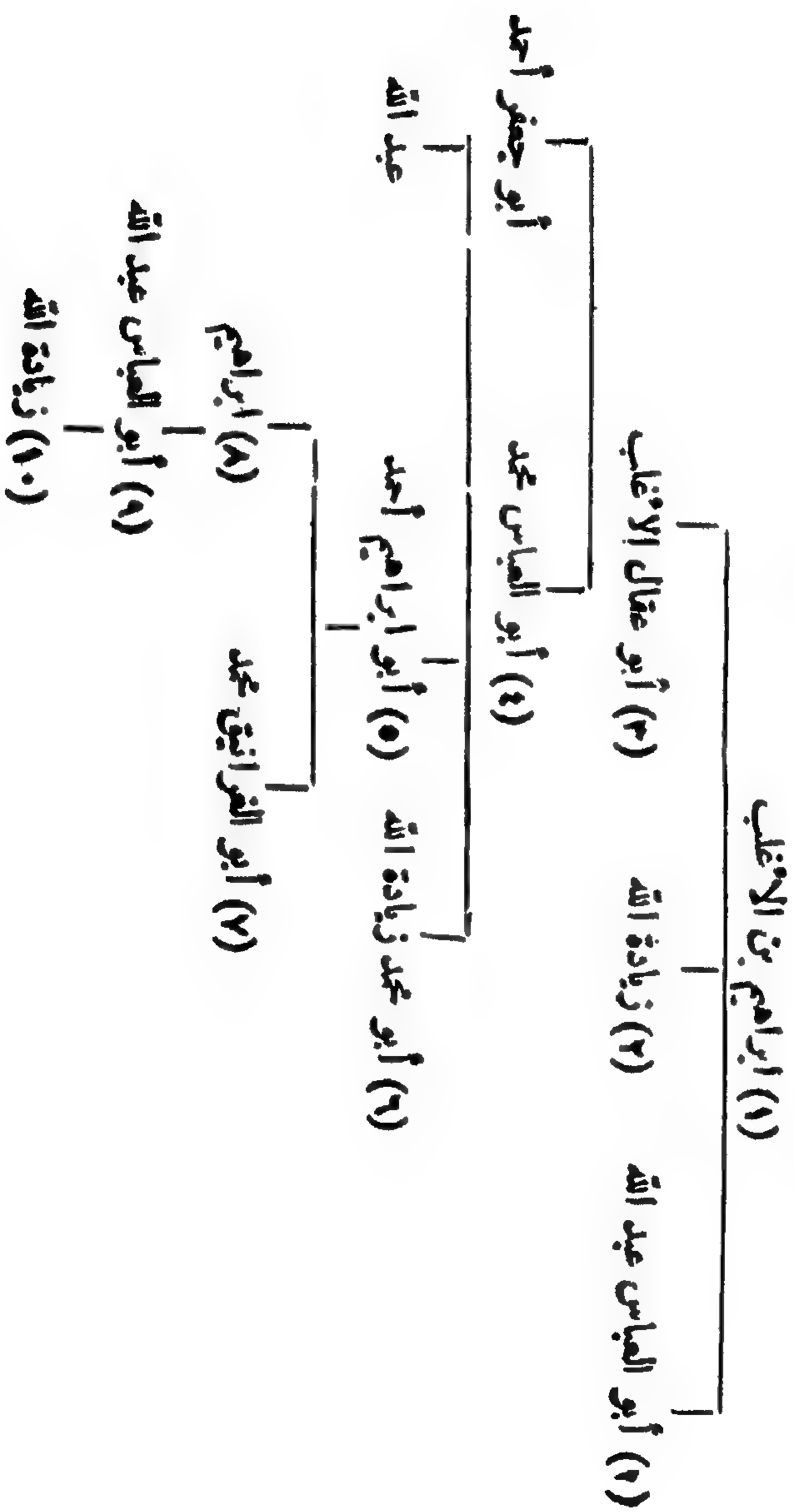
(٣) ازدهار الحياة الاقتصادية في المغرب الأدنى في عصر الأغالبة .

- (٤) سكان إفريقية في عصر الأغالبة : ١ - العرب ٢ - العجم الفرس ٣ - البربر ٤ - الروم والأفارق ٥ - الفتيان .

(٥) منشآت الأغلبية في إفريقية :

- أ - العمارة الدينية : ١ - المسجد الجامع بالقيروان ٢ - جامع الزيتونة بتونس ٣ - المسجد الجامع بسوسة ٤ - مسجد أبي فتانة بسوسة ٥ - مساجد أخرى خاصة .
- ب - العمارة الحربية : ١ - رباط سوسة ٢ - رباط المنستير ٣ - سور سوسة ٤ - سور سفاقس
- ج - العمارة المدنية والمنافع العامة : ١ - مدينة العباسية ٢ - مدينة رقادة ٣ - المواجهل والمخزانات والقناطر .

جدول باسماء بني الاغلب



الفصل الخامس

دولة الأغالبة في المغرب الأدنى

(١)

عصر الأمراء الأقوياء

شهد المغرب الإسلامي منذ أواخر القرن الثاني الهجري قيام دويلات مستقلة في سائر أجزائه ، ففي المغرب الأدنى ، بالقيروان ، قامت دولة الأغالبة ، وفي المغرب الأوسط بتاهرت قامت دولة الرستميين ، وفي المغرب الأقصى بفاس قامت دولة الأدارسة ، وفي سجلماسة قامت دولة بني المدرار ، وفي نكور والريف الغربي قامت دولة بني صالح بن منصور الحميري ، وفي شالة بتامسنا قامت دولة بني صالح بن طريف البرغواطى . وأهم هذه الدويلات جميعا دولة بني الأغلب ، وهم أسرة مستنيرة ، حكمت إفريقية طوال القرن الثالث الهجري ، أسسها إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي ، الذي ثبته الرشيد في ولاية إفريقية في سنة ١٨٤ هـ . وأسرة الأغالبة أسرة راقية في مضمار الحضارة ، عملت على نشر الحضارة الإسلامية في البلاد التي خضعت لنفوذها ، أي في إفريقية وصقلية ، كما أن أمراءها أقاموا المدن والقصور ، وشيدوا للمساجد والحصون ، وشجعوا الآداب والعلوم والفنون . وفيما يلي دراسة لأمراء هذه الأسرة الأقوياء :

١ - إبراهيم بن الأغلب (١٨٤ - ١٩٦) :

أقنعت أحداث إفريقية المتوالية ، من معارك خاضها العرب ضد البربر

الصفورية والإباضية ، ومن حركات التمرّد التي قام بها الجند ، ومن فتن طاحنة متواصلة ، الرشيد بأن انفصال المغرب عن الامبراطورية العباسية أصبح حقيقة واقعة ، وقد دفعه هذا إلى قبول ما عرضه عليه ابراهيم بن الأغلب ، عامل الزاب من قبل ابن مقاتل ، والتسليم باستقلال ولاية إفريقية استقلالاً جزئياً عن الخلافة العباسية ، والاكتفاء بتبعيته الاسمية لها نظير مبلغ من المال يبعثه إلى الخليفة . هذا الوضع الجديد الذي وافق عليه الرشيد يؤكده لقب الإمارة الذي أطلقه المؤرخون كثيراً على بني الأغلب ، كما يؤكده قيام كل خليفة عباسي جديد باقرار الأمير الأغلب على ولاية إفريقية^(١) . ولا شك أن الرشيد بارساله عهد ولاية إفريقية إلى ابراهيم بن الأغلب ، كان يقر استقلاله الفعلي بهذه البلاد مع التبعية الاسمية للخلافة لسبب آخر يمكن أن نضيفه إلى السبب السابق . فقد كان إدريس بن عبد الله بن الحسن قصد فر إلى المغرب الأقصى بعد انهزام إخوته في موقعة فح بمكة سنة ١٦٩ هـ ، وتمكن إدريس من الإفلات مع ولده راشد إلى مصر ، ومن هناك مضى إلى أقصى الطرف الغربي من العالم الإسلامي ، حيث استقر ببلدة وليلى قاعدة جبل زرهون في سنة ١٧٢ هـ^(٢) ، وبايعه بربر أوربة بالإمامة ، ونجح في تكوين دولة شيعية في هذا الصقع من بلاد المغرب ، وانضمت إليه قبائل أخرى من زواغة ، وزواوة ، وسدرنة ، وغيانة ، ومكناسة ، وغمارة . وتطلع

(١) — Marçais, la Berberie musulmane et l'Orient au Moyen âge, p. 59.

(٢) الجزنائي ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، نشرة الفريد بل ، الجزائر

إدريس بعد ذلك إلى توحيد المغرب^(١) وكان من الطبيعي أن يخشي الخلفاء العباسيون من مطامع الأُدَارة في المغرب ومصر ، فرضى الرشيد باقامة دولة الاغالبية في المغرب الأَدنى لتكون حاجزاً بين البلاد الخاضعة للدولة العباسية وبلاد الأُدَارة في المغرب الأقصى الذين كانوا يتطلعون إلى فصل المغرب عن بقية العالم الإسلامي ، بل كانوا يهدفون إلى توحيد المغرب والمشرق العربيين تحت قيادتهم^(٢). فلقد أورد الأستاذ الدكتور احمد مختار العبادي نصاً لرسالة وجهها إدريس بن عبد الله إلى المصريين يمكن أن نستنتج منها مدى اتصال الأُدَارة بأهل مصر كذلك^(٣).

كان ابراهيم بن الاغالب من أفضل ولادة المغرب ، فقد كان يجمع إلى علمه وتفقهه في الدين وأدبه ، حسن الرأي ، والنجدة ، والبأس ، والحزم ، والمعرفة بالحروب ومكائدها ، « ولم يل إفريقية أحسن سيرة منه ، ولا سياسة ، ولا أرأف برعية ، ولا أوفى بعهد ، ولا أرعى لحرمة منه ، فطاعت له قبائل البربر ، وتمهدت إفريقية في أيامه »^(٤).

واتخذ الأمير ابراهيم بن الاغالب مدينة القيروان عاصمة لولايته ، وأخذ يعمل منذ استقلاله عن الخلافة العباسية على تكوين قوة بحرية هائلة ، مكنت أعقابها من بعده ، من غزو جزيرة صقلية وافتتاحها سنة ٨٢١٢هـ ، وغزو مالطة

(١) اسماعيل بن محمد الرشيد ، جلاء الطلام الدامس في موجز تاريخ المغرب إلى عصر محمد الخامس ، الرباط ، ١٩٥٧ ص ٣٠

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث الخاص بالمغرب ، ص ١٧ ، حاشية

رقم ٢

(٣) نفس المرجع ،

(٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ١١٦

وسواحل إيطاليا الجنوبية والجنوبية الغربية. ولقد اهتم ابراهيم بن الأغلب بالعمران اهتماما خاصا ، فشرع في سنة ١٨٥ هـ في بناء مدينة القصر القديم التي تقع أطلالها على بعد ثلاثة أميال جنوبى القيروان^(١)، وسماها العباسية^(٢) تعبيرا عن ولائه للعباسيين .

وفي عهد ابراهيم بن الأغلب ثار بتونس رجل من رجالات العرب اسمه حمد يس، ونزع السوادشعار بنى العباس، فبعث إليه ابراهيم قائده عمران بن مجالد في جيش كبير لقمع حركته ، والتي عمران معه في موقعة بالقرب من تونس انهزم فيها حمد يس وأنصاره ، وقتل منهم نحو عشرة آلاف ، وتمكن عمران من دخول مدينة تونس^(٣) . وكان ابراهيم ابن الأغلب مخلصا للخلافة العباسية ، فجعل يتربص أعداءها في المغرب ، فصرف نظره إلى المغرب الأقصى ، وكان إدريس بن إدريس بن عبد الله قد أكمل من العمر عشر سنوات ، فجدد له راشد مولى أبيه البيعة ، ومهد له الأمور في المغرب ، فكثرت جمعه بأقاصى المغرب ، واستفحل أمره بفضل ما بذله راشد من جهود مفضية ، فعمل ابن الأغلب على الكيد لراشد ، فجعل يدس إلى البربر ويسرب فيهم الأموال حتى قتل راشد ، وسيق رأسه إليه في سنة ١٨٦ هـ^(٤) . ثم تولى أمر إدريس بعد راشد زعيم من زعماء البربر اسمه بهلول عبد الرحمن المظفر^(٥) ، وقيل بهلول بن عبد الواحد^(٦) ، فأخذ ابن

(١) المرجع السابق ، ص ١١٢

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٠٤ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٩

(٣) نفس المرجع ص ١٠٤ — ابن خلدون ص ٤١٩

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠

(٥) نفس المرجع

(٦) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٠٤

الأغلب يستميله بالكتب والهدايا إلى أن انحرَف عن دعوة الأدارسة ،
وفارق إدريس وانضم إلى ابن الأغلب ، فتنفَرَق جمع إدريس من أتباع بهلول ،
فكتب إدريس إلى ابن الأغلب يستعطفه ويسأله أن يكف عن التدخل في
شؤون بلاده ، ويذكره بقرابته من رسول الله ، فأجابه إبراهيم بن الأغلب
إلى ذلك ووادعه (١) .

ولم يخل عهد ابن الأغلب من الثورات والفتن ، ولكنها كانت لا تقاس
بالثورات التي كانت تضطرم في إفريقية في العهود السابقة ، فمن هذه الثورات :
ثورة أهل طرابلس على ولاتهم من قبل ابن الأغلب في سنة ١٨٩ هـ ، وقد
أورد ابن الأثير خبر هذه الثورة في شيء من التفصيل ، فذكر أن أهل
طرابلس كانوا يشكون إليه من ولاته عليهم ، فيعزلهم ويولي غيرهم . وحدث
أنه ولي عليهم في هذه السنة عامله سفيان بن المضياء (٢) للمرة الرابعة ، فثار
أهل طرابلس على سفيان ، وعزموا على خلعه وطرده ، وزحفوا إليه ،
فقاتلهم في المسجد الجامع ، فهزموه ، ثم أمنوه ، فخرج من طرابلس في
شعبان من سنة ١٨٩ هـ ، واستعمل الجند وأهل طرابلس عليهم إبراهيم بن
سفيان التميمي (٣) ، فبعث ابن الأغلب جيشا هزمهم ، ودخل طرابلس ،
وقضى على الثورة .

(١) المرجع السابق - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٠ - ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ،
القسم الثالث ، ص ١٤

(٢) يسميه ابن خلدون سفيان بن المهاجر (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٠)

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٢١ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٠

والثورة الثانية قام بها عمران بن مجالد ، وكان من بطانة إبراهيم بن الأغلب ، ثم انتقض عليه في سنة ١٩٥ هـ وافترق عنه ، وثار عليه هو وخريش ابن التونسي ، واجتذبا إليهما عدداً كبيراً من الأنصار والمشايخ ، في القيروان وأكثر مدن إفريقية ، فاضطر ابن الأغلب إلى النزول بين القيروان والعباسية ، وأحاط العباسية بخندق منيع ، وتحصن فيها ، فحاصره فيها عمران سنة كاملة ، فأرسل الرشيد إلى ابن الأغلب كثيراً من الأموال أغرى بها أصحاب عمران ، ففرقوا عنه ، وانهزم عمران . وأقام في الزاب إلى أن توفي إبراهيم بن الأغلب . وتولى ابنه عبد الله ، فاستأمنه على نفسه ، فأمنه ، وأحضره إليه ، وأسكنه معه ثم قتله (١) .

أما الثورة الثالثة ، فقد قامت بطرابلس في سنة ١٩٦ هـ ، ففي هذه السنة ولي إبراهيم بن الأغلب ولده عبد الله على طرابلس ، فلما قدم إليها ثار عليه الجند ، وحاصروه في داره ، ثم صاحوه على أن يخرج من بلدهم ، فلم يبعد عن طرابلس كثيراً حتى التف حوله عدد كبير من الناس ، وأخذ عبد الله يجتذب الأنصار من البربر بالأموال والعطايا ، ويذكر ابن الأثير أنه كان يعطي الفارس كل يوم أربعة دراهم ، والراجل درهمين ، فكثرت حشوده ، فزحف بهم إلى طرابلس ، وتغلب على جندها ، وتمكن عبد الله بن إبراهيم من دخول المدينة . ثم عزله أبوه ، واستعمل سفيان بن المضاء ، فثارت قبيلة هواره ، وهاجمت عسكر المدينة ، فانهزم الجند ، وخرجوا لهواره عن طرابلس ، فدخلتها ، وهدمت أسوارها . وتراجع جند طرابلس إلى القيروان ، فاضطر ابن الأغلب إلى تسيير ولده أبي العباس عبد الله في ١٣ ألف فارس ،

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٢١ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢١ — ابن الأبار ، الحلة السهاء ص ١٠٥

واستطاع بهم اقتحام المدينة ، وهزيمة هواره . وأقام عبد الله بـ ١٠٠ بعض الوقت ، فأعاد بناء أسوارها (١) . ولما بلغت أنباء هزائم البربر إلى عبد الوهاب ابن رستم في تاهرت ، خرج لنصرة بربر طرابلس في جيش عظيم ، فحاصرها وأغلق عبد الله باب زناتة ، وكان يقاتل من باب هواره ، ولم يزل يقاوم جيش الرستميين إلى أن توفي أبوه إبراهيم في شوال سنة ١٩٦ هـ ، وعهد إليه بالإمارة ، فأخذ أخوه زيادة الله له العهد على الجند ، وكتب إلى عبد الله يخبره بوفاة أبيه . فاضطر عبد الله إلى مصالحة عبد الوهاب الرستمى على أن يكون البلد والبحر أى المدينة وما يطل منها على البحر لعبد الله ، أما ما زاد على ذلك من أرباض فلعبد الوهاب . وبهذه الاتفاقية عاد إلى القيروان ، وتسلم زمام أمورها (٢) في سنة ١٩٧ هـ ، فتلقاء زيادة الله ، وسلم أمور الولاية إليه .

ويعتبر إبراهيم بن الأغلب أول من اتخذ العبيد لحمل سلاحه ، واستكثر من طبقاتهم ، واستغنى بذلك عن استخدام الرعية في أى شأن من شؤونه (٣) . وقد عمل إبراهيم على اسكان عبيده وأهل الثقة به من خدمه حوله (٤) .

٢ - أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (١٩٦ - ٢٠١ هـ) :

كان أبو العباس وقت وفاة أبيه في ٢١ شوال سنة ١٩٦ هـ ، مشغولا باخماد ثورة قامت في طرابلس ، فقام له زيادة الله ، أخوه من أبيه ، بأمره ،

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٠

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٥٦ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢١

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ١٤

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٧

وتلقى البيعة له على نفسه وعلى أهل بيته وجنده وخدمه ، وبعث إليه بذلك وهو محاصر في طرابلس ، فعجل بالصلح مع عبد الوهاب بن رستم ، وعاد إلى القيروان في صفر سنة ١٩٧ هـ . فاستقبله أخوه استقبال الأمراء ، وتسلم منه عبد الله الإمارة . ولكن بدلا من أن يعترف أبو العباس بفضل زيادة الله عليه ، أخذ يتحامل عليه ويتنقصه ، ويأمر ندماءه باطلاق أسلحتهم بسبه ، ومع ذلك فقد ظل زيادة الله يبدى له التعظيم والتبجيل ، ولا يظهر عليه أى أثر من ذلك ^(١) ، وكان أبوه قد ترك له ملكا ممهدا ، فاقسم عهده بالهدوء والسلم . وكان أبو العباس جائرا متعسفا ظلوما مع زعيته ، ويذكر ابن عذارى أنه « أحدث بأفريقية وجوها من الظلم شنيعة ، منها أنه قطع العشر حبا ، وجعله ثمانية دنانير للقفيز أضراب أو لم يصب ، وغير ذلك من الظلم والمغارم ، فاشتد على الناس ذلك » . فضاقت الناس لذلك ، وبدأوا يتذمرون من ظلمه ، ويبدو أن تصرفاته الجائرة دفعت جماعة من الصالحين كانوا قد وفدوا إلى القيروان قادمين من الجزيرة ، على رأسهم الصالح حفص بن حميد الجزرى إلى نصحه بالعدل والإنصاف ، ووعظوه في الدين وفي ضرورة رعاية مصالح المسلمين ، ويذكر ابن الخطيب أن الصالح حفص نصحه بإزالة الجور عن رعيته ، وتطبيق قواعد السنة ^(٢) ، فاستخف بهم ، وتهاون بنصائحهم ، فخرجوا من قصره بالعباسية ، وقد ساءهم منه هذا الاستخفاف ، فلما وصلوا إلى وادى القصارين بالقرب من القيروان ، نزلوا هناك وصلوا في كدية روح ركعتين ، ودعوا الله أن يكف عن المسلمين جور أبي العباس ، ويريحهم

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٠ — ابن خلدون ، ٤ ص ٤٢٢

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ١٥

من أيامه . فلم يمض على دعائهم خمسة أيام حتى توفي أبو العباس بسبب قرحة أصابته تحت أذنه في ٦ من ذى الحجة سنة ٢٠٩ هـ (٨١٧ م) (١) .

٣ - زيادة الله بن ابراهيم (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) :

كانت زيادة الله أعظم أمراء بني الأغلب وأفضلهم على الإطلاق ، لم تنعم البلاد التونسية في عهودهم بكانغمت في عهده ، وكان رجل بناء وتشيد ، فقد ترك لنا آثارا كثيرة بالقيروان والعباسية وتونس وسوسة ، وكان يجمع إلى جانب حبه للفنون والعمارة والآداب ، مقدرة وكفاية حربية ، فقد تمكن من إخماد الثورات التي اشتعلت بمجرد اعتلائه الإمارة ، وبذلك دعم البناء الذي أسسه أبوه من قبل ، وتشهد بذلك آثاره في سوسة والمنستير والقيروان وتونس من مساجد وقناطر وأربطة وخزانات ومواجل .

تولى زيادة الله إمارة إفريقية بعد وفاة أخيه أبي العباس ، ووصله التقليد بالإمارة من قبل الخليفة المأمون ، فظل زيادة الله مخلصا للمأمون عندما توثب على الخلافة ببغداد ابراهيم بن المهدي الملقب بالمبارك (٢٠٢ - ٢٠٤ هـ) ، فلما دخل المأمون بغداد في سنة ٢٠٤ هـ ، وخلصت له الخلافة ، شكر له ذلك (٢) . وكان زيادة الله أبي النفس ، فعندما كتب إليه المأمون بالدعاء لعبد الله بن طاهر على منابر إفريقية ، غضب غضبا شديدا ، وبعث مع رسول الخليفة إليه كيسا به ألف دينار مضروبة بأسماء بني إدريس (٣) ، وفي ذلك

(١) ابن عسكاري ، ج ١ ص ١٢١ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٨٤ - ابن خلدون ،

ج ٤ ص ٤٢٢ - ابن الخطيب ص ١٦

(٢) ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٦

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٢ - ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٧

تهديد للخليفة بخروج الأغلبية على العباسيين وانضمامهم إلى الأدارسة لو فكر العباسيون في مس استقلال بني الأغلب الذاتي .

وأهم الأحداث البارزة في عصره ثورة زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية عليه في سنة ٢٠٧ هـ ، وثورة عمرو بن معاوية القيسي عليه في سنة ٢٠٨ هـ ، ثم ثورة منصور الطنبذي عليه بتونس في سنة ٢٠٩ هـ ، وهذه الثورة الأخيرة هي أخطر الثورات التي اشتعلت نيرانها في عهده .

ففي الثورة الأولى ، قام زياد بن سهل وحاصر مدينة باجة بجموع كثيفة ، فسير إليه زيادة الله جيشا تمكن من إيقاع الهزيمة به ، وقتلوا من رجاله عددا كبيرا . وفي الثورة الثانية تمكن عمرو بن معاوية القيسي ، عامل زيادة الله على القصرين ، من التغلب على هذه البلدة ونواحيها ، فسير إليه زيادة الله جيشا حاصره أياما ، ثم استنزله بالأمان هو وولديه ، خياب وسمعان ، ولكنه نكث بعده وقتلهم بعد ذلك ^(١) . وفي الثورة الثالثة انتقضت إفريقية على زيادة الله حتى لم يبق في يده منها غير الساحل وقابس ، ففي سنة ٢٠٩ هـ ، ثار منصور بن نصير الطنبذي بطنبذه ، وأخذ يسعى للاستيلاء على تونس ، فأرسل إليه زيادة الله قائده محمد بن حمزة في ثلاثمائة فارس مسلحين ، وأوصاه بسرعة السير إلى تونس ومفاجأة منصور فيها دون أن يشعر بقدومه ، فيقبض عليه ، ويأنيه به . فلما وصل محمد بن حمزة إلى تونس ألقي منصورا غائبا في قصره بطنبذه ، فزل بدار الصناعة بتونس وبعث إلى منصور وقد يتألف من ٤٠ من شيوخ تونس على رأسهم شجرة ابن عيسى القاضي في صفر سنة ٢٠٩ هـ ، ليناشدونه الطاعة ، ونبذ الخلاف

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٦

والعصيان . فأنكر منصور هذه التهمة ، وتظاهر أمامهم بأنه ما زال مخلصا
للامير لم يخلع يدا ، ولم يحدث حدثا ، وأبدى استعدادا للسير معهم إلى زيادة
الله ، ولكنه عرض عليهم المبيت عنده هذه الليلة ^(١) ، وفي نفس الوقت بعث
إلى محمد بن حمزة بتونس ينهى إليه بقدمه في اليوم التالي في صحبة القاضي
ورفاقه ، ووجه إلى محمد بن حمزة بقرا وغناوعلقا . فاطمان ابن حمزة لذلك ،
وذبح الغنم والبقر ، وأكل منه هو وعسكره . ولكن منصور غدر بالقاضي
ورفاقه ، فسجنهم في قصره ، وزحف في خيله وأشياعه إلى تونس ، وباغتوا
ابن حمزة بالهجوم ليلا ، فقتل معظم رجاله ، إلا من رمى بنفسه في البحر ،
ثم أمر منصور باحضار اسماعيل بن سفيان بن سالم بن عقـال ، عامل زيادة
الله على تونس ، وولده محمد ، فأمر بقتلهما ، واستولى على المدينة . فلما علم
زيادة الله بذلك ، وجه وزيره الأغلب بن عبد الله بن الأغلب ، المعروف
بغلبون في جيش كثيف إلى منصور الطنبذي لمقاتلته ، واسترجاع تونس ،
وهدد زيادة الله هؤلاء الجند بالقتل إذا انهزموا أمام منصور . فسار غلبون
في ١٠ ربيع الأول إلى تونس ، فلما وصل إلى سبختها اصطدمت قواته
بقوات منصور ، فانهزم غلبون في ٢٠ ربيع الأول ، وخاف جنده أن يعودوا
إلى زيادة الله فيعاقبهم بالقتل ، ففرقوا عن غلبون ، واستولوا على عدد من
مدن إفريقية وحصونها امتنعوا فيها من زيادة الله ، وخلعوا طاعة بني الأغلب
وأعلنوا تبعيتهم لمنصور الطنبذي ، ف وقعت باجـة والجزيرة وصطفورة
والأربس ، واضطربت إفريقية نارا ^(٢) .

ولما كثرت جموع منصور الطنبذي ، ولمس من نفسه القدرة على منازلة

(١) المرجع السابق

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٨ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٨٥

زيادة الله في حاضرتة ، زحف إلى القيروان في ٥ من جمادى الأولى ، وحاصرها
حصاراً شديداً ، ثم خندق على نفسه ، وحدثت بينه وبين زيادة الله وقائع
كثيرة ، انضم فيها أهل القيروان إلى جانب منصور ، ثم زحف زيادة الله في
منتصف جمادى الآخرة بجيوش كثيفة هاجت قوات منصور ، فانهزم هزيمة
نكراء ، فر على أثرها إلى قصره بتونس ، وتمكن زيادة الله من دخول
القيروان ، وعفا عن أهلها ، واكتفى منهم بتخريب سور المدينة (١) .

تفرق أنصار منصور إلى مدنها التي تغلبوا عليها ، فمضى زعيمهم عامر
ابن نافع الأزرق إلى سببية ، فأرسل إليه زيادة الله محمد بن عبد الله بن
الأغلب ، فالتقى مع عامر بن نافع في موقعة حدثت في ٢٠ من المحرم سنة
٢١٠ هـ ، فانهزم ابن الأغلب وقتل (٢) ، فعظم الأمر على زيادة الله . ولم
يكتف الثوار بذلك ، بل هاجموا القيروان من جديد ، واستولوا عليها ، فلم
يبق في طاعة زيادة الله من إفريقية سوى قابس والساحل ونقزاوة وطرابلس ،
وكتب الثوار إلى زيادة الله يطلبون منه أن يرسل من إفريقية ، ويمنحونه
الأمان هو وأهله ، فضاق به الحال ، فأشار عليه سفيان بن سواده بأن يبعثه
في مائتي فارس إلى قبيلة . نقزاوة ، ليدعو بربرها إلى نصرته ، ففعل زيادة
الله ، ونجح سفيان في مهمته ، وتجمعت لديه حشود هائلة منهم ، اشتبك بهم
في معركة عنيفة مع قوات عامر بن نافع ، وأسفرت المعركة عن هزيمة جيش
عامر ، وفراره إلى قسطنطينية ، فتبعه ابن سواده إلى قسطنطينية ، فاستولى عليها .

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩ — ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٥ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٣

(٢) نفس المرجع — ويذكر كل من ابن الأثير وابن خلدون أنه عاد ومن معه إلى

ثم دب الخلاف بين عامر ومنصور سنة ٢١١ هـ، وانتهى بعد وقائع طويلة بسجن منصور في جزيرة جربة، وقتل أخيه حمدون^(١). أما عامر فظل مقبلاً بتونس إلى أن توفي في سنة ٢١٣ هـ. فاستأنف أولاده وبنوه إلى زيادة الله، وبوفاة عامر انتهت الثورة الكبرى التي أشعلها منصور الطنبذي في إفريقية وكادت تطيح بملك بني الأغلب.

ولم تمض خمس سنوات على استئصال زيادة الله لبني منصور حتى اشتعلت نار الثورة في الجزيرة بتونس، وأشعلها هذه المرة نائر يعرف باسم فضل بن أبي العنبر، وانضم إليه في ثورته عبد السلام بن المفرج الربيعي، وكان عبد السلام هذا من أنصار منصور الطنبذي، فسير زيادة الله إليها جيشاً، قاتلها، وانتصر عليهما في موقعة حدثت عند مدينة اليهود بالجزيرة، قتل فيها عبد السلام، وحمل رأسه إلى زيادة الله، ولكن فضل بن أبي العنبر تمكن من الفرار إلى تونس، ودخلها وامتنع بها^(٢). فسير إليه زيادة الله جيشاً بقيادة أبي فهر محمد بن عبد الله بن الأغلب، حاصره بتونس، ونجح في اقتحام المدينة ودخولها عنوة، وقتل جنوده عدداً كبيراً من أهل تونس، نخص بالذكر منهم الفقيه الصالح عباس بن الوليد^(٣)، وفر عدد كبير من أهل تونس إلى النواحي المجاورة، وطلبوا الأمان من زيادة الله، فأمنهم في طليعة سنة ٢١٩ هـ فعادوا إليها^(٤).

(١) طالع تفاصيل هذا النزاع في البيان المغرب لابن عذارى ص ١٣٠، ١٣١

(٢) ابن الأثير، ج ٥ ص ٢٣١

(٣) ابن عذارى، ج ١ ص ١٣٥

(٤) ابن عذارى ج ١ ص ١٣٦ — ابن الأثير ج ٥ ص ٢٣١

ومن مآثر زيادة الله عنايته بالأسطول الإسلامى ، وقيامه بغزو بعض الجزر القريبة من تونس ، فى سنة ٢٠٩ هـ ، سير محمد بن عبد الله التميمى فى الأسطول إلى جزيرة سردانية ، فغزاها ، وغنم منها غنائم كثيرة ، ولكن بعض قطع من أسطوله أصيبت أثناء هذه الغزوة .

وأهم الغزوات البحرية التى تمت فى عهده غزو جزيرة صقلية فى سنة ٢١٢ هـ ، ولم تكن هذه الغزوة فى الواقع أولى الغزوات الإسلامية إلى صقلية ، فقد وجه إليها المسلمون منذ أيام معاوية بن حديج الأساطيل المرة تلو المرة ، وكانوا يعودون منها بغنائم كثيرة ^(١) . وفى سنة ٨٦ هـ ، عقد موسى بن نصير لعياش بن أخيل على أسطول المغرب ، فغزا صقلية ، وهاجم سرقوسة ، وغنم منها غنائم هائلة ^(٢) . وفى سنة ١٠٠ هـ ، غزا بشر بن صفوان بنفسه جزيرة صقلية ، فأصاب بها سبياً كثيراً ^(٣) ، كذلك غزاها المسلمون فى ولاية عبيد الله بن الحبحاب سنة ١٢٢ هـ ، إذ بعث لغزوها حبيب بن أبى عبدة . ولكن المسلمين انقطعوا عن غزو تلك الجزيرة منذ أن شغل ولاية العباسيين فى إفريقية بقمع الثورات الداخلية ، فتجرات سفن الروم على مهاجمة السواحل الإفريقية ، واهل ذلك كان السبب الذى جعل هرثمة بن أعين يهتم ببناء القصر الكبير بالمنستير سنة ١٨٠ هـ ، وبناء سور مدينة طرابلس مما يلى البحر . وظل الروم يواصلون هذه الغارات البحرية على الساحل التونسى فى أيام ابراهيم بن الأغلب إلى أن اتفق البطريق جريجورى مع أمير

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢

(٢) نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٦

(٣) نفس المرجع ، ج ١ ص ٤٨

القيروان في سنة ١٩٧ هـ (٨١٣ م) على هدنة لمدة عشر سنوات ، ولم تمض
١٤ سنة بعد ذلك حتى تجددت أعمال القرصنة والغارات المتبادلة بين المسلمين
والروم^(١) .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نرجع فتح المسلمين لصقلية في عهد زيادة
الله للأسباب الآتية :

١ - يمكن اعتبار غزوة صقلية سنة ٢١٢ هـ بمثابة محاولة للقضاء على
غارات الروم ، وعودة إلى سياسة الاعتداء على أراضي الروم ، وهي السياسة
التي جرى عليها ولاية بني أمية .

٢ - كانت صقلية بالنسبة للمسلمين بلادا غنية بالغنائم ، في الوقت الذي
أفقرت بلاد المغرب من هذه الغنائم . كذلك كانت صقلية تمثل أراض
جديدة يمكن فتحها واستغلالها .

٣ - هناك عامل ديني هو الجهاد في سبيل الله ، ولا ننسى أن أهل
إفريقية كانوا قد تفقهوا في الدين الإسلامي وأصبح منهم العلماء والفقهاء ،
وساعدت الأربطة على تكوين طبقة من الصالحين الذين كرسوا حياتهم
للجهاد ضد الروم . وكان الخروج لمداغة الروم في صقلية أقصى ما يتمناه
العابدون والصالحون . ولا شك أن موافقة زيادة الله على اختيار القاضي أسد
ابن الفرات ، مصنف الأسدية في الفقه على مذهب مالك ، قائدا للحملة ،
يعبر أصدق تعبير عن روح الجهاد المسيطرة على الفاتحين ، فلقد ولاه زيادة
الله قائدا على الجيش ، « وأقره على القضاء مع القيادة ، فخرج معه أشرف

(١) • Marçais, la Berberie musulmane, p. 65.

إفريقية من العرب ، والجنسـد ، والبربر ، والاندلسيين ، وأهل العلم والبصائر » (١) .

٤ - أراد زيادة الله أن يظهر أمام رعيته بمظهر المجاهد المناغر في سبيل الله فيكسب بذلك قلوبهم ، ويوطد مكانته ومنزلته في نفوسهم .

٥ - عانى زيادة الله كثيراً من ثورات جنده ، وفتنهم المتعددة ، فأراد أن يكسر شوكتهم ، ويتخلص منهم بأشراكهم في هذه الغزوة .

٦ - ذكر ابن الأثير أن قائد الأسطول الرومي بصقلية فيمى Euphemius ثار على الامبراطور ميخائيل الثاني واستولى على سرقوسة Siracuse ، ثم أعلن نفسه ملكاً على صقلية . ولكن أتباعه خرجوا عليه وتفرقوا عنه ، وتمكن والى مدينة بلرم Palermo من هزيمة فيمى ، والاستيلاء على سرقوسة ، فركب فيمى ومن معه سفنهم وتوجهوا إلى إفريقية ، وأرسل إلى الأمير زيادة الله يستنجد به ، ويعده بملك جزيرة صقلية (٢) ، فاستنجد فيمى بزيادة الله كان سبباً مباشراً في إغراء زيادة الله على فتح هذه الجزيرة . وفتح صقلية من هذه الناحية يشبه فتح الـاندلس لأن فيمى يقابل بليان الذى ساعد المسلمين على دخول الـاندلس .

يذكر المؤرخون أن زيادة الله احتفل بخروج المسلمين لغزو صقلية احتفالا عظيماً في ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ وأقـلـع أسطول الغلبة في نحو

(١) ابن عذارى، ج ١ ص ١٣

(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٧ - احسان عباس ، العرب في صقلية ، القاهرة ،

مائة مركب سوى مراكب فيمى ، ونزلت الجيوش العربية ببلدة مازر Mazara ، وزحفوا إلى الروم وهزموهم هزيمة نكراء ، وفر بلاطة Plato منافس فيمى بصقلية إلى قلورية ، فقتل بها ، واستولى المسلمون على عدة حصون في الجزيرة ، ثم حاصر أسد بن الفرات مدينة سرقوسة برا وبحرا ، وجاءته الإمدادات من إفريقية لنجدة المسلمين ، ولكن والى بلرم زحف على المسلمين في سرقوسة ، فخندق المسلمون على أنفسهم ، وحفروا خارج الخندق حفراً كثيرة ، فلما حمل الروم على المسلمين ، سقط منهم كثيرون في الحفر ، وقتل منهم عدد كبير . وشدد المسلمون على أثر ذلك الحصار على سرقوسة ، ولكن وباء شديداً أصاب معسكر المسلمين فهلك بسببه قائدهم أسد بن الفرات ، وعدد كبير منهم في رجب سنة ٢١٣ هـ ، فدفنه المسلمون في مدينة قصر يانة ^(١) Castrogiovanni . ثم توفي محمد بن أبى الجراوى في سنة ٢١٣ هـ وتولى بعده زهير بن غوث . وحدث أن سرية من المسلمين خرجت بقصد تجميع بعض المؤن ، فاصطدم بهم الروم وهزموهم ، ثم التى المسلمون مع الروم مرة ثانية ، فانهزموا ، وقتل منهم نحو ألف ، وعاد فل المسلمين إلى معسكرهم بقصر يانة ، وخندقوا على أنفسهم ، فحاصرهم الروم حصاراً طويلاً ، وانعدمت الأقوات عن المسلمين ، فعزموا على التسلل من المدينة ، دون أن يعلم الروم ، ولكن هؤلاء عرفوا ما يقصدونه ، ففارقوا المعسكر ، وترصدوا للمسلمين في كل مكان ، ثم كروا عليهم ، وأكثروا فيهم القتل ، وفر الناجون إلى ميناو Mineo ، بينما استولى الروم على قصر يانة ، ثم شدد الروم عليهم الحصار حتى قلت الأقوات لديهم ، فأكلوا الدواب

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٧ - ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٦ .

والكلاب^(١) ، فلما علم المسلمون في جرجنت ما آل إليه مصير إخوانهم في ميناو ، هدموا مدينة جرجنت ، وخرجوا إلى مازر ، وحاولوا الإتصال بإخوانهم المحصورين لنصرتهم ، فتعذر عليهم الأمر ، وأشرف المسلمون في ميناو على الهلاك . وفي هذه اللحظة الحرجة التي يتوقف عليها مصير هؤلاء المسلمين ، حدث أمر لم يكن في الحسبان ، إذ أقبل أسطول من الأندلس في أول سنة ٢١٤ هـ يحمل رجالا ووطنوا أنفسهم للجهاد ، يقودهم أمير البحر إصبيغ بن وكيل المعروف بفرغلوش ، وفي نفس الوقت ، وصلت سفن كثيرة من إفريقية مددا للمسلمين فبلغ عددالقطع الوافدة ثلثمائة سفينة . ونزل المسلمون بالجزيرة ، وأقبلوا لفك الحصار عن المسلمين المحصورين في ميناو ، فانهمزم الروم ، وفكوا الحصار عن المسلمين .

ثم زحفت جيوش المسلمين إلى مدينة بلرم ، فحاصروها حصارا محكما ، وافتتحوها بالأمان في رجب سنة ٢١٦ هـ . وكان فتح بلرم في الواقع خطوة كبيرة في سبيل افتتاح صقلية كلها ، ولما كانت بلرم ميناء بحريا على الساحل الشمالى لصقلية ، فقد كانت تصل إليها السفن بسهولة من إفريقية ، وعليها المؤن والإمدادات . بعد أن دخل المسلمون بلرم خرج عاملها الرومى إلى القسطنطينية^(٢) ، وقام المسلمون بحرق المدينة وخربوها^(٣) . ثم زحف المسلمون إلى مدينة غلوا لية ، فحاصروها ، وتمكنوا من الاستيلاء عليها ، غير أن وباء انتشر في المدينة بعد دخول المسلمين فيها ، كان سببا في وفاة

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٧ .

(٢) نفس المرجع ص ١٨٨ .

(٣) ابن عذارى، ج ١ ص ١٣٥ .

عدد كبير منهم ، من بينهم فرغلوش نفسه ، وعدد من القادة . واستغل الروم هذه الفرصة ، فهاجموا المسلمين ، وقتلوا كثيرا منهم . ويبدو أن خلافا قام بين الأندلسيين وأهل إفريقية في صقلية ، بشأن قيادة الجيوش ، فقد وجه زيادة الله بن الأغلب على صقلية قائدا مشهورا من قواده هو أبو فهر محمد ابن عبد الله التميمي في سنة ٢١٧ هـ ^(١) ، فعزم الأندلسيون على القفول إلى بلادهم ^(٢) . إلا أنهم وافقوا أخيرا على ولاية أبي فهر سنة ٢١٩ هـ . واتخذ أبو فهر مدينة بلرم عاصمة له ، وذلك لسهولة اتصالها بإفريقية ، ومن هناك أخذ يوجه الغارات على قصر يانة في سنتي ٢١٩ ، ٢٢٠ هـ . كذلك سير سير عسكريا بقيادة محمد بن سالم إلى مدينة طبرمين Taormina الواقعة بشرق الجزيرة ، فغنم غنائم كثيرة . ولكن جنده تمردوا عليه وقتلوه ، فأرسل زيادة الله من إفريقية الفضل بن يعقوب عوضا عنه ، وأحرز المسلمون على الروم عدداً من الانتصارات في سرقوسة ، وغنموا غنائم كثيرة ، كما تمكنت فرقة من المسلمين من هزيمة الروم وأسر قائدهم بطريق صقلية ^(٣) .

ويبدو أن زيادة الله بن الأغلب لم يرض عن سياسة أبي فهر محمد ابن عبد الله في صقلية فولى عليها أخا لأبي فهر هو أبو الأغلب ، فوصلها في منتصف رمضان سنة ٢٢٠ هـ . وقد أحرز المسلمون بعد وصوله انتصارات بحرية كثيرة ، فظفروا بأسطول للروم ، وغنموا ما فيه وقتلوا بحارته من الروم . وبعث أبو الأغلب أسطولا إلى قوصرة ، فظفر فيها بحراقة رومية ، ووجه

(١) ابن الأثير ص ١٨٨ .

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٥ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٨٨ .

في سنة ٢٢١ سرية إلى جبل النار (مسينة Messina) بشمال جزيرة صقلية،
فغزاها ، وغنم المسلمون غنائم لا تحصى . وكان أبو الـأغلب يبعث سريلاته
وفرقه من يلزم للاغارة على مدن صقلية ، وفي كل مرة كانت للمسلمون
يعودون مظفرين غانمين . وتمكن المسلمون في إحدى غاراتهم على قصر بانه
من الاستيلاء عليها (١) ، كما افتتحوأ حصن مدناو ومعاقل كثيرة في غزوة
قام بها الفضل بن يعقوب في سنة ٢٢٢ هـ . وفي العام التالي وصلت إلى الروم
بصقلية إمدادات بيزنطية ، وكان المسلمون يحاصرون إحدى مدن صقلية
فاضطروا إلى رفع الحصار عنها ، وقامت بينهم وبين الروم القادمين عدة
وقائع ، وبينما كانت هذا الوقائع دائرة بينهم وبين الروم ، وصلت الأنباء
ب وفاة زيادة الله بن الـأغلب في ١٤ رجب سنة ٢٢٣ هـ ، وأحدثت وفاته
أثرا كبيرا في نفوس المسلمين ، فدب الوهن في نفوسهم ، ولكنهم تمالكوا
أنفسهم ، واستعادوا حماسهم في قتال الروم . وقد ظلت صقلية طوال
العصر الـأغلبى مركزا للجهاد ، واهتم أمراء بني الـأغلب اهتماما خاصا
بغزوها وبإمدادها بالموأن والرجال والسلاح ، ولم يكتف المسلمون بالاستيلاء على
صقلية بل أغاروا على مالطة وافتتحوها في أيام محمد بن الـأغلب سنة ٢٦١ هـ ،
وقدم الأمير الـأغلبى إبراهيم بن أحمد إلى صقلية للجهاد في ربيع الأول سنة ٢٨٤ هـ ،
وتمكن من فتح ميقش Miques بنواحي طبرمين في شرق صقلية ، وعبر
بجاز مسينة ، وغزا قلورية Calabria وهي المنطقة الواقعة في أقصى الجنوب
من شبه جزيرة إيطاليا ، وبنصالحا عن صقلية مضيق مسينة ، وحاصر مدينة
كوسلثة Cosenza من كلابريا ، وتقع قريبا من خليج تارنتو ، وتوفي وهو

يُحاصر ما في ٢٨٩ هـ (١). وفي العصر الفاطمي تولى أمر صقلية أسرة الحسن ابن علي بن أبي الحسين، وظلوا يتوارثون إمارتها، ويجاهدون الروم فيها، إلى أن انقرضت دولة بني الحسين على أيدي النورمان سنة ٤٨٥ هـ.

(٢)

خلفاء زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب

١ - أبو عقال الأغلب (٢٢٣ - ٢٢٦)

لما توفي زيادة الله خلفه أخوه أبو عقال الأغلب الملقب بنحزر ، وكان أول ما قام به الأغلب في صدر ولايته تأمين الناس على أنفسهم ، والإحسان إليهم وإلى جنده ، وإزالة المظالم ، وزيادة أرزاق عماله ، حتى يكفوا أيديهم عن الرعية (١) ، والتودد إلى الناس والتقرب إليهم بأسقاط كثير من المحدثات التي بالغ فيها العمال . وذكروا أنه حرم على الناس تعاطي النبيذ والخمر في القيروان ، وعاقب على بيعه وشربه (٢) حتى يكسب رجال الدين والفقهاء إلى جانبه .

وكانت أيام أبي عقال لذلك كلها هادئة ، ولم يقطع هذا الهدوء إلا انتفاض خوارج زواغة ولواتة ومكناسة سنة ٢٢٤ هـ ، في إقليم قسطنطينية ، وقيامهم بقتل عامله على هذا الإقليم . فسير إليهم جيشا بقيادة عيسى بن ربحان الأزدي ، اشتبك معهم فيما بين قفصة وقسطنطينية ، فأبادهم عن آخرهم (٣) . واهتم أبو عقال في أول ولايته بأمر صقلية فبعث في سنة ٢٢٤ هـ سرية غزت بعض مواضع من الجزيرة وغنمت غنائم كثيرة ، ونجح المسلمون في افتتاح

(١) ابن عذارى ج ١ ص ١٣٩ - ابن الأثير ج ٥ ص ٢٥٣ - ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٨ - ابن الخطيب ، القسم الثالث من أعمال الأعلام ، ص ٢٠ .

(٢) ابن عذارى ، ص ١٣٩ - ابن الأثير ص ٢٥٣

(٣) نفس المرجع - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٥٩ - ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٨

عدد من حصونها ، فاستولوا على حصن البلوط ، وأبلاطنو وقرلون ومرو .
وافتح الأسطول الإسلامي مدينة قلورية ، واشتبك مع الأسطول البيزنطي
في موقعة بحرية دارت خارج قلورية ، وانتهت بانتصار المسلمين . وأغارت
فرقة من جيش المسلمين على قصر يانة ، ثم توجهت بهـد ذلك إلى حصن
الغيران ، وعادت بغنائم كثيرة^(١) . وتوفي الأغلب في ربيع الآخر سنة ٢٢٦هـ ،
وخلفه ابنه أبو العباس محمد بن الأغلب .

٢ - أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم (٢٢٦ - ٢٤٢هـ)

ساد الأمن والسلام بلاد إفريقية في أول ولايته ، وظل الهدوء سائداً
خمس سنوات من ولايته ، قام خلالها بتوسيع دائرة نفوذه في المغرب الأدنى ،
فأسس مدينة بالقرب من تاهرت سماها العباسية في سنة ٢٢٧^(٢) ، ولكن
الإمام أفلح بن عبد الوهاب بن رستم قام بتخريبها ، وقد كافأ الأمير
عبد الرحمن الأوسط بالاندلس على ذلك بأن أرسل إليه مائة ألف درهم^(٣) .

وفي سنة ٢٣١هـ قام أخوه أبو جعفر أحمد بن الأغلب بالثورة عليه ،
فقد كان ساخطاً عليه بسبب تسلط الوزير أبي عبد الله بن علي بن حميد على أمور
الدولة ، وسكوت أخيه على ذلك ، لاشتغاله بلموه وعكوفه على لذاته بمدينة
القصر القديم . فاستغل أبو جعفر أحمد اشتغال أخيه بلموه وعكوفه على لذاته
بمدينة القصر القديم . فاستغل أبو جعفر أحمد اشتغال أخيه بلموه في القصر ،
وخرج في جملة من أتباعه إلى القصر القديم ، وقد خلا القصر من الرجال ،
فدخل القصر ومعه أتباعه ، وأغلقوا الأبواب ، ثم هجموا على أبي عبد الله

(١) ابن الأثير ص ٢٥٣

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٩

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٦٣ - ابن خلدون ، المرجع السابق

ابن علي بن حميد الوزير ، وقتلوه . وبلغ أبا العباس محمد خبر قيام أخيه ، فتحصن في عليه مرتفعة بقصره ^(١) ، ونشب القتال بين حراس القصر وبين رجال أحمد ، فتغلب حراس القصر على الثوار ، فأخذ أحمد ورجاله ينادون « نحن في الطاعة ، لم نخلع عنها يدا ، وإنما قمنا على بني حميد الذين قهروا السلطان ، واستأثروا بالمال » ^(٢) . فتوقف القتال ، وتوجه محمد في مجلسه العام ، واستقدم أخاه أحمد ، فعاتبه ، واصطليحا بعد أن اتفقا على ألا يفدر أحدهما بصاحبه . ومنذ ذلك الحين عظم أمر أحمد ، ونقل الدواوين إليه ، وقبض على من شاء من خصومه ، واستصفي من أراد ، واستوزر نصر بن حمزة ، ولم يبق لمحمد من الامارة غير الاسم فقط ^(٣) .

فلما لمس محمد عزم أخيه إلى خلعه من الامارة ، « أقصر عن اللذات ، وأخذ في الاحتيال على أخيه ، والكتب إلى قواده وخواصه في السر ، وبتهى ذاك إلى أخيه فيكذبه ، إلى أن تم له الأمر ، وحضر الوعد ، وتيسر من إعداد الرجال الغرض ، وضرب محمد الطبل - وهو العلامة - فأقبل القوم ، وكانت بين الفريقين حرب عظيمة ، إلى أن كوثر أصحاب أحمد فانهزموا » ^(٤) . ويذكر ابن عذاري أن محمد بن الأغلب اعتمد على جماعة من بني عمه ومواليه ، واحتال على بوابي القيروان ، حتى دخلها وأطلق من كان في حبس أخيه ، فاستمد بهم ، ووصل أهل القيروان حتى نفذ جميع ما في خزائنه من الاموال

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٢١ .

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٤١ - ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ٢١ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٤٢ - ابن الاثير ، ج ٥ ص ٢٧٥ - ابن الخطيب ، ص ٢١ .

(٤) ابن الخطيب ، ص ٢٢ .

والاكسية^(١). ولما تغلب على أخيه أحمد ، تفاه بأهله وولده إلى مصر ، واستقام أمر محمد بافريقية بعد ذلك . ولم تكن ثورة أحمد هي الثورة الوحيدة التي واجهها أبو العباس محمد ، ففي سنة ٢٣٣ هـ عزل محمد بن الأغلّب سالم بن غلبون ، عامله على الزاب ، فاستاء سالم لذلك ، وأعان الثورة على الأمير ، وأقبل بجيش من أنصاره نحو القيروان ، فلما وصل إلى قلعة يلبسير عدل عن خطته فسار إلى الأربس وحاول دخولها ، فمنعه أهلها من ذلك ، فزحف إلى باجه ودخلها ، وامتنع بها ، فسير إليه الأغلّب قائده خفاجة بن سفيان ، فقتله ، وحمل رأسه إلى الأمير^(٢) .

وفي العام التالي ثار عمرو بن سليم التيجي المعروف بالقوبع في تونس ، واستمرت ثورته عامي ٢٣٤ ، ٢٣٥ هـ ، وفشل القائد خفاجة بن سفيان في القضاء عليها ، فبعث إليه ابن الأغلّب جيشاً آخر بقيادة محمد بن موسى المعروف بعريان ، ولكن عدداً كبيراً من عسكر ابن الأغلّب انضم إلى القوبع ، فانهزم محمد بن موسى وعاد فله إلى القيروان . وقويت حركة القوبع ، فسير إليه ابن الأغلّب للمرة الثالثة جيشاً بقيادة خفاجة بن سفيان ، وتمكن خفاجة هذه المرة من هزيمة القوبع وقتله ، ودخل جيش ابن الأغلّب مدينة تونس في ١٠ ربيع الأول سنة ٢٣٦ (٣) . وتوفي أبو العباس محمد في أول محرم سنة ٢٤٢ هـ وكان عهد محمد بن الأغلّب عهد سلم بالنسبة للعهد السابقة ، ومن مآثره أنه استعفى على القيروان أبا سعيد عبد السلام سحنون الملقب

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٤٢

(٢) نفس المرجع ص ١٤٣ - ابن الأثير ج ٥ ص ٢٨١

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٤ - ابن الأثير ج ٥ ص ٢٨٢

بسراج القيروان ، وكان عالماً في أصول الدين والفقه على مذهب مالك (١).

٣- أبو ابراهيم أحمد بن محمد (٢٤٢-٥٢٤٩ هـ)

لما توفي أبو العباس محمد خلفه ابنه أبو ابراهيم أحمد ، وكان على حداثة سنه حسن السيرة ، كريم الفعال ، رفيقاً برعيته ، متجنباً للظلم . ويذكر ابن عذاري أنه كان يخرج من القصر القديم ويمشي حتى يدخل من باب أبي الربيع ومعه دواب بالدراهم ، فكان يعطى الفقراء والمساكين حتى ينتهي إلى المسجد الجامع بالقيروان (٢) . وكان أبو ابراهيم أحمد مولماً بالبناء ، ففي سنة ٥٢٤٥ هـ أخرج مالا كثيراً لحفر المواجه وبنیان المساجد والقناطر . وفي سنة ٥٢٤٦ هـ شرع في حفر الماجل الكبير الواقع على باب تونس ، وتم بناء هذا الماجل في سنة ٥٢٤٨ هـ ، وهو على شكل صهريج عظيم مستدير الشكل ، يبلغ قطره نحو ١٥٠ متراً ، وكانت مياه الأودية تجري إليه . وكان أهل القيروان يشربون من هذا الماجل في سنوات المحل والجفاف (٣) .

وأبو ابراهيم هذا هو الذي زاد في جامع القيروان ، وأصلح قنطرة باب أبي الربيع سنة ٥٢٤٨ هـ (٤) وبني سور سوسه في سنة ٥٢٤٥ هـ (٥) ، وشرع في

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ص ٢٤٩ - ٢٩٠

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٧ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٣ .

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٢٣ حاشية رقم ١ - حسن حنفي عبد الوهاب ،

خلاصة تاريخ تونس ، ١٣٧٣ هـ ص ٦٨

(٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٨ - ابن الأبار ، الخلة السراء ص ١٦٤

(٥) ابن الخطيب ص ٢٣

إصلاح المسجد الجامع بتونس والزيادة فيه سنة ٢٤٩ هـ، ولكنه توفي قبل تمامه (١). وذكر ابن الخطيب أنه اعتل في أثناء إجراء المياه إلى الماجل الذي أقامه بالقصر القديم، « فكان يسأل : هل دخله الماء ؟ إلى أن دخله الوادي، فعرفوه بذلك فسر به، وأمرهم أن يأتوه بكأس مملوء منه فشربها قال : الحمد لله الذي لم أمت حتى تم أمره، ثم مات على أثر ذلك » (٢).

وفي عهد أبي إبراهيم أحمد تارخوارج البربر من الإباضية في طرابلس سنة ٢٤٥ هـ، وهزموا عاملها أخاه عبد الله بن محمد، فسير إليهم أخاه زيادة الله، فانهزم الإباضية، وقتل منهم عدد كبير (٣). وتوفي أبو إبراهيم أحمد في ذي القعدة سنة ٢٤٩ هـ.

٤ - أبو محمد زيادة الله بن محمد (٢٤٩-٢٥٠ هـ)

لما توفي أبو إبراهيم أحمد خلفه أخوه أبو محمد زيادة الله الثاني، وعلى الرغم من صغر سنه عند توليه الإمارة لم يطل به العهد فيها، إذ توفي بعد عام واحد، في ذي القعدة سنة ٢٥٠ هـ. وزيادة الله هـذا هو الذي أتم زيادة أخيه أبي إبراهيم أحمد في جامع الزيتونة بتونس.

٥ - أبو الغرائيق محمد بن أحمد (٢٥٠-٢٦١ هـ)

قام بالإمارة في إفريقية بعد وفاة زيادة الله ابن أخيه أبي الغرائيق محمد ابن أبي إبراهيم أحمد، وقد لقب بهذا اللقب بسبب حبه لصيد الغرائيق

(١) ابن عذاري، ج ١ ص ١٤٨

(٢) ابن الخطيب، ص ٢٤

(٣) ابن الأثير، ج ٥ ص ٣٠٠ - ابن خلدون، ج ٤ ص ٤٣١

حتى أنه بنى قصرًا يخرج إليه لصيدها أتفق فيه ٣٠ ألف مثقال من الذهب (١).
وكان أبو الفرائيق مولعًا بالبناء والتشييد، فبنى حصونًا ومحارس على ساحل
البحر بالمغرب، على مسيرة ١٧ يومًا من برقة إلى جهة الغرب (٢). وفي عهده
أقام محمد بن حمدون الأندلسي الماعري المسجد الشريف المنسوب إليه بالقيروان
في سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) ويعرف بمسجد الأبواب الثلاثة، بناه بالآجر
والخض والرخام، وتعتبر زخارف واجهته من أروع الزخارف المنسوبة
إلى عصر الأغالة (٣).

٦- إبراهيم بن أحمد (٢٦١ - ٥٢٨٩).

لما توفي أبو الفرائيق في ٦ جمادى الأولى سنة ٢٦١ هـ، خلفه أخوه إبراهيم
ابن أحمد. ويعتبر الأمير إبراهيم هذا أعظم أمراء بني الأغلب على الإطلاق،
فهو الذي أسس مدينة رقادة سنة ٢٦٣ هـ، وبنى فيها جامعًا وقصرًا سماه الفتح (٤)،
وهو الذي أتم بناء المسجد الجامع بتونس، وما جل القيروان، وذكر ابن
خلدون أنه بنى الحصون والمحارس بسواحل البحر حتى كانت النار توقد في
ساحل سبتة للذير بالعدو فيصل إيقادها بالاسكندرية في الليلة الواحدة.
وهو الذي بنى سور سوسة (٥).

(١) ابن عذاري، ج ١ ص ١٥٠.

(٢) ابن خلدون، ج ٤ ص ٤٣١.

(٣) G. Marçais. l'Architecture musulmane d'Occident, Paris.

1954. pp. 47 - 48.

(٤) أقام هذا الجامع والقصر في سنة ٢٦٤ هـ.

(٥) ابن الأثير، ج ٦ ص ٥ - ابن خلدون، ج ٤ ص ٤٣١.

وفي عهده كانت فتنة العباس بن أحمد بن طولون، الذي انتهز فرصة غياب أبيه في الشام وأعلن خروجه عليه في مصر ، وأزمع الاستقلال بها ، فلما بلغه قدوم أبيه إلى مصر، عزم على غزو إفريقية في سنة ٥٢٦٧هـ، وإخراج بني الأغلب عنها، أملا في إقامة ملك له بشمال إفريقية . ولكنه فشل في الاستيلاء على طرابلس ولادة (١) .

وكان إبراهيم بن أحمد في السنين الست الأولى من إمارته يسير على نهج أسلافه من حسن السيرة والعدل ، ثم أخذ يتغير بعد ذلك، فكان يزداد تغيرا وسوءا في كل سنة ، وأصبح جائرا ظالما ، سفاكا للدماء . ثم أصيب في آخر عمره بجنون القتل (٢) ، أسرف بسببه في قتل أقرب الناس إليه من ذويه وأصحابه وحجابه ، فقتل ابنه أبا الأغلب ، وقتل بناته ، وقتل ثمانية إخوة له ، وأتى بأمور لا تصدر إلا من المتوحشين الهمج . وقيل أنه افتقد منديلا صغيرا كان يسمح به منه من الشراب ، قد سقط من بعض جارياته وألقاه خادم له ، فقتل بسببه ثلاثمائة خادم ، كذلك قتل ابنه أبا عقال لأن حمد بس المنجم أنبأه بأن ابنه هذا يلي الملك في وقت حدده له ، وقتل وصيفاته وجواريه دون سبب أو جريرة (٣) . وفي أيامه ظهر أبو عبد الله الشيعي الداعي في قبائل كتامة ، يدعو للاسماعيلية ، ونجح في اجتذاب

(١) راجع التفاصيل في البيان المغرب ، ج ١ ص ١٥٦ - ١٥٨

(٢) ذكر ابن خلدون أنه أصابه « ما ليخوليا » (ج ٤ ، ص ٤٢٦) ، وذكر ابن عذارى أنه غلب عليه خلط سوداوى (البيان ج ١ ص ١٧٨) ، وذكر ابن الخطيب أنه انقلب إلى ضد ما كان عليه ، وفسد فكره لقلبه مزاج سوداوى ساءت له أحلامه وتغيرت ظنونه ، فأسرف في القتل « (أعمال الاعلام ص ٢٩)

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٨ ، ١٧٩ - ابن الخطيب ، ص ٢٩ - ٣٤

الكنتميين إلى دعوته ، ويبدو أن ظهور الشيعة كان سببا في استقامة ابراهيم أحمد وتوبته ، حتى يستميل الناس بأفعاله فلا ينضموا إلى دعوة الشيعة (١) ، « فرد المظالم ، وأسقط القبالات ، وأخذ العشر طعاما ، وترك الأهل الضياع خراج سنة وسماها سنة العدل ، وأعتق مماليكه ، وأعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالا عظيمة ليفرقوها في الضعفاء والمساكين » (٢) ، ولكن ابنه أبا العباس استرد هذه الأموال التي أخرجها أبوه إلى الفقهاء ، وأنفقها في ملذاته وشهواته (٣) . وذكر المؤرخون أنه أخرج من في السجون ، وبعث يستدعى ابنه أبا العباس من صقلية للقيام بأعباء الحكم ، فقدم عليه في ربيع الأول سنة ٥٢٨٩ هـ ، وعزم ابراهيم بن أحمد على الجهاد بصقلية (٤) ، فاستنفر الناس ، ودعاهم إلى الجهاد ، ووزع عليهم الأموال الطائلة ، وخرج من مدينة سوسة في أواخر ربيع الآخر في الأسطول ، وأبحر إلى صقلية ، فنزل بمدينة بلرم في ٢٨ رجب سنة ٥٢٨٩ هـ ، وحاصر ميقش Miques (٥) سبعة عشر يوما ، ثم فتح مدينة ، وهدم أسوارها ، ثم فتح طرمين Taormina في آخر شعبان من سنة ٥٢٨٩ هـ (٦) . وبعث حفيده زيادة الله إلى قلعة ميقش فافتتحها ، بينما بعث

(١) المرجع السابق ص ١٧٧ - ابن خلدون ج ٤ ص ٤٣٧

(٢) نفس المرجع ص ١٧٧

(٣) نفس المرجع ص ١٧٩

(٤) ذكر ابن الأثير أنه عزم على الحج ، وعلم أنه ان جعل طريقة إلى مكة عن مصر منه صاحبها ابن طولون ، فتجربى بينها حرب فيقتل المسلمون ، فجعل طريقه على جزيرة صقلية ليجمع بين الحج والجهاد .

(٥) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٦ - ابن الخطيب ص ٣٥

(٦) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٣٦

ابنة أبو محرز إلى رمطة Rametta، وهي قلعة حصينة تقع غربى مدينة مسينة، فأعطاه أهلها الجزية (١). ولم يكتف إبراهيم بن أحمد بذلك، بل عبر مضيق مسينة من صقلية، وأغار على ساحل إيطاليا الجنوبي الغربى، « وسار فى بر الفرنج، ودخل قلورية عنوة، فقتل وسبى، ورهب منه الفرنجة » (٢) وقلورية المذكورة هى كلابريا Calabria، ويفصلها عن صقلية مضيق مسينة. ثم مضى نحو كسنثة Cozenza، وهى مدينة تقع بالقرب من خليج تارنتو، فنازل أهلها، فعرضوا عليه الجزية ولكنه لم يقبل منهم ذلك، فحاصرها (٣) وأصيب وهو قائم بحصارها بمرض شديد، سبب وفاته فى ١٨ ذى القعدة سنة ٢٨٩ هـ بأرض كلابريا، وحمل ميتا إلى جزيرة صقلية، فدفن ببلرم بعد ثلاثة وأربعين يوما من وفاته (٤). وبني على قبره قصر (٥) أورباط.

٧ - أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (٢٨٩ - ٢٩٠ هـ) :

وبوفاة إبراهيم بن أحمد بدأ الضعف والوهن يدب فى دولة الأغالية، فقد تولى بعده ابنه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم. وفى أيامه اضطرب الحكم حتى إن ابنه زيادة الله تأمر على قتله (٦). فحبسه أبوه فى بيت داخل داره، ومات أبو العباس عبد الله بن إبراهيم متمولا فى ٢٩ شعبان سنة ٢٩٠ هـ

(١) المرجع السابق - ابن الخطيب، ص ٣٥

(٢) ابن خلدون، ج ٤ ص ٤٣٧ - ابن الخطيب، ص ٣٥

(٣) ابن الأثير، مرج ٦ ص ٦ - ابن الخطيب، ص ٣٥

(٤) ابن عذارى، ج ١ ص ٢٧٨. وذكر ابن خلدون وابن الخطيب أنه دفن فى مدينة بلرم فى ٢٤ من ذى الحجة.

(٥) ابن الخطيب، ص ٣٦

(٦) ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٣٨

بأبدى فتين من فتياه الصقلية بإعزاز من ولده زيادة الله^(١) . وكان أبو العباس عبد الله حسن السيرة عادلا ، أكثر من الجهاد في صقلية ، وذكر المؤرخون أن ولايته كانت رحمة ، نسخت العذاب الذي كان سائدا في عهد أبيه^(٢) ، « وأظهر التقشف ، والجلوس على الأرض وإنصاف المظلوم ، وجالس أهل العلم ، وشاورهم ، وكان لا يركب إلا إلى الجامع »^(٣) . ولم يسكن قصر أبيه ولكنه اشترى دارا مبنية من الطوب ، فأقام فيها حتى قتل .

٨ - زيادة الله بن عبد الله آخر أمراء بني الأغلب (٢٩٠ - ٢٩٦ هـ) :

لما تولى زيادة الله الثالث الإمارة ، قبض على أعمامه وأرسلهم إلى جزيرة الكراث ، وهي جزيرة صغيرة تقع على بعد كيلو مترين ونصف شمالي تونس ، وأمر بقتلهم ، فقتلوا جميعا^(٤) . كذلك أمر بقتل الفتين اللذين قتلأباه^(٥) ، وقتل أخاه أبا عبد الله الأحمول بعد أن استقدمه من طينة ، ثم ولي وزارته وشؤون البريد عبد الله بن الصائغ ، كما ولي أبا مسلم منصور بن اسماعيل ديوان الخراج . وعكف على لذاته ولهوه ومعاشرة المضحكين والعابثين ، وأهمل أمور دولته . وكان مقيا بتونس ، فأمر أبا مسلم منصور بن اسماعيل باصلاح ما وهي من قصور مدينة رقادة ، وترميمها ، وأنشأ مركبا على ما جل القيروان سمي بالزللاج ، وقدم من تونس في شهر ربيع الآخر سنة

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٠٣

(٢) ابن الخطيب ، ص ٣٦

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٠

(٤) نفس المرجع ، ص ١٨٣ - ابن الخطيب ، ص ٣٨

(٥) نفس المرجع - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٣٩ - ابن الخطيب ، ص ٣٨

٢٩٢ هـ ، ونزل على المساجل الكبير بالقيروان ^(١) ، وكان خطر الداغى الشيعى قد استفحل ، إذ استولى فى سنة ٢٩٢ هـ على سطيف بالجزائر ، فسير إليه زيادة الله جيشا من أربعين ألف مقاتل بقيادة ابراهيم بن حبشى ، فالتقى مع حشود الشيعى فى كينونة ، فانهزم ابن حبشى هزيمة شنعاء ، وزحف أبو عبد الله الشيعى بجيشه الظافر فى أملاك الأغالبة ، فأخرج إليه زيادة الله جيشا بقيادة مدج بن زكريا ، وأحمد بن مسرور الخال ، ولكنها خرجا عليه ، فسار زيادة الله بنفسه إلى مدينة الأربس فى سنة ٢٩٣ هـ ، واجتمعت إليه الجنود ، وأنفق عليهم أموالا طائلة لترغيبهم فى مقاتلة الشيعى وأنصاره . وأمر زيادة الله أثناء مقامه بالأربس بارسال العسكر إلى باغاية ، وشحن طبنة عاصمة الزاب بالرجال ، وأقام عليها حاجبه أبا المقارع حسن بن أحمد ابن نافع ، وشبيب بن أبي شداد القمودى ، وخفاجة العيسى ، وكانوا من كبار قواده ، وأمرهم بشن الغارات على كتامة .

وعلى الرغم من كل الاحتياطات التى اتخذها زيادة الله لإيقاف تقدم الشيعى ، فقد تمكن الشيعى من محاصرة مدينة طبنة ، ونصب عليها الدبابات ، ونقب برجا وبدنة ، فسقط السور بعد قتال شديد ، واستولى أبو عبد الله الشيعى على مدينة طبنة ، فاحتفى بالمقدمون بحصن المدينة ، فحاصروهم ، فطلبوا الأمان فأمّنهم ، ثم دخل الحصن فى آخر ذى الحجة ٢٩٣ هـ ، وزحف بعد ذلك إلى مدينة بلزمة ، وكان قد حاصرها من قبل عدة مرات ، ولم يتمكن من الاستيلاء عليها ، فحاصرها هذه المرة ونصب عليها الدبابات ، ورمها

(١) ابن عذارى ، ص ١٨٦

بالنار أحرقتها ، وفتحها بالسيف ، وقتل الرجال ، وهدم أسوارها (١) .
 وخاف زيادة الله أن يباغته الشيعة بغزو الأربس ، فرحل إلى رقادة
 بعد أن بنى سورها بالطوب والطوايى ، واستخلف على جيشه بالأربس إبراهيم
 ابن أحمد بن أبي عقسال (٢) . وواصل الشيعة تقدمه في البلاد التونسية ،
 فاستولى على باغاية في شعبان من نفس السنة بالأمان ، وفي سنة ٢٩٦ هـ وصات
 خيله إلى قسطنطينية ، وانسحبت جيوش زيادة الله إلى توزر ، فاستولى الشيعة
 على تيجس صالحا ، ثم سقطت قفصة وبلاد قسطنطينية في يده ، وزحف بعد
 ذلك إلى الأربس ، ونازلها ، وافتتحها عنوة في ٢٤ جمادى الآخرة سنة
 ٢٩٦ هـ (٣) . وأخذت جيوش الشيعة تستولى على مدن إفريقية الواحدة
 بعد الأخرى ، فسقطت في يده مجانة وتيفاش وسببية وقودة (٤) ، ثم تبعها
 سكيانة وتبسة . وفي مدبرة وجد أن أهالى قصر الإفريق ومرجنة ومجانة
 قد التجئوا إليها ، وتحصنوا بها ، فانتح الحصن ، ثم رحل إلى القصرين من
 قودة وأمن أهلها ودخلها (٥) .

ولما علم زيادة الله بذلك سقط في يده ، وعزم على الحرب إلى مصر ،
 فخرج من رقادة ومعه وجوه رجاله وفتيانا وعبده ، وقد حمل من الذهب
 والجوهر ما خف حمله ، وانتخب من عبده الصقالبة ألف خادم جعل على

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٣٠

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩٣ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٣٩

(٣) نفس المرجع ص ٩٩ - ابن الخطيب ص ٤٢

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٤٠ ، ٤٤١

(٥) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٣١

وسط كل واحد منهم ألف دينار، ورحل من رقادة في ٢٦ من جمادى الآخرة. وأصبح الناس غداة ليلة خروجه، وهجموا على قصوره برقادة، فانتهبوا ما فيها من أموال وآنية ذهبية وفضية (١).

وبلغ أبا عبد الله الشيعي نبأ هروب زيادة الله، فبعث قائده غروبة بن يوسف إلى رقادة فدخلها في غرة رجب، ونزل بقصرها المعروف بقصر المصحن (٢).

أما زيادة الله فقد سار في الجادة الموصلة إلى طرابلس، فأقام بطرابلس ١٧ يوما، ثم سار بعد ذلك إلى مصر. وانقرضت بذلك دولة بني الأغلب.

(١) ابن عذاري، ج ١ ص ٢٠١ - ابن الخطيب، ص ٤٤

(٢) نس المرجع ص ٢٠٥

(٣)

ازدهار الحياة الاقتصادية في المغرب الأدنى في عصر الأغالبة

لم يزودنا المؤرخون بمعلومات كافية توضح لنا الحالة الاقتصادية في إفريقية في عصر الأغالبة ، ولهذا فأننا نلجأ عادة إلى كتب الجغرافيا والرحلات ، وخاصة اليعقوبي المعاصر لدولة الأغالبة ، والذي زار المغرب فيما بين عامي ٢٦٩ ، ٢٧٤ هـ (٨٧٦ - ٨٨٩ م) .

لم تعرف بلاد إفريقية منذ العصر الروماني ازدهارا اقتصاديا كما عرفته أيام الأغالبة ، فقد أصيب اقتصادها منذ النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي حتى أواخر القرن السابع باضطراب شديد بسبب تعاقب الغزاة على إفريقية ، وقيام البربر بالثورات المتواصلة على حكامهم ، والفتن التي اضطربت فيها في البلاد بسبب غارات سكان الجبال والبدو الصحراويين على المدن والسهول . وعلى هذا النحو لم تكن المزارع الإفريقية تعرف إلا من والسلام اللازمين لقيام الزراعة واتصال عبور القوافل التجارية . وكان البناء الاقتصادي في إفريقية عند بداية الفتح العربي لبلاد المغرب في غاية التصدع ، وعجلت ثورة كسيلة وثورة الكاهنة على هذا التصدع ، وأتى عليه تشدد أمراء بني أمية في جباية الضرائب على السكان ، وما تبع ذلك من ثورات البربر وحركات الصفرية والإباضية ، وتحولت بلاد إفريقية إلى ميادين للقتال بين جيوش العرب أموية وعباسية ، وبين خشود البربر الخوارج المنسادين بالمساواة . ولما قامت أسرة الأغالبة بامارة إفريقية ، أحسن المزارعون بنوع من الاستقرار النسبي كانوا يفتقدونه منذ عهد طويلة ، وفي ظل هذا الأمن

الذى ساد في معظم عهود بني الأغلب ، زادت المحاصيل الزراعية (١) . ولم تتعرض إفريقية للمحל والقحط إلا في عصر أبي الغرائيق سنة ٢٦٠ هـ (٢) .

واشتدت الأزمة الاقتصادية بإفريقية نتيجة لذلك في ولاية ابراهيم بن أحمد في سنة ٢٦٦ هـ (٣) . ويبدو أن أمد هذه المجاعة كان قصيرا ، بحيث لم يهتم المؤرخون بذكر شيء عنها بعد ذلك . ثم إن اليعقوبي الجغرافي رغم زيادة اهتمامه بالمدن على الريف أبدى دهشته لمظهر الخضرة وكثافة الأشجار في المنطقة الممتدة ما بين قمودة والساحل ، وهي مسافة تقدر بمائة وخمسين كيلو مترا ، وتبدو اليوم على الرغم من تقدم حركة التشجير بسفاس منطقة شبه صحراوية (٤) . ويذكر اليعقوبي أن أشجار الزيتون والنخيل تسود زراعتها في هذه السهول الرملية وعلى طول الساحل ، ففي هذه المنطقة الساحلية بساتين وقرى متصلة ، كل منها تضم معصرة للزيت (٥) . وبالإضافة إلى الزيتون ، كانت تزرع أنواع مختلفة من الفواكه ، نخص منها بالذكر العنب الذي كان يصنع منه النبيذ وهو الشراب الاثير عند الأغالبة . وعلى الرغم من قيام بعض أمراء الأغالبة بمنع صناعته ومعاقبة من يتولى بيعه وشربه ، مثل الاثير أبو عقاب الأغلب بن ابراهيم (٦) ، فقد كان بعضهم يدمن شرابه

(١) Marçais, la Berberie musulmane, pp. 76,77.

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥٢

(٣) نفس المرجع ، ص ١٥٥

(٤) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١ ص ٣٤٩ - 78. Marçais, op. cit.

(٥) Marçais, Ibid.

(٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٩

أمثال زيادة الله الثالث^(١) ، وأبو العباس محمد بن الأغلب^(٢) .

وإلى جنوب إقليم قمودة كانت تكثر في إقليم قسطنطينية من بلاد الجريد أشجار الزيتون والكروم والنخيل^(٣) . أما المنطقة الواقعة إلى الشمال من قمودة فكانت مزارع للحبوب ، فكانت بلاد باجة التي امتدح الجغرافيون العرب خصبها من المدن المنتجة للقمح .

أما من حيث ثروة إفريقية المعدنية فقد اشتهرت بجانة بمعادنها الكثيرة ، وعلى الأخص الفضة والكحل والحديد والمرتك والرصاص^(٤) . ويعتقد الأستاذ مارسيه أن منطقة بجانة أصبحت منذ منتصف القرن الثاني تتمتع بنشاط اقتصادي ، يبرره وجود المعادن بكثرة في أرضها^(٥) . وينقلنا الحديث عن المعادن بإفريقية إلى الصناعات ، وأهم الصناعات التي ازدهرت بإفريقية في عصر الأغالبة صناعة الآلات الحديدية اللازمة لصناعة السفن ، والسيوف ، والسروج ، ولجم الخيل ، وصناعة التحف المصنوعة من الذهب والفضة ، وقد أشار المؤرخون إلى كثير من هذه التحف كانت موجودة بقصور رقادة ، وانتهبها العامة بعد خروج زيادة الله الثالث من رقادة هاربا إلى مصر . كذلك ازدهرت صناعة الزجاج ، وكان في القيروان حيا خاصا بالزجاجيين ،

(١) ابن عذارى ، ص ١٩٤ . يذكر ابن عذارى أن زيادة الله كان ينادم العيارين والشطار والزمامرة ، وكان إذا فكر في زوال ملكه وغلبة الشيعة على أكثر أعماله يقول :

«املاً واسقى من القرن يكفيني»

(٢) ابن عذارى ، ص ١٤٠

(٣) اليعقوبي ، ص ٣٥٠

(٤) نفس المرجع ص ٣٤٩

(٥) Marçais, op. cit. p. 79.

كما يدل على شهرة القيروان في هذا النوع من الصناعات . أما صناعة الخزف فقد تأثرت بصفة خاصة بالتقاليد العراقية ، فقد ذكر الدباغ في معالم الايمان ، عند حديثه عن أبي ابراهيم أحمد (٢٤٢ - ٥٢٤٩) أنه « جلبت لهذا الأمير تلك القراميد الثينة لمجلس أراد أن يعملها ، وجلبت له من بغداد خشب الساج ليعمل له منها عيدان ، فعملها منبرا للجامع ، وجاء بالمحراب مفصلا رخاما من العراق ، عمله في جامع القيروان ، وجعل تلك القراميد في وجه المحراب ، وعمل له رجل بغدادى قراميد زادا إليها ، وزينه تلك الزينة العجيبة بالرخام والذهب والآلة الحسنة » (١) . ولا شك أن زخارف التزيينات الخزفية التي تزين جدار المحراب بجامع القيروان تبدو من طراز يختلف عن الزخارف الرخامية التي تكسو وجه المحراب ، ثم أنها تشبه مجموعة من الخزف ذي البريق المعدني ، عثر عليها في سامرا والرقعة وسوسة مما لا بدع مجالاً للشك في تأثير هذه الصناعة في القيروان بالتقاليد العراقية (٢) .

كذلك اشتهرت إفريقية بصناعة السجاد وذلك منذ أقدم العصور ، وهي صناعة محلية لم يكن للعرب فضل في إدخالها في البلاد ، وإنما كانت معروفة منذ العصر الروماني (٣) . كذلك اشتهرت إفريقية بصناعة المنسوجات. وإلى سوسة كانت تنسب الثياب السوسية الرفيعة ذات البياض الناصع (٤) . وكانت منسوجات دور الطراز بإفريقية مما يهادى به للخلفاء

(١) الدباغ ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ، ج ٢ تونس ١٩٢٠ م ص ٩٧.

(٢) Marçais, les faïences à reflets métalliques de la grande mosquée de Kairouan, Paris, 1928

(٣) Marçais, la Berberie, P. 81

(٤) البكري ، ص ٣٤ - الاستبصار ، ١١٩

العباسيين . ويذكر ابن عذارى أن أبا عبد الله الشيعي لما هزم جيش إبراهيم ابن حبشي قائد زيادة الله بن الأغلب ، غنم كثيرا من الأموال ، « والسلاح ، والسروج ، واللجم ، وضروب الأمتعة ، وهي أول غنيمة أصابها الشيعي وأصحابه ، فلبسوا أثواب الحرير ، وتقلدوا السيوف المحلاة ، وركبوا بسروج الفضة واللجم المذهبة » (١) . وكان أمراء بني الأغلب يبعثون إلى الخلفاء العباسيين كثيرا من الهدايا والطرف ، ويذكر ابن عذارى أن زيادة الله الثالث بعث الحسن بن حاتم إلى العراق رسولا منه بهدايا وطرف (٢) .

أما فيما يتصل بالسكة فيعتقد الاستاذ مارسيه أن المشرفين على دارالسكة كانوا من الموالى الروم أو العبيد أو الفتيان الذين أولاهم أمراء بني الأغلب كل ثقتهم ، ويذكر مارسيه بعض أسماء هؤلاء الفتيان منهم موسى في عهد إبراهيم بن الأغلب ، ومسرور في عهد زيادة الله الأول ، وخلف في عهد أبي العباس ، وبلج وشاكر في عهد إبراهيم الثاني ، وخطاب في عهد زيادة الله الثالث (٣) . وقد ورد ذكر خطاب في البيان ، فيذكر ابن عذارى أن زيادة الله الثالث « اشتد كلفه بغلام له يسمى خطاب ، فكتب اسمه في سكة الدنانير والدراهم ، ثم وجد عليه ، فحبسه وقيده ، فغنت له جارية تستعطفه على خطاب :

يا أيها الملك الميمون طائره

رفقا فان يد المشوق فوق يدك

(١) ابن عذارى ، ١ ص ١٨٧

(٢) نفس المرجع ص ١٨٥

(٣) Marçais, la Berberie, p. 82

كم ذا التجلد والأحشاء خافقة
أعيذ كفك أن تسطو على كبـدك

فرضى عن خطاب ، وأعاده إلى منزلته « (١) .

ويغلب على الظن أن الدنانير التي كانت تصدر من دار السكة في القيروان والعباسية لم تنقص عن وزنها قط طوال العصر الاغلبى ، وإن كان وزنها قد قل نسبيا في عهد زيادة الله الثالث من ٢٠٤ رء جراما إلى ١٢٤ رء جراما . أما الدراهم الفضية فقد أمر إبراهيم بن أحمد في سنة ٢٧٥ هـ بضرب الدراهم الصحاح ، وحرم ما كان يتعامل به من القطع المعدنية الأخرى والدراهم المتداولة في الأسواق . فأنكرت العامة ذلك ، وأغلقت الحوانيت ، واجتمعوا في مظاهرة صاخبة ، وساروا إلى رقادة ، وصاحوا على إبراهيم يعلنون احتجاجهم ، فأمر بحبسهم في جامع رقادة . وانصل ذلك بأهل القيروان ، فخرجوا إلى الباب ، وأظهروا المدافعة ، فوجه إليهم إبراهيم ابن أحمد وزيره أبا عبد الله بن أبي اسحق ، فرموه بالحجارة وسبوه ، فانصرف إلى الأمير وأخبره بذلك ، فركب إبراهيم إلى القيروان ، ومعه حاجبه نصر بن الصمصامة في جماعة من الجند ، فناصب أهل القيروان القتال ، فتوجه الأمير إلى المصلى ، وهدأ الناس ، وبعث إليه أهل القيروان فقيهم أبا جعفر أحمد بن مغيث ، فتباحث مع الأمير ، واتفق معه على إطلاق المحبوسين من جامع رقادة ، وإلغاء القطع من إفريقية ، وعلى أن يترك هدأت نفوس أهل القيروان . ثم ضرب إبراهيم بن أحمد دنانير ودراهم سماها

العاشرية في كل دينار منها عشرة دراهم (١) .

ويذكر ابن الأثير أن هذا الأمر فرض الأمن في الطرق والمسالك المؤدية إلى القيروان ، فكانت القوافل التجارية والتجار يسرون في الطرق آمنين (٢) ، وأصبحت القيروان على هذا النحو مركزا للطرق المؤدية إلى سائر إفريقية والمغرب ، وتحولت هذه المدينة التي كان عقبة بن نافع قد أسسها لغرض عسكري وديني إلى مدينة تجارية من الدرجة الأولى ، وكان لحي الأسواق الذي يشغل قلب المدينة شارع فسيح مستقيم يتجه من الشمال إلى الجنوب ، تكتنفه الحوائط من كل من جانبيه ، يعرف بالسباط ، يتوسطه المسجد الجامع (٣) .

وازدهرت الحياة التجارية في القيروان حاضرة بني الأغلب ازدهارا عظيما ، وكثرت في أيدي أهلها الأموال بسبب التجارة . ويصفها اليعقوبي في عصر الأغلبة بقوله : « والقيروان مدينة كان عليها سور من ابن وطين ، فهدمه زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب لما أثار عليه عمران بن مجالد ، وعبد السلام بن المفرج ومنصور الطنبذي ، فانهم ثاروا عليه بالقيروان ، وهم من الجند القدم الذين كانوا قدموا مع ابن الأشعث ، وشربهم من ماء المطر إذا كان الشتاء ، ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها المؤاجل ، فمئها شرب السقااة . ولهم واد يسمى وادي السراويل في قبلة المدينة يأتي فيه ماء صالح لأنه في سبخ

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦٠ - Marçais, la Berberie, p. 83

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥

(٣) Marçais, la Berberie, p. 84

للناس يستعملونه فيما يحتاجون إليه » (١) .

ويعبر الإدريسي عن رخاء أهل القيروان بقوله : « أم أمصار ، وقاعدة
أقطار ، وكانت أعظم مدن الغرب قطرا ، وأكثرها بشرا ، وأيسرها
أموالا ، وأوسعها أحوالا ، وأتقنها بناء ، وأنفسها همما ، وأربحها تجارة ،
وأكثرها جباية ، وأنفقها سلعة ، وأنماها ربحا » (٢) .

(١) اليعقوبي ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨

(٢) الإدريسي ، ص ١١٠

(٤)

سكان إفريقية في عصر الأغالبة

كان يسكن إفريقية في العصر الأغابي أخلاط بشرية مختلفة في الجنس وفي اللغة ، ويمكننا أن نميز منها خمسة عناصر هي : ١ - العرب ٢ - العجم الفرس - البربر ٤ - الروم والأفارق (عجم البلد) ٥ - الفتيان . أما العرب فينقسمون إلى فريقين : الأول وهو أكثرية سكان العرب من أعقاب العرب الفاتحين للمغرب واستوطنوا هذه البلاد ، وأصبحوا بمرور الزمن عربا أفارقة أو عربا بلديين ، ونضم إلى هذا الفريق جماعات العرب الذين وفدوا من المشرق في العصرين الأموي والعباسي واستقروا في إفريقية وأصبحوا من أهل البلاد . والفريق الثاني من العرب الوافدين على المغرب في العصر العباسي في الجيوش التي كان يبعثها الخلفاء العباسيون ، وقد استقر بهؤلاء المقام على ما يشتهون في إفريقية وكانوا يؤلفون طبقة الجند .

أما العجم فهم : الفرس الذين وفدوا من المشرق الإسلامي مع الجيوش العباسية ، ومنهم الخراسانيون ، الذين كانوا يؤلفون معظم أجناد العباسيين في إفريقية ، وهناك غير العجم الفرس عجم البلد ^(١) ، وهم الروم أو الأفارقة الذين ظلوا يحتفظون بالدين المسيحي .

أما البربر فهم سواد سكان إفريقية والمغرب :

١ - العرب : كان بعضهم من أعقاب الفاتحين الذين استوطنوا أرض إفريقية ، وأصبحوا من أهل البلاد ، ومعظمهم كان يقيم في بلزمة ، وأكثر

(١) يحتوي ، ص ٣٤٨

هؤلاء العرب من قيس ، وقد قاموا في عصر الأغالبة بدور كبير في كبح جماح بربر كتمانة ، ولكن ابراهيم بن أحمد أوقع بهم في سنة ٢٨٠ هـ ، واستقدم منهم نحووا من سبعمائة من أبطالهم في القيروان ، ووسع عليهم ، وبنى لهم داراً كبيرة تشتمل على دور لامنفاذ لها غير باب واحد ، فأنزلهم بهذه الدار ، ثم أمر بقتلهم جميعاً (١) . كذلك كانت هناك جماعات من العرب الشاميين الذين اشتركوا في الحملات التي كان يسيرها خلفاء بني العباس إلى إفريقية . وكان عرب بني تميم المستقرون في تونس يتمتعون بامتيازات كبيرة في عصر الأغالبة لانتساب الأغالبة إليهم ، ولكن ابراهيم بن أحمد انقلب عليهم ، وأرسل إليهم في سنة ٢٨١ هـ ميمونا الحبشي فقتل جماعة منهم (٢) . وكان معظم عرب إفريقية جنوداً يستنفرهم الأمراء في أوقات الحرب ، ولكن هؤلاء الجند كانوا كثيراً ما يعلنون ثوراتهم على الأمراء والعامل في مدن إفريقية ، ويشكلون بذلك خطراً جسيماً على دولة الأغالبة . وقد عانى ابراهيم بن الأغلب من ثورات جنوده كثيراً ، ففي سنة ١٨٦ هـ خرج عليه حمد يس الكندي ونزع السواد ، كما ثار عليه عمران بن مجالد ، وهدد ابن الأغلب ، ولذلك عمد ابن الأغلب إلى اصطناع العبيد لحمل سلاحه ، واستكثر من طبقاتهم (٣) .

وقد اشتد خطر الجند في عصر الأمير زيادة الله بن ابراهيم ، وكان سبب قيامهم بالثورة عليه يرجع إلى استخفافه بهم ، وإمعانه في سفك دماهم لسوء ظنه بهم . وأولى ثورات الجند في عهده ثورة عمر بن معاوية القيسي

(١) ابن عذاري ، ص ١٦٤

(٢) نفس المرجع ، ج ١ ص ١٧٣

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ١٤

في القصرين سنة ٢٠٨ هـ ، ثم ثورة منصور الطنبدي بتونس في سنة ٢٠٩ هـ ، وهي الثورة التي أدت إلى توائب القواد العرب على أعمال إفريقية وامتناعهم فيها ، وثورة عامر بن نافع بسببية في سنة ٢١٠ هـ . وقد ساء مركز زيادة الله بسبب هذه الثورات إلى درجة أن الجند كتبوا إليه أن يرحل عن إفريقية^(١) ، وليس أدل على خطورة ثورة عامر بن نافع من تعليق زيادة الله عندما بلغه وفاة عامر في سنة ٢١٢ هـ بقوله : « اليوم وضعت الحرب أوزارها »^(٢) . وتجددت ثورات الجند في عهد إبراهيم بن أحمد في بلزمة ، وقد تمكن الأمير من القضاء عليها عن طريق المكر والخديعة ، وقتل نحو ٧٠٠ من كفاة العرب وأبطالهم ، وقد أثار ذلك غضب عرب إفريقية على الأمير ، فثار عرب بني تميم بتونس ، وعرب الجزيرة ، والأربس ، وباجنة ، وقودودة ، وقدموا على أنفسهم رجالا من الجند^(٣) .

٢ - العجم الفرس : يشير اليعقوبي إلى جماعات من المشاركة تضم عربا وعجما كانت تسكن بلاد إفريقية ، ويقصد اليعقوبي بالعجم ، الفرس الذين قدموا من خراسان وفارس مع ولاية بني العباس على إفريقية^(٤) ، وكان هؤلاء الفرس يؤلفون قسما هاما من الجند ، وكانوا يعيشون في القلاع البيزنطية القديمة بقابس والقيروان وبونة وباجة ومجانة ، أوفى القلاع القديمة باقليم نو ميديا الروماني الذي أصبح يؤلف الثغر الغربي لدولة الأغالبة مثل قلاع طبنة وباغاية والأربس . وقد ساهم الخراسانيون بنصيب كبير في

(١) ابن عذاري ص ١٣٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٣٢ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٦٤ .

(٤) بسمهم اليعقوبي « عجم من أهل خراسان » (اليعقوبي ص ٣٥٠) .

الجهاد بصقلية ، فالحملة التي نظمها زيادة الله بن ابراهيم لغزو صقلية كانت معظم جنودها من الفرس الخراسانيين ، يقودهم القاضي أسد بن الفرات ، وكان خراسانيا كذلك (١) .

٣ - البربر : كان البربر يؤلفون السواد الأعظم من سكان إفريقية ، وكان معظمهم من الإباضية المعتدلين الذين طالبوا الأمويين بالمساواة ، وحاولوا إقامة جمهورية لهم في المغرب . وقد رأينا ثوراتهم المتعاقبة على ولاية بنى أمية وبنى العباس . فلما تولى ابراهيم بن الأغلب إمارة إفريقية ، أطاعته قبائل البربر . ولكن ابراهيم لم يلبث أن تعرض لثوراتهم في طرابلس معقل الإباضية الأئمة ، ويذكر ابن عذارى أنه كان له مع بربر إفريقية حروب بطول ذكرها (٢) . وقد حرص زيادة الله على إشراك البربر في حملته التي أعدها لغزو صقلية ، حتى يشغلهم بمقاتلة الروم عن التفكير في القيام عليه . وعلى الرغم من ذلك فقد قام بربر لوانة ومكناسة وزواغة في عهد أخيه أبي عقاب الأغلب بالثورة على الأمير في منطقة قسطنطينية ، فتمكن قائد الأغاب من هزيمتهم ، وأباد معظم تجمعاتهم (٣) . وفي عهد ابراهيم بن أحمد قامت في صقلية فتنة بين العرب والبربر في سنة ٨٢٨٥ ، فكتب إليهم الأمير يدعوهم إلى الرجوع إلى الطاعة (٤) .

٤ - الروم والافارقة : أشار اليعقوبي في سياق حديثه عن مدن إفريقية

(١) إحسان عباس ، العرب في صقلية ، ص ٣٤

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ١١٢

(٣) نفس المجمع ص ١٣٩

(٤) نفس المجمع ص ١٢٥

إلى الروم والافارقة الذين كانوا كالبربر من سكان البلاد من غير العرب ،
ويعنى اليعقوبي بالروم بقايا الروم (١) أو الروم القدم (٢) ، الذين كانوا
يخدمون بيزنطة قبل الفتح العربي ، والذين لم يخلو عن قرطاجنة بعد أن سقطت
في أيدي المسلمين . وقد تمكن هؤلاء الروم بفضل عزلتهم من الاحتفاظ بنقاء
دمائهم ، وبلغتهم ، وبتقاليدهم ، وكانوا يقيمون في القلاع البيزنطية القديمة
مثل طينة وباغاية ، وفي مدن الجريد الصغيرة التي يبدو أنها اتخذت ملاذا
لغير العرب من أهل البلاد ، كما أقام بعضهم في القيروان باعتبارها حاضرة
البلاد ، أملا في الحصول على عمل يتعيشون منه . أما الافارقة أو
الافارق فكانوا من أهل البلاد من بقايا الفيلقيين واللاتين ، وكانوا يتكلمون
باللسان اللاتيني الإفريقي (٣) ، ويدينون بالمسيحية . وكانوا يستوطنون في
عصر الأغالة إقليم الجريد في قفصة وتوزر ونقطة وتقيوس والحامة ،
كما كانت طائفة منهم تقيم في طينة عاصمة الزاب ، وفي باغاية وفي السهول
الساحلية (٤) . وكان هؤلاء الافارقة والروم يشتغلون بزراعة الزيتون ،
ويستخرجون منه الزيت ، وقد اتبع أمراء بني الأغاب بالنسبة لهؤلاء
المعجم البلديين سياسة تقوم على التسامح ، فأسند بعض الأمراء إلى
نفر من الافارق مناصب هامة في الدولة (٥) . ويبدو أن أمراء بني الأغاب

(١) اليعقوبي ، ص ١٣٥

(٢) نفس المرجع

(٣) الادريسي ص ٧٥ : يقول الادريسي : « أهل قفصة كانوا قوما متبربرين ، وأكثرهم

يتكلم اللسان اللاتيني الإفريقي »

(٤) Marçais, la Berberie p° 71

(٥) Ibid. p. 73

كانوا يشترطون فيمن يتولى هذه المناصب الحساسة أن يعتنق الاسلام، فابن عذارى يذكر أن ابراهيم بن أحمد عرض ديوان الخراج على سودة النصراني على أن يسلم، « فقال : ما كنت لأدع ديني على رئاسة أئامها ، فقطع بنصفين وصلب » (١) .

هـ - الفتيان والعبيد : كان الأمير ابراهيم بن الـغلب أول من اتخذ العبيد حرساً له ، فاستكثر منهم ، وجعلهم على خدمته وحراسته في مدينة القصر القديم . وكان هؤلاء العبيد إذا تقادم بهم العهد في خدمة الأمير ، يطلق عليهم اسم موالى أو فتیان (٢) . وكثيراً ما كان العبيد من النوع الأسود ، إذ كان الأمراء يشترونهم من الصحراء أو من بلاد السودان ، وكانت بلاد الجريد في عصر الأغالبة مركزاً هاماً لهذه التجارة . وكان الأمراء يعلمونهم فنون القتال ليصبحوا جنداً . وقد حل هؤلاء العبيد تدريجياً محل جند العرب، ووكّل اليهم الأمراء بمهمة حراستهم والذود عنهم. كذلك اتخذ الأمراء عبيداً من الجنس الأبيض وهم المعروفون باسم الصقالبة وكانت غزوات المسلمين في صقلية وسردانية وقلورية ومالطة سبباً في حمل أعداد كبيرة من أطفال هذه البلاد، إلى إفريقية ، حيث ينشأون نشأة عسكرية ، ويتعلمون العربية، ثم تسند إليهم مناصب هامة في الدولة (٣) .

ولقد لعب الفتيان والعبيد دوراً هاماً في دولة الأغالبة ، وسجلت أسماء بعضهم على العملات باعتبار أن القائمين بالإشراف على دار السكة منهم ،

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٢

(٢) Marcais, l'Architecture musulmane d'Occident, P. 6

(٣) أحمد مختار المبادئ ، الصقالبة في اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية، مدريد ١٩٥٣

Marcais, l'Architecture musulmane d'Occident, p. 6

فهم موضع ثقة الامراء في هذه الوظائف الخطيرة. كذلك سجلت اسماء بعضهم في النقوش التاريخية على بعض المنشآت التي تمت على أيديهم ، ومن هذه الاسماء المسجلة : اسم مسرور الخادم مولى الامير زيادة الله بن ابراهيم ، ونراه منقوشا على لوحة من الرخام تعلو باب المئذنة برباط سوسة الذي أسس في سنة ٢٠٦ هـ ، واسم خلف الفتي اسم يطلق على برج من أبراج سور سوسة ، ويقع في الزاوية الجنوبية الغربية من السور . ونقرأ اسم نصر وفتح الله على قبة المحراب بجامع الزيتونة في نقش نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمله المستعين بالله أمير المؤمنين العباسي طلب ثواب الله ، وابتغاء مرضاته ، على يدى نصر مولاه سنة خمسين ومائتين - يا أيها اللذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله - صنه فتح الله » (١).

(١) Marçais, idid. . يتنص في قراءة الاستاذ مارسيه المقطع الثانى من اسم الصانع

(٥)

منشآت الأغالبة في إفريقية

١ - العمارة الدينية :

١ - المسجد الجامع بالقیروان

تاریخ المسجد : هو أقدم مساجد المغرب الإسلامي ، والمصدر للمعماري الأول الذي اقتبست منه العمارة المغربية الاندلسية عناصرها ، ومنه انبثقت الافكار المعمارية والزخرفية وتطورت في العصور المختلفة . اختطه عقبة بن نافع في سنة ٥٥٠ هـ ، ولكنه لم يحدث فيه بناء إلى أن ركز لواءه في القبلة ، وأصبحت قبلته جامع القيروان منذ ذلك التاريخ موضع إجلال الناس وتعظيمهم ، فلم يتعوض لها أحد من الأمراء بسوء ، في الزيادات المتتالية التي أجريت في الجامع عامة ، وفي بيت الصلاة بصفته خاصة . ولم يتغير وضع القبلة ، ولم يهدم جدار المحراب على الرغم من انحراف هذه القبلة عن الاتجاه الصحيح ، وذلك لأنها ركزت على يدى عقبة التابعي الجليل . وكان جامع عقبة فيما يظهر بناء بسيطاً صغير المساحة ، وكانت أسقفه على الأرجح تقوم مباشرة على الأعمدة دون أن تحملها عقود على نحو ما كانت عليه أسقف جامع الكوفة ، لذلك لم يكد يمضى على بنائه عشرون عاماً حتى هدمه حسان بن النعمان الغساني في حدود سنة ٨٤ هـ حاشا المحراب ، ونصب في محرابه ساريتين موشاتين بصفرة كانتا في كنيسة (١) ، ثم شيد حسان على موضعه مسجداً جديداً فيما بين عامي ٧٩ - ٨٤ هـ (٦٩٤ - ٦٩٨ م) ، احتفظ فيه بمحراب عقبة . وتم بناء مسجد حسان من الجهة الشمالية المقابلة

(١) البكري ، ص ٢٢٠ ولطفي بن الأبار أنه بناء بالطوب .

للمحراب تجنباً لتغيير جدار القبلة . ويعتقد الاستاذ الدكتور أحمد فكرى فى كتابه الذى صنفه عن المسجد الجامع بالقىروان أن حسان قد زاد فى عدد أروقة الجامع ، وأن بيت الصلاة الجديد كان يشتمل على أربعة أساكيب ، ولم يكن للمسجد فى ذلك الوقت مجنبات تظل على الصحن ؛ وتدور حوله ^(١) .

وفى عام ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) ضاق الجامع بالمصلين ، فأمر الخليفة هشام ابن عبد الملك بشر بن صفوان ، عامله على القىروان ، (١٠٣-١٠٩ هـ) بزيادة المسجد ، فاشترى بشر أرضاً محيطة بالجامع من شماله وضمها اليه ، وبني فى الصحن ما جلا ، وأضاف إلى بيت الصلاة ثلاثة أساكيب أخرى مد بها طول بلاطاته ، ويمكننا أن نشاهد حدود هذه الزيادة اليوم فى صف العقود التى تمتد بعرض بيت الصلاة فى خط مستقيم ، عند نهاية الاسكوب السابع ، ابتداء من القبلة ، مما يدل على أن بيت الصلاة كان ينتهى عند هذا الحد . ثم بنى بشر مئذنة للمسجد فى منتصف جداره الشمالى داخل الصحن ، على بئر كانت تعرف ببئر الجنان ، ونصب أساسها على الماء ^(٢) . ويذكر ابن عذارى أن يزيد بن حاتم جدد بناء المسجد الجامع بالقىروان عام ١٥٧ هـ ^(٣) ، ولكننا نعتقد أن أعمال يزيد لم تكن تزيد على إصلاح وتجديد بعض زخارف الجامع . وظل المسجد على حاله بعد زيادة بشر بن صفوان إلى أن تولى زيادة الله ابن ابراهيم إمارة إفريقية ، فبدأ بهدم أجزاء كثيرة من المسجد سنة ٢٢١ هـ ،

(١) أحمد فكرى ، المسجد الجامع بالقىروان ، القاهرة ١٩٢٦ م ص ٢٣

(٢) البكرى ، ص ٤٣ - فكرى ، ص ١٣

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٥

دون أن يغير كثيرا من نظامه أو يبدل من حدوده (١). ويذكر البكري أن زيادة الله أراد هدم المحراب ، فقبل له : إن من تقدمك توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع ومن كان معه ، فالح في هدمه لئلا يكون في الجامع أثر لغيره ، حتى قال له بعض البناة : أنا أدخلت بين حائطين ، ولا يظهر في الجامع أثر لغيرك ، فاستصوب ذلك وفعله ، ولم يمسه بسوء ، وبني المحراب الجديد بالرخام الأبيض (٢). فمحراب عقبة ما يزال يرى اليوم من خلال هذه الكسوة الرخامية المخزومة (٣). ويعتقد الاستاذ الدكتور أحمد فكري أن بيت الصلاة في عهد بشر بن صفوان كان يتألف من ١٨ بلاطا ، فهدم زيادة الله الرواقين التاسع والعاشر ، وأقام منهما بلاطا واحداً فسيحاً ، فأصبح للمسجد ١٧ بلاطا ، الا وسط منها أكثر ارتفاعاً واتساعاً من بقية البلاطات الأخرى (٤). وعلى هذا النحو يمكن تفسير هدم زيادة الله للجامع كله بأنه هدم أسقف الجامع وأقامها من جديد بعد أن رفعها عما كانت عليه ، وبني قبة على أسطوان المحراب ، زخارفها على نمط زخارف اللوحات الرخامية التي كسا بها المحراب الجديد . أما أسوار الجامع ومحرابه وأعمدته ، فظلت كما كانت عليه أيام بشر بن صفوان (٥). ويبدو أن زيادة الله أنفق على هذه الأعمال المعمارية أموالاً طائلة (١٨٠ ألف مثقال) (٦)،

(١) فكري ، ص ١٣ ، ٢٤

(٢) البكري ، ص ٢٣. وذكر ابن الأبار أنه « بني جامع القيروان بالصخر والآجر والرخام بعد أن هدمه ، وبني المحراب كله بالرخام من أسفل إلى أعلاه وهو منقوش بكتاب وغير كتاب ، ويستدير به سوار حسان ، بعضها مجزعة بأسود ناصعة البياض شديدة السواد ، ويقابل المحراب عمودان أحمران ٥٠٠ » الحلة السيرة ص ١٦٣

(٣) فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، الاسكندرية ١٩٦١ ص ٢٠٥ .

(٤) في المرجع ص ٢٠٨

(٥) فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ٢٤ - ٢٦

(٦) البكري ، ص ٢٤

وانه زود الجامع بصورته الاخيرة التي نراها في يومنا هذا ، وهي صورة لم تتغير كثيرا من بعده : فهو الذي وضع للبلاطات نظامها الفريد الذي يشف عن أصالة وابتكار . ويذكر ابن عذارى أنه كان يقول « ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات: بنياني المسجد الجامع بالقيروان » وبنياني قنطرة أبي الربيع ، وبنياني حصن مدينة سوسة ، وتوليقي أحمد بن أبي محرز قاضي إفريقية » (١) .

وفي عام ٢٤٨ هـ (٨٦٢ م) تمت زيادة أبي ابراهيم أحمد بن محمد في جامع القيروان (٢) ، ولا ندري ما المقصود بهذه الاعمال ، وأغلب الظن أنها تنمة لأعمال البناء التي شرع فيها زيادة الله (٣) ، وإن كان الأستاذ كريستوبل يؤكد أنه هو الذي زين جدار المحراب بالقراميد الخزفية واللوحات الرخامية والمنبر (٤) . ولما تولى ابراهيم بن أحمد الامارة ، زاد في طول الجامع في سنة ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) ، وبني القبة المعروفة بباب البهو على مدخل البلاط الاوسط ، وكذلك اقام ابراهيم بن أحمد المجبات التي تدور حول الصحن (٥) .

ظل المسجد على هذه الصورة دون أي تغيير جوهري حتى أضاف إليه

(١) ابن عذارى ، ص ١٣٨

(٢) ابن عذارى ، ص ١٤٨

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المسجد الجامع بالقيروان ، كتاب الشعب رقم ٧٨ ، ج ٢ من كتاب مساجد ومآهد ، ١٩٦٠

(٤) Creswell, a short account of early Muslim architecture, London, 1958, p. 298

(٥) البكري ، ص ٢٤

بنوزيري واجهات الصحن ، وقد سجل تاريخ هذه الاضافات على أحد أعمدة المئذنة الغربية ، إذ نقشت عليه كتابة بالخط الكوفي نصها : « هذا ما أمر بعمله خلف الله بن غازي الأشيري في رمضان من عام اثنين وأربعمائة » (١). كذلك أقام المعز بن باديس المقصورة الخشبية التي ماتزال منصوبة حتى اليوم بجوار المحراب ، في سنة ٤٤٩ هـ . ويرى الأستاذ مارسيه أن المسجد زود بأسقف خشبية ، وجدت زخارف أسقفه القديمة في عهد المعز بن باديس (٢) .

تخطيط الجامع : وجامع القيروان من أكبر المساجد الجامعة الباقية في الاسلام ، وأعظمها مظهرا ، إذ يبلغ طوله ١٢٦ مترا ، وعرضه ٧٧ مترا ، وطول بيت الصلاة فيه ٧٠ مترا ، وعرضه ٣٧ر٧٠ مترا ، وصحنه واسع فسيح طوله ٩٧ مترا وعرضه ٥٦ مترا ، ولهذا الصحن مئذنت عرض كل منها نحو ستة أمتار وربع متر ، وتنقسم المئذنة إلى رواقين . ويشتمل بيت الصلاة على ١٧ بلاطا عموديا على جدار القبلة ، تمتد على عشرة أساكيب أو بلاطات عرضية (٣) . وبلاط المحراب وأسكوبه أوسع من بقية البلاطات والأساكيب ، ولا تعترضهما أية عقود ، فهما يؤلفان مجازين متعامدين . ونلاحظ أن تخطيط جامع القيروان يتميز بظاهرة جديدة ، فعلى بلاط المحراب أو البلاط الاوسط قبتان : الاولى عند تقاطعه مع أسكوب المحراب أمام القبلة ، والثانية على مدخل البلاط الاوسط مما يلي الصحن . وتعرف القبة الاولى

(١) فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٥

(٢) Marçais, Coupoles et plafonds de la grande mosquée de Kairouan Tunis, 1926 p. 35

(٣) فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٦

بقبة المحراب ، والثانية بقبة باب البهو . وقد أثر هذا النظام الذي ابتدعه مهندسو زيادة الله على أنظمة المساجد التونسية الأخرى ، فنراه في جامع الزيتونة ، ونراه في مساجد أخرى ، كما قلده مهندسو الحكم المستنصر عند زيادتهم في المسجد الجامع بقرطبة (١) .

وتمتد في بيت الصلاة صفوف منتظمة من العقود ، تحملها أعمدة قديمة اتخذت من الكنائس المهدمة ، وأعيد استخدامها بالجامع ، ونظرا لقصر هذه الأعمدة ، وتفاوتها في الارتفاع ، توصل المهندسون المسلمون بوسيلتين لزيادة ارتفاع سقف المسجد ، وتسوية ارتفاع الأعمدة ، فاستعانوا بمكعبات حجرية مستطيلة أو مربعة ، محاطة من أعلى بطنوف ، ومن أدنى بقرم ، على النحو الشائع في العمارة البيزنطية ، ثم رفعوا فوق هذه الحدائر عقودا متجاوزة تشبه حدوة الفرس (٢) . وعقود مجنبات الصحن تقوم على

(١) Lambert, l'Architecture musulmane du xe siècle à cordoue et à Tolède, Gazette des Beaux Arts, t. XII, 1952 p.p. 141 - 161 - Lambert, les coupoles des grandes mosquées de Tunisie et de l'Espagne au IX e et Xe siècles, t. XXII, fasc. 2, 1936 - Lambert, les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al - Andalus, vol. XIV, fasc. 2. 1949 p. 281 - Lambert, La grande mosquée de Cordoue et l'art byzantin. dans Actes du VI congrès d' Etudes byzantines. 1948 - 1952. p.p. 331. 332

السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور بالاندلس ، سلسلة اقرأ ، عدد ١٩٠ ،

١ أكتوبر ١٩٥٨ ص ٣٤ - ٣٦

(٢) فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ص ١٦٨ - ١٧٠

Marçais, l'Architecture, p. 18

أعمدة مزدوجة يلتصق كل زوج منها بر كيزة ضخمة، وهذه الركائز تكسب البناء قوة وثباتا (١) .

ومحراب الجامع جوفة في جدار القبلة يرجع تاريخها إلى أيام عقبة بن نافع ، وقد ذكرنا أن هذه الجوفة تختفي وراء لوحات مخرومة من الرخام الأبيض . ويرى الأستاذ مارسيه أن وجود هذه الجوفة أمر طبيعي لأن هذه اللوحات الرخامية تتطلب أن يكون خلفها فراغ معتم حتى تتضح نقوشها وتظهر جليلة ، وأن هذا الاحتيال البسيط أدى إلى اختلاق المؤرخين لاسطورة محراب عقبة (٢) ، ويؤيده الأستاذ كريسويل في هذا الزعم ، فهو يستنكر أن تكون تلك الجوفة التي تشاهد من خلال خروم المحراب الجديد هي محراب عقبة بن نافع القديم ، ويقول إن هذه الخروم التي تبطن لوحات المحراب ، وتملؤها ، قصود منها أن تكون ستارة قائمة لتوضح الزخرفة الرخامية المفرغة في لوحات الرخام ، ولا يعتقد الأستاذ كريسويل أن جامع عقبة كان به محراب مجوف ، فالمحاريب المجوفة في رأيه لم تظهر في الإسلام حتى زمن الوليد (٣) . وقد اعترض الأستاذ الدكتور أحمد فكرى على هذه الآراء ، وفندها جميعا ، وأدلى برأيه في ذلك واضحا لا لبس فيه ولا غموض ، معززا بالأدلة القوية والحجج والبراهين المقنعة ، وأثبت أن هذه الجوفة التي تظهر من خلال لوحات الرخام هي محراب عقبة القديم ، ونحن

(١) المرجع السابق ص ٨١

(2) Marçais, Manuel d'art musulmane, t.I, paris 1926. p. 22
L'architecture musulmane d'Occident, p. 11

(3) Creswell, a short account of early muslim architecture p.279

نؤيد هذا الرأي ونأخذ به للأسباب التي ذكرها الأستاذ الدكتور أحمد فكري^(١).

ويدعم جدران المسجد الشرقية والغربية من الخارج ركائز ضخمة تلتصق بالجدران ، وظيفتها ليس كما قد يتبادر إلى الذهن دعم البناء ، وتحمل الضغط الذي تمارسه عقود بيت الصلاة ، لأن هذه الركائز أقيمت في مواضع بعيدة عن نقط امتداد العقود ومراكز اندفاعها ، وإنما الغرض منها أن تدمش في مظهرها مع الدعائم البارزة التي تكتنف أبواب المسجد ، فتضفي عليه جمالا ، لأن هذه الدعائم لو تركت بمفردها لظهرت كأنها زيادات منفرة نشوه المظهر الجمالي للمسجد من الخارج^(٢).

أما المئذنة فتتوسط الجدار الشمالي للجامع ، وتتكون من ثلاثة طوابق ، تعلوها قبة مفصصة ، والطابق الأدنى مربع القاعدة ، تنحدر جدرانه إلى الداخل انحدارا طفيفا ، فيقل عرضها كلما ارتفعت مما يكسب المئذنة قوة وارتكازا وثباتا . وبنيت قاعدة هذا الطابق حتى ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف المتر بقطع حجرية ضخمة مصقولة ، أما بقية الطابق ، فمن كتل حجرية مستطيلة الشكل تشبه قوالب الآجر . ويعلو هذا الطابق طابق آخر مربع ولكنه أصغر كثيرا من الطابق الأدنى ، ويتراجع الطابق الثالث عن الطابق الثاني ، وتزدان جدران الطابق الثاني بطاقات ثلاث مسدودة ، ومعقودة في كل وجه من أوجهه ، في حين يزدان كل وجه من أوجه الطابق الأعلى بنافذة تكتنفها طاقتان مسدودتان . ويعلو الجدار الأعلى من كل طابق

(١) فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

شرفات على هيئة عقود متصلة ومفرغة في وسطها . ويدور بداخل المئذنة درج ضيق ، سقفه على هيئة قبوات نصف اسطوانية ، وتتخلل جدران المئذنة فتحات تبدو ضيقة من الخارج ، ولكنها تتسع كلما نفدت في الجدران ، وظيفتها إنارة الدرج ، وتعلو هذه الفتحات من خارج المئذنة عقود مخففة للضغط تشبه حدوة الفرس (١) . وينسب الدكتور فكرى هذه المئذنة إلى بشر بن صفوان الذى قام ببنائها في سنة ١٠٥ هـ بأمر الخليفة هشام بن عبد الملك وقد اتخذت هذه المئذنة أنموذجا للمآذن الاسلامية في المغرب والأندلس ، مثل مئذنة جامع سفاقس ، ومآذن جوامع وتلمسان وأغادير والرباط والقرويين بفاس ، وقرطبة وإشبيلية ومراكش والرباط ، كما قلدت في المآذن المصرية (٢) ، مثل مئذنة مسجد الجيوشى وضريحه ، ومئذنة مسجد دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء من العصر الفاطمى (٣) .

قباب الجامع : وننتقل إلى قباب الجامع ، وأولها قبلة المحراب التى أقامها زيادة الله عند تقاطع البلاط الاوسط مع أسكوب المحراب المحاذى لجدار القبلة ، وهى قبلة أودعها البناء كل روائع الفن المغربى من زخارف ونقوش ، وهى أقدم قبة فى بلاد المغرب كلها ، وعلى مثالها أقيمت قباب المحراب بمساجد المغرب والأندلس . والقبة الثانية هى قبة باب البهو التى أقامها ابراهيم بن أحمد فى سنة ٢٦١ هـ على مدخل البلاط الاوسط من جهة الصحن ، وأتم بها تنويع بلاط المحراب من جهتيه القبلىة والجوفية ، واستكمل

(١) المرجع السابق ، ص ١١٠ - السيد عبد العزيز سالم ، المسجد الجامع بالقيروان ص ١٧٣

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها ، بولاق سنة ١٩٥٩

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، الآثار الاسلامية فى دير سانت كاترين بطور سيناء ، مجلة العلوم ، العدد الأول من السنة العاشرة ، يناير ١٩٦٥ ص ٦

بيت الصلاة بهذه القبة تناسقه واتزانه ، واصبح بناء قبتين على البلاط الأوسط بيت الصلاة منذ ذلك الحين قاعدة عامة اتبعتها مساجد المغرب والأندلس (١) .

ثم أقام الخليفة أبو حفص سنة ٩٩٣ هـ قبتين تعلوان مدخلى بيت الصلاة شرقا وغربا ، وهناك قبتان أخرتان : إحداهما تعلو المئذنة ، والثانية تتوج المدخل الأوسط بالمحنية الغربية ، ويذكر الأستاذ الدكتور فكرى أنه بالرغم من اختلاف مظهر هذه القباب ، فإنها تشابه جميعا فى البنيان ، وتتشعب من فكرة واحدة ، فكرة خمسية ، متزنة وأصيلة (٢) .

وتتكون قباب جامع القيروان من ثلاثة أجزاء : القاعدة المربعة ، والعنق الأوسط الدائرى ، والخوذة الكروية المضلعة . وعناصر البناء فى قباب الجامع تتكون من عقود وأقواس وضلوع وأعمدة ، وتتصل هذه العناصر بعضها ببعض ، وتترك فراغا بينها بزدان بقواقع زخرفية ، ومقرنصات ، وعيون ، وطاقات ، ودوائر ، ونوافذ ، وقنوات (٣) . ويعتقد الأستاذ الدكتور أحمد فكرى أن قبة المحراب أقامها زيادة الله على مثال قبة كانت قائمة بالمسجد قبل زيادة الله ، ثم جاءت قبة زيادة الله بالمحراب تطورا لها ، ويرجح

(١) Lambert, les mosquées de type andalou, p. 282

(٢) فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ص ٨٩

(٣) ارجع الى وصف هذه القباب فى المراجع التالية :

Marçais, Coupoles et plafonds, p. 9 et s. 99

فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ٩٠ — ٩٨ .

Creswell, a short account, p. 298, 299

عبد العزيز سالم ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٧٤ و ١٧٥ .

أن تكون هذه القبة القديمة هي قبة المدخل الغربي إلى الصحن . وقد عزز رأيه بأدلة مقنعة توصل إليها من عمارة القبتين ^(١) .

وقد انتشر نظام قباب القيروان في المغرب والأندلس، واتخذ أنموذجا لقباب جامع الزيتونة بتونس الذي يشتمل بيت الصلاة فيه على قبتين تعلوان بلاط المحراب، كما هو الشأن في جامع القيروان، إحداهما قبة المحراب، والأخرى قبة باب البهو. وعناصر قبة المحراب بجامع الزيتونة مماثلة لعناصر قبة المحراب بجامع القيروان، كما أن عدد العقود والأعمدة والضلوع متساو في كل من القبتين. ولكننا نشهد في قبة المحراب بجامع الزيتونة تطورا للعناصر الجديدة التي ظهرت لأول مرة في جامع القيروان، وهي الضلوع البارزة والمقرنصات، كما نلاحظ فيها تفوقا في البناء، وتقدما في الزخرفة. وقبة الزيتونة تعرض فكرة استقلال الضلوع البارزة عن الخوذة المفصصة في وضوح تام، كما أنها تبشر بظهور القباب ذات الضلوع المتقاطعة التي ظهرت في جامع قرطبة بعد ذلك بما يقرب من قرن من الزمان ^(٢). ويرى الأستاذ الدكتور فكري أن فكرة تصميم قباب قرطبة تتفق مع قبة مسجد القيروان، واتفاق هذه الفكرة في رأيه يرجع إلى وحدة تفكير

(١) فكري، المرجع السابق، ص ٩٦

(٢) Lambert, les coupoles des grandes mosquées de Tunisie et d'Espagne - les origines de la Croisée d'ogives, offices des Instituts d'Archéologie et d'histoire d'art, No 8 - 9. Nov. 1936 - Mars 1937, pp. 131 - 146. - Ahmad Fikry, la mosquée az-Zaytoûna à Tunis, (Recherches archéologiques) dans : Egyptian Society of historical Studies, vol. II. le Caire 1952, pp. 27-64.

رجال الفن المسلمين ، وارتباطهم بعوامل واحدة ، وتمثل عناصر هذه الفكرة متجذرة في قبة المحراب بجامع قرطبة ، وإن كانت تطورت كثيرا ، فتمددت الخطوط الهندسية ، وزاد تجزئ الفضاء ، واتخذت العقود والاقواس والضلوع والأعمدة رسما أكثر وضوحا ، أما المقرنصات ، فبدأت في مظهر زخرفي بحت (١) . وقد انتقل نظام التقريب القائم على تقاطع الضلوع من قرطبة إلى طليطلة ، فتراها ممثلا في صور مختلفة بمسجد باب مردوم ، ومن قبابه ما يبدو رباعيا منحرفا ذا أقطار ، كأنه قبوتان من الطراز القوطي ، إحداهما داخل الأخرى ، ومنها ما يبدو مشمنا ، ومنها ما يقلد تقاطع ضلوع قبة المحراب بقرطبة ، ثم انتشر هذا النوع من القباب منذ ذلك الحين انتشارا واسعا يشهد به ذلك العدد الهائل من القباب والقبوات التي نراها في الكنائس المسيحية بطليطلة (٢) ، والمزار بقشتالة ، وتوريس دل ريو ، ودير موساك ، وأولورون ، وسان بليز . ومن هذه القبوات الأخيرة استلهم الفنانون والفرنسيون فكرة قبواتهم القوطية المصلبة (٣) .

(١) فكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٠٤

(٢) Lambert, les coupôles des grandes mosquées de Tunisie et d'Espagne-L'art de l'Islam occidental, dans Annales de l'Université de Paris, 1953, P. 8 - Gomez-Moreno, Ars Hispaniae, t. III. Madrid 1951

السيد عبد العزيز سالم ، أثر الفن الخلاق بقرطبة في العمارة المسيحية بإسبانيا وفرنسا
المجلة ، العدد ١٤ ، القاهرة ١٩٥٨ - المساجد والقصور بالأندلس ص ٥٠ ، ٥٣ - تاريخ
المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٤٠٤

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، أثر الفن الخلاق بقرطبة ، ص ٨٨

Lambert; Les Origines de la croisée d'ogives, pp. 131-146.

زخارف الجامع : يغلب طابع البساطة على بناء الجامع بوجه عام ، ويتجلى ذلك في عقود الملاء بجدرانها ، وقرمها ، وطنفها ، وتيجانها ، ولكن هذه الصورة البسيطة ما لبثت أن دخلتها بعض الحليات ، فعلا العقود صف من عقود زخرفية صغيرة في صورة رواق مصغر أو باثكة متصلة العقود ، أو أحاط بالعقد إفريز مستطيل نقشته فيه مربعات موضوعة على رأسها كعقد باب الميضأة ، ثم تطور المظهر الزخرفي بمرور الزمن ، وازدادت بعض عناصر الجامع بزخارف في غاية الأناقة والجمال ، كزخارف المحراب وقبته وبلاطه (١) .

وتكسو جوفة المحراب غلالة رقيقة من الرخام نقشته فيها زخارف نباتية مخرمة يتسرب الضوء من بين خرومها . وتصطف هذه اللوحات الرخامية صفوفاً أربعة في كل صف سبع حشوات ، عرض كل منها ١٤ سم ، ويزدان الشريط الأعلى في الأعلى الذي يفصل الصف العلوي من الحشوات عن السفلي بكتابة كوفية منقوشة في الرخام تقرأ فيها : [بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد . الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم] (٢) . وتزدان الحشوات الرخامية بزخرفة نباتية تقوم على التوريقات ، وهندسية تكثر فيها المربعات والدوائر والخطوط المتقاطعة ، وقوام هذه الزخارف ورقة العنب في صور مختلفة ، فهي مقصوصة أو ملفوفة ، أو ممتدة ، أو منكشة ، وكثيراً ما يتفرع من السيقان الملففة أوراق وأزهار تملأ الفراغ أو تتفرع هذه الأوراق النباتية من ساق

(١) فسرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٢٤-١٢٦

(٢) عبد العزيز سالم ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٧٧

متوسطة منحنية في تموجات (١) . وبعض هذه الحشوات الرخامية يزدان بزخرفة في صورة قواقع ، ولكن العدد الأكبر منها يشغله فرعان منحنيان متناسقان يتشابكان أحيانا على امتداد المحور ، وتبرز وسط هذا التشابك زهرة . وبجانب هذه الحشوات تبدو الشبكات الزخرفية التي تغطي نوافذ القبة ، وتشكون زخارفها عامة من ساق متوسطة تشبه شجرة الحياة الفارسية ، أو من فروع متموجة تتدلى منها أغصان بها أوراق العنب وعناقيد ، وتشبه هذه الزخارف نظائرها بواجهة مسجد الأوباب الثلاثة الذي أقامه محمد بن خيرون الماعري الأندلسي بالقيروان في سنة ٨٢٥٢ . ويكسو الجدران التي تعلو البلاط الأوسط بجامع القيروان زخرفة هندسية ونباتية تمتد إلى بنيةقات العقود ، وتعد من أزوع أمثلة الزخرفة في عصر الأغالبة .

ومنبر جامع القيروان من أجمل وأبدع أمثلة الحفر في الخشب في بلاد المغرب ، وينسب هذا المنبر إلى أبي إبراهيم أحمد سنة ٤٢٤٨ هـ ، وزخارفه هندسية تقوم على الدوائر والخطوط ، ونباتية تتمثل في أوراق العنب . وبالجامع مقصورة خشبية ، صنعت في سنة ٤٣١ هـ ، في عهد المعز بن باديس ، وأبوابها غنية بالزخرفة والكتابة (٢) .

٢ - جامع الزيتونة بتونس :

يعتبر هذا الجامع من أهم مساجد إفريقية لقدم عهده ، واجتفاظه بعناصره المهارية والزخرفية الأولى منذ نشأته ، ثم لشهرته كجامعة علمية قديمة

(١) Marçais l'Architecture, p. 50, 51 - فكري ، المرجع السابق ص ١٣٦ -

(٢) عبد العزيز با لم ، المرجع السابق ، ص ١٧٨

ما زالت تدرس فيها علوم اللغة والتاريخ والفقه ، وتاريخ هذا الجامع يكتنفه الغموض ، فقد أغفل المؤرخون وصفه ، يضاف إلى ذلك أنه كان مغلقا في وجه الأجنب من غير المسلمين ، فلم تقم حوله أى دراسة أثرية علمية ، وظل هذا الجامع مع أهميته مجهولا لدى مؤرخي الفن ، لا يذكره إلا إشارات تتعلق بوصف جدرانه الخارجية والأسواق المحيطة به حتى قام أستاذي الكبير الدكتور أحمد فكري بدراسة هذا الأثر الجليل علينا بين عامي ١٩٣٢ - ١٩٤٨ ، ونشر أول أبحاثه عنه في سنة ١٩٥٢ (١) . وقد ضمنه المؤلف آراء ونظريات على جانب كبير من الأهمية أوضحت ما خفي من هذا الفن في عصر الأغالبة .

وجامع الزيتونة من بناء عبيد الله بن الحبحاب ، أسسه في عام ١١٤ هـ ، ويذكر النويري أن أبا إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب أمر ببناء المسجد الجامع بتونس ، وأنه شرع في البناء في سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٣ م) ، وتوفي الأمير بعد ذلك بسنة واحدة دون أن يتم ما شرع فيه من بناء ، فآتمه أخوه زيادة الله الثاني الذي تولى الإمارة من بعده ، ولم يطل العهد بزيادة الله ، فمات بعد عام واحد وسبعة أيام من توليه الإمارة في ذي القعدة سنة ٢٥٠ هـ ، ولعل ذلك هو السبب في أن اسمي هذين الأميرين لم يسجلا في النقوش التذكارية بهذا المسجد (٢) . ويؤكد الأستاذ الدكتور فكري أن أعمال أبي إبراهيم

(١) Fikry, la mosquée az-Zaytoûna à Tunis . وقد اعتمدت في

هذا المقال على هذا البحث ، وعلى المقال الذي نشرته في كتاب مساجد وماهده ، ج ٢

ص ١٦٤ - ١٦٨

(٢) Fikry la mosquée Az-Zaytoûna à Tunis p. 29

أحمد وأخيه زيادة الله تمت داخل نطاق جدران المسجد القديم الذي ظل يحتفظ منذ إنشائه سنة ١١٤ هـ بمحدوده الخارجية ، واقتصرت هذه الاعمال الإنشائية على زيادة ثلاثة أساكيب في بيت الصلاة ، وإقامة قبة أمام المحراب (١) .

وتضمنت المراجع التاريخية خلال القرون الاربعة التالية عن ذكر شيء عن هذا المسجد ، ثم تعود فتروى ما ظراً على الجامع من إصلاحات ، فيذكر الزركشى أنه شرع في إصلاح جامع الزيتونة وتحسينه وزخرفته في عهد الواثق ، وتمت أعمال الإصلاح في ١٥ من شعبان سنة ٦٢٦ هـ . ويذكر المؤرخ نفسه أن السلطان يحيى زكريا أمر بصنع أبواب خشبية ووضع جوائز خشبية في عرض المسجد . ويعلق الدكتور فكري على ذلك بقوله: « إذا كانت هذه الإشارات الموجزة لا تكفي لدراسة تاريخ الجامع فإن الجامع نفسه أمدنا بنصوص تاريخية هامة للغاية ، فهو يحمل تاريخه مسجلاً واضحاً لا غموض فيه » ، ويذكر أيضاً أن هذا المسجد يمتاز عن غيره بأنه يحتفظ بنقوش تاريخية ، فقد أنشئ وجدد وأصلح وأضيف إليه وزخرف فيه في عصور مختلفة لو تركت لعلماء الآثار لتضاربت فيها أقوالهم ، ولكن ذلك كله ، بالإضافة إلى أسماء الصناع الذين تولوا عمله ، مسجل في نقوش هذا الجامع (٢) ، مثل ذلك أننا نقرأ تاريخ بنائه مسجلاً في قبة المحراب ، ونصه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، مما أمر بعمله الإمام المستعين أمير المؤمنين العباسي ، طلب ثواب الله وابتغاء مرضاته ، على يدي

(١) فكري مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٥٥

نصير مولاه سنة خمسين ومائتين . يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله . صنعته فتح الله) ، وبفضل هذه النقوش التي نراها أيضا في واجهة الصحن القديمة ، وفي قبة البهو ^(١) ، وعلى الباب الشرقي النافذ من صحن الجنائز ، عرف تاريخ المسجد .

والمسجد مربع في غير انتظام، يغطي مساحة من الأرض طولها ٧٦ مترا وعرضها ٦١ مترا ، ويبلغ طول جدار المحراب ٦١ مترا ، والجدار الشرقي ٦٥ مترا والغربي ٧٦ مترا ، والشمالى ٥٧ مترا ^(٢) . وبیت الصلاة في هذا المسجد يشتمل على سبعة أساكيب موازية لجدار القبلة، طول كل منها ١٤٠ مترا ، تخترقها ١٥ بلاطة ، طول الواحدة منها ٢٥ مترا تقريبا، ومتوسط عرض كل من الأساكيب والبلاطات فيما بين الأعمدة ثلاثة أمتار، عدا أسكوب المحراب، فعرضه ٣٠ مترا، وبلاط المحراب عرضه ٨٠ مترا ^(٣) . وعقود المسجد تتجه اتجاهاين في آن واحد : عمودية على جدار القبلة ، وموازية لهذا الجدار . والعقود لا ترتكز على جدران الجامع ، بل تظهر مستقلة عن هذه الجدران وترتكز على أعمدة . هذه العقود تشبه حدودة القوس ، ولا تختلف في شيء عن عقود جامع القيروان ، وتقوم على حدائر ، بأعلاها قرم وبأدناها .

(١) جد هذا النقش التاريخي مسجلا في قبة البهو، وقد سقطت من التاريخ الكلمة التي تبين العدد العشري ، وبقي رقم الآحاد ورقم المئات (احدى ٠٠٠ وثلثمائة) ، ولكن هذا النقش نفسه نراه مسجلا على تاج سارية من سوارى هذه القبة ونقرأ فيه [كان ابتداء العمل في المبنىات والداموس والقبة في شهر ربيع الاول من سنة ثمانين وثلثمائة وتم ختم ذلك من شهر جمادى الاولى سنة خمس وثمانين وثلثمائة]

(٢) فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها، ص ٢٥٨

(٣) Fikry, la Mosquée Az-zaytoûna, p. 31 مساجد القاهرة ومدارسها،

طنف من الحجارة ، وتزدان حدائر جامع الزيتونة "بزخارف نباتية" محفورة في كتلة الحجر ، في حين تركت عارية من الزخرفة في جامع القيروان . وتزدوج هذه الحدائر في أسكوب المحراب بجامع الزيتونة لدعم الأعمدة وتركيز الضغط على كتلة واحدة بدلا من تشتيته وبعثرته .

وأعمدة بيت الصلاة وتيجانها متنوعة، جلبت من آثار رومانية وبيزنطية ، وأعيد استعمالها في الجامع ، ومع ذلك فاننا نجد في جامع الزيتونة تيجانا إسلامية ترجع إلى القرن الحادى عشر الميلادى ، وتظهر في قبة هذا المسجد ملتصقة بالدعائم ، وتفتح فيها وريقات الاكنشس على أكثر من صف (١) .

وجدران الجامع مبنية جميعا بالحجر الجيرى المصقول ، ويبلغ ارتفاعها ما يقرب من تسعة أمتار ، وسمكها ١٠٢٠ مترا ، وليس بها من الخارج ركائز كما هو الحال في جامع القيروان . وصحن الجامع مربع غير منتظم الاضلاع ، تحيط به مجنبات من جهاته الأربع ، وترتفع في ركنه الشمالى الغربى مثدنة أقيمت في عام ٧١٢ هـ على أنقاض المثدنة القديمة .

ولمسجد الزيتونة قبتان : واحدة أمام المحراب ، والثانية على مدخل البلاط الأوسط مما يلى الصحن . وتتكىء قبة المحراب بجامع الزيتونة على ٣٢ عمودا كما هو الحال في قبة جامع القيروان ، وتتخلل هذه الأعمدة طاقات مفتوحة ومغلقة متعاقبة في المحيط الدائرى لعنق القبة . أما الطابق الأدنى ، وهو الذى يؤلف قاعدة القبة ، لمربع تقوم على أركانه مقرنصات أربعة معقودة ، في كل مقرنص منها عقدان متراجعان في هيئة قواقع ، تتشعب فصوص جوفاتها

من أركان القاعدة . وترتكز عقود المقرنصات على أعمدة ، ويتوسط أعلى كل جانب من جوانب القاعدة المربعة للقبة عقد آخر يضم قوقعة على شكل زهرة . وهذا التقسيم الداخلى إلى ثلاثة طوابق يتفق مع التقسيم الخارجى ، فالطابق الأدنى مربع طول ضلعه نحو $٦ \frac{1}{2}$ مترا ، وبكل من الوجهين الشمالى والجنوبى من هذا الطابق بقبة المحراب ثلاث طاقات . وتختلف عقود طاقات قبة الزيتونة عن عقود طاقات قبة القيروان فى أنها تتألف من أربعة صفوف مسنجة متراكبة فى تراجع . أما الطابق الثانى فشبه دائرى ، ويقابل الطاقات العشر بالداخل عشر دعائم موزعة بين النوافذ (١) .

أما قبة البهو التى أقيمت فى سنة ٣٨١ هـ ، فهى بحق أروع القباب التونسية جميعا ، لتناسق تخطيطها ، ودقة تفاصيلها المعمارية ، وتوافق نسبها ، واثراء زخارفها . وعناصر هذه القبة من الداخل كعنصر قبة المحراب ، ولكنها تبدو مستقلة واضحة . وقد سجل تاريخ بناء قبة المحراب تحت القبة ، كما سجل اسم صانعها فتح الله ، وقد أخطأ الأستاذ مارسيه فى إسمه ، ويبدو أنه نقل هذا النص التازيغى ناقصا ، فلم ينقل من اسم الصانع سوى مقطعه الأول فتح (٢) ، وظن أنه من الفتيان الصقالية وأنه ساهم فى بناء القبة . وقد اعترض الدكتور أحمد فكري على هذا الاعتقاد ، وأثبت بصورة لا تدع مجالا للشك وجود طائفة من كبار المهندسين والعرفاء المسلمين فى بلاد تونس منذ طليعة القرن التاسع الميلادى ، تخصصوا فى فن بناء القباب ، وبرعوا فيه وحذقوه (٣) .

(١) Fikry, Ibid. p. 46 - 52

(٢) Marçais, l'Architecture, p. 7

(٣) Fikry, op. cit. p. 56

ويتميز جامع الزيتونة بظهور عنصر زخرفي جليل يقوم على تناوب اللونين الأبيض والرمادي في كتل الحجارة التي تؤلف سنج العقود أو مداмик البناء داخل قبة المحراب . وقد ظهرت هذه الزخرفة أول ما ظهرت في قبة المحراب من الداخل ، ثم اتبعت في زخرفة عقود قبة البهو ، وفاضت في داخلها وخارجها ، وغمرت كل بنائها ، فغطت العقود ، وامتدت إلى الجدران نفسها ، والطرر التي تحيط بالعقود . وازدانت دغائم الطابق الثاني من القبة بمربعات ملونة قائمة على رؤوسها . وقد تحول اللون الرمادي خارج القبة إلى اللون الأحمر ، وهكذا اكتسبت هاتان القبتان مظهرا زخرفيا رائعا انفردتا به من بين قباب الإسلام جميعا (١) .

ومن المحتمل أن يكون مهندس جامع الزيتونة قد استلهم فكرة تناوب اللونين من عقود جامع قرطبة التي تتناوب فيها قطع الحجارة البيضاء مع قطع الآجر ، فيحدث من ذلك نوع من الزخرفة المعمارية البسيطة . وظهر هذا النوع من الزخرفة في بوابات الجامع على هيئة تربيعات شطرنجية . ولا نستبعد انتقال هذه الفكرة إلى جامع الزيتونة عام ٢٥٠ هـ ، وتطبيقها على الحجارة الملونة . فقد أخذ جامع قرطبة من القيروان كثيرا من عناصره ، مما يثبت وجود مجال للتأثيرات المتبادلة (٢) .

ويزدان صفا عقود بلاط المحراب من الداخل بثلاثة عناصر زخرفية مرتبة في محور رأسي واحد ، فهناك حشوة عليها زخرفة محفورة في الجص تشغل موضع التقاء منبى كل عقدين ، ابتداء من قرمة الحدارة حتى نقطة

(١) Fikry, op. cit. p. 58

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، جامع الزيتونة بتونس ، ص ١٦٢

انطلاق الشريط البارز المحيط بالعقد . وتعلو هذه الحشوة حشوة أخرى مربعة ، قائمة على رأسها ، وتشغل هذه الحشوة بضيقتي كل عقد . أما الطابق الأعلى فتشغله حشوة ثالثة مستطيلة الشكل ، أكبر من الحشوتين السابقتين محفورة في الجدار الذي يغلو العقد ، وتقع على محور الحشوتين السابقتين . وللأسف ضاع كثير من هذه الحشوات ، وحل محلها حشوات أخرى في القرن السابع عشر الميلادي . ومعظم ما تبقى من هذه الحشوات ، يقتصر على الحشوات العليا ، وتتكون زخارفها من تكوينات تذكرنا بزخارف الرخام بجوفة المحراب ، فهي تتألف من إطار مستطيل يضم جوفة على هيئة قوقعة ، يحيط بها عقد مزدوج متجاوز ، يقوم على كل من منبتيه على عمودين صغيرين توأمين ، والجزء الأدنى من الجوفة يزخر بزخارف كثيفة تتداخل فيها السيقان والتوريقات . وتتميز زخارف هذه الحشوات بأنها حفرت حفرا غائرا يظهر مسطحات الزخارف واضحة نتيجة للتباين الشديد بين الظلمة والضوء ، وقد شاهدنا بعض أمثلة لهذا النوع في قباب القيروان ، ولكنها في الزيتونة أكثر رقة ومرونة (١) .

وبجامع الزيتونة منبر يرجع تاريخه إلى عام ٢٥٠ هـ يشبه إلى حد كبير منبر جامع القيروان ، ولكنه أصغر منه حجما ولم يبق من حشواته التي كانت تؤلف كتفيه سوى ٢٢ حشوة مستطيلة الشكل في كل من الكتفين . ولا توجد من بين هذه الحشوات واحدة تماثل الأخرى في الزخرفة . وتزدان هذه الحشوات بزخارف هندسية ، محفورة حفرا غائرا مفرغا ، من مربعات ودوائر ومعينات ، وزخارف نباتية من زهرات متكررة ذات أربع ورقات

(١) Fikry, op. cit. p. 58

تخضع للأسلوب الهندسي ، فتتحول إلى زخرفة هندسية لا تذكرنا بأصلها
النباتي إلا عروق وقنوات تخترق خطوطها المنتظمة ، ويحيط بهذه الحشوات
طرز من زخارف نباتية قوامها سيقان تملؤها التوريبات (١) .

٣ - المسجد الجامع بسوسة:

اتخذ الأغلبة من سوسة ميناء لعاصمتهم القيروان ، يركبون منها السفن
للجهاد في صقلية ، ولذلك حظيت باهتمام أمرائهم ، فزودوها بأسوار قوية ،
وأقاموا بها الرباط المشهور ، ومسجدا يعرف بأبي فتاة ، فيما بين ٢٢٣ هـ ،
٢٢٦ هـ ، والمسجد الجامع بسوسة في سنة ٢٣٦ هـ .

أقيم جامع سوسة في عهد الأمير أبي العباس محمد بن الأغلب ، في
الطرف الشمالي الشرقي من المدينة ، قريبا من باب البحر (٢) ، وقد سجل
تاريخ بنائه على إفريز من الكتابة الكوفية الرائعة منقوشة على الحجر
حول الصحن ، ويتضمن النقش آيات قرآنية ، وتاريخ بناء المسجد ،
ولكن هذا الإفريز الحجري تهدم ما يقرب من نصفه في سنة ١٩٤٤ . وقد
سأه الأستاذ الدكتور أحمد فكري في إعادة تركيبه على حالته الأولى ،
إلا أن الجزء الذي كان يمتد منه على واجهة بيت الصلاة ، فقد بعض
حروفه وكلماته ، ولذلك فإن النص التاريخي لهذا المسجد غير كامل ، ونقرأ
فيه [مما أمر به ... محمد الأ ... ست وثلاثون ومائتين في المسجد ...] (٣) .

(١) Ibid., pp. 60 - 63

(٢) Creswell, a short account, p. 269

(٣) فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٠ .

وعلى الرغم من الزيادات التي أضيفت إلى المسجد في العصور التالية مثل
المحنية التي أضيفت لصق واجهة بيت الصلاة سنة ١٠٨٦ هـ (١) ، وما طرأ
على جدار القبلة الأغلبي من تغييرات نتيجة لاضافة ثلاثة أساكيب قبلية ،
فانه يمكننا بوضوح تحديد المسجد بصورته التي بنى عليها ، وحدوده
القديمة ، ولا يهمنا بطبيعة الحال من بناء جامع سوسة إلا هذا الجزء القديم
الذي بنى في عصر الأغالبة .

كان هذا المسجد على شكل مستطيل طوله ٥٢ مترا ، وعرضه ٤٤ مترا ،
وكانت مساحة الصحن فيه تبلغ ٤١ × ٢٧ مترا مربعا ، وطول بيت الصلاة
٤٩ مترا ، وعرضه نحو عشرة أمتار . وينفتح بيت الصلاة على الصحن بواجهة
من ١١ عقدا ، ويشتمل هذا البيت على ١٣ بلاطة ممتدة على ثلاثة أساكيب
يفصلها فيما بينها دعائم ضخمة مصلبة الشكل عددها في كل أسكوب ١٢ دعامة ،
وتحمل هذه الدعائم عقودا نصف دائرية مرتفعة موازية لجدار القبلة ، وأخرى
متجاوزة ومنخفضة عمودية على هذا الجدار ، أى أن كل دعامة تحمل
أطراف أربعة عقود . ونلاحظ أن بلاطة المحراب يزيد اتساعها عن
البلاطات الأخرى ، فبينما يصل اتساع البلاطة الجانبية ٣ أمتار تقريبا ، يبلغ
اتساع البلاط الأوسط ٣.٥ مترا (٢) . ويمتد البلاطان الشرقي والغربي
المتطرفان في بيت الصلاة شمالا بامتداد الصحن ، فيشكلان محبتين شرقيتين
وغربيين ، تطل كل منهما على الصحن بستة عقود ، وتصلبهما من طرفيهما
الشمالي محنية شمالية بأكتهما تتكون من ١١ عقدا . أما المحنية الرابعة القبلية ،

(١) Marçais, l'Architecture musulmane, p.24 - فكري ، المرجع السابق ص ٢٥٠

(٢) فكري ، مساجد القاهرة ص ٢٥٢

فقد أضيفت كما ذكرت في سنة ١٠٨٦ هـ . وكان يعملو المجنبات الاغلبية الثلاثة قبوات نصف أسطوانية متصلة فيما بينها . ونلاحظ أن العقود المتجاوزة التي تدور بالصحن يزيد ارتفاعها مرتين عن ارتفاع الدعائم التي تحملها ، ويعملو العقود جدار يزدان بالإفريز الكتابي الذي أشرنا إليه (١) . ويشغل الزاوية الشمالية الشرقية من الصحن درج يصعد إلى جوسق مشمن الشكل ينتهي بقبة ، ويقوم هذا الجوسق على برج أسطوانى الشكل يبرز عن الجدارين الخارجيين الشرقي والشمالي للجامع . ويعتقد الأستاذ كريسويل أن بناء هذا الجوسق أحدث عهدا من بناء البرج (٢) .

وسقف المسجد قبوات نصف أسطوانية تغطى بلاطاته ، وتقوم هذه القبوات على العقود نصف الدائرية التي ذكرناها قبل ذلك (٣) . ويعملو الأسطوان المواجه للبحراب قبة نصف كروية عنقها من الخارج مشمن الشكل ، ضلوعه مقعرة ، وتفصلها زعانف مفصصة ، ويقوم هذا العنق على قاعدة مربعة تعلوها زخرفة من أسنان بارزة . والقبة من الداخل تقوم على جوفات مقوسة في الأركان .

٤ - مسجد أبى فتاة بسوسة :

يقع هذا المسجد قريبا من باب سوسة الجنوبي ، وهو مسجد صغير تبلغ مساحته الخارجية ١٣ × ١٠ م^٢ ، ويعتقد الأستاذ الدكتور أحمد فكرى أن صحن هذا المسجد كان يحيط به من الشرق والغرب والشمال ، على غير

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 24.

(٢) Creswell, a short account, p. 272.

(٣) Marçais, op. cit. p. 24.

النظام الذى تبدو عليه الجدران التى تحيط به حاليا من الشرق ومن الشمال ،
ذلك لأن الكتابة الكوفية المسجلة على الحجارة فى الإطار الذى يعلو جدار
الواجهة الشمالية للمسجد ، كانت تمتد على الواجهة الغربية للجامع ، إذ ما تزال
بعض آثارها ظاهرة على هذه الواجهة . ونقرأ فى بقايا النقش الكتابى الذى
كان يعلو واجهات الجامع عبارة (ابن إبراهيم الأغلب) ، وتشير هذه
العبارة إلى الأمير أبى عقاب الأغلب بن إبراهيم الذى ولى إمارة إفريقية
بعد وفاة زيادة الله فى سنة ٢٧٣ هـ ^(١) . ولم يتبق من هذا المسجد سوى
بيت الصلاة ، ورواق يمتد أمامه كان يطل على الصحن ، وأعله كان صحنا
للجنائز ^(٢) . وبيت الصلاة مربع الشكل طول كل ضلع ينقص قليلا عن ٨
مترا ، ويشتمل على ثلاثة بلاطات عمودية على جدار القبلة ، وتنقسم هذه
البلاطات إلى ثلاثة أساكيب تمتد بجذاء هذا الجدار ، بحيث يضم بيت الصلاة
تسعة أساطين مربعة الشكل ، يبلغ طول كل جانب منها ٢ ١/٢ مترا تقريبا ،
وترتكز عقودها على أربعة دعائم مصلبة الشكل . والمسجد على هذا النحو
يشبه من حيث التخطيط مسجد صغير بطليطلة يعرف باسم باب مردوم ، أسسه
أحمد بن حديدى القاضى ، فى سنة ٣٩٠ هـ ^(٣) ، كما يشبه من حيث النظام
الداخلى للبناء المسجد الجامع بسوسة الذى أقيم فى سنة ٢٣٦ هـ ، إذ أن
سقف مسجد أبى فتاة على شكل قبوات نصف أسطوانية تقوم على عقود

(١) فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٤

(٢) نفس المرجع ص ٢٥٤

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور بالأندلس ص ٥٠ — ٥٣ ، مسجد المدجنين

بطليطلة ، مقال بمجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، ١٩٥٨

نصف دائرية مطولة ، بينما تفصل الاساكيب الثلاثة عقود منخفضة نصف
دائرية متجاوزة (١) .

٥ - مساجد اخرى خاصة :

وإلى جانب المساجد التي ذكرناها ، أقيمت في إفريقية مساجد أخرى
على نفقة بعض الأشخاص الصالحين ، كعمل من الأعمال الخيرية ، منها
المسجد الذي أقامه محمد بن خيرون المافري الأندلسي بالقيروان ، في سنة
٨٢٥٢ ، ويعرف هذا المسجد بذي الأبواب الثلاثة ، وقد اكتسب هذه التسمية
بسبب واجهته الشمالية ذات العقود الثلاثة المتجاوزة لنصف الدائرة ، وتمتاز
هذه الواجهة بكسوتها الزخرفية الرائعة (٢) .

ومنها المسجد الجامع بسفاقس الذي بناه علي بن سالم الجبنياني ، أحد
تلامذة الفقيه الصالح أبي سعيد سحنون بن سعيد الملقب بسراج القيروان (٣) ،
وذلك في سنة ٢٣٥ هـ . وتقوم مؤذنة هذا الجامع في منتصف الواجهة
الشمالية على نحو مؤذنة جامع القيروان . ويشبه جامع سفاقس المذكور
جامع القيروان من حيث عناصره المعمارية (٤) .

ثانيا - العمارة الحربية :

اهتم أمراء بني الأغلب بتحصين مدن إفريقية ، فيذكر ابن خلدون أن
أبو إبراهيم أحمد بن بافريقية « نحووا من عشرة آلاف حصن بالحجارة

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 24

(٢) Ibid. pp. 25, 47

(٣) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٤٩ - ٢٩٠

(٤) Marçais op. cit. p. 25

والكلس وأبواب الحديد»^(١) ، وتتضمن هذه الرواية مبالغة واضحة ، ولكن النص على أى حال يكشف لنا اهتمام هذا الأمير بتحصين البلاد . وقد يكون المقصود ببناء هذه الحصون ترميم سلسلة التحصينات التي كانت قد أقامها البيزنطيون على عجلة على تخوم الصحراء ابتداء من طرابلس شرقا حتى نوميديا غربا ، وكانت هذه التحصينات تشتمل على قلاع وأبراج تكاد تكون متصلة ، ومن هذه القلاع قلعة جلولا الواقعة على بعد نحو ٣٠ كم إلى الشمال الغربي من القيروان ، وقلعة القصرين التي لعبت دورا هاما على الحدود الغربية لدولة الأغالة^(٢) ، وقلعة بلزمة التي افتتحها أبو عبد الله الشيعي وخربها ، وقد ذكر البكري أنها قصر قديم البناء ، ومنها قلعة باغاية التي ظلت قائمة حتى هدمها أبو عبد الله الشيعي . ومن قلاع إفريقية في عصر الأغالة قلعة طينة التي بناها أحد الولاة العرب^(٣) ، وقصبة مقرة التي شاهد اليعقوبي حصونها الكثيرة^(٤) . وكانت معظم بلاد قسطنطينية محصنة بالقلاع المنيعة . ولقد عني الأغالة بتحصين السواحل ، خوفا من ظروف الروم لها ، وأعظم أمراء الأغالة الذين تهملوا بالابنية الحربية الأمير ابراهيم بن أحمد الذي بنى الحصون والمحارس على سواحل البحر ، حتى كانت النار توقد في ساحل سبته ، للنذير بالعدو ، فيتصل بإيقادها بالاسكندرية في الليلة الواحدة^(٥) ، ولعل المقصود بالمحارس الأربطة . وقد أشار اليعقوبي في

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٢٩

(٢) Marçais, op. cit. p. 29

(٣) Idid .

(٤) اليعقوبي ، ص ٣٥١

(٥) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٤٤

كتابه البلدان انه من اسفاقس إلى بنزت ثمانية أيام ، وفي جميع المراحل حصون متقاربة ينزلها العباد والمرابطون (١) .

وإلى أبي ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب ينسب بناء أسوار سوسة (٢) ، وإن كان ابن الأثير وابن خلدون ينسبانها خطأ إلى إبراهيم بن أحمد (٣) ، لأن سور مدينة سوسة يحمل تاريخ الانشاء سنة ٢٤٥ هـ وهو يتفق مع عصر أبي ابراهيم أحمد بن محمد .

وأهم المنشآت الحربية في عصر الأغالبة الآثار التالية :

١ - رباط سوسة :

كان الخوف من غارات الروم على السواحل التونسية ، من جهة ، والاستعداد الدائم للجهاد ضد الروم في صقلية حافزا على العناية الاغالبة بتحصين هذه السواحل ، وذلك باقامة المحارس والأربطة ، وقد لعبت الأربطة دورا هاما في الحياة الدينية والحربية ببلاد إفريقية . وكان الرباط يزود عادة بمنار توقد فيه النار ليلا للتنذير باقتراب سفن العدو ، وعن طريق هذه الإشارة تستعد المحارس والأربطة المجاورة ، للإقامة العدو بحرا وبراً ، ولذلك كثر عدد الأربطة على السواحل التونسية .

ورباط سوسة المعروف بقصر الرباط من أهم الأربطة التي أقيمت في عصر الاغالبة ، وقد وصلت إلينا عمارته في حالة جيدة . وهو من بناء الأمير

(١) اليعقوبي ، ص ٣٥٠

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٢٣

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥ - ابن خلدون ج ٤ ص ٤٣٤

زيادة الله بن الأغلب ، أسسه في سنة ٢٠٩ هـ ، وتاريخ الإنشاء مسجل على لوحة من الرخام بأعلى مدخل المنار^(١) ، نقرأ عليها النص التالي: (مما أمر به الأمير زيادة الله بن ابراهيم أطال الله بقاءه على يدي مسرور الخادم مولاه في سنة ست ومائتين اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) . ويقع رباط سوسة على خليج قابس ، بداخل أسوار مدينة سوسة ، في القسم الأدنى من المدينة ، ولقد بنى قبل إنشاء أسوار سوسة بنحو ٣٩ سنة . ويشتمل الرباط على سور مربع الشكل طول ضلعه ٣٩ مترا تقريبا ، مزود عند أركانه ومنتصف أسواره بأبراج معظمها نصف أسطوانية ، (ست منها نصف أسطوانية ، أما البرج الواقع في الركن الجنوبي الغربي فمربع الشكل ، يقوم عليه منار أسطوانى الشكل ، ينتهى من أعلاه بجوسق تعلوه قبة) ، ويكتنف المدخل بناء مربع الشكل تعلوه فوق السور قبة .

وتزدان الأسوار والأبراج في أعلاها بطراز ممتد من العقود الصغيرة المتصلة ، وتنتهى الأسوار من أعلى بشرافات مستديرة الرؤوس .

ومدخل الرباط بارز ، يتوسط الواجهة القبلية ، ويصل المرء إلى داخل الرباط عن طريق درج هابط ، يؤدي إلى باب معتب مفتوح في هذا السور القبلى ، فاذا ما اجتاز المرء هذا الباب ، وجد نفسه في ممر ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول أسطوان تعلوه قبة متعارضة ، ويكتنفه على كل من الجانبين أسطوان قبوته نصف أسطوانية . أما القسمان الآخران فتعلوهما قبوتان نصف أسطوانيتين ، ويؤدي هذا الممر شمالا إلى ضلع الرباط .

والصحن مستطيل الشكل ، طوله من الشرق إلى الغرب ٢٠٩٠ مترا ، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ١٩٢٠ مترا . وبحيط بالصحن من جهاته الشمالية والشرقية والغربية أروقة تطل عليه ببوائك ، عقودها قائمة على دعاء . ووراء هذه البوائك غرف لا نوافذ لها ، سقفها قبوات نصف أسطوانية ، ويتراوح اتساع الغرفة الواحدة ما بين ٣٥٠ مترا ، ٣٦٠ مترا ، باستثناء غرف الجانب الشرقي التي لا يزيد اتساع الواحدة منها على ثلاثة أمتار . ويعلو هذا الطابق من الغرف طابق ثان مشابه للطابق الأرضي ولا يختلف عنه إلا في أن مجنبات الصحن حل محلها سطح ارتفاعه من مستوى سطح أرض الصحن نحو ٥٣٠ مترا ^(١) . ويشغل الجانب الجنوبي من هذا الطابق مسجد صغير طوله من الداخل ٣٩ مترا ، وعرضه ٧ أمتار . ويتألف هذا المسجد من ١١ بلاطة عمودية على جدار القبلة تمتد على أسكوبين . ونلاحظ أن البلاطتين المتطرفتين أكثر اتساعا من بقية البلاطات . ويتوسط المحراب جدار السور الجنوبي للرباط ، وترتفع أمام المحراب قبة ، تبدو من الخارج بارزة ^(٢) . وللمسجد خمسة أبواب مفتوحة في الجدار المواجه لجدار القبلة : اثنان عن يمين الشخص المواجه للمحراب ، وثلاثة عن يساره ، ولم يفتح في هذا الجدار باب يواجه المحراب ^(٣) . أما المنار فأسطوانية الشكل ، قدره نحو ٧٢ مترا ، وارتفاعه فوق مستوى سطح ممشي السور ١٥٣٨ مترا ^(٤) .

(١) Creswell, a short account of early Muslim architecture, p. 231

(٢) Marçais, l'architecture, p. 31

(٣) فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٣

(٤) Creswell, op. cit. p. 232

٢ - رباط المنستير :

كانت المنستير ميناء يقع بين سوسة والمهدية ، وكانت في الأصل رباطا أو قصرا يربط فيه المسلمون لحماية نفور إفريقية من الغارات البحرية التي كان يقوم بها الروم . بناه هرثمة بن أعين وإلى إفريقية من قبل الرشيد في سنة ١٨٠ هـ (١) . ومنذ تأسس هذا القصر انتجعه الناس وبنوا بيوتهم حوله حتى أصبح قصر المنستير مدينة عامرة كثيرة السكان . وقد وصف البكري هذا الرباط أو القصر بقوله : « وبالمنستير البيوت والحجر والطواحين ومواجل الماء ، وهو حصن عالى البناء ، متقن العمل ، وفي الطبقة الثانية منه مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه ، وفيه جماعة من الصالحين والمرابطين ، قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين دون الأهل والعشائر . وهو قصر كبير عال ، داخله ربض واسع ، وفي وسط الربض حصن ثان كبير ، كثير المساكن والمساجد والقضاب العالية ، طبقات بعضها فوق بعض ، وفي القبلة صحن فسيح ، فيه قباب عالية متقنة ، ينزل حولها النساء المرباطات وله في يوم عاشوراء موسم عظيم ومجمع كبير ، وكان أهل القيروان يخرجون إليهم بالأموال والصدقات الجزلة . وبقرب المنستير محارس خمسة متقنة البناء ، معمورة بالصالحين » (٢) .

من هذا الوصف يتضح لنا أن هذا الرباط أضيف إليه في العصور التالية إضافات كثيرة عقدت تخطيطه الأصلي ، وغيرت معالمه ، ومع ذلك فإنه

(١) ابن عذارى ج ١ ص ١١٠ - ابن الأثير ج ٥ ص ٩٦ - ابن خلدون ج ٤ ص ٤١٧ -

ابن الخطيب ، ص ١١

(٢) البكري ، ص ٣٦ - ابن الخطيب ، ص ١١ ، حاشية رقم ٢ .

يمكننا أن نتعرف على العناصر الأساسية لهذا الرباط . كان السور محاطا بأبراج مستديرة أو كثيرة الأضلاع ، ويحيط بالصحن الفسيح من جهاته الثلاثة الشمالية والغربية والشرقية طابقان أو ثلاثة من الغرف التي لا تتقدمها بوائك تطل على الصحن على نحو النظام المتبع في رباط سوسة . ويرتفع في الركن الجنوبي الشرقي برج أسطوانى الشكل ، يشبه نظيره في رباط سوسة . ويشغل الجانب القبلى بالطابقين الأدنى والأعلى مسجدان ، الأدنى منها بسيط في تخطيطه ، إذ يتكون من ثلاث بلاطات وأسكوبين . أما العلوى فيشتمل على تسع بلاطات وأسكوبين . وتقوم العقود التي تتكئ عليها القبوات نصف الأسطوانية ، والعقود الأخرى المنخفضة التي تفصل بين البلاطات على دعام منطولة (١) .

٣ - سور سوسة :

يذكر المؤرخون أن الأمير أبو ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب بنى سور سوسة في سنة ٢٤٥ هـ (٢) ، ويؤكد هذا التاريخ النقش المسجل على السور القبلى من أسوار سوسة . وأسوار سوسة مبنية من الحجر المصقول ، ويعلوها جدار مشرف الذروة لحماية ممشى السور . ويدعم الأسوار من الخارج أبراج ضخمة تتجاوز في ارتفاعها مستوى ممشى السور بنحو أربعة أمتار ، وفي الزاوية الجنوبية الغربية من أسوار سوسة ، وهي أكثر مناطق سوسة ارتفاعا ، ينتصب برج مرتفع ، يسميه البكري منار خلف الفق ،

(١) Marçais, l'architecture Musulmane, p. 32

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٢٣

وهو برج مربع الشكل كالصوامع يعلوه برج أقبل حجبا ، ويشغله من الداخل أربع غرف تعلو الواحدة منها الأخرى ، السفلى منها مسقوفة بقبوة نصف أسطوانية ، والغرفة الثانية التي تعلوها تسقفها قبوة متعارضة ، أما الثالثة فسقفها قبوة نصف أسطوانية ، والغرفة الرابعة تتكون من أربع قبوات متعارضة تقوم على عقود مصلبة . ويبلغ ارتفاع هذا البرج ما يزيد على ثلاثين مترا (١) .

٤ - سور سفاقس :

يذكر اليعقوبي أن سفاقس مدينة على ساحل البحر ، يضرب البحر سورها (٢) . هذا السور الذي شاهده اليعقوبي في عهد الأمير ابراهيم بن أحمد ، أقيم في عصر هذا الأمير من التراب واللبن ، ثم رمم بعد ذلك بالأحجار . ويتألف من ستارة مبنية من الحجر المصقول ، وقطع من الحجارة غير المهذبة ، ويدعم السور أبراج مستطيلة الشكل ، مستديرة الرؤوس ، وبعضها مضلع (٣) .

ثالثا - العمارة المدنية :

١ - مدينة العباسية (القصر القديم) :

أسسها ابراهيم بن الأغلب في سنة ١٨٥ هـ ، وتقع على بعد ثلاثة أميال .

(١) Marçais, op. cit. p. 36

(٢) اليعقوبي ، ص ٣٥٠

(٣) Marçais, l'Architecture Musulmane p. 36

جنوبي القيروان (١)، ويبدو أن سبب بناء ابن الأغلب لهذه المدينة، يرجع إلى أن سكان القيروان بما كانوا يتصفون به من تدين وورع، أبدوا سخطهم على الأمير لإقباله على الخمر وانغماسه في حياة اللهو والملاذات، فاضطر ابن الأغلب إلى إقامة هذه المدينة للاستمتاع بالحياة بعيدا عن أنظار رعيته، فلا يناله شيء من تقريع فقهاءهم وانتقادم لسلوكه. وقد يكون قد اتخذ هذه المدينة تقليدا للخلفاء الأمويين والعباسيين في اتخاذهم القصور خارج عواصمهم، أو إشباعا لرغبته في الظهور بمظهر العظمة والابته. ولقد اشترى ابن الأغلب لهذا الغرض أرضا من بني طالوت، وبني قصرا للامارة، نقل إليه السلاح والعدد سرا، وأسكن حوله عبيده وفتيانه ومواليه، وأهل الثقة من خدمه (٢)، وسمى بالقصر القديم بالنسبة لقصر رقادة الذي بناه إبراهيم بن أحمد في سنة ٢٦٤هـ (٣)، وعرف بالقصر الأبيض ربما لبياض لون جدرانها. ولقد أطلق إبراهيم بن الأغلب على هذه المدينة اسم العباسية، إمعانا في إظهار ولائه للعباسيين (٤). وفي هذه المدينة استقبل الأمير رسل شارلمان إليه سنة ١٨٥هـ عندما قدموا لنقل رفات القديس سان سيرين (٥). وظلت هذه المدينة دارا للامارة في عهد خلفاء إبراهيم بن الأغلب، وأسس فيها زيادة الله بن إبراهيم القصور والمنيات، وحصنها

(١) ابن عذاري، ص ١١٧ - ويذكر اليعقوبي أنها تقع على ميلين من القيروان (البلدان ص ٣٤٨)

(٢) نفس المرجع، ص ١١٧

(٣) نفس المرجع، ص ١٥٤

(٤) ياقوت، معجم البلدان، مادة العباسية

(٥) Marçais, l'Architecture Musulmane, p. 26

٢٠١ هـ (١) . كذلك أقام الأمير أبو الزرائق محمد بن أحمد في العباسية ، وكان نزقا مبذرا ، شغوبا باقتناص الطير ، وكان له برج في موضع منها يعرف بالساحلين يستطيع فيه أن يركن إلى هوايته المفضلة . وكان لمدينة القصر القديم جامع له صومعة مستديرة مبنية بالآجر والعمد سبع طبقات لم ير أجل منها (٢) .

انضمت العباسية ، وأصبحت مدينة كبيرة مسورة ، وكان يفتح فيها خمسة أبواب، منها بابا الرحمة والحديد في السور القبلي ، وبابا غلبون والريح في السور الشرقي ، وباب السعادة في السور الغربي (٣) . وقد أقيم في المدينة كثير من المنشآت من حمامات وفنادق وأسواق ومواجل ، ويذكر البكري أيضا أنه كان يتوسطها ميدان فسيح ، أقيم تجاهه قصر يعرف بالرصافة . ولما كانت سنة ٢٦٤ هـ هجر الأغالبة مدينة القصر القديم وانتقلوا إلى مدينة جديدة هي مدينة رقادة . وقد آل مصير القصر القديم إلى الهدم والتخريب ، ولكن موقعه مازال معروفا حتى اليوم . ولقد أجريت على طول الجانبين الشمالي والغربي من الأطلال حفائر أثرية في سنة ١٩٢٣ ، أسفرت عن كشف بعض الغرف الصغيرة ، كما كشفت عن بعض القبوات والمخازن المنقورة في باطن الأرض (٤)

(١) ابن مغازي ، ص ١٢٣

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة قصر قيروان ، مجلد ٤ ص ٣٦٢

(٣) البكري ، ص ٢٥

(٤) Marçais, l'architecture musulmane, p. 27

٢ - رقادة :

تقع رقادة على بعد ثمانية أميال جنوبي القيروان ، وهي الحاضرة الأغلبية الثانية ، شرع إبراهيم بن أحمد في تأسيسها سنة ٢٦٣ هـ ، وتم تأسيسها في سنة ٢٦٤ هـ ، وأصبحت رقادة منذ ذلك التاريخ مقر أمراء بني الأغلب حتى انقرض دولتهم . ويصفها البكري بقوله : « وأكثرها بساتين ، وليس بأفريقية أعدل هــواء ، ولا أرق نسيا ، ولا أطيب تربة من مدينة رقادة وسميت رقادة لأن الأمير إبراهيم أرق يوما ، وشرد الكرى عن جفنيه ، فلم ينم ، وأمر بالخروج والسير ، فلما وصل إلى هذا الموضع نام ، فسمى رقادة ... والذي بنى رقادة واتخذها دارا إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ، انتقل إليها من مدينة القصر القديم ، وبنى بها قصورا عديدة ، وجامعا ، وعمرت بالسواق والحمامات والفنادق » (١) ، وكان من قصورها قصر بغداد ، والمختار ، والفتح ، وقصر البحر ، وقصر العروس ، وقصر الصحن . وكان يحيط برقادة سور من الآجر والابن أصلحه الأمير زيادة الله الثالث حتى يتحصن فيها عند محاصرة أبي عبد الله الشيعي لها .

ولم تزل هذه المدينة بعد ذلك دار ملك بني الأغلب حتى هرب منها زيادة الله الثالث أمام زحف قوات أبي عبد الله الشيعي ، فاحتلها عبيد الله المهدي ، وأقام في قصر الصحن برقادة حتى سنة ٣٠٨ هـ ، ثم انتقل بعد ذلك إلى المهديّة . ثم فقدت رقادة بالتدريج مكانتها القديمة ، وأخذ الخراب يذهب في قصورها وديارها ، حتى تولى معد بن اسماعيل الخلافة الفاطمية ، فهدم

ما تبقى منها ، وأصبحت رقادة محجرا تستخرج منه مواد البناء في العصور التالية . وقد تبقى منها اليوم آثار حوض ، لعله حوض القصر المعروف بقصر البحر (١) .

٣ - المواجهل والخزانات والقناطر :

اهتم خلفاء بني أمية ، وعلى الأخص هشام بن عبد الملك ، بالمنشآت الخاصة بالأعمال المائية والخزانات والمواجهل في إفريقية اهتماما كبيرا ، فلما استقلت أسرة بني الأغلب بإفريقية ، حرص أمراؤها على زيادة هذا الاهتمام باقامة هذه المنشآت ووجهوا إليها عناية خاصة. ويعتبر أبو إبراهيم أحمد أكثر بناء هذه الأسرة نشاطا ، ويتجلى هذا النشاط في بنائه لمواجهل القيروان والقصر القديم . ويذكر ابن الخطيب ، أن بناءه للمواجهل الكبير بباب نونس في القيروان كان أعظم حسنة قام بها هذا الأمير (٢) . وقد كان قد شرع في بنائه سنة ٢٤٥ هـ وأتمه في سنة ٢٤٨ هـ (٣) . ويروى أنه اعتل أثناء اتخاذ المواجهل بالقصر القديم ، « فكان يسأل : هل دخله الماء ؟ إلى أن دخله الوادي فعرفوه بذلك فسر به ، وأمرهم أن يأنوه بكأس مملوءة منه فشربها ، وقال : الحمد لله الذي لم أمت حتى تم أمره ، ثم مات على أثر ذلك » (٤) .

وكانت مياه المطر والسيول تسيل في أودية ، وتصب في المواجهل ،

(١) راجع التفاصيل في : Marçais, op. cit. p. 28

(٢) ابن الخطيب ، ص ٢٣

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٨

(٤) ابن الخطيب ، ص ٢٤

وهي برك عظيمة منها كان يشرب أهل القيروان^(١). وكان بالقيروان
فيما يذكره البكري ١٥٠ ماجلا، وكانت هذه المواجهل مستديرة الشكل،
تكسو سطوحها طبقة من الملاط شديد الصلابة، كما أنها كانت تحاط من
أعلى بسور يدعمه من الداخل أو من الخارج أو منها معار كائز. وكان
الماجل يسبقه أحيانا ماجل أصغر حجما يترسب فيه الطمي الذي تحمله
القنوات، أو يتصل في بعض الأحيان بخزان في جوف الأرض توزع منه
المياه للسقيا. وكانت المواجهل تزود بالمياه عن طريق جداول تجري نحو
المواجهل بواسطة قناطر أو جسور، أو بواسطة تجميع مياه العيون^(٢).

ويعصف الإدريسي الماجل الكبير بالقيروان بأنه « من عجيب البناء،
لأنه مبني على تربيح، وفي وسطه بناء قائم كالصومعة، وذرع كل وجه
منه مائتا ذراع، وهو مملوء كله ماء »^(٣). ويعصف البكري الماجل
الكبير بالقيروان، فيذكر أنه مستدير الشكل، عظيم الاتساع، يتوسطه
برج مشتمل الشكل، يعلوه مجلس له أربعة أبواب، وبأعلاه قبة يحملها ١١ عمودا.
وبجوار هذا الماجل مباشرة، وفي الجهة الشمالية منه ماجل آخر أقل اتساعا،
يعرف بالفسقية، يتلقى مياهه من الوادي^(٤) عند جريانها، فيخفف من
سرعتها. وعندما يمتلئ بالمياه حتى ارتفاع قائمتين، تتدفق في الماجل الكبير
عن طريق فتحة يسميها الصرح. وكان زيادة الله الثالث قد أنشأ مراكبا

(١) اليعقوبي، ص ٣٤٨

(٢) Marçais, l'architecture, p. 38

(٣) الإدريسي، ص ١١٠

(٤) يسمى هذا الوادي وادي صرح الليل (Creswell, op. cit. p. 291)

لهذا الماجل سماه الزلاج ، وقدم من تونس إلى القيروان في سنة ٢٩٢ هـ ونزل في مجلس الماجل الكبير ^(١) . ويذكر الاستاذ مارسيه أن ماجل القيروان الكبير ليس دائريا ، وإنما هو متعدد الضلوع ، تصل عدد ضلوعه إلى ٤٨ ضلعا ، تؤلف ما يقرب من الدائرة قطرها ١٢٨ مترا ، وكل زاوية من هذا الضلع ترتكز على ركيزة مزدوجة من الداخل والخارج ، وفي وسطه تنتصب قاعدة من البناء مربعة الشكل ، يلصق كل وجه منها دعامة أسطوانية ، وكانت هذه القاعدة تحمل مجلسا كان يقيم فيه الأمير للراحة . أما الماجل الآخر فمتعدد الأضلاع ، من ١٧ ضلعا ، ويصل بين الماجلين فتحة نصف دائرية تقع على عدة أمتار من القاع . وللماجل الصغير ١٧ ركيزة داخلية تكتنف الأركان ، و ٢٨ ركيزة خارجية تكتنف الأركان الخارجية بالإضافة إلى منتصف كل ضلع . ونلاحظ أنه يقابل كل ركيزة متوسط الأضلاع من الخارج جوفية من الداخل . وما زالت المياه تملأ الماجل القيرواني في الوقت الحاضر ، بينما جفت مياه ماجل رقادة ^(٢) . وإذا كانت المواجه هي أحواض مكشوفة للهواء ، فقد كانت هناك خزانات جوفية للمياه أو جباب تحفظ فيها مياه الأمطار ، وأكبرها جب السفرة في سوسة ، ويرجع تاريخ إنشائه إلى هذا العصر . ويتألف من ست بلاطات تعلوها قبوات نصف أسطوانية ، تفصلها عن بعضها عقود نصف دائرية قائمة على دعائم ضخمة ارتفاعها يتجاوز ستة أمتار . وكانت للأربطة والمحارث جباب من هذا النوع لتوفير المياه لنزلاتها من الصالحين والمجاهدين . وتشبه هذه الجباب جب

(١) ابن عذاري ، ص ١٨٦

(٢) Marçais, op. cit. p. 38

المياه بمدينة الرملة ، وهو الجب المعروف ببئر الغزيرة ، الذي أقيم في سنة ١٧٢ هـ في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد ^(١) .

كذلك اهتم الاغالبه بانشاء القناطر على الوديان ومجارى المياه لعبور السابلة والمسافرين إلى الطرق المؤدية إلى القيروان . ويؤثر عن زيادة الله ابن ابراهيم أنه بنى قنطرة أبي الربيع ^(٢) ، وتقع خارج باب أبي الربيع جنوبى مدينة القيروان ، حيث يبدأ الشارع الرئيسى فى مدينة القيروان وهو الشارع المخصص لجميع المتاجر والصناعات ^(٣) . ولكن هذه القنطرة تلت على أثر سيل سنة ٢٤٢ هـ ، فأمر الأمير أبو ابراهيم أحمد بإصلاحها ، فكل ذلك فى سنة ٢٤٨ هـ ^(٤) .

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 39 - Creswell, a short account, p. 230

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٨

(٣) البكرى ، ص ٢٥

(٤) ابن عذارى ، ص ١٤٨

الفصل السادس

دولة الأدارسة بفاس

(١) قيام دولة الأدارسة

أ - إدريس بن عبد الله بن الحسن مؤسس دولة الأدارسة .

ب - إمامة إدريس الثاني

(٢) خلفاء إدريس الثاني حتى سقوط فاس في أيدي الفاطميين

أ - تقسيم دولة الأدارسة في إمامة محمد بن إدريس

ب - خلفاء محمد بن إدريس

(٣) مدينة فاس حاضرة الأدارسة

أ - مشكلة تاريخ تأسيس فاس

ب - تاريخ مدينة فاس منذ تأسيسها حتى نهاية عصر بني مرين

١ - فاس في عصر الأدارسة

٢ - فاس في عصر بني موسى بن أبي العافية

٣ - سيطرة زناتة على فاس وموالاتها لخلفاء بني أمية بقرطبة

٤ - فاس في ظل دولتي المرابطين والموحدين

٥ - فاس عاصمة بني مرين

الفصل السادس دولة الأدارسة في فاس

(١)

قيام دولة الأدارسة

١ - ادريس بن عبد الله بن الحسن مؤسس دولة الأدارسة :

في سنة ١٤٥ هـ خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن حسن (السبط) بن علي بن أبي طالب ، المعروف بالنفس الزكية ، في الحجاز على أبي جعفر المنصور ، مطالباً بحقه في الخلافة ، فأجمع أهل الحجاز على نصرته ، واستولوا على المدينة (١) ، ثم تغلب على مكة ، وجرت بينه وبين المنصور رسائل طويلة في أحقية كل منها بالخلافة ، أوردها ابن الأثير (٢) ، والطبري (٣) وابن خلدون (٤) . ثم بعث محمد أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوة محمد ابن عبد الله بن الحسن في العراق ، فتغلب إبراهيم على البصرة والاهواز وفارس (٥) . وكان محمد قد استعمل محمد بن الحسن بن معاوية بن عبد الله على مكة ، والقاسم بن اسحق على اليمن ، وموهي بن عبد الله على الشام . ولما بلغ

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢-٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٥ - ٧

(٣) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، طبعة القاهرة ١٣٣٦ هـ ، ج ٩ ص ٢١٢

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦-١٢

(٥) نفس المرجع ، ج ٤ ص ٦

المنصور خروج محمد بن عبد الله بن الحسن سير جيشا بقياده أخيه عيسى ابن موسى إلى المدينة ، لمقاتلة محمد ، والقضاء على حركته . فخندق محمد بن عبد الله على نفسه في المدينة ، ولكن أهل المدينة تخلوا عنه ، وبقي في شردمة قليلة من الناس ، وظل يقاتل جنود عيسى بن موسى حتى استشهد في ١٤ رمضان سنة ١٤٥ هـ . وكان محمد بن عبد الله بن الحسن قد بعث إلى محمد بن الحسن ، عامه على مكة ، والقاسم بن إسحاق بأمرهما بالمسير إليه لنجدته . فقدماء ، ولكنها علما في نواحي قديد بمقتله ، فلحق محمد بن الحسن بإبراهيم بن عبد الله في البصرة ، أما القاسم فقد اختفى في المدينة حتى استؤمن ، وأما موسى بن الله فقد فشل في دعوته بالشام ، وعاد إلى المدينة (١) ، وأما إبراهيم بن عبد الله فقد بادر الخليفة بمحاربته ، فاشتبك أنصاره مع جيش المنصور بقيادة عيسى بن موسى في باخرى (بين الكوفة وواسط) في قتال عنيف ، انتهى بهزيمة إبراهيم ومقتله في ٢٧ ذى القعدة سنة ١٤٥ هـ (٢) .

ولم تفت هذه الهزائم المتوالية في عضد العلويين ، فقد أخذوا ينتظرون الفرصة المواتية للوثوب على الخلافة العباسية ، فلما توفي المنصور ، وآلت الخلافة العباسية إلى الهادي بن المهدي ، خرج العلويون بمكة والمدينة بزعامة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن علي بن علي بن علي بن علي بسبب سوء معاملته عمر بن عبدالعزيز بن عبد الله بن عمر ، عامل المدينة من قبل الهادي ، لهم (٣) . وبويع الحسين بالخلافة في المدينة ، وأقام بها ١١ يوما ، ثم سار

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٧

(٢) نفس المرجع ص ٢٠ - السلاوي ، الاستقصا ج ١ ص ١٥١

(٣) محمد بن علي بن طباطبائي ، كتاب الفخرى في الآداب السلطانية ، طبعة بيروت ١٩٦٠

ص ١٩٠ - ابن الأثير ج ٥ ص ٧٥ - السلاوي ج ١ ص ١٥١

إلى مكة ، فالتقى مع الجيش العباسي بقيادة سليمان بن المنصور بفتح ، وهو وادي في طريق مكة ، يبعد عنها بنحو ستة أميال ، فانهمزم العلويون هزيمة نكراء ، وقتل في هذه الواقعة معظم أصحابه . وكان قد اشترك في القتال مع الحسين عماء إدريس بن عبد الله بن الحسن ، ويحيى ، ونجح إدريس في الإفلات مع المنهزمين من بني حسن (١) ، فاستتر بعض الوقت ، وألح العباسيون في طلبه ، « فخرج به راشد ، وكان عاقلا ، شجاعا ، أيدا ، ذا حزم و لطف ، في جملة الحاج ، منحاشا عن الناس ، بعد أن غير زيّه ، وألبسه مدرعة و عمامة غليظة ، وصيره كالغلام يخدمه ، وإن أمره ونهاه أسرع في ذلك ، فسلبا حتى دخلا مصر ليلا » (٢) . ويختلف المؤرخون في رواية الطريقة التي تمكن بواسطتها من الوصول إلى المغرب الأقصى سالما ، فالبكري ذكر أنها مرا في مصر بدار مشيدة ، يدل ظاهرها على نعمة أهلها ويسارهم ، فجلسا في دكان على باب الدار ، فرآهما صاحبها ، فعرف من لهجتهما أنها من الحجاز ، فأخذ عليه راشد موثقا أن يقوم بأحد أمرين : إما إيوائهما أو التستر عليهما . ففعل ، فأخبره بخير إدريس ، وقال له : « هذا إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، خرج من موضعه مع حسين بن علي ، فسلم من القتل ، وقد جئت به ، أريد بلاد البربر ، فانه بلد ناء لعله يؤمن فيه ، ويعجز من يطلبه » ، فأدخلهما الرجل واختبأ عنده فترة من الوقت إلى أن تهيأ لبعض أصحابه الخروج إلى إفريقية ، فاكترى لهما جملا ، وزودهما وكساها ، واتفق معها على أن يسير هو مع إدريس في طريق غامضة غير طريق القوافل المارة بمساح مصر ،

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٧٦ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣

(٢) البكري ، ص ١١٨

خشية أن يكتشف أمر إدريس عند تفتيش المسافرين ، ويمضى راشد مع القافلة ، فيلتقيان في موضع قريب من إفريقية ، ورحل الرجل مع إدريس حتى حدود إفريقية ، ومن هناك اخترقا بلاد البربر حتى انتهيا إلى بلاد فاس وطنجة (١) أما بقية المؤرخين فيتفقون على أنهما نزلا بمصر ، وكانت على يريدها واضح مولى صالح بن المنصور ، ويعرف واضح هذا بالمسكين ، وكان يتشيع لعلى ، وبلغه وصول إدريس إلى مصر ، فأناه إلى الموضع الذي كان مستخفيا به ، وساعده على الفرار إلى المغرب ، فحمله على البريد إلى المغرب الأقصى هو ومولاه راشدا ، فنزلا بوليلي من أعمال طنجة (٢) .

ونعتقد أن هذه الرواية الثانية أقرب إلى الحقيقة ، فرواتها ابن الأثير وابن خلدون أولى بالثقة ، وبدليل أن الهادي عندما بلغه الدور الذي قام به واضح أمر بضرب عنقه وصلبه (٣) ، ثم أنه من المنطقي ألا يوح راشد بسر إدريس في مصر إلا لرجل من دعاة الشيعة ، وأغلب الظن أنهما كانا يعرفان واضحا قبل ذلك فنزلا عنده ، وتحايل هو على مساعدتها في النجاة إلى أرض المغرب .

ويذكر ابن أبي زرع أن إدريس ومولاه راشدا وصلا إلى القيروان (٤) ، فأقاما بها فترة من الوقت ثم خرجا إلى المغرب الأقصى ، فعمد إلى إدريس

(١) المرجع السابق ، ص ١١٩

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠١ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٧٦ - ابن خلدون ، ص ٢٤ -

الجزء ٩ ص ٩ - الاستقصا ، ج ١ ص ١٥٢ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٧٦

(٤) اتفق وصول إدريس إلى إفريقية في ولاية يزيد بن حاتم .

حين خرج من القـيـروان فألبسه مدرعة صوف خشنة ، وعمامة غليظة وصيره كالخادم له ، يأمره وينهاه ، كل ذلك خوفا عليه وحياطه له ، فلم يزل على ذلك حتى وصلا إلى مدينة تلمسان ، فاستراحا بها أياما ، ثم ارتحلا عنها نحو بلاد طنجة . فسارا حتى عبرا وادي ملوية ، ودخلا بلاد السوس الأدنى وحده من وادي ملوية إلى وادي أم الربيع ، وهو أخصب بلاد المغرب ، وأعظمها بركة ، والسوس الأقصى من جبل درن إلى وادي النون ، فسار إدريس ومولاه راشد حتى نزلا بمدينة طنجة ، وهي يومئذ قاعدة بلاد المغرب ، وأم مدنه ، إذ لم يكن بالمغرب مدينة أعظم ولا أقدم منها فلما وصل إدريس إلى مدينة طنجة أقام بها أياما ، فلم يجد بها مراده ، فرجع مع مولاه راشد حتى نزل مدينة ويلي قاعدة جبل زرهون ٢٤ .

نزل إدريس بمدينة ويلي في غرة ربيع الأول سنة ١٧٢هـ ، فنزل على اسحق ابن عبد الله الأوربي ، أمير أوربة وكبيرهم في هذا الوقت ، فأجاره وأكرمه فأقام عنده زهاء ستة أشهر تمكن خلالها من نشر دعوته . وتمكن بفضل فصاحة لسانه وبلاغته من التأثير في نفوس البربر ، خاصة بعد أن عرفوا قرابته من الرسول ، فاجتمعت عليه قبائل أوربة ومغيلة وصدينة ، وتبعها قبائل زناته وهي زواوة لوانة وسدراته وتقزة ومكناسة وغمارة ، وبايعوه بالإمامة ، وتمكن إدريس من تأليف جيش كبير غزا به بلاد تلمسان ، فافتتح شالة وسائر حصون تلمسان ، حتى وصل إلى تادلا ، فافتتح حصونها ، ثم بلغ ماسة (٢) . وكان أكثر سكان هذه البلاد على دين

Lévi - Provençal, Extraits des historiens arabes du (١)

Maroc, Paris, 1948, p. 16, 17

(٢) الجزناني ، ص ٩

النضرائية واليهودية والمجوسية، ولم يكن الإسلام قد انتشر بعد في أنحاءها (١). وعاد إدريس بعد هذه الغزوة إلى ويلي في ذي الحجة سنة ١٧٢ هـ، فأراح عسكره، في شهر محرم ١٧٣ هـ، ثم خرج للغزو مرة ثانية، فغزا حصون فندلاوة وحصون مدبونة وبهلاوة، وقلاع غياثة وبلاد فازاز، ثم عاد بعد ذلك إلى ويلي فدخلها في منتصف جمادى الآخرة سنة ١٧٣ هـ (٢). وأقام بوليلى بقية شهر جمادى الآخرة، ونصف رجب التالى، ريثما استراح بجنده ثم خرج في منتصف رجب برسم غزو مدينة تلمسان، ومحاربة من بها من قبائل مغراوة وبنى يفرن الخوارج، فحاصرها، فخرج إليه صاحبها محمد ابن خزر الزناتى مستأمنا وبايعه، وبايعته قبائل البربر، فقبل إدريس بيعتهم ودخل تلمسان، وبنى فيها مسجدا، ثم عاد إلى ويلي (٣).

وعلى هذا النحو تمكن إدريس من إقامة إمارة قوية بالمغرب الأقصى، واتصل بالرشيد ما بلغه إدريس في المغرب من دخول البربر في طاعته وافتتاحه مدن المغرب الأقصى بسيفه، وأبلغ بحزمه وقوته، فعظم عليه الأمر، وخاف أن يقضى الأدارسة بفضل دعوتهم على النفوذ العباسى فى إفريقية وطرابلس، كما خاف أن يمتد نفوذهم إلى مصر، ولا شك أن اصطناع إدريس بن عبد الله بن الحسن لسياسة الغزو المسلخ فى نواحي تامسنا وتادلا وتلمسان، يعبر عن رغبته فى التوسع ومد نفوذه على المغرب كله. وكان لذلك صدى عميق فى المشرق الإسلامى، وأصبح الخليفة العباسى قلقا

(١) ابن الخطيب، ص ١٩٢ - ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٤ - الجزائى ص ١٠

(٢) السلاوى ج ١ ص ١٥٦

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٥ - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث ص

١٩٢ - السلاوى ج ١ ص ١٥٢.

على مصر-ير المغرب الإسلامي ومصر^(١) ، ففكر في اللجوء إلى السيف في القضاء على الدولة الإدريسية الناشئة ، ولكن الأمر لم يكن من السهل على الخلافة إلى هذا الحد ، فالنفوذ العباسي الفعلي لم يكن يتجاوز حدود مصر الغربية ، فاضطر الرشيد إلى استشارة يحيى بن خالد البرمكي ، « وأخبره بأمر إدريس ، واستشاره فيه ، وقال له : إنه ولد علي بن أبي طالب ، وابن فاطمة بنت النبي صلعم وقد قوى سلطانه ، وكثرت جيوشه وعلا شأنه . واشتهر أمره واسمه ، وفتح مدينة تلمسان ، وهو باب إفريقية ، ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار ، وقد عازمت علي أن أبعث له جيشا عظيما لقتاله ، ثم إنني فكرت في بعد البلاد ، وطول المسافة ، وتناهي المغرب عن المشرق ، ولا طاقة لجيوش العراق على الوصول إلى السوس من أرض المغرب ، فرجعت عن ذلك ، وقد هالني أمره ، فأشر علي برأيك فيه (٢) » فأشار عليه يحيى بأن يبعث إلى إدريس رجلا تتوفر فيه صفات الذكاء والمكر والدهاء مع البلاغة والجرأة ليقتله ، ووقع اختيار يحيى على سليمان بن جرير^(٣) ، وقيل سليمان بن جدير^(٤) ، وقيل سليمان بن حريز^(٥) ويعرف بالشماخ^(٦) . وكان هذا الرجل من أهل

(١) ذكر صاحب روض القرطاس ، أن الرشيد أخبر بعزم إدريس « على غزو إفريقية مخاف أن يعظم أمره ، فيصل إليه ، لما يعلم من فضله وكاله » ومحنة الناس في أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فاعتم لذلك غما شديدا ، وعظم عليه شأنه «

(أنظر نص روض القرطاس في)
Lévi - Provençal , Extraits des historiens arabes, p.18

(٢) نفس المرجع

(٣) نفس المرجع - الجزئى ، ص ١٠

(٤) ابن الخطيب ، المرجع السابق ، ص ١٩٣

(٥) البكري ص ١٢٠ - ابن خلدون ص ٢٥

(٦) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٩٩

الشجاعة والدهاء والفصاحة ، وأخبره بحسب المهمة التي يعهد إليه بها ، ووعدته برفعة المنزلة ، والصلوات السنوية ، وأعطاه أموالا جزيلة ، وتحفا مستطرفة ، وجهازه بما يحتاج إليه ، وأعطاه قارورة فيها غالية مسمومة ، ثم وجهه معه رجلا يثق به وبشجاعته . فانطلق سليمان مع صاحبه من بغداد ، وهو يتظاهر بالطب ، وما زال يجد في السفر حتى وصل إلى ويلي . فاتصل بادريس ، فسأله عن اسمه ونسبه ووطنه وسبب قدومه إلى المغرب ، فذكر له أنه من بعض موالى أبيه ، وأنه اتصل به خيرة ، فأتاه برسم خدمته ، بسبب محبته لأهل البيت ، فأنس إليه إدريس ، وسر به ، واتخذ صاحبا وندىما ، لا يجلس إلا معه ، ولا يأكل إلا إذا أكل معه ، إذ كان إدريس في هذا البلد البربري ، يحن إلى مجالسة العرب ومحادثتهم ، وكان سليمان هذا قد أبدى من العلم والأدب والبلاغة والجدان ما جعل إدريس يرفعه إلى تلك المنزلة (١) ، وأخذ سليمان الشماخ يترصده فرصة لاغتيال إدريس بالسهم ، فلم يتهيأ له ذلك ، إذ كان راشد لا يزال ولا يفارقه ، وظل سليمان منتظرا إلى أن واثته الفرصة أخيرا بغياب راشد ذات يوم في بعض شؤونه ، فدخل سليمان بن جرير على المولى إدريس ، فألقاه وحده ، « فجلس بين يديه على عادته ، فتحدث معه مليا ، فلم ير لراشد أثرا ، فانتهاز الفرصة واغتنم الخلوة فقال : يا سيدي جعلت فداك ، إني جئت من المشرق بقارورة طيب أنطيب بها ، ثم إني رأيت هذه البلاد ليس بها طيب ، فرأيت أن الإمام أولى بها مني ، فخذها تنطيب بها ، فقد آثرتك على نفسي ، وهو من بعض ما يجب لك على ، ثم أخرجها

(١) ابن الخطيب، ص ١٩٣ - ابن أبي زرع من كتاب Extrait des historiens

من وعاء ، ووضعها بين يديه ، فشكره إدريس على ذلك ، ثم أخذ القارورة وشتمها ، وتحصل بمراذه منه ، فتمت حيلته فيه ، وجعل يده في الأرض ، وخرج كأنه يريد قضاء حاجة الإنسان ، فسار إلى منزله ، وركب فرسا له من عتاق الخيل وسباقها ، كان قد أعدها لذلك . وخرج من مدينة ويلي يطلب النجاة ، وكانت القاروة مسمومة ، فلما انتشق إدريس الطيب صعد السم في خيشومه ، وانتهى إلى دماغه ، فغشى عليه ، وسقط بالأرض على وجهه ، لا يفهم ولا يعقل ، ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه ^(١) . وقضى إدريس في غشيته إلى عشي النهار ، فتوفي في مستهل ربيع الآخر من سنة ١٧٧ هـ ^(٢) ، وقيل في سنة ١٧٥ هـ ^(٣) . وانتبه راشد مولى إدريس إلى غياب الشماخ ، فعلم أنه سم ، وكان سليمان الشماخ وصاحبه قد قطعاً على فرسيها أثناء ذلك مسافة طويلة ، فركب راشد في طلبه مع جماعة من أصحابه حتى أدركه بوادي مـلوية ، فضربه بسيفه ضربتين قطع بهما يده ، ولكنه لم يستطع أن يجهز عليه . إذ كيا به فرسه ، ونجح الشماخ في عبور الوادي واحتمى في البربر ^(٤) . فأمن الشماخ من مطاردة راشد ، وعصب جراحه ، ووصل إلى بغداد ^(٥) . فولاه الرشيد على بريد مصر ^(٦) :

(١) نص القرطاس من كتاب : Extraits des historiens, p. 20

(٢) نفس المرجع - الاستقصا ج ١ ص ١٥٩

(٣) البكري ، ص ١٢١ - ابن عذاري ج ١ ص ٢٩٩ - ابن الأثير ، ج ٥ ص

٩٠ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥ - القلقشندي ، ج ٥ ص ١٨٠ - الجزنائي ، ص ١١

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥

(٥) البكري ، ص ١٢١ - ابن عذاري ، ص ٢٩٩ - ابن الخطيب ، ص ١٩٥ - السلاوي

ج ١ ص ١٥٩

(٦) البكري ، ص ١٢١

وذكر بعض المؤرخين أنه سمى بوضع ذرور مسموم في سن له موجهة ،
وقيل أنه سمى في دلاعة (١) .

ودفن إدريس بخارج باب ولى ، في صحن رابطة ليتبرك الناس
بتربته (٢) .

ب - امامة ادريس الثاني :

توفي إدريس بن عبد الله دون ولد ، ولكنه ترك جارية له من جارياته
اسمها كنزة حاملا في السابع من أشهر حملها ، فجمع راشد قبائل البربر ،
وذكر لهم ، ما كان من أمر هذه الجارية ، فقالوا له : « أيها الشيخ المبارك ،
تقوم بأمرنا كما كانت إدريس يفعل فينا حتى تضع الجارية ، فان وضعت
غلاما ريئنا ، وبايعناه تبركا بأهل البيت ، بيت النبوة وذرية رسول الله ﷺ ،
وإن كانت جارية نظرنا لا نفسنا » (٣) . فقام راشد بأمرهم حتى وضعت كنزة
في ربيع الآخر سنة ٥١٧ هـ . (٤) ، وكان غلاما أشبه الناس بأبيه إدريس ، فأخرجه
راشد إلى رؤساء البربر ، فأعجبوا من شبه الكبير بأبيه ، فقالوا : « هذا إدريس
كأنه لم يمت » (٥) ، فسمى لذلك باسم أبيه ، وقام راشد مولاه بأمره ،
وكفله إلى أن غطن وشب ، فأحسن تأديبه ، وأقرأه القرآن ، وأحفظه
إياه ، ولم يتجاوز إدريس من العمر بعد ثمان سنوات ، ثم علمه السنة والفقه
وأشعار العرب وأيامهم ، وسير الملوك ، ثم دربه على ركوب الخيل ،

(١) البكري ، ص ١٢١ - ابن الخطيب ، ص ١٩٤

(٢) الجزنائي ، ص ١١ - السلاوي ، ج ١ ص ١٥٩

(٣) ابن الخطيب ، ١٩٦ - السلاوي ، ج ١ ص ١٦٠

(٤) البكري ، ص ١٢٢ - ابن الخطيب ، ص ١٩٦

(٥) ابن الخطيب ، ص ١٩٦ - السلاوي ، ج ١ ص ١٦٠

والمصاولة والمجاولة، وإحكام الرماية بالسهم (١). ولما تم إدريس من العمر عشر سنوات، جدد له راشد البيعة، بجامع وإيلق في أول شهر ربيع الأول سنة ١٨٦ هـ. ويذكر ابن خلدون أن إبراهيم بن الأغلب صرف همه إلى تمهيد المغرب الأقصى، إذ ساءه استفحال أمر إدريس براسد. فلم يزل يدس إلى البربر، ويسرب فيهم الأموال ويستميلهم حتى قتلوا راشدا، وسبق رأسه إليه (٢)، وذلك سنة ١٨٦ هـ. وفي ذلك يقول إبراهيم ابن الأغلب يخاطب الرشيد، ويكذب ادعاء محمد بن مقاتل العكي الذي نسب إلى نفسه محاولة قتل راشد :

ألم ترني أهلك بالكيد راشدا

وإني لأخري لابن إدريس راصد

وتاه أخوعك بمهلك راشد

وقد كنت فيه ساهرا وهو راقد (٣)

وتجمع معظم المصادر أنه قام بكفالة إدريس بعد مقتل راشد رجل اسمه أبو خالد بن يزيد بن الياس العبدى (٤). وذكر البكري أنه جددت لإدريس

(١) المرجع السابق - الجزء ثامن، ص ١٢٣

(٢) ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٥، ٢٠

(٣) ابن الخطيب، ١٩٧ - وأورد السلاوي نصا آخر لهذه الأبيات نقله عن عبد الملك

ابن الوراق نصها :

وإني بأخري لابن إدريس راصد

بمحتومة يعطى بها من يكيد

وقد كنت فيه شاهدا وهو راقد

ألم ترني بالكيد أردت راشدا

تناوله عزمى على بعد داره

فناه أبو عاك بمقتل راشد

(٤) البكري، ص ١٢٢

البيعة في ٧ ربيع الاول سنة ١٨٧ هـ (١). وهو ابن إحدى عشر سنة . وبايعته جميع القبائل من زناتة ، وأوربة وصنهاجة وغمارة وسائر قبائل البربر ، فاستقام له الامر بالمغرب الاقصى وتوطد ملكه ، وعظم سلطانه ، وقوى عسكره ، ووفد إليه الناس من سائر البلدان (٢) ، وكان ممن وفد عليه نحو ٥٠٠ فارس من إفريقية والأندلس ، من القيسية والأزد والخزرج ومذليج وبني محصب ، فسر إدريس بوفادتهم عليه ، ونزوعهم إلى بلاده ، وأجزل صلاتهم ، وقربهم منه ، وجعلهم بطانته (٣) ، واستوزر منهم عمير ابن مصعب الأزدي الملقب بالملجوم (٤) .

ولما رأى ابراهيم بن الأغلب عظم قوة إدريس استمال إليه كبير أوربة أبا ليلى اسحق بن محمود الأوربي ، ويبدو أن إدريس تبين له ميل اسحق لابن الأغلب، فقتله في ٦ من ذي الحجة سنة ١٩٢ هـ (٥) . وكثرت حاشية إدريس وأنصاره ، وضائق وليي بهم ، وبمن وفد عليه من العرب والبربر، فأسس لهم ربض القرويين من مدينة فاس في سنة ١٩٣ هـ (٦) ، وانتقل من عدوة الأندلسيين إلى الموضع المعروف بالمقرمدة من عدوة القرويين حيث بنى دار القيظون ، وبني بجوارها جامع الشرفاء (٧) .

(١) المرجع السابق - ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٩٩ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٦

(٢) الجزائى ، ص ١٣

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٦ - الجزائى ، ص ١٣

(٤) ابن خلدون ، ص ٢٩ - الجزائى ، ص ١٣ - السلاوى ، ١٦٣

(٥) البكرى ، ص ١٢٣ - ابن خلدون ، ص ٢٦

(٦) البكرى ، ص ١٢٣ - ابن عذاري ، ص ٢٩٩ - ابن خلدون ، ص ٢٦

(٧) ابن الخطيب ، ص ٢٠١ - الجزائى ، ص ١٤ ، ٢٠

استقام الأمر لإدريس بفاس ، فأقام بها حتى سنة ١٩٧ هـ ، ثم عزم على غزو قبائل البربر الوثنيين في تقيس وبلاد المضامدة ، فخرج على رأس جيش كثيف ، واستولى على مدينة تقيس ومدينة أغمات ، وفتح سائر بلاد المضامدة ، وعاد إلى فاس ، فأقام بها إلى شهر محرم من سنة ١٩٩ هـ ، ثم خرج إلى غزو قبيلة نفزة بتلمسان ، فافتتحها وأصلح أسوارها ، ورمم جامعها بأكادير (أغادير) وأقام له منبرا . وظل مقيا بتلمسان ثلاث سنوات (١) ، ثم عاد إلى فاس في شهر محرم (٢) سنة ٢٠٢ هـ . واستقبل فيها فوجا كبيرا من نوار الربض بقرطبة الذين طردهم الأمير الحكم الربضي عقب واقعة الربض ، فسمح لهم إدريس بالإقامة في عدوة الاندلس (٣) .

وكان إدريس قد أبدى في محاربة الصفرية من البربر في تلمسان ما أثار إعجاب رجاله ، ويذكر البكري أن داود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله ابن جعفر قال : « كنت مع إدريس بن إدريس في المغرب ، فخرجت معه يوما إلى قتال الخوارج . فلقيناهم وهم في ثلاثة أضعاف عددنا ، فقاتلناهم قتالا شديدا ، فأعجبني إدريس ذلك اليوم ، وجعلت أديم النظر إليه ، فقال : ويحك ، لم توالى النظر إلى ، قلت لخصال ، أما أولها فانك تبصق بصاقا

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٧ . وأقام إدريس لجامع أبيه بتلمسان منبرا شاهده عبد الملك بن الوراق في سنة ٥٥٥ هـ ، ورأى في رأس المنبر ألواحا من بقية المنبر القديم مسمرة هناك ، وقد كتب عليها : « هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، في شهر محرم سنة تسم وتسمين ومائة » (الجزء ٢ ص ٢٢)

(٢) ابن عذاري ، ص ٢٩٩ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٧ - الجزء ٢ ص ١٢ - السلاوي ، ص ١٦٩

(٣) ليفي بروقتسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١٠

مجتمعا وأنا أطلب قليل ماء أبل به حلى فلا أجده ، قال : ذلك لاجتماع قلبي وذهاب بصاقلك لذهاب عقلك ، قال ، قلت : والثانية ، لما أرى من منتك قال ان النبي ﷺ صلى علينا ، قلت : والثالثة ، لما أرى من حركتك وقلة فرارك على الدابة . قال : ذلك زمع الى القتال فلا تحسه رعبا ، (١) .

ويبدو أن إدريس اتخذ له بالاضافة الى وزيره عمير بن مصعب وزيرا من البربر اسمه بهلول بن عبد الواحد المطغري ، وكان بهلول هذا من أركان دولته ، فلما أخضع إدريس خوارج المغرب الاوسط لطاعته ، وامتد نفوذه حتى شلف ، أصبح يهدد نفوذ العباسيين بأفريقية ، فاضطر ابن الأغلب الى أن يدافع عن حماءه ، فأخذ يلاطف بهلول ويستميله إليه بالكتب والهدايا حتى « انخرف عن دعوة الادارسة الى عوة العباسية » ، ونجح ابن الأغلب في استمالة بهلول بمن معه من قومه ، فوفد عليه بالقيروان ، واستراب إدريس بالبربر ، فصالح ابن الأغلب (٢) . ولعل ذلك كان سببا في استكثار إدريس من العرب في دولته ، وانتقاله من ولسلي إلى فاس ، وأقام إدريس بعد ذلك في فاس حتى توفي في أول شهر ربيع الأول سنة ٢١٣ هـ ، وكان سبب وفاته أنه أكل عنبا ، فغص بحبة منه ، فلم يزل مفتوح الفم سائل اللعاب حتى مات (٣) . وقيل أنه توفي مسموما (٤) ، ودفن على

(١) البكري ، ص ١٢٣ - ابن الخطيب ، ص ١٩٨ - السلاوي ، ١٦٨

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٧ ، ٤٢٠ - ابن الخطيب ، ص ١٤

(٣) البكري ، ص ١٢٣ - ابن الخطيب ، ص ٢٠٢ - الجزائلي ، ص ٢٣

(٤) ابن عذاري ، ص ٢٩٩

حد قول المؤرخين في مدينة ويلي (١) . وذكر بعضهم أنه دفن بفاس في
في مسجد الشرفاء ، إزاء الجدار الشرقى منه ، وقد أنشأ في ذلك بعض
الشعراء :

منازل أهل الله آل رسوله
فأحب بهم أهلا وأحب بهم مغي
مدينة إدريس بن إدريس القى
بها قبره نار وقبره مغي (٢)

(١) البكري ، ص ١١٥ - ابن الخطيب ، ص ٢٠١ - السلاوي ، ج ١ ص ١٧١

(٢) الجزائى ، ص ٢٢ - السلاوي ، ص ١٧١

(٢)

خلفاء ادريس الثاني حتى سقوط فاس في أيدي الفاطميين

١ - تقسيم دولة الادارسة في امامة محمد ابن ادريس :

لما توفي إدريس خلفه على الإمامة ابنه محمد، بعهد من أبيه إليه، وأوصته جدته كنزة أن يشرك إخوته معه في سلطانه، فيقسم دولته إلى أعمال يتولاها إخوته، فولى أخاه القاسم سبته وطنجة وقلعة حجر النسر وبسكرة وتيطاون، وما يلحق بهذه المدن من بلاد وقبائل، واختص أخاه عمرا ببلاد صنهاجة الهبط وغمارة، وولى داود بلاد هواره، وتسول، وتازي وما بينهما من القبائل مكناسة وغيانة. أما عبد الله، فولاه أغمات وبلد نفيس، وجبال المصامدة، وبلاد لمطة، والسوس الأقصى. وولى يحيى على آصيلا والعراش وبلاد زواغة، وخص عيسى بشالة، وسلا، وآزمور، وتامسنا، وبرغواطة وما إلى ذلك. وخص أحمد بمدينة مكناسة، ومدينة تادلا، وما بينهما من بلاد فازاز. وولى حمزة على ويلي وأعمالها، وأبقى تلمسان لابن عمه سليمان بن عبد الله، أما الباكون فقد أبقاهم في كفالة جدته كنزة، لصغر أعمارهم عن الولاية، أما هو فاكتمى بحاضرتة فاس (١). وأقام محمد بن إدريس بفاس عاصمة مملكته، ولكن عيسى لم يلبث أن ثار بشالة، وشق عصا الطاعة على محمد طالبا الأمر لنفسه، فكتب محمد إلى أخيه القاسم صاحب طنجة، يأمره بمحاربة عيسى، ولكن القاسم امتنع عن ذلك،

(١) البكري، ص ١٢٤ - ابن عذاري، ج ١ ص ٣٠٠ - ابن خلدون، ج ٤ ص

٢٧، ٢٨ - ابن الخطيب، ص ٢٠٤ - السلاوي، ج ١ ص ١٧٢

وخالف أمر أخيه الإمام محمد ، فاضطر هذا إلى أن يكتب إلى أخيه عمر صاحب صنهاجة وغمارة . فامثل لأمره ، وسارع إلى نصرته ، إذ كان على خلاف مع أخيه عيسى ، وزحف إلى عيسى في حشود هائلة من بربر صنهاجة وغمارة ، وأمدّه أخوه محمد بألف فارس من قبيلة زناتة، واشتبكت قوات عمر مع قوات عيسى وهزمتها ، وكتب عمر إلى الإمام محمد بهذا الانتصار ، فولاه على ما فتحه من أعمال عيسى ، وأمره بالسير لمحاربة القاسم ، فزحف عمر إلى القاسم ، ونزل عليه بظاهر طنجة ، قامت الحرب بينهما ، فانتصر عمر ، واستولى على طنجة وسائر أعمال القاسم ، وأصبح الريف البحرى كله تابعا لعمر من بلاد غمارة إلى سبتة وطنجة في منطقة البحر المتوسط ، ثم إلى أصيلا وسلا وآزمور وبلاد تامسنا ، وكلها بلاد مطلة على المحيط (١) . أما القاسم فقد سار إلى ساحل البحر مما يلي أصيلا ، فاتخذ هناك مسجدا ورباطا ، ما زال قائما بالقرب من تاهدارت ، رابط فيه ، وزهد في الدنيا ، إلى أن توفي هناك .

وانسعت ولاية عمر بما انضم إليه من عمل أخويه عيسى والقاسم ، وأخلص عمر للإمام محمد ، إلى أن توفي في ٢٢٠ هـ ببلاد صنهاجة في موضع يقال له فنج الفرس ، وكان منية له ، فحمل إلى فاس ، ودفن فيها مع أبيه . وخلفه على عمله ابنه علي بن عمر (٢) . وعمر هذا هو جد بني حمود الذين تلقبوا بالخلافة في الأندلس في عصر ملوك الطوائف .

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٨ - السلاوي ، ج ١ ص ١٧٣

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠٠ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٨ ، ٢٩ - ابن الخطيب ،

ص ٢٠٦ - السلاوي ، ج ١ ص ١٧٤

ولم يطل العهد بالإمام محمد ، إذ مرض ، ثم توفي بعد سبعة أشهر من وفاة أخيه عمر في سنة ٢٢١ هـ ، ودفن بشرقي جامع الشرفاء بفاس .

ب - خلفاء محمد بن إدريس :

كان الإمام محمد قد استخلف ابنه عليا الملقب بمحيدرة أثناء مرضه، وكان على لا يتجاوز عمره تسع سنوات ، فقام بأمره « الأولياء والحاشية من العرب وأوربة وسائر البربر وصنائع الدولة » (١) ، وبايعوه بالإمامة وهو غلام ، فسار سيرة أهل العدل والفضل والدين ، وتمتع الناس في عهده بالأمن والدعة ، ثم توفي في رجب سنة ٢٣٤ هـ ، وعهد بالأمير من بعده إلى أخيه يحيى بن محمد (٢) .

تولى يحيى بن محمد الإمامة بعد وفاة أخيه ، وشهدت فاس في عصره القصير ازدهارا في العمران ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « واستجذبت فاس في العمران ، وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار ، وبنيت الأرباض ، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية » (٣) . وفي عهده أسست أم البنين فاطمة بنت محمد الفهرى المسجد الجامع بعدوة القرويين بفاس . وتوفي يحيى بن محمد في تاريخ غير معروف ، وخلفه ابنه يحيى بن يحيى ، وكان ماجنا ، محبا للشراب ، معجبا بالنساء ، فأساء السيرة ، وخالف طريق سلفه ، وذكروا أنه دخل يوما الحمام المقصور على النساء ، بسبب امرأة جميلة من

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٩

(٢) نفس المرجع - ابن الخطيب ، ص ٢٠٧ - السلاوي ، ج ١ ص ١٧٥

(٣) نفس المرجع

اليهود (١) ، يقال لها حنة (٢) ، وراودها على نفسها ، فتغير عليه أهل فاس ، وثارَت به العامة ، وعلى رأسهم عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي ، فأخرجوه من عدوة القرويين إلى عدوة الأندلسيين ، وأبت زوجته عائكة بنت علي ابن عمر بن إدريس أن تخرج معه إلى عدوة الأندلسيين (٣) . أما يحيى فقد توارى بهذه العدو ليلتين ، ثم توفي أسفا .

وبلغ خبر وفاته عليا بن عمر صاحب الربف ، واستدعاه أهل الدولة من العرب والبربر والموالي ، فقدم إلى فاس ودخلها ، وبأيعه أهلها بالإمامة (٤) ، وخطب له بمنابر أعمال المغرب ، وانتقلت الإمامة على هذا النحو من بني محمد بن إدريس إلى بني عمر بن إدريس ، واستقام الأمر لعلي بن عمر ، إلى أن ثار عليه عبد الرزاق الفهرى الخارجى الصفرى ، وزحف إليه من جبل مدبونة الواقع قبلى فاس ، ودارت بينه وبين علي بن عمر مواقع حربية ، انتهت بهزيمة علي وفراره إلى بلاد أوربة ، واستولى عبد الرزاق على عدوة الأندلسيين . ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على عدوة القرويين ، وبعث أهالى عدوة القرويين إلى يحيى بن القاسم المعروف بالعدام ، فولوه على أنفسهم ، فلم يزل بها حتى قتله ربيع بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ (٥) . وقد تمكن يحيى هذا من التغلب على عبد الرزاق ، وإخراجه من عدوة

(١) البكرى ، ص ١٢٤ — ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠٠ — ابن الخطيب ، ص ٢٠٧ —

السلامى ، ج ١ ص ١٧٨

(٢) البكرى ، ص ١٢٤

(٣) نفس المرجع ، ص ١٢٥

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٠

(٥) البكرى ، ١٢٥ — ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠١ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٠

الأندلسيين ، واستعمل عليها ثعلبة بن محارب بن عبد الله الأزدي ، من أهل الربض بقرطبة الذين لجئوا إلى فاس ، واستقروا بعدوة الأندلسيين . ولما توفي ثعلبة استعمل مكانه ابنه عبد الله بن ثعلبة المعروف بعبود ، ثم استعمل بعد وفاة عبد الله ولده محارب بن عبود (١) .

ولما قتل يحيى بن القاسم خلفه يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس سنة ٢٩٢ هـ ، فبايعه أهل فاس في العدوتين ، وخطب له فيها ، وفي سائر دولة الأدارسة . وكان يحيى هذا على حد قول ابن خلدون « أعلى بني إدريس ملكا ، وأعظمهم سلطانا ، وكان فقيها عارفا بالحديث ، ولم يبلغ أحد من الأدراسة مبلغه في السلطان والدولة » (٢) .

ولم يزل يحيى قائما بأمر دولة الأدارسة ، حتى قدم مصالة بن حبوس الكتامي ، قائد عبيد الله المهدي سنة ٣٠٥ هـ ، فخرج إليه يحيى بن إدريس لمدافعته بمجموع من بربر أوربة وسائر القبائل ، والتقوا على مكناسة الزبتون ، فانهزم يحيى هزيمة نكراء ، ورجع مفلولا إلى فاس ، وحاصره فيها مصالة ، فصالحه يحيى على مال يؤديه إليه ، وعلى مبايعة عبيد الله الشيعي ، ورحل عنهم مصالة إلى إفريقية في سنة ٣٠٧ هـ ، بعد أن أقام موسى بن أبي العافية المكناسي أميرا على تسول وبلاد تازي ، وترك يحيى أميرا على فاس . وكانت بين يحيى وموسى عداوة قديمة ، فلما عاد مصالة إلى المغرب الأقصى في غزوته الثانية في سنة ٣٠٩ هـ ، سعى ابن أبي العافية يحيى بن إدريس عنده ، حتى ضاق مصالة يحيى ، وعزم على القبض عليه ،

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣١ - ابن الخطيب ، ص ٢٠٩ - السلاوي ، ج ١ ص ١٨٠

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٩

فلما قرب مصالة من فاس ، خرج إليه يحيى مسلما في جملة من عسكره ، فقبض عليه مصالة ، وكبل يحيى بالأغلال ، وأدخله المدينة ، واستصفي أمواله ، ثم أطلقه ، فخرجه يحيى إلى ناحية أصيلا والريف ، وكانت عمل ذوى قرباه (١) . أما فاس ، فقد أقام عليها مصالة ريحانا الكتامي من كبار قواده ، ورحل بعد ذلك إلى إفريقية . أما يحيى ، فقد تمكن موسى بن أبي العافية من اعتقاله وسجنه عشرين سنة بمدينة لكاي ، ثم أطلقه بعد ذلك . فرحل إلى المهديّة سنة ٣٣٩ هـ (٢) ، حيث توفي بها جوعا أثناء حصار أبي يزيد بن كيداد اليفرنى للمهديّة في سنة ٣٣٢ هـ (٣) .

أما فاس ، فقد ثار بها حسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام بعد ثلاثة أشهر من ولاية ريحان في سنة ٣٠٩ هـ ، فقدم إلى فاس في حشود كثيفة من شيعته ، وأنصاره ، فباغت أهلها ، واستولى عليها ، ونفى ريحانا منها ، وملكها عامين ، ثم قام بينه وبين موسى بن أبي العافية خلاف ، فزحف الحسن إلى موسى في سنة ٣١١ هـ ، واشتبك معه في قتال شديد ، على مقربة من وادي المطاحن ، بين فاس وتازي ، انتهى بهزيمة موسى بن أبي العافية ، وقتل من رجاله أكثر من ألفين ، من جملتهم ابنه منهل (٤) . ولكن ابن خلدون يذكر أن الحسن عاد إلى فاس منهزما (٥) .

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢ — ابن الخطيب ، ص ٢١١ — التلقشندى ، صبح الاعشى ج ٥ ص ١٨٢ — السلاوى ، ج ١ ص ١٨٣

(٢) البكري ، ص ١٢٦ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٢

(٣) ذكر البكري أنه توفي بالمهديّة سنة ٣٣٤ هـ .

(٤) البكري ، ص ١٢٧ — ابن عذاري ، ص ٣٠٢ — ابن الخطيب ، ص ٢١٢ — السلاوى ، ج ١ ص ١٨٥

(٥) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٢ — التلقشندى ، ص ٢٨٣

وأغلب الظن أن النصر تم لموسى في النهاية ، وأن الحسن الحجام عاد مفلولا إلى فاس ، فقدر به عامله على عدوة القرويين حامد بن حمدان الحمداني المعروف باللوزي ، فقبض عليه ، وأغلق أبواب عدوة القرويين عن عسكر الحجام ، ثم أرسل حامد إلى موسى ، فأناه بمجيوشه ، ودخل عدوة القرويين ، وأخذ يحث حامدا على قتل الحجام في سجنه ، ولكن حامد سوف في ذلك وماطل في تنفيذه ، ثم أطلق الحسن متنكرا بعد ما عاين من قسوة موسى بن أبي العافية . فتدلى الحسن من سور العدوة ، فسقط ، وكسرت ساقه ، فتحامل على نفسه حتى وصل إلى عدوة الأندلسيين ، حيث مات بعد ليلتين من هروبه في سنة ٣١٣ هـ : أما حامد فقد فر إلى المهديّة ١ .

ثم تمكن موسى بن أبي العافية من الاستيلاء على عدوة الأندلسيين ، وقتل عبد الله بن ثعلبة بن محارب وابنيه محمد ويوسف ، وانقرضت بذلك دولة الأدارسة بفاس ، وخضعت بلادهم لموسى بن أبي العافية ، الذي انتقم من الأدراسة ، وأجلاهم عن مواضعهم ، ونفاهم بمدينة حجر النسر .

(١) البكري ، ص ١٢٧ - ابن عذاري ، ص ٣٠٣ - ابن خلدون ، ص ٣٣ - ابن

الخطيب ، ص ٢١٢

(٣)

مدينة فاس حاضرة الأدارسة

١ - مشكلة تأريخ تأسيس مدينة فاس :

يؤكد الجغرافيون العرب الذين وصفوا مدينة فاس بأنها تتألف من مدينتين منفصلتين ، وأقدم هؤلاء الجغرافيين اليعقوبي ، وابن حوقل ، والبكري ، والإدرسي .

فقد وصف الجغرافي اليعقوبي مدينة فاس في القرن الثالث الهجري بقوله : « ثم يدخل إلى المدينة العظمى التي يقال لها مدينة إفريقية على النهر العظيم الذي يقال له فاس ، بها يحيى بن يحيى بن إدريس ، وهي مدينة جليلة ، كثيرة العمارة والمنازل . ومن الجانب الغربي من نهر فاس ، وهو نهر يقال إنه أعظم من جميع أنهار الأرض ، عليه ثلاثة آلاف رحي تطحن ، المدينة التي تسمى مدينة أهل الأندلس ، يزلها داود بن إدريس » (١) .

ووصفها أيضا الجغرافي ابن حوقل في القرن الرابع الهجري بأنها : « مدينة جليلة يشقها نهر ، وهي جانبان يليها أميران مختلفان ، وبين أهل الجانبين الفتن الدائمة ، والقتل الذريع المتعمل ، ونهرها كبير غزير الماء ، عليه أرحية كثيرة ، وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة ، أحدثها إدريس بن إدريس ... » (٢) .

(١) اليعقوبي ، ص ٣٥٧ ، ٣٥٨

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٩٠

ويصفها البكري في القرن الخامس الهجري بقوله : « ومدينة فاس
مدينتان مقترنتان مسورتان ، وبينهما نهر مطرد ، وأرجاء وقناطر ، وعدوة
القرويين في غربي عدوة الأندلسيين ... وعلى باب دار الرجل فيها رحاء
وبستانه بأنواع الثمر ، وجداول الماء تحرق داره . وبالمدينتين أزيد من
ثلاث مائة رحا ، وفيها نحو عشرين حماما ، وهي أكثر بلاد المغرب يهودا ،
يختلفون منها إلى جميع الآفاق ، ومن أمثال أهل المغرب « فاس بلد
بلا ناس » ، وكاتا عدوتي فاس في صفح جبل ، والنهر الذي بينها مخرجه
من عين غزيرة في وسط برج ببلاد مطهرة ، على مسيرة نصف يوم من فاس ،
وأُسست عدوة الأندلسيين في سنة ١٩٢ هـ ، وعدوة القرويين في سنة
ثلاث وتسعين ومائة في ولاية إدريس بن إدريس » (١) .

وأخيرا يصفها الإدريسي في القرن الخامس الهجري بقوله : « ومدينة
فاس مدينتان بينهما نهر كبير يأتي من عيون تسمى عيون ، وعليه في داخل
المدينة أرجاء كثيرة تطحن بها الحنطة بلا ثمن له خطر ، والمدينة الشمالية منها
تسمى القرويين ، وتسمى الجنوبية الأندلس ، والأندلس مأواه قليل ،
لكن يشقها نهر واحد يمر بأعلاها ، وينتفع منه ببعضها ، وأما مدينة
القرويين فيهاها كثيرة ... وفي كل مدينة منهما جامع ومنير وإمام ، وبين
المدينتين أباديق ومقاتلات ، وبالجملة إن أهل مدينتي فاس يقتل فتياهما
بعضهم بعضا » (٢) .

وتتضمن المصنفات التاريخية المغربية كثيرا من التفاصيل عن تاريخ

(١) البكري ، ص ١١٥

(٢) الإدريسي ، ص ٧٥ ، ٧٦

فاس ونشأتها ، وأهمها روض القرطاس لابن أبي زرع ، وزهرة الآس للجزنائي ، وجذوة الاقتباس لابن القاضي . وكل هذه المصنفات تجمع على أن إدريس بن إدريس بن عبد الله هو مؤسس مدينة فاس ، وأنه شرع في تأسيس عدوة الأندلسيين في عام ١٩٢ هـ ، وأسس عدوة القرويين بعد ذلك في سنة ١٩٣ هـ . وقبل أن نخوض في مشكلة تاريخ بناء مدينة فاس ، وهي مشكلة أثارها المستشرق الفرنسي الأستاذ ليفي بروفنسال (١) ، أود أن أستعرض بإيجاز ما أورده القرطاس وزهرة الآس ، وجذوة الاقتباس فيما يختص بتأسيس مدينة فاس :

١ - لما رأى الإمام إدريس بن إدريس أن الأمر استقام له ، وعظم ملكه ، وكثر أنصاره وحشمة ، وضائق بهم وليلى ، عزم على الانتقال منها إلى مدينة جديدة يؤسسها ، ويسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه أهل دولته ، فركب بعد الاستخارة في خاصة من قومه في سنة ١٩٠ هـ ، وطاف ببعض النواحي إلى أن بلغ جبل زالغ ، فعزم على أن يبني فيه المدينة ، وشرع بالفعل في بنائها ، فبنى بعض دورها ونحو الثلث من سورها ، فأتى السيل من أعلى الجبل في بعض الليالي ، وهدم السور والدور ، وحمل ما حول ذلك من الخيام والزروع وألقى به في نهر سبو . فعدل عن هذا الموضع .

٢ - ثم خرج في العام التالي في بداية عام ١٩١ هـ ، ليرتاد موقعا يبني فيه مدينته ، فانتهى إلى نهر سبو بالقرب من حمة خولان ، فأعجبه الموضع

(١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور السيد عبدالعزيز

سالم ، والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ١٩٥٨ ص ١-٥٠

لقربه من الماء ، ولوجود الحمة الساخنة ، وشرع في حفر الأساس ، وعمل الجيار ، وابتدأ بالبناء . ثم فكر في نهر سبو وما يأتي به من المدود والسيول ، زمن الشتاء ، وما يحدث نتيجة ذلك من الضرر العظيم للناس ، فكف عن البناء ، وعاد إلى ويلي .

٣ - عهد إدريس بعد ذلك إلى وزيره عمير بن مصعب الأزدى بمهمة ارتياد موضع لتأسيس مدينته ، فنزل على عين ماء سميت بعين عمير ، ثم ركب إلى فخص سايس حتى وصل إلى العيون التي ينبع منها نهر وادي فاس ، فرأى عيونا كثيرة تزيد على الستين عينا ، ورأى مياهها تفيض على الأرض فسيحة ، فشرب من الماء ، فاستطابه ، ثم سار في اتجاه الوادي حتى وصل إلى الموضع الذي قامت عليه مدينة فاس ، فنظر إلى ما بين الجبلين ، فرأى غيضة ملتفة الأشجار ، مطردة العيون والأشجار ، وفي مواضع منها خيام من شعر يسكنها قوم من زواغة يعرفون ببني الخير ، وقوم من زناتة يعرفون ببني يرغش ، كانوا على دين المجوسية ، وكان بيت نارهم في الموضع المعروف بشيوبة ، وكان بعضهم على دين اليهودية ، وبعضهم على دين النصرانية . وكان بنو الخير ينزلون بعدوة القرويين ، وبنو يرغش ينزلون بعدوة الأندلسيين ، وكانوا على خلاف دائم لتباين أديانهم ، واختلاف نزعاتهم .

٤ - رجع عمير إلى إدريس ، وعبر له عن استحسانه لذلك الموضع ، من كثرة مياهه ، وطيب تربته ، ورطوبة هوائه ، فسر إدريس ، وركب إلى هناك ليشاهد الموضع ، فوجد بني الخير وبني يرغش يقتتلون ، فأصلح بينهم ، وأسلموا على يده ، ثم إنه اشترى منهم موضع الغيضة بستة آلاف درهم ، فرفضوا بذلك .

٥ - ضرب إدريس أخيه وقبائه بالموضع المعروف بجرواوة من عدوة الأندلس ، وابتدأ ببناء سورها ، وبني بها جامعاً للخطبة قريباً من رحبة البئر ، يعرف بجامع الأشراف .

٦ - انتقل إدريس بعد ذلك إلى الموضع المعروف بالمقرمدة من عدوة القرويين ، حيث دار القيطون المتصلة بمسجد الشرفاء ، وابتدأ بحفر الأساس بفأس من ذهب . وتبعه الفعلة في ذلك فسميت المدينة فاساً ، وقيل أنه لما شرع في حفر أساسها من جهة القبلة وجد في الحفر فاس أثري كبير ، فسميت المدينة فاساً لذلك . وقيل أن راهبا أخبره بأنه كانت تقوم في موضع القرويين مدينة أزلية ، خربت منذ ألف عام ، وكان اسمها ساف ، فأثر إدريس أن يسمى مدينته باسم المدينة القديمة مقلوباً . وشرع في بنائها في غرة ربيع الأول سنة ١٩٣ هـ ، وأدار حولها السور ، وبني لها مسجداً لعق داره المعروفة بدار القيطون سمي بمسجد الشرفاء . وكان في أثناء ذلك قد أمر الناس ببناء الدور والغرس ، ونادى فيهم أن كل من بنى موضعاً أو اغترسه قبل تمام السور فهو له هبة لله تبارك وتعالى .

٧ - لما فرغ إدريس من بناء أسوار المدينة (القرويين) وجامع خطبتها ، أنزل الوافدين عليه من الأندلس بالعدوة الشرقية ، فسميت لذلك بعدوة الأندلس ، وأنزل الوافدين عليه من القيروان بالعدوة الغربية منها فسميت لذلك بعدوة القرويين . ثم أمر الناس بزيادة البناء والغرس ، فبنى الناس الدور والمساجد في القرويين ، وغرسوا جانبي الوادي من منبعه بفحص سايس إلى مصبه في نهر سبو بأنواع الأشجار ، وعمرت الأرض بغرس الأشجار ومختلف أنواع المزروعات ، وزاد العمران ، وقصد الناس مدينة

فاس (يقصد القرويين) . ولما كملت المدينة واستقامت حال رعيته فيها ،
خطب في الناس بجامعها (١) .

* * *

ويخرج الأستاذ ليفى بروفنسال من هذه الروايات المختلفة في نشأة
مدينة فاس بثلاثة أسئلة لا إجابة عنها في المصادر العربية ، الاول : ماهو
مغزى تأسيس إدريس الثاني لمدينتين متجاورتين ومنفصلتين في آن واحد ،
لكل منها سور مستقل ، في تاريخ متقارب ، بحيث لا يفصلها من العمر إلا
عام واحد ؟

والثاني : كيف استطاع هذا الإمام الصغير الذي لم يكن يتجاوز من
عمره ١٧ عاما أن يقوم بتنفيذ مشروع ضخم وهو إنشاء مدينتين مختلفتين
في مكان واحد ؟

الثالث : لماذا آثر إدريس إيجاد تعارض عنصرى وسياسى واجتماعى
لمدينتين متماثلتين ؟

وعندئذ يعرض الأستاذ ليفى بروفنسال نظرية جديدة في نشأة فاس ،
وتقوم أساسا على أن إدريس بن عبد الله أسس مدينة فاس في سنة ١٧٢ هـ
في الموضع الذى تقوم عليه عدوة الأندلس ، وأن إدريس بن إدريس

(١) ارجع الى : ابن أبى ذرع ، كتاب الأئیس المطرب بروض القرطاس في أخبار
ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشرة تورنبرج Carolus Johannes Tornberg
أبساله ١٨٤٣ — الجزئى ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، نشرة الفريد بل ،
الجزائر ١٩٢٢ — السلاوى ، الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ،

أسس عدوة القرويين في سنة ١٩٢ هـ في غرب مدينة أبيه ، وعلى الضفة اليسرى من وادى فاس ، في الموضع المعروف بدار القيطون . وقد اعتمد الأستاذ ليفى بروفنسال لإثبات هذه النظرية على أدلة مادية ، وعلى نصوص تاريخية نجملها فيما يلي :

الأدلة المادية :

- ١ - في المكتبة الأهلية بباريس درهم ضرب بمدينة فاس في سنة ١٨٩ هـ ، قبل التاريخ المتواتر في المصادر السابقة لتأسيس مدينة إدريس الثاني بسنتين .
- ٢ - في متحف مدينة خاركوف درهم آخر ضرب في مدينة فاس في سنة ١٨٥ هـ .

- ٣ - في نفس الوقت توجد عملات يظهر فيها اسم إدريس الثاني ضربت في وليلى وتدغة تحمل التواريخ المتعاقبة لسنوات ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ هـ .

- ٤ - معظم العملات التي تحمل اسم إدريس الثاني ضربت في مدينة العالية في سنوات ١٩٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٤ هـ . والمقصود بهذه المدينة حسب ما يراه الأستاذ ليفى بروفنسال إما أنها تعنى المرتفعة باعتبار أن عدوة القرويين أكثر ارتفاعا من عدوة الأندلسيين ، وإما نسبة إلى علي ، أو أنها صفة الحضرة العلية ، بدليل أن المدينة البيضاء التي أسسها بنو مرين كانت تسمى بفاس العليا .

ويفسر الأستاذ ليفى بروفنسال هذا التباين في أسماء دور السكة الإدريسية بأن فاس كانت مركزا لسك العملة قبل سنة ١٩٢ هـ ، استنادا على الحقائق المستمدة من نقوش العملات ، إذ أن اسم فاس يختفى منذ

سنة ١٩٨ هـ وما بعدها ، ويحل اسم العالية محل اسم فاس ، ولا يعود اسم فاس إلى الظهور على العملات المغربية إلا منذ سنة ٣٦٩ هـ على درهم فاطمي ، وعلى عملات أموية مضروبة تحمل اسم هشام المؤيد كما تحمل تاريخا يتراوح ما بين عامي ٢٧٧ ، ٢٩٨ هـ . ويخرج الأستاذ ليفي بروفنسال من كل ذلك بأن فاس أسست قبل سنة ١٨٥ هـ (١).

الأدلة التاريخية :

١ - رواية عن المؤرخ القرطبي أبو بكر أحمد بن محمد الرازي المتوفى سنة ٣٤٤ هـ نقلها ابن الأبار في الحلة السراء ، جاء فيها أن إدريس بن عبد الله دخل المغرب في سنة ١٧٢ هـ في شهر رمضان ، وذلك بعد أن هرب من تعقب أبي جعفر المنصور له ، ونزل في موضع يعرف بوليلي يقع قريبا من وادي الزيتون . وهناك اجتمعت إليه قبائل من البربر ، وبايعوه بالإمامة ، فأسس مدينة فاس ، وكانت أجمة شعراء . وسميت بفاس لأنهم لما شرعوا في حفر أساسها وجدوا فاسا في موضع الحفر ، وسكنها البربر ، ولم يطل عهد إدريس بن عبد الله ، إذ توفي في سنة ١٧٤ هـ تاركا إحدى جارياته حاملا منه ، فوضعت غلاما ذكرا سمى إدريس ، وهو الذي خلف أباه على مدينة فاس ، وطال به العهد في الإمامة حتى توفي في شهر ربيع الأول سنة ٢١٣ هـ ، وكان مولده في شهر ربيع الثاني سنة ٧٥ هـ (٢).

ويخرج الأستاذ ليفي بروفنسال من هذا النص بالحقيقة التالية : أن

(١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٥-١٩

Roger le Tourneau, Fès avant le Protectorat, Casablanca, 1949, pp. 33. et sqq.

(٢) ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ١ ص ٥٥

إدريس بن عبد الله أسس فاسا سنة ١٧٢ هـ على أكثر تقدير ، وهي سنة وصوله إلى المغرب الأقصى ، ولا يمكن أن تكون قد تأسست بعد سنة ١٧٤ لأنه توفي في هذه السنة ، وأن هذه المنشأة المدينة التي سميت بفاس كانت منذ نشأتها مدينة بربرية .

٢ - رواية لا بن سعيد المغربي في المغرب ، ولا بن فضل الله العمري في مسالك الألبصار ، وللقشندى في صبح الأعشى ، وهي رواية نقلت عن مصدر واحد هام ، ونصها :

قال ابن سعيد في المغرب : « وهي مدينتان إحداهما بناها إدريس بن عبد الله أحد خلفاء الأدارسة بالمغرب وتعرف بعدوة الأندلس ، والأخرى بنيت بعدها وتعرف باسم عدوة القرويين » (١).

وهذه الرواية تثبت أن فاسا من إنشاء إدريس بن عبد الله ، وأنها هي نفس المدينة التي أطلق عليها فيما بعد اسم عدوة الأندلسيين ، وأن عدوة القرويين من إنشاء إدريس بن إدريس (٢) .

٣ - نص رواه البكري (بخلاف النص الذي أشرنا إليه سابقا في وصف فاس) نقلا عن أبي الحسن النوفلي جاء فيه ما يلي : « وقتل أبا ليلى اسحق ، وهو القائم به وبأبيه ، يوم السبت لست خلون من ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين ومائة ، وبعث رأسه إلى المشرق مع أحمد وسليمان ابني عبد الرحمن ، ثم نزل مدينة فاس في عدوة الأندلسيين ، وأقام بها شهرا ، وذلك سنة

(١) القشندى ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ج ٥ ، ص ١٥٣

(٢) ليفي برونفسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٣

اثنين وتسعين ومائة ، ولما كانت عدوة القرويين غياضا في أطرافها أبيات من زواغة ، فأرسلوا إلى إدريس ، فدخل عندهم ، فأسس مدينة القرويين سنة ثلاث وتسعين (١). وبثبت هذا النص بصورة لاتدع مجالا للشك أن مدينة فاس وهى عدوة الأندلسيين كانت موجودة بالفعل قبل مجيئه إليها وإقامته بها شهرا كاملا .

٤ - وينقل هذا النص ابن الأبار في كتابه الحلة السراء نقلا عن النوفلى بشيء من الإيجاز ، فيذكر أن إدريس بن إدريس أسس مدينة في القرويين في سنة ١٩٣ هـ (٢).

٥ - رواية لمؤرخ غرناطى مجهول عاش في القرن الثامن الهجرى ، في عصر سلاطين دولة بنى نصر بغرناطة ، في مجموعة متفرقات تاريخية بعنوان: « الزهرة المنشورة في الأخبار المأثورة » فيها إشارة لشوار ربض شقندة الذين تقام الحكم بن هشام من الأندلس ، وقد نقل المقرئ هذه الرواية في كتاب نفح الطيب ، وملخصها : أن فريقا من أهل الربض اتجه إلى بلاد المغرب ، فزلوا بعدوة الأندلس ، وهى قسم من مدينة فاس ، سمى منذ ذلك الحين باسم عدوة الأندلسيين ، وعمرت هذه العدوة بالسكان بفضل هؤلاء الوافدين سنة ٢٠٢ ، وتمدين بهم . وكان أمير المغرب وقتئذ القاسم بن إدريس المهاجر من المغرب ، وكان إبننا لعبد الله . وكانت قد مضت ثلاثون سنة بين إعادة تأسيس المدينة على يد الأندلسيين ، وبين تأسيس مدينة فاس القديمة ، التى بنيت في سنة ١٧٢ هـ ، عندما دخل المغرب إدريس بن عبد الله جد القاسم هاربا من تعقب أبي جعفر المنصور له ، حيث التف حوله البربر ، وجعلوه

(١) البكرى ، ص ١٢٣

(٢) ابن الأبار في الحلة السراء ، ج ١ ص ٥٣

إمامهم ، وبنوا له مدينة فاس وكان موضعها غيضة . وعندما حفرت الأسس وجدوا فاسا في باطن الأرض ، وسميت المدينة لذلك السبب بفاس .

ويؤكد هذا النص قيام إدريس بن عبد الله ببناء مدينة فاس في سنة ١٧٢ هـ ، أى قبل وفود الأندلسيين بثلاثين عاما . ويخرج الأستاذ ليفى بروفنسال من جميع هذه الأدلة بالنتائج الآتية :

١ - أن إدريس بن عبد الله أسس مدينة على الطراز البربري في الجزء الواقع شرقي فاس الحالية في سنة ١٧٢ هـ ، سميت بفاس ، وسكت فيها العملات الإدريسية في تاريخ غير معروف ولكنه يرجع على الأقل إلى سنة ١٨٩ هـ .

٢ - أن إدريس بن إدريس أسس بعد ذلك بنحو ٢١ سنة ، في موضع يقع غربي الموقع الذي أقيمت فيه مدينة فاس في عهد أبيه ، وهو موضع أفضل من حيث المناخ ووفرة المياه من موضع فاس القديمة ، مدينة على الطراز الأفريقي أطلق عليها رسميا اسم العالية . ولعلها سميت أيضا بأفريقية على جد قول اليعقوبي ، وهو اسم له علاقة واضحة بما انتهى إليه اسمها ، وهو مدينة القرويين أي مدينة القيروانيين .

٣ - لما وفد أهل الرض بقرطبة إلى المغرب الأقصى لاجئين إلى دولة الأدارسة ، أنزلهم إدريس في مدينة أبيه ، فاستقروا فيها ، وأنشأوا بها مدينتهم التي سميت بمدينة الأندلسيين . وعلى هذا النحو أصبح اسم فاس يطلق على العدوتين معا (١) .

(١) ليفى بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٧ ، ٢٨

ونضيف إلى الأدلة السابقة التي أوردها لينى بروفنسال أدلة ثلاثة أخرى مستقاة من كتاب زهرة الآس للجزنائي ، ودليلا من ابن عذارى، ودليلا آخر من ابن الخطيب وأخيراً نضيف دليلا يقوم على المقارنة .

١- الأدلة المأخوذة من الجزنائي :

١- أن الجزنائي ذكر أن الفيضة التي شاهدها عمير بن مصعب الأزدي، وفيها العيون والانهار هي الموضع الذي بنى فيه إدريس بن إدريس مدينة فاس ، ولا ينطبق هذا الموضع إلا على عدوة القرويين .

٢- أن الجزنائي قال نقلا عن ابن الرقيق : « ثم إن ضرب الإمام أخبته وقبابه بالموضع المعروف بجرواوه من عدوة الاندلس ، ودور عليه جرواوة من الخشب فسمى الموضع جرواوة إلى زمانها هذا . ثم انتقل بعد ذلك إلى الموضع المعروف بالمقرمدة من عدوة القرويين حيث دار القيطون المتصلة لمسجد الشرفاء ، ثم شرع في البناء » (١) . ومعنى هذا أن إدريس لم يؤسس شيئا في عدوة الاندلسيين ، وإنما أقام بها بعض الوقت ثم انتقل إلى المقرمدة حيث شرع في بناء مدينته .

٣- أن الجزنائي عندما تعرض لذكر عدوة الاندلسيين لم يذكر أن إدريس ابن إدريس هو الذي أسسها ، وإنما قال : « أما عدوة الاندلس ، فإنها أسست في يوم الخميس مهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائة ، أقام الإمام إدريس منها بالموضع المعروف بجرواوة حيث نزل بأخبته وقبابه ، وابتدأ

(١) الجزنائي ، ص ١٤

سورها من جهة القبلة» ويمضى بعد ذلك في ذكر الابواب التي فتحت في هذا السور . أما بالنسبة لعدوة القرويين ، فانه يذكر قيام ادريس بانشاء السور ثم يضيف بعد ذلك أنه أمر الناس ببناء الدور والغرس ، وأن كل من بنى موضعا أو اغرس قبل تمام السور فهو له . وهذا دليل على أن عدوة الاندلسيين كانت بها دور وأبنية من قبل .

ب - الدليل المأخوذ من ابن عذارى :

ذكر ابن عذارى فيما يختص ببناء فاس النص التالي : « وكانت عدوة القرويين غياضا في أطرافها بيوت من زواغة ، فأسلموا إليه ، ودبر في البناء عندهم ، فكان ابتداء بناء مدينة فاس سنة ١٩٣ وذلك عدوة القرويين » (١) .
وواضح من هذا النص أن ابن عذارى يشير إلى قيام إدريس بن إدريس ببناء عدوة القرويين .

ج - الدليل المأخوذ من ابن الخطيب :

عندما ذكر ابن الخطيب قيام ادريس بن ادريس ببناء مدينة فاس سنة ١٩٢ ، ذكر أنه « بنى داره المعروفة اليوم لسلفه بدار القيطون ، ومسجدها بجواره ، وعظم شأنها بالعمارة بعده ، وسكنها الملوك والاشراف » (٢) . ولما كانت دار القيطون المذكورة تقع في ربض القرويين ، فانه يتضح لنا من هذا النص أن المقصود ببناء فاس هو بناء مدينة القرويين .

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٩٩

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٠٩

د - الدليل القائم على المقارنة :

عندما اجتمعت قبائل زناتة الصنقرية حول أبي القاسم سمغون بن واسول المكناسي الصنقري اخطط لهم مدينة سجلماسة سنة ١٤٠ هـ ، كذلك أسس هيد الرحمن بن رستم الفارسي مدينة تاهرت سنة ١٤٤ هـ ، وهي نفس السنة التي انهزم فيها أبو الخطاب علي يدى ابن الاشعث ، وفر ابن رستم على أثر ذلك إلى جبل سونجج حيث اجتمع إليه الإباضية ، فأسس لهم مدينة تاهرت . وفي المغرب الأدنى قام ابراهيم بن الاغلب بتأسيس مدينة العباسية أو القصر القديم بعد توأيته الإمارة بعهد من الخليفة الرشيد في جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ بأقل من عام ، وانتقل إليها في سنة ١٨٥ هـ . ونستخلص من ذلك أن قيام الدول المستقلة بالمغرب في القرن الثانى الهجرى كان يتبعه مباشرة قيام مدن جديدة . ولانشك في أن ادريس بن عبد الله أسس في حياته مدينة فاس اقتداء ببنى واسول المدراريين بسجلماسة ، وبنى رستم بتاهرت ، وليس من المعقول أن ينتظر الإدارة عشرين سنة لكي يؤسسوا مدينة تكون مقرا لهم .



بقى علينا تفسير نقطة أخيرة ، وهى أنه إذا كان تاريخ سنة ١٧٢ هـ الذى حددناه لبناء مدينة فاس في عهد إدريس الأول فلماذا لم يذكره المؤرخون وينصوا عليه صراحة ، ولماذا جعلوا إنشاء مدينتى فاس فى عامى ١٩٢ ، ١٩٣ بدلا من هذا التاريخ ؟ .

يفسر الاستاذ ليفى برفندسال كيف استقر التاريخ الخاطيء لبناء فاس سنة ١٩٢ فى الرواية القديمة ، وحل محل التاريخ الحقيقى وهو سنة ١٧٢ ،

بأنه من المحقق وقوع لبس بين إنشاء مدينة فاس وإنشاء مدينة العالية، وظهر هذا اللبس منذ أن أطلق اسم فاس على المدينتين معا . ومما أزداد هذا اللبس تشابه إسمي المؤسسين . ويعتقد أن أساس هذا اللبس التاريخي يرجع إلى خطأ يسير في القراءة بين رقمي سبعين وتسعين ، وهو خطأ أدى إلى تحريف سنة ١٧٢ هـ . إلى ١٩٢ هـ .^(١) ونحن نؤيد الاستناد ليني بروفنسال في ذلك الرأي ، فكثيرا ما نعثر على أخطاء تاريخية ناتجة عن التحريف في النقل ، ونذكر مثالا لذلك التحريف الذي يقع فيه النساخ في كثير من الأحيان ، فابن الخطيب يذكر عندما يتعرض لذكر دولة العدا بن القاسم بن إدريس أنه اغتيل على يد ربيع بن سليمان سنة اثنتين وسبعين ومائتين بدلا من التاريخ الصحيح وهو سنة اثنتين وتسعين ومائتين^(٢) .

ب - تاريخ مدينة فاس منذ تأسيسها حتى نهاية عصر بني مرين :

١ - فاس في عصر الإدارة :

لم تكن مدينة فاس التي أسسها إدريس بن عبد الله في سنة ١٧٢ هـ ، وهي سنة نزوله في أرض ويلي سوى بلدة صغيرة ذات طابع بربري ريفي ، شأنها في ذلك شأن القرى المتناثرة التي نشاهدها في جنوب المغرب الأقصى والتي لا تضم من العمران غير بضعة دور متوزعة . وكانت فاس التي بناها إدريس بن عبد الله تحمل طابعا بربريا مائلا ، ويتجلى ذلك في اسم الموضع الذي نزل فيه إدريس بن إدريس بها في سنة ١٩٢ هـ وهو المعروف بجرواوة

(١) ليني بروفنسال ، المرجع السابق ص ٢٩ ، ٣٠

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٠٩

وهو جدار من جذوع الشجر والغاب ، سور به معسكره الذي كان يجتمع فيه مع مشايخ البربر ^(١) . كذلك يحمل جامع الاشياخ أيضا هذا الطابع البربري ، والمقصود بالاشياخ شيوخ البربر الذين كانوا يرافقون إدريس في رحلته ، ويعرفون بالآمغارن .

وعلى الرغم من قيام إدريس بن عبد الله بإنشاء مدينة فاس ، فقد آثر أن يقيم في وادي بين أنصاره من البربر ، الذين أيدوه ونصروه ، ولما توفي دفن بوليلى . وآثر ابنه إدريس الثاني الإقامة في وادي بين أنصار أبيه ، حتى إذا ما بويع بالإمامة في سنة ١٨٦ هـ ، واستقام له الأمر بالمغرب الأقصى ، ووفد عليه العرب من كل مكان من إفريقية والأندلس ، وقدم إليه في جملة الوافدين في سنة ١٨٩ نحو خمسمائة من الفرسان العرب من القيسية والأزد والخزرج ومدلج وبني محصب ، بدأ إدريس يفكر في الخروج من عزلته التي فرضها عليه الأوصياء عليه والكافلين له ، فقرب العرب اليه ، وجعلهم بطائنه دون البربر ، واعتز بهم « لأنه كان فريداً بين البربر » ^(٢) .

ويبدو أن وزيره العربي عمير بن مصعب الأزدي هو الذي أوحى إليه بفكرة الانتقال من وادي إلى مدينة يؤسسها بنفسه وتكون مركزاً له ، لأن مدينة أبيه مأوها قليل ، إذ يشقها نهر واحد يمر بأعلاها ، وأما موضع مدينة القرويين الذي أعجب به عمير فكان كثير المياه ، بحيث كانت المياه بعد تأسيس عدوة القرويين تجري في كل شارع منها وفي كل زقاق ^(٣) . ويبدو

(١) ليلى برونسال ، ص ٣٥

(٢) الجزنائي ، ص ١٣

(٣) الإدريسي ، ص ٧٥

أن هذه الفكرة لقيت قبولا واستحسانا عند إدريس ، فزاه يخرج في سنة ١٩٠ هـ ليرتاد موضعها ينشئ فيه مدينته الجديدة، ويبدو أن زعيم بربر أوربة اسحق خالفه في ذلك وتأمر مع ابن الاغلب ، فقتله إدريس في سنة ١٩٢ هـ. وأخيرا اهتدى إدريس إلى موضع مدينة القرويين ، فأسسها قبالة مدينة فاس ، على النحو الذي فصلناه آنفا .

ولقد أسس إدريس في القرويين مسجدا جامعا هو الجامع المعروف بالشرفاء ، وقيسارية إلى جانب هذا الجامع ، وأدار الأسوار من كل جانب^(١) وكان لا بد لمدينة القرويين التي بناها إدريس وسماها بالعالية أن تنمو سريعا وتعمر بالبناء ، فأسكنها العرب الواقدين عليه من القيروان والأندلس ورجال الحاشية ، والخاصة ، فسميت بعد ذلك بعدوة القرويين ، وأمرهم إدريس بزيادة البناء والفرس ، فأسس الناس الدور والمساجد والخوانيت (انظر خريطة رقم ٨ ، ٩) . أما البربر فلم يكن لديهم ما يشكون منه ، إذ كانت لهم مدينتهم الخاصة ذات الطابع البربري الذي يتفق مع طابع حياتهم ، وهي مدينة فاس التي أقامها إدريس بن عبد الله ، فسكن فيها فرسان الأمير وعسكره وقواده من البربر^(٢) ، وأخذت عدوة القرويين تنمو ويزدهر فيها العمران ، بينما ظلت مدينة فاس القديمة متأخرة عنها . وفي سنة ٢٠٢ هـ قدم على إدريس جماعة من الربضيين الأندلسيين ، الذين أخرجهم الأمير الحكم الربضي من ربض شقندة بقرطبة ، فأنزلهم إدريس مدينة فاس . ولم تكن فاس تعدو

(١) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ص ١٩ ، ٢٠

(٢) ليفي بروكسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ص ٤٠

وقتئذ قرية ، بيوتها متواضعة مبنية من اللبن ، مسقوفة بفروع الاشجار ، ولم يمض عهد قصير على نزول الاندلسيين بها حتى ارتفعت من مجرد قرية إلى مصاف المدن ، وإن كان الطابع الريفي ما زال يفرض نفسه على أحيائها المتطرفة حتى اليوم ^(١) . وكان يفتح بسور عدوة الاندلسيين عدة أبواب هي : أبواب القبلة ، والكنيسة أو الخوخة ، وأبو سفين ، وجرواوة والشيبوبة ، والمخفية . أما أبواب سور عدرة القرويين فهي : إفريقية ، والقلعة ، والحديد ، والفرج أو السلسلة ، والفصيل أو النقرة ^(٢) . إلا أن هذه الأسماء تغيرت فيما بعد ، وحلت محلها أسماء أخرى .

٢ - فاس في عصر بن موسى بن أبي العافية :

في سنة ٣١٩ هـ استعمل موسى على عدوة الأندلس طوال بن أبي يزيد ، بينما استخلف موسى ابنه مدين على عدوة القرويين . وفي هذه السنة كاتب موسى بن أبي العافية الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله صاحب الأندلس ، « ورغب في موالاته والدخول في طاعته ، وأن يستميل له أهواء أهل العدوة المجاورين له ^(٣) » . فتقبله عبد الرحمن أحسن قبول ، وأمدّه بالخلع والأموال ، وبفضل ذلك تمكن موسى من التغلب على مدينة جرواوة ، وأخرج عنها الحسن بن أبي العيش بن إدريس .

ولما بلغ عبید الله المهدي نبأ خروج موسى على طاعته ، سير إليه قائده حميد ابن يصبلي الكناسي ، صاحب تاهرت ، في عشرة آلاف فارس ، فتقدم حميد في سنة ٣٢١ هـ إلى المغرب ومعه حامد بن حمدان الهمداني : فلما علم مدين ابن موسى بقدميهما إلى فاس ، فرعنها ولحق بأبيه . فدخلا حميد ، واستعمل

(١) لبي بروفسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٤٠

(٢) الجزنائي ، ص ١٩ ، ٢٠

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٨٢

عليها حامد بن حمدان الحمداني . ثم عاد حميد إلى إفريقية (١). وأقام حامد واليا على فاس من قبل الفاطميين ، إلى أن ثار عليه أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي في سنة ٣٢٢ هـ ، عقب وفاة عبيد الله المهدي ، فقتل حامدا ابن حمدان ، وبعث برأسه ورأس ولده إلى موسى بن أبي العافية ، فأرسلهما موسى إلى عبد الرحمن الناصر بقرطبة مع سعيد بن الزراد ، وعادت الدعوة في فاس باسم الخليفة عبد الرحمن الناصر . ولكن الخليفة الفاطمي أبا القاسم بن عبيد الله المهدي لم يرض بهذا الوضع ، فسير قائده ميسور الفتي إلى المغرب في سنة ٣٢٣ هـ ، وتقدم ميسور إلى فاس ، فحاصرها أياما ، فخرج إليه أحمد بن بكر إلى معسكره مبايعا ، وقدم إليه هدية نفيسة وأموالا ، فقبض عليه ميسور ، وبعث به إلى المهدي (٢) . وما إن علم أهل فاس بغدر ميسور ، امتنعوا عليه ، وتحصنوا داخل أسوار مدينتهم ، وقدموا على أنفسهم حسن ابن قاسم اللواتي ، فحاصروهم ميسور سبعة أشهر ، ولما طال عليهم الحصار فافوضوه في الصلح ، فصالحهم على أن يعطوه ستة آلاف دينار ، وأنطاغا ولبودا وقربا للماء وأثاثا ، وعلى أن يبائعوا لأبي القاسم الشيعي ، ويسجلوا اسمه في السكة ، ويخطبوا له على منابرهم ، وأقر ميسور عليهم حسن بن قاسم اللواتي ، ثم ارتحل عنهم (٣) . وظل حسن اللواتي عاملا على فاس إلى أن قدم أحمد بن بكر من المهدي ، فتخلى له حسن عن الولاية في سنة ٣٤١ هـ .

(١) البكري ، ص ١٢٨ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٢١٦

(٢) نفس المرجع — ابن الخطيب ص ٢١٦ — القلقشندي ، ج ٥ ص ١٨٤ — السلاوي

ج ١ ص ١٨٩

(٣) البكري ، ص ١٢٨ — القلقشندي ص ١٨٤ — السلاوي ص ١٨٩

ثم بايع أهل فاس الناصر لدين الله فيمن بايعه من أهل العدو ، فولى عليهم محمدا بن الخير المغراوي ، فظل بليها من قبل الخليفة الأموي ما يقرب من عام ، ثم رخل إلى الأندلس للجهاد ، واستخلف عليها ابن عم أحمد ابن أبي بكر بن أحمد بن عثمان بن سعيد الزناتي ، وهو الذي بنى صومعة جامع القرويين بفاس سنة ٣٤٤ هـ (١) .

٣ - سيطرة زناتة على فاس ومولاتها خلفاء بني أمية بقرطبة :

غضب المعز لدين الله الفاطمي لخروج المغرب الأقصى من طاعته ، وانضوائه إلى الخلافة الأموية في الأندلس ، فسير جوهر الصقلي في جيش كثيف من بربر كستامة وصنهاجة ، لاستئصال التوار في المغرب ، وإعادة النفوذ الفاطمي على المغرب ، ونجح جوهر في استرجاع بلاد العدو ، وقدم إلى فاس لمحاصرتها ، ولكنهم استعصت عليه ، فتركها إلى سجدماسة ، واستولى عليها . ومن هناك مضى إلى فاس ، فنزل عليها في سنة ٣٤٩ هـ ، فحاصرها من سائر جهاتها زهاء نصف شهر ، ثم اقتحمها قائده زبري ابن مناد الصنهاجي بالسيف ، إذ تسنم أسوارها إيلا ودخلها فقتل بها عددا كبيرا من سكانها ، وقبض على أميرها أحمد بن أبي بكر الزناتي عامل الناصر الأموي عليها ، ونهب المدينة ، وقتل حماتها وشيوخها ، وسبي أهلها ، وهدم أسوارها . ودخلها جوهر في ٢٠ رمضان سنة ٣٤٩ هـ . ويروي ابن الأثير قصة سقوط فاس فيقول : « ثم سار منها إلى فاس وبها أحمد بن بكر ، فأغلق أبوابها ، فنازلها جوهر ، وقاتلها مدة ، فلم يقدر عليها ، وأنته هدايا الأمراء الفاطميين بأقاصي السوس ، وأشاروا على جوهر وأصحابه

بالرحيل إلى سجلماسة وسلك تلك البلاد جميعها ، فافتتحها ، وغاد إلى فاس
فقاتلها مدة طويلة ، فقام زيرى بن مناد ، فاختر من قومه رجالا لهم شجاعة ،
وأمرهم أن يأخذوا السلايم ، وقصدوا البلد ، وصعدوا إلى السور الأدنى
في السلايم ، وأهل فاس آمنون ، فلما صعدوا على السور ، قتلوا من عليه
ونزلوا إلى السور الثاني ، وفتحوا الأبواب ، وأنشعوا المشاعل ، وضربوا
العلبول ، وكانت الإمارة بين زيرى وجوهر ، فلما سمعها جوهر ركب في
العساكر فدخل فاس ^(١) .

وظل النفوذ الفاطمي قائما بفاس إلى أن أرسل الخليفة الحكم المستنصر
قائده غالب إلى المغرب في سنة ٣٦٢ هـ ، فسار إلى فاس في سنة ٣٦٣ هـ ،
فدخلها ، واستعمل عليها محمد بن أبي علي بن قشوش بعدوة القرويين ،
وعبد الكريم بن ثعلبة بعدوه الأندلس ، وغاد غالب بعد ذلك في آخر
رمضان سنة ٣٦٣ هـ إلى الأندلس . ولم يمض على رحيله ست سنوات حتى
زحف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجي على المغرب الأقصى ، وحاصر
مدينة فاس ، وقتل عامليها محمد أبي علي بن قشوش ، وعبد الكريم بن ثعلبة ،
واستعمل على فاس محمد بن عامر المكناسي ، ولما تغلب بلكين على المغرب
خرج بنو مفرأوة من بني خزر وبني بفرن إلى سبتة ، وعبر محمد بن الخير
من آل خزر إلى المنصور يستنجد به . وظل نفوذ الفاطميين قائما في فاس
حتى أرسل المنصور بن أبي عامر ابن عمه أبا الحكم عمرو بن عبدالله بن أبي
عامر الملقب بعسكلاجه سنة ٣٧٥ هـ لمواجهة تقدم الحسن بن كنون الوافد من
مصر . ونجح عسكلاجه في دخول فاس ، واستولى على عدوة الأندلس ،

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ٣٥٤

وخطب فيها لبني أمية . وبقى محمد بن عامر المكناني عامل الفاطميين بعدوة القرويين حتى دخلها أبو بياش عنوة في سنة ٣٧٦ هـ ، وقبض على محمد بن عامر وقتله ، وخطب فيها أيضا لبني أمية (١) .

عاد عسكلاجة إلى الأندلس ، فعقد المنصور على المغرب الأقصى للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي سنة ٣٧٦ هـ ، وأوصاه بمغراوة ، ولاسيما مقاتل وزيري ابني عطية ، لإخلاصهم للامويين . فنزل الوزير حسن بن أحمد بفاس ، وضبط المغرب ، وأحسن إدارته .

ولما قتل الوزير ابن عبد الودود في سنة ٣٨١ هـ ، وعقد المنصور بن أبي عامر لزيري بن عطية من بعده على المغرب وفاس . وكان أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي قد خرج على أخيه أبي الفتح منصور بن بلكين أمير إفريقية وظهر الدولة الفاطمية في مصر ، وتغلب على تلمسان ووهران وهنين وشلف وونشريس وتنس ، وخطب للخليفة هشام المؤيد ، وباع له ، وكتب إلى ابن أبي عامر يخبره بأنه دخل في طاعته ، وأنه يرغب في أن يتصل به زيري بن عطية الزناتي صاحب فاس ، فاشترط عليه ابن أبي عامر لذلك أن يبعث إليه ابنه رهينة ، ففعل أبو البهار ، ووجه ابنه في مركب مع كاتبه ميمون المعروف بابن الدابة ، ففرقت بهما في البحر ، فوجه أبو البهار ولده الآخر فوصل إلى المنصور (٢) ، وعندئذ أرسل إليه المنصور بن أبي عامر بعده على ما بيده من بلاد ، كما أرسل إليه هدية وخلعا وأربعين ألف

(١) التلقتندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٥ - السلاوي ، الاستقصا ، ص ٢٠٨

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٥٠

دينارا^(١)، ثم كتب المنصور إلى زيرى بن عطية، يأمره أن ينتصر لأبي البهار ويعضده، فلما بلغ أبا البهار ذلك، رحل إلى فاس، والتقى مع زيرى بن عطية، واتفق معه. وأقام أبو البهار على بيعة هشام المؤيد شهرين ثم نكث وخلفها، وعاد يظاهر الدولة الفاطمية، فغضب المنصور لذلك، وكتب إلى زيرى بن عطية بهده على بلاد أبي البهار، وأمره بمحاربته عليهم. فزحف زيرى بن عطية من مدينة فاس في جيوش لا تحصى من قبائل زناتة وغيرهم فقر أبو البهار أمامه، ولحق بأخيه منصور بن بلكين بأفريقية. وتمكن زيرى من الاستيلاء على جميع أعمال أبي البهار، وبذلك امتد سلطان زيرى من السوس الأقصى إلى الزاب. وكتب بالفتح إلى ابن أبي عامر، وبعث إليه في سنة ٥٢٨١ هـدية نفيسة القيمة، منها مائتا فرس من عتاق الخيل، وخمسون جملا مهربا، وألف درقة من جلود اللط، وأحمال كثيرة من قسي الزان، وقطوط الغالية والزرافة، وأصناف الوحوش الصحراوية، وألف حمل من التمر الجيد في جنسه، وأحمال كثيرة من ثياب الصوف الرقيقة، فسر بها المنصور^(٢).

وأقام زيرى بفاس، وأسكن قبيلته مغراوة الزناتيين بأفحاءها، بينما رفع بني يفرن عنها وعن أخوازها، وأبعدهم إلى نواحي سلا، فسكنوها. وفي عام ٥٣٨٢ هـ استدعاه المنصور بن أبي عامر لزيارة قرطبة، فاستخلف زيرى على المغرب ولده المعز بن زيرى، وأمره بسكنى تلمسان، واستخلف على عدوة الأندلس من فاس عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة، وعلى عدوة القرويين منها علي بن محمد بن أبي علي بن قشوش، ومضى إلى الأندلس،

(١) السلاوى، ج ١ ص ٢١٠

(٢) السلاوى، ج ١ ص ٢١٠

وقدم بين هدية عظيمة، منها طائر فصيح يتكلم العربية والتبرية، ودواب من دواب المسك والغالية، ومهارة وحشية تشبه الفرس، وحيوانات غريبة، وأسدان عظيمان في قفصين من حديد، وشيء كثير من التمر في غاية الكبر الواحدة منه تشبه الحيارة عظاما، وحمل معه من قومه ٣٠٠ فارس، ومن خدمه وعبيده ٣٠٠ عبد. فاحتفل المنصور بقدومه احتفالا عظيما وخرج إلى لقائه في خاصته وحاشيته^(١)، وأنزله في قصر جعفر الحاجب، وتوسع له في الجرايات والإكرام، ولقبه باسم الوزير، ومنحه الأموال الكثيرة، وخلع عليه الخلع النفيسة، ولم يطل مقام زيري بقرطبة، فقد عجل المنصور بارساله إلى المغرب عندما علم باستيلاء يدو بن يعلى اليفرنى صاحب سلا على عدوة الأندلس من فاس في ذي القعدة سنة ٥٣٨٢ هـ. فأقفل زيري عائدا، فنزل مرسى طنجة. ويذكر السلاوي أنه لما نزل بهذه المدينة عبر عن رغبته في الاستقلال بالمغرب بقوله: «الآن علمت أنك لى» فقد استخف بلقب الوزارة الذي منحه المنصور إياه، وكان يطمع في الإمارة، فلما بلغت مقالته المنصور صر عليها أذنه، وزاد في اصطناعه^(٢).

ولما نزل زيري بن عطية إلى طنجة جد في السير حتى وصل إلى فاس لاستخلاصها من بنى يفرن، واشتبك زيري بن عطية مع يدو بن يعلى في عدة مواقع بالقرب من فاس، انتهت بهزيمة بنى يفرن، وتمكن زيري من دخول فاس، وقبض على يدو وقتله، وأرسل رأسه إلى المنصور في سنة ٥٣٨٣ هـ^(٣).

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ج ٣ ص ١٥٧ - السلاوي، ص ٢١١

(٢) السلاوي، ص ٢١١

(٣) ابن الخطيب، المرجع السابق ص ١٥٨ - السلاوي، ج ١ ص ٢١٢

وصفا له الجو بعد ذلك في المغرب ، وأصبح يحكمه بلا منازع ، وظلت علاقته مع المنصور حسنة في الظاهر ، ولكنه كان يضر في قرارة نفسه الخروج عليه .

وفي سنة ٣٨٦ هـ فسدت العلاقات بينها بسبب استبداد المنصور بالخليفة هشام المؤيد وتغايبه على الدولة بتفويض من الخليفة أذاعه المنصور في سائر أنحاء الدولة الأموية بالأندلس والمغرب ، وكانت السيدة صبيح قد اتصفت بزيري بن عطية ، وأغرته على خلع طاعة المنصور ، وعهدت إليه بأن يقوم مقام المدافع عن حقوق الخليفة الشرعية ^(١) . وذكر ابن عذارى أسباب خروج زيري على المنصور بقوله : « ثم إن زيري بن عطية المغراوي نكث على ابن أبي عامر بعد الحب الشديد ، والوفاء الأكيد ، وطعن على ابن أبي عامر سلبه الملك هشام ، وامتعض لهشام المؤيد وغلبة ابن أبي عامر عليه » ^(٢) . واتصل بالمنصور أن زيري يتنقصه ، ويعرض في شأنه ، وحججه على المؤيد ، فقطع عنه رزق الوزارة الذي كان يجريه عليه في كل سنة ، ودفع هذا التصرف من جانب المنصور زيري إلى قطع اسم المنصور من الخطبة وقصر الدعاء فيها لهشام ^(٣) . ولم يكتف زيري بذلك بل طرد عمال المنصور من العرب والأجاثم إلى سبتة ^(٤) . وعلى أثر ذلك سير ابن أبي عامر فتاه واضحا في جيش كثيف ، إلى المغرب ، فعبر واضح الزقاق إلى ساحل

(١) على آدم ، المنصور بن أبي عامر ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦٧ ، القاهرة

١٩٥٩ ص ٢٩٩

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٣٦٢

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ١٥٨

(٤) السلاوي ، ج ١ ص ٢١٣

العدوة ، ونزل بطنجة حيث انضم إليه كثير من بربر غمارة وصنهاجة ، وزحف واضح نحو فاس ، فخرج إليه زيرى بن عطية في جموع كثيرة من زناتة ، والتقى الجيشان في موضع يعرف بوادي ردرات ، يقع بالقرب من أحواز البصرة (١) . ودام القتال بينهما زهاء ثلاثة أشهر ، تمكن زيرى في نهايتها من التغلب على واضح ، فراجع منهزما إلى طنجة ، وكتب إلى المنصور من هناك يستمده . فخرج إليه بنفسه من قرطبة حتى وصل الجزيرة الخضراء ، وأجاز إليه ابنه عبد الملك المظفر ، على رأس جيش ضخم من مسكر الأندلس ، وبلغ ذلك زيرى ، فاستنفر قبائل زناتة ، فوافته في جموع كثيفة من البربر قادمين من بلاد الزاب فيما وراء ملوية وسجلماسة ، فسار بهم زيرى لمقاتلة عبد الملك بن المنصور ، وتم اللقاء بوادي منى بأحواز طنجة ، ودارت بين الجيشين معركة عنيفة دامت طوال اليوم ، وتمكن غلام أسود كان زيرى قد قتل خاله من طعن زيرى بسكينه في لبتة ، فجرح جرحا بالغا ، وانهمزت زناتة ، وفر زيرى ومن بقي معه إلى موضع يعرف بمضيق الحية بالقرب من مكناسة ، حيث اجتمع إليه فله ، ولم يكد زيرى يستدرك أمره ، ويجمع فله حتى باغته عبد الملك بخمسة آلاف من كفاة رجاله على رأسهم واضح الفتي ، وذلك في منتصف رمضان سنة ٣٨٨ هـ ، فأوقع بهم واضح وقيعة عظيمة ، استأصل فيها رجال زيرى ، وأسر منهم نحو ألفين ، ضمهم إليه عبد الملك ، وأركبهم في جنده ، وفر زيرى في شزيمة من أصحابه إلى فاس (٢)

(١) ابن الخطيب ، ص ١٥٨ — السلاوي ، ص ٢١٤

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٦٣ — ابن الخطيب ، ص ١٥٩ — السلاوي ، ص ٢١٦

وكان أهل فاس قد علموا بهزيمته ، فأغلقوا أبواب المدينة دونه ، وأخرجوا إليه ذوبه ، فأنصرف بهم إلى الصحراء ، ونزل بأحواز صنهاجة . ودخل المظفر عبد الملك مدينة فاس في شوال سنة ٣٨٨ هـ ، وكتب إلى أبيه بالفتح ، فقرأه كتابه بمنابر الأندلس ، وكتب إليه المنصور بعهدده على المغرب .

أنصرف واضح إلى قرطبة ، بينما أقام المظفر ستة أشهر بفاس ، فأحسن إلى أهلها ، ورأوا من فضله وعدله ما لم يروه من ولاية فاس من قبل . ثم صرفه المنصور إلى الأندلس ، واستعمل على فاس عيسى بن شعيد ، صاحب الشرطة ، فأقام بها إلى صفر سنة ٣٨٩ هـ ، ثم عزله وولى عليها واضحا (١) . فأقام بها فترة من الوقت ، ثم استخلف عليها عبد الله بن أبي عامر ابن أخي المنصور ، ثم تعاقب على ولاية فاس من قبل واضح اسماعيل بن البوري ، فالأحوص معن بن عبد العزيز ، الذي ظل يقوم بأمر فاس حتى وفاة المنصور (٢) .

أما زيرى فقد جمع حشودا هائلة من زناتة ، واستغل فرصة اختلاف الصنهاجيين على باديس بن منصور أمير إفريقية وزحف زيرى إليهم ، وهزمهم ، ودخل تاهرت وتنس وتلمسان وشلف ، وأقام في هذه البلاد الدعوة للمؤيد هشام ثم توفي في المحرم سنة ٣٩١ هـ ، فخلفه ابنه المعز بن زيرى . واتصل المعز بالمظفر عبد الملك في قرطبة يطلب منه أن يعف عنه ، فصرف عبد الملك بن أبي عامر واضحا عن ولاية المغرب ، وكتب إلى المعز بن زيرى بعهدده على

(١) السلاوى ج ١ ص ٢١٦

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٣٦٣

فاس وسائر أعمال المغرب في سنة ٣٩٣ هـ بعد أن استوثق منه بأخذ ولده معنصر رهينة عنده. ولما توفي المظفر وخلفه أخوه عبد الرحمن شنجول على الحجابة، بعث إليه المعز بن زيري هدية رائعة تتألف من ٧٠٠ من الخيل، وأحمال من الدرق واللمط والسلاح، فسر عبد الرحمن وجدد له ولاية المغرب (١). وظل المعز أميراً على فاس والمغرب حتى توفي في جمادى الأولى سنة ٤٢٢ هـ، فخلفه ابن عمه حماسة بن المعز بن عطية، وكانت الخلافة الأموية في قرطبة قد انقرضت في هذه السنة، فاستقل حماسة بالمغرب الأقصى، واستفحل ملكه، ثم نازعه على المغرب الـامير أبو الكمال تميم بن زيري بن يعلى اليفرنى سنة ٤٢٤ هـ، وقامت بينهما حروب طويلة انهزم فيها حماسة، وفر إلى تلمسان، ودخل تميم مدينة فاس، وقتل فيها عدداً كبيراً من اليهود. ولكن حماسة لم يلبث أن تغلب عليه وأجلاه عن فاس في سنة ٤٣١ هـ، وأقام بالمغرب حتى توفي سنة ٤٤٠ هـ (٢)، وقيل سنة ٤٣٣ هـ (٣). وكان حماسة مستثيراً، حسن السياسة، فتمتعت فاس في أيامه، وشهدت فترة من الرخاء والازدهار. وكان الشعراء يقصدونه من الأندلس، ويمدحونه بأشعارهم (٤).

ولما توفي خلفه ابنه أبو العطاف دوناس واستولى على فاس وسائر ما كان لأبيه من مدن المغرب، ولكن عهده كان مشحوناً بالاضطراب والفتن، فقد خرج عليه ابن عمه حماد بن معنصر بن المعز بن زيري، فقامت بينهما حروب طويلة، وغلب حماد على ضواحي فاس، وحاصرها حصاراً شديداً، وقطع

(١) المرجع السابق ص ٣٦٤

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ١٦١

(٣) ابن عذارى، ص ٣٦٥

(٤) نفس المرجع، ص ٣٦٥

مياه الوادي من عدوة القرويين ، إلى أن توفي حماد، واستقام أمر دوناس، وساد فاس عهد من السلم والهدوء ، استمر حتى وفاته في سنة ٤٥٢ هـ . وقد ازدهرت فاس في عهده ، ونما عمرانها ، وأصبحت بحق عاصمة المغرب ، وكان دوناس قد احتفل بهارتها ، وأدار سورا يحيط بها وبأرباضها ، وبني بها المساجد والحمامات والفنادق ، وأصبحت فاس مدينة واحدة في أيامه (١) .

ولما توفي دوناس في سنة ٤٥٢ هـ خلفه علي فاس ابنه الفتوح بن دوناس، ونزل بعدوة الأندلس ، فنازعه الأمر أخوه الأصغر عجيسة ، فاستولى على عدوة القرويين ، وقامت الحرب بين الأخوين ، فحصن الفتوح عدوة الأندلس ، وبني بها قصبة لسكناء بالموضع المعروف بالكدان ، وفتح بابا في العدو من الجهة القبليّة سماه باسمه . كذلك حصن عجيسة عدوة القرويين ، وبني بها قصبة لسكناء بعقبة الصعتر ، وفتح هناك بابا في الجهة الشماليّة سماه باسمه ، واشتد العداء بين فتوح وعجيسة ، وأصبح القتال بينهما يوميا في الموضع المسمى بكهف الوقادين ، ونتج عن كثرة الحروب والاضطرابات اشتداد الغلاء ، وانتشار المجاعة في المدينة . واستمر القتال دائرا بين الأخوين زهاء ثلاث سنوات ، إلى أن تمكن الفتوح من اقتحام عدوة القرويين ، وقتل أخاه ، واستولى على العدوتين ، فأمر بتغيير اسم باب عجيسة ، فأسقط العين وأضاف إلى الاسم حرفا الألف واللام ، فأصبح هذا

(١) ابن الخطيب ، ص ١٦٢ - الفلقشندي ، ص ١٨٧ - الجزنائي ص ٣٠ -

الباب يعرف بباب الجيسة (١). وفي أثناء ذلك كانت لتونة قد ظهرت في أطراف البلاد ، وتغلبت عليها ، وتمكن عبد الله بن ياسين من دخول أغمات وما يليها (٢) ، وتمكن خليفته يوسف بن تاشفين من افتتاح بلاد كثيرة ، فخاف الفتوح على نفسه من المثلثين ، فتخلى عن مدينة فاس لأحد أقاربه هو معنصر بن حماد بن منصور بن المعز بن زيري ، وعندئذ زحف بلكين بن محمد بن حماد ، صاحب قلعة بني حماد ، إلى فاس في سنة ٤٥٤ هـ ، ودخلها ، وأخذ عدد من أعيانها رهائن لديه ، ثم عاد إلى قلعته . وكان معنصر بن حماد قد تلقى بيعة قبائل مغراوة بفاس وأحوازاها في رمضان سنة ٤٥٥ هـ ، وكان معنصر هذا شجاعا حازما ، تمكن من مدافعة المثلثين من لتونة ، وانتصر عليهم في إحدى المواقع ، ولكن يوسف تمكن من دخول مدينة فاس صلحا في سنة ٤٥٥ هـ ، وخلف عليها عامله ، ومضى لمحاربة غمارة ، وافتتح كثيرا من بلادها وقلاعها ، فاستغل معنصر فرصة اشتغال ابن تاشفين بمحاصرة قلعة فازاز ، ودخل مدينة فاس ، وقتل عامل يوسف عليها ومن معه من لتونة . ولما بلغ يوسف بن تاشفين خبره ، سير مهدي بن يوسف الكزنائي ، صاحب مكناسة ، إلى فاس ، فهاجم معنصر في طريقه ، وهزمه وقتله في سنة ٤٥٦ هـ ، فصرح يوسف عساكر لتونة إلى حصار فاس ، وقطع المرافق عنها ، حتى اشتد الأمر على أهلها ، فبرز إليه معنصر ، واشتبك مع لتونة في قتال شديد انتهى بهزيمة معنصر ومقتله في سنة ٤٦٠ هـ . فبايع أهل فاس ابنه تميم . وعانى أهل فاس في أيامه من حصار المثلثين ومن الفتنة ومن الغلاء

(١) الجوزي ، ص ٣١

(٢) ابن عذاري ، ص ٢٦٥

ولما فرغ يوسف بن تاشفين من أمر غمارة سنة ٤٦٢ هـ ، زحف إلى فاس ، وحاصرها أياما ، ثم افتتحها عنوة للمرة الثانية ، وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من قبائل مغراوة وبنى يفرن ومكناسة ، وقبائل زناتة ، وكان تميم من جملة^(١) . وقيل أن يوسف دخل مدينة فاس في سنة ٤٦١ هـ^(٢) ، وقيل في سنة ٤٦٧ هـ^(٣) .

٤ - فاس في ظل دولتي المرابطين والموحدين:

لما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس ، أمر بهدم الأسوار التي كانت تفصل بين عدوتي القرويين والاندلسيين ، وجعلها مدينة واحدة^(٤) ، وحصنها ، وأمر ببناء المساجد في شوارع فاس وأزقتها ، كما أمر ببناء الحمامات والفنادق والأرحاء والأسواق^(٥) . واهتم يوسف بن تاشفين بمدينة فاس اهتماما كبيرا على الرغم من اتخاذه مدينة مراکش عاصمة لدولته ، وفي ذلك يقول الجزنائي : « وما زال كبير لمتونة وأميرها يوسف بن تاشفين في زيادة المساجد ، وسقاياتها ، وحماماتها ، وخاناتها ، وإصلاح أمورها ، وأقدم من قرطبة جملة من صناعات ، فبنوا منها كثيرا إلى ما يذكر بعد إن شاء الله تعالى ، وفي أيامه صارت العدوتان قطرا واحدا »^(٦) . وفي أيام

(١) القلقشندي ، ص ١٨٨ - السلاوي ، ص ٢٢٥

(٢) ابن الخطيب ، ص ١٦٣

(٣) الحلل الموشية ، ص ١٦

(٤) القلقشندي ، ص ١٨٨ ، ١٩٠ - السلاوي ج ٢ ، ص ٢٩

(٥) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٠

(٦) الجزنائي ، ص ٣٢

على بن يوسف شيد سور القوراجة (١) التي تقع بين باب الجيسة وباب أصليتين على يد قاضيه عبـد الحق بن معيشه ، كما أقام يوسف بن تاشفين سور زيتون بن عطية وأقام البرج الكبير القائم هناك (٢) .

وقد ازدهرت فاس في عهد المرابطين ، وأصبحت بحق العاصمة الثانية للمغرب . ولقد وصفها الإدريسي في عصر المرابطين بقوله : « وبمدينة فاس صناعات ومعاش ، ومبان سامية ، ودور وقصور ، ولأهلها اهتمام بحوائجهم ومبانيهم وجميع آلاتهم ، ونعمها كثيرة ، والحنطة بها رخيصة الأسعار جدا دون غيرها من البلاد القريبة منها ، وفواكهها كثيرة ، وخصبها زائد ، وبها في كل مكان منها عيون نابعة ، ومياه جارية ، وعليها قباب مبنية ، ودواميس محنية ، ونقوش وضروب من الزينة ، وبخارجها الماء مطرد نابع من عيون غزيرة ، وجہاتها مخضرة مونقة ، وبساتينها عامرة ، وحدائقها ملتفة ، وفي أهلها عزة ومنعة » . ثم يقول الإدريسي في موضع آخر : « ومدينة فاس قطب ومدار لمدن المغرب الأقصى ... ومدينة فاس هي حضرتها الكبرى ومقصدتها الأشهر ، وعليها تشد الركائب ، وإليها تقصد القوافل ويجلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب والبضائع والأمتعة الحسنة ، وأهلها مياسير ولها من كل حسن أكبر نصيب ، وأوفر حظ » (٣) .

ظلت فاس تحتل المكانة الثانية في المغرب كله بعد مدينة مراکش التي أسسها يوسف بن تاشفين في سنة ٤٥٤ هـ ، وفقا لرواية ابن أبي زرع ،

(١) التوراجة سور من البناء يتفرع من السور الأصلي للمدينة ، وينتهي عادة بـدرج براني ، يقوم بناؤه في أضعف المواقع الدفاعية في المدينة .

(٢) المرجع السابق

(٣) الإدريسي ، ص ٧٥

وأقام بها قصر الحجر سنة ٤٦٣ هـ (١)، وسورها على بن يوسف سنة ٥٢٠ هـ (٢). وظلت فاس خاضعة للمرابطين إلى أن ظهر الموحدون ، وتغلبوا على المرابطين .

وفي سنة ٥٤٠ هـ ، حاصر عبد المؤمن بن علي مدينة فاس ، وقد تحصن بها يحيى بن أبي بكر الصعراوى (٣) ، من فلول جيش المرابطين في وهران ، وأقام الموحدون على حصار فاس ، وأهلها يقاتلونهم خارج البلد قتالا عنيفا ، فعمد عبد المؤمن إلى وسيلة لإرغام أهل فاس على التسليم ، فأمر بسد فاس بالبناء والخشب والخطب ، ورفع التراب على الوادى سدا بعد آخر حتى احتبس الماء عن مجراه ففاض على الفحص كله ، فأصبح الفحص بحيرة ،

(١) الحلل المشية ، ص ١٣

(٢) نفس المرجع ص ٧٠

(٣) هو يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين ، حفيد الأمير يوسف بن تاشفين ، ويلقب بالصعراوى ، وهو لقب أخذه عن أمه الصعراوية ، وكان لقبه الصحيح « ابن الصعراوية » ولقد تولى قيادة جيوش المرابطين بعد مقتل تاشفين بن علي ، فولى القيادة العامة لجيش المرابطين ، وقرأ إلى فاس (ارجم الى ابن الاثير) . وقد أبلى يحيى هذا في محاربة الموحدين بلاء حسنا ، ثم دخل في طاعة الموحدين ، وانضوى تحت لوأهم ، وحظى عندهم ، فتودوه على من وحد من لمتونه ، وظل كذلك إلى أن نقلت عنه إلى عبد المؤمن تصرفات وأقوال أحنقته عليه . وكانت أخت يحيى متزوجة من الكاتب الكبير أبي جعفر أحمد بن عطية الذى استوزره عبد المؤمن ، فأراد أبو جعفر أن ينقذه من غضب عبد المؤمن عليه ، فنصحه بالفرار إلى جزيرة ميورقة . فلما استدعاه عبد المؤمن تظاهر بالمرض ، وبلغ عبد المؤمن ما فعله كاتبه أبو جعفر ، فقتل أبا جعفر في سنة ٥٥٣ هـ ، ثم أمر بالقبض على يحيى وسجنه فأت فيه . (ارجم الى : أبو بكر الصنهاجى المعروف بالبليذق ، كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ، باريس سنة ١٩٢٨ ، تعليق ليفى بروفسال ، ص ١٦٠ ، ملحوظة ١ - المراكشى ، المعجب ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠)

واستعان عبد المؤمن على ذلك بالآلات واتساع الفحص ، ثم خرق السد مرة واحدة ، فتدفقت المياه كالسيل العارم فهدمت السور بباب السلسلة ، وتهدم من دور فاس ما يزيد على ألفي دار . ولكن أهل فاس لم يستسلموا لذلك ، بل ازدادت مقاومتهم للموحدين ، ووقفوا على تهدم السور ، وقاتلوه من خارجها ، وكان عبد المؤمن قد خرج من محامته أثناء الليل إلى مكناسة لمحاصرتها ، وترك على جيشه بفاس أبا بكر بن جبر فلما طال الحصار على أهل فاس إلى تسعة أشهر توجه والى المدينة أبو محمد الجياني (١) خفية إلى أبي بكر بن جبر ، وأدخله من باب الفتوح ، وكان الجياني المذكور موتوراً من الصحراوي إذ كان قد طالبه بمال كثير ، وضيق عليه فيه ، ولم يكن في وسع الجياني أن يعطيه هذا المال ، فتحايل على إدخال الموحدين ، فلم يشعر الصحراوي إلا وقد اقتحم الموحدون المدينة في فجر يوم ١٤ ذي القعدة سنة ٥٤٠ هـ ، وتمكن الصحراوي من الفرار ومعه عمر بن بيتان ، ويحيى بن سير ، وجدال بن موسى وشيوخ لمطة . فهبطوا معنهر سبو إلى بني تاودا ، ودخلوا قلعة آمرجو وتمصنوا بداخلها ، ثم فر الصحراوي إلى الأندلس ، أما عبد المؤمن فقد دخل مدينة فاس ، وأقام بها بعض الوقت ، ثم خرج منها بعد أن ترك عليها أبا عبد الله محمد بن يحيى الجدميوي والجياني (٢).

ولما دخل عبد المؤمن مدينة فاس ، أمر بفتح ثغرات واسعة بسورها ،

(١) هو أبو محمد بن عبد الله بن خيار الجياني كان عاملاً على مدينة فاس في دولة الموحدين (انظر ابن الأبار ، الحلة السراء ، ملحق رقم ٢ من كتاب البيدق ، أخبار المهدي ابن تومرت ، ص ١٤٦)

(٢) البيدق ، ص ١٠١ ، ١٠٢ — الحلل الموشية ، ص ١٠١ ، ١٠٢ — السلاوي ، ص ١٠٧

وقال : « إنا لا نحتاج إلى سور ، وإنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا » . وظلت فاس بلا أسوار إلى أن شرع الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور في بنائها ، وأكملها ابنه أبو عبد الله محمد الناصر عند زيارته لفاس في سنة ٥٩٥ هـ ، وأقام بها ثلاث سنوات أتم خلالها بناء أسوار فاس وقصبتها الواقعة على الوادي (١) . كذلك أقام بها أبو عبد الله محمد الناصر باب الشريعة الذي سمي باب المحروق نسبة إلى العبيدي الثائر بجبال وزان من أحواز فاس ، الذي علق رأسه على باب الشريعة ، وأحرق جسده في وسط هذا الباب في اليوم الذي ركت فيه مصاريع الباب سنة ٦٠٠ هـ (٢) .

ولقد ازدهرت فاس في عصر المرابطين والموحدين ، ازدهارا لم تشهده هذه المدينة من قبل ، وتألفت تألقا جعلها جديرة بأن تكون العاصمة الفعلية للمغرب كله ، في عصرها تين الأسرتين . ويذكر عبد الواحد المراكشي ، أن « مدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا ، وموضع العلم فيه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب . فلما اضطرب أمر القيروان - كما ذكرنا - بيعت العرب فيها ، واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت أبي طاهر محمد بن أبي طاهر وابنه ، رحل من هذه وهذه من كان فيها من العلماء والفضلاء من كل طبقة ، فراراً من الفتنة ، قتل أكثرهم مدينة فاس ، فهي اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم ، ومازلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب ،

(١) الجزناهي ، ص ٣٢ - السلاوي ، ج ٢ ص ١٠٧

(٢) نفس المرجع ص ٣٣ - الذخيرة السنينة في تاريخ الدولة المرينية ، تحقيق محمد بن

بي شنب ، الجزائر ، ١٩٢٠ ، ص ٣٨ .

وبحق ما قالوا ذلك ، فإنه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظرف واللباقة في كل معنى إلا وهو منسوب إليها ، وموجود فيها ، وما أخذ منها ، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب ، ولم يتخذ لتونة والمصامدة مدينة مراکش وطنا ، ولا جعلوها دار مملكة لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الأشياء ، ولكن لقرب مراکش من جبال المصامدة وصحراء لتونة ، فلهذا السبب كانت مراکش كرسى المملكة ، وإلا فمدينة فاس أحق بذلك منها « (١) . ثم يصف المراكشي مدينة فاس ، ويذكر عظمتها ونمو عمرانها فيقول : « وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس ، أكثر مرافق ، وأوسع معاش وأخصب جهات ، وذلك أنها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها ، وتتخلل الأنهار أكثر دورها زائدا على نحو من أربعين عينا ينغلق عليها أبوابها ، ويحيط بها سورها ، وفي داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء ، ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها ، إلا ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس هذه ، فإنها لا تحتاج إلى مدينة في شيء مما تدعو إليه الضرورة ، بل هي توسع البلاد مرافق ، وتملؤها خيرا » (٢) .

كذلك بعظمها ابن أبي زرع ، ويذكر أن المرابطين والموحدين إنما نزلوا بمراكش واتخذوها قاعدة لدولتهم لقربها من بلادهم ، ولأنها مبنية في جوارهم وبين قبائلهم (٣) . ويصفها الجزنائي في عصر دولتي المرابطين والموحدين

(١) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٣٥٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٥٩

(٣) Levi - Provençal, Extraits des historiens, p. 21

وصفا رائعا، ويذكر عظمتها وما بلغته من عمران وعمارة، ويشير إلى الصناعات التي ازدهرت فيها فيقول: « وانتهت مدينة قانس في أيام المرابطين والموحدين من بعدهم من الغبطة، والرفاهية، والدعة، والأمن، والعافية، ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب لاسيما في زمن المنصور الموحدي وولده محمد الناصر، وكانت المساجد بها سبعمائة وخمسة وثمانين، ودور الوضوء اثنتين وأربعين، والسقايات ثمانين، والحمامات ثلاثة وتسعين، وأرجاء الماء أربعمائة واثنتين وسبعين، ودور السكنى تسعا وثمانين ألفا ومائتين وستة وثلاثين، والمصارى ١ سبعة عشر ألفا وإحدى وأربعين، والفنادق أربعمائة وسبعة وستين، والخوانيت تسعة آلاف واثنتين وثمانين، وقيسارية واحدة في كل عدوة منها، ودار السكة واحدة في كل عدوة منها، والاطرزة (٢) ثلاثة آلاف وأربعة وتسعين، ودور عمل الصابون سبعا وأربعين، ودور الدباغين ستا وثمانين، ودور الصباغ مائة وستة عشر، ودور تشبيك الحديد والنحاس اثني عشر، ودور عمل الزجاج إحدى عشرة، وكوش الجسر مائة وخمسا وثلاثين، وأفران الخبز ألفا ومائة وسبعين، وأحجار عمل الكاغيد (٣) أربعمائة، كل ذلك بداخل المدينة، ودور الفخارة مائة وثمانين بخارج المدينة (٤).

(١) المصارى جمع مصرية، والمصرية غرفة عليا بالدار تطلى على الطريق يبروز، وتشبه المشربية أو العلبة، وكانت الفرامسة في معظم الأحيان، مشرجبة أي مزودة بناقذة مشبكة الاخشاب.

(٢) المقصود بالاطرزة الانوال

(٣) الكاغيد هو الورق

(٤) الخزناوى، ص ٣٣

ولكن هذا العمران المزدهر لم يلبث أن تعرض للتدمير في أيام المجاعة والفتنة التي قامت في أيام العادل وأخيه المأمون أبي العلاء إدريس ، في أواخر عصر الموحدين زهاء عشرين سنة (١).

• - فاس حاصدة بني مرين : (أنظر خريطة رقم ١٠)

انقرضت دولة الموحدين بوفاة أبي العلاء إدريس الواثق بالله المعروف بأبي دبوس ، ودرست آثارها ، واستولى الخراب والدمار على معظم ديار المغرب ، وخاصة فاس ، بسبب الحروب القائمة بينه وبين المرتضى أبي حفص عمر بن اسحق . وقد تحالف أبو دبوس مع بني مرين ليظفر بالخلافة ، وتخلي لهم نظير معاونتهم له عن مراکش حاضرة الموحدين ، ففر المرتضى إلى آزمور حيث مات قتيلا في سنة ٦٦٥ هـ ، ولكن أبا دبوس نكث بعهده مع بني مرين ، فاضطر الأمير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني إلى مهاجمة مراکش في نفس هذه السنة ، وانتهى الأمر بمقتل أبي دبوس أمام أسوار مدينة مراکش ، فدخلها بنو مرين ، وبعثوا برأس أبي دبوس إلى فاس . وكانت فاس قد تعرضت لهجمات بني مرين في سنة ٦٤٢ هـ في خلافة السعيد علي ، ولكنهم لم يتمكنوا من دخولها ، ولم يمض أربع سنوات على ذلك حتى تمكن الأمير أبو بكر بن عبد الحق المريني من الاستيلاء على مدينة فاس ، وانزعها من مملكتها السيد أبي العباس ، إذ بايعه أهلها في الرابطة الواقعة خارج باب الشريعة ، ودخلها جيش بني مرين في ٢٦ ربيع الآخر سنة ٦٤٦ هـ بعد موت السعيد في مراکش بنحو شهرين . واستخلف عليها مولاه السعود بن خرباش ، وسار لمحصنة فازاز ، فانتقض أهل فاس ، مع طائفة من المرتزقة النصاري

بقيادة شريد الفرنجي على بنى مرين في ٢٠ شوال سنة ٦٤٧ هـ ، وقتلوا السعود وأربعين من رجاله ، وبايعوا المرتضى . وعندما علم أبو بكر بن عبد الحق بذلك رفع الحصار عن فازاز ، وقدم إلى فاس ، وأحاطها بعسكره ، وقطع المادة عنها ، ويئس أهل فاس من نصرة المرتضى لهم ، فسألوا أبا بكر الأمان ، فأمنهم ، واسترجع المدينة (١) . وفي فاس توفي الأمير أبو بكر في قصره بالقصبة في سنة ٦٥٦ هـ ، ودفن داخل باب الجيسة ، وخلفه من بعده ابنه أبو حفص عمر ، ولكن عمه المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق هاجم فاس ودخلها في سنة ٦٥٧ هـ ، وأصبحت فاس حاضرة دولة بنى مرين ، فانتعشت المدينة في عصرهم . وكان أول مافعله أبو يوسف يعقوب أن أمر بإخراج أجناد الروم الذين كانوا يسكنون فاس ، وبني لهم المرسى القديم بخارج باب الشريعة على يد عامله عليها أبي العلاء بن أبي طلحة (٢) .

اهتم بنو مرين بفاس اهتماما خاصا ، واعتنوا بأمرها ، وزودوها بمدينة ألحقت بها تعرف بالمدينة البيضاء المعروفة بفاس الجديد ، واتخذوها داراً للامارة (٣) منذ عهد المنصور أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ، فقد عزم أبو يوسف بعد أن تمهد ملكه في المغرب أن يختط بلدا ينسب إليه ، ويتخذها دار ملكه ، وقرار سلطانه ، ويسكنها هو وحاشيته وحشمه وأولياؤه ، فأمر ببناء المدينة البيضاء ، بلمصق مدينة فاس ، فخرج في ٣ شوال من سنة

(١) تعرضت فاس لحريق كبير في أسواقها من قنطرة الصباغين قرب باب السلسلة ، فأحرقت سوق السقاطين والغمادين والصباغين ووصلت إلى باب الجنائز فأحرقت مزاريعه (الذخيرة السنية ، ص ٨٠)

(٢) نفس المرجع ص ١٠٠ ، ١٠٦

(٣) اسماعيل بن الأحمر ، روضة النسر في دولة بنى مرين ، الرباط ، ١٩٦٢ ص ١٩

٦٧٤ هـ ومعه العرفاء والبنائين وأهل المعرفة بالصنائع ، فتخيروا موضعها على وادى فاس من جهة أعلاه ، وشرع في حفر أساسها في هذا اليوم واختطها ، وبنائها ، وشيدها ، وبنى أسوارها وجامعها وأسواقها ^(١) ، ونزلها بخاشيته وذويه في نفس هذه السنة ، واختط الناس بها الدور والمنازل ، وأجريت فيها المياه إلى القصور ^(٢) ، وأقام القناطر بطرقاتها مثل قنطرة وادى النجاء وقنطرة مرين ^(٣) . ولما أتم بناء سور مدينة فاس الجديد ، أمر في سنة ٦٧٦ هـ ببناء الجامع الكبير بفاس الجديد للخطبة ^(٤) ، فأسس على يدي أبي عبد الله ابن عبد الكريم الحدودي ، وأبي علي بن الأزرق والى مكناسة ، واشتغل في البناء أسرى الروم الذين قدم بهم من الأندلس . وقد تم بناء هذا الجامع في رمضان سنة ٦٧٧ هـ ، وأقيمت فيه الصلاة . وفي سنة ٦٧٩ هـ ، أقام بمدينته الجديدة الأسواق من باب القنطرة إلى باب عيون صنهاجة ، وبنى بها حماما عظيما ، وقصورا لوزرائه ، وعمرت المدينة بعد ذلك بالمدارس والفنادق والأسواق ^(٥) . ولقد أجرى يعقوب المياه إليها عن طريق وادى الجواهر وغدير الحص الذي ينبثق مأؤه من الموضع المعروف برأس الماء غربي هذه البلدة ، اختط به أبو يوسف يعقوب قصرا مشرفا على محل خروجه ^(٦) .

(١) الذخيرة السنية ، ١٨٦ ، ١٨٧

(٢) السلاوى ، ج ٣ ص ٤٤

(٣) الذخيرة السنية ص ٩٩

(٤) Boris Maslow, les mosquées de Fès et du Nord du Maroc, (٤)

Paris 1937, pp. 38 - 53

(٥) نفس المرجع ص ١٨٨ - روضة السرين ص ٢٠

(٦) روضة السرين ، ص ٢٠

وقد مدح ابن الخطيب ما اشتملت عليه فاس الجديد بقوله : « وأما مدينة الملك فيبيضاء كالصباح ، أفق للفرر الصباح ، يحترق لا يوانها إيوان كسرى ، وترجع العين حسرى ، ومقاعد الحرس ، وملاعب الليث المفترس ، ومنابت الدوح المفترس ، ومدرس من درس أو درس ، ومجالس الحكم الفصل ، وسقائف الترس والتصل ، وأهداف الناشبة أولى الخصل ، وأواوين الكتاب ، وخزائن محمولات الافتاب ، وكراسى الحجاب ، وعصر الأمر العجاب ... » (١).

ووصفها ابن أبي زرع في عصر بني مرين فذكر محاسنها بقوله : « وهي الآن قاعدة ملوك بني مرين أطال الله أيامهم ، وأعلى أمرهم ، وخلد سلطانهم ، فهي منهم في المحل الرفيع والشكل البديع ، وقد جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء ، واعتدال الهواء ، وطيب التربة ، وحسن الثرة ، وسعة المحرث ، وعظيم بركتها ، وقرب المحطب ، وكثرة عوده وشجر وشجرة ، وبها منازل موقنة ، وبساتين مشرقة ، ورياض مورقة ، وأسواق مرتبة منتسقة ، وعيون منهمرة ، وأنهار متدفعة متخذة ، وأشجار ملتفة ، وجنات دائرة بها مجتمعة ، وقالت الحكماء ، أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي : النهر الجاري ، والمحرث الطيب ، والمحطب القريب ، والسور الحصين ، والسلطان إذ به صلاح حالها ، وأمر سبلها ، وكف جبارتها ، وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصال التي هي كمال المدن وشرفها ، وزادت عليها بمحاسن كثيرة ، فلها المحرث العظيم سقيا وبهلا ، على كل جهة منها ما ليس هو على مدينة من مدائن المغرب ، وعليها المحطب في جبل بني بهلول الذي في قبالتها يصبح كل

(١) ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والاندلس ، تحقيق

الدكتور أحمد مختار العبادي ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ١١٢.

يوم على أبوابها أحمال حطب البلوط والفحم ما لا يوصف كثرة ، ونهرها يشقها بنصفين ويتشعب في داخلها أنهارا وجداول وخليجانا ، فتخلل الأنهار ديارها وبساتينها وجناتها ، وشوارعها وأسواقها وحماماتها ، وتطحن به أرحاؤها ، ويخرج منها وقد حمل أثقالها وأقذارها ورماداتها (١) .

ولقد اهتم سلاطين بني مرين بإنشاء الحمامات ، فأنشئت حمامات خولان ووشقنانه وأبي يعقوب . وكانت بفاس دار صناعة لإنشاء القوارب والسفن الصغار بالموضع المعروف بالحيالات قرب ملتي وادي فاس ، كان قد أنشأها عبد المؤمن ، وفي هذه الدار أمر السلطان أبو عنان المريني بإنشاء جفنين بمنزل خولان أحدهما شيطى يجر مائة وعشرين محاربا ، والثاني شلير يجر ستين محاربا ، ودفعها بوادي سبو إلى أن وصلا إلى سلا سنة ٧٥٦ هـ (٢) .

وظلت فاس قاعدة بني مرين حتى ضعفت دوائهم ، وظهرت دولة الأشراف السغديين على أنقاض دولة بني مرين ، وأخذ سلطانهم محمد الشيخ يستولي على مدن المغرب ، فاستولى على مراكش في سنة ٩٤٦ هـ ، واكتسب محمد الشيخ محبة أهل المغرب لجهاده ضد البرتغاليين ، ونجاحه في افتتاح حصن فونتي وحصن آسفي وآزمور ، فاخترط مرسى أغادير بالسوس الأقصى في سنة ٩٤٧ هـ ، واستولى على مكناسة الزيتون في سنة ٩٥٥ هـ ، وأخذ يلبثهم مدن بني مرين الواحدة بعد الأخرى ، ثم تقدم في سنة ٩٥٦ لمحاصرة فاس ، وتمكن من الاستيلاء عليها ، وفر قائد جيش بني مرين وهو أبو حسون الوطاسي

(١) ابن أبي زرع ، نحن وارد بكتاب : *Extraits des historiens arabes* ، ص ٢١

— ٢٢ — الجزء الثاني ، ص ٢٥ ، ٢٦

(٢) الجزء الثاني ، ص ٢٦ ، ٢٧

إلى ثغر الجزائر ، حيث استنجد بالأتراك ، ونجح بفضلهم في استرجاع فاس في سنة ٩٦١ هـ ، ولكن الأتراك تصرفوا تصرف الفاتحين ، فاتهمكوا الحرمات ، وعاثوا في البلاد ، واضطر أبو حسون إلى صرفهم من خدمته ، وإخراجهم من فاس ، ووجد نفسه بعد إخراجهم وحيدا دون نصير . وكان محمد الشيخ قد استنصر القبائل واستنفرها ، وعبا الأجناد ، فزحف إلى فاس ، ودخلها في ٢٤ شوال سنة ٩٦١ هـ ، وقتل أبا حسون ، وتلقب بالخلافة ولكنه لم يتخذ فاسا عاصمة له ، وآثر مدينة مراکش لهذا الغرض (١).

وفي عهد دولة الأشراف العلويين بالمغرب ، استرجعت فاس عظمتها ، وأصبحت حاضرة المغرب في عهد مولاي الرشيد سنة ١٠٧٧ هـ ، وقد زودها بمشآت كثيرة منها قنطرة وادي سبو القائمة على أقواس أربعة ، شيدتها في سنة ١٠٨٠ هـ بالقرب من مدينة فاس ، والقصبة الجديدة التي أسسها في سنة ١٠٨١ هـ بفاس بالي ، كما أقام قصبة الخميس بالبلدة نفسها (٢) : أما ابنه مولاي إسماعيل فقد فضل مدينة مكناس واتخذها حاضرة له . وأصبح للمغرب عاصمتان : فاس في الشمال ، ومكناس في الجنوب ، ثم استعادت فاس عظمتها في عهد مولاي سليمان (١٢٠٦ - ١٢٣٨ هـ) الذي أنشأ فيها أبوابا كثيرة ومساجد جديدة . وظلت فاس منذ ذلك الحين المدينة الأولى في المغرب .

(١) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الاسلامي ، ج ٢ ص ١٧٩

(٢) André Julien, histoire de l'Afrique du Nord depuis la conquête arabe Paris 1952

الفصل السابع

دولتا الرستميين بتاهرت والمدرارين بسجلماسة

(١) أولية الرستميين

- أ - انتشار دعوة الإباضية في المغربين الأدنى والأوسط
- ب - عبد الرحمن بن رستم وتأسيس تاهرت
- ج - عبد الرحمن بن رستم إمام الرستميين
- د - إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبداية ظهور الانقسامات المذهبية عند الإباضية

(٢) خلفاء عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم

- أ - خلافة الإمام أفلح
- ب - الإمام أبو بكر بن أفلح
- ج - إمامة أبي اليقظان محمد
- د - إمامة أبي حاتم يوسف بن محمد
- هـ - إمامة اليقظان بن أبي اليقظان ونهاية دولة الرستميين

(٣) علاقة الدولة الرستمية بجيرانها

- أ - علاقة الدولة الرستمية بولاية إفريقية
- ب - علاقة الرستميين بالأمويين في الأندلس
- ج - علاقة الرستميين بمصر
- د - علاقة الدولة الرستمية بدولة بني واسول بسجلماسة
- هـ - علاقة الدولة الرستمية بالسودان

(٤) حضارة الرستميين في تاهرت

ا - الحياة العلمية

ب - الحياة الاقتصادية

ج - الحياة الفنية

(٥) دولة بني المدرار بسجلماسة

ا - نشأة سجلماسة وقيام دولة بني واسول المدراريين

ب - خلفاء اليسع بن أبي القاسم سمغون الملقب بالمدرار

الفصل السابع

دولتا الرستميين بتاهرت والمدرارين بسجلهاسة

(١)

أولية الرستميين

١ - انتشار دعوة الإباضية في المغربين الأدنى والأوسط :

كانت السياسة الجائرة التي جرى عليها خلفاء وبنى أمية قد جعلتهم في نظر كثير من أنقياء المسلمين منحرفين عن تعاليم الإسلام ومبادئه القائمة على العدل والمساواة والشورى ، فقد استأثروا بالخلافة ، واستبدوا برئاسة الدولة ، ولم يطبقوا نظام الشورى في اختيار الخلفاء ، وحادوا عن العدل والمساواة بين المسلمين ، وانحرفوا عن الاشتراكية التي نادى بها الإسلام ، وتقوم على التزام العدل وإنفاق مال الدولة في مصالح المسلمين ، وأصبحت الأموال في العصر الأموي تنفق على الشهوات والزوات ، ودلى الأولياء والأهصار والمؤيدين . أدت هذه السياسة الغاشمة إلى قيام جماعات في العراق تنادى بتطبيق مبادئ الإسلام القائمة على المساواة والعدل ، والرجوع إلى الشورى في اختيار الإمام ، فظهر الإباضية ، وهي فرقة خارجية تنسب إلى داعية منهم هو عبد الله بن إباح المازي التميمي ، ومن أئمتها أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي العباني ، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لهذه الفرقة ، وكان من أعظم علماء عصره بالشريعة والفقه الإسلامي ، متبحرا في أصول الفقة ، أخذ العلم عن كثير من الصحابة ، وكان مما قاله على نفسه اعتزازا وتحدا

بنعمه الله عليه : « أدركت سبعين رجلا من بدر ، فحويتنا ما عندهم من العلم إلا البحر الزاخر (يقصد عبد الله ابن عباس) » ، وكان ابن عباس يمتدح علمه فيقول : « اسألوا جابر بن زيد ، فلو سأله من بالشرق والمغرب لو سألهم علمه » ، ولما توفي جابر عبر مالك بن أنس عن خسارة الإسلام بفقدته بقوله : « مات اليوم أعلم من في الأرض » (١) . ومن تلاميذ جابر ، أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، وضام بين السائب ، وحيان الأعرج ، وأبو حمزة الأشعث ، وأبو نوح صالح الدهان ، وعمرو بن دينار . وكان جابر بن زيد ينادى بالقضاء على بدعة الملك الذي اضطنعه الأمويون ، والرجوع بالإسلام إلى نظام الشورى والعدل والمساواة بين المسلمين المعروف في عصر الخلفاء الراشدين ، لذلك حاربه بنو أمية ، ونفاه الحجاج إلى عمان ، فأقام بها مدة ، ثم عاد إلى البصرة لاستكمال رسالته ، وظل يعمل جاهدا لإنشاء الجمهورية الإسلامية العادلة ، إلى أن توفي في سنة ٩٣ هـ . وخلفه على إمامة الإباضية أبو عبيدة مسلم ، وكان مثالا للورع والتمسك بالدين ، عالما من أبرز علماء عصره ، شديد التمسك بمبادئه ، فسيجنه الحجاج مع جماعة من الإباضية ، ثم أفرج عنه في خلافة سليمان بن عبد الملك . وأدرك عبيد الله صعوبة الدعوة للمذهب الإباضي في المشرق الإسلامي ، ورأى أن ينطلق الإباضية بدعوتهم إلى أطراف الدولة الإسلامية ، وعلى الأخص بلاد المغرب . فاختار رجلا من تلامذته معروفا بحماسة للإباضية ، وبعلمه الغزير ، وتقواه وورعه مع بلاغته وفصاحته لسانه هو سلمة بن سعد ، بعثه إلى المغرب لنشر دعوة الإباضية . وبوفود سلمة بن سعد في أول القرن الثاني للهجرة

(١) أبو الربيع سليمان الباروني ، مختصر تاريخ الإباضية ، تونس ، ١٩٣٨ ص ٢٩ .

إلى سرت ، انتشر المذهب الإباضى على نحو تجاوز كل تقدير فى الحسبان ،
ومنذ ذلك العهد بدأ دعاة الإباضية يتوافدون على المغرب لنشر الدعوة تمهيدا
لإنشاء دولة إباضية . وقد ساعد على انتشار الإباضية ، وتوافد دعايتها أن
الدولة العباسية كانت أشد وطأة على الخارجية من الدولة الأموية ، فاستبد
العباسون بالدولة ، وداسوا على مبادئ الإسلام الكريمة ، ورفعوا السيف
على كل من ناوأ سلطانهم . وكان المغرب الإسلامى يغلى سخطا على ولاية
الأمويين والعباسين لمظالمهم ، وكان إقبال البربر على الإباضية سريعا ، فلم
تلبث هذه الشرارة الأولى أن أشعلت نارا احتدم لظاها فى المغربين الأدنى
والأوسط فى طرابلس وإقليم قسطنطينية ، ومعظم بلاد المغرب الأوسط من
مليانة إلى وهران .

وأراد البربر التعمق فى دراسة مذهب الإباضية ، فقد شوقهم سلامة بن سعد
إلى شد الرحال إلى المشرق لتلقى علوم هذا المذهب على الإمام أبي عبيدة (١) ،
فرحل فريق من علمائهم إلى البصرة للأخذ على هذا الإمام ، وكانوا أربعة
هم : عبد الرحمن بن رستم الفارمى ، وعاصم السدراقى ، وأبو داود القبلى
النفزاوى ، وإسماعيل بن ضرار الغدامسى ، وانضم إليهم عند أبي عبيدة
مسلم تائر آخر هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافى البنى ، اختاره
أبو عبيدة لرئاسة الدولة الإباضية التى ينوى البربر إقامتها فى المغرب ، لغزارة
علمه ، وتفهمه العميق للدين ، ومهارته فى الاستنباط . وعاد حملة العام الخمسة
إلى المغرب الإسلامى ، بعد إقامة دامت خمس سنين فى البصرة ، عادوا إلى
المغرب وهم يشتعلون حماسا لإنشاء دولة على مذهبهم الإباضى ، وتمت مبايعة

(١) أبو الريم سليمان البارونى ، مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٥

أبى الخطاب بالإمامه ، و أعلن قيام الدولة الإباضية في محرم سنة ١٤٠ هـ في موضع يعرف باسم صبياد غربي طرابلس ، وتمكن الإباضية بعد مبايعة أبى الخطاب من الاستيلاء على طرابلس واتخذوها مقرا لهم (١) . ودانت لأبى الخطاب البلاد بالطاعة لما شاع عنه من الرفق بالرعية ، والعدل بين الناس ، فعظم شأنه فيهم ، وامتد سلطانه شرقا إلى برقة ، وغربا إلى القيروان ، وجنوبا إلى فزان (٢) . واختار أبو الخطاب عبد الرحمن بن رستم رفيقه في العلم قاضيا بطرابلس (٣) .

وفي هذه الاثناء كانت قبيلة ورفجومة النفزية بقيادة عاصم بن جميل ، وكانت من غلاة الصفرية قد دخلت القيروان ، واستحلت فيها المحارم ، وارتكبت الكبائر ، وأساء رجالها إلى الاسلام ، فقدر بطوا دوابهم في المسجد الجامع ، وعاثوا عيئا شديدا في مدينة القيروان (٤) . ولما علم أبو الخطاب بما أصاب القيروان ، بكى رحمة باهلها ، ودفعته غيرته على الاسلام إلى استنفار الناس لمقاتلة هؤلاء المتوحشين ، وخرج بجيش من أتباعه عدته نحو ستة آلاف في سنة ١٤١ هـ ، وافتتح قابس ، ومنها سار إلى القيروان ، واشتبك مع ورفجومة في قتال عنيف ، في صفر سنة ١٤١ هـ انتهى بانتصار الإباضية ، وقتل عبد الملك بن أبى الجعدى اليفرنى ، قائد عاصم بن جميل ، ودخل أبو

(١) محمد على دبور ، تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ص ١٣٥ - ٢٠٩

(٢) مختصر تاريخ الإباضية ، ٣٣

(٣) نفس المرجع ص ٣٥ - سليمان بن عبد الله البارونى النوسى : كتاب الأزهار

الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ، بدون تاريخ ، ص ٨٤

(٤) ابن عذارى ، ج ٨١ - مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٣

الخطاب مدينة القيروان ، وحررها بذلك من الصهرية المتطرفين . ثم عام
أبو الخطاب وهو بالقيروان بعزم محمد بن الأشعث ، الخزاعي ، عامل بني
العباس على مصر على تسيير حملة إلى طرابلس بقيادة أبي الأحوص عمرو بن
الأحوص العجلي . فولى عبد الرحمن بن رستم الفارسي ، قاضى طرابلس ،
وأحد زعماء الإباضية ، على إفريقية ، وقسم من بلاد المغرب الأوسط كان
سكانه من الإباضية ، يمتد من جزائر بني مزغنة إلى وهران . وعاد أبو
الخطاب إلى طرابلس . وفي سنة ١٤٢ هـ أقبل الجيش العباسي بقيادة أبي
الأحوص العجلي ، فزحف إليه أبو الخطاب بمجموع الإباضية من البربر
والعرب ، والتقى الجيشان في مغمداس ، فانهزم أبو الأحوص وجيشه ،
وعاد إلى مصر . ولم يسكت أبو جعفر المنصور على هذه الهزيمة ، ورأى في
ضياع نفوذ بني العباس بالمغرب تهديدا مباشرا لمصر والشام ، فعزم على
القضاء على دولة الإباضية ، وإعادة بسط النفوذ العباسي على إفريقية ، وأخذ
يعي كل طاقات الدولة وإمكاناتها لهذا الغرض ، فولى إفريقية محمد بن
الأشعث الخزاعي ، عامله السابق على مصر ، وأعد جيشا ضخما عدته أربعون
ألف مقاتل ، بقودهم عشرة من أعظم قواد دولته نخص بالذكر منهم الأغلب
بن سالم التميمي ، والمحارب بن هلال ، والمخارق بن غفار الطائي . وزحف
هذا الجيش إلى برقة . وأمام هذا الخطر الذي يهدد الإمامة الإباضية الفتية ،
خرج أبو الخطاب في جيش هائل عدته مائتي ألف مقاتل ، عسكريهم في
أرض سرت . وأمام هذه الكثرة الهائلة أحجم ابن الأشعث عن لقاء الإباضية ،
فظاهر بالانسحاب إلى مصر ، ثم دهم معسكر أبي الخطاب في تاورغا فجأة
في صفر سنة ١٤٤ هـ ، فانهزم الإباضية ، وقتل أبو الخطاب في جملة من خيار

أصحابه يبلغ عددهم ١٢ ألفاً^(١) . وكان عبد الرحمن بن رستم يتأهب لانتجدة أبي الخطاب ، فسمع وهو في طريقة إليه نبأ الهزيمة الشنعاء التي منى بها جيشه ، وآثر أن يترك المغرب الأدنى وشأنه ، ويمضي إلى المغرب الأوسط حيث لا يصل نفوذ العباسيين ، وحيث يتركز جمهور الإباضية الذين انتصروا لآبي الخطاب وله ، فيمكنه هناك أن يؤسس دولة إباضية على نسق دولة أبي الخطاب .

ب - عبد الرحمن بن رستم وتأسيس تاهرت :

أجمع المؤرخون على أن عبد الرحمن بن رستم من أصل فارسي ، وذكر بعضهم أنه من أعقاب رستم قائد جيش الفرس في موقعة القادسية (٢) ، بينما يرفع بعضهم نسبه إلى بهرام كور كسرى فارس (٣) . وكان ابن رستم هذا مولى لعمان بن عفان (٤) ، ثم وفد إلى المغرب مع العرب الفاتحين (٥) ، ويبدو أنه قدم في أواخر العصر الأموي ، واستقر بالقيروان ، وأخذ في بيئتها العلمية الزاهرة على كبار علمائها ، وكان من بين العلماء الأربعة الذين

(١) ابن عذاري ، ص ٨٣ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١١ - مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٤

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٦

(٣) البكري ، معجم ما استعجم ، مادة تاهرت - ياقوت ، معجم البلدان ، مادة تاهرت - ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٧٧

(٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٧٧ - ياقوت ، معجم البلدان ، مادة تاهرت ، ج ٢ ص ٨

(٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٦ . وقيل أن أباء رستم بن بهرام قدم مكة بزوجه وابنه للعج فأت بها ، فتزوجت زوجها رجلا من القيروان ، فأقبل مع أمه إلى القيروان (دبوز ، ص ٣٠١ نقل عن الشماخي صاحب السيرة) .

وقع عليهم اختيار إباضية البربر للاخذ على أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي البصري ، ولما عاد إلى المغرب مع رفاقه ، وقامت إمامة أبي الخطاب ، ولاء على قضاء طرابلس ، وكان عبد الرحمن بن رستم أكبر أعوانه في إدارة دولته وتصريف أموره ، وفي حل المشكلات التي يستعصى عليه حلها (١) ، وكان أبو الخطاب قد طين مقدراته وكفايته وحسن سياسته ما جعله يستخلفه على القيروان والمغرب الأوسط ، قبل أن يمضي هو لمحاربة المسودة ، ولما قتل أبو الخطاب ، وتمكن ابن الأشعث من القضاء على الولايات الإباضية بطرابلس ، وزحف بجيشه لاسترداد القيروان ، وجسد ابن رستم أن من الأسلم له ولا تباعه النجاة إلى المغرب الأوسط ، حيث يستطيع بفضل أنصاره هناك ، أن يعيد إنشاء دولة على المذهب الإباضي ، على نسق دولة أبي الخطاب في طرابلس . فخرج مستخفيا قاصدا المغرب ، ولم يكن معه شيء إلا ما خف من ماله ولم يكن يرافقه إلا ابنه عبد الوهاب ومملوكه (٢) ، فتوجهوا إلى قبيلة لماية البترية وذلك لحلف قديم كان قائما بينه وبينهم (٣) . وقطعوا في سيرهم مسافة غير قصيرة ، ولكنهم فوجئوا بموت فرس عبد الرحمن ، فدفنوه حتى لا يعلم بموته أحد من حزب عبد الرحمن بن حبيب فيطمع فيهم ويتبع أثرهم ، ولما كانت المسافة إلى لماية طويلة ، فقد كان من الطبيعي أن يحس عبد الرحمن بن رستم بالتعب ، لكبر سنه وشيخوخته ،

(١) محمد علي دبوز ، ج ٣ ص ٢٥١

(٢) الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ج ٢ ص ٢ - مختصر تاريخ الإباضية ،

ص ٣٦

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٧

فاضطر ابنه عبد الوهاب ، وعبداه إلى حملة على ظهريها بالتناوب (١). ويبدو أن عبد الرحمن سلك في سيره الطريق الجنوبية المارة بقسطلية . وذكر الأستاذ دبوز أنه اخترق شمال وادي سوف ، وسار مغربا على شمال تيفورت ومدينتي القرارة وبيريان من وادي ميزاب إلى مدينة الأغواط ، فاجتاز جبال بني راشد غربا ، ثم انحرف شمالا ، شرقى مدينة آفلو ، وغربى وادي شلف حتى نزل على وادي سوفجيج الذى ينبع من سفح جبل سوفجيج ، ويقع بين مدينتي سلالة شرقا والسوف غربا (٢) ، وجنوبى مدينة تاهرت . ويعتقد الأستاذ دبوز أن هذا الجبل هو نفس الجبل المعروف اليوم بجبل سوففيف . وكان هذا الجبل فى غاية المنعة والحصانة لصعوبة مرقاه ، فنزله عبد الرحمن ، وتحصن فيه ، وكان عامرا بالإباضية ، فأدركوه ، وأنزلوه بينهم ، وسمع به وجوه الإباضية وعلمائهم ، فقصدوه من كل النواحي حتى اجتمع لديه من طرابلس وجبل نفوسة من العلماء وخدم مايزيد على ستين من كبار أهل العلم والفضل والرأى (٣) . وتسارعت قبائل هواره ولواته ولماية بالانضمام إليه ، والالتفاف حوله . ولما علم ابن الأشعث فى القيروان بتمكن ابن رستم من الفرار إلى المغرب الأوسط ، واجتمع قبائل البربر إليه ، والتفافهم حوله ، جهز جيشا ، وسار به إلى هذا الجبل بقصد استئزال عبد الرحمن بن رستم قبل أن يستفحل أمره ، فلما قدم بجيشه عسكر فى سفح الجبل ، وحفر خندقا حول معسكره خوفا من أى هجوم قد يقوم به الإباضية على معسكره ، ثم طوق الجبل من كل ناحية ، واستمر محاصرا له

(١) الأزهار الرياضية ، ٣ — مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٦

(٢) دبوز ، ج ٣ ص ٢٥٦

(٣) الأزهار الرياضية ، ص ٣ — مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٦

مدة حاول خلالها بكل الوسائل عبثا الوصول إلى معقل ابن رستم ، ولما طال الحصار ، سُمّ جنده البقاء ، واتفق أن فشا بينهم وباء الطاعون ، فهلك منهم عدد كبير ، وقد اضطر لذلك إلى فك الحصار والعودة إلى القيروان ، وعبر عن صعوبة فتح الجبل بقوله : « إن سوفجج لا يدخلة إلا دارع ومدجج » (١) . وأقام عبد الرحمن هناك حتى اجتمع إليه عدد كبير من فضلاء الإباضية وكبارهم ، وأجمع هؤلاء على مبايعة عبد الرحمن بن رستم برئاستهم ، وكان لابد لمؤسس دولة الرستميين أن يؤسس مدينة ينزل فيها هو وأتباعه وأنصاره ، تكون مقرا لدولته على نحو ما فعله أبو القاسم سمعون ابن واسول المكناسي الصفري عندما اختط سجلها سنة ١٤٠ هـ (٢) ، فتطلع عبد الرحمن بعد أن بويع بزعامة الإباضية إلى إنشاء مدينة تكون جذيرة بمركز هذه الدولة الفتية . وكان يهدف إلى اختيار موضع منيع تحوطه الجبال ، لتكون درعا طبيعيا لهذه المدينة ، ووقع اختياره على الموضع الذي تقوم عليه مدينة تاهرت القديمة ، وكانت حصنا ليرفجامة ، وشرع في بناء دورها . ويذكر البكري « أنهم لما أرادوا بناء تاهرت ، كانوا يبنون النهار ، فإذا جن الليل ، وأصبحوا ، وجدوا بنيانهم قد تهدم ، فبنوا حينئذ تاهرت السفلى ، وهي الحديثة ، وهي على خمسة أميال من القديمة » (٣) . ويمتاز موقع هذه المدينة الرستمية بأنه على سفح جبـل جزول المرتفع ، وتكتنفه غابة ملتفة بالأشجار ، يمكن أن تكون أرضا صالحة للزراعة ، وتنبع

(١) الأزهار الـرياضية ، ص ٣

(٢) ابن عـزـازي ، ج ١ ص ٢٨٢ — ابن خـلدون ج ٦ ص ٢٤٧

(٣) البكري ص ٦٧ — باقوت ، معجم البلدان ، مادة تاهرت ، ص ٨

فيها العيون الطبيعية ، ويجرى فيها نهر لا ينقطع ماؤه اسمه نهر مينة (١) ، ويكتنف المدينة بأعلى المناطق الجبلية غابات خضراء رائعة الجمال .

ولما وقع اختيار عبد الرحمن على هذا الموضع لبناء مدينته المقبلة ، وأعجبه مناخه المعتدل ، اشتراه من أصحابه ، وهم بربر من صنهاجة ومنداسة ، بعد أن اتفق مع أصحابها على أن يؤدي إليهم خراجا معلوما يأخذونه من غلاتها ، واتبع الإباضية في تطهير الغابة وإزالتها نفس السبيل الذي اتبعه عقبة بن نافع من قبل في تطهير الغيضة التي أقيمت عليها القيروان ، فأحرق الأشجار ، فلما نضجت النيران ، قام أنبأه بتدقية هذه الأشجار وتمهيد الأرض ، وأصبحت بذلك صالحة للعمارة عليها . ثم شرع في تخطيط تاهرت الجديدة ، وحفر أسس أسوارها سنة ١٤٤ ، وأسس مسجدها الجامع ، وكان يتألف من أربع بلاطات (٢) . وكان لهذا الجامع مصلى للجنائز (٣) على نحو جامع الزيتونة وجامع القرويين بفاس . ثم أقبل الناس على بناء الدور والقصور ، والحمامات ، والفنادق ، والحوانيت ، والأسواق ، والأرحاء ، فأصبحت تاهرت في أمدوجيز مدينة عامرة ، تجارتها زاهرة ، وقومها مياسير . وكان لها عدة موانئ منها مرسى فروخ ترسو فيه مراكبها ، ومرسى تنس ، ومستغانم ، ووهران ، وهذا المرسى الأخير كان يربط الدولة الناشئة بالأندلس . وقصدها الناس من كل الأقطار الإسلامية ، وانتجعوها من كل مكان ، فازدهر اقتصادها ، وتألفت الحضارة فيها . وأصبحت تاهرت

(١) الاستبصار ، ص ١٧٨

(٢) ابن عذاري ، ص ٢٧٧

(٣) ابن الصغير المالكي ، سيرة الأئمة الرستميين ، باريس ١٩٠٧ ، ص ٤٤

على هذا النحو مقصد الرحلات ، ومركز الهجرات ، لما شاع من عدل عبد الرحمن بن رستم في رعيته وحسن سيرته فيهم ، ففتحت أبوابها لكل من طرقها من الخارجين على الدولة العباسية ، ومن ضاقت نفوسهم بعسف خلفاء بني العباس واستبدادهم . وكان من جملة الوافدين عليها طائفة من الفرس . وقام الوافدون على تاهرت بالبناء والعمارة وغرس البساتين وإجراء الأنهار واتخاذ الرحى والمستغلات وغير ذلك ، فانسع لذلك عمران المدينة حتى « لا ترى داراً إلا قيل هذه لفلان الكوفي ، وهذه لفلان البصري ، وهذه لفلان القروي » (١) .

وقد وصف اليعقوبي مدينة تاهرت في القرن الثالث الهجري بقوله : « والمدينة العظمى تاهرت جليلة المقدار ، عظيمة الأمر ، تسمى عراق المغرب ، لها أخلاط من الناس تغلب عليها قوم من الفرس ، يقال لهم بنو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسي ... » (٢) : ووصفها المقدسي في القرن الرابع الهجري بقوله : « تاهرت هي اسم القصبه أيضا هي بلخ المغرب ، قد أحرق بها الأنهار ، والتفت بها الأشجار ، وغابت في البساتين ، ونبعت حولها الأعين ، وجل بها الإقليم ، وانتعش فيها الغرب ، واستطابها اللبيب ، يفضلوها على دمشق وأخطأوا ، وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا ، هو بلد كبير كثير الخير ، رحب رفق ، طيب ، رشيق الأسواق ، غزير الماء ، جيد الأهل ، قديم الوضع ، محكم الرصف ، عجيب الوصف ... بها جامعان على ثلثي البلد ، قد بنيا بالحجارة ، والجير ،

(١) الأزهار الرياضية ، ص ٤٢

(٢) اليعقوبي ، ص ١٥٣

قريبان من الأسواق ، ومن دروبها المعروفة أربعة : باب مجانة ، درب المعصومة ، درب حارة القفير ، درب البساتين ^(١) . ووصفها ابن حوقل في القرن الرابع الهجري أيضا فقال : « و تاهرت مدينتان كبيرتان ، إحداهما قديمة أزلية ، والأخرى محدثة ، والقديمة ذات سور ، وهى على جبل ليس بالعالى ، وفيها كثير من الناس ، وفيها جامع . وفي المحدثه أيضا جامع ، ولكل إمام وخطيب ، والتجار والتجارة بالمحدثه أكثر ، ولهم مياه كثيرة تدخل على أكثر دورهم ، وأشجار وبساتين ، وحمامات وخانات . وهى أحد معادن الدواب ، والماشية ، والغنم ، والبغال ، والبراذين الفراهية ، ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات » ^(٢) ويصفها البكري في القرن الخامس فيقول : « ومدينة تاهرت مدينة مسورة لها أربعة أبواب : باب الصفا ، وباب المنازل ، وباب الاندلس ، وباب المطاحن . وهى فى سفح جبل يقال له جزول ، ولها قصبة مشرفه على السوق تسمى المعصومة ، وهى على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة ، وهو فى قبليها ، ونهر آخر يجرى من عيون تجتمع يسمى تاتش ، ومنه شرب أهلها وأرضها ، وهو فى شرقها ، وفيها جميع الثمار . وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ، وحشما ، وسفرجلها يسمى بالفارسي . وهى شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج » ^(٣) .

ويصفها صاحب الاستبصار فى القرن السادس الهجرى بقوله : « ومن

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم ، ليدن ، ١٩٠٧ ص ٢٢٨

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض و ط . بيروت ١٩٦٢ ، ٨٦

(٣) البكري ، ص ٦٦

مدن المغرب الأوسط المشهورة مدينة تاهرت ، وهى مدينة مشهورة قديمة كبيرة ، عليها سور صخر ، ولها قصبة منيعة على سوقها تسمى المعصومة . ومدينة تاهرت فى سفح جبل يسمى قرقل ، وهى على نهر كبير بأيتها من ناحية المغرب يسمى منية ، ولها نهر آخر يجرى من عيون تجتمع يسمى نانس ، ومنه تشرب أرضها وبساتينها ، وكان لها بساتين كثيرة فيها جميع الثمار ، فيها سفرجل يفوق سفرجل جميع البلاد حسنا وطعما ورائحة » (١) . وفى تاهرت يقول أيضا ياقوت : « هى مدينة جليلة ، وكانت قديما تسمى عراق المغرب ، ولم يكن فى طاعة صاحب إفريقية ، ولا بلغت عساكر المسودة إليها قط ، ولا دخلت فى سلطان بنى الأغلب ، وإنما كان آخر ما فى طاعتهم مدن الزاب ... وهذه تاهرت الحديثة ، وهى على خمسة أميال من تاهرت القديمة ، وهى حصن ابن بخانة ، وهو شرق الحديثة ، ويقال إنهم لما أرادوا بناء تاهرت القديمة كانوا يبنون بالنهار ، فاذا جن الليل ، وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم ، فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهى الحديثة ... » (٢) .

ح - عبد الرحمن بن رستم امام الرستميين :

لم يبايع الإباضية ابن رستم بالإمامة إلا فى سنة ١٦٠ هـ بعد أن رست قواعد الدولة ، ورسخت دعائمها ، وتوطدت أركانها ، وامتدت جذورها ، وأصبحت قادرة على الدفاع عن نفسها ، وبعد أن نظم مؤسسوها صفوفهم ، وأذابوا مشاكلهم . وأهم هذه المشاكل التى صادفتها الدولة قبل سنة ١٦٠ هـ ،

(١) الاستبصار ، ص ١٧٨

(٢) ياقوت ، معجم البلدان مجلد ٢ ص ٨

مشكلة الاتحاد مع صغرية تلمسان في ضرب العباسيين الذين كانوا يهدفون إلى القضاء على الصغرية والإباضية بالمغرب . كذلك لم يكن إباضية طرابلس قد ألقوا سلاحهم ، بعد استشهاد إمامهم أبي الخطاب في سنة ١٤٤ ، فظلوا يخوضون المعارك مع العباسيين ، متخذين من جبل نفوسة حصنا ومقلا يتحصنون فيه . ففى ولاية الأغلب بن سالم ، " كنت زناتة البترية فى تلمسان من جمع شملها تحت لواء أبى قـرة بن دوناس اليفرنى الصغرى ، وكان الأغلب ينوى الإصطدام مع زناتة الصغرية، ولكنه، أصيب فى موقعة حدثت بينه وبين الحسن بن حرب ، بسهم أرداه قتيلا فى سنة ١٥٠ هـ . وخلفه على إفريقية عمر بن حفص ، وكان يهدف إلى تحصين طبنة ، واتخاذها مركزا لشن غاراته على الإباضية والصغرية ، فما كاد يخرج إلى طبنة فى سنة ١٥٤ هـ ، وتخلو إفريقية من عسكر العباسيين حتى ثار بها البربر باتفاق مع الصغرية فى تلمسان والإباضية فى تاهرت وطرابلس وجنوب إفريقية . هاجم البربر الجنيد بن بشار الأسدى ، عامل عمر بن حفص على إفريقية . واجتمع الإباضية فى طرابلس ، وبايعوا أبا حاتم يعقوب بن حبيب الإباضى بالإمامة فى سنة ١٥٤ . ولما هوجم الجنيد ، استنجد بعمر بن حفص فى طبنة ، فأمدّه بعسكر لمواجهة الموقف . ولكن قوات الإباضية أبادتهم ، وفر فلهم إلى قابس ، فحاصروهم أبو حاتم بها (١) . وتجمعت حشود الخوارج من كل ناحية ، حتى قيل أن عدد جيوشهم بلغ ١٢ جيشا ، توجهوا جميعا إلى الزاب . واشترك عبد الرحمن بن رستم فى المعركة المقبلة بجيشه ، ولكنه رابط فى تهوذه استعدادا للتدخل عند الحاجة إليه . وقد رأينا كيف نجح عمر بن حفص فى إغراء جماعة من

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٧

البر بماله للتخلي عن أبي قرة ، ثم تمكن بذلك من فك الحصار ، ووجه
عسكره إلى ابن رستم ، فانهزم ابن رستم إلى تاهرت . وعلى الرغم من انتصار
إباضية طرابلس بقيادة أبي حاتم ، على عمر في القيروان ، فقد انتهى أمر
هؤلاء بالهزيمة على أيدي قوات يزيد بن حاتم في جبال نفوسة في ربيع الأول
سنة ١٥٥ هـ ، وقتل أبو حاتم هو وصفوة قواده (١) .

عاد ابن رستم إلى تاهرت بعد هزيمته على يد عمر بن حفص ، فاهتم بتنظيم
بلاده ، وأجمع أهل الحل والربط من الإباضية على مبايعته بالإمامة في سنة
١٦٠ هـ ، كما اشترك في مبايعته إباضية طرابلس ، فاتسع سلطانه بين القبائل
العديدة التي دخلت في طاعته ، وعلى رأسها نفوسة . وساد الأمن والسلام
ربوع بلاده ، إذ كان يسلك في الناس سبيل العدل والإنصاف ، وكان
لا يستبد برأى ، وإنما كان يصطنع أهل الرأي في مجلس الشورى ، وانتشرت
في المشرق الاسلامي سيرته العطرة ، فكثرت أنصاره ، لا في البلاد المغربية
فحسب ، بل في العراق ومصر وخراسان ، واعتز إباضية البصرة بهذه الدولة
التي تحققت بها أمنيتهم في قيام إمامة إباضية تطبق فيها مبادئ مذهبهم . ولم
يتردد هؤلاء الإباضية في البصرة عن مساعدة هذه الإمامة الفتية بالأموال ،
ويذكر ابن الصغير أن إباضية البصرة وغيرها من بلاد المشرق الاسلامي جمعوا
أموالا عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم لتسليمها إلى عبد الرحمن بن رستم ،
عندما يتبين لهم صدق ما يشاع عنه من حسن السيرة والعدل . فمضى هذا
الوفد البصري حتى وصلوا إلى تاهرت ، ونزلوا المصلى ، فأناخوا جماهم
ودخلوا تاهرت من باب الصفا ، ودلهم الناس على دار الإمام عبد الرحمن ،

« فوجدوا عند بابها غلاما يعجن طينا ، فيناوله رجلا على سطح الدار يصلح شقوقا فيه . فسألوا على الغلام ، فرد السلام . فقالوا : أهذه دار الإمام ؟ - تعجبا من بساطتها ، وظنا أن لا تكون هي دار الإمام ، إذ كانوا يتوهمون أن يجدوا داره قصرا منيفا - فقال الغلام نعم . فقالوا له : استأذن لنا منه ، واعلمه إن أرسل إخوانه إليه من البصرة . فرفع الغلام رأسه إلى سيده ، وقد علم أنه سمع كلامهم . فقال : قل للقوم يصبرون قليلا . ثم أقبل على ما كان من إصلاح السطح حتى انقضى ، والقوم ينظرون إليه ، وهم شاكون فيه ، هل هو صاحبهم أم لا . فزل من سطحه إلى داره ، فغسل ما كان بيديه من أثر الطين ، ثم توضأ وضوء الصلاة ، فأذن للقوم فدخلوا عليه ، فوجدوا رجلا جالسا على حصير فوقه جلد ، ولبس في بيته سوى وسادته وسدته التي ينام عليها وسيفه ورمحه ، وفرس مربوط في ناحية من داره . فسألوا عليه ، وأعلموه أنهم رسل إخوانه إليه . فأمر غلامه بإحضار طعامه ، فأتاه بمائدته عليها قرص ساخن وسمن وشيء من ملح . فأمر بذلك القرص فهشم ، وأمر بالسمن فلت به . ثم قال : على اسم الله ادنوا وكلوا ، فأكل معهم . فلما انقضى طعامهم ، جدد الترحيب بهم ، فسألهم : ما مرادكم ، وما جاء بكم ؟ فقالوا له : نريد أن تأذن لنا فندخلو بأنفسنا ، ثم نكلمك بعد ذلك ، فقال : افعلوا . فنهض لتواضعه ، فأخلى لهم المجلس ، فجلسوا نجيا ، فقال بعضهم لبعض : يكفيننا من السؤال عنه ما رأينا منه من إصلاحه لداره بنفسه ، وهطعمه وملبسه وحلية بيته ، فما نرى إلا أن ندفع إليه المال ، ولا نشاور أحدا فيه . وكان الذي معهم من المال ثلاثة أحمال من المال ، ست غرائر ، فأجمع رأيهم على حمل المال إليه . فرجعوا إليه . « (١) . ثم أبلغوه بأمر مساعدة إباحية

(١) ابن الصغير المالكي ، ص ١٠ - الازهار الرياضية ص ٨٥ وما يليها

المشرق له في تمكين دولته بهذا المال ، فعزم ابن رستم على عقد مجلس للشورى من وجوه القبائل في المسجد الجامع . فلما اجتمع أعضاء المجلس قرروا قبول هذه المساعدة لحاجة الإمامة الفتية إلى ما من شأنه أن يقوى دعاتها ، على أن يقسم ثلث هذا المال للكراع ، وثلثه للسلاح ، وثلثه للفقراء والضعفاء . فشرع الإمام في شراء الكراع والسلاح ، وتحسنت أحوال الناس ، وأنسوا من أنفسهم قدرة على توسيع نطاق العمران فشرعوا ، في إجراء الأنهر واتخاذ الأرحاء والمستغلات . ولم يمض ثلاث سنين على هذه المعونة المشرقية حتى عاد وقد إباضية البصرة يحملون عشرة أحمال من الذهب لإمارة الإمامة من جديد حتى تتقوى وتتمكن بذلك من الوقوف أمام مطامع العباسيين . ولكنهم شاهدوا مدينة تاهرت قد تبدلت ، إذ أقيمت فيها « قصور مشيدة ، ودور منظمة ، وأبنية مبهجة ، وقباب مرتفعة ، وأسواق مزدحمة ، ومساجد متعددة بمنازل عالية ، وحمامات متقنة ، ويحيط بالعاصمة بساتين متنوعة ، ومطاحن منتصبة ، على الأنهار الجارية ، واتخذ أهلها الفرش والستائر المزخرفة ، والخليل المسومة ، وتنوعت الألبسة وتعددت اللغات والأزياء ، ورأوا ما لم يخطر لهم ببال » (١) ، ولكنهم رأوا دار الإمام على ما كانت عليه من البساطة وسذاجة البناء . فلما قابلوا عبد الرحمن بن رستم ، جمع مجلس الشورى كالمرة السابقة لاستشارة أصحابه ، فتركوا له أمر التصرف في هذه الأموال . فأمر عبد الرحمن أعضاء الوفد البصري ، بإرجاع هذه الأموال إلى أصحابها ليستعينوا بها في جهادهم مع العباسيين ، فهم أولى من الرستميين بذلك ، بعد أن أثرت الدولة الرستمية ، وقويت دعاتها ، وعبثا

(١) نلس المرجم ص ١٣

حاول البصريون إقناع الإمام بوجوب قبوله لها ، ولكنه أصر على رأيه^(١) .
نجح عبد الرحمن بن رستم في أمد وجيز للغاية في أن يؤسس دولة قوية ،
هاجرا جيرانها ، واتصلوا به يطلبون صداقته ، ويسعون إلى خطب مودته وموادعته .
وهاجر إليها كثيرون من أهل المشرق والمغرب والأندلس ، ونزلوا بها ،
وقعدوها للتجار ، والكتاب ، والعلماء ، ورجال الصناعة والفن ، وأرباب
الحرف من سائر أنحاء العالم الاسلامي . وقد كان لذلك أكبر الأثر في
تطور عمرانها ، ونمو تجارتها ، واتساع مواردها الاقتصادية ، وشهد المغرب
الأوسط في عهد عبد الرحمن بن رستم سنينا من الهدوء والأمن لم يعرفها
من قبل ، بينما كان المغرب الأدنى يضطرم بنار الفتن والثورات .

ولما أحس عبد الرحمن بدنو أجله ، اقتدى بعمر بن الخطاب ، فاختار
سبعة من خيرة رجال الدولة الرستمية ، ممن كان يتوسم فيهم الصلاح والزهد
والعلم ، وهم : مسعود الأندلسي ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ،
وعمران بن مروان الأندلسي ، وأبو الموفق سعدوس بن عطية ، وشكر
ابن صالح الكتامي ، ومصعب بن سدمان ، ويزيد بن فندي وأوصاهم
بالاجتماع والتشاور فيما بينهم لاختيار إمام من بينهم . ثم توفي عبد الرحمن في
سنة ١٧١ هـ^(٢) ، وقيل سنة ١٦٨^(٣) ، وتاريخ سنة ١٧١ أولى بالثقة .

(١) الازهار الرياضية ، ص ٩٠ ، ٩١ - مختصر تاريخ الإباضية ص ٣٨

(٢) نفس المرجع ص ١٠١ - مختصر تاريخ الإباضية ص ٣٨

(٣) ابن عذاري ، ص ٢٧٧ - زامباور ، معجم الأنساب والاسرات الحاكمة في

التاريخ الاسلامي ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥١ ص ١٠٠

د - امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبداية ظهور الانقسامات
الذهب عند الإباضية :

بعد أن توفي عبد الرحمن بن رستم ،اجتمع المرشحون للإمامة ؛ و طال
اجتماعهم شهرا ؛ وانتهوا أخيرا إلى اختيار عبد الوهاب بن عبد الرحمن ،
وبويج له بالإمامة في جامع تاهرت . ولكن اختيار عبد الوهاب لم يتم باجماع
الآراء ؛ فقد كانت كفة مسعود الأندلسي أكثر رجوحا ؛ وكان القوم
يميلون إليه ؛ إذ كانوا لا يقبلون مبدأ الوراثة من أصله . وكادت الإمامة
تخرج عن عبد الوهاب ، لولا تأييد زناته له ؛ لأن أمه كانت يفرنية من زناته ،
ولولا تأييد الفرس له أيضا باعتباره من أصل فارسي (١) ، ولولا زهد مسعود
الأندلسي عن تولي الإمامة وعزوفه عن هذا المنصب الخطير . ويذكر
الشيخ سليمان الباروني النفوسي أن عامة الإباضية كانوا يميلون إلى اثنين من
من السبعة المرشحين للإمامة ، وهما عبد الوهاب ومسعود الأندلسي ، ثم
أجمعوا أخيرا على مسعود الأندلسي ، إما لأن مبدأ الإباضية كان يقضى
بالشورى دون الوراثة ، أو لأن مسعود كان أعلم من عبد الوهاب ، ولكن
مسعود الأندلسي كان ينفر من الرئاسة ويزهّد فيها ، فاشتر أن يتخلى عنها
لعبد الوهاب ، فلما تقرر عقد المجلس في دار الإمامة ، توارى عن الأنظار ،
فلما بحثوا عنه لم يجدوه ، فابتدروا عبد الوهاب لمبايعته ، وبينما كانوا يتأهبون
لذلك فوجئوا بوجود مسعود في مقدمة المبايعين (٢) :

(١) محمد بن تاويت ، دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية

في مدريد ، المجلد الخامس ١٩٥٧ ، ص ١١٣

(٢) الأزهار الرياضية ص ٩٩

وكان يزيد بن فندين يطمع في الإمامة لنفسه ، فلما وجد إجماع الناس على مبايعة عبد الوهاب حاول أن يفسد على عبد الوهاب مبايعة الناس له ، فأعلن في الجامع أنه مستعد لمبايعة عبد الوهاب على أن يجعل معه في الإمامة جماعة لا يقطع في أمر دون مشورتهم ^(١) . ولكن مسعود الاندلسي عارضه في ذلك بقولة « لا نعلم شرطا في الإمامة غير أن يحكم بيتنا بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام ، وآثار الصالحين قبله ^(٢) » ، وعلى أثر ذلك تمت مبايعة العلماء لعبد الوهاب ، وحمل إلى دار الإمامة في موكب غصت به طرق تاهرت ، وتمت له المبيعة العامة . ولكن ابن فندين لم يسكت على ذلك ، ففي أول ولاية عبد الوهاب قام يزيد بن فندين في تاهرت بإثارة الفتنة ، وطعن في إمامة عبد الوهاب ، وذلك لأنه كان يطمع في الظفر بأحد المناصب الخطيرة في الدولة ، فلما لم يظفر بشيء منها نقم على عبد الوهاب ، ولم يجد ما يحاربه به في أول الأمر غير إثارة الفتنة والتلبيس على من اتبعه ، فطالبه بإقامة هيئة استشارية لا يصدر الإمام في أمر من الأمور إلا عن رأيها ، ثم تدرج إلى إنكار إمامة عبد الوهاب من أصلها بدعوى أن في المسامين من هو أعلم منه ^(٣) ، وأدى ذلك إلى حدوث انقسام مذهبي عند الإباضية إلى نكارية ووهابية ، وكان الوهابية هم جمهور الإباضية ، كذلك أدى إلى استفتاء الفريقين لعلماء الإباضية وفقهائهم في المشرق . وفي هذه الاثناء دبر ابن فندين مؤامرة لقتل عبد الوهاب في غرفة نومه ، ولكن المؤامرة فشلت من أساسها

(١) المرجع السابق ص ١٠٠ - دبور ، ج ٣ ، ص ٤٥٦

٢ نفس المرجع ، ص ١٠٠ - دبور ، ص ٤٥٧

(٣) مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٩

فزادت نقمة المتآمرين من النكارية على عبد الوهاب ، وقامت المعارك في المدينة ، وانتهت بانهزام فرقة النكارية، هزيمة شنعاء، وقتل منهم نحو ١٢ ألفا ، كان من بينهم ابن فندين صاحب الحركة نفسه (١) . وأعقب هزيمة ابن فندين وأتباعه ، وصول رسل الإباضية من المشرق بصحبة ولاية الإمام عبد الوهاب، فغضب النكارية أصحاب ابن فندين لذلك ، وعبروا عن غضبهم وسخطهم بقتل ميمون بن عبد الوهاب، والتمثيل بجثته (٢) . وقد تمكن أحد أبناء ميمون من التعرف على قتلة أبيه ، وقتلهم هو وجده الإمام عبد الوهاب في الجبال، وقتل منهم عددا كبيرا .

ولم تنته حركة النكارية عند هذا الحد ، إذ انضم إليهم الواصلية المعتزلة ومظلمهم من زناتة ، وخرجوا على عبد الوهاب لعدة أسباب منها : أنه قتل ابن فندين ، ولأن إدريس بن عبد الله بن الحسن كان قد غزا محمد بن خزر الزناتى أمير تلمسان سنة ١٧٣ هـ ، فانضموا إلى ابن خزر تحت لواء الأُدَارة ، وأقره إدريس على تلمسان ، ولكى يوسع محمد بن خزر نفوذه أخذ يحرض قومه الزناتيين في شمال تاهرت على الثورة والانفصال عن الرستميين ، وكان معظمهم من الواصلية ، ولأن اسحاق بن محمد الأوزبى كان زعيما للواصلية في ويلي ، وهو الذى ناصر الأُدَارة وأسس دولتهم، وكان يطمع فى مد نفوذهم على كل بلاد المغرب ، فعمد إلى إثارة الواصلية فى تاهرت على الإمام، وحرضهم على الانفصال عن الدولة الرستمية .

وكان الواصلية يؤلفون حزبا قويا فى شمال تاهرت ، فقد ذكر ياقوت

(١) الأزهار الرياضية ، ص ١٦١ - مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٩

(٢) نفس المرجع ص ١١٢ .

أن مجملهم كان قريبا من تاهرت، وكان عددهم يبلغ نحو ثلاثين ألفا، وكانوا يعيشون في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها^(١)، وكانوا ينتشرون في شمال تاهرت من مستغانم إلى وهران، وفي جنوبها في تيلغمت وفي الصحراء، وفي وادي ميزاب، كما انتشر مذهبهم في شمال غربي المغرب الأقصى في ويلي ونواحيها^(٢). وكان هؤلاء الواصليّة يدعون إلى الإمامة الإسلاميّة باللسان، ولذلك لم يختلفوا مع الإباضية في الدولة الرستمية، بل التقوا معهم في الاتجاه المذهبي العام، وعاشوا في كنف الرستميين، إلى أن واثتهم الفرصة للانفصال عن الإمامة الرستمية، فاضطر الإمام عبد الوهاب إلى محاربتهم بالسيف، وقضى على تمردهم^(٣).

وفي إمامة عبد الوهاب حاوات قبيلة هواة الخروج على طاعة الإمام، وشرعت أولا في مخالفة قبيلة لوانة عن طريق المضايرة، ولكن عبد الوهاب تنبه إلى ذلك، فحارب قيام هذا الحلف بنفس الوسيلة، وأصهر من شيخ لوانة، وتزوج ابنته التي كان قد خطبها أمير هواة. وبذلك انحازت إليه قبيلة لوانة^(٤).

وساد الهدوء بلاد الرستميين بعد ذلك، واستقر الأمر لعبد الوهاب، وازدهرت تاهرت في ظل هذه الحياة الآمنة المهادنة، فعزم عبد الوهاب على أن ينحتم حياته بالحج إلى مكة برا حتى يمر بقبيلة نفوسة، فاستخلف ابنه

(١) ياقوت، معجم البلدان ج ٢ ص ٨

(٢) الأزهار الرياضية ص ١١٦ وما يليها - دبور، ج ٣ ص ٤٨١

(٣) نفس المرجع ص ١٨٨ - دبور ص ٤٨٣

(٤) نفس المرجع ص ١٢٥ - محمد بن تاويت، دولة الرستميين، ص ١١٤

أفلح على القيروان وامتطى صهوة جواده ، ومضى شرقا وفي صحبته زوجته وجمع كبير من رجاله ، وسلك عبد الوهاب الطريق الصحراوية المارة بقسطلية وجبل دمر الواقع إلى الجنوب من قابس ، وإلى الشمال الغربي من جبل نفوسة ، وكان جبل دمر تسكنه قبائل من دمر الزناتية ، ومع أنهم كانوا إباضية إلا أن استقرارهم قريبا من إفريقية جعلهم يؤثرون الاستقلال عن الدولة الرستمية حتى لا يتعرضوا لضربات العباسيين . وعلم أهل دمر بقدوم الإمام ، فاحتفلوا باستقباله ، ودعاهم الإمام للانضمام إلى إخوانهم بالدولة الرستمية ، فبايعوه ، وانضموا إلى دولته ، فولى عليهم شيخا صالحا يقوم بشؤونهم اسمه مدرار (١) . ومضى بعد ذلك إلى جبل نفوسة ، فزل في مدينة شروس عاصمة هذا الجبل ، وأقبل إليه أهلها وأهل الجبل ، ومنعوه من متابعة السير إلى مكة إشفافا عليه من الوقوع في أيدي العباسيين فيقتلوه (٢) .

وأقام الإمام في جبل نفوسة سبع سنين تولى فيها شؤون القوم ، وانتقل إلى مدينة جادو مقر ولاية الرستميين في هذا الجبل ، وأقام في قرية منها تعرف باسم ميري ، وبنى فيها مسجدا ، وكان يتولى في خلال هذه السنين التي قضها في نفوسة ، التدريس في مسجدها (٣) . ويبدو أن إقامة عبد الوهاب بن رستم في جبل نفوسة شجعت قبائل هواره الخاضعة لأمر إفريقية على إعلان ثورتها على العباسيين بطرابلس ، وأعلنت استقلالها في سنة ١٩٦ هـ ، فاستنجد عاملها بإبراهيم بن الأغلب ، فسير ابنه أبا العباس عبد الله على رأس

(١) المرجع السابق ص ١٣٧ - دبور ص ٥٠٢

(٢) الازهار الرباضية ص ١٣٨

(٣) نفس المرجع ص ١٤٢ - دبور ، ص ٣٠٧

جيش عدته ١٣ ألف فارس ، فانهزم البربر ، وتمكن ابن الاغلب من دخول طرابلس ، وبنى سورها (١) . فاستغاثت هواره بالامام عبد الوهاب ، فلم يتردد في نجدها ، وزحف إلى طرابلس بجيش ضخم ، فتحصن عبد الله الاغلبى داخل أسوار طرابلس وعندئذ حاصره الرستميون محاصرة محكمة وكان عبد الله بن ابراهيم قد أغلق أبواب المدينة ، ولم يترك منها مفتوحا إلا باب هواره ، وذلك لكي يخرج منه لقتال الرستميين (٢) . وواصل عبد الوهاب ابن عبد الرحمن حصاره حول طرابلس إلى أن حدث ما لم يكن في الحسبان ، فقد علم عبد الله بوفاة أبيه ابراهيم بن الاغلب في ٢٠ شوال سنة ١٩٦ هـ ، فعزم على العودة إلى القيروان للظفر بالإمارة الاغلبية قبل أن يفتصبها منه أحد من إخوته ، فاصطلى مع عبد الوهاب على أن تكون أعمال طرابلس كلها للدولة الرستمية بينما يحتفظ الاغلبة بمدينة طرابلس والساحل (٣) . وعلى هذا الاساس رفع عبد الوهاب الحصار عن طرابلس ، وعاد إلى نفوسة بعد أن امتد سلطانه على صحراء طرابلس الواسعة . ثم عزم عبد الوهاب على العودة إلى تاهرت ، فأقام السمع بن أبي الخطاب عبد الاغلبى ، أعز اصدقائه وقربهم إليه ، عاملا من قبله على جبل نفوسة وما يليه إلى ضواحي طرابلس وقابس ، ثم مضى عبد الوهاب بعد ذلك إلى تاهرت .

ولما توفى السمع بن أبي الخطاب أسرع كثير من العامة إلى مبايعة ابنه

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٥٦

(٢) نفس المرجع ص ١٥٧ — الازهار الرياضية ص ١٤٤ — دبور ، ص ١٢٥

(٣) نفس المرجع — ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢١ — الازهار الرياضية ص ١٤٥ — ١٤٦

ابن تاووت ، ١١٦

خلف بولاية الجبل ، وتابعهم في ذلك بعض أعيان الجبل ، ممن رأوا الاستقلال عن الدولة الرستمية . ولكن الإمام عبد الوهاب لم يرض عن ذلك ، فصمم على عزل خلف وتولية غيره من أهل الفضل ، فولى أيوبا بن العباس على الجبل (١) . فلما توفي أيوب ولى أبا عبيدة بن عبد الحميد ، وقد قامت بين خلف الثائر وأتباعه الذين عرفوا بالخلفية منذ أن بايعوا خلفا بالإمامة ، وبين هذين العاملين معارك طويلة ، انتهت بهزيمة خلف في موقعة حدثت في سنة ٢٢١ هـ في عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب ، على يد أبي عبيدة عبد الحميد . ولم يتم القضاء نهائيا على خلف إلا على يد العباس الذي أسند إليه أفلح ولاية الجبل فتعقب خلفا ، وشتت شمل من بقى من أصحابه ، إلى أن توفي خلف ، وفر ابنه إلى جزيرة جربة (٢) .

وتوفي الإمام عبد الوهاب في سنة ٢١١ (٣) . وقيل سنة ٢٠٨ (٤) ، بعد أن وصلت الدولة الرستمية في عهده إلى درجة كبيرة من الانساع .

(١) الأزهار الرياضية ص ١٥٢ — مختصر تاريخ الاباضية ص ٤٠

(٢) مختصر تاريخ الاباضية ص ٤٠

(٣) دبور ، ج ٣ ص ٦٢٤ ، وذكر الباروني أنه توفي في سنة ١٠٩ ، وفي ذلك خطأ كبير لأن عبد الوهاب كان ما يزال حيا عندما حاصر قسوات ابن الاغلب في سنة ١٩٦ ، كما كان حيا عندما قام خلف بن السمح بالثورة عليه

(٤) انظر الانساب لزمامباور ، ودائرة المعارف الاسلامية ، مادة تاهرت لجورج

مارسيه — ومحمد بن تاويت ، دولة الرستميين ص ١١٨

(٢)

خلفاء عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم

١ - خلافة الامام افلح :

كان أفلح قد مارس الحكم أثناء غياب أبيه في جبل نفوسة ، فلما توفي أبوه عبد الوهاب ، اجتمع أهل الشورى من علماء الدولة ، وأجمعوا على مبايعة أفلح بالإمامة ، إذ كان قد أظهر أثناء حياة أبيه من الورع والتقوى وحسن السيرة والعلم ما جعل الناس يتمسكون به إماما . فسار في العدل والإحسان سيرة أبيه ، وعنى بنشر الأمن في ربوع البلاد ، فتقدمت الحضارة الرستمية ، ووصلت الدولة في عهده إلى ذروة عظمتها ، ومنتهى ازدهارها .

ولم يقطع الهدوء الذي ساد بلاد الرستميين إلا استمرار خلف بن أسمع بالثورة على الإمام ، وخروج فرج النفوسى المعروف بنفات بن نصر عليه . أما ثورة خلف فقد رأينا كيف قضى عليها في عهد أفلح ، وأما فرج النفوسى ، فقد شق عصا الطاعة على الإمام عندما عين أفلح سعداً بن أبى يونس عاملاً على قنطرة ، وكان سعد يطمع في أحد المناصب ، فأخذ يشير ببعض المشاكل المذهبية ، منها إنكاره الخطبة في يوم الجمعة ، مدعياً أنها بدعة ، ومنها إنكاره استعمال الإمام العمال والسعاة لجباية الحقوق الشرعية : (١) وقد تولى أفلح نصحه في عدة رسائل ، حذره فيها من سوء العاقبة ، وأنذره أخيراً بمعاقبته إن لم يرتدع . فخاف نفات على نفسه ، وتوجه إلى بغداد . وقد كان لنفات بعض التابعين الذين عرفوا باسم النفاثية .

(١) مختصر تاريخ الإباضية ص ٤٢

ونجح أفلح في كسب الواصلية إلى جانبه ، فاتخذوه إماما لهم ، وكان أتباعه من الواصلية ، ووجدتهم ثلاثين ألفا ظواعن يسكنون الخيام^(١) . وتوفي أبو سعيد ميمون الأفلح سنة ٢٤٠ هـ (٢) .

ب - خلافة الامام أبي بكر نوافل

كان أبو اليقظان بن أفلح وقت وفاة أبيه أسيرا عند بني العباس ، فقد قبض عليه عامل الحجاز وهو متوجه للنج ، فأودع السجن ببغداد^(٣) . واتفق الخليفة الواصل كان غاضبا على أخيه المتوكل فسجنه كذلك ، فتصادق أبو اليقظان مع المتوكل أثناء مقامها بالسجن ، فلما ارتقى المتوكل إلى دست الخلافة ، أذن لأبي اليقظان بالعودة إلى بلاده ، فقدم إلى تاهرت في إمامة أخيه أبي بكر .

فلما توفي أفلح ، تولى ابنه أبو بكر الإمامة مع قلة كفايته ، إذ كان أخوه اليقظان أقدر منه على إدارة شؤون الدولة ، ولكنه كان ما يزال عند مسجوننا ببغداد ، وكان أخوه الثالث يعقوب حدثا صغير السن ، ولذلك بويج أبو بكر بالإمامة . وكان أبو بكر شابا أرعنا لم يحسن الإدارة ، كما أنه لم يكن دينيا عادلا يقظا كآبائه ، وإنما كان يميل إلى الراحة وحياة الخمول ، فانغمس في الترف وأسرف في اللهو ، فلما عاد أخوه أبو اليقظان من بغداد بعد أشهر من إمامة أخيه ، أسلم إليه أبو بكر مقاليد الإمامة ،

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٨

(٢) الأزهار الرياضية ، ص ٢٢١ — مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٢٤٠ . ويحمل زامبار

تاريخ وفاته سنة ٢٥٨

(٣) ابن الصغير المالكي ، سيرة الأئمة الرسميين ، ص ٢٧ — مختصر تاريخ الإباضية

وترك له مهمة القيام بشؤون الدولة وحل مشكلاتها ، واستغرق هو في حياة اللذات والشهوات ، واحتجب عن العامة ، ثم إن أبا بكر وكل إلى ضميره محمد بن عرفة ، وكان من أعيان تاهرت ، مهمة الاتصال بالرعية ، والنظر في قضاياهم ، وكان ابن عرفة شخصية لطيفة ، وكان يحسن إلى الناس ، ويسعى إلى حل مشاكلهم ، فافتتنوا به ، وأحبوه ، وأصبح مقصدهم في العاصمة ، وأصبح له أشياع وأنصار يمجّدونه ، فأصبحت الإمامة الفعلية لمحمد بن عرفة ، والاسمية لأبي بكر (١) .

وكان قد وفد إلى تاهرت عدد كبير من جند القيروان الذين أعلنوا في مناسبات كثيرة تمردهم على بني الأغلب ، واستقروا بها ، وأسسوا لهمربضا كبيرا في تاهرت ، سوروه حتى أصبح يبدو وكأنه مدينة عاصرة ، وكان من الطبيعي أن يؤيده هؤلاء الجند الوافدين محمد بن عرفة ، ويناصروه ، لأنه عربي وقروي مثلهم وافد من القيروان (٢) . فلما أحس محمد بن عرفة بعلو مكانته ، وضخامة شأنه ، ومشايعة جمهور تاهرت له ، غلبه الغرور وملك نفسه ، فاستبد بالامر استبداداً كاملاً ، وأصبح لا يكثر لأبي بكر ، ولا يهتم بشأنه . وكان أهل الشورى من علماء تاهرت وآل بني رستم يشاهدون ما يجري في الدولة وهم ساكتون ، فلما أسرف ابن عرفة في استبداده ، خافوا على إمامتهم من غروره واستبداده ، فشيخصوا إلى أبي بكر بدار الإمامة ، وأطاعوه على افتتان الناس بابن عرفة ، وبينوا له سوء العاقبة إذا لم يتصرف تصرفاً سريعاً ، وحثوه على الخروج من قممه وعزله ، ومباشرة الامر بنفسه . ولكن أبا بكر كان

(١) ابن الصغير ، ص ٣١

(٢) د. بوز ، ج ٢ ص ٥٧١

بغلي غضبا من ابن عرفة الذي استغل ثقته به، فعهد أبو بكر إلى أحد غلمانه بقتل ابن عرفة، فاغتاله الغلام، وأخفى جثته. وعندئذ اشتعلت نار الفتنة في تاهرت، وثار أنصار محمد بن عرفة، ومشايعوه على أبي بكر، وانقسم أهل تاهرت إلى فريقين: فريق يشايح الإمام ويتألف من نفوسة والعجم، والفريق الآخر من أنصار ابن عرفة، ويتألف من جند العباسيين وصنائعهم في تاهرت، وعلى رأسهم محمود بن الوليلي، وخلف الخادم مولي الأغلب ابن سالم وغيرهم، وقد قام هذا الفريق بمهاجمة درب النفوسيين بتاهرت وإحراقه، واحتدمت نار الفتنة في المدينة، فاضطر أبو اليقظان إلى الخروج من تاهرت هو وخاصته، وبايعوه بالإمامة، واستغل محمد ابن مسالة الهواري الإباضي فرصة قيام الفتنة وخروج أبي اليقظان وخاصته من تاهرت، واستولى عليها (١)،

ج - امامة أبي اليقظان محمد :

بويج بالإمامة بعد قيام الفتنة، وقيل بعد موت أخيه أو بتسليم منه إليه (٢) سنة ٢٤١ هـ.، وتمت بيعته وأحوال البلاد في غاية السوء من الاضطراب والفتنة، ولكنه تمكن بفضل عزمته وشجاعته من استئصال الثوار، فجيش الجيوش، واستنجد بسكان جبل نفوسة، فأمدوه بجيش كثيف تمكن بفضلهم من إخماد نيران فتنة أتباع ابن عرفة، ثم وجّهه أبو اليقظان همه إلى استرجاع تاهرت بعد قتال عنيف، وحصار دام نحو سبع سنوات (٣).

(١) ابن الصغير ص ٣٧ — الأزهار ص ٢٣٢، مختصر تاريخ الإباضية ص ٤٥

(٢) مختصر تاريخ الإباضية، ص ٤٥

(٣) المختصر ص ٤٥. ويذكر الأستاذ ديوز أن محمد بن مسالة مال إلى السلم بعد أن

نصحه النفوسيون بالتمسك الهدوء (ديوز، ج ٣، ص ٥٨٥)

عكف أبو اليقظان بعد ذلك على إصلاح ما أفسدته الفتنة ، فبسط الأمن والعدل في البلاد ، فسادها الهدوء ، واطمأن الناس في حياتهم ومعاشهم ، وأحبه أهل جبل نفوسة إلى درجة الافتتان (١). ومن الأحداث المشهورة في عهده ، قيام قائده أبي منصور إلياس النفوسي بهزيمة جيش العباس بن أحمد بن طولون في سنة ٢٦٧ هـ ، وتفصيل ذلك أن العباس انتهز فرصة غياب أبيه في بلاد الشام ، وخرج في عسكر كثيف قاصدا بلاد إفريقية للتغلب عليها ، فلما علم إبراهيم بن أحمد بن الأغلّب بذلك سير إليه قائده أحمد ابن قهرّب إلى طرابلس ، وهناك حشد ابن قهرّب من أمكنه من جند طرابلس وبربرها ، ثم خرج إلى لبدة فدخلها قبل وصول العباس ، ثم قدم العباس من برقة والنقى جيشه مع جيش ابن قهرّب على بعد خمسة عشر ميلا من لبدة ، فانهزم ابن قهرّب وانسحب بفلوله إلى طرابلس ، فركب العباس في أثره حتى نزل طرابلس ، ونصب عليها المجانيق ، وظل يحاصرها ٣٤ يوما . ولكن بعض جنوده اعتدوا على حرم البوادي ، أتباع الدولة الرستمية ، فاستغاثوا بأبي منصور قائد أبي اليقظان ، وكان مقبلا بجبل نفوسة ، وشاركهم في الاستغاثة أهل طرابلس ، فأغارهم بجيش هائل يتألف من ١٢ ألف مقاتل من رجال نفوسة ، واشتبك مع العباس بن أحمد بن طولون ، فدارت الدائرة على جيش العباس ، فانهزم ومضى منسحبا إلى برقة ، وترك النفوسيون ما خلفه الطولونيون وراءهم من معدات وأموال وأسلحة ، زاهدين فيها ، متورعين عنها ، فانتهبها أهل طرابلس (٢). وعاش أبو اليقظان نحو من مائة سنة ، قضى منها في الإمامة أربعين عاما ، ثم توفي سنة ٢٨١ هـ .

(١) ابن الصغير ، ص ٤٦

(٢) ابن عذاري ص ١٥٨ - الباروني ، مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٤٦

د - امامة أبي حاتم يوسف بن محمد :

بايعه مجلس الشورى بالإجماع ، استجابة لرغبة الجمهور الأعظم من أهل تاهرت. وكان أبو حاتم حسن السيرة ، مصلحا ، محبا للعدل ، ورث عن أبيه ذكاه وشجاعته وعلمه ، وفي أول إمامته خرج عليه عمه يعقوب بن أفلح ، بتحريض من بعض سكان تاهرت ممن لم يرضهم الإمام ببعض المناصب ، فأعلنوا الثورة عليه ، واستقدموا يعقوب من زواغة ، وبايعوه بالإمامة (١). فقامت الحرب الأهلية في تاهرت ، واحتدم القتال بين أنصار أبي حاتم وأنصار يعقوب ، ودامت الحروب بينهم أربع سنوات ، وانتهت بانتصار أبي حاتم وإعادته إلى الإمامة ، وعودة عمه يعقوب إلى زواغة (٢).

وفي عهد الإمام أبي حاتم ، شق الطيب بن خلف عصا الطاعة عليه في حيز طرابلس وجبل نفوسة ، فعهد الإمام بتأديبه إلى أبي منصور إلياس ، واليه على الجبل ، فوجهه إلى الطيب جيشا لمحاربتيه ، فالتجأ الطيب إلى زواغة معقل أنصار أبيه ، فتتبعه أبو منصور إلياس ، وطالب زواغة بتسليمه إليه ، ولكنهم أبوا ذلك ، فحاربهم أبو منصور وهزمهم ، ففر الطيب مع فريق ممن لم يقبل الدخول في طاعة الإمام إلى جزيرة جربة ، فطاردهم أبو منصور ، وحاصر جربة ، ثم دخلها وقبض على الطيب ، وسمله مقيدا إلى جبل نفوسة ، وحبسه فترة ، ثم أخرجه بعد أن أعلن توبته ، وعاد إلى الولاء للإمام (٣). ولما توفي أبو منصور إلياس ، أسند الإمام ولاية نفوسة إلى أفلح بن

(١) الباروني ، مختصر تاريخ الباضية ص ٤٧

(٢) الازهار ، ص ٢٧١ - المختصر ، ص ٤٧

(٣) الازهار ، ص ٢٧٧ - المختصر ، ص ٤٨

العباس ، ولم يكن لأفلح مهارة أبي منصور في قيادة الحروب ، فقد انهزم على أيدي الأغالبة في سنة ٢٨٤ هـ ، وذلك أن ابراهيم بن أحمد الأغلبى عزم على أن يغزو الطولونيين بمصر ، ففي سنة ٢٨٣ هـ ، زحف ابن الأغلب في جيش كثيف بقيادة أبي بحر بن آدم (١) متجها إلى مصر لمحاربة أحمد بن طولون ، فاعترضته نفوسة بين قابس وطرابلس ، ومنعته من المرور ، فناصرهم الحرب قريبا من قصر مانو ، وكانت عدة النفوسيين ٢٠ ألف مقاتل يقودهم أفلح ابن العباس ، واشتد القتال بين الأغالبة والنفوسيين ، وانتهى بهزيمة أهل جبل نفوسة هزيمة شنعاء ، وقتل من عامة نفوسة في هذه الواقعة نحو ١٢ ألفا ، ومن علمائهم ٤٠٠ رجل . ومنذ ذلك العهد لم تعد نفوسة توافي الرستميين بالإمدادات ، وكان لذلك أعمق الأثر في اضمحلال دولة الرستميين (٢) .

ولم يكتف ابراهيم بن أحمد بذلك ، بل سير ابنه أبا العباس في العام التالي إلى نفوسة ، فقتل منهم عددا كبيرا ، وأسر نحو ثلاثمائة ، أخذهم معه إلى القيروان حيث أمر ابراهيم بن أحمد بندهم ، واستخلص قلوبهم ونظمها في حبال نصبت على باب تونس (٣) .

وكانت هذه الهزائم كفيلة بسقوط هيبة الإمام ، وطمع بعض أقاربه في الإمامة ، فتآمر عليه أبناء اليقظان ، وكان أخاه من أبيه ، فقتلوه في سنة ٢٩٤ هـ .

(١) ابن عذارى ، ص ١٧٣

(٢) الازهار ، ص ٢٨٠ - المختصر ، ص ٤٩

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٤

٥ - امامة اليقظان بن ابي اليقظان ونهاية دولة الرستميين :

بويج اليقظان بعد مصرع أخيه ، وقامت إمامته بين عوامل الانقسام والاضطراب . أما الانقسام فلأن شيوخ الدولة كانوا ساخطين عليه لانتقامه بقتل أخيه ، وأما الاضطراب فلأن خطر الاسماعيلية قد اقترب من دولتهم ، وأصبح يهددها بالسقوط ، فقد تمكن أبو عبد الله الشيعي من احتلال الزاب ، والتغلب على دولة الأغالبة ، ودخل رقادة سنة ٢٩٦ هـ . وأحس اليقظان بهجزه عن مواجهة الشيعة ، وأدرك قرب نهايته ونهاية دولته . وفي ١٥ رمضان خرج أبو عبد الله الشيعي من رقادة متجها إلى تاهرت ، فدخلها بالأمان ، ولكنه قتل يقظان ومن ظفر به من بني رستم ، وأرسل رؤوسهم إلى أخيه أبي العباس وإلى أبي زاكي خليفته برقادة ، فطوفت بالقيروان ثم نصبت على باب رقادة (١) . ولم يكتف الشيعي بذلك بل استباح أموال الرستميين ، وتوجه إلى المكتبة الكبرى المعصومة ، وأخذ ما فيها من الكتب الخاصة بالرياضيات ، والصنائع ، والفنون ، وأحرق ما عدا ذلك (٢) . إذ أن معظم كتبها خاص بالشريعة الإسلامية وبمذهب الإباضية وبتاريخ الرستمية . وقضى الاسماعيلية بذلك على الدولة الرستمية ، ففر كثير من سكانها إلى جبل أوراس ، وجبال بني راشد ، وإلى واحة ورجلان في الصحراء ، وإلى جبل نفوسة ، وإلى جزيرة جربة .

ولقد حاول أحد الإباضية النكارية وهو أبو اليزيد الملقب بصاحب

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٠٨

(٢) مختصر تاريخ الإباضية ص ٤٩

الحمار (١) أن يعيد إنشاء الدولة الإباضية على مذهب النكارية ، فخرج على الفاطميين في عهد المهدي بجبل أوراس سنة ٣١٦ هـ ، وكثر اتباعه في أيام القائم بالله أبي القاسم محمد بن المهدي ، ودعا للخليفة عبد الرحمن الناصر بالأندلس ، وأخذ يستولى على مدن المغرب مثل تبسة ومجانة والأربس وسببة وباجة ، ودخل رقادة ، وأخذ يناوئ نفوذ الفاطميين في المغرب ، ولكن الخليفة المنصور ، تمكن من القبض عليه بقلعة كتامة بعد أن سقط أبو اليزيد جريحا في رمضان سنة ٣٣٥ هـ ، فلما توفي أبو اليزيد في محرم سنة ٣٣٦ هـ أمر الخليفة الفاطمي بسلخ جلده وحشوه تبنا ، وقيل قطنا ، واتخذ له قفصا ، فأدخل فيه مع قردين يلاعبانه (٢) .

أما جبل نفوسة ، فقد استقل بعد انقراض الدولة الرستمية . وتولى إمارته أحفاد من بنى أبي المنصور إلياس (٣) ، كما فر عدد كبير من الإباضية الرستميين إلى واحة ورجلان ، وأقاموا فيها حتى قدمت جيوش المرابطين ، فهاجروا إلى مزاب ، وحولوا الأقاليم الصحراوية هناك إلى واحات خضراء سميت فيما بعد باسم سبع مدن (٤) ، وما زال سكان إقليم مزاب إباضية حتى اليوم .

(١) سمي كذلك لأنه كان يركب حمارا أشهب اللون (ابن خلدون ج ٤ ص ٨٥)

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٣١٣ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٩٤

(٣) مختصر تاريخ الإباضية ص ٥٠

(٤) محمد بن تاويت ، ص ١٢٧

(٣)

علاقة الدولة الرستمية بجيرانها

١ - علاقة الدولة الرستمية بولاية إفريقية :

رأينا من قبل كيف فشل ابن الأشعث في استئصال عبد الرحمن بن رستم بجبل سوفجيج سنة ١٤٤ هـ ، وكيف اضطر إلى العودة إلى القيروان بعد أن طال حصاره لابن رستم ، وتفشى المرض في صفوف رجاله . فلما أسس عبد الرحمن مدينة تاهرت ، واتخذها حاضرة له ، واستقرت دعائم دولته لم يحاول ولاية إفريقية بعد ابن الأشعث مهاجمة هذه الدولة الناشئة ، وعلى الرغم من تمكن عمر بن حفص من إنزال الهزيمة بجيش ابن رستم بالقرب من تهوذه سنة ١٥١ هـ ^(١) ، فإنه لم يفكر بعد في مهاجمة تاهرت ، فعاد إلى القيروان حيث قتل في إحدى معاركه مع قوات أبي حاتم يعقوب بن حبيب الإباضي ^(٢) . وبمرور الزمن استطاع ابن رستم أن يسير بدولته في طريق القوة والمنعة ، فها به روح بن حاتم ، ورغب في مواعدة عبد الرحمن بن رستم ، فوادعه وهادنه سنة ١٧١ هـ ^(٣) ، كما وادع ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن من بعده ^(٤) .

ولما قامت دولة بني الأغلب بدأ أمراؤها ينازعون الرستميين في

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٩

(٢) نفس المرجع ص ٩٠

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٨

(٤) نفس المرجع ج ٤ ص ٤١٥

أملاكهم بنفوسة ، فلما استغاثت قبيلة هواره بالإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن سنة ١٩٦ هـ ضد أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب رحف عبد الوهاب بحشود هائلة من بربر نفوسة ، وضرب الحصار على طرابلس ، فاضطر ابن الأغلب إلى مهادنته على أن يحتفظ الأغلبة بمدينة طرابلس والساحل بينما يضيع الرستميون أيديهم على ضواحي طرابلس والصحراء (١) .

وظلت العلاقات متوترة بين الرستميين والأغلبة ، وكانت تاهرت قد ازدهرت ازدهارا كبيرا في عهد أفلح بن عبد الوهاب ، وأصبحت بحق حاضرة المغرب كله ، إذ اجتذبت إليها الخارجين على دولة الأغلبة من الجند وأهالي القيروان ، وتضخم ملك الرستميين تضخما كبيرا ، وتآلق نجمهم في سماء المغرب ، وعندئذ عمد أبو العباس محمد بن الأغلب إلى محاربة الرستميين وذلك بإنشاء مدينة تجاوز تاهرت ، كان الغرض من إنشائها أن تحتل المكانة التي تشغلها تاهرت . ففي سنة ٢٢٧ هـ أسس مدينة بالقرب من تاهرت سماها العباسية ، فسكت عليه الإمام أفلح ، ولم يحاول أن يثنيه عن إقامتها وتخطيطها ، فلما تم بناؤها ، ونظمت أسواقها ، وثب عليها بجيوشه ، وأجلاسكانها عنها ، ثم أحرقها (٢) . ومع ذلك فقد لزم أبو العباس محمد الصمت ، ولم يعمل على محاربة الرستميين ، إذ لم يكن له طاقة بحربهم . وأخيرا تمكن إبراهيم بن أحمد من هزيمة جيش الرستميين بقيادة أفلح بن

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٥٧ - ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢١ ، ج ٦ ص ٢٤٨ -

الباروني ، الأزمهر ص ١٤٥

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٩

العباس في واقعة قصر مانو سنة ٢٨٣ هـ ، وفي هذه المعركة ، استنفذ الطرفان قواهما ، وكان ذلك مقدمة لسقوط كل من دولتي الأغالبة والرستميين على أيدي الشيعة العبيديين .

ب - علاقة الرستميين بالأمويين في الأندلس:

كان من الطبيعي أن يلتقي أمراء بني أمية في قرطبة بأئمة الرستميين في تاهرت ، وتقوم بينهم علاقات من الصداقة والمودة ، فإن العباسيين الذين كانوا يحاربون بني أمية في الأندلس ، كانوا أيضا أعداء للاباضية في تاهرت (١) ، فقامت بين الأندلس وتاهرت علاقات تجارية ، وكانت السفن تتردد بين وهران والمرية حاملة المتاجر والعلماء والمسافرين إلى كل من الثغرين . ويذكر الأستاذ دبوز أن قيام دولة الرستميين هو الذي مكن

(١) ذكر الأستاذ الدكتور محمود علي مكي أن الإمارة الأموية في الأندلس كانت تعمل منذ عهد بعيد على محاربة أي دعوة غيبية في شمال إفريقيا ، فمنذ تكونت دولة الأدارسة الشيعية في المغرب الأقصى ، « عمل أمراء بني أمية في الأندلس على توطيد صلاتهم ببعض الدولات المغربية حتى ما كان يخالفها في الناحية المذهبية كدولة بني رستم الخارجية في تاهرت ، وذلك حرصا على إضعاف جيرانهم الأدارسة العلويين » (التشيم في الأندلس ، صحيفة المهد المصري بمديره ، ١٩٥٤ ص ١٢١) ومعنى هذا أنه لم يعد أمام الأمويين في الأندلس من منافذ في المغرب سوى المغرب الأوسط ، لأن المغرب الأدنى كانت تقوم فيه دولة الأغالبة المواليين للعباسيين ، والمغرب الأقصى كانت تقوم فيه دولة الأدارسة الشيعية . كذلك كان من الطبيعي أن يتحالف عمر بن حفصون في الأندلس بعد خروجه على السلطة المركزية بقرطبة مع بني الأغلب ، فابن حيان يذكر أنه كاتب ابن الأغلب أمير إفريقية وأخبره بأنه يصل لبني العباس ، ولاطفه بالهدايا ، فأجابه ابن الأغلب ، ورد على هديته بهدية (ابن حيان ، كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، ج ٣ ، نعره الأثب المنشور ، باريس ١٩٤٧ ، ص ٩٢)

دولة عبد الرحمن الداخل من الرسوخ ، وأتاح لها السبيل إلى الازدهار ، كما أن الدولة الرستمية كانت الجسر الذي يصل دولة بني أمية في الأندلس بالشرق الاسلامي ، لذلك كان أمراء بني أمية يهادون أئمة الرستميين تودداً لهم واكتساباً لصداقتهم (١) . وقد كثرت وفود أهل الأندلس إلى تاهرت ، فكان منهم عمران بن مروان الأندلسي ومسعود الأندلسي اللذان رشحهما عبد الرحمن بن رستم في جملة من اختارهم للإمامة من بعده . ويذكر ابن القوطية أن عمر بن حفصون فر إلى مدينة تاهرت ، فاشتغل مساعداً لخياط أصله من ربة ، وبينما هو « جالس في حانوته إذ أتاه شيخ معه ثوب يقطعه ، فقام إليه الخياط ، ووضع له كرسيًا يقعد عليه ، فسمع الشيخ كلام ابن حفصون ، فأنكره عند الخياط ، فقال له : من هذا . فقال : غلام من جيرانى برية أتى ليخيط عندي ، فالتفت الشيخ إليه ، فقال له : متى عهدك برية ؟ قال : منذ أربعين يوماً . قال تعرف جبل ببشتر ؟ فقال له : أنا ساكن عند أصله . قال له الشيخ : فيه حركة ؟ قال : لا . قال : قد آن له ذلك . ثم قال له : هل تعرف فيما يجاوره رجلاً يقال له عمر بن حفصون ، فذكر من قوله ، وأحد الشيخ النظر إليه ، وكان ابن حفصون أفضم الثنية ، فقال له : يا منجوس ، تحارب الفقر بالابرة . ارجع إلى بلدك ، فأنت صاحب بني أمية ، وسيلقون منك غيا ، وستملك ملكاً عظيماً ، فقام من فوره ، وذلك خوفاً من أن ينتشر الأمر وأن يتقبض عليه بنو أبي اليقظان وكانوا مالكي تاهرت ،

(١) Lévi - Provençal, Histoire de l'Espagne, t. II, p. 245 - 248

وولاؤهم لبنى أمية ، فأخذ خبزتين من الخباز ، وألقاهما في كفه ، وخرج ،
فأتى الأندلس ، (١) :

ونستنتج من هذه الرواية أمرين : الأول ، أن تاهرت كانت تضم جالية
أندلسية كبيرة ، والثاني أن العلاقات بين بنى أمية بالأندلس والرستميين
بتاهرت كانت قائمة على الصداقة والمودة . ويذكر الباروني صاحب الأزهار
الرياضية أنه كان لأفلح بن عبد الوهاب مع مسلوك الأندلس مواصلة
وارتباط ومودة ، يهادونه بالهدايا النفيسة ، ويهاديهم بمثلها ، وله عندهم مقام
رفيع ، ينظرونه بعين الإجلال والاعتبار (٢) . وعندما أحرق أفلح مدينة
العباسية ، وخربها سنة ٢٢٧ هـ ، كتب إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط
بالأندلس يتقرب إليه بذلك ، فبعث إليه مائة ألف درهم (٣) .

وفي عهد أبي اليقظان محمد بن أفلح ، دامت علاقات المودة والصداقة
بين تاهرت وقرطبة ، وكان أبو اليقظان « لا يقدم ولا يؤخر في أموره
ومعضداته إلا عن رأيه (أى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط
٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) وأمره ، وكذلك بنو مدرار بسجلماسة » (٤) .

ج - علاقة الرستميين بمصر :

كانت دولة الرستميين ترتبط ارتباطا وثيقا بمصر ، فقد كان كثير من

(١) ابن القوطية ، ص ٩١ ، ٩٢

(٢) الأزهار ص ١٨٦

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٩

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ١٦١ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخامس

بالأندلس ، تحقيق ليفى برونفيلد ، ص ٢٤

أهل مصر على مذهب الإباضية ، وكان من بين علماء الإباضية في مصر شعيب المصري ، الذي كان يطمح في الإمامة الرستمية لنفسه ، فقدم إلى تاهرت عندما قامت الفتنة بين عبد الوهاب وابن فندين التي أدت إلى الانقسام الإباضي إلى نكارية ووهابية ، وأيد شعيب ابن فندين في نزاعه مع ابن رستم . فلما تغلب ابن رستم على خصومه عاد شعيب إلى مصر (١) . ويذكر الأستاذ دبور أن مصر فتحت دراعيتها للدولة الرستمية ، فتدفقت قوافلها التجارية إليها ، وكانت هواره في شرق طرابلس ونفوسة تجوب صحراء سرت ذاهبة آية بين المدن الرستمية في المغرب الأدنى والأوسط وبين مصر وقوافلها مثقلة بالسلع الرستمية والمصرية (٢) .

د - علاقة الدولة الرستمية بدولة بني واسول المدرارين بسجلماسة :

كانت دولة بني واسول دولة صفرية معتدلة ، ولذلك التقت أهدافها مع أهداف الدولة الرستمية ، وتوطدت بينها أواصر المودة والصداقة ، وازدادت هذه الروابط وثاقة ، وإحكاما منذ أن زوج اليسع بن إلياس ، وكان إباضيا صفريا (٣) ، ابنة مدرار من أروى ابنة عبد الرحمن بن رستم (٤) . وقد أنجب مدرار من أروى ولدا سماه ميمونا ، وكان يؤثره على بقية بنييه ، وقد لعب ميمون هذا دورا هاميا في تاريخ دولة بني واسول بسجلماسة ، إذ تولى الإمارة في عهد أبيه ، ولكن أخاه ميمونا غلبه عليها (٥) .

(١) مختصر تاريخ الإباضية ص ٣٩

(٢) دبور ، ج ٣ ص ٣٥١

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٦٨ - الأزهاري ص ٩٤

(٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٦٨ - الأزهاري ص ٩٤

(٥) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٨ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ١٤٣

هـ - علاقة الدولة الرسمية بالسودان :

اتصلت الدولة الرسمية بالسودان اتصالاً تجارياً ، وذلك عن طريق القوافل التجارية التي كانت تخرج من ورجلان (ورجلة) قاعدة الرستميين التجارية في الصحراء ، وكان تجار الدولة الرسمية يحملون المنسوجات الصوفية والقطنية ، والكستانية ، وأواني الزجاج ، والفخار والخزف ذي البريق المعدني ، والملح ، إلى بلاد السودان لندرتهم عندهم ، فيبيعونه هناك بأسعار مرتفعة للغاية ، ويعودون محملين بالذهب والعاج وجلود الحيوانات . وكان أهل ورجلان يقودون هذه القوافل التجارية إلى بلاد السودان ^(١) . وكان الامام أفلح قد عـد مع ملك كوكو في السودان الشمالى الغربي علاقات من المودة ، فأهدى إلى هذا الملك هدية نفيسة ليوثق الصداقة بينهما ، ويشكره على ما يجده تجار بلاده من حسن معاملته لهم . وكان رسوله إلى ملك كوكو هو محمد بن عرفه ، وقد أعجب الملك بشخصية ابن عرفه وبثقافته وفروسيته ولطفه ، وكان لذلك أكبر الأثر في توثيق عرى الصداقة بينه وبين الإمام أفلح ^(٢) .

(١) الأزهار الرياضية ص ١٨٤، ١٨٥

(٢) دبوز ، ج ٣ ص ٣٤٦، ٥٧١ .

(٤)

حضارة الرستميين في تاهرت

١ - الحياة العلمية :

كان أئمة الدولة الرستمية من العلماء الذين كرسوا حياتهم للعلوم ونشرها في كل طبقات المجتمع، وقد شارك هؤلاء الأئمة العلماء مشاركة فعالة في الحركة العلمية في تاهرت بتشجيع الناس على طلب العلم ، فكانوا يقومون بالتدريس في جامع تاهرت وجامع جبل نفوسة . وكان عبد الرحمن بن رستم من كبار العلماء في عصره ، فكان بارعا في علوم الدين واللغة والفلك ، وكان محبا للعلم فأقبل على التأليف على قلة ما كان يجده من الوقت ، فصنف كتابا في التفسير لم يصل إلينا ^(١) . وكان الامام عبد الوهاب محبا للعلم ، تواقا إلى المعرفة ، وكان يبعث الأموال إلى العراق لشراء الكتب ، ولا يعمل قراتها في شتاء أو صيف ^(٢) . وقد صنف كتابا سماه « نوازل نفوسة » وهو مجموعة من الفتاوى الشرعية كان علماء نفوسة يستفتونه فيها ^(٣) . وكان الامام أفلاج عالما في الحساب والفلك ، كما كان أديبا شاعرا ، يتظم الشعر ، وله قصيدة يشجع فيها على العلم ويحث على طلبه ، منها :

العلم أبقى لأهل العلم آثارا
يريك أشخاصهم روحا وأبكرا
حي - وإن مات - ذو علم وذو ورع
ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة
كيت قد نوى في الرسم أعصارا

(١) دبوز ، ج ٣ ص ٣١٢

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٧٣

(٣) نفس المرجع ، ص ٤٦١

وفي هذه القصيدة يدعو الامام أفلح إلى الاقبال على العلوم الدينية
فيقول : —

فاطلب من العلم مما تقضى الفروض به
واعمل بعلمك مضطرا ومختارا
وأطلبه ما عشت في الدنيا ومدتها
لموقف العرض أن لا تورث النارا
واجعله لله لا تجعله مفخرة
ولا ترأى به بدواً وأحضارا

وكان طلاب العلم يحصلونه في مساجد تاهرت ونفوسة على أيدي كبار
علماء الإباضية في أصول الدين والشريعة ، والرياضيات والطب والكيمياء .
وقد شاركت المرأة في هذه الحركة العلمية ، وساهمت بدور هام في ازدهار
الحياة العلمية في عصر الرستميين ، ومن نبغ في العلوم أخت الامام أفلح التي
برعت في علم الحساب والفلك والتنجيم . ومن المراكز العلمية الهامة في الدولة
الرستمية مدينة تاهرت ومدينة ثمروس بجبل نفوسة ، ومدينة جادو ، وقرية
أجناون ، وجزيرة جربة ، وورجلان . ولقد حمل جبل نفوسة شعلة العلم في
عصر الرستميين ، فظهر من علمائه الشيخ مهدي النفوسي ، ومحمد بن يانس ،
وأبو الحسن الأبدلاني ، وعمروس بن فتح ، ويعقوب بن أفلح ، وأبو
عبيدة عبد الحميد الجناوني ، ومعبد الجناوني وغيرهم ، وبرز من علماء تاهرت
ابن أبي إدريس ، وأحمد التيه ، وأبو العباس بن فتحون ، وعثمان بن الصفار
وأحمد بن منصور ، وأبو عبيدة الأعرج ، وقد ترجم لهم أبو العباس أحمد

الدرجيني في طبقاته ، وأحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشاخي في كتابه السير (١) .

واشتهرت تاهرت في عصر الرستميين بمكتبتها المعصومة التي كانت تضم نحواً من ٣٠٠ ألف مجلد في مختلف أنواع العلوم والفنون ، وقد خربت هذه المكتبة على أيدي الفاطميين ، بعد أن أخذوا منها ما اهتموا به من كتب الرياضيات والفلك والهندسة والطب .

ب - الحياة الاقتصادية :

كان نفوذ الرستميين يشمل مناطق زراعية واسعة تخترقها الوديان ، وتتفجر فيها العيون ، وأهم هذه الوديان وادي شلف الذي يتفرع منه وادي مينة ، ويمتد مجراه حتى يصل إلى تاهرت من جهة الجنوب ، ومنها وادي عين سونجج ، وهو واد ينبع من عين بجبل سونجج ، ويتجه شرقاً فيلتقي بوادي الفرعة ، ثم بوادي الوحش ويتألف من ذلك كله واد يمر جنوبي مدينة شلالة . ويلتقي بوادي سونجج من الشمال واد آخر يسمى قسني . هذه الوديان ، بالإضافة إلى الأمطار الغزيرة ، كان لها أثر كبير في تكوين السهول الخصبة في المغرب الأوسط ، وهي سهول أسرسوفي جنوب تاهرت ، وسهول وادي شلف الغنية ، وسهول الساحل وفي هذه السهول كانت تزرع الحبوب والفواكه ، وأخصبها السفرجل الذي كان يفوق في طعمه سفرجل الآفاق . وبالإضافة إلى هذه السهول النهرية والساحلية ، كانت بالدولة الرستمية واحات خصبة في وسط الصحراء أهمها واحه ورجلان التي كانت تشتهر بنخيلها وزيتونها .

وإلى جانب هذه الثروة الزراعية التي أتاحها توافر المياه وخصوبة الأرض ، كانت دولة الرستميين تعتمد اعتمادا خاصا على التجارة ، وكانت سفن الأندلس تصل إلى موانئها بتنس ومستغانم ووهران ، مشحونة بالبضائع الأندلسية ، فتفرغها ، وتحمل منتجات البلاد الرستمية من منسوجات صوفية ومن العاج والجلود التي كانت تصل إلى المغرب الأوسط من بلاد السودان وغانة . وكانت الدولة الرستمية بحكم موقعها المتوسط بين المغربين الأدنى والأقصى ، وبحكم علاقاتها الحسنة مع بلاد السودان والأندلس وسجلماسة تحتل مركزا تجاريا ممتازا في بلاد المغرب كلها ، فكانت مركزا هاما للتجارة . وكانت القوافل التجارية تصل إليها من فاس والقيروان وسجلماسة وبلاد كوكو في شمال السودان ، وكان الرستميون يصعدون إلى بلاد كوكو المنسوجات الصوفية والكتانية والحرير والقوارير الزجاجية ، والأواني الخزفية البراقة والملونة ، والأصواف والتحف المعدنية ، والأفاوية والعطور وكانت تستورد من السودان وغانة الذهب الخالص والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات . وكانت ورجلان أكبر قواعد الدولة الرستمية للتجارة الجنوبية ، ولذلك أثرى تجار هذه المدينة ثراء فاحشا بفضل ما كان يتدفق عليهم من أموال ، وينعكس هذا الثراء في سائر مدن الدولة الرستمية ، وخاصة في حاضرتها تاهرت التي ازدهرت في ظل الرستميين ، ونما عمرانها نموا لفت أنظار الرحالة والجغرافيين . وقد وصلت إلينا أسماء لبعض الأثرياء في دولة الرستميين ، نخص بالذكر منهم يبيب بن زلفين المزاتي ، وكان يملك من الأبل ثلاثين ألفا ، ومن الغنم ثلاثمائة ألف ، ومن الحمير اثني عشر ألفا (١) ، ومنهم ابن وردة الفارسي الذي ابتنى بتاهرت سوقا خاصا

(١) الأزهار الرياضية ص ١٣٧ - مختصر تاريخ الإباضية ص ٤٣

له^(١). وكان أهل جبل نفوسة أيضا يشتغلون بالتجارة في الذهب مع بلاد السودان. وكان لازدهار الحياة الاقتصادية في دولة الرستميين أثره في اجتذاب كثير من تجار المسلمين وصناعهم، فوفد إليها الناس، وقصدوها من كل مكان، واستوطنوها واشتغلوا فيها بالتجارة والصناعة، وفي ذلك يقول ابن الصغير المالكي «وأنتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار، وأقاصى الأقطار، فقل أحد أن ينزل بها من الغرباء إلا استوطن معهم، وابتنى بين أظهرهم، لما يراه من رخاء البلد، وحسن سيرة إمامه، وعدله في رعيته، وأمانه على نفسه وماله، حتى ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ومربعتهم وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين، واستعملت السبل إلى بلاد السودان، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة»^(٢) وقد ظهر هذا الرخاء في تقدم العمران بتاهرت، وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن الصغير عند اشارته إلى وفود رسل البصرة الذين قدموا للمرة الثانية إلى تاهرت بقصد منح الامام عبد الرحمن بن رستم عشرة أجمال من الذهب يستعين بهم في تدعيم دولته الناشئة، فهاهم التطور الهائل الذي طرأ على عمران المدينة، فقد دخلوا المدينة، «فأروا هيئتها قد تبدلت، ولاح عليها رونق المدينة واليسار، وعلت وجوه أهلها سماء الحضارة والرفاهية وبدأت من محياهم آثار النعمة والغنى، وازينت المدينة بقصور مشيدة ودور منظمة، وأبنية مبهجة، وقباب مرتفعة، وأسواق مزدحمة، ومساجد متعددة بمنازل عالية، وحمامات متقنة، ويحيط بالعاصمة بساتين متنوعة،

(١) ابن الصغير ص ٢٧

(٢) نفس المرجع ص ١٢، ١٣ - الأزهاري ص ٤٢

ومطاحن منتصبة على الأنهار الجارية ، واتخذ أهلها الفرش والستائر المزخرفة
والخيل المسومة ، وتنوعت الألبسة ، وتعددت اللغات والأزياء ، وراوا
مالم يخطر لهم ببال ، ولا شاهدوه في مجيئهم الأول ١٠٠٠ « (١)

وفي عهد الامام أفلح تقدمت الدولة الرستمية تقدما سريعا ، ووصلت
إلى أوج عظمتها ، وبلغت في السؤدد منتهى العز والترف ، فقد ابنتى الأغنياء
القصور الفخمة ، واتخذوا الضياع الواسعة ، واستكثروا من العبيد
والحشم ، واتسع نطاق التجارة اتساعا عظيما إلى حد أن بعض التجار أصبح
يملك سوقا قائما بذاته ، وعلى عهده كثر المسافرون إلى السودان عن طريق
الصحراء للتجارة واستجلاب التبر ، وضربه دراهم ودنانير للتعامل
واتخذه حليا (٢) .

ج - الحياة الفنية :

كان من أثر الازدهار الاقتصادي الذي شهدته دولة الرستميين أثر كبير
في إقبال سكان هذه الدولة على تشييد القصور العظيمة والمباني الفخمة ، خاصة
في عصر الإمام أفلح الذي بلغت فيه الدولة ذروة تقدمها في مظهر الحضارة ،
فقد «شمخ في ملكه ، وابنتى القصور ، واتخذ أبوابا من الحديد ، وبنى
الجفان ، وأطعم فيها الجميعان ، وعمرت معه الدنيا ، وكثرت الأموال
والمستغلات ، وأنته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع
التجارات ، وتنافس الناس في البنيان حتى ابنتى الناس القصور والضياع

(١) المرجع السابق ص ١٣ - الازهار ص ٨٩ - دبورج ٣ ص ٤٤٢

(٢) مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٤٢

خارج المدينة ، وأجروا الأُنهار إليها ، فابتنى أبان وحموية القصر بن المعروفين
بهما بأَملاق ، وابتنى عبد الواحد قصره الذي يعرف به اليوم » (١).

غير أنه لم يتبق من هذه المنشآت الكثيرة التي زخرت بها تاهرت شيء . يذكر
فقد اضمحلت هذه المدينة عقب سقوط دولة الرستميين ، فهجرها علماءؤها ،
وكبار أعيان الدولة الرستمية ، ولكنها ظلت تغرا لأعمال الشيعة الفاطميين ،
فوليها أيام المهدي أبو حميد دواس اللهيصى ، ثم وليها مصالة بن حبوس
المكناسي . وفي ولاية حميد بن يصولي بن حبوس أقيمت قلعتها ، وبني
سورها (٢) . وظلت تاهرت تنحدر نحو النهاية بسبب المعمارك التي كانت
تدور في ساحتها بين المتغلبين عليها إلى أن كانت الضربة الكبرى التي أصابها
في أوائل القرن السابع الهجري ، عندما خرج بنو غانية على الموحد بن في
ناحية قابس ، وما زال يحيى بن غانية يشن عليها الغارات مرات متعددة إلى
أن خرج عنها أهلها وهجروها تماما سنة ٥٦٢٠ هـ (٣) . ومنذ ذلك التاريخ
تخربت عمارتها ، واعتورت المصائب عمرانها ، وأصبحت اليوم أطلالا لادارة .
وقد بقي من هذه العاصمة آثار قصبتها التي شيدها الرستميون ، وجددها
الصنهاجيون ، واستخدمها الأمير الثائر عبد القادر الجزائري في القرن ١٩م
مركزا لقيادته . ويذكرنا نظام البناء فيها بالقصور الأموية التي شيدها خلفاء
بنو أمية في بادية الشام ، مما لا يدع مجالا للشك في أن الرستميين تأثروا
بالتقاليد المعمارية السورية (٤) . وسور هذه القصبة مستطيل الشكل ، يتوجه

(١) ابن العفر ، ص ٢٦ — الأزهار الرياضية ص ٤٢

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٧٦

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٩

(٤) Marçais , l'architecture musulmane, p.29

نشز له موقع استراتيجي رائع يسيطر على المدينة وما يحوطها من بسائط ومروج . ويسبق سورها في الجانب الشالي الشرقي سور أمامي صغير ، وفي الداخل فناء فسيح ، يشغل القسم الأعظم من القصبة ، وتلتصق بجدرانها من الداخل غرف مختلفة الاتساع (١) .

غير أننا يمكن أن نشاهد عددا كبيرا من آثار الرستميين في سدراتة بالصحراء الجزائرية وذلك أنه لما سقطت دولة الرستميين ، لم تنقرض سلالتهم من الجزائر ، بل هاجرت أسراتهم من تاهرت ، إلى الصحراء التي لم تتعرض لغزو الفاطميين ، فاستقرت هذه الأسرات في ورجلان ، ثم عمروا في القرن الرابع الهجري مدينة سدراتة وظلت هذه الأسرات الإباضية هناك حتى هاجتها جيوش المرابطين ، فهاجرت من ورجلان إلى صحراء ميزاب ، ومالبت بقايا الرستميين أن يحفروا الآبار في هذه البقاع الجذباء وعمروها ، وجعلوا من هذه الأماكن واحات خصبة سميت فيها بعد باسم سبع مدن (٢) . وتقع سدراتة على بعد ٦٠٠ كيلو مترا جنوب شرقي الجزائر ، ١٤ كم . جنوبي واحة ورجلان ، وقد جددت سدراتة حضارة تاهرت ، ولكنها خربت بعد ذلك في القرن السابع الهجري بسبب الفتن المتوالية في الجنوب ، وطمرت الرمال آثار حضارتها إلى أن أسفرت الحفائر الأثرية التي أجراها علماء الآثار الفرنسيون في أرضها ، أمثال الأساتذة تاري ، وبول بلانشيه ، وفوشيه ، ومرجريت فان برشام ، عن كشف آثار بناء يعتقد أنه مسجد ،

(١) Ibid. - السيد عبد العزيز سالم ، روائع الآثار الإسلامية بجمهورية الجزائر ،

المجلة ، عدد ٢٩ سنة ١٩٥٩ ص ٢٧

(٢) محمد بن ناويت ص ١٢٧

ويرى الاستاذ تارى أن بيت الصلاة فى هذا المسجد كانت تعلوه قباب بيضاويه الشكل ، يلتصق بعضها إلى بعض ، وأنه كان يشتمل على ثلاثة صفوف من الدعائم الاسطوانية، وكان أحد جدرانها مزينا بطاقات حفرت فيها جوفات مقوسة تعلوها أنصاف قباب مسطحة ، إحداها مزين بفسلوع بارزة كالفصوص ، تشبه إلى حد كبير جوفات قصر الاخيضر بالعراق ، أو طاقات كنيسة طيسفون ، مما يدل دلالة واضحة على مدى تأثير الفن الزخرفى عند الرستميين بالفن العراقى الفارسى، كذلك أسفرت الحفريات الأثرية ، التى أجريت بأرض سدراته ، عن كشف بقايا دور كانت مزينة بزخارف جصية رائعة، تشبه زخارف سامراء فى العراق، وقوامها العناصر الهندسية التى تتألف من مربعات وجامات مستديرة وفصوص ، والعناصر النباتية التى تقوم على الفروع المموجة التى تتوزع فيها بينها التوريقات (١)

(١) السيد عبد العزيز سالم ، روائم الآثار الإسلامية ، ص ٢٨

Marçais; op. cit. pp. 55 — 60

(٥)

دولة بنى المدرار بسجلماصة

١ - نشأة سجلماصة وقيام دولة بنى واسول المدرارين :

انتشر المذهب الصفري في أقصى القسم الجنوبي والجنوبي الغربي من المغرب على أيدي أئمة من العرب الخوارج ، الذين لجئوا إلى هذه النواحي البعيدة عن النفوذ الأموي ، ولذلك اعتنق أهل موطن سجلماصة من مكناصة الاسلام على المذهب الصفري ، ثم انتزوا مع المنتزين على الدولة الاموية على أثر قيام ميسرة بفتنته . وكان من زعماء الصفرية في هذه النواحي عيسى ابن يزيد الاسود المكناسي الصفري ، وكان صاحب ماشية ينتجع بها المراعى بجنوب بلاد المغرب ، وكثيرا ما كان ينتجع أرض سجلماصة ويتردد عليها (١) ، وكان موضعها براحا يجتمع الناس فيه من قبائل البربر المجاورين له يتسوقون فيه ، فنزل عيسى في أرض سجلماصة سنة ١٣٨ هـ ، وهناك اجتمع إليه كثيرون من زناته الصفرية ، وسكنوا معه في خيام (٢) ، وكان عددهم يتجاوز أربعة آلاف شخص ، فبايعه كبيرهم أبو القاسم سمغون بن واسول المكناسي الزناتي ، وحمل قومه على طاعته ، فولوه عليهم ، فقام بأمرهم ، وشرع في تخطيط مدينة سجلماصة سنة ١٤٠ هـ « فأكل بناءها ، وأتقن أسوارها ، وقسم مياهها في خلجان بقدر موزون ، وصرف إلى كل ناحية قدرها من مائه ، وأمر بغرس النخل والاستكثار منه » (٣) .

(١) ابن الخطيب ، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام ، ص ١٣٨

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢١٥

(٣) ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٣٩

ويبدو أن أهل سجلماسة أخذوا على عيسى بعض ما أخذ أنكروها عليه، فقبضوا عليه، وشدوا وثاقه إلى أصل شجرة في سفح الجبل، بعد أن طلوه بالعسل، وتركوه حتى قتله الزناير والنحل سنة ١٥٥ هـ (١)، فسمى هذا الجبل لذلك باسم جبل عيسى، ويختلف ابن الخطيب وابن خلدون فيمن تولى بعده ومدة حكمه، فيذكر ابن الخطيب أنه تولى بعده أبو الخطاب الصفري (١٦٧ - ١٩١ هـ) بينما يتفق ابن خلدون وابن عذاري على أن أبا القاسم سمعون بن واسول المكناسي الملقب بمدرار (١٥٥ - ١٦٧) هو الذي تولى أمر سجلماسة بعد عيسى، ويتفق معها السلاوي في ذلك (٢). ورأى ابن خلدون أولى بالثقة لأن أبا الخطاب المذكور كان قائما باقليم طرابلس، وقد أشرنا إلى إمامته من قبل. ويذكر صاحب الاستبصار أن أبا القاسم سمعون هذا الملقب بالمدرار كان حدادا من جالية الرض بقرطبة، خرج من الأندلس بعد وقعة الرض، فنزل منزلا بقرب سجلماسة، فأنشأ بها مدرار خيمة، وسكنها فبنى الناس حوله، وظفر برئاسة البربر (٣). ويذكر ابن خلدون أنه كان إياضيا صغريا، وخطب في سجلماسة للمنصور وللهدي من بني العباس (٤). ولما توفي سنة ١٦٧ هـ خلفه ابنه إلياس الملقب بالوزير، ولكن أهل سجلماسة ثاروا عليه في سنة ١٧٤ هـ، وخلعوه، وأقاموا مكانه أخاه اليسع بن أبي القاسم الملقب بأبي منصور (١٧٤ - ٢٠٨ هـ)، ويعتبر اليسع بن أبي القاسم بن المدرار هذا المؤسس الحقيقي لدولة بني

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٧ - ويجعلها ابن الخطيب سنة ١٦٧

(٢) السلاوي، ج ١ ص ١٢٥

(٣) الاستبصار ص ٢٠١ - ابن الخطيب، ص ١٤٠

(٤) ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٦٨

واسول المعروفة بدولة بني مدرار . ففي عهده استفحل ملك بني المدرار في
سجلماسة ، « وهو الذي أتم بناءها وتشبيدها ، واختط بها المصانع
والقصور » ، وانتقل إليها في سنة ١٩٩ هـ ^(١) ، وفيه يقول ابن عذارى :
« وكان جبارا عنيدا ، فظفر بمن عانده من قبائل البربر ، وقهرهم وأذلهم ،
وأظهر الصغرية ، وأخذ خمس معادن درعة ، وعظم قدره في ذلك الوقت ،
وكان موضع سجلماسة قد عمر بالديار دون سور ، ثم زاد ملك اليسع
المذكور ، وأمر ببناء السور ، أسفله بالحجارة وأعلاه بالطوب ، فقيل أن
بناءه كان من ماله ، لم يشاركه فيه أحد ، فسكن سجلماسة ، وتوفي سنة ٢٠٨ هـ ،
فكانت مدته بها نحو أربع وثلاثين سنة » ^(٢) . وذكر ابن الخطيب أنه
هدم سور المدينة الأول ، وبناءه بناء أعظم من البناء الأول ، وفتح فيه ١٢
بابا محددة ، وقسم داخل المدينة على القبائل ^(٣) . وهكذا ازدهرت مدينة
سجلماسة في أيامه ، وأصبحت حاضرة لهذه الدولة . وتقع مدينة سجلماسة
على نهر يسميه اليعقوبي بنهر زيز ، وليس بها عيون ولا آبار ^(٤) .

ويصفها ابن حوقل في القرن الرابع بقوله : « وسجلماسة مدينة حسنة
الموضع جليلة الأهل ، فاخرة العمل على نهري زيد في الصيف كزيادة النيل...
فيزرع بمائة حسب زرع مصر في الفلاحة ، وربما زرعوا سنة عن بذر ،
وحصدوا مراع من زرعه ، وتواترت السنون بالمياه ، فكلما أغدقت تلك

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٦٨ - السلاوي ، ج ١ ص ١٢٥

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٥ ، ٢١٦

(٣) ابن الخطيب ، ص ١٤٣

(٤) اليعقوبي ، ص ٣٥٩

الأرض سنة في عقب أخرى ، حصدوه إلى سبع سنين ^(١) ، بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير ، بحب صلب المكسر ، لذيد المطعم ، وخلقه ما بين القمح والشعير ^(٢) ، ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنة ، ولهم رطب أخضر من الساق في غاية الحلاوة ، وأهلها قوم امرأة مياسير ، يباينون أهل المغرب في المنظر والخبر ، مع علم ، وستر ، وصيانة ، وجمال ، واستعمال للهروءة ، وسماحة ورجاحة ، وأبنيتها كأبنية الكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية ^(٣) . وذكر البكري أن أهل سجلماسة يعتمدون على الترقلة غلتهم ، وأشار إلى مهارة نسائها في غزل الصوف وصناعة الأزر البديعة التي تفوق ما كان يصنع في مصر من القصب ، وكان ثمن الإزار الواحد منها يبلغ ٣٥ ديناراً ، ويتحدث البكري عن غنى أهلها ، وكثرة أموالهم ، لاشتغالهم بالتجارة إلى بلاد غانة والسودان ، وهي بلاد مشهورة بالذهب . ويؤكد الاصطخري هذا المعنى بقوله : « وهي قريبة من معدن الذهب بينها وبين أرض السودان وأرض زويلة ، ويقال إنه لا يعرف معدن للذهب أوسع ذهباً ولا أصفى منه ، إلا أن المسلك إليه صعب ، والاستعداد شاق جداً » ^(٤) .

(١) فسر البكري ذلك بأن سجلماسة بلاد شديدة الحرارة ، وكانت الحرارة تشق الأرض ، فإذا يبس الزرع تناثر حبه عند الحصاد ، فتساقط في الشقوق ، فإذا كان العام الثاني حرث بلا بذر ، وكذلك في العام الثالث (البكري ، ص ١٤٨)
 (٢) أشار اليعقوبي إلى أن أكثر مزروعات سجلماسة الدخن والذرة
 (٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٩٠
 (٤) أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق

ويصفها المقدسي في القرن الرابع الهجري بقوله : « سجلماسة قصبة جليلة على نهر بمعدل عنها ، يفرغ في قبليها ، وهي طولانية نحو القبلة ، عليها سور من طين ، وسطها حصن يسمى العسكر ، فيه الجامع ودار الإمارة شديدة الحر والبرد جميعا ، صبيحة الهواء ، كثيرة التمور ، والأعناب والزبيب ، والفواكه والحبوب ، والرمان ، والخسرات ، كثيرة الغرباء ، موافقة لهم ، يقصدونها من كل بلد ، ومع ذلك ثغر فاضل ، برستاقها معادن الذهب والفضة ، وهم أهل مدنة ، وقوم جياد ، بها علماء وعقلاء ، لها باب القبلى ، باب الغربى ، باب غدير الجزارين ، باب موقف زناته ، وغيرها ، وهي في رحال ، ولهم مياه » (١) .

وكانت سجلماسة في عصر الموحدين مركزا تجاريا هاما ، وكان يتولاها أمير من أمراء الموحدين ، ويصفها صاحب الاستبصار بقوله : « ولمدينة سجلماسة ١٢ بابا ، ولها بساتين ، وهي كثيرة النخل والأعناب وجميع الفواكه ، وزبيب عنها الممرش الذى لاتناله الشمس لايزب إلا فى الظل ، ويسمى الظلى ، وما أصابته منه زبيب فى الشمس ، وهي على نهرين من عنصر واحد فى موضع يسمى أكاف ، وتمده عيون كثيرة ، ولهم مزارع كثيرة يسقونها من النهر فى حياض كحياض البساتين » (٢) . وقد اندثرت مدينة سجلماسة اليوم ، وقامت على أنقاضها تافيلت .

ب — خلفاء الديلم بن أبى القاسم سمغون الملقب بالمدوار:

تولى بعده ابنه مدرار الملقب بالمنتصر ، وهو الذى تزوج أروى ابنة

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم ، طبعة ليدن ١٩٠٦ ص ٢٣١

(٢) الاستبصار ، ص ٢٠١

عبد الرحمن بن رستم ، وأنجب منها ولده ميمون ، وكان له ولد آخر من امرأة تعرف بتقية اسمه ميمون أيضا ، وكان اليسع يميل إلى ابن الرستمية ولذلك تنازع الولدان في عهده ، وقامت بينهما الحرب ثلاث سنوات ، تغلب في نهايتها ابن أروى ، فلما استبد بالأمر وأساء السيرة خلعه أهل سجلماسة ، وأعادوا مدرار على ولايتهم ، ولكنه أخذ يميل من جديد إلى ابن الرستمية ، فخلعوه وقدموا على أنفسهم ميمونا ابن التقية ، وتوفي مدرار في سنة ٢٥٣ هـ وظل ابنه ميمون قائما بامارتهم حتى توفي سنة ٢٦٣ هـ .

وخلفه ابنه محمد بن ميمون بن مدرار وكان إباحيا ، ولم يطل عهده إذ توفي في صفر سنة ٢٧٠ هـ ، وولى بعده عمه اليسع بن مدرار سنة ٢٧٠ هـ . وفي عهده وصل عبيد الله المهدي وابنه أبو القاسم إلى سجلماسة ، فحبسها ، إلى أن زحف إليه أبو عبد الله الشيعي ، وتغلب عليه وقتله ، ودخل سجلماسة في ذي الحجة سنة ٢٩٧ هـ ، وخلص المهدي وابنه ، وأقام على سجلماسة إبراهيم بن غالب المزاني ، من رجال كتامة^(١) . وماكاد أبو عبد الله الشيعي يعود إلى إفريقية حتى ثار أهل سجلماسة على طامه عليهم ، وقتلوه بعد مضي ٥٠ يوما فقط من انصراف أبي عبد الله الشيعي ، وقدموا على أنفسهم الفتح بن ميمون بن مدرار ، الملقب بالرسول وذلك في ربيع الأول سنة ٢٩٨ هـ . وظل الفتح يقوم بأمر سجلماسة إلى أن توفي في رجب سنة ٣٠٠ هـ ، ثم خلفه أخوه أبو العباس أحمد على إمارة سجلماسة . واستقام أمره في البلاد ، غير أن المهدي لم يتركه ينعم بالإمارة ، فوجه إليه مصالة بن حبوس المهاجبي على رأس جيش كثيف من بربر كتامة ومكناسة فحاصر

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٢١٧ - ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٩ - ابن الخطيب النعم

سجلماسة ، وافتتحها عنوة ، وقتل أبا العباس أحمد وارسل رأسه إلى عبيد الله المهدي في محرم سنة ٣٠٩ . ورأى مصالة أن يقيم على سجلماسة أميرا من آل مدرار حتى يحد بذلك من ثوراتهم ، فأقام المعز بن محمد بن ساور بن مدرار ، وكان المعز هذا يدعوللفاطميين . ولما توفي في سنة ٣٢١ هـ خلفه ابنه محمد الملقب بأبي المنتصر ، واستقام ملكه عشر سنوات ، وتوفي في سنة ٣٣١ . ثم تولى ابنه المنتصر ، وكان صغيرا لا يتجاوز من العمر ١٣ سنة ، فوثب عليه ابن عمه محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار في سنة ٣٣٢ هـ ، وأخرج المنتصر من سجلماسة ، وقطع الدعوة عن خلفاء الفاطميين ، ودعا إلى نفسه ، وتسمى بأمرير المؤمنين ، وتلقب بالشاكر لله (٢) ، ورفض الخارجية ، وأخذ بمذهب أهل السنة ، واتخذ السكة اسمه ولقبه ، وكانت تسمى الدراهم الشاكرية (٣) . وكان عادلا حسن السيرة ، وظل يقوم بأمر سجلماسة وما يليها حتى زحف إليه جوهر الصقلي في خلافة المعزدين الله الفاطمي سنة ٣٤٧ هـ ، فحاصر سجلماسة ثلاثة أشهر ، ففر الشاكر لله في جماعة من أهله وخاصته ، وتحصن بحصن من حصون سجلماسة يبعد عنها بنحو ١٢ ميلا . أما جوهر فدخل مدينة سجلماسة . ويذكر ابن الخطيب أن الشاكر لله خرج من حصنه في نفر من أصحابه يتجسس الاخبار ، ودخل سجلماسة متنكرا ، فغدر به قوم من مطهرة ، فقبض عليه جوهر ، وحبسه في قفص من الخشب ، وحمله إلى القيروان ، ثم سجن برقادة إلى أن توفي سنة ٣٥٤ . وبوفاته انقرض آل مدرار أمراء سجلماسة .

(١) ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٤٨

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٧٠

الفصل الثامن

المغرب في ظل الفاطميين

(١) قيام الدولة الفاطمية في المغرب

١ - دور أبي عبد الله الشيعي في تأسيس الدولة الفاطمية : ١ - مرحلة

الاعداد ٢ - مرحلة الصدام المسلح

ب - خلافة عبيد الله المهدي :

١ - التخلص من الشيعي وأصحابه

٢ - القضاء على ثورة الإباضية بطرابلس

٣ - تأسيس المهدي والتمهيد لبسط النفوذ الفاطمي على مصر أو

الأندلس

٤ - رد الفعل الأموي ضد مطامع الفاطميين في الأندلس وأثر ذلك

في تحويلهم نحو مصر

٥ - فتح برقة ومحاولة فتح مصر

(٢) ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الخارجي

١ - قيام الثورات في بداية عهد القائم

ب - ثورة أبي يزيد :

١ - المرحلة الأولى : (٣٢٢ - ٣٣٢ هـ)

٢ - المرحلة الثانية : (٣٣٢ - ٣٣٣ هـ)

٣ - المرحلة الثالثة : (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ)

٤ - المرحلة الرابعة : (٣٣٤ - ٣٣٦ هـ)

(٣) خلافة المعز لدين الله الفاطمي

١ - بسط نفوذ الفاطميين على المغرب الأقصى

ب - استيلاء المعز على مصر وانتقاله إليها

الفصل الثامن

المغرب في ظل الفاطميين

(١)

قيام الدولة الفاطمية في المغرب

١ - دور ابي عبد الله الشيعي في تأسيس الدولة الفاطمية :

كان قيام الدولة الفاطمية في جد ذاته ثورة وانقلابا في التاريخ الاسلامي، إذ أن نجاح الشيعة الإسماعيلية في إقامة خلافة لهم في المغرب جاء بعد محاولات طويلة فاشلة قام بها الشيعة منذ قيام الدولة الأموية، للظفر بالخلافة، وكان هذا الفشل نتيجة لانقسامهم على أنفسهم وتفككهم^(١). وكان لهذا النجاح الذي أحرزه الفاطميون آثار حاسمة في تقرير مصير بلاد المغرب لأمد بعيد، فإن المغرب الإسلامي رغم انفصاله عن الدولة العباسية كانت تسود فيه المذاهب السنية، وذلك لأن المذهب الإباضي في تاهرت، وهو مذهب المعتدلين من الخوارج، كان لا يختلف كثيرا عن مذاهب أهل السنة، حتى أطلق عليه حديثا اسم المذهب الخامس، وهذا يفسر، وفقا لما يراه الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد وكيف أن إمارة سجالماسة الصقرية كانت تدن بالولاء للخلافة العباسية ببغداد، كما أن دولة الأدارسة في فاس، على

(١) - حسن إبراهيم حسن وطه شرف، عبيد الله المهدي امام الشيعة الإسماعيلية،

الرغم من كونها دولة علوية، إلا أن الأُداسة كانوا معتدلين بشكل لا يفرقهم عن أهل السنة، مما دعا إلى تسمية هذه الدولة بالدولة الهاشمية، شأنهم في ذلك شأن العباسيين، وعلى هذا قامت فاس وتاهرت وسجلماسة بنشر الإسلام السني في المغرب الأقصى والأوسط، وبذل أحكام هذه العواصم الثلاث جهداً صادقاً في القضاء على هرطقات البربر في المناطق الجبلية بالمغرب الأقصى، وخاصة هراطقة برغواطة. فقيام الدولة الفاطمية في المغرب انقلاب خطير، أدى إلى قطع علاقة المغرب بالشرق، وبانحلال الخلافة العباسية ببغداد^(١)، مما دعا أمراء بني أمية في الأندلس بعد ذلك إلى التلقب بألقاب الخلافة في ذي القعدة سنة ٣١٦ هـ، بعد أن فقدت الخلافة العباسية هيبتها من جهة، ومناوئة الخلفاء الفاطميين في المغرب من جهة ثانية.

وقبل أن نتحدث عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب لابد أن نذكر أن هناك مرحلتان لنشر دعوة الاسماعيلية في هذه البلاد: الأولى، هي مرحلة الإعداد للدولة، وتكوين الأنصار والمشايخ للمذهب الاسماعيلي في المغرب. والثانية، مرحلة الصدام المسلح مع الدويلات القائمة في المغرب.

١ - مرحلة الإعداد:

كانت بلاد اليمن مركزاً هاماً للدعوة الشيعية، وذلك لبعدها عن مركز الخلافة العباسية، ومناعتها وصعوبة الطرق الموصلة إليها، ولقربها من الحجاز

(١) سعد زغلول عبد الحميد، فترة حاسمة من تاريخ المغرب، مجلة كلية الآداب والتربية

بالجامعة الليبية، المجلد الأول ١٩٥٨، بنغازي، ص ٢١٩ - ٢٢١

مجمع الحجاج^(١). ولقد كان القائم بالدعوة الاسماعيلية رجلاً من الكوفة اسمه رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الذي عرف بمنصور الين لانتصاره على والي العباسي ، وعلى أمراء الين^(٢). وكان ابن حوشب يرسل الدعاة إلى اليمامة وعمان والبحرين ومصر والمغرب، وجاء اختيار المغرب موفقا كل التوفيق لبعده عن مركز الخلافة العباسية ، وتدمير البربر من الحكم العباسي ، ولهذا فقد كانت بلاد المغرب تربة خصبة للدعوات الشيعية^(٣). وكانت الامام جعفر الصادق قد أنفذ إلى المغرب داعيين هما : الحلواني وأبا سفيان ، وقال لهما : « بالمغرب أرض بور ، فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر »^(٤). فنزل أحدهما ببلدة مراغة، والآخر ببلد سوف جوار من أرض كتامة ، فانتشرت الدعوة الشيعية في هذه النواحي ، ولما بلغ ابن حوشب نبأ وفاة هذين الداعيين ، عهد إلى أبي عبد الله الشيعي بالدعوة للاسماعيلية في بلاد المغرب ، فخرج أبو عبد الله إلى مكة ، والتقى هناك ببعض رؤساء كتامة ، ومنهم موسى بن حريث ، وأبو القاسم الورفجومي ، ومسعود بن غيسى بن ملال الساكني^(٥). وذكر ابن عذارى ، أنهم كانوا نحو عشرة

(١) أحمد مختار العبادي ، سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، صحيفة معهد الدراسات في مدريد ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧ ص ١٩٤

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٦٥ - السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الإسلامي ، ج ١ ص ١٠٤

(٣) محمود علي مكي ، التشيع في الأندلس ، صحيفة المعهد المصري في مدريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤ ص ٩٨

(٤) المقرئزي ، اتعاظ الخلفاء بذكر الأئمة الخلفاء ، نشره الدكتور جمال الدين الشبال ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٥٧ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦٥

(٥) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦٦

من قبيلة كتامة ملتفين على شيخ منهم ، فسألهم عن بلادهم ، فأخبروه بصفتها ،
وسألهم عن مذهبهم ، فصدقوه عنه ، فتكلم أبو عبد الله الداعي في المذاهب ،
فوجد الشيخ يميل في مذهبه إلى مذهب الإباضية النكارة ، فدخل عليه من
هذه الثأمة ، ولم يزل يستدرجهم ، ويخلمهم بما أوتى من فضل اللسان ، والعلم
بالجدل ، إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه (١). فلما آن لهم العودة إلى بلادهم ،
سألوه عن مقصده ، فادعى أنه يزيد مصر ليعلم بها ، فدعوه إلى بلادهم للقيام
بهذه المهمة ، ونزل ببلاد كتامة في منتصف ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ ، (٢) .
فنزل على موسى بن حريث ببلده ، وسمى مكان منزله بفج الخيار ، وأخبره
بأن النص عنده من المهدي بذلك ، وأن اسمهم مشتق من الكتان (٣). وأخذ
أبو عبد الله الشيعي يضع لأهل كتامة من الأحاديث والتنبؤات بظهور
المهدي ، ويستخدم السحر والطلاسم ، الأمر الذي أثار حماسهم ، وجعلهم
يلتفون جوله ، ويعضدونه .

ولقد اعترضت أبا عبد الله الشيعي بعض الصعاب تمكن من التغلب عليها ،
ذلك أن وجوده أحدث انقساماً بين البربر ، انتهى بانتصار الفريق الذي كان
يسانده ، والتزمت كتامة الطاعة له ، ودخلت قبائل كثيرة في دعوته ، فجعل
لهم ديواناً ، وألزمهم الجندية ، وقال لهم : « أنا لا أدعوكم لنفسي ، وإنما
أدعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت » (٤) .

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٦

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦٦ — أحمد مختار العبادي ، سياسة الفاطميين ، ص ١٩٤

(٣) نفس المرجع ص ٦٧

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٢

استقام أمر أبي عبد الله الشيعي بكتامة وعجيسة وزواوة ، وكثر الداخلون في دعوته من البربر ، فقوى أمره ، واستفحل خطره ، وأحس بقوته ، فبدأ الأمير إبراهيم بن أحمد يخاف هذه القوة الجديدة ، ويعمل لها حسابا كبيرا ، وكان لابد له أن يسعى لتخطينها قبل أن تحطمه . ويذكر ابن الخطيب ، أنه بعث إلى أبي عبد الله الشيعي من يتلطف في تعرف خبره ، وسبر غوره ، فلما دخل عليه قال له : « إن الأمير إبراهيم بن أحمد وجهني إليك يقول لك : ما حملك على التعرض لسخطى ، والوثوب على ملكي ، وإفساد رعيتي ، والخروج على . فان كنت تبتغي غرضا من أغراض الدنيا ، فانك تجده عندي ، وإن كان قصدك غير ذلك ، فقد عرفت عواقب من سولت له نفسه ما سولت لك نفسك ، وإنما أردت الإعذار إليك ، وهذا أول كلامي لك وآخره . فانظر في يومك لغدك » . فرد عليه أبو عبد الله الشيعي بقوله : قد قلت فاسمع ، وبلغت فأبلغ : أما ما ذكرت من التهديد ، فما أنا ممن يروع بالابعاد ، وأما تخويفك إياي برجال دولتك أبناء حطام الدنيا ، فاني في أنصار الدين ، وحياة المؤمنين ، الذين لا تروعهم كثرة أنصار الظالمين ، مع قول الله (كم فئة ضالة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين) ، وأما ما أطمع به من دنياه ، فلست من أهل الطمع فيما عنده ، أنا بعثت رسولا لأمر حم ، وقرب ، وإنجاز وعد من الله سبق ، والله لا يخلف الميعاد . هذا جواب ما جئت به . ثم صرف الرسول على أحسن حال . فلما بلغ إبراهيم بن أحمد قوله ، ووصفت له صفته ، عرف أنه صاحب قطع دعوته ، وكان له علم عن الحدثان (١) . ويندو أن إبراهيم بن أحمد لما تلى هذا الرد الجريء أراد أن يرضى العامة

ويستميل قلوب الخاصة بفعله ، فرد المظالم ، وأسقط القبالات ^(١) ، وأعلن توبته ، وهنا تبدأ المرحلة الثانية من مراحل الدعوة الاسماعيلية .

٢ - مرحلة الصدام المسلح :

وتبدأ هذه المرحلة منذ سنة ٢٨٩ هـ وتنتهى باسقاط الشيعة الاسماعيلية لدولتي الأغالبة والرسّامين سنة ٢٩٦ هـ . شرع أبو عبد الله الشيعي في عام ٢٨٩ هـ في مصادماته الحربية مع الأغالبة ، فقد زحف إلى طبنة ، وأغار عليها ، فسير إليه أبو العباس بن إبراهيم بن أحمد ابنه أبا عبد الله الاحول لمحاربتة ^(٢) ، ولكنه انهزم مرتين ^(٣) . ثم استدعاه أخوه زياده الله من طبنة بعد أن تولى الإمارة عقب مقتل أبيه ، وقتله ، وانتقل من تونس إلى رقادة ، واستغرق في ملذاته . وفي هذه الأثناء كانت جيوش أبي عبد الله الشيعي ، قد انتشرت في البلاد . وفي سنة ٢٩٢ هـ حدثت موقعة كينونة ، وتفصيلها أن زيادة الله سير إلى أبي عبد الله الشيعي حملة بقيادة إبراهيم بن حبشي ، فلما علم الشيعي بخروج العسكر إليه وكثرة من معهم من الرجال ومالديهم من العدة وآلات الحرب ، استنفر كتامة ، وتأهب للاقاة إبراهيم بن حبشي . فلما اشتبك الجيشان ، دارت الدائرة على ابن حبشي ، وغنم أنصار الشيعي غنائم كثيرة ، وهي أول غنيمة أصابها أصحابه ، فلبسوا أثواب الحرير ، وتقلدوا السيوف المحلاة ، وركبوا بسروج الفضة واللجم المذهبة ، وكثرت لديهم الأسلحة . ثم كتب الشيعي إلى عبيد الله المهدي ، بسلمية من أرض حمص يخبره بما فتح

(١) ابن عذاري ج ١ ص ١٧٧

(٢) نلس المرجم ص ١٨٠

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٧٠

الله عليه ، فتنكر المهدي في زى تاجر ، وقدم إلى مصر ، ثم ارتحل منها إلى القـيـروان ، ثم مضى بعد ذلك إلى قسطنطينة ، ثم توجه منها إلى سجلماسة فأكرمه أميرها اليسع بن مدرار ^(١) ،

وكان انتصار أبي عبد الله الشيعي في كينونه فاتحة انتصارات شيعية جديدة ، فقد زحف أبو عبد الله الشيعي إلى سطيف ، فحاصرها فترة ، فاستأمن أهلها ، فأمنهم ، ودخلها ، فهدمها . وفي سنة ٢٩٣ هـ استولى الشيعي على مدينتي بلزمة وطبنة ، وفي سنة ٢٩٤ هـ تمكن من الاستيلاء على باغاية بالأمان ، ثم افتتح قرطاجنة واستأمن أهل تيفاش ، ثم سقطت تبسة في يده وتبعثها القصرين من إقليم قمودة . وفي سنة ٢٩٥ هـ استولى الشيعي على قسنطينة ، وتوغل بعد ذلك إلى إقليم قسطنطينية ، فاستولى على تيجس ثم على قفصة . وفي سنة ٢٩٦ هـ سقطت الأربس في يده ، وعلى أثر ذلك فر زيادة الله إلى مصر ، فدخل أبو عبد الله الشيعي مدينة رقادة في رجب سنة ٢٩٦ هـ ، وسقطت دولة الأغالبه باستيلائه أخيرا على القيروان .

وفي هذه الأثناء كان اليسع بن مدرار قد اكتشف أمر عبيد الله المهدي ^(٢) ، فسجنه هو وولده أبا القاسم ، فلما علم أبو عبد الله الشيعي بذلك حزم على السير إلى سجلماسة ليخليصهما من السجن ، فاستخلف على إفريقية أخاه أبا العباس ، وأبازاكي تمام بن معارك ، ومر في طريقة إليها على

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٧١

(٢) ذكر ابن خلدون أن زيادة الله ، وقيل المكتفي العباسي ، كتب إلى اليسع بشأن عبيد الله ، وذكر له أنه المهدي الذي يدعوه الشيعي في كتامة ، فعقبه اليسع لذلك (ابن

خلدون ج ٤ ص ٧١ ، ٧٢

تاهرت حاضرة الرستميين ، فاستولى عليها ، وقضى على الدولة الرستمية .
 وولى على تاهرت أبا حميد دواس بن صولات اللهيصى ، و ابراهيم بن محمد
 اليماني المعروف بالهوازي ، وكان يلقب بالسيد الصغير (١) . ثم تابع الشيعي
 بعد ذلك سيره إلى سجلماسة ، فحاصرها ، ودخلها ، وأخرج المهدي وابنه
 من السجن (٢) . ويذكر المؤرخون أنه عندما أبصر المهدي ، ترجل وخضع
 بين يديه من فرحته بهذا اللقاء ، ثم إنه مشى أمامه راجلا حتى أنزله بالخيم ،
 وسلم إليه الأمر ، وقال لمن معه : « هذا مولاي ومولاكم ، قد أنجز الله
 وعده ، وأعطاه حقه ، وأظهر أمره » (٣) .

وأقام أبو عبيد الله الشيعي وعبيد الله المهدي بسجلماسة أربعين يوما ،
 ثم رحلوا نحو القيروان ، بعد أن ولى الشيعي على سجلماسة إبراهيم بن
 غالب المزاني ، فوصلوا إلى رقادة في ربيع الأول سنة ٥٢٩٧ هـ ، وهناك خرج
 أهل القيروان من الفقهاء ووجوه المدينة لاستقبال المهدي ، فهناؤه بالوصول ،
 وسألوه تجديد الأمان لهم ، فأمنهم على أنفسهم ، ولم يذكر الأموال ،
 فعاوده بعضهم وسألوه أن يؤمنهم على أموالهم ، فأعرض عنهم ، فخافه أهل
 العقل منذ ذلك الحين (٤) . ونزل عبيد الله المهدي في قصر الصيحن ، بينما نزل
 ابنه أبو القاسم في قصر أبي الفتح ، وبويع للمهدي في رقادة البيعة العامة ،
 وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين ، واستقام له الأمر ، فضربت السكة باسمه ،

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢١٠

(٢) يذكر المؤرخون أنهما كانا معتقلين في غرفة عند مريم بنت مدرار (أبو عذاري

ج ١ ص ٢١٠ - الاستبصار ص ٢٠٤)

(٣) ابن عذاري ج ١ ص ٢١٠

(٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢١٨

وأُسند المناصب إلى رجالٍ يثق فيهم ، فولى بيت المال أبا جعفر الخزرى ، وعلى ديوان الخراج أبا القاسم بن العديم ، وعلى السكة أبا بكر الفيلسوف المعروف بابن القمودى ، وعلى العطاء عبدون بن حباسة ، وعلى قضاء رقادة أفلح بن هارون الملوسى ، ثم أقر على عمالة القيروان الحسن بن أبى خنيزر ، وعلى القضاء بها المروزى القاضى ، وبعث العمال على البلاد ، وجبى الأموال وذكر ابن عذارى ، أنه « أمر أن تقلع من المساجد والمآجـل والقصور والقناطر أسماء الذين بنوها ، وكتب عليها اسمه ، وأظهر عبـيد الله التشيع القبيح ، وسب أصحاب النبى (صلعم) وأزواجه ، حاشا على بن أبى طالب والمقداد بن الأسود ، وعمار بن ياسر ، وسلمان الفارسى ، وأبى ذر الغفارى . وزعم أن أصحاب النبى (عم) ارتدوا بعده ، غير هؤلاء الذين سميناهم . ومنع المروزى الفقهاء أن يفتى أحدهم إلا بمذهب زعم أنه مذهب جعفر بن محمد ، منه سقوط الحنث عن طلق بالبتة ، وإحاطة البنات بالميراث ، وأشياء يطول ذكرها . ومدحت الشعراء عبـيد الله بالكفر ، فاستجازه » (١) :

ب ـ خلافة عبـيد الله المهدى :

١ ـ التخلص من الشيعة وأصحابه :

كان عبـيد الله المهدى ، منذ أن استقامت له الأمور فى المغرب ، يهدف إلى تدعيم مركزه فى بلاد المغرب ، وذلك باصطناع سياسة تركيز السلطات وجمعها فى يده ، وكان لابد له أن يصطدم فى ذلك مع أبى عبـيد الله الشيعى مؤسس دولته ، ويذكر ابن خلدون أنه « لما استقام سلطان عبـيد الله المهدى

بافريقية استبد بأمره ، وكفح أبا عبد الله الشيعي وأخاه أبا العباس عن الاستبداد عليه ، والتحكم في أمره ، فعظم ذلك عليهما ، وصرح أبو العباس بما في نفسه ، فنهاه أخوه عبد الله عن ذلك ، فلم يصغ إليه ، ثم استماله أبو العباس لمثل رأيه ، فأجابه ، وبلغ ذلك إلى المهدي ، فلم يصدقه ، ثم نهى أبا عبد الله عن مباشرة الناس ، وقال إنه مفسد للهيبة « (١) . فأخذ أبو عبد الله منذ ذلك الحين يدعو الناس إلى خلعهم ، ويطعن سرا في خلافتهم . وحاول أن يقنع الناس أنه ليس هو الإمام المعصوم ، وزعم لهم أن للمهدي الصحيح علامة ، وهي أن بين كتفيه مكتوب « المهدي رسول الله » ، وحث أبو عبد الله رؤساء كتامة على امتحانه ، وذكروا أن شيخا من شيوخ كتامة ذهب إلى المهدي وقال له : « جئنا بآية على أمرك ، فقد شككنا فيك » ، فقتله المهدي على الفور . وبلغ المهدي أن أبا عبد الله الشيعي وأخاه أبا العباس وأبا زاكى تمام بن معارك وآخرين يتآمرون عليه ، فعزم على قتلهم ، وبدأ بأبي زاكى ، فبعثه على طرابلس ، وفي نفس الوقت بعث إلى عاملها ماقنون الأجاقي يأمره بقتله ، فقتله فور وصوله . ثم أمر بقتل ابن العريم وكان من أصحاب زيادة الله ، واستصفاء أمواله وعمد بعد ذلك إلى التخلص من أبي عبد الله الشيعي وأخيه ، فأمر عروبة بن يوسف وأخاه حباسة بقتلها ، فترصدا لها ، في موضع يمران فيه إلى القصر ، فلما مرا بهذا الموضع حملا عليه ، فلما هم عروبة بقتل أبي عبد الله قال له هذا : « لا تفعل يا ولدي » ، فقال له عروبة « أمرني بقتلك من أمرتني بطاعته ، وانخلعت له من الملك بعد نوطته (٢) » . ثم أجهز القاتلان عليها في أول ذي الحجة سنة ٢٩٨ هـ ،

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٧٦

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٢٢٨ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٧٧

وظلا صريعين على صف الحفير المعروف بالبحر إلى أن أمر المهدي بدفنها ،
فدفنا في الجنان .

وقد أثار مقتل أبي عبدالله الشيعي فتنة كبيرة ، قام بها أتباعه ، وذكر
المؤرخون أن من كان حول رقادة من كتامة أظهروا الخلفاء على عبيد الله
وقدموا على أنفسهم حدثا يعرف بالمارطى ، واسمه كادو بن معارك وجعلوه
قبلة يصلون إليها ، وكتبوا كتابا فيه شريعة زعموا أنها أنزلت على أبي
عبدالله ، وزعموا أن هذا الطفل هو المهدي المنتظر ، فامتدت هذه الدعوة في
جميع بلاد الزاب ، وقوى أمر هذا المهدي ، واشتدت شوكته ، فسير عبيد
الله قوادا حاربوهم ، فانضم إليهم قائد من جيش عبيد الله المهدي هو
صولات بن جندة في نحو مائتي رجل ، فاضطر عبيد الله إلى تسير حملة قوية
بقيادة ابنه أبي القاسم إلى بلاد كتامة ، لمحاربة المارطى وأتباعه ، فافتتح
قسطنطينة وغيرها من أرض كتامة ، وتمكن أبو القاسم من هزيمة الكتامين
في عدة مواقع ، وقبض على المارطى وجماعة من كبار أهل كتامة ، فطوفوا
بالقيروان غلى الجبال وعليهم القلائس الطوال المشهرة بالقرون والمصانع ،
فقتلوا بمدينة رقادة (١) .

٢ - القضاء على ثورة الإباضية بطرابلس سنة ٨٣٠٠ هـ :

ثار أهل طرابلس في سنة ٨٣٠٠ هـ على ما قنون الإيجابي عامل عبيد الله
عليهم ، فقرر ما قنون ، وامتنع أهل طرابلس داخل مدينهم ، وقدموا على

(١) نفس المرجع ص ٢٣٣ . ويذكر ابن خلدون أن أبا القاسم مزم الكتامين ، وقتل
الطفل الذي نصبوه ، وعاد إلى القيروان (ابن خلدون ص ٤٨ ص ٧٨)

أنفسهم محمد بن اسحق المعروف بابن القرلين (١). فأرسل عبيد الله ابنه أبا القاسم لاسترجاع طرابلس وإخماد الثورة ووجه إليها عبيد الله ١٥ مركبا حربية أحرقها أهل طرابلس. أما أبو القاسم، فقد هزم أهل هواره، ثم حاصر طرابلس، وقطع عن أهلها المؤن والأقوات، فاستسلموا لأبي القاسم على الأمان، واشترط عليهم نظير ذلك أن يسلموا إليه ثلاثة من زعماء الثورة، حملهم معه إلى رقادة، حيث قتلوا، كما أغرم أهل طرابلس مبلغا قدره ٣٠٠ ألف دينار (٢).

٣- تأسيس المهديّة والتمهيد لد النفوذ الفاطمي إلى مصر أو الأندلس:

كان لقيام الثورات على عبيد الله أثر كبير في حمله على بناء مدينة يتخذها هدة عند الشدة، وملاذا في أوقات الفتن (٣). ويذكر ابن خلدون أنه قال: « بنيتها لتعصم بها الفواطم ساعة من نهار » (٤). وكانت مدينة رقادة بوقوعها في وسط سهل فسيح عرضة لغزو من كل جانب، فأثر أن يتخذ عاصمة تقع على البحر حتى تكون قاعة لعدة لمحاولاته المستقبلية لغزو مصر أو الأندلس.

والواقع أن أهل المغرب خاب أملهم في المهدي، إذ انضح لهم أن الوعود التي وعدهم بها أبو عبد الله الشيعي عن انقطاع الفساد بخلافة المهدي،

(١) ابن عذاري، ج ١ ص ٢٣٣

(٢) نفس المرجع، ج ١ ص ٣٣٤ - ابن خلدون ج ٤ ص ٧٨

(٣) ابن الخطيب، آمهال الأعلام، القسم الثالث ص ٥٠ - ابن خلدون ج ٤ ص ٧٩

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٧٩

وحلول عهد العدل والإنصاف والاصلاح لم تكن إلا سرايا ، فبالإضافة إلى البدع لدينية الجديدة ، « من إعلان عصمة الإمام وتقديسه ، وتناول بعض الشعائر أو الطقوس الدينية المتعارف عليها بالحذف والتغيير ، وتجريح كبار الصحابة وأئمة الاسلام - مما لا يمكن أن يقبله شعب نشأ على السنة ، وتعصب لمذهب مالك منذ أجيال - انتهج الفاطميون سياسة مالية متعسفة ، على عكس ما بشر به الداعي في أول الامر ، فاشتطوا في جمع الضرائب ، وتفننوا في تنويعها ، حتى فرضوا على الحجاج جميعا أن يملأوا بالمهدي حتى يدفعوا ضريبة الحج » (١) ، بل إن إقدام المهدي على مكافأة مؤسس دولته وصاحب الفضل الأعظم في إمامته بالمغرب ، بالقتل ، كان له أسوأ الأثر في نفوس البربر ، مما حملهم على الثورة عليه كما رأينا ، إذ أصبح المهدي في نظرهم شبيهاً بأبي جعفر المنصور الذي قتل أبا مسلم الخراساني سيف دولته . وعلى الرغم من نجاح قادة المهدي في إخماد نيران الثورات المشتعلة في كل مكان ، فقد أحس المهدي في قرارة نفسه بعدم الاطمئنان في بلاد المغرب ، وأدرك أنه إذا كان قد نجح هو في فرض سيادته على المغرب فإن خلفاؤه سيخفون أو على الأقل سيواجهون متاعب كثيرة . فقد ذكر ابن خلدون « أنه لما ارتفع سور المهدي رمى فوقه بسهم إلى ناحية المغرب ، ونظر إلى منتهاه وقال : إلى هذا الموضع يصل صاحب الحمار » (٢) ، ويعني به أبا يزيد محمد بن كيداد الذي سيثور على الفاطميين في خلافة أبي القاسم الملقب بالقاسم بأمر الله . لذلك كان من الطبيعي أن يفكر عبيد الله في أمرين :

(١) سعد زغلول عبيد الحميد ، فترة حاسمة ، ص ٢٢٢

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٨٣

الأول : تأسيس مدينة يعتمص بها ، وتكون مركزا لعملياته الحربية والبحرية المقبلة .

الثاني : محاولة فتح مصر أو الأندلس ، ونقل الخلافة الفاطمية إليها .

نخرج المهدي يرتاد موضعاً لبناء المدينة المذكورة في سنة ٣٠١ هـ ، فر بتونس وقرطاجنة ، حتى وقف على موضعها بين سفاقس والمنستير ، في جزيرة متصلة بالبر كصورة كف انصلت بزند (١) . وقد وصفها البكري بأن البحر يحيط بها من جميع جهاتها إلا الجانب الغربي ، وفيه بابها . وللمهدية بلان من حديد لا خشب فيها ، عليها رسوم حيوانية (٢) . وجلب عبيد الله إليها الماء من قناة تمتد ما بين قرية مشانس والمهدية ، وأقام لها مرسى للسفن منقور في صخر صلد ، يسع ٣٠ مركباً ، وشيد على المرسى برجين بينها سلسلة من الحديد يعلق بها بعد دخول السفن ، وذلك تحصيناً لها حتى لا تنطرقها مراكب الروم من صقلية وغيرها (٣) . وشيد بها أيضاً داراً للصناعة نقرت في الجبل تسع مائة سفينة حربية كبيرة ، وفيها قبوان كبيران لوقاية السفن من الشمس أو المطر ، وزود المدينة بالمواجل وصهاريج المياه والاهراء ، وبنى بها القصور ، فلما أسس المهدي قال : « أمنت اليوم على القواطم » (٤) . وقد اكتمل سور المهدية ، ونصبت به الأبواب الحديدية

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٧٩

(٢) شاهد ابن حوقل هذين البابين ، وذكر أنه لم يرهما في الأرض شبيه ولا نظير إلا بابي سور الرافقة ، وهي بلد متصل البناء بمدينة الرقة ، بناها أبو جعفر المنصور سنة ١٥٥ (ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٧٣)

(٣) البكري ، ص ٢٩ ، ٨٤ - ٨٥ - الاستبصار ، ص ١١٧ ، ١١٨

(٤) نفس المرجع - ابن خلدون ج ٤ ص ٨٠

في ربيع الأول سنة ٣٠٤ هـ (١) . وانتقل إليها في ٨ شوال سنة ٣٠٨ هـ (٢) ، وأقام بها ، وعمرت المدينة بالأسواق ، وأصبح لها أرباض كثيرة عامرة مثل ربض زويلة ، وكان أقرب أرباضها إلى قصر الخليفة ، وربض الحمة ، وربض قفصة (٣) . ثم أمر المهدي بعد ذلك ببناء مدينة بجوار المدينة سماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل البربر ، وجعل بين المدينة وزويلة ميدانا فسيحا ، وحوط زويلة بسور وأبواب وحراس ، وأسكنها التجار بأسرهم وعائلاتهم ، وقال : « إنما فعلت ذلك لأمن غائلتهم ، وذلك لأن أموالهم عندي وأهاليهم هناك ، فإن أرادوني بكيد ، وهم بزويلة كانت أموالهم عندي ، فلا يمكنهم ذلك ، وإن أرادوني بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك ، وبنيت بيني وبينهم سورا وأبوابا ، فأنا آمن منهم ليلا ونهارا ، لأنني أفرق بينهم وبين حرمهم نهارا (٤) » .

أما الأمر الثاني الذي فكر فيه المهدي فهو محاولة فتح مصر أو الأندلس فقد رأى المهدي بعد أن امتد نفوذه في بلاد المغرب أن هذه البلاد لا تصلح لأن تكون مركزا لدولته ، ففضلا عن ضعف مواردها كان يسودها الاضطراب ، وتشتعل فيها الثورات من حين لآخر (٥) ، فتطلع بنظره إلى مصر والأندلس لوفرة ثرواتها ، وأخذ المهدي يحبس النبض ، ويتأهب للهجوم

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٤٣

(٢) نفس المرجع ص ٢٥٨

(٣) البكري ، ص ٣٠

(٤) نفس المرجع ص ٢٩ - ٣٠

(٥) جمال الدين سرور ، مصر في عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٢٧

إما شرقاً نحو مصر أو شمالاً نحو الأندلس (١) . فبدأ بتوجيه حملاته على مصر منذ عام ٣٠١ هـ ، وقد كشفت الحملة الأولى ، على الرغم من فشلها ، عن ميل كثير من المصريين إلى الدعوة الفاطمية ، بفضل الجهود التي بذلها دعاة الإسماعيلية فيها — كأبي علي الداعي . وفي نفس الوقت أرسل دعائه وعيونه إلى الأندلس . أما الدعاة فلنشر الدعوة الفاطمية هناك وتمهيد البلاد قبل فتحها لقبول المذهب الإسماعيلي ، وأما العيون فلاستطلاع أحوال الأندلس وتعرف مداخلها ومواطن الضعف فيها (٢) ، ومن هؤلاء العيون أو الجواسيس المشاركة الذين دخلوا الأندلس قبل قيام الدولة الفاطمية في المغرب ، ثم خدموا عبيد الله المهدي بعد ذلك ، وزودوه بكثير من المعلومات عن أوضاع الأندلس الاجتماعية وأحوالها السياسية ، أبو اليسر الرياضى (ت. سنة ٢٩٨ هـ) ، وابن هارون البغدادي الذي تولى الكتابة للمهدي بعد وفاة أبي اليسر الرياضى ، بالإضافة إلى منصب رئيس ديوان البريد (٣) . ومن الجواسيس الذين قاموا بدور هام في الأندلس ابن حوقل النصيبى (ت. سنة ٣٦٧ هـ) ، وقد دخل الأندلس ليستطلع أحوالها . ويسجل ملاحظاته عن أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والعسكرية (٤) . ولكن هذه الجهود التي قام بها عبيد الله وخلفاؤه من بعده حتى عهد المعز ، لم يكتب لها نجاح كبير ، فإن الدعاية الفاطمية التي مارسها دعاة الفاطميين وعيونهم في الأندلس ، لم تجتذب إلا عدداً محدوداً من الأندلسيين والمشايعين من أهل

(١) محمود على مكى ، التشيع في الأندلس ص ١١١

(٢) محمود على مكى ، التشيع في الأندلس ، ص ١١٢

(٣) نفس المرجع ص ١١٤

(٤) نفس المرجع ص ١١٥ — مختار العبادى ، سياسة الفاطميين ص ٢٠٥

الفكر الأندلسي ، نخص بالذكر منهم ابن أبي المنصور الذي ولي القضاء
لإسماعيل المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ هـ) ، والشاعر الإلبيري ابن هانيء الأندلسي
(ت . سنة ٣٦٢) الذي طرد من الأندلس حين تكشفت ميوله الفاطمية ،
فالتحق بخدمة المعز الفاطمي ^(١) ، ومنهم القائد علي بن حمدون الجذامي
المعروف بابن الأندلسي ، الذي قدم إلى المغرب ، وانصل بالمهدي وبابنه من
بعده ، وقد عهد إليه عميد الله ببناء مدينة المسيلة سنة ٣١٣ هـ ، وسماها المحمدية
في وسط أرض بني بزال وبني كهلان ، قريبا من هواره (٢) ، وقد عقد له
القائم بالله على المحمدية ، بعد اختطاطها ، فبناها وحصنها وشحنها بالاقوات ،
فكانت مدداً للمنصور في حصار صاحب الحمار أبي يزيد بن كيداد (٣) .

٤ - رد الفعل الأموي ضد مطامع الفاطميين في الأندلس وأثر ذلك في

تحولهم نحو مصر :

كان عبد الرحمن بن محمد الأموي يتتبع في تيقظ وانتباه الخطوات التي
يخطوها الفاطميون لبسط سلطانهم مذهبيا وعسكريا على الأندلس ، فاضطر
إلى الوقوف أمام مطامع الفاطميين في بلاده موقفا صارما ، وبدأ يحاربهم ليس
بنفس السلاح الذي يحاربونه به فحسب ، بل بأسلحة أشد مضاه ، وبأعمال
إيجابية حاسمة ، أثبتت أنه بحق من أعظم رجال السياسة في العصور الإسلامية
الوسطى ، وتتلخص هذه الأعمال فيما يلي :

(١) بث العيون والوسطاء في أنحاء المغرب ، قد تمكن هؤلاء العيون من

(١) المرجع السابق ، ص ١١٥ ، ١١٦

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٦٨

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٨٢

تزويد حكومة قرطبة بمعلومات قيمة عن نوايا الاندلسيين الذين توطنوا المغرب منذ القرن الثالث . وقد كانوا من الحزب المعارض للفاطميين ، ولذلك تعرضوا لسيخطهم ، ومنهم أبو جعفر محمد بن خيرون الأندلسي المعافى صاحب المسجد الشريف الذي أسسه بالقيروان في سنة ٢٥٢ هـ (١) ، وصاحب الفنادق المجاورة للسجن ، وقد أمر المروزي ، قاضي القيروان ، بقتله (٢) ، ومنهم أبو علي حسن بن مفرج الفقيه ، ومحمد الشذوني الزاهد ، وقد أمر عبيد الله المهدي بقتلها لتفضيلهما الصحابة علي علي (٣) .

(ب) في سنة ٣٠٢ هـ ، ووصل إلى الجزيرة الخضراء ، « وضبط البحر ، ونظر في أساطيله ، واستكثر منها ، ومنع ابن حفصون من البحر » (٤) . وأغلب الظن أنه وزع أساطيله على السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية من الأندلس حتى يمنع وصول الامدادات من القيروان إلى عمر بن حفصون الخارج عليه ، خاصة وأن ابن حفصون كان قد أرسل بيعته إلى المهدي ، وأخذ يدعو له في منطقة نفوذه بالأندلس (٥) . وقد اهتم عبد الرحمن بن محمد بالأساطيل البحرية اهتماما جديا ، فعمل على إنشاء أسطول قوى يدفع عن الأندلس الأخطار التي تتعرض لها من غارات النورماندين والغزو الفاطمي على السواحل ، وينازع به سلطان الفاطميين في البحر المتوسط . ويذكر

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٥٠

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٣٥

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٦٢

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٣٠٣

(٥) نفس المرجع ، ص ٢٩٣

ابن خلدون أن أسطول الأندلس انتهى في أيامه إلى نحو مائتي مركب (١). وقد تولى قيادة هذه الأساطيل القائد ابن رماحس ، وكان مرفؤها للبحر والإقلاع مدينة المرية ، القاعدة البحرية الرئيسية للأندلس ، وكانت دار الصناعة فيها تقوم بإنتاج السفن والعدة والآلات اللازمة لها وما يقوم به الأسطول (٢) . ويعتبر الخليفة عبد الرحمن بن محمد المؤسس الحقيقي للأساطيل الأندلسية ، فقد قام بإنشاء دور الصناعة وإنشاء في طر كونة ، والمرية ، والجزيرة الخضراء ، ومالقة ، وميورقة ، ولقنت ، وشلب ، واستخدم لذلك الغرض أخشاب الصنوبر بطرطوشة ، وهي أخشاب مشهورة بجودتها وعدم تعرضها للتلف الناشئ من السوس (٣) . وكان لهذا الأسطول الفضل الكبير في استيلائه على طنجة ومليلة في سنة ٣١٤ هـ وعلى سبتة في سنة ٣١٩ هـ (٤) . وعلى أثر ذلك أعلن موسى بن أبي العافية ، أمير فاس والمغرب ، وكان مواليا للبهدي ، خروجه عن طاعة المهدي ، وانضموا إلى عبد الرحمن بن محمد ، وكتب إلى عبد الرحمن سنة ٣١٩ هـ مبديا له رغبته في موالاته والدخول في طاعته ، على أن يستميل له أهواء أهل العدو المجاورين له (٥) . وفي

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٧٨

(٢) ابن غالب الأندلسي ، كتاب فرحة الانفس في تاريخ الأندلس ، قطعة نشرها

الدكتور لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ١٩٥٦ ، ص ١٤

(٣) الحميري ، صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المغطار ، ص ١٢٤

(٤) ابن عذاري ج ١ ، ص ٢٨٣

Lévi - Provençal, la Potitica africana de Abd al-Rahman III, - al

Andalus, vol. XI, fasc. 2, 1946, p. 366 - Lévi - Provençal, Histoire
t. II, p.96, t. III, p. 106

(٥) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٨٢

العام التالي طالب موسى بن أبي العافية من عبد الرحمن أن يساعده في افتتاح جزيرة أرشقول ، فاستجاب عبد الرحمن لرغبته ، وأمر أهل بجاية وغيرهم من أهل السواحل بإقامة خمسة عشر مركبا حربية مجهزة بالرجال والسلاح لمحاصرة جزيرة أرشقول التي لجأ إليها الحسن بن عيسى ابن أبي العيش ، ولكن الحملة فشلت ، وعادت السفن الأندلسية إلى المربة في شهر رمضان من هذه السنة (١) . ولما رأى عبيد الله المهدي انضواء موسى بن أبي العافية إلى عبد الرحمن بن محمد ، سير قائده حميد بن يحيى أمير مكناسة وعامله على تاهرت لمحاربة موسى بن أبي العافية ، وذلك في سنة ٣٢١ هـ ، فكتب موسى بن أبي العافية إلى عبد الرحمن بن محمد يستنجد به ، فأخرج إليه عبد الرحمن قائده قاسم بن طماس في العساكر والأسطول الأندلسي ، فوصل إلى سبتة ، وبلغه أن موسى هزم جيش حميد ، فعدل عن التدخل الحربي (٢) . وفي سنة ٣٣٣ هـ جاز الأسطول الأندلسي بقيادة أحمد بن إلياس ، ويونس بن سعيد مرسى الجزيرة ، واختلا العدو ، وحاصر أحمد بن أبي العيش بن عمر بن إدريس ، ومنذ ذلك الحين أخذت الأساطيل الأندلسية تسدد ضرباتها إلى ممتلكات الفاطميين في المغرب الأقصى (٣) .

وفي سنة ٣٤٤ هـ أمر عبد الرحمن بن محمد بإنشاء مركب كبير ، لم يعمل مثله ، في دار الصناعات بالمربة ، وسير فيه أمتعة إلى بلاد المشرق ، فلقى في البحر مركبا يحمل رسولا من صاحب صقلية إلى المعز لدين الله الفاطمي ،

(١) البكري ، ص ٧٨

(٢) ابن خلدون ج ٤ ، ص ٣٠٦

(٣) عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٢٨٨

فقطع عليه بحريو المركب الأندلسى طريقه ، واستولوا على ما فيه ، كما استولوا على الكتب التى أرسلها الحسين بن على صاحب صقلية إلى المعز ، فلما بلغ إلى المعز ذلك ، عمر أسطولا بقيادة الحسين بن على صاحب صقلية ، وشيره إلى الأندلس ، فهاجم الأسطول الفاطمى مدينة المرية فى نفس السنة ، ودخل المهاجمون مرسى المرية ، وأحرقوا جميع ما فيه من السفن ، واستولوا على المركب الكبير ، وكان قد غاد من الاسكندرية وفيه أمتعة لعبد الرحمن وجوار ومغنيات . ثم دخلوا المدينة وقتلوا ونهبوا ، وعادوا سالمين إلى المدينة (١) . وكان رد الفعل الأندلسى على هذه الغارة البحرية ، أن هاجم الأسطول الأندلسى بقيادة غالب القائد ، سواحل إفريقية سنة ٣٤٥ هـ فى ستين سفينة ، وكان مرسى الخرز وساحل سوسة هدف هذه الغارة (٢) .

وزاد اهتمام الحكم المستنصر بالأسطول الأندلسى زيادة كبيرة ، فارتفع عدد قطعه من ثلثائة (٣) سفينة إلى ستمائة جفن غزوى وغيره (٤) ، وكان قائده فى البحر عبد الرحمن بن رماحس .

(ج) تلقب الأمير عبد الرحمن بن محمد الأموى فى ٢٨ ذى القعدة سنة

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ص ٣٤٩

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣١٨ —

Lévi-Provençal, Histoire, t. II. p. 108 - Torres Balbas, Atarazanas hispanomusulmanas, Al-Andalus, vol. XI, 1946, p. 180

(٣) ابن الخطيب ، الاحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ،

ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٥ ص ٤٨٧

(٤) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، تحقيق ليقى برونسال ،

ط ، بيروت ص ٤٢

٣١٩ هـ بألقاب الخلافة، ليدعم مركزه في داخل الأندلس وخارجه، ويفرض هيئته في نفوس أهل الأندلس حتى لا يتأثروا بالدعوة الاسماعيلية، وقد أصدر الناصر منشورا بذلك، وزعه عماله في النواحي المختلفة (١).

(د) وطد الناصر علاقته بأعداء الفاطميين، فتحالف مع هيو ج دي بروفانس (يسميه العزب أقوه، ملك الفرنجة وراء المغرب (٢).)، Hugues de province، الذي كان يحق على الفاطميين لتدميرهم ميناء جنوة، كما تحالف مع امبراطور بيزنطة الذي كان يرمى إلى استرجاع صقلية من أيدي الفاطميين (٣). ثم وطد الناصر علاقته بالإخشيديين في مصر، وعمل على إرسال الفقهاء المالكية من الأندلس إلى مصر لمحاربة المذهب الشيعي، ومن أمثال هؤلاء أبو اسحق محمد بن القاسم بن شعبان المعروف بابن القرطبي الأندلسي (٤).

(هـ) فتحت الأندلس أبوابها لأعداء الفاطميين في المغرب، ومنهم ابن الخراز الملي الذي كان قاضيا بمليلة، ذهب إلى قرطبة في سنة ٣٢٥ هـ خوفا من جنود الشيعة، فسجل له الناصر على قضاء بلده، وحكم بن محمد القيرواني القرشي، الذي تعرض لسجن عبيد الله المهدي بسبب مهاجمته

(١) Una cronica anonima de 'Abd al-Rahman III al-Nasir, ed. par

Lévi - Provençal, Y. Emilio Garcia Gomez, Madrid, 1950, p.79

(٢) ابن خلدون، ج ٤ ص ٣١٠

(٣) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, t. II, p. 159

(٤) محمود علي مكي، التشيع في الأندلس ص ١٢٤ - مختار العبادي، سياسة

الفاطميين، ص ٢٠٨

للغاطميين ، وكان يتردد بين قرطبة والقيروان (١) . كما وفد إلى قرطبة أيضا بنو سعيد بن صالح صاحب نكور بعد أن دخلها مصالة بن حبوس ، وقتل أميرها سعيد في ٣ محرم سنة ٣٠٥ هـ . وكان هؤلاء اللاجئون إلى الأندلس ثلاثة أبناء لسعيد بن صالح ، هم : صالح ، وإدريس ، والمعتصم ، فعبروا البحر إلى مالقة ، فقام الناصر بانزالهم ، والتوسع عليهم ، وبعث إليهم بضروب الكسوة وكل ما احتاجوا إليه من المرافق ، وخيرهم بين القدوم إلى قرطبة أو المقام بمالقة ، فاختاروا المقام بها ، لقربها من بلدهم ، وأملهم في العودة إليه . وكان مصالة قد استخلف على نكور رجلا يقال له ذلول ، وانصرف إلى مقر ولايته بتاهرت ، فعبر صالح وإخوته إلى نكور ، واسترجعها بعد أن قتل ذلولا .

* * *

وقد سجل الناصر باحتفاله ببني صالح أصحاب نكور أول تدخل له في شؤون المغرب ، وحمل ذلك المهدي فيما بعد على معاودة غزو مصر في سنة ٣٠٨ هـ (٢) ، والواقع أن عبد الرحمن الناصر اعتبر انتصار بني صالح على المهدي انتصارا شخصيا له ، فعبر عن اغتباطه بذلك الحدث الهام بأن أرسل إلى صالح الأخبية والآلات والبنود والطبول (٣) ، ورد عليه صالح بهدية من الخيل والجمال (٤) . ومنذ ذلك الحين أخذ الناصر يتتبع أحداث المغرب

(١) المرجع السابق ص ١٢٤ ، ١٢٥

(٢) Lévi-Prevençal, Histoire de l'Espagne, t. II p. 93

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٥٢

(٤) نفس المرجع ص ٢٤٥

باهتمام كبير ، باجثا عن انصار له بين القبائل المعادية للفاطميين ، وتمكن من استمالة مغراوة وبنو إفرن الزناتيين ، وكان محمد بن خزر يزعم قيالة مغراوة ، وأدرك المهدي خطورة السياسة التي ينتهجها الناصر ضده ، فأمر مصالة بن حبوس صاحب تاهرت بمحاربة الزناتيين سنة ٣١٢ هـ ، فخرج مصالة من تاهرت إلى قبائل زناتة الضاربة من وادي شلف حتى تلمسان ، واصطدم بقوات ابن خزر في معركة عنيفة انتهت بمقتل مصالة ، وانهزام جيشه في ٢٠ شعبان سنة ٣١٢ هـ^(١) . وقد اعتبر الناصر انتصار ابن خزر انتصارا لسياسته الإفريقية على الفاطميين . وفي سنة ٣١٤ هـ أحرز ابن خزر عدة انتصارات على قوات الفاطميين في تاهرت نفسها^(٢) ، وقد استغل الناصر هذه الفرصة ليرفع القناع عن وجهه ، فانقض على مليلة في سنة ٣١٤ هـ ، واستولى عليها ، وحصن أسوارها^(٣) . وأخذت الأحداث تتوالى بعد ذلك التاريخ في سرعة مذهلة ، فقد تمكن ابن خزر سنة ٣١٧ هـ من التغلب على إقليم الزاب كله ، فعمد موسى بن أبي العافية إلى مهاجمة نكور ، وحاصر أميرها المؤيد بن عبد البديع بن صالح ، وتغلب عليها وقتل المؤيد ، وهدم أسوارها^(٤) ، ثم حاصر الحسن بن عيسى المعروف بابن أبي العيش أمير جراوة ، ودخلها ، ففر الحسن إلى مدينة مليلة ثم إلى جزائر ملوية^(٥) . وفي هذه اللحظة نزلت قوات عبد الرحمن الناصر بقيادة فرج بن عفير على ساحل العدو واستولت

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٦٦

(٢) نفس المرجع ص ٢٦٩

(٣) البكري ، ص ٨٩

(٤) البكري ، ص ٩٣ - ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧٤

(٥) ابن الخطيب ، (القسم الثالث) ، ص ٢١٤

على مدينة سبتة ، وشكها عبد الرحمن بالرجال ، وأتقنها بالبنيان (١). وأحدث سقوط سبتة صـدى عميقا في المغرب ، فقد تهيأ للناصر باستيلائه على سبتة تكوين قاعدة حربية بحرية على ساحل العدو تجاه ساحل الجزيرة الخضراء ، تمهيدا للسيطرة الفعلية على المغرب الأقصى ومحاربة موسى بن أبي العافية . وأدرك موسى بن أبي العافية تخرج مركزه ، فرأى أن يسالم عبد الرحمن الناصر الذي أصبح سيد الموقف في المغرب الأقصى ، فبادر بشق عصا الطاعة على المهدي ، وكان موسى يمثل في بلاد المغرب ، ثم أعلن دخوله في طاعة الخليفة الأموي ، وهكذا أثمرت سياسة الحذر والتدخل التي اتبعها عبد الرحمن الناصر ، وأصبح الجزء الأعظم من شمال المغرب الأقصى ، ومساحات واسعة من المغرب الأوسط في حامية عبد الرحمن الناصر ، بفضل انضواء كل من محمد بن خزر المغراوي ، وموسى بن أبي العافية المكناسي تحت لوائه (٢) . ولما علم المهدي بذلك جهز جيشا إلى المغرب بقيادة حميد بن يصبلى المكناسي ، فالتقى معه جيش ابن أبي العافية في فحص مسون ، الواقع شرقي تازي ، فانهزم موسى أمامه ، وتمكن حميد من دخول فاس سنة ٣٢١ هـ ، واستفعل عليها حامد بن حمدان الهمداني ، ثم عاد حميد إلى إفريقية . فثار عليه أحمد ابن بكر بن عبد الرحمن الجذامي في سنة ٣٢٢ هـ ، عقب وفاة المهدي ، وطادت الدعوة في فاس باسم الخليفة الناصر (٣) . وظل النفوذ الأموي قائما على المغرب الأقصى وفاس حتى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس ، على الرغم

(١) ابن خلدون ، ج ١ ص ٢٨٤

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٠٦ - ٧٩ ، Lévi - Provençal, Histoire, t. II, p. 79

(٣) ارجع إلى الفصل الخامس بمدينة فاس حاضرة الإدارة .

مما قام به ميسور الفقى فى أيام القائم بأمر الله من جهود للقضاء على هذا النفوذ عند استيلائه على فاس فى سنة ٣٧٣ هـ ، وقهره لموسى بن أبى العافية ، وعلى الرغم من قيام جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى ، باعادة فتح بلاد المغرب وفاس سنة ٣٤٧ هـ . والسبب فى فشل الفاطميين فى القضاء على نفوذ الأمويين يرجع إلى اجتفاظ هؤلاء بقواعدهم العسكرية فى منطقة الريف .

٥ - فتح برقة ومحاولة فتح مصر :

حاول عبيد الله المهدي فتح مصر ثلاث مرات ، بعد أن تبين له استحالة فتح الأندلس ، ولكن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل ، ولم يتم فتح مصر إلا فى عصر المعز لدين الله الفاطمى ، بسبب ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر ، وضعف الدولة الإخشيدية صاحبة السلطان الفعلى فيها^(١) . وفى سنة ٣٠٩ هـ سير المهدي جيشا ضخما من المغاربة بقيادة حباسة بن يوسف ، فدخل مدينة سرت بالأمان ، ثم زحف إلى إجدابية واستولى عليها بالأمان ، ثم دخل برقة ، وقتل من أهلها عددا كبيرا بلغ نحو ألف رجل ، ثم أغرم أهلها مائة ألف مثقال . وفى أثناء مقام حباسة ببرقة ، قدمت إليه الجيوش العباسية من مصر ، فدارت بين الجيشين العباسى والفاطمى عدة معارك انتهت بهزيمة الجيش العباسى^(٢) . زحف حباسة بعد ذلك متجها نحو الاسكندرية ، وتغلب أثناء مسيره إليها على الحصون المتناثرة فى الطريق إليها ، وأدركه

(١) انظر تفاميل ذلك فى بحث الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال ، عن مصر فى العصر الفاطمى ، فى موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثانى ، الجزء السادس ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، القاهرة ١٩٦٣

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٢٦ - سعد زغلول ، فترة حاسمة ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١

أبو القاسم بن عبيد الله بجيش كثيف قبل أن يدخل الاسكندرية ، فدخلها
معا في سنة ٣٠٢ هـ فألقياها خالية ، قد هرب أهلها في البحر ، ثم تقدم جيش
الفاطميين بقيادة أبي القاسم إلى الفيوم ، ولكن حباسة تخلف في الطريق
بسبب خلاف حدث بينه وبين أبي القاسم ، وعاد إلى المغرب في ثلاثين من
فرسانه ، فاضطر أبو القاسم إلى الانسحاب أمام قوات العباسيين بقيادة مؤنس
الفتى^(١) ، وكتب إلى أبيه بنجر حباسة . فلما وصل حباسة إلى حيز برقة
قبض عليه وسجن ، وكان أخوه عروبة عاملا على تاهرت ، فلما بلغه خبر
القبض على أخيه ، هرب بما استطاع جملة من أموال ، ولكنه اعتقل بجبل
أوراس ، وقتل ، وأمر الخليفة بقتل أخيه حباسة كذلك .

وما كاد أبو القاسم ينصرف عن برقة إلى إفريقيا حتى قام أهلها بالثورة
على الفاطميين ، وقتلوا من كان بها من الكتاميين في ١٠ ذى القعدة سنة ٣٠٢ هـ ،
فسير إليهم عبيد الله الجيوش بقيادة أبي مدين بن فروخ اللهيصى^(٢) ، ويبدو
أن أبا مدين لاقى كثيرا من الصعوبات في فتح برقة ، لأنه لم يدخلها إلا في سنة
٣٠٤ هـ بعد حصار دام ١٨ شهرا ، قتل فيها من أهلها معظمهم ، ولما دخلها
استصفي أموال من قتل من سكانها ، وبعث بجماعة منهم إلى عبيد الله ،
فأمر بقتلهم^(٣) .

وفي أول ذى القعدة عام ٣٠٦ هـ ، خرج أبو القاسم لغزو مصر للمرة
الثانية ، وخرج معه من قادة الفاطميين خليل بن اسحق ، وأبو غانم الكاتب ،

(١) المرجع السابق ص ٢٣٩

(٢) نفس المرجع ص ٢٤١

(٣) نفس المرجع ص ٢٤٤

ومن الله بن الحسن بن أبي خنيزر ، وسليمان بن كافي . ولما اقترب أبو القاسم من الإسكندرية ، سير إليها سليمان بن كافي في جملة من رجال كتامة ، فاجأوا أهل الإسكندرية ، ودخلوها ، وانتهبوا أموال أهلها ، ثم سار ، أبو القاسم إلى الفيوم ، ودخلها بالسيف ، ثم نزل الأشمونين . وفي هذه الأثناء تحرك الأسطول العباسي من سواحل الشام ، ونزل بالإسكندرية ، واشتبك في قتال عنيف مع الأسطول الفاطمي في رشيد ، انتصر فيه ثمل الفتي ، وتمكن من إحراق كثير من سفن الفاطميين ، وأسر عددا من كبار قوادهم ، اقتادهم معه إلى القسطنطينية ، ومنهم سليمان الخادم ، ويعقوب الكتامي ، ونتيجة لذلك تراجعت الجيوش الفاطمية إلى المغرب (١) .

وعلى الرغم من هذا الفشل المتلاحق ، فقد ظل المهدي يتطلع إلى غزو مصر بعد أن أيقن باستحالة فتح الأندلس ، فأعاد الكرة للمرة الثالثة عندما اضطربت أمور العباسيين في المشرق الإسلامي بعد وفاة الخليفة المقتدر ، وانقسم الأتراك في بغداد على أنفسهم . فأعد حملة سيرها إلى مصر عام ٣٢١ هـ وبعد مناوشات بين الإخشيديين والمغاربة ، أبرمت معاهدة للصلح في صفر سنة ٣٢٢ هـ ، غير أن هذا الصلح لم يطل أمده ، فقد حدثت وقائع بين المغاربة والإخشيديين في الجيزة وبلبيس ، ونجح محمد بن طغج الإخشيد في هزيمة المغاربة ، سنة ٣٢٤ هـ ، وأسر عددا كبيرا منهم (٢) .

(١) ابن عذاري ص ٢٥٥ — ابن الأثير ج ٦ ص ١٦١

(٢) انظر التفاصيل في كتاب عبيد الله المهدي ، للدكتور حسن إبراهيم حسن ، ص ١٨١

(٢)

ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الخارجى

١ - قيام الثورات فى بداية عهد القائم :

توفى عبيد الله المهدي فى ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ ، وبوفاته أحس أهل المغرب بزوال كابوسه الذى كان جاثما عليهم ، فاستعادوا كثيرا من حرياتهم ، وأطلقوا العنان لثوراتهم التى أخذت براكينها تنفجر فى المغرب كله ، فاشتعلت البلاد من حممها نارا فى أول ولاية القائم بأمر الله ، ذلك أن قبائل البربر وجدت فى اختفائه فرصة مواتية للتحرر من سلطان الفاطميين ، وأول هذه الثورات التى أعقبت وفاة المهدي ثورة رجل عربى يعرف باسم ابن طالوت القرشى بنواحي طرابلس ، فقد ادعى أنه ابن المهدي ، فاتبعه البربر ، والتفوا حوله ، وزحف ابن طالوت إلى مدينة طرابلس وحاصرها ، ولكن حامية طرابلس تمكنت بمساعدة الأهالى من التصدي لهجوم هذا المدعى ، واتضح لاتباعه كذبه ، فانقلبوا عليه وقتلوه ، وبعثوا برأسه إلى القائم بأمر الله (١) . وفى فاس ثار أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامى على واليها جامد ابن حمدان الحمدانى ، فاضطر القائم بالله إلى تسيير ميسور الفقى إلى فاس ، لإعادة النفوذ الفاطمى على فاس والمغرب الأقصى ، فوصل ميسور إلى فاس فى سنة ٣٢٣ هـ ، وعذر بأحمد بن بكر ، إذ قبض عليه عندما قدم إلى معسكره ، فامتنع أهل فاس داخل أسوارهم ، وقدموا على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتى ، فحاصروهم ميسور زهاء سبعة شهور ، ثم صالحهم على أن

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ - ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٨٣ - سعد

زغلول ، المرجع السابق ص ٢٢٣

يبايعوا للقائم بالله ، ويسجلوا اسمه في السكة . وأقر ميسور عليهم حسن اللواتي ، ثم رحل إلى المهديّة (١) .

وفي سنة ٣٢٣ هـ بعث القائم بأمر الله عسكريا إلى برقة بقيادة قائد زيدان ، وعامر المجنون ، وأبي زرارّة ، وانضم إلى هذا العسكر جماعة من الجنود الكتامين المرابطين ببرقة ، ولكن هذا الجيش انهزم على أيدي قوات الإخشيد . أما الثورة الكبرى التي كانت تشعل خطرا حقيقيا على كيان الدولة الفاطمية ، فهي ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الزناتى ، وقد شغلت عصر القائم بالله كله ، وعامين من عهد ابنه أبي العباس إسماعيل المنصور ، أى أنها استغرقت نحو ١٤ سنة ، ومما يدل على خطورة هذه الثورة ، وأهميتها القضاء عليها بالنسبة للدولة الفاطمية أن إسماعيل المنصور سجل انتصاره على أبي يزيد بإنشاء مدينة المنصورية في سنة ٢٣٧ هـ (٢) .

ب - ثورة أبي يزيد مخلد :

١ - المرحلة الأولى (٢٢٢ - ٣٣٢ هـ)

صاحب هذه الثورة هو أبو يزيد مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد من قبيلة يفرن الزناتية (٣) ، وكان أبوه كيداد من أهل توزر ، وكان يشتغل بالتجارة بين بلاد السودان وإفريقية (٤) ، ومن المعروف أن قوافل التجارة كانت تمر في العادة بمدينة ورجلان ، وكان سكان

(١) البكرى ، ص ١٢٨ - القلقشندي ، ج ٥ ص ١٨٤ - السلاوي ، ج ١ ص ١٨٩

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، مادة المنصورية

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٠٧ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠٢

(٤) بن خلدون ، ج ٤ ص ٨٤

ورجلان من الإباضية وأكثرهم من أهل تاهرت الذين رحلوا عنها بعد سقوط تاهرت في أيدي الفاطميين ، واستقروا في ورجلان . ولد أبو يزيد مخلد بالسودان من جارية هوارية ، فأتى به أبوه إلى توزر ، فنشأ بها وتعلم القرآن منذ طفولته في نقطة ، ثم انصل بالإباضية النكارية أنباع ابن فندين الذين أنكروا إمامة عبد الوهاب بن رستم ، فمال إلى مذهبهم وأخذه ، ثم رحل إلى تاهرت مركز الإباضية في العهد الأخير من الدولة الرستمية ، فأقام بها مشغلا بتعليم الصبيان . فلما استولى أبو عبد الله الشيعي على تاهرت سنة ٢٩٦ هـ ، رحل منها إلى تقيوس من مدن قسطنطينية الكبار ، فاستقر به المقام هناك أيام عبيد الله المهدي ، واشترى ضيعة ، واستمر يشتغل بتعليم الصبيان القرآن والعلوم الدينية ، وأخذ يدعو هناك إلى تكفير الشيعة واستباحة الأموال والدماء ، والخروج على سلطان الفاطميين الذين انحرفوا عن مبادئ الإسلام بسبهم لأبي بكر وعمر ، ووجد من الناس تجاوبا معه ، فقد ضاقوا ذرعا بتشدد الفاطميين عليهم في تطبيق المذهب الاسماعيلي ، ثم اتجه في دعوته منذ سنة ٣١٦ هـ إلى تغيير المنكر ، فكثر أتباعه ، وقوى حزبه ، فلما توفي عبيد الله المهدي خرج من تقيوس لنشر دعوته للإباضية على مذهب النكارية ، ورحل إلى جبل أوراس الذي كان معقلا للثورات طوال عصور التاريخ . فانضم إليه عدد هائل من البربر الساخطين على الحكم الفاطمي ، فتلقب بشيخ المؤمنين . وكان من الطبيعي أن يعتمد في ثورته على إحدى الشخصيات المناهضة للفاطميين ، فلم يجد خيرا من الاستناد على عبد الرحمن الناصر الذي كان له أنصار عديدين في المغرب ، فاجتذب بذلك الأنصار والأتباع من البربر (٣) .

٢ - المرحلة الثانية (٣٣٢ - ٣٣٣ هـ)

لما عظم أمره، واستفحل خطره، وأحس بقوته جاهر بهدائه للفاطميين سنة ٣٣٢ هـ، ثم « هبط من جبل أوراس يدعو الحق بزعمه، ولم يعلم الناس مذهبه، فرجوا فيه الخير والقيام بالسنة، فخرج على الشيعة، ودخل إفريقية » (١). واشتد أمره حتى أن القائم اضطر إلى الفرار أمامه من رقادة، وأقام في المهديّة، وسير إليه عامل مدينة باغاية، فزحف إليه أبو يزيد في جموع كثيرة من البربر، ودارت الموقعة بالقرب من باغاية، فانتهت بهزيمة جيش القائم وتراجعها، فزحف أبو يزيد على أثر انتصاره إلى باغاية وحاصرها. ولما طال الحصار، أثر أن يترك على حصارها جماعة من قبائل بنى زناتة بضواحي قسنطينة، فحاصروها في سنة ٣٣٣ هـ، أما هو فمضى إلى تبسة فافتتحها صلحا، ثم افتتح مجانة كذلك وهدم سورها، واستولى بعد ذلك على مرماجنة، وأهدى إليه رجل من أهل مرماجنة جمارا أشهب اللون، فكان يركبه، ولذلك سمى بصاحب الحمار، وكان يلبس جبة من الصوف ضيقة الكمين (٢). وزحف أبو يزيد إلى الأربس، فانهزمت عنها حاميتها الكتامية، ولم تلبث أن سقطت الأربس في يده، فأحرقها ونهبها، وقتل من لجأ من أهلها إلى المسجد الجامع، ثم وجه عسكرا إلى سببية فافتتحها، وقتل عاملها. وكان لابد للقائم أن يعمل على إيقاف هذا السيل المدمر، فجهز الجيوش، وبعثها إلى رقادة والقيروان بقيادة ميسور الفتى، كما سير عسكرا بقيادة بشرى الفتى إلى باجة، فزحف إليه أبو يزيد، وهزم

(١) ابن عذارى، ج ١ ص ٣٠٧

(٢) ابن الأثير، ج ٦ ص ٣٠٣ - ابن خلدون، ج ٤ ص ٨٥

قوات بشرى في باجة ودخلها ، وأحرقها ، وقتل من بها من الأطفال ، وسبى النساء . واجتمعت إليه هناك حشود كثيفة من البربر ، وكان بشرى قد لجأ إلى تونس ، فثار عليه أهلها ، فقر بنفسه ، وتمكن أبو يزيد من دخول تونس ، وأمن على أهلها ، واستخلف عليها أحد أتباعه ، ثم مضى نحو القيروان . ولم يسكت القائم على هذه الهزائم المتوالية ، فسير بشرى في جيش من الكتامين لمحاربة أبي يزيد ، وتمكن بشرى في هذه المرة من التغلب على قوات أبي يزيد ، وقتل منهم نحو أربعة آلاف ، وجيء بأسراهم وعددهم نحو خمسمائة إلى المهدية ، حيث قتلهم العامة (١) . غضب أبو يزيد لهذه الهزيمة ، فسار في جيوش مجتمعة ، وعدتها نحو ٢٠٠ ألف مقاتل ، لمقاتلة الكتامين ، فهزم طلائعهم ، فانسحب الكتاميون إلى القيروان ، فطاردهم أبو يزيد إليها . ورأى أن يبدأ بالاستيلاء على رقادة ، وكان عاملها خليل ابن إسحق ينتظر وصول ميسور التي لنجدته ، ولكن أبا يزيد لم يمهله ، فهزمه ودخل رقادة ، فعاث فيها ، ووجه من هناك أحد رجاله وهو أيوب الزويلي في عسكر إلى القيروان ، فدخلها في صفر سنة ٣٣٣ هـ ، ونهبها . ثم قدم أبو يزيد إلى القيروان ، فخرج إليه شيوخ القيروان ، فأمنهم ، ورفع النهب عنهم ، وأظهر الخير لأهلها ، وترحم على أبي بكر وعمر ، «ودعا الناس إلى جهاد الشيعة ، وأمرهم بقراءة مذهب مالك . فخرج الفقهاء والعلماء في الأسواق بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى أصحابه وأزواجه ، حتى ركزوا بنودهم عند الجامع ، فلما كان يوم الجمعة اجتمعوا بالمسجد الجامع ، وركبوا مع أبي يزيد بالسلاح ومعهم البنود والطبول ، منها بندان

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٤ - ابن خلدون ص ٨٦

أصفران مكتوب في أحدهما البسملة ومحمد رسول الله ، وفي الآخر : نصر من الله وفتح قريب ، على يدى الشيخ أبي يزيد . اللهم انصر وليك على من سب أولياءك ، وبند آخر مكتوب عليه : قاتلوا أئمة الكفر ، الآية ، وبند آخر فيه مكتوب : قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصرهم عليهم ، وبند آخر مكتوب فيه ، البسملة أيضا : محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق ، عمر الفاروق . وبند آخر وهو السابع عليه ما يلى : (لا إله إلا الله . إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) ، فلما اجتمع الناس وحضر الإمام وطلع على المنبر ، خطب خطبة أبلغ فيها ، وحرّض الناس على الجهاد ، وأعلمهم بما لهم فيه من الثواب . ثم لعن عبيد الله ، وابنه ، ثم خرج الناس معه لقتال الشيعة (١) . وكانت جيوش ميسور التى قد قدمت لمحاربة أبي يزيد ، فالتحذل عنه بنو كملان ، وانضموا إلى أبي يزيد ، فخرج أبو يزيد للقائهم ، واشتبك الجيشان في معركة رهيبة بوادى الملح أسفرت عن هزيمة ميسور ، وقتله جماعة من بنى كملان ، وجاؤوا برأسه إلى أبي يزيد ، فأمر بأن يطاف به فى القيروان (٢) ، وأصبح أبو يزيد متغلبا على معظم إفريقية . فلما بلغت القائم أنباء هزيمة ميسور ومصرعه ، تاهب للحصار ، فأمر بحفر الخنادق حول المهدية ، والاستعداد لحصار طويل الأمد ، فشحن المدينة بكل ما يلزمها من مؤن وأقوات . وأقام أبو يزيد سبعين يوما فى مخيم ميسور بث خلالها السرايا فى كل نواحي إفريقية ، فافتتح سوسة عنوة ، وخرب عمران

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٣٠٨ ، ٣٠٩

(٢) المرجع السابق ص ٣١٠ — ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ٣٠٤ — ابن خلدون ، ج

إفريقية ، ثم زحف بجيوشه إلى المهدية لحصارها ، وعندئذ استنجد القائم بيزري ابن مناد الصنهاجي زعيم قبيلة صنهاجة البربرية الموالية للفاطميين ، وقد كان لذلك أثر كبير في تغيير مصير المعركة لصالح الفاطميين ، ويذكر الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي أن هذا الانضمام « راجع إلى عداة تقليدي قديم بين صنهاجة وزناتة التي تناصر أبا يزيد ، فالحرب في ظاهرها كانت بين خوارج وشيعة ، ولكنها في باطنها بين أهل البداوة والرحل أو البربر البتر ومنهم زناتة ، وبين أهل الزراعة والاستقرار أو البربر البرانس ومنهم صنهاجة » (١).

٣ - المرحلة الثالثة (٣٣٣ - ٣٣٤) :

نزل أبو يزيد على بعد ١٥ ميلا من المهدية ، وأخذ يشن الغارات على أطرافها ونواحيها ، فانتهب ماحولها من القرى ، ودمر ما صادفه من عمران ، واصطدم في هذه الأثناء بعسكر الكتاميين ، فهزمهم ، ولكن وصول زيري ابن مناد في جموع صنهاجة حول مجرى الأحداث ، فرجحت كفة الفاطميين ، وبدأت الهزائم تتوالى على عسكر أبي يزيد ، فاضطر إلى حفر خندق حول معسكره ، وبعث في طلب النجدة ، فاجتمع إليه حشد هائل من بربر نفوسة والزاب وأقصى المغرب ، وكان من جملة من انضم إليه محمد بن خزر الزناتي ، فضيق الخناق على المهدية ، وزحف إليها في آخر جمادى الثانية ، ولكنه عجز عن اقتحامها ، وانهمز أمامها ، فاضطر إلى الكتابة إلى عامل القيروان يستمده ، فأمدّه بعسكر كثيف زحف بهم للمرة الثالثة في آخر رجب سنة ٣٣٤ ، ولكنه انهزم في هذه المرة أيضا ، وأيسد قسم كبير من

(١) مختار العبادي ، سياسة الفاطميين ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤

جيشه أثناء المعركة . وفي آخر شوال ، زحف للمرة الرابعة للهجوم على المهديّة ، ولكن نتيجة المعركة في هذه المرة لم تكن أحسن من المرات السابقة ، إذ انهزم هزيمة مخزية ، ورجع إلى معسكره مكتفيا بمحاصرة المهديّة .

واشتد الحصار على أهل المهديّة حتى أكلوا الدواب والميتة ، وخرج أكثر السوق والتجار من المهديّة ، ولم يبق بها غير الجند ، وكان كل من خرج من المهديّة وقع في أيدي البربر ، وأخذوا ماله ، وشقوا بطنه طلبا للذهب (١) . فاضطر القائم إلى فتح الأهراء التي كان المهدي قد أقامها في المدينة ، ووزع ما فيها من حبوب على رجاله (٢) . ويبدو أن بطنا من بطون كتامة الضاربة في المغرب الأوسط تاهب للمجيء إلى المهديّة ، وعسكرت قواته في قسنطينة ، فسير إليهم أبو يزيد عسكريا من ورفجومة وغيرهم ، فهزموا الكتامين ، واجتمع إلى أبي يزيد عقب ذلك حشد كبير من البربر من كل ناحية ، فحاصر مدينة سوسة التي كانت قد خرجت عليه (٣) . ويغلب على الظن أن سياسة أبي يزيد القائمة على تفضيل فريق من أبناء البربر على فريق آخر أغضبت جماعات كبيرة منهم ، فانقضوا عنه ، ولم يبق معه سوى هواره وأوراس وبنى كملان ، وثار عليه أهل القيروان ، وأعلنوا طاعتهم للقائم ، وكان علي بن حمدون في هذه الأثناء يث الغارات على المدن التابعة لأبي يزيد ، فهزم هواره ، وتغلب على مدينتي تيجس وباغاية (٤) .

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٠٥

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٠٥ — ابن خلدون ج ٤ ص ٨٨

(٣) المرجع السابق — ابن خلدون ج ٤ ص ٨٨

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٨٩

وفي جمادى الآخرة اتجه أبو يزيد إلى سوسة لمحاصرتها ، وبينما كان يحاصرها توفي القائم بالله ، وخلفه ابنه أبو الطاهر اسماعيل الملقب بالمنصور ، فكنتم موت أبيه حرصا على ألا يطلع عليه أبو يزيد وهو يحاصر سوسة ، فلم يغير الوضع عما كان عليه قبل وفاة أبيه .

٤ - المرحلة الرابعة (٣٣٤ - ٣٣٦ هـ) :

اشتد حصار أبي يزيد على سوسة ، فبعث اسماعيل المنصور الأساطيل من المهديّة إلى سوسة مشحونة بالمدد من المقاتلة والامّعة والميرة مع رشيق الكاتب ويعقوب بن اسحق ، فلما وصلت المأون والاقوات إلى سوسة ، تقوى أهلها بالمدد ، وخرجوا مع عسكر المنصور لقتال أبي يزيد فهزموه ، واستباحوا معسكره نهبا وحرقا ، ففر إلى القيروان ، فمنعه أهلها من الدخول ، وثاروا بعامله عليها ، فخرج إليه ، ورحلوا إلى سببية في أواخر شوال سنة ٣٣٤ (١) . وقدم المنصور على أثر ذلك إلى القيروان ، وأمن أهلها ، وأبقى على حرم أبي يزيد وأبنائه ، فأحسن إليهم .

ولما علم أبو يزيد بدخول المنصور القيروان قدم على رأس جيش كبير لمهاجمة المنصور ، فهزمه المنصور أولا ، ثم انتصر أبو يزيد ، وظل العسكران يتبادلان النصر والهزيمة حتى حل شهر محرم سنة ٣٣٥ هـ ، والقتال متواصل ، فبعث أبو يزيد يطلب من المنصور حرمه وأولاده ، فبعثهم بعد أن اشترط عليه أن يرحل عن القيروان ، فلما وصلوا إليه نكث بوعده ، وقاتل المنصور في ٥ محرم سنة ٣٣٥ هـ وهزم جيشه . وأمام هذه الهزيمة عبأ المنصور

(١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٣٠٨ - ابن خلدون ج ٤ ص ٩٠

عسكرا جرارا في منتصف محرم ، واشتبك مع أبي يزيد في معركة ضارية انهزم فيها أبو يزيد هزيمة شنعاء ، وسحق عسكرة سحقاً ، فبلغ عدد القتلى من قواته عشرة آلاف ، وتعرف هذه الواقعة بواقعة يوم الجمعة ، وفر أبو يزيد مع من بقى من رجاله إلى باغاية ، فمنعه أهلها من الدخول فيها ، فأقام يحاصرها (١) . وعندئذ خرج المنصور في ربيع الأول سنة ٣٣٥ لمطاردته بعد أن استخلف على المهديّة مرام الصقلي ، وأدرك أبا يزيد وهو يحاصر باغاية ، ففر أبو يزيد وجيوش المنصور تلاحقه من حصن إلى حصن ، فلما نزل المنصور مدينة طبنة بالزاب جاءته رسل محمد بن خزر أمير مغراوة تعلن خضوعها إليه ، وانضمامها إلى جانبه ، وما زال أبو يزيد يتراجع من موضع إلى آخر حتى سلك الأوطار والمضايق ، وأصاب رجاله الجهد والإرهاق ، ولم يبق أمامه إلا المغازة المؤدية إلى السودان . وكان المنصور قد اعتل أثناء مطاردته لأبي يزيد ، فانتهاز أبو يزيد هذه الفرصة وسار إلى المسيلة (مدينة المحمدية) وحاصرها ، فلما أبل المنصور من مرضه رحل في أول رجب سنة ٣٣٥ ، لاستئناف مطاردة أبي يزيد ، فرفع أبو يزيد الحصار عن المسيلة ، وأوغل في الجنوب بقصد الالتجاء إلى بلاد السودان ، فأبي بنو كلان مسابرتة ، وأرغموه على العودة إلى جبال كتامة وعجيسة ، فتحصنوا بها (٢) ، فعزم المنصور على محاربتهم ، فانهزم أبو يزيد هزيمة نكراء ، وقتل من رجاله ما يزيد على عشرة آلاف ، وفر هذه المرة وهو ممخن بالجراح إلى قلعة كتامة ، فحاصرها المنصور حتى افتتحها ، وأضرم النيران في الشعراء

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠٨ = ابن خلدون ج ٤ ص ٩١

(٢) نفس المرجع — ابن خلدون ص ٩٢

المحيطة بالقصر حتى يضيء ماحوله ، فينكشف من حاول الفرار ، فقبض عليه ، وحمل إلى المنصور . وتوفي أبو يزيد بعد ثلاثة أشهر من هزيمته ، وذلك في محرم سنة ٣٣٦ هـ ، فأمر المنصور بسلخ جلده وحشوه تبنا .

وبوفاة أبي يزيد انتهت الثورة الكبرى التي صدعت دعائم الدولة الفاطمية في المغرب وكادت تقضى عليها . وقد سجل أبو الطاهر اسماعيل المنصور انتصاره على أبي يزيد ببناء مدينة صبرة المعروفة باسم المنصورية في سنة ٣٣٧ هـ لصق القيروان ، ولاتبعد عنها بأكثر من نصف ميل . فانتقل إليها ، واستوطنها ، ونقل إليها المعز لدين الله ابن المنصور أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات . وكان لصبرة خمسة أبواب : القبلي والشرقي وزويلة وكتامة (شمالي) والفتوح . ولما أعاد المعز بن باديس بناء سور القيروان سنة ٤٤٤ هـ ، جعل السور ممالي صبرة كالفصيل : حائطان يتصلان إلى مدينة صبرة ، وبينهما نحو نصف ميل ، ولا سبيل لتأجر ولا وارد أن يدخل القيروان إلا بعد جوازه على مدينة صبرة . وقد أثر بناء صبرة على عمران المهدية ، فخلت أكثر أرباضها ، وتهدمت وانحسر العمران عنها ^(١) .

(١) البكري ، ص ٢٥ — ابن عذاري ص ٣١٢ — معجم البلدان ، ج ٥ ص ٣٩١

(٣)

خلافة المعز لدين الله الفاطمي

١ - بسط نفوذ الفاطميين على المغرب الأقصى :

شغلت ثورة أبي يزيد الفاطميين عن بسط نفوذهم في بلاد المغرب الأقصى، فاستغل الأمويون بالأندلس هذه الفرصة، ومدوا نفوذهم على طول الساحل الإفريقي حتى الجزائر، كما أقاموا قواعد عسكرية في الثغور المطلة على جبل طارق مثل طنجة وسبتة ومليلة^(١). ونجح الخليفة عبد الرحمن الناصر في اجتذاب رؤساء البربر من زناتة ومغراوة، فانضموا تحت لوائه.

ولما تولى أبو تميم محمد الملقب بالمعز لدين الله الخلافة الفاطمية في سنة ٣٤١ هـ، كان سلطان الفاطميين يمتد في المغرب الأوسط حتى إيفكان الواقعة فيها وراء تاهرت، وكان يتولى تاهرت من قبله يعلى بن محمد اليفرني، كما كان يتولى أشير وأعمالها زيري بن مناد الصنهاجي، والمسيلة جعفر بن علي الأنديلسي، وباغاية قيصر الصقلي. وإلى زيري يرجع الفضل في بناء مدينة أشير عندما استقل بولاية الزاب سنة ٣٢٤ هـ، كما جدد بناء مدينة مليانة القديمة وأسكنها ابنته بلكين، وبني مدينة جزائر بني مزغنة والمدية^(٢). أما جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأنديلسي، فقد خلف أباه على المسيلة والزاب كله، وظل مقياً عليها إلى أن خرج عنها في سنة ٣٦٠ هـ في فتنة

(١) مختار العبادي، سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس، ص ٢٠٤.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص ٦٣ حاشية رقم

زيري^(١). أما فاس فكان يليها من قبل المعز أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامي، فخرج أهل فاس على المعز، وبايعوا لعبد الرحمن الناصر، فولى عليهم محمد ابن الخير المغراوي الذي أقام على ولايتها عاما واحدا ثم ارتحل إلى الأندلس للجهاد، واستخلف على فاس ابن عمه أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن عثمان الزناتي^(٢). كذلك خرج على المعز يعلى بن محمد اليفرنى سنة ٤٤٧ هـ، ونقض طاعة الشيعة، وبايع لعبد الرحمن الناصر^(٣). فغضب المعز لخروج المغرب الأقصى من طاعته، وانضوائه إلى الخلافة الأموية بالأندلس. فسير جوهر الصقلي على رأس جيش كثيف إلى المغرب لإعادة النفوذ الفاطمي على بلاد المغرب الأقصى. وخرج مع جوهر جعفر بن علي صاحب المسيلة، وزيري بن مناد أمير أشير. ونجح جوهر في الإيقاع بعلی بن محمد اليفرنى، وخرب إيفكان، ومضى إلى فاس، ثم تجاوزها إلى سجلماسة، فاستولى عليها، وقبض على أميرها الشاكر لله محمد بن الفتح من بني واسول المدراريين، ثم عاد إلى فاس، وأحكم عليها الحصار، وتمكن زيري بن مناد من افتتاحها في سنة ٣٤٨ هـ^(٤). وبذلك نجح جوهر في مهمته، وأعاد النفوذ الفاطمي على القسم الأعظم من المغرب الأقصى. وفر كثير من أعداء الدولة الفاطمية إلى الأندلس، ومنهم بنو يعلى اليفرنى، وبقايا بني إدريس، ووفدا من برغواطة، على رأسهم الأمير أبو صالح البرغواطي رسولا من أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار، أمير برغواطة.

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٣٠٦

(٢) الجزنائي، ص ٣٦ - السلاوي ج ١ ص ١٩٧

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٩٦

(٤) ابن الأثير، ج ٦ ص ٣٥٤ - ابن خلدون، ج ٤ ص ٥٧

ب - استيلاء المعز على مصر ، وانتقاله اليها :

استطاع المعز ، بفضل جهود قائديه جوهر الصقلي وزيرى بن مناد الصنهاجى ، أن يمكن سلطانه من حدود طرابلس شرقا حتى المحيط الاطلسى غربا ، وكان فتح مصر أمنية خلفاء الفاطميين منذ أيام عبيد الله المهدي ، بعد أن استحال عليهم فتح الاندلس . وكانت مصر بالنسبة للفاطميين معقد آمالهم لثرائها ، وأهمية موقعها الجغرافى سياسيا وحربيا ، وقربها من بلاد الشام والحجاز . وازداد تطلعهم لفتحها بعد أن قضى اسماعيل المنصور على ثورة أبى يزيد . فلما خلفه المعز اشتدت رغبته فى فتحها ، ولكنه لم يشأ أن يقدم على ذلك قبل أن يؤمن ظهره من الأمويين وأنصارهم ، ويخضع بلاد المغرب الأقصى لسلطانه ، فلما تم له ذلك ، أخذ يتفرغ منذ عام سنة ٣٣٥ هـ لهذه المهمة ، ورأى أن يعزز جيشه بكل الوسائل حتى يضمن لنفسه النصر . وساعدته الظروف السياسية فى العالم الإسلامى وقتئذ على نجاحه فى فتح مصر . فقد كانت أمور مصر قد انتهت بعد وفاة محمد بن طنجج الإخشيد سنة ٣٣٤ هـ إلى الضعف ، وعلى الرغم من استبداد كافور بالحكم دون ولدى الإخشيد ، ونجاحه فى إخماد الثورات ، فانه لم ينجح فى تحسين الأحوال الاقتصادية بمصر ، ففى سنة ٣٥٢ هـ ، قصر النيل فى فيضانه ، وحدث بمصر غلاء شديد ، نتجت عنه مجاعة ظلت تسع سنوات ، قاسى المصريون خلالها الشدائد ^(١) ، وساءت أوضاع مصر بعد وفاة كافور سنة ٣٥٧ هـ ، وانتشرت بها الفوضى والاضطراب وعظم فيها الغلاء ^(٢) . وفى ذلك يقول

(١) جمال الدين الشيال ، مصر فى العصر الفاطمى ، ص ٤٢٩

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٩٩

المقرئى : « وكثر الاضطراب ، وتعددت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بين الجند والامراء قتل فيها خلق كثير ، وانتهبت أسواق البلد ، وأحرقت مواضع عديدة ، فاشتد خوف الناس ، وضاعت اموالهم ، وتغيرت نياتهم ، وارتفع السعر ، وتعذر وجود الاقوات حتى بيع القمح كل وية بدينار ، واختلف العسكر ، فلاحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طغج ، وهو يومئذ بالرملة ، وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمى ، وعظم الارجاف بمسير القرامطة إلى مصر » (١) . وبالإضافة إلى ذلك كانت ظروف الدولة العباسية قد ساءت إلى درجة كبيرة ، وكثرت الفتن في بغداد بين بختيار بن معز الدولة ، وابن عمه عضد الدولة ، وشغلت بغداد بهذه الفتن عن الاهتمام بشؤون مصر (٢) . يضاف إلى ذلك ان دعاة الشيعة الإسماعيلية في مصر نجحوا في اجتذاب عدد كبير من المصريين إلى هذا المذهب . وهكذا كان الجو في مصر مهيأ للغزو الفاطمى ، فلم يتردد المعز في تعبئة كل طاقاته وإمكاناته لغزوها ، وبدأ منذ سنة ٣٥٥ هـ يتأهب لفتح مصر ، فجمع الأموال الوفيرة ، وكتب إلى عمال برقة لحفر الآبار في الطريق من إفريقية إلى برقة ، وإقامة المنازل على رأس كل مرحلة من هذا الطريق . فلما اجتمعت له حشود كتامة ، وتمت كافة الاستعدادات للسير ، خرج جوهر الصقل على رأس جيش عدته نحو مائة ألف من البربر في ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٥٨ هـ (٣) ، في طريقة إلى مصر . ووصل جوهر إلى الاسكندرية

(١) المقرئى ، الغائة الأمانة بكشف الغمة ، نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة ،

والدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠ م ١٢ ، ١٣

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٩٩

(٣) جمال الدين الشيال ، مصر في العصر الفاطمى ، ص ٤٣٠

فخرج إليه وفد من القضاة والتي به في تروجة، فأجابهم إلى ملتصقهم، ودخل الاسكندرية دون مقاومة (١). وتقدم جوهر نحو الفسطاط، فاستعد الإخشيدون والكافورية لقتاله، والتقى الجيشان بالقرب من الفسطاط: جيش الإخشيدية بقيادة تحرير الأرغلي، وبين الطويل، والجيش الفاطمي بقيادة جوهر، وانتهت الموقعة بانتصار جوهر. وزال بذلك سلطان الإخشيديين والعباسيين عن مصر، وأصبحت مصر ولاية فاطمية. ودخل جوهر الفسطاط في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ، ثم إنه نزل بعسكره إلى الشمال الشرقي من الفسطاط، في الموضع الذي اختط فيه مدينة القاهرة، وهناك وضع أسس هذه المدينة العظيمة التي قدر لها أن تزعزع العالم العربي حتى يومنا هذا، وبدأت أعمال الإنشاء في سرعة عظيمة، فلم يمض عامان حتى كان جوهر قد انتهى من تأسيس القاهرة، وبناء جامعها المعروف بالأزهر (٢).

وقبل أن يرحل المعز لدين الله إلى عاصمته الجديدة أراد أن يبقى على النفوذ الفاطمي في بلاد المغرب مع أنه كان يدرك أن استمرار هذا النفوذ لن يدوم طويلاً، لما كان يعرفه من شدة مراس البربر، وطبيعتهم الثورية. ويرى الدكتور مختار العبادي أنه رأى أن خير وسيلة للاحتفاظ بتبعية المغرب للفاطميين أن يعمل على إضعافه، بإثارة الفرقة والتنافس بين قبائله حتى تظل في حروب متواصلة، ولا يفكر أهل المغرب في الخروج من

(١) المقرئ، اتعاظ الحنفا ص ١٤٧ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الاسكندرية

وحضارتها في العصر الاسلامي، الاسكندرية ١٩٦١ ص ٥٦

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المغرب الإسلامي ص ١١٣

طاعة الفاطميين (١) . فاستخلف لذلك أبا الفتوح يوسف بن زيري بن مناد
المهتاجي على إفريقية ، ومضى إلى مصر بأمواله ورجاله ، وحمل توابيت
آبائه وأجداده ، ودفنهم بقصره في القاهرة .

(١) مختار العبادي ، سياسة الفاطميين ، ص ٢٠٩

الفصل التاسع

المغرب الأدنى والأوسط في ظل بني زيري

وبني حماد الصنهاجيين

(١) أمراء بني زيري منذ قيامهم بأمر المغرب حتى استقلال الحماديين بالمغرب الأوسط

- أ - دولة أبي الفتوح يوسف بن زيري
- ب - دولة أبي الفتح المنصور بن بلكين
- ج - دولة نصير الدولة باديس بن أبي الفتح المنصور
- د - انقسام دولة الصنهاجيين

(٢) علاقة الصنهاجيين بالخلافة الفاطمية بمصر

- أ - الدور الأول من انفصال بني زيري عن الخلافة الفاطمية بمصر
- ب - الدور الثاني
- ج - الدور الثالث
- د - الدور الأخير

(٣) انتقام المستنصر بالله الفاطمي: غزو عرب الهلالية وبني سليم لبلاد المغرب

- أ - دخول قبائل بني هلال وبني سليم في أرض المغرب
- ب - هزيمة جيوش المعز علي أيدي العرب

ج - نتائج غزو الهلالية للمغرب

(٤) استيلاء النورمانديين على المهديّة

أ - غارات الزيريين على سواحل إيطاليا وصقلية وآثارها

ب - سقوط المهديّة في أيدي النورمانديين .

(٥) انقراض دولة بني حماد

الفصل التاسع

المغرب الأدنى والأوسط في ظل بني زيري وبني حماد الصنهاجيين

(١)

أمراء بني زيري منذ قيامهم بأمر المغرب حتى استقلال الحماديين
بالمغرب الاوسط .

١ - دولة أبي الفتوح يوسف بن زيري :

ذكر المقرئ أن المعز قبل رحيله إلى مصر استقدم جعفر بن علي بن حمدون ، وعرض عليه أن يتولى إمارة المغرب نيابة عنه ، ولكن جعفر اشترط عليه لقبول هذا المنصب شروطا تتيح له الاستقلال الداخلي ، وقال له : « تترك معي أجد أولادك أو إخوتك يجلس في القصر وأنا أدبر ، ولا تسألني عن شيء من الأموال ، لأن ما أجبيه يكون بازاء ما أنفقه ، وإذا أردت أمر فعلته من غير أن أنتظر ورود أمرك فيه ، لبعد ما بين مصر والمغرب ، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره إلى » . فغضب المعز ، وقال : « يا جعفر ، عزلتني عن ملكي ، وأردت أن تجعل لي فيه شريكا في أمري ، واستبددت بالأعمال والأموال دوني ، قم فقد أخطأت حظك ، وما أصبت رشدا » ، ثم أقصاه عنه ، واستقدم بلكين بن زيري بن مناد ، وعرض عليه ولاية المغرب ، ولكن بلكين قال له : « يا مولانا ، أنت وآباؤك الأئمة من ولد الرسول (صلعم) ما صفا لكم المغرب ، فكيف

يصنفوني ، وأنا صنهاجى بربرى ؟ قتلتنى يامولانا بغير سيف ولا رمح » (١) . وما زال به المعز حتى قبل ولاية المغرب نيابة عنه ، فولاه أمر إفريقية والمغرب ماعدا صقلية التى كان يتولاها بنو أبى الحسين الكلبي ، وطرابلس التى كان يتولاها عبد الله بن يحنف الكتامى ، وسمى بلكين يوسف ، وكناه أبا الفتوح ، ولقبه سيف العزيز بالله (٢) ، ووصله بالخلع والأكسية الفاخرة . ثم توجه المعز إلى قابس وقال لبلكين وهو يودعه : « إن نسيت شيئا من أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : لاترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحدا من إخوتك وبنى عمك ، فانهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك ، واستوص بالحضر خيرا » (٣) . وعهد إليه بأن يشرع فى غزو المغرب الأقصى لحسم دائه ، والقضاء على النفوذ الأموى منه (٤) . أثارت تولية بلكين إمارة المغرب غيرة منافسه جعفر بن على بن حمدون أمير الزاب ، فشق على الفاطميين عصا الطاعة ، ورحل إلى الأندلس ، ملتجئا عند الحكم المستنصر ، كما ثارت عليه قبيلة زناتة القائمة بدعوة المروانيين فى الأندلس ، وخرج عليه أهل تاهرت .

فسار على رأس جيش كبير إلى تاهرت ، فدخلها وخربها ، ثم مضى إلى تلمسان ليقضى على جموع الزناتيين ، فحاصرها ، ودخلها . وعاد إلى

(١) المقرئى ، انعاظ الحنفى ، ص ١٤٣ - المقرئى ، الخطط ، طبعة بيروت ، مجلد

٢ ص ١٥٨

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٣١٧ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٦٥

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ٢٦٣ - ابن خلدون ج ٦ ص ٣١٨ - ابن الخطيب ، ص ٦٥

(٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣١٨

القيروان بعد أن وصله كتاب من المعز يشم-اه عن التوغل في المغرب ، وفي سنة ٣٦٧ هـ عقد له العزيز بالله ولاية طرابلس وسرت وأجدابية زيادة على ولاية المغرب ، فاستخلف بلكين عليها يحيى بن خليفة الملياني (١) ، واستفحل ملك بلكين بما أصبح له من ولاية طرابلس وبرقة ، فخرج في هذه السنة لغزو المغرب الأقصى عندما بلغه أن خزرون بن فلفل بن خزر الزناتي قد زحف سنة ٣٦٦ هـ إلى سجلماسة في جيش كثيف وقتل أبا محمد المعز بالله من أولاد الشاكر لله المدراري ، واستولى على سجلماسة ، وبعث برأس المعز إلى قرطبة (٢) ، وبدأ أبو الفتوح بلكين بحصار سبتة ، فاستعصت عليه لمناعتها ، فتركها إلى فاس ، فاستولى عليها في سنة ٣٦٨ هـ ، وقتل عاملها محمد بن أبي علي بن قشوش ، وعبدالكريم بن ثعلبة ، واستعمل على فاس محمد بن عامر المكناسي . ثم افتتح سجلماسة ، وقبض على ابن خزر أمير مغراوة وقتله ، ففر ملوك زناتة أمامه ، ومنهم بنو يعلى بن محمد اليفرني ، وبنو عطية بن عبد الله بن خزر ، وبنو فلفل بن خزر ، ويحيى بن علي بن حمدون صاحب البصرة ، إلى سبتة ، واستنجدوا بالمنصور بن أبي عامر (٣) . فطاردهم أبو الفتوح بلكين إلى سبتة مرة ثانية وحاصرها ، ولكنها استعصت عليه لخصائنها ، وصعوبة الوصول إليها إلا بالسفن ، فرجع عنها مرغما . ومضى إلى البصرة مركز يحيى بن علي بن حمدون فهدمها وخرب عمرانها ، وسار بعد ذلك إلى أصيلا ، ومنها إلى شالة مركز برغواطية ،

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٢٩

(٢) نفس المرجع - ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٣

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣١٩

فغزاهم ، وقتل أميرهم ابن عيسى ، وسبى من نساءهم وذراريهم أعدادا
كبيرة (١) .

وتوفي أبو الفتوح في سنة ٣٧٣ هـ في طريق عودته إلى إفريقية وذلك
في بلدة وارلنغو الواقعة بين سجلماسة وتلمسان .

ب - دولة أبي الفتح المنصور بن بلكين :

كان واليا بأشير عندما بلغه خبر وفاة أبيه ، فخلفه على الإمارة في أوائل سنة
٣٧٤ هـ ، وقلده العزيز بالله أمر إفريقية والمغرب ، فعقد لعمه أبي البهار على
تاهرت ، ولأخيه بطوفت على أشير ، وبلغ المنصور أن زيري بن عطية
المخزومي المغراوي قد قام في المغرب ، واستولى على فاس وأصبح أمير زناتة
كلها ، وكان يدعو لبني أمية في دولة هشام المؤيد ، فأمر المنصور في سنة
٣٧٤ هـ أخاه بطوفت بالخروج على رأس جيش كثيف إلى مدينتي فاس
وسجلماسة لاستردادهما من الزناتيين ، فوصل إلى مدينة فاس ، وكانت
يقوم بولايتها زيري بن عطية الزناتي الملقب بالقرطاس (٢) . فلما علم زيري
بقبضه بادر بمهاجمته بمجموع الزناتيين ، وهزمه هزيمة شنعاء ، وقتل من
العنهاجيين عدداً كبيراً ، وقتل من رجال بطوفت قائدين هما ابن شعبان
وابن عامل ، وعادت فلول جيش بطوفت إلى تاهرت ومنذ ذلك الحين لم يحاول
المنصور معاودة الغزو إلى المغرب وزناتة . ولكن فريقاً من الزناتيين انضم
إلى المنصور بن بلكين ، ومنهم سعيد بن خزرون الذي قدم إلى المنصور في

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٤١ - ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٠

سنة ٣٧٩ هـ ، فولاه على مدينة طبنة ، وزوج ابنته من وروا بن سعيد (١) .
وظل سعيد بن خزرون عاملا على طبنة إلى أن توفي رجب سنة ٣٨٢ هـ ، فولى
المنصور ابنه فلقل بن سعيد على طبنة ، وأهداه ثلاثين حملا من المال ، وثمانين
تمختا من أنواع الكسي ، وخيلا بسروج محلاة ، وعشرة بنود مذهبة (٢) .

وفي عهد المنصور قامت ثورتان الأولى قام بها أبو الفهم الخراساني
الداعي سنة ٣٧٦ هـ ، وأيدته قبائل كتامة ، فحاربه المنصور ، وخرب بلاد
كتامة سنة ٣٧٨ هـ ، وتمكن من القبض عليه وقتله (٣) . والثانية ثورة أبي
البهار بن زيري في تاهرت سنة ٣٧٩ هـ ، فزحف إليه المنصور إلى تاهرت ،
ففر منها أبو البهار إلى المغرب حيث دخل في طاعة المنصور بن أبي عامر ،
فدخل عسكر أبي الفتح المنصور مدينة تاهرت ، وقتل من تصدى لهم من
أنصار أبي البهار . ثم أمنهم بعد ذلك ، وولى على تاهرت أخاه يطوفت ،
وعاد إلى أشير (٤) . ثم اختلف أبو البهار في فاس مع زيري بن عطية سنة
٣٨٢ هـ ، فعاد أبو البهار إلى قومه ، ووصل إلى المنصور في ١٥ شعبان
سنة ٣٨٣ هـ ، فرحب به المنصور ، وخاع عليه (٥) . وتوفي المنصور في
٣ ربيع الأول سنة ٣٨٦ هـ ، ودفن بقصره الجديد بظاهر المنصورية .

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٤٩

(٢) نفس المرجع ص ٣٥٣

(٣) نفس المرجع ص ٣٤٨

(٤) نفس المرجع ص ٣٤٩ — ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢١

(٥) نفس المرجع ص ٣٥٣ — ابن خلدون ص ٣٢١

ج - دولة نصير الدولة باديس بن أبي الفتح المنصور :

تولى إمارة إفريقية والمغرب الأوسط بعد وفاة أبيه ، وكان لا يتجاوز من العمر ١٢ سنة ، فأقر عمه يطوفت علي ولاية تاهرت ، وأقر عمه حماد علي ولاية أشير. ولما بلغ أمراء زناتة نبأ وفاة المنصور ، وولاية ابنه باديس ، استغلوا صغر سنه ، فزحف زيري بن عطية في جموع هائلة من زناتة سنة ٣٨٩ هـ إلى مدينة تاهرت ، وحاصره ، فكتب يطوفت بن يوسف إلى ابن أخيه باديس يستمده ، فبعث إليه جيشا يقوده محمد بن أبي العرب الكاتب ، فسار هذا الجيش إلى أشير وانضم إليه مسكر آخر ، بقيادة حماد بن يوسف ، ووصل الجيشان إلى تاهرت في أول جمادى الأولى سنة ٣٨٩ هـ ، وكان زيري بن عطية قد عسكر بجيش في موضع يقال له آمسار يقع قريبا من تاهرت ، فخرج الجيش الصنهاجي إليه ، وكانت معركة عنيفة في ٤ من جمادى الأولى ، انتهت بهزيمة الصنهاجين هزيمة مخزية ، وانسحب حماد ويطوفت مع ابن أبي العرب إلى أشير ، وتركوا محلاتهم ومضاربهم بما فيها من الأموال والسلاح ، واستولى عليها زيري بن عطية ودخل تاهرت (١).

ولما بلغ نصير الدولة باديس خبر هذه الهزيمة ، خرج لمحاربة زيري بن عطية في ٢ جمادى الآخرة سنة ٣٨٩ هـ ، فلما وصل طينة بعث في طلب فلقل ابن سعيد بن خزرون الزناتي ، فبعث يعتذر له ويسأله أن يكتب له سجلا بولاية طينة ، فكتبه له ، وبعث إليه ، ثم رحل باديس إلى أشير ، فانتهر فلقل فرصة رحيله عنه ، وأغار على ما حوله من النواحي. ثم واصل باديس زحفه حتى وصل إلى المسيلة ، فبلغه رحيل زيري بن عطية من تاهرت إلى

فاس ، فعاد إلى أشير ، ودخل عمه بطوفا تاهرت ، واستخلف عليها ابنه
أيوب في أربعة آلاف فارس . ووصلت الأنباء إلى باديس بما قام به فلفل
ابن سعيد ، فسير عسكريا من أشير لمحاربة فلفل ، ورحل هو بدموم معه أبو
البهار بن زيري ، فزلا بالمسيلة ، وبلغها أن ماكسن وزاوي ومغنين شقوا
عضا الطاعة على باديس في أشير ، وأنهم قبضوا على بطوفا ، فرحل أبو
البهار هاربا في بنيه ورجاله (١) . ويبدو أن باديس اتفق مع حماد على أن
يتولى هو أي باديس محاربة فلفل بن سعيد ، بينما يتولى حماد محاربة أعمامه بني
زيري ، فرحل باديس إلى إفريقية ، فعلم وهو ببلزمة أن فلفل قد تمادى
إلى القيروان ، فسار إلى باغاية في طلبه ، والتي معه في ١٠ من ذي القعدة
بالقرب من باغاية ، فانهزم فلفل وتراجع إلى جبل الحناش ، وقد قتل من
رجاله نحو سبعة آلاف (٢) .

ولم يكف نصير الدولة باديس بهذا الانتصار ، فخرج في سنة ٣٩٠ هـ
لمحاربة فلفل ، ففر فلفل متجها إلى الشرق لقلعة أنصاره ، وعاد نصير الدولة
إلى إفريقية . أما فلفل فقد مضى إلى طرابلس حيث دخلها واستوطنها
سنة ٣٩١ هـ .

أما حماد فقد ظل يحارب إخوته حتى تمكن أخيرا وبعد حروب طويلة
من قتل ماكسن بن زيري وولديه محسن وباديس في ٣ رمضان سنة
٣٩١ هـ (٣) . أما زاوي بن زيري وابنا أخيه ماكسن : حباسة وحبوس ،

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٣٦٠

(٢) نفس المرجع

(٣) نفس المرجع ص ٣٦١

فقد نجوا إلى جبل سبوة ، فنزلهم حماد أيا ما ، ثم عقد لهم السلم على أن يجزوا إلى الأندلس ، فعبروا الزقاق إلى ساحل الأندلس ، ولأذوا بعبد الملك ابن المنصور (١) . واستقبلهم عبد الملك بن المنصور سنة ٣٩٢ هـ أعظم استقبال ، ووصلهم بصلاته الجليلة ، ويذكر ابن بسام الشنتريني ، أنهم : « استقلوا ما وصلهم به عبد الملك على كثرتهم ، وما استقروا الدار إلا على قلعة ، ولا حمدوا معروفهم ، ولا لبسوا أعلى المراتب السلطانية إلا على ابتذال وعقرة ، ولا قطعوا أن المقام بالأندلس إلا بذكر الرحلة ، والتماس التسريح بكرة وعشية ، جهلا وفرط أنفة » (٢) وكان عبد الملك يرغب في رفع منزلة زاوى ابن زيرى وإخوته وعشيرته ، فولاه الوزارة ، فرفضها زيرى محتجاً بأن خطته لاعدو الحرب ، وأن أقلامه الرماح ، وصحائفه الأجساد (٣) . وقد اشترك زاوى بن زيرى وبنو ما كسن بن زيرى في الفتنة التي اشتغلت نيرانها بقرطبة بعد مقتل عبد الرحمن شنجول بن المنصور سنة ٣٩٩ هـ ، فأيدوا سليمان المستعين ضد المهدي محمد بن عبد الجبار ، فكافأ بنى زيرى بأن منحهم البيرة ، فاستأثر بنو حبوس بن ما كسن بامارة البيرة وغرناطة بعد أن رحل زاوى بن زيرى إلى إفريقية في سنة ٤٠٩ هـ (٤) ، وذلك بعد وفاة باديس (٥) ، فنزلها في دولة المعز بن باديس بعد أن ملك غرناطة نحو سبع

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٢

(٢) ابن بسام الشنتريني ، النخبة في محاسن أهل الجزيرة ، مجلد ١ قسم ٤ ص ٦١ ، القاهرة ، ١٩٤٥

(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٣٣٨

(٤) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ثالث ، ص ٦٨ — اللمعة البدرية في أخبار الدولة النصرية ، القاهرة ١٩٢٨ ص ٢٠

(٥) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٣٥٩

سنوات ، واستخلف عليها ابن أخيه حبوس بن ماكسن (١) . وظل بنو زيري يتوارثون ملك غرناطة حتى سنة ٤٨٣ هـ عندما خلع يوسف بن تاشفين أميرهم عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس (٢) .

ظل نصير الدولة باديس على وفاق مع عمه حماد إلى أن تحركت قبائل زناتة في سنة ٣٩٥ هـ في نواحي المسيلة وأشير ، فسير إليهم باديس عمه حماد ، فنازل زناتة وهزمها ، ثم نزل مدينة تيجس من أحواز قسنطينة (٣) . ثم نزل بأبي طويل وهي قلعة بأحواز قلعة حماد ومنفذها على الساحل وهناك اختط مدينة القلعة وشيد القصور (٤) . وأخذ حماد يعمل على الاستقلال عن باديس .

وأحس باديس بما يتأهب له حماد ، فأراد اختبار طاعته ، فكتب إليه طالبا أن ينزل عن عمل تيجس وقسنطينة ، فأبى حماد وأظهر الخلف (٥) .

د - انقسام دولة الصنهاجيين :

رأينا من قبل كيف بدأ حماد يعمل على الانفصال عن ابن أخيه ، فأسس مدينة القلعة ونزلها وجعلها مقرا له ، فأدرك باديس منه هذا الميل للاستقلال ، فأراد أن يختبر مدى ولائه له ، فأمره بالنزول عن عمل تيجس وقسنطينة لابنه (المنصور بن باديس) فأبى ، وأعلن استقلاله بهذه الولاية . فسير إليه باديس إبراهيم بن يوسف سيف الدولة بلكين أخا حماد ، في

(١) ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ص ٢٠

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٧٠

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٣

(٥) نفس المرجع

شوال سنة ٣٩٥ هـ ، لما كاد يصل إلى القلعة حتى انضم إلى أخيه حماد ، فاجتمعت كلمتها ، وخلعا أيديها عن الطاعة لباديس (١) ، بل إن حماد لم يكتف بذلك ، فأعلن نبذه لطاعة الفاطميين ، ودعا للخلفاء العباسيين في سنة ٤٠٠ هـ (٢) . عندئذ عزم باديس على محاربة عميه ، فرحل بعسكره متجها إلى قلعة حماد في المحرم سنة ٤٠٦ هـ ، وانضم إليه في طريقه إليها عزم ولفل فلبننا حسون بن سفون وماكسن بن بلكين ، وعدنان بن معلم ، في عدة من فرسان جيش حماد ، فخلع عليهم ، وأحسن إليهم ، وما زال نصير الدولة باديس بواصل سيره إلى أن وصل إلى تامديت ، فبلغه هناك وفاة ابنه المنصور عزيز الدولة ، فأقام بتامديت حتى ٦ من صفر ، ثم واصل سيره حتى وصل إلى المحمدية ، ومنها تابع سيره ، فعبر وادي شلف (٣) ، وهناك دخل في طاعته بنو توجين ، إذ كانوا ساخطين على حماد لقتله أميرهم دافلين (٤) . فسار باديس حتى قرب من جيش حماد وحشوده من زناته وغيرهم في العدو الأخرى من الوادي ، والتقى الجيشان في معركة انتهت بهزيمة حماد، وفراره إلى القلعة تاركا مخيماته ، فنهبا جنود باديس . ومات باديس في ٢٧ ذي القعدة سنة ٤٠٦ هـ .

واتفق الجند بعد وفاة باديس على مبايعة ولده المعز ، واستنابة ابن عمه كرامة بن المنصور حتى تتم مبايعة المعز البيعة العامة في المهديّة ، وتمت هذه

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٣٧٧ — ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٣

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٥١

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ٣٧٩

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٣

البيعة في ٢١ ذى الحجة سنة ٤٠٦ هـ ، وهو ابن ثمانى سنوات . واستغل حماد فرصة موت باديس فدخل المسيلة وأشير ، وحاصر باغاية ، وبلغ ذلك المعز ابن باديس ، فزحف اليه في سنة ٤٠٨ هـ ، فاضطر حماد إلى رفع الحصار عن باغاية واشتبك مع جيش المعز بن باديس في معركة عنيفة أسفرت عن هزيمة حماد ، وفراره إلى القلعة . ثم آثر حماد الصلح مع المعز ، فاشترط عليه المعز أن يبعث ولده إليه وتم الصلح بين المعز وحماد ، وبمقتضاه يستقل حماد بعمل المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت وما يفتح من بلاد المغرب . وعقد لابن حماد على طبنة والمسيلة ومقره ومرسى الدجاج وسوق حمزه وزواوة . وبذلك الصلح وضعت الحرب أوزارها ، وانقسمت دولة الصنهاجيين إلى دولتين : دولة آل المنصور بن بلكين أصحاب القيروان ، ودولة آل حماد بن بلكين أصحاب القلعة (١) ، ثم بجاية بعد ذلك (٢) .

ويعتقد الأستاذ جورج مارسيه في كتابه « المغرب الاسلامى والمشرق فى العصر الوسيط » أن هذا الاستقلال أمر طبيعى ، فقيام الدولة الحمادية جاء نتيجة طبيعية للحوادث ، إذ أن المناطق التى كان يحكمها بنو زيرى عند رحيل المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر ، وكانت تعد مهمة ثقيلة بالنسبة لبلكين ، وابنه المنصور ، لأنها كانت تضم المغربين الأدنى والوسط ، فاضطر المنصور إلى أن يعهد بولاية المغرب الاوسط إلى أخيه حماد بن بلكين ، وبطبيعة الحال طمع حماد فى هذه الولاية لنفسه . فلما حاول باديس استرجاع هذه الولاية ، اعترضه حماد وخرج عن طاعته وعن طاعة الخليفة الفاطمى

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٤

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٧٦

الحاكم بأمر الله في آن واحد، ويذكر ابن خلدون أن حمادا دعا للخلفاء العباسيين، وقتل الرافضة وأعاد ولايته إلى المذهب السني، وترحم على أبي بكر وعمر. ويذكر مارسيه أنه لو صبح ما ذكره ابن خلدون، لكان حماد هذا أول من أعلن انفصاله السياسي عن الخلافة الفاطمية في مصر، وأنه سبق في ذلك المعز بن باديس بنحو ثلاثين عاما حين شق عصا الطاعة على الخليفة المستنصر بالله الفاطمي^(١).

(٢)

علاقة الصنهاجيين بالخلافة الفاطمية

١ - الدور الأول من انفصال بنى زيرى عن الخلافة الفاطمية بمصر :

سادت العلاقات الودية بين الدولة الفاطمية فى مصر والدولة الصنهاجية فى إفريقيا فى إمارة أبى الفتوح يوسف بلكين بن زيرى . ولما توفى ، وخلفه ابنه أبو الفتوح المنصور أبدى ميلا صريحا إلى الانفصال الروحى والسياسى عن الخلافة الفاطمية ، وعبر عن ذلك بقوله لشيوخ القيروان ووجوه الناس ممن قدموا إليه لتمنيته بالإمارة : « إن أبى وجدى أخذنا الناس بالسيف قهرا ، وأنالا آخذهم إلا بالإحسان ، وما أنا فى هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، لأننى ورثته عن آبائى وأجدادى ، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير » (١) . فالمنصور يستنكر بهذا القول أن يتولى الإمارة بكتاب ، ويعزل بكتاب ، ويرى أن بلاد إفريقيا والمغرب ملك ورثه عن آبائه وأجداده ، وفى ذلك تلميح بتحديد له للعزير بالله الفاطمى .

ولاشك أن العزيز بالله قد غضب لهذا القول ، وأحس بما يعتمل فى نفس المنصور من نوايا الانفصال ، فعمل على إزعاجه وتأليب قبائل البربر عليه ، فأرسل داعيا له فى سنة ٣٧٦ هـ اسمه أبو الفهم الخراسانى إلى قبائل كتامة لى يدعوهم إلى طاعته ، ويبدو أن العزيز بالله ، كان يهدف من وراء ذلك إثارة قبائل كتامة على ولاية إفريقيا ، إضعافا لنفوذهم فى البلاد.

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٤٣ - ابن الأثير ، ج ٧ ص ١٢١

فلما ظهر أبو الفهم الداعي في قبائل كتامة ، التفت حوله ، وألف منهم أبو الفهم جيشا جرارا زوده بالسلاح . وبلغ من نفوذ أبي الفهم في كتامة أنه صنع البنود وضرب السكة (١) . فكتب المنصور إلى العزيز بالله يبلغه بأمر أبي الفهم ، فأرسل إليه العزيز بالله رسولين ينهيانه عن التعرض له ومحاربة كتامة ، فغضب المنصور لذلك ، وأغلظ القول لهما وللعزيز أيضا ، وأغلظا له ، فصمم على محاربة كتامة ، فزحف بجيوشه في سنة ٣٧٨ هـ إلى بلاد كتامة ، فحرب ميعة ، وهدم سورها ، ودمر كل ما قابله من حصون كتامة وقصورها حتى بلغ سطيف مركز أبي الفهم ، ثم اشتبك مع الكتامين في موقعة انتهت بانتصاره عليهم ، وهرب الناصر أبو الفهم إلى جبل وعمر (٢) ، فقبض عليه أحد أتباع المنصور ، وأمر به فلطم لطمًا شديدًا ، ونتفت لحيته حتى أشرف على الموت ، ثم أخذه بعض رجاله ، ونحره وشق بطنه ، وقتل معه وإلى ميعة وجماعة من رؤساء كتامة (٣) . فلما رأى العزيز بالله فشل خطته ، آثر أن يصطنع سياسة الملاطفة ، فأرسل في سنة ٣٨٤ هـ هدية جليلة إلى المنصور من بينها فيل كبير (٤) ، وتبعثها في أيام الحاكم هدية أخرى بعثها إلى المنصور في سنة ٣٨٨ هـ وتشتمل على جوهر وأعلاق نفيسة (٥) .

ب - الدور الثاني من انفصال بنى زيرى عن الخلافة الفاطمية بمصر :

ظلت العلاقات الودية بين مصر والمغرب الأدنى سائدة في عصر نصير

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤٥

(٢) ابن الأثير ، ج ٢ ص ١٣٣

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٤٩

(٤) نفس المرجع ص ٣٥٣

(٥) نفس المرجع ص ٣٥٧

الدولة باديس ، ولكن هذه العلاقات كانت في الواقع قائما زائفا يخفى وراءه ما كان قائما بالفعل بين الحاكم وباديس من حقد وعداء ، فقد كان الحاكم يضمن في نفسه السوء لباديس ، لاتجاهه إلى الاستقلال عن الدولة الفاطمية ، فأخذ يحبك له المؤامرات متتبعها نفس الخطة التي كان يتبعها العزيز بالله من قبل ، فقد أمر الحاكم يانس العزيزي واليه على برقة بالسير إلى طرابلس والاستيلاء عليها في سنة ٣٩٠ هـ ، ولما كانت طرابلس تابعة لباديس ، فانه لم يسكت على هذا الاعتداء السافر ، ولم يتردد في الاشتباك مع قوات يانس في معركة أسفرت عن هزيمة الجيش الفاطمي ومقتل يانس ، فبعث فلفل بن خزرون بذلك إلى الحاكم ، فغضب الحاكم ، وسير حملة ثانية بقيادة يحيى بن علي بن حمدون الذي كان قد فر إلى مصر بعض مقتل أبيه جعفر ، ونزل على العزيز بالله في القاهرة^(١) ، فوصل يحيى إلى طرابلس في ٩ ربيع الأول سنة ٣٩٢ هـ ، واجتمع جيش يحيى بن علي بن الأندلسي بجيش فلفل بن سعيد ، وتقدم الجيشان إلى قابس في سنة ٣٩٣ هـ ، ولكنهما لم يلبثا أن ترجعا إلى طرابلس خوفا من الاصطدام مع جيوش باديس . ولما رأى يحيى اختلال الحال لديه ، وعجزه عن محاربة باديس اضطر إلى العودة إلى مصر^(٢) .

وأخيرا لجأ الحاكم بأمر الله إلى حث قبيلة زناتة على الاستيلاء على طرابلس ، ونجح في ذلك ، وتمكنت زناتة بقيادة فلفل بن سعيد من الزول بطرابلس ، ونجح عن ذلك قيام الاضطرابات بين صنهاجة وزناتة في هذه المنطقة .

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٤

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٦٨ - ابن الأثير ج ٢ ص ٢١٨

ولما توفي فلفل في طرابلس سنة ٤٠٠ هـ، وخلفه أخوه وروا، زحف إليه نصير الدولة باديس في جيش كثيف، ونزل بظاهر طرابلس في ٧ شعبان، ودخلها، ثم جاءت رسال وروا بن سعيد أخى فلفل، تطالب منه الأمان والعفو، فأمنهم وعفا عنهم، وعاد إلى المنصورية مظفرا (١). وهكذا تمكن باديس من القضاء على جميع مؤامرات الحاكم ضده، فلما عاين الحاكم ذلك، لم يجد بدا من العودة إلى السياسة القديمة وهى سياسة التودد، فأخذ يعمل على التماس مودة باديس، وبذكر ابن عذارى، أنه وصل إلى المهديّة في سنة ٤٠٣ هـ مركب « فيه هدية جليلة من الحاكم إلى نصير الدولة باديس صاحب إفريقية، وإلى ولده منصور عزيز الدولة، فتلقاها المنصور مع أهل القيروان على قصر الماء بالبنود والطبول، ووصلت سجلات منه إلى نصير الدولة باضافة برقة وأعمالها إليه (٢). وفي العام التالى، أرسل الحاكم سجلا إلى نصير الدولة يذكر فيه أنه جعل ولاية العهد فى حياته (أى فى حياة الحاكم) إلى ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس بدلا من ابنه أبى الحسن على الذى لقب فيه بعد بالظاهر لأعزازدين الله، وقد غضب باديس على هذا الإجراء إذ رأى فيه خروجاً على المذهب الإسماعيلى وقال «لولا أن الإمام لا يعترض على تدبير لكانتبه ألا يصرف هذا الأمر من ولده إلى ابن عمه» (٣)، وسادت العلاقات الطيبة بين الحاكم وباديس بعد ذلك، فقد رد باديس على هدية الحاكم له بهدية أخرى أرسلها إليه فى سنة ٤٠٥ هـ، وكانت تضم مائة

(١) نفس المرجع، ص ٣٧٢

(٢) نفس المرجع ص ٣٧٣، ٣٧٤

(٣) ابن عذارى، ص ٣٧٥

فرس لها سروج محلاة ، شدت في ثمانية عشر حملاً أقفاصا ، وكان فيها ثمانية عشر حملاً من الخبز والسموار والمتاع السوسى المذهب النفيس ، وعشرون وصيفة ، وعشرة من الصقالبة ، كما وجهت السيدة أم ملال أخت باديس إلى السيدة أخت الحاكم هدية أخرى . ولكن هذه الهدية لم تصل إلى الحاكم وأخته ، إذ استولى عليها العرب في برقة (١) .

ج - الدور الثالث من انفصال بنى زيرى عن الخلافة الفاطمية بمصر :

يعتبر هذا الدور أهم الأدوار التى مرت بها حركة انفصال المغرب عن الخلافة الفاطمية بمصر ، ويبدأ منذ أن تولى المعز بن باديس إمارة إفريقية . ويذكر ابن الأثير أن المعز بن باديس كان ماشيا فى القيروان والناس يسلمون عليه ويدعون له ، فاجتاز بجماعة كانت هناك ، فقبل له هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر ، فقال المعز : « رضى الله عن أبى بكر وعمر » ، فانصرفت العامة من فورها إلى درب المقل بالقيروان ، وهو موضع يجتمع فيه الشيعة من كان يسكن فيه منهم (٢) . وذكر ابن عذارى أن المعز بن باديس ، تعلمد على وزيره أبى الحسن بن أبى الزجال ، وكان ورعا زاهدا ، فعلمه وأدبه ، ودله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة ، والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان ، فخرج المعز فى بعض الأعياد إلى المصلى فى زينته وحشوده وهو غلام ، فكبا به فرسه ، فاستغاث بالشيخين أبى بكر وعمر ، فسمعتهم العامة فثاروا بالرافضة ووضعوا السيف فى الشيعة « فقتل منهم ما ينيف على الثلاثة

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧٥

(٢) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٢٩٥

آلاف (١) ، وبغضيف ابن خلدون أنه قتل دعاة الرافضة يومئذ في سائر بلاد إفريقية (٢) .

ولم يكتف المعز باضطهاد الشيعة في البلاد إلى درجة أن طائفة منهم يبلغ عددها نحو ٢٠٠ فارس خرجوا بأولادهم في سنة ٤٠٩ هـ إلى المهدية للركوب منها إلى صقلية (٣) ، بل إنه أخذ يحمل الناس على اعتناق المذهب المالكي ونبت المذهب الاسماعيلي ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى الانفصال المذهبي والسياسي بطبيعة الحال عن مصر . وذكر المؤرخون أن المعز اضطهد الشيعة في إفريقية ، وقتل منهم عدداً عظيماً ، وسميت هذه الحركة بحركة التطهير ، وفي ذلك يقول القاسم بن مروان الشاعر .

وسوف يقتلون بكل أرض
كما قتلوا بأرض القيروان
وقال أحد الشعراء :

يامعز الدولة عش في رفعة
وسرور واغتياب وجذل
أنت أرضيت النبي المصطفى
وعتيت في الملاعين السفل
وجعلت القتـل فيهم سنة
بأقاصي الأرض في كل الدول

(١) ابن عذاري ، ص ٣٩٥ - ابن خلدون ج ٦ ص ٢٩

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٥

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٨٨

ومع كل ما قام به المعز بن باديس للقضاء على الشيعة ، فان الخليفة الفاطمي الحاكم أغضى عن ذلك ، ولم يحاول أن يستثيره أكثر مما فعل ، بل نراه يحرص على استرضاء المعز ، ففي أواخر سنة ٤٠٧ هـ ، أى بعد مضي شهور على مذبحه الشيعة ، وصل إلى المعز بن باديس سجل من الحاكم خاطبه فيه بشرف الدولة (١) ، وفي سنة ٤١١ هـ ، ورد على المعز أبو القاسم بن الزيد رسولا من الحاكم إليه ومعه من الهدايا سيف مكلل بنفيس الجواهر ، وخلعة من لباسه لم ير مثلاً ، كما قدم إلى المعز محمد بن عبد العزيز بن أبي كدية ومعه سجل من الحاكم وخمسة عشر علماً منسوجة بالذهب (٢) . وفي سنة ٤١٤ هـ قدم هذا الرسول من قبل الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي بتشريف عظيم لشرف الدولة المعني ابن باديس ، وزاده لقباً إلى لقبه ، فسماه شرف الدولة وعصدها ، وبعث إليه بثلاثة أفراس من خيل ركوبه مزودة بسروج نفيسة ، كما بعث إليه أيضاً خلعة من نفيس ثيابه ومنجوقين منسوجين بالذهب على قصب فضة لم يدخل إفريقية مثلاً قط ، وعشرين بندا مذهبة ومقبضضة (٣) .

كل ذلك يعبر عن رغبة الحاكم بأمر الله وابنه الظاهر لإعزاز دين الله في تحسين العلاقات بين مصر وإفريقية بعد أن توترت على أثر أعمال العنف التي قامت في برقة وطرابلس بين جيوش مصر وإفريقية .

د - الدور الأخير من انفصال بنى زيرى عن الخلافة الفاطمية بمصر :

ذكر ابن عذارى أن المعز أظهر في سنة ٤٣٣ الدولة العباسية ، وورد

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٨٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٨٩

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٩٢

عليه عهد الخليفة القائم بأمر الله العباسي (١) ، وأتبع هـ هذه الحركة بقطع الخطبة للخليفة المستنصر وبحرق بنوده الخضراء والدعوة على منابر إفريقية للعباس بن عبد المطلب (٢) ويختلف المؤرخون في تحديد تاريخ انفصال المعز بن باديس نهائياً عن الدولة الفاطمية ، فابن عذارى وابن الأثير وابن خلدون يحددون له عام ٤٤٠ هـ (٣) ، وابن تغري بردي والمقرئ يجللانه في سنة ٤٤٣ هـ (٤) . ويرجح الدكتور مختار العبادي حدوث الانفصال في سنة ٤٤٣ هـ استناداً على ما ذكره المقرئ في انعاظ الحنفاء ، وعلى أن وزارة اليازوري - الذي كان خلفه مع المعز بن باديس سبباً مباشراً في هذا الانفصال - تبدأ في عام ٤٤٢ هـ (٥) . ولكننا نرجح سنة ٤٤٠ هـ تاريخاً لهذا الانفصال ، فان وزير المستنصر الفاطمي قبل اليازوري وهو أبو القاسم علي ابن أحمد الجرجرائي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ (٦) كان قد باغىه ما أظهره المعز ابن باديس في سنة ٤٣٣ هـ من التودد للخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وما كان يقوم به المعز من اضطهاد الشيعة الإسماعيلية والدعوة للمذهب المالكي ، فخطب المعز « محذراً وهو يراجع به بالتعريض بخلفائه والقدح فيهم ، حتى

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩٧

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٩٩

(٣) ابن عذارى ، ص ٣٩٩ - ابن الأثير ، ج ٨ ص ٥٥ - ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٥

(٤) ابن تغري بردي ، ج ٥ ص ٥١ - المقرئ ، انعاظ الحنفاء ، نس نشره الدكتور

مختار العبادي عن النسخة المحفوظة بمكتبة سراي أحمد الثالث بأسطنبول ، ضمنية لمقاله :

سياسة الفاطميين ص ٢٢٢

(٥) مختار العبادي ، سياسة الفاطميين ، ص ٢١٨ ، حاشية رقم ٢

(٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٩٨

أظلم الجو بينه وبينهم (١). وأعتقد أن العلاقات ساءت للغاية بعد ذلك بين مصر وإفريقية، ومع ذلك فقد كان الخليفة المستنصر، رغم غضبه من سياسة المعز بن باديس، لا يرغب في أن تتم القطيعة على يديه، ثم إنه كان يأمل في أن تتحسن العلاقات بينه وبين المعز، هذا بالإضافة إلى أنه كان مشغولا وقتئذ بالأحداث الجارية في الشام، وقيام العرب في هذه البلاد بالحركات الانفصالية عن الدولة الفاطمية، فقد تملك حسان بن مفرج فلسطين، واستولى معز الدولة صالح الكلابي على حلب (٢). وكان الموقف السياسي يستلزم أن يقوم بتلطيف الجو بينه وبين المعز بن باديس، على نحو ما كان يفعل آباؤه من قبل وعلى الشخص الحاكم بأمر الله، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك، ولم يحاول أن يهادي المعز أو يتودد إليه، فازدادت هوة الخلاف عمقا، وتوترت العلاقات توترا أدى في النهاية إلى القطيعة والانفصال في سنة ٤٤٤ هـ. فلقد كان المعز بن باديس ينتظر فرصة مواتية لإعلان انفصاله عن الخلافة، وكان يطالع رغبة أهل القيروان الملحة في قطع الدعوة للخليفة الفاطمي، وكان هو نفسه يميل إلى المذهب السني كما رأينا من قبل، ولكنه لم يرض أن ينكث بعهود آباءه للفاطمين، وإنما كان يتوقع أن يقوم المستنصر بترضيته، ولما لم يفعل اعتبر هذا استخفافا منه بأمره، واحتقارا لشأنه، وعز عليه أن يعامل بمثل هذه المعاملة مع ما لديه من الإمكانات الكثيرة التي تهيء له الانفصال عن الدولة الفاطمية نهائيا، ووجد في سكوت

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٥

(٢) ابن القلائس، ذيل تاريخ دمشق، ط بيروت ١٩٠٨، ص ٧٢ وما يليها - ابن

خلدون، ج ٤ ص ١٣٠ - جمال سرور، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، ١٩٠٩ ص ٥٦ وما يليها

المستنصر عن مخاطبته ذريعة لقطع الدعوة له ، وهو السلاح الذي كان يشهره دائما هو وآباؤه في وجوه خلفاء الفاطميين في مصر منذ المرحلة الأولى التي تحدثنا عنها . ويذكر ابن خلدون أن المستنصر لما بلغه ما قام به المعز بن باديش من قطع الخطبة له والدعوة للخليفة القائم العباسي ، كتب إلى المعز بتهنئته (١) . ويذكر ابن خلكان أن المستنصر كتب إلى المعز بتهنئته بقوله : « هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء » ، فرد الصنهاجي يؤكد حق أسرته في الاستقلال ، فقال : « إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك ، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ، ولو آخروهم لتقدموا بأسيا فهم » (٢) . وأمام تهديد المستنصر بالله له فقد كان من الطبيعي أن يتحداه المعز بن باديس ، فيأمر في نفس هذا العام بلعن الفاطميين في الخطب (٣) ، ويأمر في العام التالي بسبك ما لديه من الدنانير والدرهم والقطع التي تحمل أسماء بني عبيد الله ، وإزالة أسمائهم من الرايات والطرز (٤) . ومع ذلك كله ، فلم يكن المعز قد شرع بعد في تغيير لون أعلام الفاطميين ، فظل محافظا على الشكليات . فلما تولى اليازوري الوزارة الفاطمية في سنة ٤٤٢ هـ ، اشتد الخلاف بينه وبين المعز بسبب إنزال المعز من قدر اليازوري ، إذ كان يخاطبه دون ما كان يخاطب به من سبقه من الوزراء (٥) ، وكان لهذه الخصومة الجديدة أثرها في قيام المعز بإعلان

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣١

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٢١ — سعد زغلول ، فترة حاسمة ، ص ٢٥٤

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٤٠١

(٤) نفس المرحم ص ٤٠٢

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣١ — المقرئ ، اتجاثة الحنفا ، ضبيمة بمقال سياحة

الفاطميين ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢

انفصاله الروحي والسياسي نهائيا عن الخلافة الفاطمية ، وكان قد قطع في
السنين الثلاث السابقة شوطا كبيرا في ذلك حتى لم يبق إلا شكلية يسيرة ،
فأرسل رسولا إلى بغداد ليستحضر الخلع والاثلية السوداء (١) ، واستجاب
الخليفة العباسي لرغبته ، فأرسل إليه أبا غالب الشيرازي رسولا من قبله ومعه
العهد واللواء الأسود ، فاتفق أنه مريبلاد الروم ، فقبض عليه الامبراطور
البيزنطي ، وأرسله هو واللواء والعهد والهدية إلى القاهرة ، فأمر المستنصر
بأحراق العهد واللواء والهدية في حفرة بين القصرين (٢) . فاستعاض المعز
ابن باديس عن اللواء العباسي بثياب بيضاء أمر بأخراجها من فندق الكتان
بالقيروان ، وصبغها باللون الأسود الخالك ، وجمع الخياطين وأمرهم بقطعها
أثوابا ، ثم جمع الفقهاء ، والقضاة إلى قصره ، وخطب القيروان وجميع
المؤذنين ، وكساهم ذلك السواد ، وانصرفوا جميعا إلى الجامع ، وركب المعز
وراءهم حتى وصل إلى جامع القيروان ، ثم صعد الخطيب ، وخطب
خطبة أتى فيها على جميع الأمراء بأجزل لفظ وأحسن معنى ، ثم دعا لأبي
جعفر عبد الله القائم بأمر الله العباسي ، ودعا للسلطان المعز بن باديس ولولده
أبي الطاهر تميم ولي عهده من بعده ، ثم أخذى بنى عبيد ولعنهم (٣) .
وبذلك انشق المغرب الأدنى نهائيا عن الخلافة الفاطمية .

ونستخلص مما سبق عرضه أن هذا الانفصال تم على مراحل مختلفة ،
وقد ساعد على حدوثه سياسة الخلفاء الفاطميين العدوانية نحو أمراء بني

(١) انماط الخلفاء، ص ٢٢٢

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٣

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٤١٥

زيرى ، وإثارتهم المنافسة بين صنهاجة وزناتة ، ثم تدخل الوزراء منذ خلافة المستنصر بالله في هذا الخلاف ، وسوء تصرفهم في معاملة المعز بن باديس ، وأخيرا إسراف الخلفاء الفاطميين في الاستخفاف بالدين وسب الصحابة ، وادعاء الحاكم الألوهية ودعوته الناس إلى عبادته . وأحدث خروج المغرب عن الفاطميين صدى عميقا في طرابلس ، فاقصدى الناس بالمعز بن باديس وقام الفقيه أبو الحسن بن المنتصر بتحرير العامة على الشيعة ، واشترك معهم في قتلهم ، ثم قطع من الأذان عبارة « حى على خير العمل » ، وأذن أذان أهل السنة بنفسه (١) .

كذلك حذا أهل برقة حذو المعز بن باديس ، ففي سنة ٤٤٣ هـ نفسها كتب الأمير جبارة بن مختار العربى من برقة إلى المعز بن باديس يبايعه بالطاعة ، ويخبره بأنه وأهل برقة قد أحرقوا المنابر التي كان يدعى عليها للعبيدية ، وأحرقوا راياتهم ، وتبرأوا منهم ، ولعنوهم على منابرهم ، ودعوا للقائم بأمر الله العباسى (٢) .

ونلاحظ أن المعز بن باديس تأخر عن حماد بن بلكين في الانفصال عن الدولة الفاطمية ، فإن ابن خلدون يذكر أنه « خالف دعوة باديس ، وقتل الرافضة ، وأظهر السنة ، ورضى عن الشيخين ، ونبذ طاعة العبيديين جملة ، وراجع دعوة آل العباس ، وذلك سنة خمس وأربعمائة » (٣) .

(١) سعد زغلول ، فترة حامية ص ٢٥٥ ، عن التيجاني ، الرحلة ، طبعة تونس ١٩٢٧

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٤١٦

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٥١

ويعلق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد على انفصال المغرب عن الدولة الفاطمية بقوله : « عندئذ تحطم كل أمل في إيجاد تسوية مناسبة ، فقد مضى الزمن الذي كان يوحى فيه المعز بقتل الشيعة ويرسل بهـداياه وآيات خضوعه إلى القاهرة ، فيرد الحاكم بسجلات التشريف ، ولا يذكر ما كان من تابعه إلى الشيعة من القتل والاحراق » (١) .

(٣)

انتقام المستنصر بالله الفاطمي : غزو عرب الهلالية وبنى سليم لبلاد المغرب

١ - دخول قبائل بنى هلال وبنى سليم في أرض المغرب :

أصل قبائل بنى هلال وبنى سليم من مضر ، وكانوا ما يزالوا متبدين منذ قيام الدولة العباسية ، ثم نجعوا إلى الحجاز ، فنزل بنو سليم مما يلي المدينة ، ونزل بنو هلال في جبل غزوان عند الطائف (١) . وكانوا يطرئون العراق والشام في رحلة الشتاء والصيف ، فيغيرون على أطراف البلاد ، ويفسدون العمران ، وكان بنو سليم يغيرون على الحجاج أيام الحج بمكة وزيارة المدينة ، ولم تستطع الخلافة العباسية أن تضع حدا لغاراتهم . فلما ظهر القرامطة ، انضم إليهم بنو سليم في جملة من انضم من بنى ربيعة بن عامر ، ودخلوا في جيوشهم في البحرين وعمان ، وقدموا معهم إلى الشام ، فلما تغلب المعز لدين الله الفاطمي ، والعزیز بالله على القرامطة ، انسحب هؤلاء إلى البحرين ، ونقل العزيز بالله حلفاءهم من عرب بنى هلال وبنى سليم إلى مصر ، وأنزلهم في العدو الشرقية من النيل ، فاستقروا هناك ، ولكنهم كانوا عنصرا هداما في البلاد ، فعاثوا في الصعيد فسادا . وكانت قبائل بنى هلال تضم أحياء من جشم والأبيج وزغبة ورياح وربيعه وعدى . وكانت هذه القبائل في عصر المستنصر بالله في حرب مستمرة فيما بينها ، وقد عم ضررهم ، واحرق البلاد والدولة شررهم (٢) . فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن علي

(١) المقريري ، تماثيل الخلفاء ، المرحم السابق ص ٢٢٤ - ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٧

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٠

اليازورى على المستنصر باصطناعهم ، واستقدام مشايخهم ، وتولييتهم أعمال إفريقيا ، ودفعهم إلى محاربة الصنهاجيين ، فإذا ما انتصروا عليهم أصبحوا أعوانا للدولة وعمالا بملك البلاد ، وأمر عرب البادية أهوان من صنهاجة الملوك ، وإذا هزموا فإنه بذلك يتخلص من عنصر مدمر في مصر ، دون أن يتكلف أى مشقة في محاربتهم أو محاربة الصنهاجيين . واقتنع الخليفة المستنصر بالله بوجاهة هذا الرأى ، وكان يتحرق شوقا إلى الانتقام من بنى زيرى المارقين . فأحضر الوزير ، مكين الدولة أبا على الحسن بن على بن ملهم بن دينار العقيلي أمير أمراء الدولة ، وكان معروفا بكياسته ، وحسن رأيه ، وسيره إلى زغبة ورياح من بطون هلال بنخلع سنية ، وإنعام كثيرة وأمره أن يصلح ما بينها ، ويتولى دفع ما عليها من ديات^(١) . فلما تم له ذلك ، وصل حامهم بعير ودينار لكل فرد منهم ، وأباح لهم إجازة النيل ، وكان لا يسمح لهم بذلك ، فجاز منهم عدد كبير دون أن يوصيهم بشئ . « لعلمه أنهم لا يحتاجون لوصية »^(٢) . وذكر ابن خلدون أن اليازورى قال لهم : « قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجى ، العبد الآبق ، فلاتفتقرون » ، ثم كتب إلى المعز : « أما بعد فقد أرسلنا إليكم خيولا وحملنا عليها رجالا فحولوا ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا »^(٣) . وسارت هذه القبائل إلى برقة فوجدوها خالية ، إذ كان المعز قد أباد معظم سكانها من زناتة ، فنزل العرب برقة ، واحتقر المعز شأنهم ، واستكثر من شراء العبيد حتى كون

(١) المقربرى ، اتعاظ الحنفا ، ضميمه ص ٢٢٣

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤١٧

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣١ ، ج ٦ ص ٣١

منهم فرقة يبلغ عددها ٣٠ ألفا (١) .

وفي أثناء ذلك كتب العرب النازلون ببرقة إلى إخوانهم بشرقي النيل يرغبونهم في البلاد ، فأجازوا إليهم ، واستقر بنو سليم ببرقة ، وخربوا المدينة الحمراء وأجدابية وأسم-راومرت أما هلال فسار جميع بطونها إلى إفريقية « كالجراد المنتشر لا يمرون على شيء إلا أتوا عليه » (٢) ، فوصلوا إليها في سنة ٤٣ هـ ، وكان أول من وصل من بني هلال مؤنس بن يحيى الرياحي أمير رياح ، فقدم على المعز ، وكان المعز قد سئم صنهاجة ، فأراد أن يستبدلهم بعنصر آخر ، فاستلطف مؤنسا ، وكان سيذا في قومه ، شجاعا ماقلا ، فاستدناه المعز إليه ، وزوجه من إحدى بناته ، وفاوضه في استدعاء عرب بني هلال من إطرابلس وحدود إفريقية ليستعين بهم على بني عمه (٣) ، فنصح مؤنس بعدم التفكير في ذلك ، وعرفه بقلة اجتماعهم على الكلمة ، وعدم انقيادهم إلى الطاعة ، ولكنه ألح عليه إلحاحا متواصلا ، وعلل امتناعه من استقدامهم إلى إفريقية بحسده لقومه ، فلم يسمع مؤنس أمام هذا الإلحاح إلا أن يدعوهم .

ب - هزيمة جيوش المعز على أيدي العرب :

ما كاد عرب بني هلال يصلون إلى نواحي إفريقية حتى عاثوا فيها فساداً ، فعظم الأمر على المعز ، وظن أن مؤنس إنما دفعهم إلى ذلك ، فأمر بالقبض على أخى مؤنس وبثقال أولاده ، وختم على داره بالقيروان ،

(١) المرجع السابق ، ج ٤ ص ١٣١

(٢) نفس المرجع ج ٦ ص ٣١

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٤١٧ - ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢

وبعث يستنجد ببني عمه بقلعة حماد ، فبعث إليه القائد بن حماد كتيبة من ألف فارس ، واستنفر المعز قبيلة زناتة ، فقدم إليه المستنصر بن خزرون المغراوي في ألف فارس من زناتة (١) ، وعزم المعز على المبادرة بمحاربة العرب قبل أن يستفحل خطـرهم ، فخرج بجيوشه من صنهاجة وزناتة والبربر والعبيد وبقايا عرب الفتح ، فبلغ عدد جيوشه ثلاثين ألفا (٢) ، واشتبك مع عرب بني هلال من رياح وزغبة وعدى بالقرب من حيدران من جهة قابس في ذي الحجة سنة ٤٤٣ هـ ، ولكن العرب البلديين الذين كانوا في جيش المعز آثروا الانضمام إلى إخوانهم في الجنس ، فأنحازوا إلى صفوف الهلالية ، أما زناتة وصنهاجة فقد خذلوه وفروا ، فانهزم المعز هزيمة نكراء ، وصمد أمام العرب إلى أن وصلت رماحهم إليه ، وقتل من عبيده عدد كبير ، ففر بنفسه وخاصته إلى القيروان ، وانقض عرب الهلالية على مضارب المعز ونخباته ، فانتهبوها ، وكان فيها من الذهب والفضة والأمتعة والاثاث والكراع أعداد هائلة ، وكان فيها من الأخبية ما يتجاوز عشرة آلاف ، ومن الجمال نحو ١٠ آلاف ،

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢

(٢) ذكر ابن عذارى نقلا عن ابن شرف أن عسكر المعز كان يتألف من ثمانين ألف فارس ونحو ذلك من المشاة ، وكان عدد فرسان عرب الهلالية ثلاثين ألفا ، وعدد مشاتهم نحو ذلك (ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٢٠) وأغلب الظن أن عدة جيش المعز لم تكن تتجاوز ثلاثين ألف مقاتل استنادا إلى قول علي بن رزق الرياحي بعد هزيمة المعز :

لقد زار وهنا من أميم خيال . . وأبدي المطايا بالرميل عجال
وان ابن باديس لأفضل مالك . . لعمرى ولكن ما لديه رجال
ثلاثون ألفاً منهم هزمتهم . . ثلاثة آلاف وذاك ضلال

(ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣)

ومن البغال مالا يحصى (١) . وقتل من الصنهاجيين وأتباع المعز على ما ذكره ابن خلدون ثلاثة آلاف وثلثمائة مقاتل (٢) . وفر معظم فلول جيش المعز في جبل حيدران ، ثم توافدت على القيروان طلائع المنهزمين ، وفي مقدمتهم ابن البواب ، ووصل العرب إلى نواحي القيروان وبشوا خيولهم إلى ضواحي المدينة وقراها ، يفسدون مزارعها ويدمرون عمرانها ، وفر سكان هذه المناطق إلى القيروان . فأمر المعز بأن ينتقل أهل صبرة وسوقتها إلى القيروان ، وأن ينتقل جميع عسكره من الصنهاجيين إلى صبرة وينزلوا في أبنيتها وأسواقها ، ولما دخل العبيد وعسكر صنهاجة صبرة ، أساءوا استخدام مبانيتها ، فخربت عمائرها العظيمة (٣) ، وأقبلت جيوش العرب إلى القيروان فحاصرتها ، وخرج بعض الأهالي من القيروان بقصد محاربة العرب خارج باب تونس ، فحمل عليهم فرسان العرب ، وتمكنت منهم سيوفهم ورماحهم ، فحصدوهم حصدا ، وأبادوهم (٤) .

وأقام العرب يحاصرون القيروان وينهبون البلاد حتى أتوا على عمران إفريقية ، وأدار المعز على القيروان سورا داخلية سنة ٥٤٦ هـ (٥) . وكان عرب بنى هلال ، قد استولوا على باجة وقابس وقسنطينة وتونس وبونة ، فلما رأى المعز ضياع ملكه ، صاهر بيناته ثلاثة من أمراء العرب هم فارس بن

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٤١٩

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٣

(٣) ابن عذاري ص ٤٢٢

(٤) نفس المرحم ، ص ٤٢٣

(٥) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣٢

أبي الغيث ، وأخاه عائذا ، والفضل بن أبي علي المرداسي (١) ، وفي سنة ٤٤٨ بعث ابنه تميم إلى المهديّة ، وفي شهر رمضان من العام التالي ركب المعز مع مؤنس بن يحيى أمير رباح إلى المهديّة ونزلها ، ودخل العرب القيروان فاستباحوها ، وخرّبوا عمرانها ومبانيها ، وعاثوا في محاسنها ، وطمسوا معالمها ، وجردوا قصورها مما كانت تحتويه من روائع وتحف ، وشملوا بالغيث والنهب كل من بقى فيها من أهلها ، ففرق الناس في الأقطار (٢) .

وقضى المعز بن باديس السنوات الباقية من عمره حزينا في المهديّة ، إلى أن توفى في أوائل سنة ٤٥٤ هـ ، ودفن في رباط المنستير (٣) . وخلفه ابنه تميم ، الذي اقتصّر ملكه على شريط ضيق من الساحل يحيط بالمهديّة ، ويشمل المهديّة وأحوازها وسفاقس وقابس وجزيرة جربة (أنظر خريطة رقم ١٢٤١) .

ج - نتائج غزو الهلالية للمغرب :

١ - نتج عن انحسار ملك الدولة الصنهاجية في إفريقيا إلى الساحل ، بسبب الضغط الذي كانت تمارسه قبائل العرب على المدن الداخلية ، عناية الصنهاجيين بشؤون البحر ، فأسس تميم بن المعز أسطولا ضخما بدار للصناعة بالمهديّة ، وقام هو وابنه يحيى بن تميم من بعده بالغارات البحرية المتواصلة على جزيرة صقلية وعلى السواحل الإيطالية (٤) ، وكان دخول صقلية في ذلك

(١) المرجع السابق ، ج ٦ ص ٣٤

(٢) نفس المرجع ، ج ٦ ص ٣٤

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٧٧

(٤) مختار العبادي ، سياسة النماطين ، ص ٢٢٠

النورمانديين قد دفع كثيرا من رجال البحر المسلمين إلى الهجرة منها إلى المهدية . واشتغالهم بأعمال القرصنة البحرية . وقد قام يحيى بن تميم بن المعز (٥٠٩-٥٠١) بدور كبير في هذه الغارات ، وقد كانت له غزوات بحرية عملها إلى بلاد الروم إلى أن طلبوا سلمه (١) . وفي سنة ٥٠٣ هـ جرد من أسطوله خمسة عشر غرابا لغزو بلاد الروم ، فأصيب منها ستة . وعادت السفن الباقية إلى المهدية (٢) ، وفي سنة ٥٠٧ هـ ، أغار أسطول المهدية على بلاد الروم وعاد بسبي كثير في ربيع الآخر ، وقد كان لهذه الغارات أثر كبير في قيام النورمانديين بتوجيه ضرباتهم إلى المهدية ، وانتهى الأمر باستيلائهم على جربة في سنة ٥٢١ هـ ، وسفاقس في سنة ٥٢٨ هـ ، وبونة والمهدية في سنة ٥٤٣ هـ ، وزويلة في سنة ٥٥٢ هـ .

٢ - نتج عن تخريب العرب للبلاد وعيشتهم فيها قيام فترة من الاضطراب السياسي والاقتصادي في إفريقية والمغرب الأوسط ، فقد خرب العرب العمران ، وأتوا على معالم الحضارة بإفريقية من زراعة وتجارة ومنشآت ، فخربت صبرة والقيروان وتونس وطبنة والمسيلة وقلعة بني حماد ، واكتسحت كل بلاد إفريقية من طرابلس حتى حدود المغرب الأقصى موجة عاتية من الدمار ، تركت البلاد قاعا صفصفا (٣) .

٣ - كان لغزو الهلالية المغرب رغم مضاره ومساوئه الكثيرة فضل

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٨٠

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٤٣٨

(٣) Marçais, la Berberie musulmane, pp. 208-214

كبير في تعريب البلاد وتخفيف حدة اللهجات المحلية في القرى البربرية التي لم تصل إليها بعد إشعاعات الحضارة العربية .

٤ - انقسمت بلاد المغرب إلى دول للطوائف على نحو ما حدث في الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية بقرطبة فقد استولى بنو هلال على المناطق الممتدة في الداخل من قابس إلى الغرب ، وظل بنو زيري يحتفظون بالمهدية وما يليها ، واستقر بنو حماد في بجاية ، واستقل حمو بن ومليل البرغواطى ، الذى تحالف مع العرب من زغبة ورياح وعدي والاثبيج ، فى سفاقس ، واستقل ابن خراسان بتونس سنة ٥٤٥٨ ، واستقل موسى بن يحيى بقابس ، واستقل حاكم قفصة الزيرى بها بعد أن خرج على سيده واستعان بالعرب لتوسيع نفوذه فى مقابل جزية سنوية.

(٤)

استيلاء النورماندين على المهديّة

١ - غارات الزيريين على سواحل إيطاليا وصقلية وآثارها:

سقطت صقلية في أيدي النورماندين عقب نزاع قام بين ابن الثمّة الملقب بالقادر بالله صاحب طرابنش Trapani وبين صهره القائد ابن الحواس على بن نعمة صاحب قطانية وسرقوسة ، فاستنجد ابن الثمّة بالنورماندين المقيمين بقلورية في كالابريا سنة ٤٤٤ هـ ، وسجل دخولهم على مسرح الأحداث بصقلية ضياع هذه الجزيرة ، من أيدي المسلمين ، وقد تمكن روجار النورمندی من بسط سلطانه على الجزيرة تدريجيا ، واستنجد أهل صقلية بالمعز بن باديس ضد روجار ، فجمع الأمير عدداً من سفنه ، وأبحر قاصدا صقلية ، ولكن عاصفة عانية أغرقت سفنه عند قوصره ، وكانت هذه الكارثة ضربة قاضية لآماله ، فقد استطاع النورمانديون السيطرة على معظم جزيرة صقلية ، بينما تمكن عرب الهلالية من التغلب على معظم إفريقية . وحاول الأمير تميم استرجاع الجزيرة ، فأرسل ولديه أيوبا وعلياً إلى صقلية ، ولكن عبيدهما سببا قيام فتنة في الجزيرة ، فاضطر أيوب وعلي إلى العودة إلى المغرب في سنة ٤٦١ هـ تاركين صقلية لمصيرها التعس^(١) . وفي سنة ٤٦٤ خرج ابن الحواس بأهله وماله صلحا ، وتملك رجار كل الجزيرة^(٢) ، باستثناء مدينتي قصر يانه وجرجنت ، اللتين حاصرها النورمانديون حصارا شديدا ،

(١) ابن الاثير ، ج ٨ ص ١٥٨

Marçais, la Berberie musulmane, pp. 219-220

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٥٠

حق ضاق الأمر على أهلها فأكلوا الميتة ولم يبق لديهم ما يأكلونه، واضطر
أهل جرجنت إلى التسليم . أما قصر يانة فظلت بعدها ثلاث سنوات ، فلما
اشتد الأمر على أهلها أذعنوا إلى التسليم ، فتسلمها النورمانديون في سنة
٤٨٤ هـ (١) .

وقد ذكرنا من قبل كيف أرغمت الظروف خلفاء المعز بن باديس
في المهديّة على اصطناع سياسة بحرية ، وكيف كانوا يغيرون على السواحل
الابيطالية ، وعلى جزر سرديانية وصقلية ، وكانت هذه الغارات البحرية نوعا
من الجهاد ضد النصارى ، وكانت الاعتداءات الزيرية على بلاد النصارى
قد بلغت ذروتها في عهد تميم بن المعز ، بحيث اضطرت الدول التي تعرضت
لغاراته إلى الاتفاق فيما بينها على القيام بعمل مشترك لتأديبه . وشجع البابا
فكتور الثالث على تكوين طائفة من رجال البحر من البيزيين والجنوبيين
للالغارة على السواحل الإفريقية ، ردا على غارات الزيريين : ففي سنة ٤٨٠ هـ
قدم « أهل جنوة وبيشة » (٢) Pisa في أسطول يتألف من ٣٠٠ سفينة تحمل
٣٠ ألف مقاتل لمحاصرة المهديّة ، فاستولوا على المهديّة وزويلة ، وأحرقوا
ديارها ، وقتلوا السكان فيها ، وبعث ابن عذارى دخولهم في هاتين المدينتين
« بغية عسكر سلطانها عنها ، ومفاجأة الروم قبل استقدامه إليها ، وأخذ
الأهبة للقائهم ، وخلو كافة الناس من الأسلحة والعدد ، وقصر الأسوار
وتهدمها ، وتكذيب تميم بنخيرهم ، وسوء تدبير عبد الله بن منكور متولى
أمر الدولة في قصده مخالفة قائد الاسطول في الخروج إليهم للقائهم في

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٥٩

(٢) ابن عذارى ، ١ ص ٤٣١ — ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٤٧ — ابن خلدون ، ج ٦

ص ٣٢٨ — ابن الخطيب ، ص ٨٧

الماء ومنعهم من النزول في البر ، فكان ذلك كله سبب تغلبهم على المدينتين
المهدية وزويلة ، ونهبهم إياهما ، وقتلهم الناس فيهما ، وإحراقهم بالنار ما هو
مشهور بالمهدية إلى الآن ، وقد استوعب ذلك أبو الحسن الجداد في قصيدته
التي أولها :

أني يلم الخيال أو يقف
وبين أجفاننا نوى الدنف
غزا حمانا العدو في عدد
هم الدبي كثرة أو اللنف
عشرون ألفا ونصفها ائتلفوا
من كل أوب وليت ما ائتلفوا
جاءوا على غرة إلى ثغر
قد جهلوا في الجروب ما عرفوا (١)

ولجأ تميم إلى قصر المهدي ، ثم فاضهم في الصلح ، واضطر إلى تقديم
مائة ألف دينار إلى الغزاة نظير تنازلهم عنهما ، فدفع هذا المبلغ بين فاض
وأواني ذهب وفضة ، فأقلعوا بذلك كله وبعدد عظيم من أسارى المسلمين
رجالا ونساء (٢) . وأحدثت هذه الغزوة الإيطالية دويا هائلا عند المسلمين .
وقد أعاد الروم الكرة مرة أخرى في سنة ٤٩٨ هـ ، فقدموا في أجفان كثيرة
جربية تعرف بالشواني ، و ٢٣ مركبا ، ويذكر ابن عذارى أنهم كانوا

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٣٢

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٨ - ابن الخطيب ، القسم الثالث من أعمال الأعلام ،

ص ٧٨ - Marçais, la Berberie musulmane, p. 221

يهدوفون إلى إيجاد فرصة لدخول المهديّة كالمرّة السابقة ، « فقصّوا إلى باب دار الصناعة ليمنعوا أسطول المهديّة من الخروج إليهم ، فخاب ظنهم ، وخرج أسطول المهديّة إليهم فهزموهم ، وقتلوا كثيرا منهم » (١) .

ولكن هذه الغزوات الرومية لم تعرقل حركة الجهاد البحري الإسلامي ، فقد صرف يحيى بن تميم همه « إلى غزو النصارى في الأساطيل البحرية ، فاستكثر منها ، واستبلغ في اقتنائها ، وردد البعوث إلى دار الحرب فيها حتى اتقته أمم النصرانية بالجزى من وراء البحر من بلاد الفرنجة وجنوة وسردينية » (٢) .

ب - سقوط المهديّة في أيدي النورماندين :

كان تميم قد عقد بينه وبين روجار الأول هدنة في سنة ٤٦٨ هـ ، وظلت هذه الهدنة قائمة في عهد تميم وابنه يحيى ثم على ، غير أن المنافسات التجارية بين صقلية والمهديّة أدت في النهاية إلى خرق الهدنة (٣) . وحدثت بين روجار وعلى بن يحيى بن تميم جفوة شديدة كان سببها خلافا حدث بين على ابن يحيى ورافع بن كامل بن جامع الرياحي ، بسبب رغبته في احتكار التجارة البحرية ، وقد أدى هذا الخلاف إلى خروج على لحصار رافع في قابس سنة ٤٩١ هـ ، ودون بعض قبائل العرب ، فاستعان رافع بروجار صاحب صقلية الذي أمد رافع بأسطول صقلية أغار به على المهديّة ، فتمكن على بن

(١) ابن عذاري ، ص ٤٣٤

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٩

(٣) Marçais, la Barberie, p. 221

يحيى من هزيمة أسطول صقلية بساحل قابس^(١)، وبدأ منذ ذلك الحين يدعم أسطوله ويقويه استعدادا للحرب. ولما كان على يدرك تماما عدم قدرته على مواجهة روجار وحده، فقد كاتب المراتبين بمراكش للاجتماع معه على الدخول إلى صقلية وكف روجار عما يعتزمه^(٢). ويذكر ابن عذارى أن رجار صاحب صقلية أرسل في سنة ٥٢١ هـ رسولا إلى الأمير طي بن يحيى « يلتبس تجديد العقود وتأكيدها العهد، ويطلب أموالا كانت له موقفه بالمهدية وذلك بعنف وغلظة، فرد على رسوله دون جواب، وجهه بالقول، فتزايدت الوحشة بينه وبين رجار، فأوسع شرا، وحاول بعد ذلك مكرا،^(٣).

وتوفي علي وخلفه ابنه الحسن آخر أمراء بني زيري، وحدث في عهده أن قام أبو عبد الله بن ميمون، قائد أسطول علي بن يوسف بن تاشفين بالإغارة سنة ٥١٦ هـ على جزيرة صقلية، فافتتح مدينة نقوطرة Nicotera، من عمل رجار الثاني، وسبي نساءها وأطفالها، وقتل شيوخها، وسلب جميع ما وجدته فيها، فلم يشك روجار في أن المحرك لذلك والمسبب له « هو أمير إفريقية الحسن بن علي، لما تقدم بينه وبين أبيه من الوحشة العظيمة، فاستنفر أهل بلاد الروم قاطبة، فالتأم له مالم يعهد مثله كثرة، فعلم بذلك الحسن بن علي، فأمر بتشديد الأسوار، واتخاذ

(١) ابن الأثير: ج ٨ ص ٢٧٩ - ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣٠، ٣٤٢ - محمد المرزوقي،

قابس، القاهرة ١٩٦٢ ص ١٧٢

(٢) ابن عذارى، ج ١ ص ٤٤٤ - ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٩

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ٤٤٣

الأسلحة ، وحشد القبائل واستقدام العرب ، فجاءت الحشود من كل جهة
ومكان ، والناس متأهبون لما يترقبهم منهم » (١) .

اتخذت حملة روجار طابع الحملات الصليبية ، وأبحرت الحملة من ميناء
مرسالة بقيادة جرجى بن ميخائيل الأنطاكي وعبد الرحمن بن عبد العزيز ،
وكان جرجى نصرانيا هاجر من الشام بعد أن تعلم العربية ، وبرع في
الحساب ، فاصطنعه تميم ، فلما توفي تميم رحل جرجى إلى صقلية ، فاستخدمه
روجار على قيادة أسطوله ، فلما عزم روجار على حصار المهديّة ، بعثه في
أسطوله سنة ٥١٦ المذكورة في ٣٠٠ جن تحمل نحو ألف فارس ، ووصل
هذا الأسطول في أواخر جمادى الأولى سنة ٥١٧ هـ إلى ساحل إفريقية ،
فافتتح جرجى جزيرة قوصرة ، ثم قصد بأسطوله إلى ساحل المهديّة ،
واستولى على جزيرة الاحاسى وقصر الديماس في ٢ جمادى الآخرة ، ولكن
المسلمين تمكنوا من دخول الجزيرة وهزيمة الروم إلى أجفانهم ، وحاصروا
قصر الديماس ، فاضطر عسكر صقلية إلى طلب الأمان من الأمير الحسن ،
ولكن العرب الذين اشتركوا معه في تحرير الجزيرة رفضوا ذلك ، فخرج
الصقليون من القصر في منتصف جمادى الآخرة ، فأخذتهم السيوف ،
وأبيدوا عن آخرهم (٢) . وأقلع الروم بمن فر من الجزيرة منهم في السفن
عائدين إلى صقلية .

أدرك رجار الثاني بعد هذه الهزيمة استحالة فتح المهديّة في ذلك الوقت ،

(١) المرجع السابق

(٢) نفس المرجع ص ٤٤٥ — ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣١

فأرجأ ذلك إلى فرصة مواتية ، وأخذ يعد العد للحملة أخرى . ولما أغار بنو حماد على المهديّة سنة ٥٣٠ هـ ، وحاصرها يحيى بن العزيز بالله صاحب بجاية بقواته برا وبحرا ، « صالح الحسن رجار ووصل يده به ، واستمد منه أسطوله » (١) ، فأمدّه رجار بعشرين سفينة ، كما استنجد الحسن بأعراب بني هلال ، فقدوا لنجدته واضطر يحيى بن العزيز إلى رفع الحصار عن المهديّة رغما عنه ، والعودة بجيشه إلى بجاية . ومنذ ذلك الحين بدأ ملك صقلية يتطلع إلى الاستيلاء على مدن إفريقية التي خرجت على طاعة الحسن ابن علي ، فقد سير رجار أسطوله في سنة ٥٣١ هـ إلى جزيرة جربة واستولى عليها (٢) ، وفي سنة ٥٣٦ هـ ، أغار جرجى الأنطاكي على مرسى المهديّة في ٢٥ غرابا ، واستولى على ما كان راسيما به من سفن (٣) ، وفي العام التالي ، أغار أسطول صقلية على طراباس ، ولكن النورمان لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها لحصانتها وشدة دفاع أهلها عنها . وفي سنة ٥٣٨ هـ هاجم أسطول النورمان مدينة سفاقس واستولوا عليها ، وأصبحت سفاقس تابعة لملك صقلية ، وفي نفس هذه السنة استولى النورمان على بونة وجيجل ، وتمكنوا من الاستيلاء كذلك على برشك في العام التالي (٤) . ثم سار أسطولهم بعد ذلك إلى سواحل إفريقية وتمكنوا من الاستيلاء على جزيرة قرقة سنة ٥٤٠ هـ ، وقتلوا رجالها ، وسبوا حريمها . فأرسل الحسن إلى رجار يذكره بالعمود القائمة بينهما ، ويعنفه على نقض هذه العمود ، فاعتذر

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣١

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٤٥٠

(٣) نفس المرجع ص ٤٥١

(٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٠

له رجار بأنه لم يهاجم إلا البلاد التي خرجت على طاعة الحسن ، وأنه مازال حافظا للعهود (١) .

ثم أعاد النورمان الكرة على طرابلس مرة ثانية في سنة ٥٤١ هـ وحاصروها بقيادة جرجى الأنطاكي . وأنفق أن دب الخلاف بين المدافعين عن المدينة ، فاستغل النورمان ذلك واستولوا عليها (٢) . وفي سنة ٥٤٢ هـ ثار أهل قابس على يوسف مولى محمد بن رشيد بن كامل بن جامع ، فاستنجد يوسف برجار ، فقدم أسطول النورمان إلى مدينة قابس ، وفي الوقت نفسه تدخل الحسن بن علي في النزاع القائم بين الأهالي ويوسف ، لمصلحة الأهالي ، وانتهى الأمر بمقتل يوسف . فاتخذ رجار من مقتل حليفه ذريعة لنقض الهدنة بينه وبين الحسن ، ومهاجمة المهديّة ، وكان قد عقد مع الحسن صلحا لمدة سنتين ، ويذكر ابن الأثير أن رجار « علم أنه فاته فتح البلاد في هذه الشدة التي أصابتهم ، وكانت الشدة دوام الغلاء في جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين إلى هذه السنة (٥٤٣) . وكان أشد ذلك منه سنة ٥٤٢ هـ ، فان الناس فارقوا البلاد والقرى ، ودخل أكثرهم إلى مدينة صقلية ، وأكل الناس بعضهم بعضا ، وكثر الموت في الناس ، فاغتنم رجار هذه السنة ، فعمر أسطوله ، وأكثر منه ، فبلغ نحو ٢٥٠ شينيا مملوءة رجالا وسلاحا وقوتا ، وسار الأسطول عن صقلية ، ووصل إلى جزيرة قوصرة ، وهي ما بين المهديّة وصقلية ، فصدفوا بها مركبا وصل من المهديّة ، فأخذ أهله ، وأحضروا بين يدي جرجى مقدم الأسطول ، فسألهم عن حال إفريقية ،

(١) نفس المرجع ص ١١

(٢) نفس المرجع ص ١٢

ووجد في المركب قفص حمام ، فسألهم : هل أرسلوا منها ، فحلفوا بالله أنهم لم يرسلوا شيئا ، فأمر الرجل الذي كان الحمام صحبته أن يكتب بخطه : إننا لما وصلنا جزيرة قوصرة ، وجدنا بها مراكب من صقلية ، فسألناهم عن الأسطول المخدول ، فذكروا أنه ألق إلى جزائر القسطنطينية ، وأطلق الحمام ، فوصل إلى المهديّة ، فسر الأمير الحسن والناس ، وأراد جرجى بذلك أن يصل بغتة ، ووصل الأسطول النورمندی إلى المهديّة في أواخر سنة ٥٤٣ ، وخادع أهلها بأنه إنما جاء مدداً للأمير ، ودخل النورمان المهديّة بدون مقاومة ، واحتل جرجى قصر الأمير فوجده كما هو بكل ما فيه من ذخائر ، فأمن الناس ، ثم أرسل من هناك أسطولا إلى سفاقس ، فاستولى عليها ، وأنبعها بسوسة ، وأصبحت بلاد الساحل كلها تابعة للملك صقلية (١) .

أما الأمير الحسن بن علي فقد خرج من المهديّة بحاشيته ، وتبعه أهل المدينة ، فاتجه إلى قلعة محرز بن زياد بقرطاجنة ، فلم يرحب به محرز صاحبها ، فعزم على الرحيل إلى مصر ، والإقامة في كنف الحافظ عبد المجيد (٢) . فترصد له جرجى الأنطاكي في البحر ، فاضطر إلى الرحيل نحو قسنطينة ، وكان بها سبع بن العزيز أخى يحيى صاحب بجاية ، فأرسله إلى جزائر بني مزغنة حيث أقام بها إلى أن فتح الموحدون الجزائر سنة ٥٤٧ هـ فأكرمه عبد المؤمن ، واشترك معه بعد ذلك في منازلة المهديّة ، فلما افتتحها في ١٠ محرم سنة ٥٥٥ هـ ، أسكن بها الحسن (٣) .

(١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٨ — ٢٠

(٢) كان يحيى بن تميم قد دخل في طاعة العبيدين ، ووصلته الخطابات والهدايا (ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٨) . وفي عهد ابنه علي وصله رسول الخليفة الفاطمي من مصر بالخطابات والهدايا سنة ٥١١ هـ (ابن عذاري ، ص ٤٤٢ — ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٩)

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣٣

(٥)

انقراض دولة بني حماد

رأينا من قبل كيف انقسمت دولة الصنهاجيين في المغرب منذ عهد نصير الدولة باديس بن المنصور بن بلكين سنة ٤٠٥ هـ إلى شعبتين : شعبة من آل باديس وكان مقرهم المهدية ، وشعبة من آل حماد بن بلكين ، وكان مقرهم قلعة حماد ثم انتقلوا بعد ذلك إلى بجاية ، التي بنيت من جديد في عهد الناصر ابن علناس بن حماد سنة ٤٥٧ هـ . وقد رأينا أن المنصور بلكين كان قد عقد لأخيه حماد على أشير والمسيلة ، وكان يتداول ولايتها مع أخيه يطوفت وعمه أبي البهار ، ثم استقل بها سنة ٣٨٧ هـ في عهد باديس بن المنصور . وكان المنصور قد عهد إليه بمحاربة زناته سنة ٣٩٥ هـ ، بالمغرب الأوسط نظير ولاية أشير والمغرب الأوسط وكل بلد يفتحه ، وقد بذل حماد جهودا موفقة في محاربة زناته ، واختط مدينة القاعة بجبل كتامة سنة ٣٩٨ هـ ، ونقل إليها جماعة من أهل المسيلة وأهل جراوة ، ومصر القلعة ، وشيد بديانها وأسوارها ، فازدهرت في عهده وأصبحت مركز الرحلة . وغاية طلاب العلم ، وأرباب الصنائع (١) ، وظل حماد يفتح الحصون والبلاد ويضمها إلى ولايته ، فافتتح تيجس وقسنطينة وغيرها ، فلما طالبه باديس بالتخلي عن هاتين المدينتين ، أبي وخالف دعوة باديس ، وبذ طاعة الفاطميين كذلك . وزحف إلى باجة واستولى عليها ، فحاربه باديس في سنة ٤٠٦ هـ ، وظل مقبلا على محاربته إلى أن توفي . فلما تولى المعز بن باديس الإمارة ، تم الصلح بينه وبين حماد ، على أن يستقل هذا بالمغرب الأوسط .

ولما توفي حماد في سنة ٤١٩ هـ ، خلفه ابنه القائد ، وكان القائد بن حماد
سديد الرأي ، حسن السيرة ، فاستقام له أمر المغرب الأوسط ، وسار القائد
على نهج أبيه حماد في الخروج على طاعة الفاطميين . وتوفي القائد في
سنة ٤٤٦ هـ ، فخلفه ابنه محسن ، ولكن محسن لم ينعم بالإمارة أكثر من تسعة
شهور ثم قتل بيد عمه بلكين بن محمد بن حماد ، وكان بلكين سفاكا للدماء ،
فقتل وزير ابن أخيه محسن ، ثم قتل والي بسكرة لما أحس بخروجه عليه ،
ثم قتل ناميرت بنت عمه علناس بن حماد . وقد حارب بلكين المرابطين ،
واستولى على فاس سنة ٤٥٤ هـ ، ثم عاد إلى القلعة ، ولكنه قتل على يد
الناصر بن علناس انتقاما منه لقتله أخته ناميرت (١) . وخلفه الناصر بن
علناس الذي تنسب إليه مدينة الناصرية ، وهي بجاية ، وأقام الناصر بها
قصرًا رائعًا خارج بجاية يعرف بقصر اللؤلؤة (٢) ، وانتقل إليها في سنة ٤٦١ هـ .
واتسع ملك الناصر بن علناس اتساعًا كبيرًا ، فبايعه أهل القيروان سنة ٤٦٠ هـ .
ولما توفي في سنة ٤٨١ هـ خلفه ابنه المنصور الذي عرف بولعه بالبناء ، فأسس
جامع بجاية ، وجدد قصورها ، وتأثق في اختطاط المباني ، وتشيد القصور ،
وإجراء المياه في الرياض والبساتين ، فبنى في القلعة قصر الملك ، وقصر
المنار ، وقصر الكوكب ، وقصر السلام وغيرها (٣) . وقد حارب المرابطين ،
وحاصر تلمسان ، ثم تركها صلحًا . وفي أيامه قدم عز الدولة بن صمادح إلى
بجاية ، بعد أن دخل المرابطون المرية ، فأقطعه تدلس بالجزائر .

ولما توفي المنصور ، سنة ٤٩٨ هـ ، خلفه ابنه باديس ، الذي لم يطل به

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥٣ — ابن الخطيب ص ٨٨

(٢) نفس المرجع ص ٣٥٧ — ابن الخطيب ص ٩٦

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٥٨

العهد في الإمارة ، إذ توفي في نفس السنة التي تولى فيها . وخلفه أخوه
العزیز ، وفي عهد العزیز هاجم العرب الهلالية قلعة بني حماد ، فاكثسحوا
عمرانها ، وعظم عيشتهم بنواحيها ، ثم تولى بعده ابنه يحيى سنة ٥١٥ هـ ،
وقد قضى يحيى حياته بين العبيد والمملوكين والمضحكين ، وفي عهده انقرضت
دولة بني حماد ، إذ تمكنت جيوش عبد المؤمن بن علي من دخول بحماية في
سنة ٥٤٧ هـ ، واستولوا كذلك على قلعة بني حماد .

الباب الرابع

المغرب الاسلامي في ظل دولتي المرابطين والموحدين

الفصل العاشر

قيام دولة المرابطين في المغرب

(١) تأسيس دولة المرابطين

أ - أصل المرابطين

ب - رباط عبد الله بن ياسين

ج - انطلاق المرابطين إلى المغرب الأقصى

د - ظهور يوسف بن تاشفين

(٢) تأسيس مراكش وقيام دولة المرابطين

(٣) المرابطون في الأندلس

أ - أحوال الأندلس عند قيام دولة المرابطين

ب - موقعة الزلاقة

ج - تغلب يوسف بن تاشفين على الأندلس

د - جهاد المرابطين في الأندلس منذ دخولها في فلك دولتهم في المغرب

(٤) أسباب ضعف دولة المرابطين وانهارها

(٥) منشآت المرابطين في المغرب

أ - دور المرابطين السياسي والحضري في المغرب

ب - دراسة لأهم مساجد المرابطين في المغرب

ج - جامع القرويين بفاس

د - آثار القلاع والأسوار

الفصل العاشر

قيام دولة المرابطين في المغرب

(١)

تأسيس دولة المرابطين

١ - اصل المرابطين :

أخذ المغرب الإسلامي يعتمد على نفسه منذ أن أعلن المعز بن باديس الانفصال السياسي والمذهبي عن الدولة الفاطمية ، وبينما كانت إفريقية في صراع متواصل مع عرب بني هلال وبني سليم من جهة ، والنورمان الغازين لسواحلها من جهة أخرى ، كانت هناك قوة جديدة أخذت تنبثق في أقصى جنوب المغرب الأقصى ، فيما وراء جبال درن ، وما لبثت أن تولدت منها دولة المرابطين الكبرى التي شملت النصف الغربي من بلاد المغرب ، وأنقذت الإسلام الذي كانت تهدده المسيحية بإسبانيا ، ودام عهدها نحو قرن من الزمان ، من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن السادس الهجري .

ففي الوقت الذي قدمت فيه حشود القبائل العربية من مصر تدمر في طريقها عمران طرابلس وإفريقية ، وتغنى على معالم الحضارة في هذه البلاد ، خرجت قبيلة لمتونة الصنهاجية من جوف الصحراء ، واستقرت في المغرب الأقصى حيث أسست دولة كبرى هي دولة المرابطين .

وأصل المرابطين من صنهاجة الجنوب الضاربة في الصحراء . وقد أرغمت الظروف قبائلها : لمتونة وجدالة ومسوفة على التحالف فيها بينها ، وكانت لمتونة تتولى رئاسة سائر هذه القبائل ، ويعتقد الدكتور حسن محمود أن هذا

الحلف كان يرمى إلى مدافعة ملك غانة في الجنوب ، والسيطرة على مسالك تجارة السودان إلى المغرب بالاستيلاء على مدينة أودغشت (١) الواقعة إلى الشمال الشرقي من تمبكتو شمالى نهر النيجر . وآلت رئاسة قبائل صنهاجة في أوائل القرن الخامس الهجرى إلى محمد بن نيفات اللطى ، وكان من أهل الفضل والدين والجهاد، واستشهد في واقعة بين قومه وبين أهل السودان (٢) . ولما توفي انتقلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة التى كانت أقدر على محاربة السودان لأن ديارها كانت أقرب إلى ديار السودان . فتولى أمر صنهاجة يحيى بن ابراهيم الجدالى ، وكان يحيى هذا متمطشا إلى علوم الدين التى حرم منها هو وقومه في هذه البقاع الصحراوية ، فأراد أن يسعى إلى طلب العلم والوقوف على أصول الدين الاسلامى فى مدارس القيروان وفاس ، والاستزادة من العلوم الدينية ، فخرج من بلاده فى سنة ٤٢٧ هـ بعد أن استخلف عليها ولده يحيى (٣) ، للحج أولا ، ثم لارتياك المراكز الثقافية فى المغرب بحثا عن فقيه يتولى توجيه قومه توجيها دينيا سليما . فلما عاد من الحج سنة ٤٢٨ هـ ، نزل بالقيروان ، وكانت القيروان فى هذه الفترة قد نبذت المذهب الشيعى، وعادت إلى السنية ، واسترجعت مكانتها القديمة كقاعدة للمالكية فى المغرب ، وأتيح ليحيى فى القيروان سماع عالم من أعظم أئمة المالكية وعلوم الدين ، هو الفقيه أبو عمران موسى بن الحاج الغفجوى الفاسى (٤) ، ويبدو أن يحيى بن

(١) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٠١ - ١٠٣

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٢٢٦ . وورد اسمه فى روض القرطاس محمد بن تيفات المعروف بتارشتا ، بينما ذكره ابن خلدون باسم أبى عبيد الله بن تيفات المعروف بنشرت المتونى (ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٣)

(٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ص ٧٦

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٤ - ابن الخطيب ، المرجع السابق ، ص ٢٢٦

ابراهيم تأثر بتعاليم أبي عمران ، واجتذبه سحر بلاغته وفصاحته وتفقهه في الدين ، فطلب منه أن يبعث معه إلى قبيلته من يثق فيه من طلبته لهدايتهم وتبصيرهم ، فوجد منه قبولاً واستجابة ، فوجه أبو عمران الدعوة لهذه المهمة الكبرى إلى طلبته ، ولكنهم زهدوا في قبول هذه المهمة لبعد مواطن لمتونة عز بلادهم . وكان لأبي عمران فقيه بربري من طلبته يكرس حياته لهذه الرسالة السامية ، هو وجاج بن زلو اللمطي ^(١) ، ويسميه ابن خلدون محمد و كاك ابن زلو اللمطي ^(٢) ، وكان مقياً برباط أقامه ببلدة نفيس من بلاد السوس ^(٣) ، وما إن تلقى وجاج رسالة أستاذه أبي عمران حتى انتدب ليحيى بن إبراهيم طالبا صنهاجي الاصل من جزولة ، من أهل الدين والفقه والتقوى ، يعرف باسم عبد الله بن ياسين الجزولي ، ولم يتردد ابن ياسين في قبول هذه المهمة إذ اعتبرها من صميم رسالته في الجهاد ونشر تعاليم الإسلام الصحيحة بين سكان هذه النواحي الذين حرروا من نعمة المعرفة والعلم .

ومضى يحيى بن إبراهيم ، أمير جدالة ، يصحبه عبد الله بن ياسين إلى مضارب لمتونة ، فأعجب به شيوخها ، واحتفلوا بقدومه ، وأقبلوا عليه للسمع والتحصيل ، وشرع عبد الله بن ياسين في تثقيفهم وإرشادهم إلى الأصول الصحيحة للدين والفقه ، ولم تقف تعاليمه إلى هذا الحد ، بل عمد إلى تقويم أخلاقهم ، وتطبيق حدود الشريعة ، وتغيير المنكر ، ومقاومة شهوات النفس ،

(١) الحلل الموشية ، ص ٩

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٤

(٣) الحلل الموشية ، ص ٩ - ابن الخطيب ، ص ٢٢٧ . ويذكر ابن خلدون أنه كان

وعندئذ زهد الناس بهذه الأحكام والحدود ، وبرموا بدعوته الإصلاحية
الأخلاقية التي تدعو إلى إزالة المنكرات واجتناب المحذورات (١) ، لما
ألفوه من الإقبال على أعمال السلب والنهب . ومع تبرمهم وتذمرهم من هذه
التعاليم ، فقد احتملوا وجوده رهبة من زعيمهم يحيى بن إبراهيم ، فلما
توفي يحيى لم يستطع خليفته يحيى بن عمر أن يمنع صنهاجة من الاعتزال عن
ابن ياسين ، وترك الأخذ عنه ، فعزم ابن ياسين على الرحيل .

ب — رباط عبد الله بن ياسين :

خرج عبد الله بن ياسين قاصدا بلاد السودان حيث يمكنه أن يؤدي
رسالته بين أقوام أقل ضراوة من اللستونيين الصناهجة (٢) . وأبى رئيس
صنهاجة إلا أن يرافقه ، ورحل معها أبو بكر بن عمر ، شقيق يحيى بن عمر .
فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بها الماء من جهاتها ، فدخلوا في غياضها
منفردين برسم الانقطاع للعبادة (٣) . وذكر ابن الخطيب أنه صحبهم سبعة
رجال من جدالة (٤) . ومن المرجح أن هذه الجزيرة التي قصدها ابن ياسين
وأتباعه تقع في السنغال الأدنى (٥) ، وهناك أسس عبد بن الله ياسين رباطا ،
والرباط من المراقبة ، أي ملازمة الثغور للجهاد حيث ترابط خيل المجاهدين ،
من قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون

(١) ابن الخطيب ، ص ٢٢٧

(٢) Marçais, la Berberie musulmane, p. 239

(٣) ابن الخطيب ، ص ٢٢٧ — ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٤

(٤) نفس المرجع ص ٢٢٧

(٥) Marçais, la Berberie, p. 239

به عدو الله وعدوكم». فالرباط في الأصل هو المكان الذي تجتمع فيه الخيل استعدادا لمقاتلة العدو، وترتبط الكلمة بواجبات الجهاد، وحينئذ يقصد بالرباط ارتباط الخيل إزاء العدو في الثغور، ومنها جاء تصريف مرابط، أى الملازم لشغل العدو أخذًا من قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون». والرباط هو بناء يجتمع فيه من تفرغ للعبادة من الزهاد والصالحين استعدادا للجهاد في سبيل الله ضد أعداء الدين، فهو بناء يجمع بين الصفتين الدينية والحربية، ويسمى من يسكنه مرابطا^(١). وقد كان بناء الأربطة من أهم الأعمال التي يقوم بها الأمراء والخلفاء، فالاسكندرية كانت تعتبر ثغرا من الثغور الإسلامية التي يجاهد فيها المسلمون، ولذلك قسم عمرو بن العاص أجناده قسمين: قسم أبقاه معه في القسطنطينية، وقسم وزعه إلى نصفين، نصف لمرباط الاسكندرية وحدها، والنصف الثاني لسائر السواحل. وكان عمر بن الخطاب يبعث كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط في الاسكندرية^(٢). كذلك اهتم عثمان بن عفان برابطة الاسكندرية. وقد وصف ابن رسته رباطات الاسكندرية فقال: «بالاسكندرية رباطات مع الساحل يضرب ماء البحر حيطانها تسمى المحارس»^(٣). كذلك كانت سواحل الشام مزودة بالمحارس والأربطة المشحونة بالمقاتلة، وكان معاوية يوجه إلى هذه الأربطة جماعات كثيفة من

(١) Marçais, Ribat, dans l'Encyclopédie de l'Islam

(٢) السيوطي (جلال الدين)، حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، ج ١ ص

٧١، طبعه مصر ١٣٢٧ هـ

(٣) ابن رسته، (أبو علي أحمد بن عمر): كتاب الأعلام النفيسة، الجزء السابع من

المكتبة الجغرافية العربية، ليدن ١٨٨١ ص ١١٨

الجند يشحنها بهم للدفاع عنها إذا ما أغار عليها الروم من جهة البحر (١) .
ولقد اهتم العباسيون ببناء الا ربططة على سواحل المغرب، اهتماما كبيرا، وقد
أشرونا إلى ذلك عند حديثنا عن منشآت الاغالبية .

تسامع بعبد الله بن ياسين كثير من الصالحين والراغبين في تحصيل
العلوم الدينية ، فتسايلاوا إليه ، وأخذوا عنه ، ولم يمض زمن طويل حتى
كان رباط ابن ياسين يضم نحو ألف رجل . وقد أخلص له هؤلاء الرجال
وأطاعوه طاعة عمياء ، وعرفوا بالمرابطين . نسبة إلى رباط ابن ياسين ،
الذي تلقوا فيه تكوينهم الروحي والحربي ، وحوهم من رعاة جمال إلى
طبقة من المجاهدين (٢) ، فهم أهل الرباط الذين آلوا على أنفسهم منذ
انضمامهم إلى ابن ياسين التفاني في سبيل النهى عن المنكر ، وقيل أنهم سموا
بالمرابطين لشدة صبرهم وحسن بلائهم (٣) . وعرفوا أيضا بالملثمين ،
لاتخاذهم لثاما داكن اللون يغطي الجزء الأدنى من وجوههم على نحو ما يفعله
الطوارق اليوم ، كما عرفوا بالمتونيين ، نسبة إلى قبيلة لتونة التي كانت
تتولى الرئاسة على سائر قبائل صنهاجة الضاربة فيما وراء الرمال الصحراوية
جنوبي جبال درن .

وكان ابن ياسين يفرض على من يخالف تعاليمه عقوبات رادعة، ولذلك
فإن تعاليم المرابطين تشبه إلى حد كبير تعاليم الخوارج الاباضية . وقد استطاع

(١) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام : تاريخها وآثارها في العصر الاسلامي ،

مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية عدد ١٦ ، ١٩٦٢ - ١٩٦٣ ص ٤٩

(٢) Marçais, la Berberie, p: 232

(٣) الحلل الموشية ، ص ١٠

عبد الله بن ياسين ، في أمد وجيز ، أن يؤلف جيشا محاربا جعل على قيادته صاحبه يحيى بن عمر ، وكان يحيى هذا مخلصا لدعوة ابن ياسين ، متفانيا في الطاعة له ، وهكذا كون ابن ياسين جيشا قويا ، وعندئذ شرع في نشر تعاليمه بين قبائل صنهاجة .

ج - انطلاق المرابطين الى المغرب الاقصى :

لما اكتمل عدد أتباع ابن ياسين ألفا ، جمعهم وقال : إن ألفا لن تغلب من قلة ، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه ، وحمل الكافة عليه ، فاخرجوا بنا لذلك ^(١) . وكان ابن ياسين يأمر أتباعه بجهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة على أن يبشوا الإعذار والإنداز سبعة أيام ، فلما يش من إجابتهم ، شرع في الغزو ، وبدأ بجدة الفأوق فيهم واقعة قتل فيها منهم نحو ستة آلاف رجل وأسلم باقيهم إسلاما حسنا ^(٢) . وسرعان ما خضعت لتوثة ومسوفة وجدة ومطة وغيرها من قبائل صنهاجة الضاربة في الشمال حتى نهر درعة ، وأذعنت صنهاجة لطاعته ، واستقاموا على الاسلام الصحيح ، فساهم بالمرابطين ، وبلغ عبد الله بن ياسين عن طريق الفقيه وجاج اللطى ، ما نال المسلمين من العسف والجور على أيدي بني وانودين المغراويين ، أمراء سجلماسة ، وقد حرضهم وجاج على تغيير أمورهم ^(٣) . فخرج المرابطون من الصحراء في سنة ٤٤٥ في أعداد ضخمة ، واتجهوا إلى درعة ، فاصطدموا بجيش مسعود ابن وانودين أمير مغراوة ، وصاحب سجلماسة ودرعة ، فانهزم هزيمة نكراء

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٧٥

(٢) ابن الخطيب ، ص ٢٢٨

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٧٥

وقتل في المعركة ، ودخل المرابطون مدينة سجلماسة ، واصباحوا من أحوالها
وغيروا المنكرات ، وأسقطوا المغارم والمكوس ، وبعثوا عمالهم على
الصدقات .

ثم تدفق المرابطون في موجات كالسحابة إلى الواحات المغربية الواقعة بين
نهر درعة الأوسط وتافيلالت ، إلا أن زناته ، لم تحتل غزو الصنهاجة ،
فثارت تافيلالت ، وخرجت سجلماسة على المرابطين ، فأعلن عبد الله بن
ياسين الجهاد ، وسار إلى قتال زناته ، ولكن قائده يحيى بن عمر قتل في إحدى
المعارك سنة ٤٤٧ هـ ، فخلقه على القيادة أخوه أبو بكر بن عمر ، ثم تدعمت
جيوش المرابطين بانضمام جزولة ولطة ، وقاتل المرابطون الشيعة الرافضة في
تارودانت ، وتمكنوا من افتتاحها وافتتاح ماسة ، وبذلك استولوا على
السوس بأسره سنة ٤٤٨ هـ . وبعث أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين إلى
واحات درعة فنجح في استردادها فيما بين عامي ٤٤٨ هـ ، ٤٤٩ هـ ، وتوغل
المرابطون في هذا العام في الحوز ، واجتازوا أطلس الغربي ، واحتلوا بلاد
جدميوة ، وأمتدت فتوحهم حتى وادي تنسيفت من بلاد رجراجة .

ثم ولي المرابطون وجوههم شطر المغرب الجنوبي الشرقي ، فدخلوا مدينة
أغمات ومايلها سنة ٤٤٩ هـ ، وفر أميرها لقوط بن يوسف بن علي المفاوي
إلى تادلا ، وتدفعت جيوشهم على بلاد المضامدة بجبال درن ، فجاسوا
خلالها ، ثم غزوا تادلا ، واشتبكوا مع بني يفرن أصحابها في سنة ٤٥٠ هـ ،
وقتل في هذه المعارك لقوط بن يوسف صاحب أغمات .

ثم دعا المرابطون إلى جهاد برغواطة بتامسنا وأتفا والريف الغربي ،
واستشهد عبد الله بن ياسين في إحدى المعارك بالقرب من وادي كريفلة سنة

٥٤٥٠ هـ . وذكر ابن الخطيب أن ابن ياسين أصيب في هذه المعركة بجرح مميت ، فلما أحس بدنو أجله جمع أشياخ صنهاجة وقال : « يا معشر المرابطين ، أنا ميت في يومى هذا ، وأنتم في بلاد أعدائكم ، فإياكم أن تمثثوا وتمثلوا وتذهب ريحكم ، كونوا ألفة على الحق ، وإخوانا في الله ، وإياكم والمخالفة والتحاسد على الدنيا ، وإني ذاهب عنكم ، فانظروا من ترضونه لأمركم ، يقود جيوشكم ، ويغزو أعداءكم ، ويقسم فيكم زكاتكم ، وأعشاركم » (١) . ولما توفي ابن ياسين تولى زعامة المرابطين الروحية بعده فقيه اسمه سليمان بن عدو ، ولكنه توفي بدوره في عام ٤٥١ هـ ، ولم يخلفه رئيس آخر ، وإنما توارث سلطته فقهاء المالكية الذين واصلوا تعاليم ابن ياسين ، وكانوا يوجهون الأمراء ويحركونهم ، وخاصة في عهد الأمير علي بن يوسف .

ويبدو أن المرابطين أخذوا يخفون من غلوهم في حركة الإصلاح التي قاموا بها ، وتحولت هذه الحركة الدينية تدريجيا إلى حركة سياسية ، كان الغرض منها السيطرة على المغرب .

ثم نازل أبو بكر بن عمر مدينة لوانة وافتتحها سنة ٤٥٢ هـ ، وقتل من كان بها من الموحدين ، غير أن هذه الفتوحات لم يكتب لها الاستمرار ، فقد حدث في هذه السنة شقاق بين لمتونة ومسونة ببلاد الصحراء ، « حيث أصل أعيانهم ، وشائج أعراقهم ، ومنيع عددهم » (٢) ، فخشي أبو بكر أن تفرق كلمتهم وتشتت جموعهم ، وتتصدع صفوفهم ، ورأى ضرورة السفر إلى الصحراء ليصلح بين القبيلتين ، ويربأ الصدع ، وعهد إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين بقيادة جيوش المرابطين في المغرب ، وفوض إليه قتال زناتة ، ثم مضى إلى الصحراء .

(١) ابن الخطيب ، ص ٢٣٠

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٧٧

د - ظهور يوسف بن تاشفين :

اتفق في هذا الوقت أن قام بلكين بن محمد بن حماد بغزو المغرب الأقصى ،
وافتح فاس سنة ٤٥٤ هـ (١) ، ثم أخذ بعض رهائن من أهلها ، وعاد بهم
إلى قلعته ، وكان الفتوح بن دوناس بن حماسة قد تنازل عن فاس إلى ابن
عمه معنصر بن المعز بن زيري بن عطية ، فبايعته قبائل مغراوة بفاس
وأحوازها في رمضان سنة ٤٥٥ . ولما قفل الأمير أبو بكر بن عمر إلى
الصحراء ، أقام يوسف بن تاشفين بأطراف المغرب ، في سنة ٤٥٤ هـ ، وعمد
إلى تأسيس عاصمة المرابطين بدلا من أغمات ، لتكون مركزا لقواته في
جنوب المغرب ، واختار موقعا على ضفاف نهر تنسيفت ، بين مدينتي أغمات
ونفيس ، حتى يتهيأ لها مراقبة المصامدة ، ثم تحرك يوسف في سنة ٤٥٥ هـ
ليستأنف فتوحاته بعد أن استعرض قواته ، « فكانوا أربعين ألفا ، عقدم
على أربعة من القوادوم محمد بن تميم الجدالي ، وعمر بن سليمان المسوفي ،
ومزدالي التلكاتي ، وسير بن أبي بكر اللتوني » (٢) ، ثم زحف إلى أحواز
فاس ، وأبدى أميرها معنصر شجاعة عظيمة في مقاومة المرابطين ، فصابروا
وانتصر عليهم في إحدى المواقيع ، ولكن يوسف تمكن من دخول فاس
صالحا في سنة ٤٥٥ هـ بعد أن فر عنها معنصر ، وخلف يوسف عليها عامله ،
ثم مضى لمحاربة غمارة ، وفتح كثيرا من حصونها وقلاعها ، فانتهاز معنصر
فرصة قيامه بمحاصرة قلاع بلاد فازاز (٣) ، ودخل مدينة فاس ، وقتل عامل

(١) ابن الخطيب ، ص ٨٨

(٢) ابن الخطيب ، ص ٢٣٤

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٩

يوسف عليها ومن كان بها من المرابطين ، ولما بلغ يوسف ذلك سير المهدي ابن يوسف الجزنائي أمير مكناسة ، وكان قد بايع يوسف بن تاشفين بالإمارة ، إلى فاس ، فهاجمه معنصر وقتله سنة ٤٥٦ هـ ، وكان يوسف وقتئذ مشغولا بمحاصرة قلعة مهدي من بلاد فازاز ، فوجه بعض قواته لمحاصرة فاس ، أما هو فقد مضى يفتتح الحصون والمعقل ، فنزل بلاد بني مراسن ونزلاوة وورغة سنة ٤٥٨ هـ ، ثم مضى إلى بلاد غمارة سنة ٤٦٠ هـ ، وكانت قواته المحاصرة لفاس قد قطعت عنها المرافق حتى اشتد الأمر على أهلها ، وقتل معنصر أثناء إحدى الاشتباكات سنة ٤٦٠ هـ ، فخلفه ابنه تميم . ولما فرغ يوسف من أمر غمارة سنة ٤٦٢ هـ ، زحف إلى فاس ، وحاصرها أياما ثم افتتحها الفتح الثاني سنة ٤٦٢ (١) ، ودخلها بالسيف ، وقتل من أهلها سبعة آلاف نسمة من جملة سكانها وعددهم ٤٣ ألفا (٢) ، وقيل أنه قتل ثلاثة آلاف من أهلها (٣) .

وفي هذه الأثناء كان أبو بكر بن عمر قد وطد الأمن في الصحراء ، وأزال الخلاف القائم بين قومه . ثم عاد إلى المغرب الأقصى لاستئناف فتوحاته . ولكنه وجد يوسف قد استبد عليه . ويذكر ابن الخطيب أن يوسف لما قابل أبا بكر بن عمر ، « تلقاه راكبا لم ينزل له وعامله معاملة مختصرة ،

(١) نفس المرجع ، ص ٣٨٠ . وذكر صاحب الحلل الموشية أنه فتحها في سنة ٤٦٧ هـ (الحلل ص ١٦) ، بينما يذكر ابن أبي زرع أنه فتحها في سنة ٤٦٢ (الروض القرطاس ص ٩١) .

(٢) ابن الخطيب ، ص ٢٣٦ .

(٣) القلقشندي ، ج ٥ ، ص ١٨٨ - السلاوي ، الاستقصا ج ٢ ص ٢٢٥ .

واستظهر من جيوشه بما هاله عدده ، وقال له ما تصنع بهذه الجيوش يا يوسف ؟ فقال : أستعين بها على من خالفنى . ونظر إلى بعير موقورة خلفه ، فقال : وما هذه الإبل ؟ فقال : جئتك بها بكل ما عندى من مال وكساء وطعام لتستعين به على الصحراء . فعرف قصده فى استمساكه بالأمر ، وتورع عن هياجه ، وقعد معه على الأرض ، وقال له : يا يوسف ، اتق الله فى المسلمين ، ولا تضيع شيئا من أمورهم ، فانك مسئول عنهم ، والله خليفك عليك وعليهم » (١) . ثم مضى إلى الصحراء فى سنة ٤٦٥ هـ (٢) حيث استشهد فى إحدى معاركه ببلاد السودان (٣) .

ولما دخل يوسف مدينة قاس حصنها وأتقنها ، وأمر بهدم الأسوار التى كانت تفصل بين المدينتين ، وردهما مصر واحدا ، وأدار عليها الأسوار ، وأمر ببناء المساجد فى أحوازها وأزقتها وشوارعها ، فاذا اكتشف زقاقا لا يقوم فيه مسجد عاقب أهله . وبنى بفاس الحمامات ، والمناطق ، والأرحاء ، وأصلح أسواقها (٤) .

(١) ابن الخطيب ، ص ٢٣٣

(٢) الحلل الموشية ، ص ١١

(٣) ابن الخطيب ، ص ٢٣٣

(٤) روض القرطاس ، ص ٩١ - ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨٠

(٢)

تأسيس مراکش وقيام دولة المرابطين

يذكر صاحب الحلل الموشية أن الأمير أبا بكر بن عمر اللمتوني شرع في بناء مراکش في سنة ٤٠٢ هـ، وكان موضعها خلافاً لأنيس به إلا الغزلان والنعام، ولا ينبت إلا السدر والحنظل، ويذكر أيضاً أن الناس أقاموا دورهم فيها دون أن يحيطوا بالمدينة بسور. ويضيف صاحب الحلل إلى ما سبق أن يوسف بن تاشفين أقام بها في سنة ٤٦٣ هـ الحصن المعروف بحصن قصر الحجر بركة مراکش، وجعله بأدنى السور وحصنه (١).

ويكاد يجمع المؤرخون على أن يوسف بن تاشفين اختط مدينة مراکش في سنة ٤٥٤ هـ ٢، ولكن ابن عذاري يشير إلى أن أبا بكر بن عمر اللمتوني هو الذي شرع في بنائها في سنة ٤٦١ هـ (٢). ويذكر صاحب الاستبصار أن يوسف بن تاشفين أسسها في سنة ٤٥٩ هـ (٤)، في حين يذكر ياقوت أن يوسف بن تاشفين خططها في حدود سنة ٤٧٠ هـ (٥). ومن هذه التواريخ المتعددة نستبعد تاريخ سنة ٤٠٢ الذي حدده صاحب الحلل للشروع في بناء مراکش، لأنه تاريخ يسبق مبايعة المرابطين لأبي بكر بن عمر بالإمارة عليهم

(١) الحلل الموشية، ص ٦، ١٣

(٢) ابن الخطيب، ص ٢٣٤ — ابن خلدون، ج ٦ ص ٣٧٨ — روض القرطاس ص ٨٩

(٣) ابن عذاري، ص ٤٣٠ — ارجع أيضاً إلى: أحمد مختار العبادي، دراسة حول

كتاب الحلل الموشية، تطوان، ١٩٦٠

(٤) الاستبصار ص ٢٠٨

(٥) ياقوت، معجم البلدان، مادة مراکش، مجلد ٥، ص ٩٤

بفحو ٤٥٥ عاما . وتاريخ سنة ٤٦١ هـ الذى حدده ابن هذارى للشروع فى بناء مراکش تاريخ غير معقول لأن يوسف بن تاشفين لم يشرع فى فتح فاس وقلاع فازاز إلا بعد أن أسس قاعدة له فى الجنوب للسيطرة على جبل درن الذى يسكنه المصامدة (١) . كما نستبعد أيضا تاريخ سنة ٤٧٠ هـ الذى حدده ياقوت لخطيط المدينة فهو متأخر كثيرا . ويبقى لنا تاريخان هما سنة ٤٥٤ و ٤٥٩ . أما سنة ٤٥٩ فهو التاريخ الذى حدده صاحب الاستبصار لتأسيس المدينة ، وينفرد به دون غيره ، وأما سنة ٤٥٤ هـ فهى سنة أجمع عليها عدد من المؤرخين للشروع فى تأسيس مراکش . ونعتقد أن مراکش أسست على يد يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٥٤ أى فى الفترة التى غادر فيها الأمير أبو بكر بن عمر أرض المغرب إلى الصحراء ، ولا شك فى أن يوسف بن تاشفين هو الذى تولى بناءها ، لأن أبا بكر كان مشغولا فى هذا التاريخ بإزالة الخلافات القائمة بين قبائل صنهاجة ، ولما عاد بعد أن فضها تماما تخلى ليوسف عن الإمارة ، ونعتقد أن بناء المدينة استغرق خمس سنوات ، وأنه تم فى حدود سنة ٤٥٩ التى ذكرها صاحب الاستبصار .

ويذكر ابن أبي زرع أنه اشترى موضع مدينة مراکش من جماعة من المصامدة ، فسكن الموضع بنخيام من الشعر ، وأسس مسجدا للصلاة ، وقصبة صغيرة لتخزن أمواله وسلاحه ، لعلمها القصر المعروف بقصر الحجر (٢) . وعندما شرع فى بناء المسجد كان يحترم ويعمل فى الطين والبناء بنفسه مع الخدم والفعلة تواضعا منه وتورعا ، وأم يؤسس يوسف بن تاشفين حول

(١) الاستبصار ، ص ٢٠٩ — ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٨

(٢) الحلل الموشية ، ص ١١

المدينة سورا ، ويخدد ابن أبي زرع الموضع الذي كانت تشغله مراکش في عهد يوسف من مدينة مراکش التي كانت على أيامه بالموضع المعروف في عصره بسور الخير ، إلى الشمال من جامع الكتبيين (١) .

وكانت مراکش في أرض صحراوية منخفضة ، فحفر لها يوسف الآبار ، وجلب إليها المياه (٢) ، ولم يكن يحيط بمراكش من الجبال سوى جبل صغير كانت تقطع منه الأحجار التي بنى على بن يوسف بها قصره ، أما عامة بناء مراکش فكان من الطوب واللين (٣) .

وسور مدينة مراکش من بناء الأمير على بن يوسف ، بناه في ثمانية أشهر في سنة ٥٢٦ هـ (٤) ، وقيل في سنة ٥١٤ هـ (٥) ، وكان لهذا السور عدة أبواب منها أبواب أغات ودكالة والديباغين وبينتان والصالحة والشرية والمخزن . وظلت مدينة مراکش معسكرا حريبا ، وقاعدة عسكرية لقوات المرابطين إلى أن حاصرتها قوات الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي في المحرم سنة ٥٤١ هـ ، فنزل بجبل بغيرها يسميه صاحب الحلال بجبل الجبلين (٦) ، وصحبة الاسم جبل ايكليز (٧) وفقا لما ذكره البيهقي أو جبل الجليز على حد

(١) روض القرطاس ، ص ٨٩

(٢) نفس المرجع ص ٨٩

(٣) نفس المرجع

(٤) نفس المرجع

(٥) الاستبصار ص ٢٠٩ — ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٨

(٦) الحلال الموشية ، ص ١٠٢ — Lévei - Provençal, Extraits, p. 40

(٧) أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيهقي ، كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة

للموحدين ، نشره ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٢٨ ، ص ١٠٢

ما ذكره صاحب الحلال الموشية في موضع آخر (١). وهناك ضرب عبد المؤمن القبة الحمراء ، وبذكر صاحب الحلال أن عبد المؤمن أقام على هذا الجبل مدينة استند إليها ، وبني فيها مسجدا وصومعة طويلة يشرف منها على مراكش (٢) ، ثم زحف الموحدون بجمعهم إلى مراكش ، ووضع عبد المؤمن الكائن عند مدينته ، فخرج جيش المرابطين لملاقاة الموحدين ، فتظاهر هؤلاء بالهزيمة ، ثم خرجت الكائن على فرسان المرابطين وسحقهم سحقاً ، وقتل منهم ما لا يحصى عدده ، وأتبع الموحدون فل المرابطين بالسيوف إلى الأبواب ، وأحكموا عليهم الحصار . غير أن البيذق الذي حضر دخول الموحدين مراكش يذكر أن القتال بين المرابطين والموحدين استمر أربعة أيام ، كان يخرج فيها من المرابطين الأمير اسحق بن بينتان (٣) ، ومحمد بن حواء ، ومحمد بن يانكالا ، وفي اليوم الخامس تمكن الموحدون من هزيمتهم ، وأتبعوهم بالسيوف حتى باب الشريعة وهناك قتلوا منهم عددا هائلا (٤) .

وطال الحصار على أهل مراكش ، واشتد الجهد بهم ، ولكثرة خيلهم ورجلهم نفذ طعامهم ، وفنيت مخازنهم ، حتى أكلوا دوابهم ، ومات منهم بالجوع ما ينيف على مائة وعشرين ألفا (٥) . وبذكر ابن خلدون أن الحصار استمر سبعة أشهر ، فلما طال على أهل المدينة ، وجهدهم الجوع ،

(١) الحلال الموشية ، ص ١٠٢

(٢) نفس المرجع

(٣) هو الأمير اسحق بن علي بن يوسف ، بويغ له بالامارة وهو صبي ، بعد أن خلع شيوخ المرابطين ابن أخيه ابراهيم بن تاشفين (ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨٩)

(٤) البيذق ، ص ١٠٣

(٥) الحلال الموشية ص ١٠٢ ، وواضح أن صاحب الحلال قد بالغ في احصائه لعدد القتلى

برزوا إلى مدافعة الموحدين ، فانهزموا وتتبعهم الموحدون بالقتل ، وفي ١٨ شوال سنة ٥٤١ هـ ، اتصل الروم ، الذين كانوا يؤلفون فرقة من جيش المرابطين ، بعبد المؤمن ، واستأمنوه ، فأمنهم ، وانفقوا معه على أن يدخلوه مراكش من الباب المعروف بباب أغمات (١) ، فأمر عبدالمؤمن بعمل السلام للأسوار ، فلما تمت وزعها على القبائل المحاصرة للمدينة ، وبفضل هذه السلام تمكن جنود الموحدين من تسنم الأسوار ، فدخلت هنتاتة وأهل تينال من جهة باب دكالة ، ودخلت صنهاجة وعبيدالمخـزن من جهة باب الدباغين ، ودخلت هسكورة مع القبائل من جهة باب بينتان ، فافتتحت مراكش ، ودخلها الموحدون بالسيف ، ودار القتال في المدينة ، وامتنع الأمير اسحق بن علي وجملة قاداته بداخل القصبة المعروفة بقصر الحجر وكان قصرا حصينا . ودار القتال حول القصر حتى الزوال ، ولم يتمكن الموحدون من دخوله إلا بعد أن ماتت فانو بنت عمر بن بينتان ، وكانت تقاتل في زى الرجال ، واستسلم الأمير وجملة من الأمراء ، فنقلهم الموحدون إلى جبل الجليز حيث قتلهم أبو الحسن بن واكالك (٢) .

وبقيت مراكش بعد أن دخلها الموحدون لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج ثلاثة أيام ، فقد أبي الموحدون دخولها لأن المهدي كان يقول لهم لا تدخلوها حتى تطهروها ، فسأل الموحدون فقهاءهم عن ذلك ، فأخبروهم بأن محارب مساجدها تميل إلى الشرق ، وهي في ذلك تنحرف عن القبلة الصحيحة ، والتشريق والتجريف غير جائز في الإسلام ، ولا بد من تطهير هذه المساجد بهدمها وبناء مساجد أخرى ، فهدمت جوا مع مراكش لذلك السبب ،

(١) المرجع السابق

(٢) البيهقي ، ص ١٠٣ — الحبل الموشى ص ١٠٢ — ابن خلدون ج ٦ ص ٤٧٩

ومن بينها المسجد الجامع الذي بناه علي بن يوسف في أدنى المدينة ، بدار الحجر ، فهدم بعضه (١) وأقيم الجامع المعروف بالكثبية . ونزل عبد المؤمن مراکش ، واتخذها عاصمة لدولته ، وأقام فيها الدور ، واتخذ القصور (٢) ، وجلب إليها المياه من جهة أغات لسقاية البساتين التي اتخذها فيها (٢) ، وأخذ في البناء والفراصة وترتيب القصور (٤) . وقد اهتم خلفاء عبد المؤمن بمدينة مراکش اهتماما خاصا ، فأقاموا بها المنشآت العظيمة ، وأمهروها بمختلف أنواع المبانى ، ونخص من هؤلاء بالذكر المنصور الموحدي الذي كان مولعا بفن البناء ، فبنى بمراكش بعد انتصاره في الأرك بيارستانا من أعظم ما أقيم في العالم الاسلامي سمي بدار الفرج (٥) ، وكان يقع إلى الشرق من المسجد الجامع المعروف بالكثبية ، وكان قد تخير لبنائه ساحة فسيحة من أجل مواضع مراکش ، وأمر البنائين باتقان بنائه ، فزينوه بالنقوش البديعة والزخارف الرائعة ، وأمر الخليفة بأن يغرس فيه من جميع أشجار الفاكه ، وأجرى فيه مياهها كانت تصل إلى جميع غرفه (٦) ، كما أقام به أربع برك في

(١) البيهقي ص ١٠٥

(٢) المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٠٧

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مراکش ، مجلد ٥ ، ص ٩٤

(٤) المراكشي ، ص ٢٢٧

(٥) الاستبصار ، ص ٢١٠

(٦) أدرك البناء والمهندسون مسلمون مالمسبك والبحيرات الصناعية من أهمية في بحث الراحة وبث الهدوء في النفس ، ولذلك اتجهوا إلى مزج الطبيعة بالعمارة ، وذكر المتريزي أن بناء بيارستان قلاوون بالقاهرة فطنوا إلى أهمية المسبك والسقيات في علاج المرضى ، فتولى الأمير علم الدين سنجر الشجاع أمر عمارته ، فأقام بيارستانا يتألف من أربعة إيوانات ، كل إيوان شاذروان ، وبدر قاعاتها فسقية يجري إليها الماء من الشاذروانات ،

وسط صحنه إحداهما من الرخام الأبيض ، « وأمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف ، والكتان ، والحرير ، والأديم ، وغيره بما يزيد على الوصف ، ويأتي فوق النعت ، وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة ، خارجاً عما جلب إليه من الأدوية ، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فإذا نقه المريض ، فإن كان فقيراً ، أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل ، وإن كان غنياً دفع إليه ما له ، وترك وسببه ، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء ، بل كل من مرض بمراكش من غريب جمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت ، وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله ، ويعود المرضى ويسأل عن أهل بيت ، أهل بيت ، أهل بيت » (١) .

كذلك اهتم المنصور ببناء قصبة مراكش ، وجامعها إزاءها ، وصومعته ، كما اهتم بأكمل بناء منار جامع الكتبيين المشهور ، وذلك بعد انتصاره في الأرك (٢) . ولقد ازدهرت مراكش في عصر الموحدين ازدهاراً لم تشهده من قبل في عصر المرابطين ، فأتسع عمرانها ، وزادت مرافقها ، وعمرت بمختلف أنواع البنية والمنشآت التي تهتم خلفاء الموحدين بإقامتها ، وقد

== كما أجرى الماء في حيم قاعات البيمارستان (انظر المقرئى الخطط ، ج ٢ ص ٣٢١ - ٢٢٣ ، طبعة بيروت ١٩٥٩ وانظر أيضاً أثر مزج المنظر الطبيعي بالعمارة في محاضرتي : القيم الجمالية في فن العمارة الإسلامية ، بيروت ١٩٦٢ ص ٢١)

(١) المراكشى ، ص ٢٨٧

(٢) روس القرطاس ، ص ١٥١

وصفها ابن سعيد المغربي في هذا العصر بقوله : « وهي مما سكنت بها وعرفت ظاهرا وباطنا ، ولا أرى عبارة تنفي بما تحتوى عليه ، ويكفي أن كل قصر من قصورها مستقل بالديار والبساتين والحمام والاصطبلات والمياه وغير ذلك ، حتى إن الرئيس منهم يغلق بابه على جميع خوله وأقاربه وما يحتاج إليه ، ولا يخرج من بابه إلى خارج داره كحاجة يحتاجها ، ولا يشتري شيئا من السوق لأكل ، ولا يقرى أولاده في مكتب وبظاهرها مدينة اختطها المنصور يعقوب ^(١) ونحواصه بتامراكش ، وبها قصر الخلافة الذي بناه ، به دور عظيمة ، وبها بستان يعرف بالبحيرة طوله ١٢ ميلا ، به بركة عظيمة لم يعمل مثلها ، وبمراكش جامع جليل يعرف بالكتبيين طوله مائة وعشرة أذرع ، وعلى بابه ساعات مرتفعة في الهواء خمسين ذراعا كان يرى فيها عند انقضاء كل ساعة صنجة زنتها مائة درهم ، تتحرك لتزولها أجراس تسمع على بعد تسمى عندهم بالبيجانة » ^(٢) .

ويصفها صاحب الاستبصار في أواخر القرن السادس الهجري بقوله : « ومدينة مراكش اليوم من أعظم مدن الدنيا بهجة وجمالا بما زاد فيها الخليفة الإمام ، وخليفته أمير المؤمنين أبو يعقوب ، وخليفته أبو يوسف ، رضى الله عنهم ، فإن الخليفة الإمام بنى فيها جامعا عظيما ، ثم زاد فيه مثله أو أكثر في قبلته ، كان قصرا ^(٣) ، ورفع بينهما المنار العظيم الذي لم يشيد في الإسلام مثله ، وأكمله ابنه وخليفته أبو يعقوب رحمه . وجلب الخليفة الإمام

(١) يقصد التعصبة التي بناها المنصور

(٢) التلمتشيدي ، ج ٥ ص ١٦٢

(٣) يقصد بذلك أن الجامع أقيم على أنقاض قصر الحبر المراكشي .

المياه من أودية درن ، وغرس بحيرة عظيمة بغربي المدينة قبل نفيس ، دورها ستة أميال ، وبني فيها وخارجها صهريجين عظيمين ، كنا في تلك المدة نعوم فيهما ، فلايكاد القوي منا يقطع الصهريج إلا عن شقة ، وكننا نتفاخر بذلك . وأحدث الخليفة بعده ابنه أبو يعقوب ، رضى ، بحائر مثلها في الغرس بل أجمل ، وجلب لها المياه ، وأخذها في صهاريج أعظم من المتقدمة ، وزاد في قبلة المدينة حصنا أنقذه الآن ابنه الإمام الخليفة أبو يوسف ، رضى ، وزاد عليه مدينة أخرى تقارب الأولى في دورها ، وكانت بحائر عظيمة ، فبناها قصورا وجامعا وأسواقا وفنادق ، وجلب التجار إلى قيسارية عظيمة لم يبن في مدن الأرض أعظم منها ، وأمر بممارتها أول سنة ٥٨٥ هـ . ومدينة مراکش أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعناب وفواكه وجميع الثمرات ؛ وكانت قبل ذلك يطير الطائر حولها فيسقط من العطش والرمضاء ، وأكثر شجرها الزيتون ، ففي مراکش اليوم من الزيتون والزيت ، ما يستغنى به عن غيرها من البلاد ، وتمير بلادا كثيرة . وكان زيتها قبل اليوم دهن المهرجان ، لأنه بتلك البلاد كثير جدا ، وزيتون مراکش أكثر من زيتون مكناسة ، وزيتها أرخص وربما أطيب (١) .

وظلت مراکش عاصمة للموحدين حتى أيام الواثق بالله أبي العلاء إدريس المعروف بأبي دبوش ، فقد تحالف أبو دبوش مع بنى مرين ليمتولى الخلافة ، نظير تخليه لهم عن مدينة مراکش . وكان المرتضى غافلا عن شأن أبي دبوش ، وكانت الأسوار خالية من حراسها ، وحاميتها ، فانتهاز أبو دبوش هذه الفرصة ، وتسور مراکش من باب أغمات ، ودخلها على حين

فجأة، وقصد القهبة، فدخلها من باب الطبول (١)، ففر المرتضى من مراکش إلى
آزمور حيث مات قتيلا في سنة ٦٦٥ هـ، ولكن أبا دبوس نكث بعهده لبني
مربن، فاضطر الأمير أبو يوسف يعقوب المربني إلى مهاجمة مراکش في سنة
٦٦٨ هـ، وانتهى الأمر بمقتل أبي دبوس وإمام أسوار مراکش التي دخلها
جيش بني مربن في ٢ من المحرم سنة ٦٦٨ هـ (٢).

ولقد تأثر عمران مراکش بالفتن المتواصلة التي اشتعلت نيرانها في أواخر
أيام الموحدين، واستولى الهدم والخراب على معظم ديارهم بمراكش عند
سقوط دولتهم. ويذكر الوزير أبو الحسن بن سعيد العنسي أنه وجد على
بعض قصورها مكتوبا بالفصح:

ولقد مرت على رسوم ديارهم
فبكيتهما والربع قاع نصف
وذكرت مجرى الجور في عرصاتهم
فعلت أن الدهر فيهم منصف

فأخذ قطعة من البياض المتبقى من الجيار، وكتب تحت البيتين
السابقين:

له في عليهم بعدهم بمثالهم
بالله قل لي في الوري هل يخلف
من ذا يجيب مناديا لوسيلة
أم من يجير من الزمان وينصف (٣)

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٤٨٠

(٢) أبو الوائد اسماعيل بن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مربن، الرباط ١٩٦٢،

ص ١٩

(٣) الحلل الموشية، ص ١٢٨

ولقد ضعف شأن مراکش في عصر بني مرين ، لانتهازهم مدينة فاس حاضرة لهم ، فتأثر عمرانها بذلك ، وانخفضت مكانتها السياسية. وقد وصف ابن الخطيب أسوارها الحصينة ، وزيتونها وفواكهها في عصر بني مرين بقوله : « اقتعدت البسيط المسيد ، واستظهرت بتشيد الأسوار وأبراج الحديد ، وبكى الجبل من خشيتها بعيون العيون ، فسالت المذانب كصفاح القيون ، وقيدت طرف الناظر المفتون أدواح الشجر بها وغابات الزيتون... زيتنا الزمن بعصر ، وخيرها يمد ولا يقصر ، وفواكهها لا تحصى ولا تحصر ، فاذا تناصف الحر والبرد ، وتبسم الزهر وخجل الورد ، وكسا غدرانها الحائرة الخلق السرد ، قلت انجز للمتقين من الجنة الوعد ، وساعد السعد ، وما قلت إلا بالذي علمت سعد » . ثم يصف خرابها وتدهورها في عصر بني مرين فيقول : « وخرابها موحش هائل ، وبعد الاقطار عن كثير من الأوطار بها حائل ، وعدوها ينتهب في الفتن أقواتها ، وجردات المقابر تأكل أمواتها ، وكانت أولى المنازل بالاغياء ، لو أنها اليوم معدودة في الأحياء » (١) .

ثم استعادت مراکش مكانتها في عصر الأشراف السعديين كعاصمة للبلاد ، وخاصة في عصر السلطان أحمد بن محمد السعدي الملقب بالمنصور الذهبي ، الذي أمهرها بأروع الأبنية التي أعادت ذكرى منصور الموحدين ، واستحضر لعمارة قصوره عمالا وصناعا من سائر البلاد ، وجلب الرخام من إيطاليا ، وشرع السلطان في بناء قصره المعروف بالبديع داخل قصبة

السعديين سنة ٩٦٥ هـ ، وكان قصيرا مربع الشكل في كل جهة منه قبة ، وكان يزدان بالرخام المجزع ، والمرمر الأبيض المفضض والأسود (١) ، « كل رخامة طلى رأسها بالذهب الذائب ، وموه بالنضار الوافي ، وفرشت أرضه بالرخام العجيب النحت ، الصافي البشرة ، وجعل في أصناف ذلك الزلاج (٢) » المتنوع التلون حتى كأنه خمائل الزهر ، أو برد موشى ، وأما سقفه ، فتجسم فيها الذهب ، وطلبت الجدارات به ، مع بريق النقش ورائق الرقم بخالص الجبص ... وفيه الأشعار المرقومة في الأستار ، والأبيات المنقوشة في الخشب والزليج والجبص ما يسر الناظر ويروق المتأمل ويهر العقول » (٣) . واتخذ المنصور لنفسه في مراکش بلاطا أقرب ما يكون إلى البلاطات الشرقية في الترف والعظمة ، إذ كان يجلس في قصر البديع ، وقد مد فيه ، ومهد من فرش الحرير ، وصفة النمارق ، وتدلّت الأستار والكلل والحبال المخوضة بالذهب على كل قبة وحناية (٤) .

* * *

كان تأسيس مراکش تدعيا لمركز المرابطين في المغرب ، ثم كانت استيلائهم على مدينة فاس في سنة ٤٦٢ هـ سببا في اختلاطهم بالحضارة الأندلسية المغربية ، ونجح يوسف بن تاشفين ، في إخضاع قبيلتي مكناسة

(١) ارجع الى اعمال المنصور الذهبي في كتاب « نزعة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى » تأليف محمد الصغير ، نشره «وداس Houdas » ، باريس ١٨٨٨ .

(٢) جمع كلمة زليج ، ويعرف بالاسبانية اليوم باسم Azulejos ، وهو نوع من الفسيفساء يبسط به قاعات ديار أهل الأندلس ويشبه المفضض (الفسيفساء) ، وهو ذو ألوان هجبية يقيمونه مقام الرخام الملون (المقرى ' نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ، ١٨٨)

(٣) محمد الصغير كتاب نزعة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى .

(٤) عهد العزيز سالم ، المغرب الإسلامى ، ج ٢ ص ١٨١

ولواتة ، واستولى على أكثر بلاد المغرب الغربي ، ثم وجه ابن تاشفين جهوده بعد ذلك إلى ناحية الشمال الشرقي ، ففي سنة ٤٦٣ هـ زحف إلى وادي ملوية ، فافتتح بلادها ، وعلى حصون وطاط من نواحيها ، وأخضع قبيلة غمارة مرة أخرى ، وافتتح حصن علودان من حصونها (١) . وفي سنة ٤٦٧ هـ ، وجه همه إلى إخضاع غياثة وبنى مكود بأحواز تازي ، وافتتح تازي . وقسم يوسف بن تاشفين المغرب بين أبنائه وذويه وشيوخ قومه وأمرائهم . ثم تطاع بعد ذلك إلى معبري الاندلس طنجة وسبتة ، وكان يحكمها سكوت البرغواطى وعشيرته من أولياء الدولة الحمودية بسبتة . فاشتبك المرابطون بقيادة صالح بن عمران مع سكوت في ظاهر طنجة ، فانهزم سكوت وقتل في المعركة ، وتحصن ابنه ضياء الدولة بسبتة (٢) . ويبدو أن المعتمد بن عباد ملك إشبيلية أرسل سفارة برئاسة أبي بكر بن القصيرة إلى يوسف لينجده على الفونسو السادس ، وأبدى يوسف استعداداه لذلك ، إذا تهيأ له الاستيلاء على معبري الاندلس ، طنجة وسبتة (٣) .

(١) ابن خلدون ، ج ٣ ص ٣٨٠

(٢) سكوت البرغواطى كان من سبي برغواطى في زمن علي بن حمود ، ثم ألقى إليه يحيى ابن علي بمقاييد سبته ، وأشرك معه في عمالاتها مولى آخر من مواليه اسمه رزق الله ويكنى بأبي العطف . وفي عهد إدريس بن يحيى ، تمكن سكوت من القضاء على شريكه في سبتة ، وأصبح منذ ذلك الحين أميرا مستقلا بسبتة ، وتلقب بالمنصور المعاني في سنة ٤٥٣ هـ وظل سكوت قائما بسبتة وطنجة وأصبلا إلى أن سار إليه يوسف بن تاشفين ، قائد صالح بن عمران فنزل بموضع يعرف بالدمنة سنة ٤٧١ هـ ، واصطدم المرابطون بابنه ضياء الدولة في طنجة ، تغلب المرابطون ، ودخلوا طنجة ، وقتل سكوت (انظر :

Joaquin Vallvé Bermejo, Suqut al-Bargawati, rey de Ceuta, al-Andalus, vol. XXVIII fasc. 1, Madrid, 1963, pp. 171-209)

Ibid. p. 180 (٣)

وفي سنة ٤٧٢ هـ سار القائد المرابطي مزدلي التلكتاني على رأس جيش كثيف لمحاربة مغراوة ملوك تلمسان في المغرب الأوسط، وفي العام التالي قام يوسف بفتح المغرب الشرقي وساحل الريف، فاستولى على مليلة، وخرب نكور، واستولى على وجدة وبلاد بني سنان، واستولى بعد ذلك على تلمسان وقتل أميرها العباس بن بخي، وأقام مكانه محمد بن تينعمر، وبذلك فقدت زناتة عاصمتها الأخيرة. وأقام يوسف مدينة جديدة هي تاكرارت بجوار أغادير القديمة، وتوغلت جيوشه في المغرب الأوسط واستولت على تنس ووهران وجبل وانشرس (١)، ووصلت حتى الجزائر، وتوقفت عند مدخل بلاد قبيلي من من أراضي صنهاجة الشرقية، ولم يدخل المرابطون في صراع مع إخوانهم الصنهاجيين في الجزائر وتونس، وهكذا انقسم المغرب الإسلامي إلى قسمين: شرقي يحكمه بنو زيري وبنو حماد الصنهاجيين وغربي يحكمه المرابطون.

عاد يوسف إلى مراکش في سنة ٤٧٥ هـ، ويبدو أنه وصلته في ذلك الوقت كتب من أهل الأندلس يسألونه أن ينقذ الأندلس مما ألم بها من مصائب على أيدي القشتاليين، وكان لابد له أن يحتاط للتدخل في الأندلس، فوجه ابنه المعز في عساكر المرابطين إلى سبتة معبر الأندلس، فنازلها برا، ويذكر ابن خلدون أن أساطيل ابن عباد حاصرتها بحرا، وتمكن المعز بن يوسف من الاستيلاء عليها عنوة في ربيع الآخر سنة ٤٧٦ هـ، وقبض على ضياء الدولة وقتله بسيفه. وتفصيل ذلك كما ورد في الذخيرة لابن بسام أن المعتمد بن عباد سير إلى سبتة سفينة ضخمة كأنها قصر بناء على الماء،

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٨١

فهاجمت ميناء سبتة ، ثم قدم أسطول المرابطين في صفر سنة ٤٧٦ هـ لمحاورة سبتة من البحر ، « ولقيه العزيز بن سقوت ببقية جمته من أسطول طالما أوسع البلاد شرا ، وملا قلوب أهلها ذعرا ، فكان لأول ذلك اليوم ظهر على أسطول المرابطين حتى أخذ منه قطعة جليلة المقدار ، ظاهرة الحماة والآنصار ... وارتاعت محلة المرابطين لأخذ تلك القطعة حتى هموا بالإحجام ، وقوضوا بعض الخيام ، وغضب أمير المسلمين وناصر الدين رحمه الله إحدى غضباته فكانت إياها ، ونفرت المنايا على سبتة ، وتقدمت تلك السفينة فأطلت على أسوارها ، ورفعت صوتها ببوارها ، وأفضت بدولة صاحب سبتة إلى سوء قرارها » (١) . وحاول العزيز بن سقوت الفرار في البحر ، ولكن المرابطين طاردوه ، فدخل دارا تعرف بدار تنوير بمدينة سبتة ، وهناك قبض عليه ،

(١) نص ابن بسام في كتاب الذخيرة ، نشره السنيور خوان كين فالفي Joaquín Vallvé

في مقاله السابق ص ٢٠٢

(٣)

المرابطون في الأندلس

١ - احوال الأندلس عند قيام دولة المرابطين :

بعد أن وحّد يوسف بن تاشفين بلاد المغرب ، وأقام دولة قوية تضم أقاليم القسم الغربي من المغرب لم يحاول أن يتلقب بالخلافة ، واكتفى بلقب أمير المسلمين ، وناصر الدين سنة ٤٦٨ هـ ، ودعا للخليفة العباسي ببغداد . ويزكر صاحب الحلل أن ابن تاشفين لما طالبه بعض أصحابه باتخاذ لقب أمير المؤمنين قال : حاشا لله أن نتسمى بهذا الاسم ، إنما تسمى به خلفاء بني العباس ، لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة . وأنا راجلهم ، والقائم بدعوتهم « (١) . هذا اللقب خلعه يوسف ابن تاشفين على نفسه دون الرجوع إلى الخليفة العباسي ، فلما انتصر يوسف في موقعة الزلاقة ، وأسقط ملوك الطوائف ، كتب إلى الخليفة المقتدى بالله ، يطلب منه الخلع والأعلام والتقليد ، فلم يعترض الخليفة على ذلك ، ولكنه لم يخاطبه بلقب أمير المسلمين ، وقد نشر الأستاذ الدكتور حسين مؤنس نص رسالة من الخليفة عبد الله العباس المستظهر بالله العباسي إلى علي بن يوسف ، لم يخاطبه فيها بلقب أمير المسلمين (٢) . وقد استخدم المرابطون لذلك السواد شعارا لهم في ملابسهم وأعلامهم (٣) .

(١) الحلال الموشية ، ص ١١

(٢) حسين مؤنس ، سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وإيادهم في الأندلس ،

مجلة المهد المصري للدراسات الإسلامية بمدير ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤ ص ٦٦ - ٦٨

(٣) أحمد مختار العبادي ، نظام الخلافة في المغرب الإسلامي في العصور الوسطى ،

فصل من كتاب فلاسفة الإسلام في المغرب العربي ، ص ١٥٦

وبينما كان يوسف بن تاشفين يعمل لتأسيس دولة كبيرة في المغرب كانت الاحداث تتطور تطورا سريعا في الأندلس ، فقد أدى انقسام الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة إلى دويلات للطوائف إلى ظهور العنصرية الهدامة بين المسلمين عربهم وبربرهم وصقالبتهم ، واستعان بعضهم على بعض ، بنصارى الشمال الذين وجدوا في ذاك سيفا مسلطا على الإسلام ، وفرصة مواتية للقضاء عليهم ، فاستغل فرناندو الأول ، وتسميه المصادر العربية فردلند ، ملك قشتالة وليون هذه الفرصة ، (١٠٣٥-١٠٦٥ م) واستولى على عدد من مدن الأندلس مثل بازو ، وقلمرية ، وأرغم ملوك الطوائف على شراء حمايته للاحتفاظ بعروشهم ، فلابدوا بالجزيات يدفعونها إليه ، إنقاء لشره ، ودرءاً لتهديداته ، ورغبة في خطب سلمه ومرضاته ، كما كانت وطأة ابنه الفونسو السادس أشد على المسلمين من وطأة أبيه فردلند ، فقد رأى أن يسدد الضربة الأولى بى طليطلة ، قلب الأندلس ، فأخذ يعد العدة ، للاستيلاء عليها ، ويتأهب لتحقيق هذا الهدف منذ سنة ٤٧١ ، وتمكن أخيرا من تحقيق أمنيته في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، وازداد بذلك قوة على قوته ، « وأخذ يجوس خلال الديار ، ويستفتح المعقل والحصون » .^(١) وأحدث سقوط طليطلة في أيدي القشتاليين دويا هائلا في المغرب والأندلس على السواء ، وقرعت نواقيس الخطر تنذر ملوك الإسلام في الأندلس بسوء المصير ، فأحسوا بضعفهم ، وتنبهوا بعد فوات الأوان إلى نهايتهم الوشيكة ، بل إن سقوط طليطلة ، كان نذيرا بالنهاية المحتومة لدولة الإسلام في الأندلس . وقد أدرك الشاعر عبد الله بن

(١) المقرئ ، فتح الطيب ، ج ٦ ص ٨٨

فرج اليحصبي المشهور بابن الفسال هذه الحقيقة ، فانشد يقول :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم
فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى
نوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا
كيف الحياة مع الحيات في سفت (١) .

استفحل خطر الفونسو السادس على دويلات الطوائف ، وذاق حلاوة
الانتصار على المسلمين في طليطلة ، فعزم على فتح مدن الأندلس كلها ،
وعرض عليه رعيته أن يلبس التاج ويعيد عادة أسلافه القوط ، فأرجأهم في
ذلك حتى يستولي على دار ملك المسلمين بقرطبة (٢) ، إذ كان يعتبر طليطلة
نقطة دائره الأندلس (٣) . ثم عمد إلى استذلال ملوك الطوائف بفرض
الإناءات والجزيات عليهم ، ثم إنه بدأ بالاعتماد بن عباد ، كبير ملوك الطوائف ،
فكتب إليه يطلب منه تسليم بعض حصونه وأعماله إلى رسالة وعماله ،
فكتب إليه بين ما كتبه : « من الأنبطور ذى الملتين ، الملك المفضل الأدفنش
ابن شانجة إلى المعتمد بالله سدد الله رأيه وبصره ، مقاصد الرشاد ، سلام عليك
من مشيد شرفته العنا ، وثبت في المنى ، فاهتز اهتزاز الرمح بعامله ، والسيف
بساعد حامله ، وقد أبصرتم منازل بطليطلة وأقطارها ، وما صار بأهلها حين

(١) المرجع السابق ج ٦ ص ٨٤

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ٢٤٤

(٣) الحلل الموشية ، ص ٢٢

حاصرها بمن صار في هذه السنين ... » (١) . فلما رأى ابن عباد ما رآه من إدار أمره ، وما يجثم على دولة الإسلام في الأندلس من أخطار ، شاور خاصته ، ووجوه دولته في الاستنجاد بيوسف بن تاشفين ، على القشتاليين ، فأشاروا بمداواة ألفونسو ، ومصانعته ، وعقد السلم معه على ما يشتهي من شروط ، إذ كانوا يخافون من يوسف بن تاشفين أن يسلبهم ملكهم ، ويشنت عليهم ، وحذروه ، من مغبة الاستنجاد بيوسف بن تاشفين ، وقالوا له : « الملك عقيم ، والسيوفان لا يجتمعان في غمد واحد » (٢) . ثم اختلى المعتمد بابنه وولي عهده الرشيد أبي الحسن عبيد الله ، فقال له : « أنا في هذه الأندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم ، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى ، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ، ليس فيهم نفع ولا يرجي منهم نصرة ، ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالتنا عدو ثقيل ، وهو اللعين أذفنش ، وقد أخذ طليطلة من ابن ذي النون بعد سبع سنين ، وعادت دار كفر ، وها هو قد رفع رأسه إلينا ، وإن نزل علينا بطليطلة ما يرفع عنا حتى يأخذ إشبيلية ، ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدو ، نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا ، فقد تلف لحاؤنا ، وتدبرت بل تبردت أجنادنا ، وأبغضتنا العامة والخاصة » . ولكن ابنه الرشيد لم يقره على هذا الرأي ، فقال لأبيه : « يا أبت ، تدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ، ويبدد شملنا » ، فقال : « أي ابني ، والله لا يسمع عني أبدا أني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى ،

(١) المرجع السابق ص ٢٣

(٢) المجبى ، ص ٨٥

فتقوم على اللعنة في منابر الإسلام مثل ما قامت على غيري، وحرز الجبال ،
والله ، عندي خير من حرز الخنازير » . فقال له : « يا أبقى افعل ما أمرك
الله » ، فقال « إن الله لم يلهمني بهذا إلا وفيه خير وصلاح لنا ولكافة
المسلمين » (١) . فكتب من فوره إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في
غرة جمادى الأول سنة ٤٧٨ هـ (٢) ، يستصرخه على ألفونسو، ويدعوه إلى
الجواز إلى الأندلس للجهاد وإحياء شريعة الإسلام . فاستشار ابن تاشفين
كاتبه عبد الرحمن بن أسباط في هذا الشأن ، وكان أندلسيا من أهل المربة ،
فأشار عليه بأن يشترط على ابن عباد أن يتخلى له عن الجزيرة الخضراء
ليجعلها قاعدة لانزال قواته ، فلما علم ابن عباد بذلك جاز إلى المغرب في
أستول الأندلس في سنة ٤٧٨ هـ ، بعد أن استخلف على إشبيلية ولده الرشيد ،
وكتب لابن تاشفين عقدا يقضي بتسليم الجزيرة الخضراء إلى المرابطين في
ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (٣) . ويذكر عبد الواحد المراكشي أن يوسف بن
تاشفين عبر لابن عباد عن رغبته في الجهاد بقوله : « أنا أول منتدب لنصرة
هذا الدين ، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى » (٤) ، وعاد ابن عباد
على أثر ذلك إلى إشبيلية ، أما يوسف فقد أخذ يستنفر جيوشه ، ثم رحل
إلى سبتة ، للاشراف على نقل قواته إلى الأندلس في شهر جمادى الأولى من

(١) الحلل الموشية ، ص ٢٨ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ،

ص ٢٤٥

(٢) ابن الخطيب ، المرجع السابق — ويذكر صاحب الحلل سنة ٤٧٩ هـ تاريخا لمكاتبة

ابن عباد لابن تاشفين

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٨٢ — ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ٢٤٦

(٤) المراكشي ، ص ١٢١

السنة ، فاجتمع له نحو ٧ آلاف فارس عبر بهم البحر إلى الجزيرة الخضراء .
ويبدو أن القونسيو لما بلغه اتصال ملوك الاندلس بيوسف واعتزائهم به
عليه ، واعتزام يوسف المجاز إلى الاندلس لنصرة إخوانه في الدين ، وتمرد
المعتمد بن عباد عليه في دفع الجزية ، أراد أن يحث يوسف على سرعة القدوم
إلى الاندلس أملا في إلحاق الهزيمة به ، والتفرغ بعد ذلك للقضاء على
ملوك الطوائف ، فأغار على البلاد حتى وصل إلى ساحل البحر عند الجزيرة ،
وكتب إلى الأمير يوسف مانصه : « من أمير النصرانية أدفونش بن
فرذند إلى يوسف بن تاشفين : أما بعد فانك اليوم أمير المسلمين ببلاد
المغرب وسلطانهم ، وأهل الاندلس قد ضعفوا عن مقاومتي ومقابلي ، وقد
أذللتهم بأخذ الجزية منهم وبالقتل والاسر والذل والقهر ، وأنا لا أقنع
إلا بأخذ البلاد ، وقد وجب عليك نصرهم لأنهم أهل ملتك فاما أن تجوز
إلي ، وإما أن ترسل إلى المراكب أجوز إليك ، فان غلبتني كان ملك
الاندلس والمغرب إليك ، وإن غلبتك انقطع طمع الاندلس من نصرك
إياهم ، فان نفوسهم متعلقة بنصرتك لهم » . فلما وصل هذا الكتاب إلى
يوسف أمر أن يكتب له علي ظهر كتابه : « من أمير المسلمين يوسف إلى
أدفونش ، أما بعد فان الجواب ماتراه بعينك لا ماتسمعه بأذنك ، والسلام
على من اتبع الهدى » . وأردف الكاتب بيت أبي الطيب :

ولا الكتب إلا المشرفة والقنا

ولا رسل إلا الخميس العرمم (١)

والقارىء لهذه الرسالة يشك في صحتها، ولكن الأستاذة ليفي بروفنسال،

(١) الحلل الموشية ص ٢٦ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٤٠

وغرسية جومث ، وأوليفر آسين ، نشروا رسالة كتبها يوسف بن تاشفين إلى الناصر تميم بن المعز بن باديس يذكر له فيها هزيمته لألفونسو بالزلاقة ، تضمنت هذه الحقيقة . يقول ابن تاشفين : « وكان قد تقدم إلينا بالعدوة من قبل الأذفونش أمير النصراني رسالة يخاطبنا فيها بالجسواز إلينا ، إذا عجزنا عنه ، وفرقنا منه ، نعطوه المراكب ونسلموا إليه الشواني والقوارب ليرد علينا ، ويقاثلنا في مأمنا ، فلم نلتفت إليه ، ولا عرجنا عليه » (١) .

ب - موقعة الزلاقة:

أجاز المرابطون البحر إلى الجزيرة الخضراء ، وتلقاهم المعتمد أحسن لقاء ، واستقبل المعتمد أميرهم يوسف بن تاشفين في وجوه أهل دولته ، وقدم إليه الهدايا والتحف ، ولما دعاه للنزول إلى إشبيلية للراحة من الرحلة ، لم يبد ابن تاشفين قبولا ، ولم يرحب بهذه الدعوة ، وقال : « إنما جئت ناويا جهاد العدو فحيثما كان العدو توجهت وجهه » (٢) . ثم أخذت قوات المرابطين تتقدم نحو إشبيلية ، وكان يقودها من قوادهم الكبار سليمان بن داود ابن عائشة ، وانضمت إليها قوات المعتمد ، وبعض قوات بعض ابن صبادح صاحب المربة (٣) . وساهم في هذا الجيش الاسلامي المؤتلف عبد الله بن

(١) Lèvi-Provençal, Garcia Gomez, Oliver Asin: Novedades sobre labatalla llamada al-Zallaqa, al-Andalus, vol. XV, 1950, P. 112

(٢) المراكشي ، ص ١٣٢

(٣) اعتذر ابن صبادح ليوسف عن عدم استطاعته الشخص بنفسه ، بسبب العدو الملامق له بحصن ليوط من عمل لورقة ، كما اعتذر بكبر السن مع الضعف (أنظر كتاب التبيين ، أو مذكرات الأمير عبد الله الزيري ، نشره ليبي يروفسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ ص ١٠٤) .
وبعتقد الأستاذ امبروسيو اويني ميراندا أنه أثر البقاء انتظارا لنتيجة المعركة المقبلة (أرجم =

بلكين صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة ، وابن ذى النون . وبلغ الفونسو السادس ، وهو مقيم على حصار سرقسطة تحرك القوات المغربية الأندلسية نحو إشبيلية ، فاضطر إلى رفع الحصار عن سرقسطة وبدأ يحشد القوى النصرانية ، ويستنجد بأمم المسيحية ، فوفدت إليه سربات من الفريسان من ولايات فرنسا الجنوبية من لانبجوك ، وجويانة ، وبرجونية ، وبروفانس ، وقد عقدت آمالا كبيرة في الظفر مغنم كبير . وتحالف الفونسو مع سانشو راميرث ملك أرغون وصاحب بنبلونة ، والكونت برنجار ريموند ، وكان سانشو مشغولا بمحاصرة طرطوشة ، بينما كان برنجار يتأهب لغزو بلنسية ، فانضما إلى الفونسو السادس بجميع قواتهما ، أما الفونسو فقد حشد قوات هائلة من جليقية ، وليون ، وبسكونية ، وأشتوريش ، وقشتالة ^(١) . وكانت قوات المرابطين قد وصلت إلى إشبيلية ، وأقامت بها ثلاثة أيام ، ثم ارتحلت إلى بطليوس ، فلقبهم المتوكل بن الألفطس بالقرب من بطليوس ، واحتفل لهم بالتضييف والعلف والقرى الواسع ^(٢) . وعسكرت قوات المسلمين شمالي بطليوس ، بين بطليوس وقورية ، أي بين ضفتي وادي آنه ووادي تاجه . وتحركت قوات الفونسو متجهة نحو بطليوس ^(٣) حتى وصلت على بعد ثلاثة أميال من معسكرات المسلمين ،

الى: Ambrosio Huici Miranda, la invasion de los Almoravides y la batalla de Zalaca, Hesperis, t. XI, 1953, p. 40.)

(١) يوسف اشباخ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة الأستاذ

محمد عبد الله عتاق ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٨٠

(٢) الخلل الموشية ص ٣٤

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٤٢

وضربت مخيماتنا في نحص الزلاقة (باللاتينية Sacralias) حيث قامت المعركة الكبرى الحاسمة بين جيوش الإسلام والمسيحية . وكانت معسكرات أهل الأندلس قد ضربت بازاء محلات النصارى ، بينما عسكرت قوات يوسف ابن تاشفين وراءهم على أميال منهم (١) . وفي ليلة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ ، باغتت قوات الفونسو معسكرات أهل الأندلس ، فانهزمت عند أول لقاء ، ودارت عليهم الدائرة ، وأبلى ابن عباد بالرغم من ذلك بلاء حسناً ، ثم أرسل كاتبه ابن القصيرة إلى يوسف بن تاشفين ، فركب يوسف من فوره على رأس قواته ، وقصد محلة الفونسو ، « فافتحمها وأضرها نارا ، وضرب طبوله ، فاهتزت لها الأرض ، وتجاوبت الآفاق ، فارناعت قلوبهم ، وتخلخلت أفئدتهم ، ورأوا النار تشعل في محلتهم ، وأتاهم الصريح بهلاك أموالهم وأخبيبتهم ، فسقط في أيديهم فألوا وأعتهم ورجعوا قاصدين محلتهم ، فالتحمت الفئتان ، واختلط الملتان ، واشتدت الكرة ، وعظمت الهجمات ، والحرب تدور على اللعين ، وتطحن رؤوس رجاله ، ومشاهير أبطاله ، وتقذف بخيلهم عن يمينه وشماله ، وتداعى الأجناد والحشم والعبيد للزال والترحيل على ظهور الخيل ، ودخول المعرك ، فأمن الله المسلمين ، وقذف الرعب في قلوب المشركين ، وتحطوا بين عسكر ابن عباد وعسكر يوسف بن تاشفين » (٢) .

أرسل يوسف فرقة العبيد للمساهمة في القتال ، فدخلوا ساحة المعركة بالمزارق ، وانقضوا على قوات الفونسو ، فدارت الدائرة عليه وعلى

(١) المرجع السابق ص ٢٤٣

(٢) الحلل الموشية ، ص ٤٣

أصحابه ، وجرح الفونسو جرحا بالغا ، إذ لصق به عبد أسود طعنه في
فخذة بمنجر ، ففر الفونسو في جنح الظلام ، ولأذ هو وقلوب جيشه بريرة ،
ثم تسللوا هاربين إلى طليطلة . وعلى أثر انتصار المسلمين ، قفل يوسف
ابن تاشفين إلى المغرب ، إذ ورد عليه الخبر بموت ابنه أبي بكر (١) ، فترك
لسير بن أبي بكر مهمة مواصلة الجهاد . ويعتقد الدكتور حسن محمود ، أن
سنة ٤٨٠ هـ هي السنة التي توفي فيها أبو بكر بن عمر رئيس المرابطين ،
بدليل أن العملات المرابطية ظلت تضرب باسم أبي بكر بن عمر من ٤٥٠
إلى ٤٧٩ هـ ، فليس بعيد أن يكون الأمر قد اختلط على المؤرخين ، فقالوا
إنما رحل لوفاة ابنه بدلا من ابن عمه (٢) . وهكذا تحت قوات المرابطين
بقيادة يوسف بن تاشفين العار الذي لحق ملوك الأندلس ، من مذلة الفونسو
السادس لهم .

ولقد كان لانتصار المسلمين في الزلاقة عدة نتائج هي :

١ - حرر سرقسطة وحماها من الوقوع في أيدي القشتاليين ، وكانوا
يحاصرونها عندما نزلت قوات المرابطين بالأندلس .

٢ - أحدث تغييرا مفاجئا في مجرى حركة الاسترداد التي خططها
الفونسو السادس ، فقد أرسل الفونسو بعد هزيمته في الزلاقة طالبا العون
من أمراء الأقاليم الجنوبية بفرنسا ، مهددا لهم حالة في عدم مساعدتهم له

(١) المرجع السابق ص ٤٧

(٢) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٨٧ . ارجع الى تفصيلات هذه الحركة

في A. Huici Miranda, op. cit. - الدكتور حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ،

ص ٢٧٣ - ٢٨٨ .

بمخالفة المسلمين ، فأخذ الفرنسيون يتنافسون في تنظيم حملة كبيرة. ولكن الفونسو عدل عن خطته في الاستعانة بالفرنسيين خشية أن يعقد ذلك من علاقته مع ملوك الطوائف بعد أن عاد يوسف بن تاشفين إلى مراكش . فأرسل الفونسو يستغنى عن خدمات من لم يعبر منهم جبال البرانس بعد . غير أن الوافدين منهم دخلوا في خدمة سانشو راميرث ملك أرغون ، وهاجموا تطيلة في شتاء سنة ٤٨٠ هـ ، وفشلوا في هذا الهجوم ثم تراجعوا .

٣ - صالح الفونسو السادس قائده السيد الكنبيطور بعد أن احتاج إلى سيفه ، واستقبله في تطيلة في هذا العام (١) .

٤ - رفع من شأن المرابطين أمام الرأي العام الإسلامي ، وصورهم في صورة المجاهدين عن الاسلام ، المدافعين عن أراضيهم ، الذابين عن نفوسهم .

٥ - أسقط من قدر ملوك الطوائف في نظر رعييتهم ، ومهد السبيل إلى إسقاط دويلات الطوائف ، وضم الأندلس إلى دولة المرابطين في المغرب .

ج - تغلب يوسف بن تاشفين على الأندلس :

جاء انتصار المسلمين في الزلاقة بعد سلسلة من الهزائم المتتالية على أيدي القشتاليين ، لذلك بالغ المسلمون في تقديره ، وقارنوه بأيام الاسلام الكبرى . ويعبر صاحب الحلل الموشية عن ذلك بقوله : « وكان يوما لم يسمع بمثله من اليرموك والقادسية ، فياله من فتح ، ما كان أعظمه ، ويوم كبير ما كان

(١) ارجع الى رسالة الدكتور ا. افيف تورك Afif Turk, El Reino de Zaragoza en el siglo XI de Jesucristo, tesis para el grado de Doctor, Madrid, 1956 pp. 224 - 225.

أكرمه ، فيوم الزلافة ثبتت قدم الدين بعد زلاقتها ، وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها ، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتز بها رؤوس الأندلس ... » (١) .

ولكن موقعة الزلافة لم تكن سوى صدمة أصابت القشتاليين لزمان قصير ، ثم أخذوا يفيقون منها ، فان هزيمتهم لم تكن عن ضعف وتخاذل ، وإنما ترجع إلى غرور الفونسو بنفسه ، واعتزازه بقوة وسوء تصرفه . فلم يكدهمضى عام واجد على هزيمته حتى كان قد تمكن من استعادة قواه ، فنقل ميدان نشاطه هذه المرة إلى شرق الأندلس ، إذ أن غربها كانت تقوم فيه مملكتان قويتان هما مملكتا إشبيلية وبطليوس ، تعضدهما فرقة من المرابطين قوامها ثلاثة آلاف مقاتل ، تركها يوسف بن تاشفين تحت تصرف المعتمد بن عباد . أما الشرق فعلى الضد من ذلك كان ممزقا من الناحية السياسية (٢) ، بالإضافة إلى أن جيوش المرابطين لم تكن قد وصلت إليه بعد (٣) ، فبادر الفونسو السادس بمصالحة السيد الكنييطور (صاحب

(١) الحلل الموشية ، ص ٤٧

(٢) كانت تقوم فيه دويلات صغيرة ضعيفة ، هي لاردة ، والسهلة ، والبونت ، وبلنسية ، ودانية ، ومرسية ، والمرية . وكانت تتوسطه قلعة منيعة لا ترام لحصانتها هي قلعة ليط التي كانت تستوعب حامية يتراوح عدد رجالها ما بين ١٢،١٣ ألف مقاتل ، وكانت المصائب القشتالية تغير من هذا الحصن على المناطق المجاورة ، وتنتشر الدمار فيها . (ارجع الى :

Remiro (Mariano Gaspar) : Murcia musulmana, Zaragoza, 1950 p. 133.

Menendez Pidal (R.) : El Cid Campeador, Coleccion (٣)
Austral, Buenos Aires, 1950, p. 133 - Menendez-Pidal,
Espana del Cid, Madrid, 1947, t. I, p. 350

الفحص) في طليطلة في ربيع سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ، ففما عنه بعد ١٦ سنة قضاها السيد في خدمة ملوك سرقسطة : المقتدر أحمد بن سليمان بن هود (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) ، وابنه المؤتمن يوسف بن أحمد (٤٧٤ - ٤٧٨ هـ) ، ثم ابنه أحمد المستعين الثاني (٤٧٨ - ٥٠٣ هـ) ضد القطلانيين حينما والأرغونيين حينما ، والقشتاليين حينما آخر (١) . ثم منحه إقطاعات واسعة ، منها حصنا غرماج الأموي ودونياس (٢) . وفي العام التالي اتجه الكنييطور إلى سرقسطة عند أصحابه بني هود ، ومن هناك بدأ يعمل على تنفيذ الخطة التي رسمها مع سيده الفونسو لضم شرق الأندلس ، وبالذات مدينة بلنسية (٣) ، بينها قام غرسية خيمنت قائد حصن ليط (٤) بشن غاراته المدمرة على إمارات المربة ومرسية ولورقة ، فنشر الخراب في هذه المناطق ، وحول أراضيها إلى صحارى قاحلة ، ونتج عن هذه الغارات المتواصلة أن أصبحت إمارتي مرسية ولورقة مهددتان بغزو قشتالي محتوم (٥) ، وافتقد أهل الأندلس الأمن والسلام ، وساء الموقف في الأندلس من جديد . ولم يكن قد مضى على انتصار المسلمين في الزلاقة طامان ، فضج المسلمون بالشكوى ، واستمرخوا المرابطين للمرة الثانية ، فوفدت على يوسف بن تاشفين

(١) Afif Turk, op. cit. pp. 171 - 185

(٢) Menendez - Pidal, El Cid, p. 130

(٣) كان القادر بن ذي النون ملك طليطلة قد تنازل لألفونسو عن طليطلة على أن يملكه بلنسية عوضا عنها ، وقد أدى له الفونسو بهذا الشرط ، وساعده في دخول بلنسية ، فدخلها قهرا في سنة ٤٧٥ هـ (ابن عذاري ، ج ٣ طبعة ليفي بروغنسال ، ص ٣٠٤)

(٤) Codera, Decadencia y desaparicion de los Almoravides en Espana, zaragoza, 1899, p. 3 - Remiro, op. cit. p.130

(٥) Ibid. p. 134

بمحاضرته مراکش جملة من أهل بلنسية ومرسية ولورقة ، فشكوا له ما حل بأهل بلنسية من قوات الكنيطور ، كما شكوا له ما حل بأهل مرسية وأعمال لورقة وبسطة من غارات حامية لبيط القشتالية (١) . ثم قدم إليه المعتمد ابن عباد ، فتلقاء ابن تاشفين أحسن قبول في موضع بوادي سبو . وكان مجيئه لغرضين : الأول ، استرجاع نفوذه بمرسية بعد أن تغلب عليها ابن رشيق ، والثاني ، وضع حد لغارات القشتاليين المتواصلة على أملاكه في شرق الأندلس ، وعظم له شأن لبيط ، وأنه في قلب البلد ، وأن لاراحة للمسلمين إلا بفقده (٢) . ولم يجد يوسف بن تاشفين بدا من استجابة رغبات أهل الأندلس ، في مقاتلة للقشتاليين ، فصر الزقاق للمرة الثانية ، وتوافت إليه جيوش الأندلس ، ممثلة لكل دويلات الطوائف . ولكن حصار المسلمين للحصن ، رغم طول أمده ، انتهى بالفشل ، لشدة مقاومة الحامية للقشتالية ، ولحصانة الحصن ومناعته ، واستعصاء نقيه ، واختلاف كلمة المسلمين . فقد شك المعتمد بن عباد ابن رشيق صاحب مرسية ، الناصر بها عليه ، إلى يوسف بن تاشفين ، وذكر أعداءه عليه ، كما اختلف ابن صمادح مع ابن عباد . وأخذ ملوك الطوائف يترشقون التهم أمام ابن تاشفين ، ويحكمونه في منازعاتهم ، حتى ضاق بذلك ، وكان الحصار قد طال ، وتأهب القونسو للزحف بجيشه لنجدة حامية لبيط ، كل هذه الأسباب حملت يوسف على رفع الحصار ، والعودة إلى محاضرته مراکش عن طريق المريية (٣) . ثم بلغ ابن تاشفين وهو بمحاضرته في المغرب أن الأمير عبد الله

(١) الحلل الموشية ، ص ٤٧ ، ٤٨

(٢) مذكرات عبد الله الزيري ، ص ١٠٨

(٣) Codera, op. cit. p. 3

الزيرى صاحب غرناطة اتفق مع البرهانش Alvar Hanez ، وكيل الفونسو السادس فى جهات غرناطة والمرية ، وتعاقد معه على نصرته نظير ٣٠ ألف دينار . وكان ابن رشيق قد ثبت تعاونه مع النصارى أثناء قيام المسلمين بحصار حصن لبيط^(١) . لذلك عزم ابن تاشفين عزما صادقا على استئصال شأفة ملوك الطوائف ، والإطاحة بعروشهم ، بحجة أنه لا ينبغي لهم قتال الروم ، ويتركوا وراءهم الأعداء بمن يواسى عليهم معهم^(٢) . فجاز إلى الأندلس للمرة الثالثة فى سنة ٤٨٣ هـ ، وهو ينوى هذه المرة القضاء على دويلات الطوائف ، وتوحيد كلمة الأندلس ، وتأليف جبهة أندلسية مغربية متحدة لمواجهة خطر النصارى المتزايد . وبدأ يوسف بنكبة الأمير عبد الله الزيرى صاحب غرناطة ، فعزله عن ملكه ، وتناه إلى مكناسة^(٣) . ثم أرفده بأخيه تميم صاحب مالقة . وفى سنة ٤٨٤ هـ أرسل أربعة جيوش مرابطية إلى الأندلس لمنازلة ملوك الطوائف وحصارهم فى بلادهم ، فعهد إلى ابن عمه الأمير سير بن أبى بكر بمحاصرة إشبيلية ودخولها ، والقبض على المعتمد بن عباد وحمله أسيرا إلى المغرب ، كما عهد إليه أيضا بالاستيلاء على بطليوس وإسقاط دولة المتوكل على الله عمر بن المظفر بن الألفونس ، وقد نفذ سير أمر يوسف ، فدخل المرابطون إشبيلية ، وسبق المعتمد أسيرا إلى أغمات حيث توفى فى سنة ٤٨٨ هـ . أما المتوكل ، فقد كان مصيره أسوأ من ذلك ، إذ قتل هو وابناه فى أواخر سنة ٤٨٨ هـ .

(١) كان يقوهم ويعينهم خوفا مما قد يحل عليه بتقديم (مذكرات الأمير عبد الله الزيرى)

(٢) نفس المرجع ص ١٧٥

(٣) الحلل الوثنية ص ٥١

كذلك عهد يوسف بن تاشفين إلى أبي عبد الله بن الحاج بفتح قرطبة ،
وإلى أبي زكريا بن واسنو بفتح المرية ، وإلى حرور الحبشى بفتح رندة ،
وإلى داود بن عائشة بفتح السهلة والبونت ومرسية . وقد علل يوسف بن
تاشفين إسقاطه للملك الطوائف بقوله : « إنما كان غرضنا في ملك هذه
الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم ، لما رأينا استيلائهم على أكثرها ،
وغفلة ملوكهم ، وإهمالهم للغزو ، وتواكلهم ، وتخاذلهم ، وإيثارهم الراحة ،
وإنما همة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، وهو يقطع به أيامه ،
ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى
المسلمين ، ولأملأها عليهم - يعني الروم - خيلا ورجالا لأعهد لهم بالدعة ،
ولا علم عندهم برخاء العيش ، إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه ، أو
سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبى دعوته ... » (١) .

ولم يستثن من ملوك الطوائف سوى المستعين بالله أحمد بن هود ، صاحب
سرقسطة ، فقد كان لا ينازعه ما في يده ، « ولا تطرق لخلعه ، قبولاً منه
للغزو ، وإقراراً فيما بينه وبين العدو ، لما تجده مضايقته من تصيير ما بيده إلى
الروم ، فكان يلاطفه ، ووجه إليه ابن هود ولده عبد الملك (في صحبة
وزيريه أبي الأصبح وأبي طامر) ، فقام بحقه ، وصرفه مكرماً ، وأصبحه
كتابه » (٢) . وكان ابن هود ، قد كتب إليه قائلاً : « نحن بينكم وبين
العدو سد ، لا يصل إليه ضرر ، ومطاعين قطوف ، وقد قنعنا بمسالتكم » (٣) .

(١) المراكشي ، ص ١٦٣

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ١٧٣

(٣) الحلال الموشية ص ٥٤ ، ٥٥ .

فرد عليه يوسف بن تاشفين رسالة ذكر ابن الخطيب نعمها الكامل (١) .

ويعتقد الأستاذ الدكتور عفيف ترك أن المستعين كان يهدف من وراء هذه السفارة اجتذاب المرابطين إلى مظاهرة الإسلام في الأندلس ، بعد أن ساء الوضع كثيرا عقب مقتل القادر بن ذى النون في بلنسية في ١٣ رمضان سنة ٤٨٥ هـ وماتلا ذلك من أحداث خطيرة ، حملت السيد الكنييطور على حصار بلنسية ودخولها في جهادى الأولى من سنة ٤٨٧ هـ . ولا يستبعد الدكتور عفيف ترك أن يكون المستعين بالله ويوسف بن تاشفين ، قد اتفقا على تطهير منطقة بلنسية من القشتاليين ، وتحريرها من احتلالهم ، ويذكر أنه قد « يكون من بين بنود المعاهدة أن يساعد يوسف المستعين بالله على استرجاع أراضى طرطوشة ولاردة من المنذر التجيبي ، وضمها إلى مملكة سرقسطة لتكوين جبهة قوية مع المرابطين للوقوف أمام نوايا قطالونية وأرغون التوسعية . ومن المرجح أن تكون هذه السفارة اليهودية قد وصلت إلى مراكش عندما انتهى ابن عائشة المرابطى من التغلب على مرسية ودانية في الوقت الذى كان السيد فيه بضيق الخناق حول بلنسية في أواخر سنة ١٠٩٣ (٤٨٦ - ٤٨٧ هـ) » (١) .

ولقد قامت العلاقات الودية بين ملك سرقسطة وبين يوسف بن تاشفين ، ففي سنة ٤٩٦ هـ قدم ابن تاشفين إلى قرطبة ، فأرسل إليه المستعين بالله ابنه عبد الملك الملقب بعهد الدولة بهدية جليلة من جملتها ١٤ ربعا من آنية

(١) ابن الخطيب ، المرجع السابق ، ص ١٧٣ ، ١٧٤

(٢) Afif Turk, op. cit. p. 232-235

الفضة مطرزة باسم المقتدر بن هود (١) ، وظلت هذه العلاقات الودية قائمة في حياة المستعين ، إلى أن استولى المرابطون على سرقسطة في عهد عبد الملك عماد الدولة في ١٠ من ذى القعدة سنة ٥٠٣ هـ .

• - جهاد المرابطين في الأندلس منذ دخولها في فلك دولتهم في المغرب :

كانت رسالة المرابطين منذ بداية تدخلهم في شؤون الأندلس تهدف إلى إنقاذ الإسلام في الأندلس ، ولقد بذلوا حقا في هذا السبيل جهودا جبارة ، وقضوا الستين عاما التي دامت فيها دولتهم بالأندلس في جهاد ومثابرة ضد القشتاليين والأرغونيين . فقد تمكن القائد إبراهيم بن اسحق اللمتوني من هزيمة قوات النصارى بقيادة البرهانش في المدور جنوبي الأندلس ، ونجح داود بن عائشة في استرجاع حصن ليط . وكان الكنييطور قد استولى على بلنسية في سنة ٤٨٨ هـ (٢) ، كما كان بدر بن سانشو راميرث المعروف في المصادر العربية بابن ردمير ، ملك أرغون قد استولى على وشقة من بلاد المستعين بالله أحمد بن هود سنة ٤٩٠ هـ . ولكن القائد المرابطي محمد بن مزدلي نجح في استرداد بلنسية سنة ٤٩٥ هـ بعد وفاة الكنييطور (٣) . وتبع ذلك استيلاء المرابطين على مريطر والمنارة والسهلة وغيرها من الحصون الموزعة في شرق الأندلس ووسطها ، وانتصروا على قوات الفونسو السادس في قذسوجرة ، وقونكة ، وملجون في سنة ٤٩٤ هـ . وفي عهد الأمير علي بن يوسف ، تمكن المرابطون بقيادة تميم بن يوسف من هزيمة

(١) ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٧٤

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٣٥٦

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٥٦ - القرى ، ج ٦ ص ١٩٨

قوات الفونسو السادس عند أقليمش Uclès في ١٧ شوال سنة ٥٠١ هـ ، وفي هذه الواقعة قتل الأمير سانشو بن الفونسو السادس من زائدة المسامة ، كنة المعتمد بن عباد (١) ، كما قتل عدد كبير من مقاتلة النصراني وكثرتهم ، يبلغ نحو ٧٣ ألفا ، من بينهم سبعة قوامس ، ولذلك عرفت الموقعة بموقعة القوامس السبعة « Batalla de los Siete Cordes » (٢) . وقد استولى المرابطون على أثر ذلك على مدينتي قونكة ووبدة . وفي سنة ٥٠٣ هـ جاز على بن يوسف إلى الأندلس ، وخرب منطقة طليطلة ، واستولى على بعض الحصون ، نخص بالذكر منها حصن مجريط Madrid ووادي الحجارة . وفي ذي القعدة سنة ٥٠٤ هـ غزا الأمير سير بن أبي بكر الغرب ، وتغلب على شنترين وبطليوس وشنتر وبرتقال ويايرة وأشبونة . أما بالنسبة لمملكتي أرغون وقطالونية ، فقد لقي المرابطون منها أشد العناء بسبب غزوات الفونسو المحارب ملك أرغون . ففي رجب سنة ٥٠٣ هـ ، هزم ملك أرغون المستعين بالله بن هود ، وقتله في واقعة بلنيرة ، واستولى على تطيلة ، ثم استردها منهم المرابطون وفي سنة ٥١١ هـ هزم الفونسو المحارب قوات المرابطين أمام سرقسطة ، فاضطروا إلى الانسحاب منها ، وفي سنة ٥١٢ هـ دخلها الفونسو المحارب ، واتخذها عاصمة له ، وضم بعد ذلك طركونة

(١) Lévi - Provençal, Islam d'Occident, Paris 1948, pp. 137-151

والترجمة العربية ، الاسلام في المغرب والاندلس ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٥١ - ١٦٤ .
وانظر أيضا : الونشريسي ، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصراني
ولم يهاجر ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، مجلة المعهد المصري بمطبعة ، ١٩٥٧ ،
ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) Codera, op. cit p. 9

وقلعة أيوب . وفي سنة ٥١٤ هـ كانت هزيمة المرابطين في كتندة من حيز دروكة ، وتبع ذلك سقوط طرسونة ، وألجون ، ومدينة سالم ، ودورقة في أيدي الأغرغونيين . وفي عام ٥١٩ هـ ، كانت غزوة الفونسو المحارب الكبير التي اخترق فيها بلاد المسلمين نخرًا ومدمرًا ما قباله من قرى وحصون ومراكز عمرانية ، حتى وصل بالقرب من غرناطة ، وانضم إليه المعاهدون من نصارى الأندلس ، وفي هذه الغزوة يقول صاحب الحلل الموشية : « وفي هذه السنة خرج الطاغية ابن ردمير إلى بلاد المسلمين ، بلاد الأندلس ، فتحركت له ريح الظهور ، وذلك أن النصاري المعاهدنين بكورة البيرة خاطبوه بتلك الأقطار ، وتوالت عليه كتبهم ، وتواترت رسلهم ملحة في الاستدعاء ، معلمة بدخول غرناطة . . . فخرج إلى سرقسطة ، ومنها إلى بلنسية ، وانضم إليه عدد من النصاري المعاهدنين الذين يرشدون طريق سيره ، واجتاز إلى جزيرة شقر ، ثم إلى دانية ، فشاطبة ، فرسية ، ثم برشانة ، ثم بسطة ، ووادي آش . . . وما زال في سيره حتى بيانه واستجعة ، وهزم المسلمين في أليسانة ، ثم جاز على وادي مترييل ، وعاد من حيث أتى بعد أن قضى عاما كاملا وثلاثة شهور »^(١) . وفي سنة ٥٢٨ هـ تطلع الفونسو

(١) الحلل الموشية ، ص ٦٦ - ٦٩ . وقد أورد ابن الخطيب خبر هذه الغزوة في شيء من التفصيل ، استنادا على مارواه أبو بكر الصديق الغرناطي صاحب كتاب « الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية » (أرجع إلى الإحاطة في أخبار غرناطة ، ص ١١٤ - ١٢٠) وقد أحس المسلمون بالخطر الذي تتعرض له الأندلس بعد هذه الغزوة الجريئة ، فألقى القاضي أبو الوليد بن رشد ينفيمهم إلى بلاد المغرب . وهناك وثيقة مرابطية كتبها أبو عبد الله ابن أبي الخصال عن علي بن يوسف بهذا الشأن (محمود علي مكي ، وثائق تاروخية عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ١٩٥٩ ، المجلد السابع ص ١٦٢)

المحارب إلى الاستيلاء على لاردة وإفراغة ، ولكنه انهزم هزيمة نكراء في إفراغة على أيدي المرابطين ، وقوات ابن غانية وابن مردنيش بقيادة يحيى بن علي ^(١) ، وفيها قتل أكثر رجاله . وتتفق الروايات على أن الفونسو المحارب ألقى حتفه في هذه الموقعة (٢) .

(١) الحميري ص ٢٤

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخامس بالأندلس ، ص ٢٥٩ — يوسف أشباخ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ص ١٦٥

(٤)

أسباب ضعف دولة المرابطين وانهارها

لما توفي يوسف بن تاشفين في سنة ٥٠٠ هـ خلفه ابنه علي بن يوسف، وتلقب بلقب أبيه «أمير المسلمين»، فجری على سنن أبيه في إثارة الجهاد، وإخافة العدو، وحماية البلاد، وكان حسن السيرة، جيد الطوية، نزيه النفس، بعيداً عن الظلم. وقد بلغ في ذلك مبلغاً كبيراً قرب به من الزهاد المتبتلين من الملوك المتغلبين (١). وكان على يقرب إليه أهل الفقه والدين، فلا يقطع بأمر من أمور دولته دون مشاورة الفقهاء، فأصبح للفقهاء في أيامه سطوة وصولة لم يبلغوها من قبل. ويذكر المراكشي أنه «لم يكن يقرب من أمير المسلمين، ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنفتت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعمل بمقتضاها، ونبت ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله، وحديث رسول الله صلعم، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بها كل الاعتناء، ودان أهل ذلك الزمان بمكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، وكراهة السلف له، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد، في أشباه هذه الأقوال، حتى استحکم في نفسه بعض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب، أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقدم

(١) المراكشي، ص ١٧١

بالوهيد الشديد من سفك الدم ، واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها ، واشتد الأمر في ذلك » (١) .

كانت دولة المرابطين إذ ذاك في أوجها ، فقد ترك يوسف بن تاشفين لابنه امبراطورية كبرى تمتد من بجاية شرقا إلى السوس الأقصى غربا ، ومن السودان جنوبا إلى سرقسطة والثغر الأعلى في الأندلس شمالا ، ويبدو أن المرابطين أخذوا ينغمسون في الترف والرفاهية والرقعة على مرور الأيام ، وسادت الثقافة الأندلسية في مراکش ، وأقبل رجال الأدب والعلم من الأندلس إلى بلاط الأمير في مراکش ، ومن أمثال هؤلاء أبو القاسم بن الجد ، وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبو عبد الله بن أبي التمهال ، وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون وغيرهم (٢) . غير أن هذا الإقبال على الترف ومظاهر الدنيا خفف من جفوة المرابطين وخشونتهم التي كان يعتز بها يوسف بن تاشفين عند مقارنتهم بالأندلسيين (٣) . وسرطان مانسى هؤلاء في غمرة هذه الحياة الجديدة المبادئ الأولى التي قامت عليها حركة المرابطين ، وبالتدريج فقد الملتزمون الصفات التي جعلت منهم رجال حرب مظفرين ، فتدهور حال جيش المرابطين في الأندلس . ولكتنا لا يجب أن نبالغ في حكمنا على المرابطين ، فننسب هذا الضعف الذي اعترى دولة المرابطين إلى تراخي جنودهم في الدفاع عن الثغور الإسلامية ، ففي ذلك ظلم كبير ، وتجننى عليها ، والحقيقة أن هذا الضعف جاء أيضا ، وبصفة

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٢ ، ١٧٣

(٢) ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٤٧

(٣) المراكشي ، ص ١٦٣

خاصة بسبب الضربات العنيفة التي كان يسدها نصارى إسبانيا إلى الأندلس، وتكتل ممالك قظالونية وأرغون وقشتالة والبرتغال ضدهم، كما لا ينبغي أن ننفل عاملاً آخر في غاية الأهمية، وهو قيام المهدي بن تومرت بالثورة على المرابطين في بلاد المغرب، مما اضطرهم إلى صرف قسم كبير من جهودهم للقضاء عليها. والواقع أن المعارك المتواصلة التي خاضها المرابطون في شبه الجزيرة، وبالذات في شرق الأندلس والثغر الأعلى، هي التي استنزفت قوى المرابطين، وقضت على كل مواردكم، فلما طالبوا أهل الأندلس بمعونتهم هم تنكروا هؤلاء لهم، وسحلوهم عنهم، وطردهوا في نهاية الأمر ولاتهم عليهم، ودعوا الموحدين إلى دخول الأندلس. وقد بدت نذر الضعف الذي طرأ على دولة المرابطين في أواخر أيام يوسف بن تاشفين نفسه، ويكفي دليلاً على ذلك ما رواه المقرئ من أن يوسف كتب إلى أهل المرية يطالبهم بالمعونة، فرد عليه قاضيها أبو عبد الله بن الفراء بكتاب رفض فيه أن يمدّه بالمال، وطلب منه أن يدخل الجامع بمراكش، فيقسم أمام الملاء بأنه ليس عنده درهم ولا في بيت مال المسلمين، أسوة بما فعله الرسول صلعم، والخليفة عمر بن الخطاب، ثم وعده في النهاية بالنظر في معاونته إذا أثبت ذلك^(١). وقد اضطر المرابطون إلى فرض ضريبة على أهل المرية وغيرها من مدن الأندلس الهامة، تعرف بالتعيب أو التعطيب، يخصص دخلها لإقامة أسوار جديدة وترميم ما وهى من الأسوار القديمة^(٢)، وذلك عندما

(١) المقرئ، ج ٤ ص ٣٥٧

(٢) الإدريسي، ص ٢٠٠ — الحميري، ص ٢٢٣ من الترجمة، ملحوظة ١

تعرضت الأندلس لغزوة الفونسو الأول المحارب سنة ٥١٩ هـ ، التي اخترق فيها كل بلاد الأندلس حتى غرناطة وشواطئ البحر المتوسط .

ولقد صرف على بن يوسف الجزء الأعظم من جهوده في متابعة شؤون الأندلس ، ومراعاة أحوالها ، فقدم بنفسه إليها أربع مرات ليتفقد بنفسه أحوالها ، ويسد خللها ، وشغل المرابطون في الأندلس بمقاتلة النصارى ، والحد من نشاطهم في التوسع على حساب دولة المسلمين في الأندلس ، وجندوا في سبيل ذلك كل طاقاتهم ، وسخروا جميع إمكانياتهم ، إلا أن العدو المتربص كان يشن هجموه في كل مكان في الأندلس ، فتعددت جبهات القتال ، وتوزعت قوى المسلمين في هذه الجبهات . وبالرغم من كل هذه الجهود العظيمة التي بذلها المرابطون للجهاد ونصرة الإسلام في الأندلس ، فقد تكسرت هذه الجهود أمام تقاعس أهل الأندلس عن مساعدتهم ، وتخاذلهم وتراخيهم في المساهمة في مدافعة النصارى ، بل كنا نراهم أكثر من ذلك يتحالفون مع النصارى ضد المرابطين ^(١) ، ويشورون عليهم للتخلص

= Almeria Islamica, al - Andalus, vol, XXII, 1957, p. 444.

ومما يدل على فراغ خزائن المرابطين ، واستهتار أهل الأندلس بأمر الدفاع عن مدنها أن سور اشبيلية في عهد المرابطين كان يحتاج إلى الترميم بعد سيل أتى على جانب منه ، ولم يكن باشبيلية يومئذ مال متوفر ، ففرض القاضي أبو بكر بن عربي على الناس جلود ضحاياهم في عيد الاضحى ، فاحضروها كارهين ، ثم اجتمعت العامة العمياء ، وثاروا عليه ونهبت داره ، فاضطر إلى إقامة السور من ماله الخاص (المرقى ، ج ٢ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥)

(١) من أمثلة ذلك انحياز عبد الملك بن أحمد المستعين إلى جانب ملك تشتالة ، وتسببه في ضياع سرقسطة نهائياً من المسلمين ، سنة ٥١٢ هـ ، وتعلق ابنه أحمد القائم بثغر روضة بأندال ابن ردمير (الفونسو المحارب ملك أرغون) وتنازله عن روضة (ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ١٧٥ ، ١٧٦)

من تبعيتهم لهم^(١) . أما تعليل المراكشي لحالة الضعف التي أصابت دولة المرابطين بالاختلال الذي طرأ عليهم في آخر دولة علي بن يوسف ، نتيجة تخاذلهم ، وتواكلهم ، وطاعتهم للنساء ، فقالة ظالمة ، وتحامل صريح ، ونجاهل لحقيقة الأوضاع السياسية في الأندلس ، يبرره تحيز المراكشي للمصامدة الموحدين ، وميله إلى قضيتهم .

ولما توفي علي بن يوسف في سنة ٥٣٣ هـ ، وخلفه ابنه تاشفين ، توالى عليه الهزائم في المغرب على أيدي عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين ، واستغل أهل الأندلس هذه الفرصة ، وأعلنوا ثوراتهم في الأندلس ، فتمزقت البلاد من جديد بعد وفاة سنة ٥٣٩ هـ إلى دويلات للطوائف ، واستعان هؤلاء الثوار على المرابطين بجيوش قشتالية وبرتغالية ، ومن بين هؤلاء الثوار ابن وزير ، وأبو محمد سدرائى ، ويوسف البطروجى ، وليد بن عبد الله بشتارين ، وأبو القمر بن عزوز بشرىش ، وابن عياض بشرق الأندلس ، وطلى بن عيسى بن ميمون بقادس ، ومحمد بن علي الحجام ببطليوس ، ومحمد بن المنذر بشلب ، وابن عنان بيابرة ، والقاضى ابن حمد بن بقرطبة ، والقاضى أبو الحكم بن حسون بمالقة ، والقاضى أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز ببلنسية ، ثم خلفه عبد الرحمن بن عياض ، فمحمد بن سعد الجذامى المعروف بابن مردنيش الذى ضم إليه مرسية . ومن الثوار أيضا القاضى أبو أمية أحمد بن عاصم بأوريولة ، والقاضى يوسف بن عبد الرحمن بن جزى بجيان ،

(١) ثار أهل قرطبة على الأمير علي بن يوسف في سنة ٥١٥ هـ (الخلل الموشية ، ص ٦٣) وفي آخر عصر دولة المرابطين قامت الثورات في سائر أنحاء الأندلس ضد المرابطين منها ثورة الصوفية أو المريدين في غرب الأندلس ورائدها ابن قسي بمرتلة .

وأحمد بن ملحان بوادي آش أما المربة فقد ثار أهلها كذلك على المرابطين، ودخلت في فلك دولة الموحدين، فتولى على جيوش الموحدين فيها عبد الله ابن سليمان الذي قتله البحر يون (١). وكان أول ولاية الموحدين عليهما من قبل عبد المؤمن بن علي، وال يقال له يوسف بن مخلوف، فثار عليه أهل المربة وقتلوه، وعرضوا رئاستهم على قائد البحر محمد بن ميمون، فلم يقبل، فقدموا على أنفسهم أبا يحيى ابن الرميمي ٢ فضبطها إلى أن استولى عليها الفونسو السابع ريموند الملقب عند مؤرخي العرب بالسليطين ملك قشتالة (٣)، في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ، ودخلها عنوة (٤).

ونعود إلى الحديث عن أسباب ضعف دولة المرابطين فنذكر منها أيضا أن فقهاء المرابطين لم يولوا دراسة الحديث من الاهتمام ما يستحقه، فنراهم ينصرفون عنه ولا يرجعون إلى الأصول لكي يستنبطوا منها الأحكام، ويتخذوها مادة للدراسة، وإنما اكتفوا بتلك الأحاديث المجموعة في كتب الفروع، وجعلوها مرجعهم الوحيد من غير تحفظ، كما أشرنا إلى ذلك. ويعلق الأستاذ ليني بروفنسال على ذلك بقوله: « وكان من أثر هجر الفقهاء لدراسة الحديث وما يتصل به من مصادر أن ألغى علم أصول الفقه

(١) البيهقي، ص ١٢٦

(٢) المراكشي، ص ٢١٠ - المقرئ، ج ٦ ص ٢٠٦

(٣) مجموع رسائل موحدية من كتاب الدولة المؤمنية، نشرها ليني بروفنسال، الرباط

١٩٤١، ص ٧٥ - المقرئ ج ٦ ص ٢٠٧

(٤) استولت عليها قوات قشتالية وبرتية وقطالانية وبيزية وجنوية مشتركة
(Codera, op. cit. n. 135) يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين

والموحدين، ص ٢٢٥

الذي تستنبط بمقتضاه أحكام قد تكون جديدة ، وأدى الإعتناء على الفروع التي تتضمنها كتب المذهب إلى تجريد الدراسة من روح الكشف الجذابة ، وانساق القوم وراء التقليد ، وانصرفوا عن النظر والاجتهاد ، وكان موقف الدراسات الكلامية في موضعه من الجمود المشتبه عند ظهور دعوة ابن تومرت ، ومن هنا لم يلبث هذا الناقد البربري حين عاد من المشرق أن صدمته العقيدة السائدة في المغرب ، وراح يناهضها بأقصى قوة ، إلا أن ذلك لم يكن قط المأخذ الوحيد الذي أخذه المهدي المقبل على المرابطين ، بل كان هناك ما هو أشد خطراً في رأيه ، ألا وهو التجسيم ، وكان منشأ هذا الخطأ في نظره ، أن فقهاء المغرب في عهد المرابطين خلافاً لزملائهم في المشرق ، وقد بلغوا حينئذ من التطور غايته فيما يتعلق بمباحث علم الكلام ، ظلوا يلتزمون في الآيات القرآنية التي فيها ذكر لصفات الله النص الحرفي لها مما يفضي إلى تجسيم للذات الإلهية ، وإلى إثبات صفات جسمية له تعالى ، كانت هناك بطبيعة الحال عقبة كأداء بين هذه النظرية القائمة على التفسير الساذج لما تعبر عنه النصوص الأصلية وبين النظرية القائلة بالتزيه المطلق على نحو ما تعلمه ابن تومرت من أساتذته المشاركة ، واعتنقها في حماس كبير ، (١) .

كذلك أثارت قراءة كتاب إحياء علوم الدين للغزالي في بلاد المغرب موجة من الغضب عند فقهاء المرابطين ، لأن قراءة الناس لهذا الكتاب كانت شؤماً على نفوذهم الهائل ، إذ كان الغزالي قد فضح فيه نزعات الفقهاء في دراساتهم الفقهية ، وحرصهم على الدنيا ، وطمعهم في الحصول على المناصب الرفيعة ، وحسدكم للعلماء والزهاد . ولم يكن العلم في نظره حرفة كالخرف

(١) ليفي بروكسسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٥٠

الأخرى ، أو مهنة دنيوية تعود على صاحبها بالربح العاجل ، وإنما هو « عبادة القلب ، وصلالة السر ، وقربة الباطن إلى الله تعالى » (١) ، فالتخذ الفقهاء في المغرب قرارا أملاوه على السلطان علي بن يوسف سنة ٥٠٣ هـ ، ويقضى باحراق كتب الغزالي في أنحاء دولة المرابطين . وكان من الطبيعي أن يثور أهل المغرب على هذا التصرف ، ولكن الفرقة المسيحية التي استعان بها علي بن يوسف في المغرب ، وكان يقودها القائد القطلاني روبرتير كانت تحول دون قيام الأهالي بالثورة . ولذلك نبعت الثورة من مصدر آخر هو ثورة المهدي بن تومرت (٢) .

(١) أبو حامد الغزالي ، أحياء علوم الدين ، ج ١ ص ٤٥ ، طبعة مصر سنة ١٣٠٢ هـ

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الاسلامي ، ص ١٣٨

(٥)

منشآت المرابطين في المغرب

١ - دور المرابطين السياسي والحضاري في المغرب :

لما تم ليوسف بن تاشفين فتح بلاد المغرب سنة ١٠٧٦ هـ ، استطاع الصنهاجيون أن يفرضوا نفوذهم في القسم الغربي من بلاد المغرب ، وهزموا أعداءهم الزناتيين الذين لم يتمكن الفاطميون ، أو أمراء بني زيري من التغلب عليهم ، وبذلك ربط المرابطون بين بلاد المغرب ، وألفوا دولة كبرى بربرية الأصل لا يحكمها مشاركة ، كما كان الحال في العهود السابقة ^(١) . ويرجع إليهم الفضل في تكوين الوحدة السياسية للمغرب الأقصى ، فلم يكن المغرب الاقصى حتى ظهور المرابطين دولة قائمة بذاتها ، فالي يوسف بن تاشفين يرجع الفضل في ضم الاراضي المغربية للمرة الاولى في وحدة وثيقة تحت لوا مأسرة واحدة ، وستظل هذه الوحدة قائمة حتى العصر الحاضر .

أما من ناحية البناء الاجتماعي والاقتصادي ، فقد كان للمرابطين الفضل في قيام تجمعات عمرانية هامة مثل مكناس وتلمسان ومراكش ^(٢) على الرغم من قضائهم على التكتل البرغواطي أساس قوة السهول المغربية ، وتدميرهم للقرى والمجاشير أثناء صراعهم مع قبائل زناتة وبرغواطة .

ومن الناحية الدينية عمل المرابطون على نشر المذهب المالكي في البلاد ، فانتهى الامر بالمغرب إلى ارتباطه بوحدة مذهبية وثيقة تقوم أساسا على

(١) Marçais, le Berberie, p. 231

(٢) Terrasse, Histoire du Maroc, t. 1, p. 257

المذهب المالكي . كذلك يرجع إلى المرابطين الفضل في رفع راية الجهاد ضد
النصارى في إسبانيا ، فألقوا بذلك الاسلام في إسبانيا من استرداد
مسيحي وشيك .

أما من الناحية الفنية ، فالمرابطون هم الذين دفعوا الحضارة الأندلسية
إلى الأمام، وفتحوا أبواب المغرب ليلتقي فيها من التأثيرات الأندلسية التي
بدأت تتدفق في عصرهم على البلاد المغربية ، بعد أن كانت هذه الأواب
موصدة في العصور السابقة أمام هذه التأثيرات ، فلم تكن تنفذ منها إليها إلا
ما كان يتسلل عن طريق منافذ فتحها الأمازيغيون في سبتة وفاس . ولأول
مرة ارتبط المغرب والأندلس في وحدة فنية وثيقة ، وأصبحت الأندلس
في المجال الفني أستاذا للمغرب ، فساد الفن الأندلسي في المغرب ، وظهرت
تقاليد واضحة وضوحا تاما فيما تخلف من آثار المرابطين في المغرب (١) .
وإذا كان يوسف بن تاشفين قد أبدى امتعاضه عند زيارته لإشبيلية من
مظاهر الترف الأندلسي ، فإنه لم يلبث أن شجع شعراء الأندلس وأدباءها
وأهل العلم منها إلى الوفود إليه ، بعد أن أسقط ملوك الطوائف ، فاصطنعهم
في بلاطه ، وفي ذلك يقول المراكشي : « فانقطع إلى أمير المسلمين من
الجزيرة من أهل كل علم فحولته حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس
في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة
ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار » (٢) . ومن هؤلاء أبو بكر

(١) Tarrasse, l'art Hispano mauresque, Paris 1932, p. 223-

Marçais, l'Architecture musulmane d'Occident. pp. 185 - 187

(٢) المراكشي ص ١٦٣ - ١٦٤

المعروف بابن القصيرة ، كاتب المعتمد ، وكان من أهل البلاغة ، ثم الوزير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، وأبو القاسم بن الجند المعروف بالأحذب ، وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبو عبد الله بن أبي الخصال ، وأخوه أبو مروان وغيرهم^(١) . وعلى هذا النحو تبدل بلاط يوسف بن تاشفين دفعة واحدة من بلاط يتسم بالخشونة والبساطة إلى بلاط متأنق متحضر^(٢) ، وأخذ أمراء المرابطين منذ أيام يوسف بن تاشفين يستقدمون من الأندلس كثيرا من رجال الفن والبناء ، ويشركونهم في الأعمال الفنية بالمغرب ، فقد ذكر الأدريسى أن علي بن يوسف عندما عزم على بناء قنطرة على وادي تنسيغت ، استقدم من الأندلس الخبراء في بناء القناطر^(٣) . ويذكر الأستاذ ترانس أن حصن تاسغيموت الذي أقيم في سنة ١١٢٥ م في عهد الأمير علي بن يوسف تم بناؤه تحت إشراف مهندس أندلسي هاجر إلى مراكش ، اسمه الفلكي^(٤) ، وإن كان البيهقي يذكر أن الذي بناه هو ميمون بن ياسين^(٥) . ويذكر الجزنائي أن علي بن يوسف أمر قاضيه أبي محمد عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطي بعمل منبر جامع القرويين بفاس^(٦) . كذلك تدل الآثار المعمارية الباقية في تلمسان

(١) نفس المرجع ص ١٧٣ ، ١٧٤

(٢) ليفي برونسفال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٤٧

(٣) الأدريسى ، ص ٦٩

(٤) Terrasse, l'art hispano mauresque, pp. 226, 227

(٥) البيهقي ، ص ١٢٨

(٦) الجزنائي ، ص ٤٢

والجزائر ومراكش على ان فنانين ومهندسين أندلسيين ساهموا مساهمة فعالة في بنائها وتزيينها بالزخارف على النحو الذي سنراه فيما بعد .

ب - دراسة لأهم مساجد المرابطين في المغرب :

اهتم المرابطون ببناء المساجد اهتماما خاصا ، والدليل على ذلك أن يوسف ابن تاشفين عندما دخل مدينة فاس في سنة ٥٤٦٢ هـ « حصنها وأتقنها ، وأمر بهدم الأسوار التي كانت بها فاصلة بين المدينتين ، عدوة القرويين وعدوة الأندلس وردما مصرا واحدا ، وأمر ببناء المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها ، وأى زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب أهله وجهزم على بناء مسجد فيه ... » (١) . ولما هدم الأسوار الفاصلة بين مدينتي فاس ووحدهما ، أصبح جامع القرويين الجامع الرئيسي بفاس ، ولذلك حظى هذا الجامع في عهد ابنه علي بن يوسف بزيادة كبيرة فيه ، بينما ترك جامع الأندلس على حاله حتى أضيف إليه في عصر محمد الناصر الموحد سنة ٦٠٠ هـ . كذلك أسس يوسف بن تاشفين عددا من المساجد في جزائر بني مزغنة وفي ندرومة وفي تاكرارت بتلمسان ، كما أسس جامع مراكش ، وكان يعمل في الطين والبناء بيده مع القومة والفعلة . وقد أعاد ابنه علي بن يوسف بناء هذا الجامع بجوار قصر الحجر فشيده بناء فائرا .

وجامع تلمسان بناء مستطيل الشكل طوله من الشمال إلى الجنوب ٥٥ مترا ، وعرضه من الشرق إلى الغرب ٥٠ مترا . وتاريخ بناء هذا الجامع مسجل في كتابة نسخية تدور بقاعدة قبسة المحراب ، وتشير إلى الفراغ من بنائه في

سنة ٥٣٠ هـ ، أما اسم منشيء هذا الجامع ، وهو الأمير علي بن يوسف ،
الذي كان منقوشا في الجص ، فقد شوهه الموحدون عند دخولهم المدينة .
ويتألف المسجد من بيت للصلاة مستطيل الشكل ، وصحن مربع تكتنفه من
الغرب مئذنة تتألف من أربع بلاطات ، الاثنتان المتطرفتان منها غير كاملة ،
إذ تحدد شكلها بالبناء القسائم لصق الجامع من الجهة الغربية . أما المئذنة
الشرقية فتتألف من ثلاث بلاطات تعتبر امتداداً لبلاطات بيت الصلاة .
ويشتمل بيت الصلاة على ١٣ بلاطة عمودية على جدار القبلة ، وتستند عقود
الجامع على خمسة صفوف من الدعائم تمتد بحذاء جدار القبلة ، كل منها يشتمل
على ١٢ دعامة . هذه الصفوف من الدعائم تقسم سطح بيت الصلاة إلى ٦
أساكيب تمتد من الشرق إلى الغرب ، وبمعنى أصبح إلى مجموعتين من
الأساكيب كل منها يضم ثلاثة . وتفصل بين المجموعتين دعائم مصلبة الشكل
تقوم عليها بأكدة من العقود المتعددة المقصوص ، تقطع المسجد عرضاً بحذاء
جدار القبلة . أما العقود الأخرى المتجهة عمودياً على جدار القبلة فمن النوع
المنفوخ الذي يشبه حدوة الفرس . وسقف المسجد خشبي مسطح ، يعالوه
سطح منشوري الشكل أو مسنم على النحو المتبع في جامع قرطبة . والبلاطة
الوسطى تزيد في الاتساع عن البلاطات الأخرى ، ويقطع سطحها قبتان ،
يعالوها جوسقان من الخارج ، واحدة منها تقع بأعلى الأسطوان الأوسط
من القسم الشمالي من البلاطة الوسطى ، أي في نفس الموضع تقريبا الذي
تقوم عليه القبة المخزومة الكبرى المسماة بقبة فلاسيوسا بجامع قرطبة . أما
القبة الثانية فتتقدم المحراب ، وهي قبة من النوع القائم على الضلوع المتقاطعة ،
تذكرنا بقياب المسجد الجامع بقرطبة وقياب مسجد باب مردوم بطليطلة ،
وتختلف عنها في أنها تقوم على جوفات ركنية مقربصة ، وينبت من القاعدة

للربعة للقبه ١٢ عمدا كبيرا بارزاً تتقاطع فيما بينها تاركة في الوسط قبيبة مقربصة ، وتزدان الفراغات الناشئة من تقاطع العقود بتوربقات مفرغة في الجص ، ويتجلى تقاطع العقود من الخارج أيضا . وكان يحيط بأسطوان المحراب ، أى بأدنى قاعدة هذه القبه مقصورة من الخشب ، حفظت أجزاء منها في متحف تلمسان ، ويرجع تاريخ إنشائها إلى سنة ٥٣٢ هـ .

وبناء جامع تلمسان مر بثلاث مراحل : المرحلة الأولى عند بنائه على أيام يوسف بن تاشفين في سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م) ، والثانية في سنة ٥٣٠ هـ عندما زينته على بن يوسف بالزخارف الرائعة التي يزدان بها خاصة في وجه المحراب وجداره والبلاطة الوسطى . ويعتقد الأستاذ مارسيه أن يغمراسن ابن زيان ، من سلاطين بني عبد الواد ، هو الذي أضاف إلى الجامع القسم الشمال من مسطح بيت الصلاة بما في ذلك القبه الثانية والصحن والمئذنة (١) . ونعتقد أن بيت الصلاة كان قائما في عهد على بن يوسف بقبتيه اللتين ترتفعان في أعلى بلاطة المحراب ، وأن مهندس هذا الجامع تأثر في بنائه ببناء جامع قرطبة من هذه الناحية ، وفي هذه الحالة تصبح أعمال بني عبد الواد مجرد ترميمات لبناء كان قائما بالفعل منذ أيام على بن يوسف . أما المسجد الجامع بالجزائر ، فقد أقيم أيضا في عهد يوسف بن تاشفين ، ويعتقد الأستاذ مارسيه أنه أسس في سنة ٤٩٠ هـ ، وهو التاريخ المسجل على منبر الجامع (٢) ، وإن كنا نعتقد أن هذا المسجد أقيم قبل هذا التاريخ فيما بين عامي ٤٧٣ هـ ، ٤٧٥ هـ . وبيت الصلاة في هذا المسجد يشتمل على ١١ بلاطة

(١) Marçais, l'Architecture musulmane, p. 197

(٢) Marçais, l'Architecture mus. p. 191

عمودية على جدار القبلة ، تخترقها خمسة أساكيب عرضية . ونلاحظ أن كل من بلاطة المحراب وأسكوبه تزيد في الانساع على البلاطات والأساكيب الأخرى . ويحيط بالصحن ثلاث مجنبتات : الشرقية والغربية تشتمل كل منها على ثلاثة أروقة تمتد بامتداد بلاطات بيت الصلاة ، أما الشمالية فلا تنضم إلا رواقاً واحداً . وعقود المسجد العمودية على جدار القبلة من النوع المنفوخ المنكسر ، أما الموازية للجدار القبلي فمفصصة ، وترتكز هذه العقود كما هو الحال في جامع تلمسان على دعائم ، بعضها مستطيل الشكل والبعض الآخر منها مصلب الشكل (١) .

ومن أروع آثار المرابطين ، قبة البروديين بمراكش ، وترجع إلى عصر علي بن يوسف ، وتقع في وسط المدينة ، وكانت تؤلف جزءاً من ملحقات جامع علي بن يوسف ، وهي من أروع القباب المرابطية الباقية ، وتقوم في أركان المثلث الذي يقوم عليه عنق القبة جوفات ، تكسوها زخارف حصرية رائعة ، من التوريقات الدقيقة التي تمثل أوراق الأكشس في تكوينات رائعة ، وتتوسط الجوفات قواقع مروحية في غاية الروعة والجمال (٢) .

ج - جامع القرويين بفاس :

وأعظم آثار المرابطين على الإطلاق الجامع المعروف بالقرويين بفاس ،

Ibid. (١)

(٢) Boris Maslow, la Qoubba Barudiyyin à Marrakech, al-Andalus, vol. XXII 1948 - Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, p. 200

الذى يعتبر من أهم المساجد الجامعة في بلاد المغرب ، وأكثرهما شهرة ، باعتبارها جامعة إسلامية قديمة يمكن مقارنتها بجامعة الأزهر في القاهرة . وقد كان لهذا الجامع أثر بالغ في مساجد فاس كلها ، إذ كان نظامه الفريد يؤلف طابعا انتشر في كثير من مساجد فاس ومكناس ومراكش حتى وقتنا الحاضر (١) . وقد وصل إلينا تاريخ بناء جامع القرويين بفاس مفصلا بفضل روايات أوردها ابن أبي زرع في روض القرطاس والجزناني في زهرة الآس . ولقد مر بناء جامع القرويين بثلاثة أدوار : الأول عند تأسيسه سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) (٢) ، والثاني عند الزيادة فيه سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦) . والثالث عندما زيدت مساحته في عصر المرابطين في سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) . ومن الثابت أن الزيادات التي أضيفت إلى الجامع القديم تمت من سائر الجهات .

ويذكر ابن أبي زرع أن الخطبة لم تنزل « بجامع الشرفاء الذى بناه إدريس بعدوة القرويين ، وجامع الأشياخ من عدوة الأندلس طـوـل أيام

(١) Lambert, les mosquées de type andalou en Espagne et en

Afrique du Nord, al - Andalus, vol. XIV, 1949

(٢) عثر الأستاذ عبد الهادي التازي في الأرض التي كان يقوم عليها المسجد الأول على لوحة تأسيسية للجامع تتضمن النص التالي: [هذا مما أمر به الإمام أعزه الله داود بن إدريس أبقاه الله ونصره] ، ويستنتج الأستاذ التازي أن هذا المسجد أقيم في سنة ٢٦٣ في أيام الإمام داود بن إدريس . (أنظر مقالة: نظرية جديدة في بناء جامعة القرويين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية ١٩٥٨ ، ومقاله : الحروف المنقوشة بالقرويين في خدمة الآثار ، المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤٤٦) ، ولما كان هذا النص لا يشير إلى بناء معين فالأرجح أنه يشير إلى بنية ملحقة بالجامع وليس من الضروري أن يكون خاصا ببناء الجامع

الادارسة ، ، فلما اتسعت مدينة فاس ، ووفد إليها العرب والبربر من أنحاء المغرب والأندلس ، ضاق كل من الجامعين بالمصلين ، واستلزم الأمر بناء جامعين جديدين ، وكان في جملة هؤلاء الوافدين رجل عربي من القيروان اسمه محمد بن عبد الله الفهرى ، فمات وترك أموالا كثيرة ورثتها ابنتاه : فاطمة المدعوة بأم البنين ، ومريم . وأبدت الابنتان رغبة صادقة في صرف قسم من هذا الإرث الكبير في عمل البر والخير ، ويبدو أنها سمعتا بخصيق جامعي العدوتين ، عن الاتساع لجمهور المصلين ، وقيام مشكلة بناء جامعين جديدين ، فشرعت فاطمة في بناء جامع القرويين في مستهل رمضان سنة ٢٤٥ هـ ، وكان في موضعه حقل يمتلكه رجل من هواره ، فاشتريته منه فاطمة وتطوعت بالاتفاق على البناء من إرثها . وتذكر الرواية أن جميع مواد بناء الجامع استخرجت من أرض المسجد نفسه ، وفي ذلك يقول الجزنائي :
« فحفر في أرضه ، وأخذ منها التراب والكذان لبنائه ، وحفر بها بئر
لأخذ الماء لبنائه ، ونصبت قبلته على نحو قبلة جامع الشرفاء الذي أسسه الإمام إدريس » (١) . وكان هذا الجامع الأول يتألف من قسمين : بيت الصلاة والصحن ، وكان بيت الصلاة يشتمل على أربع بلاطات عرضية تمتد من الشرق إلى الغرب ، تتوسطها بلاطة وسطى أكثر ارتفاعا من البلاطات العرضية الأخرى . كان طول بيت الصلاة من الشرق إلى الغرب مائة وخمسين شبرا أي ما يعادل ٣٠ مترا ، وجعلت فاطمة مجرا به في موضع الثريا الكبرى الموجودة في المسجد في الوقت الحاضر ، وأقامت صومعة غير مرتفعة في

(١) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ص ٢١ الجزاوي ، من ٣٥ — ابن القاضي ،

جلوة الاقتباس عن لينى بروفسال Extraits ، ص ٢٢

موضع القبة التي تعلو العزة الحالية . وبذكر الأستاذ جورج مارسيه أن هذه المعلومات التي زودنا بها المؤرخان السابقان على جانب كبير من الأهمية لأنها أتاحت لنا تحديد المكان الذي كان يشغله بيت الصلاة القديم من جامع القرويين في صورته الحاضرة . ويؤكد الأستاذ مارسيه ، ويؤيده في ذلك الأستاذ لامبير أن طول بيت الصلاة القديم كان يمتد من بداية البلاط الرابع من الصحن حتى نهاية البلاط السابع من المسجد الحالي ، وكان عرضه يشتمل على العقود الاثني عشرة الوسطى المحصورة بين البلاطات المذكورة ، ويحدد هذا العرض صفان من العقود تقطع بيت الصلاة من الصحن حتى جدار القبلة . أما الصحن القديم فكان يشغل الأروقة الثلاثة الأولى ابتداء من العزة ، في حين كانت المئذنة تقوم على الواجهة الشمالية للمسجد في محور المحراب ، شأنها في ذلك شأن مئذنتي جامع القيروان وجامع قرطبة ، ومئذنة العروس بجامع دمشق (١) .

وظل المسجد على هذه الصورة القديمة حتى دالت دولة الادارسة ، فلما تولى بنو زناتة حكم البلاد ، واستقام أمرهم بالمغرب ، بنوا الأسوار حول أرباض العدوتين ، وزادوا في جامع القرويين زيادة كبرى ، حدودها ظاهرة حتى اليوم ، تشمل بلاطات وصومعة ، وذلك حين كثرت الناس بفاس ، وانتابوها من كل صوب ، وأصبح جامع الشرفاء القديم ضيقا لا يتسع لكل من كان يؤمه من المصلين ويمكننا تحديد هذه الزيادة بالنسبة للمسجد الحالي على النحو التالي ، مد الأمير أحمد بن أبي بكر البلاطات العرضية مسافة خمسة

(١) Marçais, l'architecture, p. 198 - Lambert, les mosquées de

type andalou.

عقود شرقا وأربعة عقود غربا ، ثم أضاف لبيت الصلاة ثلاث بلاطات غرضية جديدة شمالا ، فشغلت هذه البلاطات الجديدة المصحح القديم (١) . وبطبيعة الحال قام لبيت الصلاة بعد اتساعه مصححا جديدا . أما المئذنة التي أقامها فتقوم فوق منتصف الرواق المطل على المصحح من المصنبة الغربية ، وقاعدة هذه المئذنة مربعة ، طول كل ضلع منها نحو خمسة أمتار ، وارتفاعها أربعة أمثال طول قاعدتها ، أى ما يقرب من عشرين مترا ، وفقا للنظام المتبع في ماّذن الأندلس في العصر الأموي ، وجعل بابها من جهة الجنوب على النحو المتبع في مئذنة جامع القيروان ، وقد علق ابن أبي زرع على ذلك بقوله : « كذلك يجب أن تكون من جهة البناء والنظر الهندسى » . ولقد شرع الأمير أحمد في بنائها وتشييدها عام ٣٤٤ هـ ، وفرغ منه في ربيع الآخر سنة ٣٤٥ هـ ، وبنيت من الحجر المنجور المحكم ، وركبت على رأسها تفاحات صغيرة مموهة بالذهب ، تنتهى بسيف الإمام إدريس بن إدريس الذى أقام عدوة القرويين تبركا به (٢) .

ونلاحظ أن هذه المئذنة تشبة إلى حد كبير ماّذن قرطبة وإشبيلية في عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وإن كانت تغلب عليها البساطة . وفى داخلها درج حلزوني يدور حول دعيمة مربعة ، وبجدرانها من الخارج فتحات ضيقة تشبه منافذ السهام ، كان الغرض منها تزويد الدرج بالضوء ، وبأعلى المئذنة نافذة على هيئة عقدتين توأمين متجاوزين ، يستندان على عمود مشترك ، ويحيط بهما إطار مستطيل على النحو الذى نراه فى ماّذن الأندلس

(١) الجزلانى ، ص ٣٦ - جذوة الاقتباس ، ص ٢٤

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٧

كلها ، وفي أعلى نهاية جدار المئذنة شرفات هرمية . أما سطح المئذنة فتعلوه قبة ، يتوجها سفود بارز ركت به التفاحات المذكورة (١) . ولم تحتفظ هذه المئذنة بمظهرها القديم في عصر بني أمية ، إذ كسيت بطبقة من الجص في سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) ، فقد أمر السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق المربني قاضيه أبا عبد الله بن أبي الصبر باصلاحها وتبييضها من أموال أعشار الروم ، فشرع في تبييضها ، وكسا المئذنة بالجص والجيار ، وسمر المسامير الكبيرة بين أحجارها ، ليثبت التليس والبناء ، ثم صقلها بعد ذلك حتى أصبحت كالمرآة المصقولة ، بعد أن كانت الطيور تتخذ من بعض فتحاتها أو كارا (٢) . ولم يطرأ على المسجد تغيير يذكر حتى كانت أيام الخليفة الأموي هشام المؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر ، فبنى بالمسجد قبة هي التي تعلو العزة الحالية أي في الموضع الذي كانت تشغله المئذنة القديمة ، ونصب على رأسها أعمدة من حديد ركت فيها تماثيل وطلاسم . ولقد أجريت بالمسجد أعمال كثيرة في عهد المظفر عبد الملك بن المنصور ، فبنى البيلة والسقاية المستطيلة على يسار الخارج من باب الحفاسة وهو باب مفتوح في منتصف الجدار الشمالي للمسجد ، وجلب إليها المياه من وادي حسن من جهة باب الحديد ، كذلك أقام عبد الملك بن المنصور منبرا من الابنوس وشجر العناب ، وكان مكتوبا عليه « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله

(١) فيما يختص بالمآذن القرطبية ارجع الى المقال الآتي :

Torres Balbas, la primitiva mezquita mayor de Sevilla, al-Andalus, vol. XI, 1946, pp. 425 - 436

وارجع الى بحثي : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٤٠١

(٢) الجزئى ، ص ٣٨

على سيدنا محمد وآله وسلم ، هذا ما أمر به الخليفة المنصور ، سيف الاسلام ، عبد الله هشام المؤيد بالله ، أطال الله بقاءه ، على يد حاجبه عبد الملك المظفر ابن المنصور بن أبي عامر ، وفقهم الله تعالى ، وذلك في ثمان وثمانين وثلاثمائة (١) . ودام هذا المنبر حتى أمر على بن يوسف بعمل منبر جديد من خشب الصندل والابنوس وال نارنج والعناب وعظم العاج .

* * *

ازدهرت فاس في عصر المرابطين ، وكثر العمران بعدوة القرويين حتى ازدهمت المدينة ، واكتظت بسكانها ، وضاق جامع القرويين بالمصلين حتى كان الناس يصلون في الأسواق والشوارع والطرق المحيطة بالجامع أيام الجمع ، وكانوا يلاقون متاعب كثيرة لتعرضهم لحرارة الشمس أيام الصيف ، فاجتمع الفقهاء والأشياخ ، وخاطبوا قاضي القضاة في هذا الأمر ، فاستأذن القاضي أمير المسلمين على بن يوسف في إجراء زيادة بالمسجد ، فاذن له بالشروع فيها في سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٢ م) ، وتمت في سنة ٥٣٨ هـ (٢) . وابتدأ القاضي بنزع ملكية الدور الملاصقة للجامع من جهة قبلته وهدمها ، وأقام مكانها ثلاث بلاطات عرضية ، أضيفت إلى البلاطات السبعة القديمة ، وزود الجامع بمحراب جديد ومنبر أشرنا إليه فيما سبق . وأعاد بناء الباب الغربي الكبير المعروف بباب الفخارين ، فسمى بباب الشعاعين . وكان يشرف على البناء بنفسه . وأقام على الباب قبة بداخلها نقش ، ذكر ابن أبي زرع نصه كالآتي : [صنعت هذا الباب والقبة وكلف بالبناء والتركيب في شهر ذي

(١) المرجع السابق ، ص ٤٢

(٢) ولكن النقوش الكتابية بأعلى النافذة الوسطى التي تملو المحراب ، وفي الجهتين الشرقية والغربية من القبة المستطيلة التي تلي قبة المحراب وعلى يمين باب الجنائز ، تؤكد أن الفراغ من الزيادة تم في سنة ٥٣١ هـ (راجع الحروف المنقوشة بالقرويين ص ٤٨)

حجة سنة ثمان وعشرين وخمسمائة [(١)]. وبُنيت الزيادة بحجر الكذان ،
وتأنق في بنائها غاية التأنيق ، وكسيت أبواب المسجد جميعها بالنحاس الأصفر ،
وأقيمت على كل منها قبة . وأقيمت على المحراب قبة من الجص المقربص ،
بلغت الغاية في الروعة والجمال ، فقد زينت هي والمحراب بنقوش الذهب
واللازورد وأصناف الأصبغة ، فبهرت الناس بحسنها ولائها (٢) ، وركبت
في شمسات القبة (النوافذ المشبكة بزخارف الجص) أشكال رائعة من
الزجاج الملون (٣) .

ويذكر الأستاذ تراس أن هذه الأعمال الانشائية تمت على أيدي
فنانين استقدمهم الأمير من الأندلس (٣) . ففي زخارف هذا المسجد نشاهد
مجموعات من المراوح النخيلية المعركة والمختمة التي تشبه أوراق الأكاش ،
تغمر القسم الأعلى من البلاطة الوسطى ، وجوفه المحراب من أعلاها ،
وأركان القباب ، وتذكرنا هذه الزخارف النباتية بنظائرها في قصر الجعفرية
بسر قسطة ، وقصر القصبة بمالقة ، وبعض الآثار الزخرفية بقصبة المرية
وجامعها ، من عصر الطوائف . ونشاهد في زخارف جامع القرويين كذلك
عقودا متقاطعة ، وعقودا مفصصة ومتجاوزة ، وعقودا من النوع الذي تتناوب
فيه الأقواس نصف الدائرية مع أقواس صغيرة مدببة ، تمثل حلقة الاتصال
بين العقود التي نشاهدها في الجعفرية بسر قسطة ، والعقود الشائعة في عصر
الموحدين . وزخارف جامع القرويين تجلو علينا عنصرا جديدا ظهر لأول

(١) ابن أبي زرع ، ص ٣٣

(٢) ابن أبي زرع ، ص ٣٣ - ٣٥

(٣) الجزائى ، ص ٥٨

(٤) Terrasse, la reviviscence de l'Acanthe dans l'art

hispano-mauresque, sous les Almoravides, al-Andalus, vol. XXVI,
fasc, 2, 1961, p. 430

مرة في فن الزخرفة الإسلامية وهو نظام الزخرفة الثعبانية الشكل « Serpentine » عند منابت العقود ، وهو نظام زخرفي شاع في عصر الموحدين ، ونشاهد هذا النظام الزخرفي في أبواب مسجد الجنائز الملحق بجامع القرويين ، وقد طبق على منابت العقود التوأمية المنفوخة ، ولكن هذه العقود دائرية من أعلى بينما نراها منكسرة في مساجد الموحدين (١).

كذلك ظهرت لأول مرة في الزيادة التي أضيفت في جامع القرويين في المرابطين ، قباب مقربصة ، تتمثل في مسجد الجنائز ، وفي البلاطة الوسطى المؤدية إلى المحراب (ست قباب مقربصة) . وقبة مسجد الجنائز تقوم على قاعدة مربعة من المقربصات ، رصعت بقبيبات صغيرة مفصصة (٢) . أما قباب البلاطة الوسطى فكلها مقربصة وتكسوها زخارف نباتية في غاية الروعة والجمال ، وكانت هذه الزخارف مغطاة بطبقة من الجص ، أزيلت عنها تدريجياً ، فظهرت هذه الزخارف للناظرين آية في دقة الأداء وجمال التكوين (٣) .

وبهذه الزيادة المرابطية اكتملت عمارة المسجد ، واشتمل على حدوده التي نراها اليوم ، ويمثل محور المسجد من الداخل بلاطة وسطى فسيحة ، تعلوها القباب المقربصة الست التي أشرنا إليها ، ومن الخارج يقطع صفوف

(١) Terrasse, art almoravide et art almohade, al-Andalus, 1961, p. 440

(٢) Terrasse, l'art hispano- mauresque, p. 235

(٣) Terrasse, l'art de l'empire almoravide; ses sources et son évolution, dans : Studia Islamica, t. III, 1955, p.32

الأسقف المنشورية الشكل الممتدة بحذاء جدار القبلة ، جوسق منشوري الشكل ، عمودي على جدار القبلة ، يزيد ارتفاعه على ارتفاع هذه الأسقف^(١).

أما المنبر فقد أقيم على يدي القاضي أبي محمد عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطي ، ولم يتم في حياته فأتمه القاضي أبو مروان عبد الملك بن بيضاء القيبي ، وقد صنع من عود الصندل والآبنوس والنارنج والعناب ، وطعم بالعاج ، وتولى صناعته وتركيبه الشيخ أبو يحيى العتاد^(٢) . ويعتبر هذا المنبر من أجمل منابر الإسلام ويشتمل على تسع درجات ويزدان جانبا به تشابكات رائعة متعددة الضلوع قوامها أشكال نجمية ذات ثمانية رؤوس ، ويشبه في ذلك منبر جامع الكتبية بمراكش الذي صنع بقرطبة . ويحدد التشابكات المذكورة أشرطة من العاج ، وتزدان الحشوات النجمية بتوريقات نخيلية معروقة ومختمة وفقا لسلوب الأندلسي المغربي. أما ظهر المنبر وعقده الأمامي فرصعان بالعاج والأخشاب الثمينة ذات الألوان الهادئة ، وما زال هذا المنبر محفوظا حتى اليوم بجامع القرويين^(٣).

أما صحن الجامع فقد فرشاه الفقيه أبو عبد الله بن داود ، وصنع بسكرا وأشرطة غليظة ركبها في قلاع من شقائق الكتان في سعة الصحن ، فاذا اشتدت حرارة الصيف شدت البكرات فنصب القلاع وظلمت الصحن كله^(٤). ولما دخل الموحدون مدينة فاس في ١٥ ربيع الآخر سنة ٥٤٠ هـ ، خاف

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 198

(٢) الجزنائي ، ص ٤٢

(٣) طرز المنبر حول مدخله بكتابة نسخية من الصدف ، بينما نقش على جانبيه كتابات بالخط الكوفي من العاج (راجع الحروف المنقوشة بالقرويين ، ص ٤٤٩)

(٤) ابن أبي زرع ، ص ٣٥ ، ٣٦ - الجزنائي ، ص ٥٦

فقهاء المدينة وأشياخها أن يأخذ الموحدون عليهم هذا الإسراف في النقش والزخرفة والتذهيب بالمحراب والقباب ، « فأتى الجماهون الجامع تلك الليلة ، فنصبوا على ذلك النقش والتذهيب الذى فوق المحراب وحوله بالكاغيد ، ثم لبسوا عليه بالحص وغسل عليه بالبياض وذلك » ، فاختمت هذه النقوش وأصبحت بياضا (١) . ولكن هذه الكسوة الجصية أزيلت في سنة ١٩٤٩ فظهرت النقوش والزخارف بألوانها الزاهية الرائعة .

د - اثار القلاع والاسوار :

ذكر صاحب روض القرطاس أن يوسف بن تاشفين عندما أمر ببناء مراکش أقام قصبة صغيرة لحفظ أمواله وسلاحه في موضع يعرف بسور الخير من مدينة مراکش شمالي جامع الكتبيين (٢) ، ولقد أسفرت الحفريات الاثرية التى أجريت حديثا في الموضع الذى كان يقوم عليه جامع الكتبية القديم وما يليه عن كشف أسس هذه القصبة ، وأثبتت الحفريات أنها كانت مقامة من قطع الحجر غير منتظمة القطع ، ولكنها موضوعة في صفوف منتظمة ، أما الجسر المصقول فكان يستخدم في الأركان . هذه الطريقة تذكرنا بنظام بناء قصر البحر الحمادى وتحصينات المهديّة . ونظام بناء باب قصبة مراکش أيضا ، يجلو لنا تأثيرات إفريقية واضحة المعالم ، فهو باب ممره مباشر ، على نقيض الأبواب الأندلسية في هذه الفترة ، إذ كانت من النوع المزود بالمرافق الدفاعية . كذلك نجد محفورا على البرجين اللذين يكتنفان المدخل جوفات نصف دائرية تذكرنا أيضا بنظائرها في فن

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧ - الجزئى ، ص ٥٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٨٩

العمارة الزيرية والحمادية (١) .

وفي عصر علي بن يوسف زودت مراكش بسور من الطابية على النظام الأندلسي ، وقد تم التنقيب عن بابين من أبواب هذا السور القديم هما باب العروس ، وباب في الجهة الغربية لعله باب المخزن ، وقد ثبت أن أحدهما على الأقل كان مبنيا على نظام المرافق (٢) . وقد أثبتت الحفريات الأثرية أيضا في قصر الحجر المجاور لجامع الكتبية ، أن أعمال علي بن يوسف في هذا القصر كانت مستوحاة من الفن الأندلسي سواء من ناحية التخطيط أو من ناحية الزخرفة ، فقد كشف عن بهو له ممران متعامدان على النحو الذي نراه في الأندلس في قصر منتقوط Monteagudo بمرسية (٣) . وقد استخدم في البناء الطابية والآجر ، وكسى البناء بطبقة من الجص مدهونة باللون الأحمر والأصفر ، وهي طريقة كانت شائعة في البناء في الأندلس في القرن الرابع الهجري . ولقد أقام علي بن يوسف أمام باب قصبة أبيه فوارة زينها بتشابكات هندسية رائعة ملونة على طبقة جصية ، ولا تختلف هذه الزخارف بأي حال من الأحوال عن زخارف قصيرة منتقوط بمرسية (٤) .

وفي تلمسان اكتشفت آثار لسورها القديم الذي بناه يوسف بن تاشفين

(١) Meunié et Henri Terrasse, Recherches archéologiques à Marrakech, Paris 1952 - Terrasse, l'art de l'empire almoravide : ses sources et son évolution, pp. 27 - 29.

(٢) Terrasse, l'art hispano - mauresque, p. 224 - Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, p. 219

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦١ ، مادة مرسية

(٤) Terrasse, l'art de l'empire almoravide, p. 13

عندما اختلط تكرارت غربي أغادير القديمة ، عند باب القرمدين وما يليه ، وإن كان لم يتحقق بعد نسبة هذه الآثار المبنية بالطاوية إلى عصر يوسف ابن تاشفين (١) . كذلك يحفظ سور أغادير القديمة بباب قديم يعرف باسم باب الأقباء ، وهو باب مفتوح في سور مشيد بقطع حجرية غير مهذبة القطع ، وعقد الباب من الآجر ، منفوخ متجاوز ، ويقوم على صفوف من الحجارة المصقولة على النظام الروماني ، وبشبه هذا الباب في نظام بنائه الباب الرئيسي بقلعة آمرجو (٢) .

ويذكر البيدق أن المرابطين أقاموا حصونهم « في مواضع دارت بها الجبال من جميع الجهات لكي ينتصروا بها على الموحدين أعزهم الله » (٣) ، ومن هذه القلاع قلعة آمرجو وقلعة بني تاودا ، وقلعة ناسغيموت .

وقلعتا بني تاودا وآمرجو من القلاع المرابطية الأصيلة ، وقد بنيتا خصيصا لمراقبة سكان الجبال في منطقة الريف . أما قلعة بني تاودا فقد بنيت بقطع حجرية غير مهذبة القطع ترتبط فيما بينها بملاط شديد الصلابة ، ونظمت هذه القطع الحجرية في صفوف منتظمة ، وللأسف لم يتبق من هذه القلعة إلا أجزاء يسيرة ، تقتصر على الأسوار ، وفي وسط القلعة آثار بناء لعله كان خاصا بالقصبة .

أما قلعة آمرجو فتقوم على مرتفع من الأرض يشرف على وادي ورغة المتفرع من وادي سبو جنوبي قلعة بني تاودا ، وهي من أروع أمثلة العمارة

(١) Ibid. p. 28

(٢) Marçais, op. cit. p. 220

(٣) البيدق ، ص ١٢٨

الحربية في المغرب في عصر المرابطين . وفي بناء هذه القلعة تتداخل التقاليد المحلية مع التأثيرات الاندلسية ، التي تدفقت على المغرب الاسلامي في عصر علي بن يوسف ، والتأثيرات الإسبانية المسيحية التي حملها النصارى المرتزقة في الجيش المرابطي (١) . وتتجلى هذه التأثيرات المسيحية في الأبراج المستديرة الشكل ، وفي السور الأمامي . والقلعة على شكل متعدد الأضلاع يعيل إلى الاستطالة ، وبدعم سورها الخارجي ١٢ برجا نصف دائرية ، تقوم في زوايا السور ، ويخترق أسوارها ثلاثة أبواب ، وينتصب أمام السور الواقع في الجانب الشمالي الشرقي من القلعة برجان يمتد بينهما سور أمامي . وفي داخل القلعة ترتفع قصبة صغيرة مستطيلة الشكل ترتكز في أركانها أبراج نصف دائرية ، ويفتح في سورها بابان (٢) . والباب الرئيسي لقلعة آمرجوله يمر بتصل مباشرة بمدخلها ولا أثر فيه للتقاليد الاندلسية .

وقلعة تاسفيوت من أهم القلاع التي أسسها المرابطون لمداغة الموحدين بناها ميمون بن ياسين ، وكانت تقيم بها حامية مرابطية من مائتي فارس ، وخمسمائة من المشاة لحراسة بلاد هزرجة (٣) .

وتقع هذه القلعة على بعد ٣ كيلو مترات جنوب شرقي مراکش ، وعلى

(١) Terrasse, La forteresse almoravide d'Amargo, al-Andalus vol. VIII, pp. 389-400

(٢) Terrasse, l'art hispano - mauresque, p. 226 -

Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, p. 219 - Terrasse, la forteresse almoravide d'Amargo.

(٣) البينق ، ص ١٢٨ . ويذكر الأستاذ ترانس نقلا عن الحلال الموشية أن الذي تولى

بعد نحو عشرة كيلو مترات شرقي أغمات ، على سطح هضبة أطرافها ذات
أجراف وعرة شديدة الانحدار ، يصعب على الغازين ارتقاؤها . وأسوارها
تمتد على حافة الهضبة كلها ، متتبعة تعرجاتها وتندمج قواعد هذه الأسوار
في صخور الهضبة نفسها (١) . وتشرف قلعة تاسغيموت على وادي أغمات
أيلان المتفرع من وادي تاسغيمت الأعلى ، ومن هنا ندرك أن الغرض من
بنائها هو حماية عاصمة المرابطين : وينفتح الباب الرئيسي للقلعة ، وهو الباب
المعروف باسم باب الموحدين في الجهة الشمالية الغربية ، وهناك باب آخر في
الجهة الشمالية ، ولكنه باب صغير أقرب إلى أن يكون خوخة أو نقبة .
والقلعة من الداخل معسكر فسيح كانت ترابط فيه حامية كبيرة العدد ،
ولا أثر بداخله اليوم لبناء ثابت إلا في الجانب الغربي حيث تقوم بقايا بناء
واسع ، لعله كان حصنا يقيم فيه رئيس الحامية ، أو مخازن للمهمات والعدد .
وقد راعى بناء القلعة ، أن تكون مزودة بكل شيء ، استعدادا لحصار
طويل الأمد ، ولذلك زودت بالمياه من نبع في الهضبة ، حيث كانت تجري
إلى خزان ضخم مازال قائما حتى اليوم (٢) . ولقد افتتح الموحدون هذه
القلعة في سنة ٥١٧ هـ ، وخلعوا أبوابها ، وركبوها على باب الفخارين بمدينة
تينمل (٣) .

= Terrasse, l'art Hispano - mauresque, p. 227 - Terrasse et
H. Basset, Sanctuaires et Forteresses almohades, Paris, 1932,
p. 379.

(١) Terrasse et H. Basset, op.cit. p. 382

(٢) Terrasse et Basset, Sanctuaires et forteresses almohades,
p. 380

(٣) البيهقي ، ص ٨٤ ، ١٢٨ ، ١٣١

الفصل الحادي عشر

المغرب في عصر الموحدين

(١) ظهور الموحدين :

أ - المهدي بن تومرت فقيه السوس ، وعبد المؤمن بن علي شراح الموحدين

ب - الاشتباكات الأولى مع المرابطين

(٢) فتوحات عبد المؤمن بن علي

أ - المرحلة الأولى : إسقاط دولة المرابطين

١ - فتح تلمسان ووهران ٢ - فتح فاس ٣ - فتح مراكش

ب - المرحلة الثانية : فتح الأندلس

ج - المرحلة الثالثة : فتح المغربين الأدنى والأوسط

(٣) عصر أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

أ - الصعاب التي واجهته في المغرب والأندلس

ب - جهاده في الأندلس واستشهاده في شنترين

(٤) المنصور بطل الأرك

أ - حروبه مع بني غانية

ب - جوازه الأول إلى الأندلس واسترجاع المسلمين لشلب

ج - انتصار أبي يوسف المنصور في موقعة الأرك

د - غزوة طليطلة في سنة ٥٩٢ هـ.

هـ - الغزوة الثالثة .

(٥) محمد الناصر وهزيمة الموحدين في العقاب

١ - ثورات المغرب في عصر محمد الناصر

ب - هزيمة المسلمين في العقاب

ج - انهيار دولة الموحدين بعد هزيمتهم في العقاب

(٦) مساجد الموحدين وتخصيماتهم في المغرب والاندلس

١ - الأثر الأندلسي في الفن المغربي

ب - اهتمام الموحدين بالبناء

ج - مساجد الموحدين في المغرب والاندلس

١ - جامع الموحدين برباط تازي

٢ - جامع تينملل

٣ - جامع الكتبية بمراكش

٤ - جامع القصبة بمراكش

٥ - جامع حسان بالرباط

٦ - جامع الاندلس بفاس

٧ - جامع القصبة الكبير باشبيلية

د - المنشآت الحربية

١ - أسوار المدن

٢ - الأبواب ذات المرافق

الفصل الحادي عشر

المغرب في عصر الموحدين

(١)

ظهور الموحدين

١- المهدي بن تومرت فقيه السوس وعبد المؤمن على سراج الموحدين :

هو محمد بن عبد الله بن تومرت (١) ، من أهل السوس ، وهي بلاد يسكنها بربر جفاة متعسفون في حياتهم ، خشنون في مظهرهم ، تغلب على طباعهم السذاجة ، وقوة الإيمان ، والاعتقاد في القوى الخفية ، وقل منهم من كان يرتفع في علمه إلى مستوى العلم الإسلامي الحق ، ويلم بالمسائل الكلامية على نحو يتبلور معه ذو العلم بها ، ويستحيل إلى آلة تسرد وتردد ، وإلى عالم يلتزم في تفسيره للآيات النص الحرفي (٢) .

ولد ابن تومرت في عام ٤٨٥ هـ في ضيعة من بلاد السوس تعرف بإيجيلز (٣)

(١) لم يكن هذا هو اسمه الأصلي ، فقد كان يحمل اسما مختلفا ثم استبدل به اسم محمد بعد عودته من المشرق تيمنا باسم الرسول ، ثم رأى أن يكون اسم أبيه عبد الله ، ولم يكن هذا هو اسم أبيه الحقيقي ، إذ كان يسمى بتومرت بن وجليد ، ولكن الاستاذ ليفي بروفنسال يرى أن اسم تومرت هو اسم إحدى جدات المهدي غلب على نسبه (ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢٦٥) . وكان جده لأبيه يسمى وجليد ، وجده لأمه يسمى وابوركن ، وهي أسماء بربرية بحثة (البيهقي ص ٣٠)

(٢) ليفي بروفنسال ، المرجع السابق ص ٢٥٧

(٣) يسميها المراكشي المجلي أن وارغن (المراكشي ص ١٧٨)

من قرى هرغة الواقعة على سفح جبل إيجيليز ، من قوم شرفاء (إيسر غينن) ، وكان أبوه أمغار (١) القبيلة ، أى شيخهما ، فقضى ابن تومرت طفولته يحفظ القرآن في مكتب القرية . فلما اشتد عوده ، وأصبح شابا يافعا ، دفعه طموحه إلى الرحيل عن قبيلته ، لا للسمى وراء عمل في السهول ولا للإقامة في مراكز حاضرة المرابطين رغم تألقها ، وإنما للدراسة والتحصيل في المشرق الإسلامى ، مصدر العلوم ، ومنبع الحضارات ، ومهد جميع الأديان . فخرج من قبيلته في طلب العلم عام ٥٠١ هـ ، وانتهى إلى بغداد ، ولقى فيها أبا بكر الشاشى ، فاخذ عنه شيئا من أصول الدين ، وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار وغيره من المحدثين . وقيل أنه لقى أبا حامد الغزالى فى الشام (٢) . وذكروا أن الغزالى أحيط علما بما فعله المرابطون بكتبه التى وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها ، وكان ابن تومرت موجودا وقتئذ فى مجلس الغزالى ، فعلق الغزالى قائلا : « ليزهبن عن قليل ملكه (ملك على بن يوسف) ، وليقتلن ولده ، وما أحسب المتولى لذلك إلا حاضرا مجلسنا » (٣) . وأحس ابن تومرت أنه يعنيه ويومئ إليه بهذه العبارة ، وأن تمزيق دولة المرابطين سيتم على يديه .

قضى ابن تومرت ما يقرب من ١١ سنة يجوب عواصم المشرق الإسلامى ، فلما عزم على العودة إلى مسقط رأسه ، مر بمصر فى عهد الأمر بأحكام الله الفاطمى ، وبغلب على الظن أنه قضى بها بعض الوقت ، وكانت الاسكندرية

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٨

(٢) نفس المرجع ، ص ١٢٨

(٣) نفس المرجع ، ص ١٢٩

وقد ازدهرت فيها الحياة العلمية ، فقد استوطنتها في العصر الفاطمي جلة من العلماء كان لهم أثر كبير في نهضتها العلمية ، ومنهم فقيه الاسكندرية محمد بن ميسر ، والفقيه عبد الرحمن بن عوف بن عمرو العلاف ، والإمام الشيخ أبو بكر الطرطوشي ، والحافظ المقدس (١) . وكان المهدي يختلف إلى مجلس أبي بكر الطرطوشي الفقيه ، وكان له رفاق في العلم في مصر . ويبدو أنه كان ساخطا على مظاهر الترف التي أقبل عليها أهل الاسكندرية ، فأحس ابن تومرت منذ ذلك الحين أن عليه رسالة لا بد من أن يقوم بتحقيقها في حماسة المقتنع الملهم ، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأفضت به تعاليمه هناك إلى نفيه من المدينة (٢) .

ركب ابن تومرت سفينة متجهة إلى المغرب ، ويبدو أنه لم يفتأ أثناء رحلته البحرية عن وعظ الركاب والمسافرين ، واستنكار أعمالهم ، ويذكر المراكشي أن أهل السفينة ضاقوا بتعاليمه ، فآلقوه في البحر ، « فأقام أكثر من نصف يوم يجرى في ماء السفينة لم يصبه شيء ، فلما رأوا ذلك من أمره أنزلوا إليه من أخذه من البحر ، وعظم في صدورهم ، ولم يزالوا مسكرمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب بجاية » (٣) . ويذكر الاستاذ ليفي بروفنسال

(١) حسن عبد الوهاب ، الاسكندرية في العصر الاسلامي ، مجلة السكتاب ، ١٩٤٦ ، ص ٣٨١ - ٣٨٢ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦١ ، ص ١٧٨ ، وتخطيط الاسكندرية وعمرانها في العصر الاسلامي ، طبعة بيروت ١٩٦٤ ، ص ٧٨ - جمال الدين الشيال ، أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي ، القاهرة ١٩٦٥ : الطرطوشي ، ص ٥٠ - ١٠٠ ، والحافظ السلفي ، ص ١٣٠ - ١٥٩ .

(٢) المراكشي ، ص ١٧٩ - السيد عبد العزيز سالم ، المهدي بن تومرت ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٧٠ ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٦٦ .

(٣) نفس المرجع ص ١٧٩ .

نقلا عن المؤرخ ابن القطان أن « عصمته تجلت في هذه الرحلة ، فقد كسر جرات الخمر التي كانت موجودة على ظهر السفينة التي أقلته ، وصاح فيهم عندما أبصر أن أوقات الصلاة كانت تمضي دون أن يهتم أى شخص بأدائها ، وكان القوم يهزون أكتافهم حين يسمعون بهدوهم في غير رفق إلى الصلاة معه ، وكان لا بد أن تحدث معجزة ، فهبت عاصفة ، واستطاعت دعوات الناقد وحدها أن تهدى من هياج البحر ، وتمت الرحلة بسلام بفضل هذا الولي الذي وجد منذ هذه اللحظة من يصغى إليه بانتباه على ظهر السفينة ، مكبرين له ، نادمين على ما بدر منهم نحوه » (١) .

ويغاب على الظن أن ابن تومرت نزل المهدية في إمارة يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ، وبدا له أن يقيم في المهدية بعض الوقت ، فنزل في مسجد من مساجدها في رفقة ثلاثة من أتباعه رافقوه في رحلته ، هم الحاج يوسف الدكالي ، والحاج عبد الرحمن ، وأبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق (٢) .

واجتمع إليه جماعة من أهل المدينة ، فقرأ عليهم كتابا في أصول الدين ، وكان إذا شاهد منكرا حاول تغييره بالقوة ، فتسامع الناس به ، وقصدوه ، واستهوتهم شخصيته .

ثم رحل ابن تومرت إلى المستير ، فأقام بها بضعة أيام ثم رحل إلى تونس ، وأخذ يعرف الناس هناك بالسنة وأصول الدين ، ثم مضى بعد

(١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢٦٩

(٢) البيدق ص ٥١

ذلك إلى قسنطينة ، فنزل بها عند الفقيه عبد الرحمن الميلي ، ويحيى بن القاسم ،
وعبد العزيز بن محمد ، وكان يليها في ذلك الوقت سبع بن العزيز ، فأقام بها
عدة أيام ثم رحل إلى بجاية ، فنزل بها في مسجد الريحانة ، وكانت بجاية
مدينة كبيرة ، اتخذها بنو حماد ، منذ عهد الناصر بن علناس سنة ٤٥٤ هـ ،
حاضرة لهم ، فكانت مركزا حضاريا متألقا ، فاقت القيروان وتونس ،
ونأت من رقة الحياة في الأندلس وترفها قدرا كبيرا ، وظهر أثر ذلك في
الحياة الاجتماعية . فلما خرج ابن تومرت من المسجد لرؤية المدينة ، شرع في
نهي الناس عن « الاقراق الزرارية ، وعمائم الجاهلية ، ولباس الفتوحات
للرجال ، ويقول : لا تزينوا بزى النساء لأنه حرام » (١) . وكان يسمح
الطيب للرجال والنساء أسوة بما كان يفعله الرسول ، في الحدود التي لا إثم
فيها . وكان الفقهاء يأتون لسبأه في شهر رمضان ، فلما انتهى هذا الشهر
وأقبل العيد ، خرج الرجال والنساء لصلاة العيد في الشريعة (أى المصلى) ،
فلما رآهم ابن تومرت تناول عصاه ، وأخذ يضربهم بها يمينا وشمالا حتى
بدد جموعهم (٢) . ويذكر المراكشي أن صاحب بجاية أمره بالخروج منها
حين خاف عاديته ، فخرج متجها إلى المغرب ، فنزل بضیعة يقال لها ملالة ٣
وهناك أقام مسجدا ، وأقبل الطلبة إليه من كل مكان . وكان يقضى يومه
في العبادة والتدريس لطلبته ، وينطلق بعد ذلك إلى رحبة قريبة ، فيجلس تحت
شجرة من شجر الخروب ، يتأمل ويفكر ، ويذكر الله في مهمة خافتة لاتقطع

(١) البيذق ، ص ٥٢

(٢) نفس المرجع

(٣) المراكشي ، ص ١٨٠

وهو ناظر إلى الطريق . وذات يوم سمعه الطلبة يقول: « الحمد لله الذي أنجز وعده ، ونصر عبده ، وأنفذ أمره » ، وأقبل نحو المسجد ، وركع ركعتين ، ثم قال : الحمد لله على كل حال ، قد بلغ وقت النصر ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلحكم غدا طـالب ، طوبى لمن عرفه ، وويل لمن أنكره » (١) . وفي اليوم التالي ظهر عبد المؤمن بن علي الكومي (٢) الذي سيصبح خليفة الموحدين . وكان عبد المؤمن هذا متوجها إلى المشرق لطلب العلم ، في رفقة عمه الذي كان يقوم له مقام الدليل . فلما وصلوا إلى بجاية ، نزلوا في مسجد الريحانة ، فلما صليا الصبح ، سمعوا الناس يقولون : « سيروا بنا نحو الفقيه السوسي » ، ولما سمعهم عبد المؤمن يذكر صلاح دينه ، ويشنون على علمه وفهمه لكتاب الله والسنة طلب من عمه أن يذهب معه لرؤيته وسماعه مع هؤلاء الداهيين (٣) . وما إن رآه ابن تومرت ، وقرأ

(١) البندق ، ص ٣٠ .

(٢) هو عبد المؤمن بن علي بن علوي بن يعلى بن علي بن حسن بن أبي نصر بن مقاتل ابن كومي ، وبعض المؤرخين ينسبه إلى علي بن أبي طالب .

(٣) يذكر البندق أن عبد المؤمن عندما وصل إلى متيجة رأى وهو نائم رؤيا غريبة وهي أنه يحمل على ركبته صحيفة من طعام يأكل الناس فيها كافة . فلما أصبح قص على عمه الرؤيا ، فقال له اكتتمها . فلما وصلا إلى بني زلدوى ، رأى المنامة بعينها مع اختلاف يسير في أن الصحيفة على رأسه ، فأخبره بها ، فتصحه بكتماها . فلما نزلوا بجاية ، ونام عبد المؤمن رأى الرؤيا بعينها إلا أن الناس يبايعونه . فلما أخذ عمه بها نصحه بكتماها . هذه الرؤيا ، فإن أمه رأت وهي حامل به كأن النار تخرج منها فتحرق المغرب والمشرق والقبلة والجوف ، فأخبرها المعسر بتلسان أنه لا بد لهذه المرأة من مولود يسيطر على المغرب والمشرق والشمال والجنوب ، وأوصاها بأن تسكن ذلك ولا تنسبه . ثم ذكر له عمه نبوءة أخرى ، وهي أن آل عبد المؤمن كانوا يحصدون الزرع ، فتعبت أم عبد المؤمن =

على وجهه علامات الذكاء ومخايل النبوغ والمعرفة حتى ميزه عن بقية القوم، وعرف فيه « المختار ». يقول البيهقي: « فرجع المعصوم رضه رأسه ، فواقفه أمامه ، فقال : ادخل يا شاب ، فدخل . فأراد أن يقعد في جملة الناس ، فقال له الإمام المعصوم رضه : إدن يا شاب ، فلم يزل يدنو من الإمام ، والمعصوم يقربه حتى دنا منه ، فقال له المعصوم : ما اسمك يا فقي . فقال : عبد المؤمن . فقال له المعصوم . وأبوك على ؟ . فقال : نعم فتعجب الناس من ذلك . فقال له ، يا شاب ، من أين إقبالك ؟ قال له : من نظر تلمسان من ساحل كومية ، فقال له المعصوم . من تاجرا أم لا ؟ . فقال له : نعم . فزاد الناس تعجباً . فقال له المعصوم رضه . أين تريد يا فقي ؟ فقال : يا سيدي نحو المشرق التمس فيه العلم . فقال له المعصوم رضه : العلم الذي تريد اقتباسه بالمشرق وجدته بالمغرب » (١) . ثم طلب منه ابن تومرت أن يبيت عنده ، فأجابه عبد المؤمن . ويضيف البيهقي إنه : « لما جن الليل أخذ الإمام المعصوم بيد الخليفة رضها ، وسارا ، فلما كان نصف الليل ناداني المعصوم . يا أبا بكر ، ارفع لي الكتاب الذي في الوعاء الأحمر ، فدفعته له ، وقال : اسرج لنا سراجا ، فكان يقرأه على الخليفة من بعده وأنا يومئذ ماسك السراج أسمعه يقول : لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين إلا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين . فبكي الخليفة (يقصد عبد المؤمن) عند سماع هذا القول ، وقال : يا فقيه ، ما كنت

= وكانت حاملا به ، فنامت ، فأقبل بندان من نخل فنزلا عليها ، وتصادف أن أم عبد المؤمن لما ولدته خرجت لحصاد سنبل التمع ، وتركته نائما ، فاذا بالنخل يقبل على الطفل وهو نائم ، ثم يفرق عنه فرقتين : واحدة إلى المشرق والأخرى إلى المغرب (انظر البيهقي ، ص ٤٥) (١) البيهقي ، ص ٦٥

في شيء من هذا ، إنما أنا رجل أريد ما يطهرني من ذنوبي . فقال له المعصوم ، إنما تطهيرك صلاح الدنيا على يدك . ثم دفع له الكتاب ، وقال : طوبى لأقوام كنت أنت مقدمهم ، وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم . أكثر من ذكر الله يبارك لك في عمرك ويهديك ويعصمك مما تخاف وتحذر ،^(١) .

استقر رأى عبد المؤمن على البقاء مع ابن تومرت ، ف قضى أشهراً يقسراً عليه ، وكان أكثر الطلبة فهماً ، ثم رحل ابن تومرت وطلبته وأتباعه من ملالة إلى المغرب الأقصى ، فوصلوا إلى تلمسان ، ونزلوا بأغادير في مسجد بظاهرها يعرف بالعباد^(٢) . فاستراحوا بها فترة قصيرة ثم واصلوا السير مجددين إلى وجدة (انظر خريطة رقم ١٣) ، ثم رحلوا منها متجهين إلى فاس ، فمروا بقري آجر سيف وآمليل وقلال والمقرمدة وعين الرقي حتى وصلوا إلى فاس . وكان الطلبة يهرعون إليه في كل مكان حل به ، فلما وصل إلى فاس نزل بمسجد ابن الغنام ، ثم انتقلوا منه إلى مسجد ابن المجوم ، فمسجد بطريانة ، حيث استقروا في بيت صومعته ، واتخذ ابن تومرت للتدريس . وقام ابن تومرت أثناء مقامه بفاس بمهاجمة حوانيت الآلات الموسيقية بزقاق بزقالة من فاس ، وكانت هذه الحوانيت مملوءة بالدفوف والقراقرو والمزامير والعيدان والروط والأربية والكيثارات ، فتولى طلبته كسر هذه الآلات^(٣) .

ولما بلغ والي المدينة أمره ، جمعه مع نفر من فقهاء فاس للمناظرة ، فظهر عليهم وفاقهم ، فأشار الفقهاء إلى والي باخراجه من المدينة حتى

(١) المرجع السابق ص ٥٦

(٢) المراكشي ، ص ١٨٣

(٣) البيلقي ص ٦٥

لا يفسد عقول العامة ، فأمره الوالي بالخروج من فاس (١) . فمضى هو وأتباعه إلى مراکش ، مارين بمغيلة ، ومكناسة ، ثم رحلوا منها إلى خميس فزارة ، ثم وصلوا إلى سلا ، فأقاموا بها أياماً ، وواصلوا السير إلى مراکش ، فدخلوها ، ونزلوا بها في مسجد صومعة الطوب . ويبدو أن ابن تومرت تناظر في مراکش مع جماعة من الفقهاء ، فأفحمهم ، فنصحوا علي بن يوسف بحبسه ، فأبى أن يفعل ذلك دون ذنب جناه ابن تومرت ، واكتفى بإخراجه من مراکش (٢) . فخرج ابن تومرت هو وأصحابه من مراکش إلى أغمات أن وايلان ، ومنها إلى أغمات وريكة ، ثم مضى بعد ذلك إلى قريته إيجيليز من هرغة ، فنزل داره في سنة ٥١٤ هـ (٣) ، وأقام رابطة للعبادة في سنة ٥١٥ هـ (٤) ، واجتمع إليه الطائفة والقبائل .

وكان ابن تومرت في كل هذه البلاد التي طاف بها ينشر تعاليمه في التوحيد والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فحارب فكرة التجسيم الشائعة عند أهل المغرب في عصر المرابطين ، وذهب إلى أن صفات الله من ذاته ، وأضاف ابن تومرت إلى هذه الآراء والتعاليم آراء أخرى في الفقه ،

(١) المراكشي ، ص ١٨٤

(٢) ذكر ابن الأثير أن ابن تومرت كان في طريقه في مراکش يوما ، لاذ رأى أخت الأمير أبي الحسن علي بن يوسف في موكب من الجوارى الحسنات عدة كثيرة وهن مسفرات ، وكانت هذه عادة الملثمين ، يسفن نساؤهم وجوههن ، ويلتئم الرجال فلما رأى ابن تومرت ذلك أنكره عليهن ، وأمرهن بستر وجوههن ، وضرب هو وأصحابه دوابهن ، فسقطت أخت علي بن يوسف عن دابتها ، وكان ذلك سببا في خروجه من فاس

(٣) البيهقي ، ص ٧٢

(٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٦٩

إذ كان يرى أن الشريعة الإسلامية يجب أن تقوم مباشرة على دراسة القرآن والأحاديث ، واستبعد في ذلك تعاليم الفقهاء القائمة على القياس والإجماع .

ب - الاشتباكات الأولى مع المرابطين :

رحل ابن تومرت وأتباعه بعد ذلك إلى تينمل من السوس ، فبايعوه بها تحت شجرة خروب سنة ٥١٥ هـ (١) ، وكان أول من بايعه عبد المؤمن ابن علي ، ثم سائر أصحابه ، وتلقب بالمهدي ، وصرح بدعوى العصمة لنفسه ، وأنه المهدي المعصوم ، فأقبل إليه الأشياع والأتباع من سائر قبائل المغرب الأقصى ، وبايعوه مرة ثانية في سنة ٥١٧ هـ ، ولم تزل طاعتهم له تزداد ، وفتنتهم به تشتد ، وتعظيمهم له يقوى ويتأكد ، حتى بلغوا في ذلك إلى حد « لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء » (٢) . ومن تينمل قدر لدعوته القائمة على التوحيد أن تنطلق في ربوع المغرب كله . وقد سمي أصحابه بالموحدين لأنهم أول من تحدث في التوحيد وعلم الكلام في المغرب ، وسماهم أيضا بالمؤمنين لأنه ليس على الأرض من يؤمن إيمانهم . وقد قسم ابن تومرت أصحابه إلى طبقات ، فجعل منهم أهل العشرة ، وهم المهاجرون الأوائل الذين أسرعوا إلى إجابته فسماهم الجماعة ، وأولهم عبد المؤمن بن علي ، وأبو حفص عمر بن علي الصنهاجي ، وأبو الربيع سليمان بن مخلوف الحضرمي ، وسليمان الحضرمي كاتب رسائل المهدي ، وأبو محمد عبد الله بن محسن الوانشرشي ، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي . ومنهم أهل خمسين وهم الطبقة الثانية ، وقد كانوا

(١) وقيل بويم برباط مرغة

(٢) المراكشي ص ١٩١

يمثلون قبائل مختلفة من البربر من هرغة ، وهنتاتة ، وجدميوة ، وجنفسية ، وصنهاجة ، وهسكورة ، ومنهم المستدركون بعد التمييز . وقد تمكن ابن تومرت من تأليف جيش قوى من المصامدة ، ثم غزا الموحدون تسع غزوات ، ولم تكن هذه الغزوات سوى اشتباكات خفيفة مع بعض القبائل الموالية للمرابطين ، وقد انتصر الموحدون في معظمها . وفي سنة ٥١٧ هـ تجددت الاشتباكات بين المرابطين والموحدين ، ونجح الموحدون بقيادة عبد الرحمن بن زجوة في الاستيلاء على قلعة تاسغيموت ، وكانت من أعظم قلاع المرابطين ، وحملت أبوابها إلى تينملل^(١) . وفي سنة ٥١٨ هـ افتتحت بلاد ماغوسة ، وهناية على وادي نفيس ، وفي سنة ٥٢١ هـ بعث ابن تومرت عبد المؤمن بن علي إلى جزولة ، وهي أول غزوة تقابل فيها مع تاشفين بن علي بن يوسف ، والشنيور الإبرتي Reverter قائد الروم في جيش المرابطين .

ومنذ سنة ٥٢٤ هـ (٢) أخذت هذه الاشتباكات تأخذ طابع الصدام المسلح مع جيش المرابطين ، ففي هذه السنة جهز المهدي ابن تومرت جيشا ضخما من الموحدين ، ووجهه إلى مراکش عاصمة المرابطين ، وقال لهم : « اقصدوا هؤلاء المارقين المبذلين الذين تسنوا بالمرابطين ، فادعهم إلى إمامة المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدي المعصوم ، فان أجابوكم ، فهم إخوانكم ، لهم مالكم ، وعليهم ما عليكم ، وإن

(١) البيهقي ص ١٣١

(٢) قص المرجم ص ٢٨ ، ١٣٣ . ويذكر المراكشي أن الموقعة حدثت في سنة ٥١٧ هـ

(المراكشي ، المعجب ص ١٩٣)

لم يفعلوا فقاتلهم ، فقد أباحت لكم السنة قتالهم » ، ثم أمر على الجيش خليفته عبد المؤمن بن علي ، وقال : « أنتم المؤمنون ، وهذا أميركم » فاستحق عبد المؤمن منذ ذلك اليوم لقب أمير المؤمنين (١) .

وخرج جيش الموحدين إلى مراکش في أربعين ألفا ، فوصلوا إلى موضع اسمه البحيرة ، يقع في ظاهر مراکش ، فخرجت إليهم جيوش المرابطين بقيادة الزبير بن علي بن يوسف من باب إيلان ، ونزل المرابطون قريبا من معسكر الموحدين ، فدعاهم عبد المؤمن إلى دعوة ابن تومرت ، وحاول قائد المرابطين أن يحذر عبد المؤمن عاقبة مفارقة الجماعة ، وينهاه عن الفتنة ، فزاده ذلك طمعا في المرابطين ، واشتبك الجيشان في معركة ضارية ، انتهت بهزيمة الموحدين ، وقتل منهم عدد كبير ، من بينهم أبو عبد الله الوائشيشي ، وسليمان آحضرى ، وأبو عمران موسى الجدميوى ، وأبو يحيى بن يجيت ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان ، وكلهم من أهل العشرة (٢) . ونجا عبد المؤمن بن علي في نفر من أصحابه وقد أصيب بجرح عميق في فخذه الأيمن ، فلما وصل الخبر إلى ابن تومرت قال : « أليس قد نجا عبد المؤمن ؟ قالوا نعم . قال : لم يفقد أحد » (٣) .

أحس ابن تومرت بالمرض بعد أربعة أشهر من وقعة المرابطين بالموحدين سنة ٥٢٤ هـ ، فدخل داره بتينملل ، ولم يخرج منها إلا إلى قبره ، في المسجد الملاصق لداره ، حيث دفن به سرا في ٢٩ رمضان سنة ٥٢٤ هـ ،

(١) المراكشى ، ص ١٩٢

(٢) البيهقي ، ص ٣٣

(٣) البيهقي ، ص ٧٩ - المراكشى ، ص ١٩٣

وأخفى أصحابه نبأ وفاته ثلاث سنوات ، قام الموحدون خلالها بشن الغارات على المرابطين ، ثم أعلنت وفاة المهدي رسمياً في سنة ٥٢٧ هـ . فبوع لعبد المؤمن في هذا التاريخ بفضيل ثلاثة أشياخ من الموحدين هم : عمر أصناج ، وعبد الرحمن بن زجو ، وأبو إبراهيم اسماعيل الهزرجي ، من أهل الجماعة (١) .

(٢)

فتوحات عبد المؤمن بن علي

١ - المرحلة الأولى : اسقاط دولة المرابطين :

١ - فتح تلمسان ووهران :

كانت مهمة عبد المؤمن بعد أن تولى خلافة الموحدين صعبة للغاية ، فقد كان عليه أن يقضى على دولة المرابطين ، ويضم بلاد المغرب الأدنى والأوسط إلى المغرب ، حتى يصبح المغرب كله خاضعاً للموحدين ، ولم يكن تحقيق هذا الأمر هيناً ، خاصة ، وقد ذاق من قبل مرارة الهزيمة حين تجرأ على مهاجمة مراکش عاصمة المرابطين ، فتلا في الزول إلى السهل ، إلا في المناطق المقابلة للصحراء . وكانت القبائل الجبلية قد أطاعت عبد المؤمن ، وزاد أتباعه ، وانتفضت القبائل على المرابطين في سائر بلاد المغرب ، فأرسل علي بن يوسف ابنه تاشفين لقتال الموحدين سنة ٥٣٣ هـ ، فاصطدم معه عبد المؤمن في معركة بموضع في بلاد حاحة ، وفيها انتصر عبد المؤمن ، وعاد تاشفين إلى مراکش منهزماً ، وجرح من قواده البربر ، قائد الروم . وفي سنة ٥٣٥ هـ اشتبك عبد المؤمن مرة أخرى مع البربر في أجظور ، فانتصر عبد المؤمن في هذه المرة أيضاً . وفي هذه السنة خرج عبد المؤمن في جيش كثيف غازياً المغرب الأوسط ، فأطاعته غمارة بشمال المغرب ، وفي أثناء هذه الغزوة ، توفي علي بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ ، فخلفه ابنه تاشفين ، وحدث خلاف بين لمتونة ومسوفة من قبائل المرابطين ، فانضمت مسوفة إلى الموحدين (١) . ثم

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٧٤

حاصر عبد المؤمن مدينة سبتة ، ولكنها استعصت عليه ، فاضطر إلى تركها ،
وواصل زحفه شرقا إلى جبال غيثة وبطوية ، فافتتحها . ثم مضى إلى بلاد
ملوية ، وتمكن من افتتاح حصونها ، ومن هناك واصل زحفه شرقا إلى
زنانة فأخضعها وأخضع معها قبائل مديونة ، ونازل تلمسان بعد ذلك في
سنة ٥٣٩ هـ . فقتل الأبرتير ، ونجح في دخول تلمسان .

تراجع تاشفين بن علي على أثر ذلك إلى وهران ، فحاصره الموحدون
بحصنها ، وأشعلوا النيران على باب الحصن ، فحاول تاشفين الخروج بفرسه
من الحصن ، فتردى في بعض حافات الجبل ، ومات في ٢٣ رمضان سنة
٥٣٩ هـ . فبعث عبد المؤمن رأسه إلى تينملل ، ودخل الموحدون وهران ،
فقتلوا من كان بها من المرابطين ، وقد أمر عبد المؤمن ببناء سور تآكرارت
من تلمسان ، كما بنى مسجدها الجامع (١) .

٢ - فتح فاس :

تطلع عبد المؤمن بعد ذلك إلى فتح فاس ، فعزم على السير إليها ، واستولى
في طريقه على أجرسيف ثم المقرمدة . فلما علم يحيى بن أبي بكر بن يوسف
ابن تاشفين المعروف بالصحرأوى ، قائد فاس ، بقدوم الموحدين خرج
لمقاتلتهم ، فانهزم الصحرأوى ، وانسحب إلى فاس (٢) . وفي اليوم التالي
نزل الموحدون بعدوة سبو في موضع يعرف باسم عقبة البقر (٣) ، وهناك
قسم عبد المؤمن جيشه إلى قسمين : قسم بقيادة قائده أبي بكر بن الجبر مع

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٣

(٢) البيهقي ، ص ٩٩

(٣) موضع شديد الانحدار في الطريق من فاس إلى تازي

صنهاجة وهسكورة ، وجهه إلى نوج إيجران ، وهو موضع من فاس ، أما الخليفة فقد ارتقى مع بقية العسكر جبل العرض (١) . وأمر الخليفة رجاله بقطع الأشجار ، فقطعت ، ثم حمت إلى الوادي ، فسد بها ، وأمر عبد المؤمن بتحويل مجرى النهر إلى ناحية الأسوار ، وأطلق المياه في المجرى الجديد فجرفت المياه باب السلسلة وهدمته (٢) ، وغمرت أحياء المدينة فأغرقت عددا كبيرا من دورها . واضطر الصحرأوى إلى الخروج مع فريق من رعيته لبناء السور المهدم ، فأتم بناءه . ثم أرسل عبد المؤمن فرقة استطالعية (تيطاف بالبربرية) (٣) . سيرها إلى مكناسة ، فخرج عليهم بدر بن ولوط وقتلهم جميعا ما عدا ثمانية من الفرسان . فلما علم عبد المؤمن بن علي بذلك غضب غضبا شديدا ، وزحف إلى مكناسة بعسكر كثيف أثناء الليل تاركا أبا بكر بن الجبر على حصار فاس . فافتتح جميع أرباض مكناسة ما عدا تاجرات .

ولما طال الحصار على أهل فاس ، خرج أبو محمد الجياني والي فاس خفيه إلى أبي بكر بن الجبر ، واتفق معه على أن يفتح له فاس . وفوجيء الصحرأوى في الصباح برؤية الموحدين على السور في ١٤ ذى القعدة سنة ٥٤٠ هـ . فركب الصحرأوى فرسه هو وبعض عسكره وجماعة من شيوخ لمطة ، نجسوا بأنفسهم من باب الفتوح ، واحتتموا بقلعة آمرجو ، ولكن الصحرأوى فر إلى الاندلس ، فخرج أبو يحيى بن الجبر إليهم ، وقبض عليهم ،

(١) هو جبل الشواشي الحالي ويقع شرقي فاس

(٢) القرطاس ، ج ١ ص ١٢٣ - الحلل الوشية ، ص ١٠١ ، ١٠٢

(٣) البيذق ، ص ١٠٠

وساقهم إلى فاس وقتلهم . وهكذا افتتح الموحدون مدينة فاس بعد تسعة أشهر من الحصار . ثم قدم عبد المؤمن إلى فاس ، وأقام بها بعض الوقت ، وأمر أثناء ذلك بسور فاس فهدمت فيه ثلثات كثيرة ، وقال : إننا لانحتاج إلى سور ، وإنما الأسوار سيوفنا وعدلنا ، فظلت بلا سور حتى عصر محمد الناصر من خلفاء الموحدين ، الذي أقام لها سورا جديدا في سنة ٥٦٠٠ هـ (١) ، وأقام قهبة الوادي ، وبني باب الشريعة (٢) .

ثم ترك عبد المؤمن على مدينة فاس أبا عبد الله محمد بن يحيى الجدميوي وأبا محمد الجياني (٣) ومضى بكل جيشه إلى مكناسة .

٣ - فتح مراکش :

توجه عبد المؤمن بعسكره لحصار مكناسة ، ولكن قبيلة صنهاجة تيسّرت أرسلت إليه سنبلة من القمح مع رسالة أخبروه فيها أن يبادر بالظفر بزرع دكالة قبل أن يدخل مراکش ، فلا يستطيع بعد ذلك أن يدخلها أبداً ، فصمم على السير إلى مراکش ، فعهد بمحاصرة مكناسة إلى قائده يحيى بن يومور ، ومضى هو بمعظم عسكره إلى مراکش عن طريق تادلاوي تادلا أمده قبيلتنا مسكورة وصنهاجة بعسكر ضخم ، هبط بهم عبد المؤمن إلى وادي أم الربيع ، واستولى على آزموور ، ثم ضم صنهاجة آزموور إلى جيشه ، وانضم إليه أيضا أهل دكالة جيرانهم ، ودخلوا في طاعته لأول مرة . فسار بعد ذلك إلى مراکش ، (انظر خريطة رقم ١٣) وعبر نهر تنسيفت حتى وصل إلى

(١) روض القرطاس ، ج ١ ص ١٢٣

(٢) الجزنائي ، ص ٣٢

(٣) راجع ما سبق أن كتبتة عن مدينة فاس

تاقاط (١) ، ومنها اتجه إلى جبل إيجيلز الذي يشرف على مراکش، وضرب عنده القبة الحمراء (٢) . وذكر صاحب الحلل أنه نزل بجبل إيجيلز ، وبني عليه مدينة استند إليها ، وبني فيها مسجدا وصومعة طويلة يشرف منها على مراکش ، وذلك في محرم سنة ٥٤١ هـ (٣) . ثم خرج جيش المرابطون في مراکش بقيادة اسحق بن علي بن تاشفين الذي نصبه المرابطون أميرا عليهم بعد خلع إبراهيم بن علي بن يوسف ، وقائدين من قواده هما محمد بن حواء ومحمد بن يانكلا لمقاتلة الموحدين وذلك في ٥ من المحرم، فهزمهم الموحدون عند أول لقاء ، وتراجع المرابطون إلى باب الشريعة ، وقتل منهم عدد كبير في المعركة وأثناء تسابقهم إلى دخول مراکش. وفي ١٨ شوال تمكن الموحدون من تسلق الأسوار بالسلام ، واقتحموا المدينة ودخلوها ، وقتلوا عددا كبيرا من أهلها ، فامتنع الأمير اسحق في جملة من رجاله بالقصبة المعروفة بقصر الحجر ، واستمر الموحدون يقاتلون حتى الزوال ، وعجز المحصورون عن مدافعة الموحدين ، فدخل الموحدون بقيادة أبي الحسن بن وجاج الحصن ، وقبضوا على الأمراء والقواد ، وساقهم ابن وجاج إلى جبل إيجيلز ، وحاول عبد المؤمن أن يمنع ابن وجاج من قتل اسحق وبعض أبناء الأمراء من الصبيان ، فصاح به أبو الحسن بن وجاج : « ويوا ويوا الموحدين ، ارتد علينا عبد المؤمن يريد أن يربي علينا فراخ السبوعة » (٤) . فانسحب عبد المؤمن من المجلس غاضبا ، وأتبعه الموحدون ماعدا أبو الحسن والشيخ أبو

(١) مدينة صغيرة كانت تقع على مسافة قصيرة إلى الشمال من مراکش وقد اختفت اليوم

(٢) البيهقي ص ١٠٢

(٣) الحلل ، ص ١٠٢

(٤) البيهقي ١٠٤ - الحلل ، ص ١٠٢

حفص. فبدأ أبو الحسن بقتل اسحق ، فضرب عنقه ، ثم جذب طليحة ليقترله ، فسأله طليحة أن يفك وثاقه ، ليعطيه أسلحته ، وبينما انهمك أبو الحسن بفك وثاقه ، أسرع طليحة إلى خنجر في وسطه ، سدده إلى قلب أبي الحسن ، فقتله وانهم طليحة بذلك لنفسه وللأهمل اسحق قبل أن يقتله الموحدون (١) . وأصبح عبد المؤمن بعد فتح مراکش سيد المغرب كله .

ب - المرحلة الثانية : فتح الأندلس :

كان عبد المؤمن قد تلقى عند خروجه من فاس لمهاجرة مراکش بيعة أهل سبتة له ، فولى عليهم يوسف بن مخلوف الهنتاتي (٢) . ولكن أهل سبتة انتقضوا على يوسف بن مخلوف ، وقتلوه هو ومن معه من الموحدين ، وجاز القاضي صياض ، واليهم السابق ، إلى يحيى بن على بن غانية المسوقى وإلى الأندلس ، فلقية بالجزيرة الخضراء ، وطلب منه واليا على سبتة ، فبعث معه يحيى بن أبي بكر المعروف بالمصراوى ، فقام بأمر سبتة ، وتحالف مع القبائل الخارجة عن طاعة الموحدين أمثال برغواطية ودكالة ، فاضطر عبد المؤمن إلى محاربة هؤلاء الخارجين عليه ، فاستأصل شأفتهم حتى انقادوا لاطاعته ، ثم عاد إلى مراکش . وتقدم المصراوى بطلب العفو عنه ، فعفا عبد المؤمن عنه ، وراجع أهل سبتة طاعتهم ، وكذلك أهل سلا الذين كانوا قد انتقضوا عليه (٣) .

(١) البيهقي ، ص ١٠٤

(٢) ابن خلدون ج ٦ ، ص ٤٧٩

(٣) كان قد خرج على عبد المؤمن تاتر في جزولة من أهل سلا يعرف بعمر بن الحياط (البيهقي ص ١٠٦) ، ويسميه ابن أبي زرع وابن خلدون بمحمد بن عبد الله بن هود =

ثم وجه عبد المؤمن نظره بعد ذلك إلى الأندلس، فقد كان أهلها قد انتهبوا فرصة ضعف تاشفين بن علي، وتوالى الهزائم عليه في المغرب على أيدي الموحدين، وأعلنوا الثورات في كل مكان بالأندلس، وزادت هذه الثورات عتفا بعد وفاته في سنة ٥٣٩ هـ. وكان علي بن عيسى بن ميمون من بين هؤلاء الثوار، فاستقل بقادس ودخل في طاعة الموحدين، وخطب أول خطبة لهم في قادس سنة ٥٤٠ هـ. كذلك قام أحمد بن قسي الصوفي الثائر في مرتلة، فلما استولى أبو محمد سدرای على مرتلة أجاز ابن قسي إلى عبد المؤمن بمراكش في سنة ٥٤١ هـ، ورغبة في امتلاك الأندلس، فسير عبد المؤمن معه جيشا بقيادة براز بن محمد المسوفي^(١) في شعبان سنة ٥٤١ هـ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد، وجيش ثالث بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي. فلما عبروا الزقاق، ونزلوا بالأندلس، هاجموا أبا القمر بن عزوز المنزلي بشريش ورندة، فدخل في طاعة الموحدين، ثم قصدوا لبلة وأخضعوا يوسف بن أحمد البطروجي، ثم مضوا إلى مرتلة، فدخلوها، وافتتحوا بعد ذلك شلب، وقصدوا باجة وبطليوس، فدخل أبو محمد سدرای

(الترطاس، ص ١٢٤ - ابن خلدون، ج ٦ ص ٤٨٠) فارتد معه أهل حاحة ورجراجة وهزميرة وهسكورة الوطاء ودكالة وبنو ورياغل، كما ارتد معه عن طاعة الموحدين أهل سبتة وطنجة. فسير اليهم عبد المؤمن جيشا بقيادة يحيى بن أنسكهار المسوفي، فانهزم، فسير اليهم للمرة الثانية الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى وأشياخ الموحدين، فسار أبو حفص إلى هزميرة وهزمهم، وبدد شملهم، ثم اتجه إلى رباط ماسة وهزم جزولة وقتل الثائر عمر بن الخياط، ثم مضى إلى هسكورة وهزمهم، وحارب برغواطية. (انظر البيهقي ص ١٠٧ - ابن خلدون ج ٦ ص ٤٨٠)

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٤٨٠. ويذكر ابن الخطيب أن اسمه إبراهيم بن براز المسوفي

ابن وزير في طاعتهم ، كما انضوت إشبيلية في سنة ٥٤١ هـ تحت لوائهم بعد أن
افتحموها برا وبحرا ، ثم دخلوا مالقة في هذه السنة . غير أن يوسف
البطروجي لم يلبث أن نكث بطاعته للموحدين ، وحول الدعوة عنهم ، كما
ارتد عن طاعتهم ابن قسي في شلب ، وعلى بن عيسى بن ميمون في قادس ،
ومحمد بن علي بن الحجام في بطليوس ، بينما بقي أبو القمر بن عزوز على
طاعتهم في شريش ورندة .

اضطرت أحداث الأندلس عبد المؤمن إلى إرسال جيش إليها يقوده يوسف بن
سليمان ، فنزل يوسف بإشبيلية التي اتخذها الموحدون حاضرة لهم في الأندلس ،
وتمكن يوسف من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس وشنتمرية وقادس وشلب
ولبلبة ، ثم دخلت قرطبة وجيان في طاعة الموحدين سنة ٥٤٣ هـ . ولم تبدأ سنة
٥٤٤ هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثورتهم على المرابطين ،
واستقلوا بمدنهم ، قد بايعوا عبد المؤمن بن علي وأعلنوا الدخول في طاعته . أما
المرية ، فقد كان أهلها قد ثاروا على المرابطين أيضا ، ودخلت في فلك دولة
الموحدين سنة ٥٤١ هـ ، وتولى على جيوش الموحدين فيها عبد الله بن سليمان
الذي قتله البحريون رجاله القطائع ^(١) ، ثم وليها من قبل الموحدين يوسف
ابن مخلوف ، فثار عليه أهل المرية وقتلوه ، وقدموا على أنفسهم أبا يحيى بن
الريمي ^(٢) ، فغضبها إلى أن استولى عليها القونسيو السابع ريموند الملقب
في المصادر العربية بالسليطين ملك قشتالة ^(٣) ، في ٢٠ جمادى الأولى سنة

(١) البيزق ، ص ١٢٦

(٢) المراكشي ص ٢١٠ - المقرئ ، ج ٦ ، ص ٢٠٦

(٣) مجموعة رسائل موحدية من كتاب الدولة المؤمنية ، نشرها ليني بروفنسال ، الرابط

١٩٤١ ، ص ٧٥ - المقرئ ، فتح الطيب ، ج ٦ ، ص ٢٠٧

٥٤٢ هـ ودخلها عنوة (١). ويبدو أن المرية كانت قد دخلت قبل استيلاء
النصارى عليها في طاعة محمد بن سعد الجذامي الملقب بابن مردنيش ،
صاحب شرق الأندلس (٢). ويرجح إشباخ أنها كانت إمارة مستقلة ،
يحكمها القراصنة ، ويذكر أن السبب في غزو النصارى لها اتخاذ القراصنة
من مرساها وكرا لسفنهم يغيرون منه على شواطئ إسبانيا المسيحية وفرنسا
وإيطاليا الجنوبية (٣). وكان محمد بن سعد أمير بالنسية ومرسية وقت
غزو القشتاليين للمرية مشغولا بمحاربة الموحدين والنصارى في آن واحد ،
فلم تنهيه فرصة الدفاع عنها ، وأحاط النصارى بالمرية من البر والبحر ثلاثة
شهور حتى استسلم أهلها لهم (٤). وكان الموحدون قد فرضوا طاعتهم على
قادس ، وإشبيلية ، وقرطبة ، ومالقة ، والجزيرة ، ولبلبة ، وشلب ،
وشريش ، ومرتلة ، فحاولوا استرجاع المرية في سنة ٥٤٦ هـ (٥) ، وحاصروها ،
إلا أنهم فشلوا في اقتحامها وتخليصها من العدو بسبب جصانة أسوارها
وإن كانوا قد نجحوا في اقتحام المرسى وحرق السفن والأجفان الراسية
به ، ووصلوا إلى المسجد الجامع (٦).

وفي سنة ٥٤٩ هـ ، تغلب الموحدون على غرناطة بعد أن خرج عنها
ميمون بن يدر اللتوني ، وتوطد نفوذهم في جنوب الأندلس . ثم تلقى

(١) دخلتها قوات قشتالية وقطلانية وجنوية ونبرية .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٣) إشباخ ، ص ٢٢٤ .

(٤) المقرئ ، ج ٦ ص ٢٠٦ - إشباخ ، ص ٢٢٦ .

(٥) القرطاس ، ص ١٢٦ - المقرئ ، ج ٦ ص ٢٠٦ .

(٦) مجموعة رسائل موحدية ، ص ١٠ - ١٣ .

السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، والى الجزيرة ومالقة وغرناطة ، أمر أليه بمحاصرة المرية برا وبحرا ، وتخليصها من النصارى ، فتقدم أبو سعيد إلى المرية للجهاد بصحبة أخيه أبي حفص (١) ، ونصب الموحدون المجانيق على القصبية بعد أن احتلوا المدينة (٢) وحاصروها حصاراً محكما . فاستصرخ النصارى ملكهم الفونسو السابع السليطين فأقبل إلى نصرتهم على رأس جيش من ١٢ ألف مقاتل ، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش في قوة من ٦ آلاف مقاتل ، اضطر السيد أبو سعيد عثمان إلى استمداد الخليفة ، فوجه إليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطيه ، ومعه الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، والى إشبيلية ، فازدادت قوة الموحدين بقدمه ، وخجل ابن مردنيش من نفسه ، إذ رأى « العارء على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى ، فارتحل » (٣) . وولى عسكر الفونسو الأديار تاركين حامية قصبية المرية لمصيرها التعس ، ومات الفونسو في طريقه إلى يياسة سنة ٥٥٢ هـ ، وخلال الجو للموحدين ، فشددوا الحصار على القصبية ، واستولوا عليها في سنة ٥٥٢ هـ ، وهكذا استرد الموحدون المرية ، وقد تهدمت أبنيتها ، وتغيرت محاسنها (٤) .

وفي سنة ٥٥٥ هـ أمر عبد المؤمن ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل الفتح

(١) المقرئ ، ج ٦ ص ٢٠٧

(٢) ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، ج ١ ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله

عثمان ، ص ٢٧٩

(٣) المقرئ ، ج ٦ ص ٢٠٧

(٤) الادريسي ، ص ١٩٨

وتحصينه ، فتم بناؤه على يدي الحاج يعيش المهندس^(١). وعلى أثر ذلك جاز عبد المؤمن من طنجة إلى الأندلس ، فزل بجبل الفتح ، وأقام شهرين أشرف خلالها على أحوال الأندلس ، ووفد إليه قوادها وأشياخها لتحيته ، ثم أمر بغزو غرب الأندلس ، فسير الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبي حفص من قرطبة ، ففتح حصن أطرفكش من أحواز بطليوس ، واستولى الموحدون على بطليوس وباجة ويارة وحصن القصر ، ثم حاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى مراکش (٢).

ج - المرحلة الثالثة : فتح المغربين الأدنى والأوسط :

أخذ الموحدون يتدخلون حريا في الأندلس منذ سنة ٥٤١ هـ ، وتمت لهم السيطرة على الأندلس في سنة ٥٥٦ هـ ، وبينما كانت قوات عبد المؤمن تعمل على بسط نفوذ الموحدين في الأندلس ، تفتحت أمامه جبهة ثانية في المغربين الأدنى والأوسط ، فقد بلغه ما وصل إليه أمر إفريقية من اختلاف الأمراء ، وتطاول العرب من بني سليم وهلال عليها بالعيث والفساد ، كما بلغه استيلاء النورماندين على سواحل إفريقية ، فزحف في سنة ٥٤٦ هـ من مراکش قاصدا مملكة يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي ببجاية ، فدخل مدينة الجزائر على حين غفلة ، فخرج إليه الأمير الحسن بن علي بن يحيى بن تميم ، وكان قد انتقل إليها بعد سقوط المهدي في أيدي النورمان ، فقدمه أهلها على أنفسهم ، فلما علم بقدوم عبد المؤمن بن

(١) الحلال المرشية ، ص ١١٨

(٢) روض القرطاس ، ص ١٣٠

علي ، خرج للقائه ، فتلقيه بحفاوة بالغة ، وصحبه في غزو إفريقية (١) .
ثم سار عبد المؤمن نحو بجاية ، فأخرج يحيى بن العزيز أخاه سبع للقاء
جيوش عبد المؤمن ، فانهزم هزيمة نكراء ، ودخل الموحدون بجاية (٢) .
ولما رأى يحيى ألا طاقة له بمحاربة عبد المؤمن ، هرب في البحر إلى صقلية
بقصد الانتقال منها إلى بغداد ، وحمل معه ما استطاع حمله من الذخائر
والأموال ، ثم عدل عن ذلك ، ونزل في بونة على أخيه الحارث ، ثم رحل
عنه إلى قسنطينة ، فنزل على أخيه الحسن . أما عبد المؤمن ، فقد سار إلى
قلعة بني حماد معقل الصنهاجيين الأعظم ، وحرزم الأمانع ، واقتحمها
عنوة ، فغربها ، وأضرم النار في مساكنها ، وقتل جوشن بن العزيز ، وابن
الدحاس من الأثبيج ، ويذكر ابن خلدون أن عدد القتلى بها بلغ
١٨ ألفا (٣) .

ولما استولى عبد المؤمن على الجزائر وعلى بجاية والقلعة وأعمالها ،
استعمل عليها ابنه عبد الله ، ورتب من الموحدين من يقوم بالدفاع عنها ،
وكر عائدا إلى مراکش (٤) . وكان يحيى بن العزيز قد نزل عن قسنطينة
لعبد المؤمن على أن يؤمنه ، فأمنه ، وأصبحه معه إلى مراکش في سنة ٥٤٧ هـ ،
وأسكنه بها ، ثم انتقل يحيى إلى سلا سنة ٥٥٨ هـ ، فسكن قصر بني عشيرة
إليه أن توفي في هذه السنة (٥) . أما الحسن بن علي فقد صاحب عبد المؤمن

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٣٣

(٢) نفس المرجع ص ٣٦٤

(٣) نفس المرجع ، ج ٦ ص ٤٩١

(٤) المراكشي ، ص ٢٠٧

(٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٦٤ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص

بالأندلس ، ص ١٠٠

في غزوته الأولى إلى إفريقية ، كما صحبه في سنة ٥٥٤ في غزوته الثانية ،
فحاصر معه المهدية ، ثم دخلها ، وسكن بها ثمان سنوات إلى أن استدعاه
أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، فرحل بأهله إلى مراکش ، وتوفي
بتامسنا في سنة ٥٦٣ هـ (١) .

كان عبد المؤمن في طريقه إلى مراکش عندما بلغه وهو في متيجة خبر
قيام عرب الأندلس ورياح وزغبة في سطيف بالثورة على ابنه عبد الله ، وعزمهم على
إعادة دولة بني حماد . فأرسل إلى ابنه مدداً ، والتقى عبد الله بن عبد المؤمن
بهم في سطيف ، فانهزم العرب ، وأعلنوا خضوعهم للوحديين ، وقدم إليه
وفد من كبارهم طوائعين ، فأكرمهم ، ووصلهم ، وأعادهم إلى إفريقية
معززين . وكان لذلك أكبر الأثر في دخول العرب في طاعته ، فاتخذ منهم
جنوداً ، وأقطع رؤسائهم بعض تلك البلاد ، ثم إنه استنفرهم إلى الغزو
بالأندلس ، فاستجاب له منهم جمع عظيم . فلما أراد الجواز إلى الأندلس في
سنة ٥٥٥ هـ ، أدخلهم بها ، وجعل بعضهم في نواحي قرطبة ، وبعضهم في
إقليم إشبيلية ، مما يلي شريش وأعمالها ، وقد استكثر منهم أبو يعقوب
يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصور ، ويذكر المراكشي أن بالجزيرة في
أيامه من عرب زغبة ورياح وجشم وغيرهم نحو من ٥ آلاف فارس سوى
الرجال (٢) .

وفي هذه الأثناء كان عبد الله بن عبد المؤمن قد خرج في جيش كبير

(١) ابن خلدون ج ٦ ، ص ٣٣٤

(٢) المراكشي ، ص ٢٢٦

من المصامدة والعرب ونزل على مدينة تونس في سنة ٥٥٢ هـ ، فحاصرها ، وأخذ في قطع أشجارها وتغوير مياها ، وكان قد استقل بها عبد الله بن خراسان ، فخرج أهل تونس لمقاتلة الموحدين ، وانضم إليهم محرز بن زياد أمير بني علي من بطون رياح هو وقومه من العرب ، فهزموا الموحدين^(١) ، وتوفي عبد الله بن خراسان أثناء ذلك ، خلفه علي بن أحمد بن عبد العزيز ابن خراسان ، وعاد عبد الله بفلول أصحابه إلى بحاية ، فكتب إلى أبيه بذلك^(٢) . فخرج أبوه من مراکش في جيوش لا تخص في ١٠ شوال سنة ٥٥٣ هـ بعد أن استخلف علي مراکش أبا حفص بن يحيى ، وترك معه ولده السيد أبا الحسن^(٣) . ثم زحف إلى مدينة تونس فافتتحها عنوة ، ثم واصل زحفه إلى المهدية ، وضرب عليها الحصار . وكانت الإمدادات تأتي حاميتها من صقلية ، ولذلك طال الحصار إلى سبعة أشهر ، ثم افتتحها عبد المؤمن بعد أن أمن حاميتها على أن يخرجوا منها إلى صقلية ، ودخلها في سنة ٥٥٤ هـ^(٤) . وكان عبد المؤمن أثناء حصاره للمهدية ، قد بعث ابنه عبد الله لماصرة قابس ، فاستولى عليها من بني كامل من رياح ، المتغلبين عليها ، كما استولى على قفصة من بني الورد ، وعلى طبرقة من مدافع بن علال ، وجبل زغوان من بني حماد بن خليفة ، وشقنبارية من بني عماد بن نصر الله الكلاعي ، والأربس من بني فتانة العرب^(٥) . ويذكر المراكشي أنه افتتح طرابلس

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٣٧

(٢) المراكشي ص ٢٢٨

(٣) القرطاس ، ص ١٢٩

(٤) المراكشي ، ص ٢٣٠ — الحلل الموشية ص ١١٧

(٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٩٤

الغرب أيضا ، وافتتح بلاد الجريد كلها (١) . وعاد بعد ذلك إلى مراکش بعد أن أتم إخضاع إفريقية كلها وضمها إلى دولته ، وأصبحت دولة الموحدين تمتد من طرابلس شرقا إلى السوس الأقصى غربا ، لأول مرة في تاريخ المغرب منذ أن افتتحها العرب .

ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك في طريقه إلى حاضرتة مراکش ، مارا ببجاية وتلمسان وتاجرا ، وأقام بمراكش بقية سنة ٥٥٥ هـ ، حتى سنة ٥٥٦ هـ . وبلغه أن ابن هشك وابن مردنيش ومدار الأقرع قد هاجموا إشبيلية مع حشود كبيرة من النصاري ، وأن ابنة أبا يعقوب قد خرج إليهم فهزموه ، وقتل في تلك الموقعة محمد بن عمر الصنهاجي ، ويحيى بن أبي بكر ابن الجبر ، وعمر بن ميمون المرغني من كبار قادة الموحدين ، كما بلغه هزيمة ابنه أبي سعيد عثمان في غرناطة ، فخرج عبد المؤمن إلى سلا ، وأعد جيشا ضخما للجهاد ، وجاز إلى جبل الفتح ، وسارت عساكره إلى غرناطة ، فهرب ابن مردنيش إلى محلة بمحدره ، وابن هشك إلى شقورة ، ودخل الموحدون غرناطة . ثم جاز الخليفة إلى سلا ، حيث مرض الخليفة ، وتوفي في ٢٧ من جمادى الآخرة من سنة ٥٥٨ هـ ، ودفن في تينملل بجوار قبر المهدي (٢) .

(١) المراكشي ، ص ٢٣٠

(٢) البيهقي ، ص ١٢١

(٣)

عصر أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

١ - الصعاب التي واجهته في المغرب والاندلس :

لما توفي عبد المؤمن بن علي خلفه محمد أكبر أبنائه ، وبايع الناس له ، فتولى الخلافة ٤٥ يوما ، ثم عزل عنها لأمور أخذت عليه ، وأجمعت آراء شيوخ الموحدين على مبايعة أبي يعقوب يوسف ، وكان أبو يعقوب هذا قد تأثر برقة الحياة في الأندلس وحضارتها منذ أن كان واليا على إشبيلية من قبل أبيه ، فزالت عنه جفوة البربر ، وكان قد درس على كثير من علماء الأندلس في اللغة والنحو والقرآن ، وكان محبا للجهاد في سبيل الله ، فجاز إلى الأندلس مرتين مرة في سنة ٥٦٩ هـ للنظر في ضبط الثغور وإصلاح حال البلاد ، ومحاربة القشتاليين والأرغونيين وبقايا العناصر التي مازالت موالية للمرابطين في الأندلس ، ثم جاز مرة أخرى في سنة ٥٧٩ هـ لمحاربة البرتغاليين .

اعترضت أبا يعقوب منذ توليته الخلافة عدة صعاب واجهها في شجاعة وعزم ، واستطاع أن يتغلب عليها ، ففي المغرب قامت قننتان : الأولى سنة ٥٦٢ هـ ، عندما ثار سبع بن منقباد بجبال غمارة على الخليفة ، وتابعت في الفتنة صنهاجة ، فسير إليه الخليفة قائدة الشيخ أبا حفص ، ولكنه لم ينجح في إخمادها ، فاضطر إلى الخروج بنفسه ، وهزمهم ، واستأصل شأفتهم ، وقتل الثائر سبع . وفي سنة ٥٧٥ هـ ثار علي بن المعز المعروف بالطويل من أعقاب بني الرند ملوك قفصة ، وتلقب ابن الرند هذا بالناصر لدين النبي (١) ، فسار أبو يعقوب إلى قفصة وحاصرها إلى أن استنزله ، فعاد إلى

(١) المراكشي ، ص ٢٥٢

مراكش . وكانت هذه الثورات مقدمة لخطر وافد من المشرق وهو خطر
ممالك الغز المصريين ، وعلى رأسهم شرف الدين ابن أخى صلاح الدين ،
فحالفوا عرب بنى هلال ، وأغاروا على الأطراف الشرقية لدولة الموحدين ،
وقد تمثل هذا الخطر فى عهد أبى يوسف يعقوب المنصور ، إذ تحالف بمالك
مصر مع بنى غانية الميورقيين ، وأعراب بنى هلال ، ضد الموحدين (٢) .

أما فى الأندلس ، فإنه لم يمض عامان على ارتقائه إلى دست الخلافة حتى
كان ابن مردنيش قد حشد قواته من المعادين للموحدين فى الأندلس ،
ومن حالفه من القشتاليين والأرغونيين ، وأغار على قرطبة ، فسير إليه
أبو يعقوب السيد أبا سعيد من غرناطة وأبا حفص ، فى جيوش ضخمة من
الموحدين ومن انضم إليهم من قبائل العرب زغبة ورياح والأبجج ، فالتقى
الموحدون مع جيش ابن مردنيش فى فخص مرسية ، فانهزم ابن مردنيش
وأصبحه ، وفر إلى مرسية ، ونازله الموحدون بها . ثم عاد السيدان أبو حفص
وأبو سعيد إلى مراكش فى سنة ٥٦١ هـ بعد أن هدأت الأحوال فى الأندلس (٢) .

ب - جهاده فى الأندلس واستشهاده فى شنترين :

ثم بلغ أبا يعقوب قيام فرديناند ملك ليون بغزو منطقة وادى آنه ، بينما
أخذ الفونسو هنريكى ملك البرتغال يوسع حدوده الجنوبية والشرقية على
حساب أملاك المسلمين فى غرب الأندلس ، واستولى على ترجالة وبابرة
وحصن شيرينه وجلمانية الواقعين إزاء بطليوس (٣) ، ثم سار بعد ذلك

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٩٤ ، ٣٩٥

(٢) نفس المرجع ص ٤٩٧

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٩٩ .

لحصار بطليوس . فسير إليه أبو يعقوب الشيخ أبا حفص في عساكر كشيعة من الموحدين ، وسار أبو حفص لاستنقاذ بطليوس من حصار الفونسو هنريكي (وتسميه المصادر العربية « ابن الريق ») . فلما وصل إلى إشبيلية بلغه أن أهل بطليوس هزموا البرتغاليين ، فعدل عن متابعة السير إلى بطليوس . وفي سنة ٥٦٦ هـ توافت عند أبي يعقوب بمراكش حشود هائلة من العرب قادمة من إفريقية في صحبة السيد أبي زكريا والي بجاية والسيد أبي عمران والي تلمسان ، فاستعرضهم وسائر عساكره ، ثم عزم على الجواز إلى الأندلس للجهاد ، واستخلف على مراكش أخاه أبا عمران ، ثم عبر الزقاق إلى الأندلس في صفر سنة ٥٦٦ هـ ، ونزل بعاصمته إشبيلية ، ثم كتب إلى أخيه عثمان والي غرناطة بالسير إلى مرسية قاعدة ابن مردنيش ، والتقى جيش الموحدين بجيش ابن مردنيش في موقعة الجلاب ، على بعد أربعة أميال من مرسية ، فانهزم ابن مردنيش ، وتحصن بمرسية ، فحاصره الموحدون . وفي أثناء الحصار ، تمكن الموحدون من الاستيلاء على لورقة وبسطة ، وتوفي ابن مردنيش وهو محاصر بمرسية في رجب سنة ٥٦٧ هـ ، فدخل ابنه هلال في طاعة الموحدين ^(١) ، وسلم لهم حصون أبيه وهي بلنسية ومرسية ومريبطر وشاطبة ودانية ولقنت وشقر ولورقة وقرطاجنة . ومكث أبو يعقوب في إسبانيا أربعة أعوام ، نظم خلالها عدة حملات ضد البرتغاليين والقشتاليين ، ففي سنة ٥٦٧ هـ خرج من إشبيلية إلى جنوب البرتغال في جيش ضخم ، وحاصر شنترين ، ثم سار إلى القنطرة متبعا طريق بطليوس والبكرك ، واستولى عليها ، ثم عاد إلى إشبيلية مثقلا بالغنائم . وفي عام ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، أغار على

(١) المراكشي ، ص ٢٤٩ - ابن خلدون ج ٦ ، ص ٥٠٠

ناحية قلعة رباح وأثنى في بلاد قشتالة ، ثم عاد إلى إشبيلية . وفي سنة ٥٧٩ هـ ، غادر أبو يعقوب الأندلس ، إلى مراکش بعد أن أقام في ماصمته الأندلسية كثيرا من المنشآت الرائعة كالمسجد الجامع ، والجسر ، والقصبة ، والزلاق للسور ، والأرصفة على الوادى الكبير ^(١) .

غير أن الأحوال في الأندلس لم تلبث أن ساءت من جديد بعد قفول أبي يعقوب يوسف إلى مراکش ، ففي سنة ٥٧٢ هـ ، تمكن القشتاليون بمساعدة الفونسو الثانى ملك أرغون من الاستيلاء على قونكة ^(٢) وأخذت ضربات القشتاليين والبرتغاليين والليونيين والأرغونيين تتوالى على بلاد الأندلس . وكانت مملكة البرتغال أشد هذه الممالك وطأة على بلاد المسلمين ، فعزم أبو يعقوب على الجواز إلى الأندلس للمرة الثانية وذلك فى سنة ٥٧٩ هـ ، ورأى المبادرة بمهاجمة مملكة البرتغال ، فزحف بجيوش لم تر الأندلس مثل كثرتها من قبل ، وسار إلى شنترين ، وكانت من المعاقل الكبرى فى غرب الأندلس ، التى استولى عليها البرتغاليون فى سنة ٥٤١ هـ ، وحاصرها حصارا شديدا ، ودمر مزارعها ، وخرب مروجها ، وشن الغارات على نواحيها ، وكان هنريكى ملك البرتغال قد تأهب لذلك الحصار فـلاها بالأقوات والسلاح وكان واثقا من حصانتها وشدة مناعتها ، فبالغ أبو يعقوب فى التضييق عليها ، وانتساف معاشها ، وقطع المواد والعدد عنها ، لما زاد ذلك

(١) P. Antuna Melchor, Sevilla y Sus monumentos

arabes, el- Escorial, 1930. وارجع الى كتابي : المساجد والقصور بالاندلس ،

اقرأ ، ١٩٠ ، ١٩٥٨ — كتاب الشعب عدد ٦١ ، ص ٣٤٣

(٢) اشباح ، ص ٣٢١

أهلها إلا صرامة وشدة وجلدا ، « فخاف المسلمون هجوم البرد - وكان في آخر فصل الخريف - وخافوا أن يعظم النهر (نهر تاجه قرب مصبه) فلا يستطيعون عبوره ، وينقطع عنهم المدد ، فأشاروا على أمير المؤمنين بالرجوع إلى إشبيلية » (١) . ويبدو أن الخليفة يئس من فتح شنترين بعد أن طال حصاره لها دون جدوى ، فأراد أن يحاصر مدينة أخرى غيرها هي مدينة أشبونه ، كما يبدو أن بعض رجاله عجل بتقويض الأُخبية تمهيدا للرحيل ، وأحدث ذلك هرجا في معسكر المسلمين ، وعبر أكثر جنود المسلمين نهر تاجه متزاحمين متسابقين ، ولم يبق إلا عدد قليل من العسكر ظل مرابطا بقرب خباء الخليفة ، فلما رأى البرتغاليون ذلك ، وشاهدوا رحيل معظم جيش أبي يعقوب أغاروا على معسكره ، فقتل عدد كبير من كبار رجال الجيش ، وأصيب الخليفة بسهم مسموم ، وتدارك الناس حين سمعوا صرخات الجنود ، وأقبلوا يحمون الخليفة ، فتراجع البرتغاليون إلى شنترين ، بينما حمل الجنود خليفتهم جريحا على محفة ، فمات بعد ليلتين من هذه المعركة في ٧ رجب سنة ٥٨٠ هـ ، وحملت جثته إلى إشبيلية ، وأرسل منها في تابوت إلى تينملل حيث دفن بجوار أبيه عبد المؤمن (٢) .

(١) المراكشي ، ص ٢٥٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٦١

(٤)

المنصور بطل الأرك

١ - خروبه مع بني غانية :

واجه أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف كثيرا من المهام الصعبة في المغرب والأندلس معا ، ففي بداية عهده انتهب بنو غانية فرصة وفاة أبيه ، وخرج أميرهم علي بن اسحق بن غانية من جزيرة ميورقة قاصدا مدينة بجاية في حشود كثيرة من أتباعه ، فاستولوا عليها ، وأخرجوا من كان بها من الموحدين .

وبنو غانية من قبيلة مسوفة ، وكانوا يمتون بصلة القرابة إلى بني تاشفين أمراء المرابطين ، وفي عهد المرابطين قام بنو غانية بولاية دانية ، فامتلكوا جزر البليار : ميورقة ومنورقة ويابسة ، واستقل محمد بن غانية بحكم هذه الجزر ، وأقام فيها جاريا على أمر لتونة ، داعيا لبني العباس ، وخالفه ابنه أبو ابراهيم اسحق ، وفتح بابا لمن وفد إليه من بقايا عناصر المرابطين في الأندلس ، وأقبل على الغزو ، وتوفي في سنة ٥٧٩ هـ . وقام بالأمر بعده ابنه علي نخرج بأسطول ميورقة إلى العدو ، وقصد مدينة بجاية حين راسله جماعة من أعيانها . وقد وجد الميورقيون لهم في إفريقية حلفاء جمعتهم بهم الظروف السياسية وقتئذ وهم بنو هلال وسليم والماليك الغزو على رأسهم قراقوش ، وكان مملوكا لتقي الدين ابن أخى صلاح الدين ، وكانوا يعملون لحسابهم الخاص في المغرب ضد الموحدين ، وبطبيعة الحال انضم هؤلاء الماليك الميورقين ، وأصبحوا حلفاء لهم خاصة بعد أن دعا علي بن اسحق للخليفة العباسي أبو العباس أحمد الناصر في الخطبة . ثم بعث علي بن اسحق

ابنه مع كاتيه عبد البر بن مرشان إلى الخليفة العباسي طلبا للخلع والائـلام السوداء . وكان انضمام ممالك مصر إلى بني غانية ، أعداء الموحدين ، سببا في غضب أبي يوسف يعقوب على صلاح الدين سلطان مصر ، ويبدو أن ذلك كان سببا من أسباب رفضه لنجدة صلاح الدين في جهاده ضد الصليبيين ^(١) .

وخرج علي بن اسحق من بجاية بعد أن وطد سلطانه فيها ، وهاجم قلعة بني حماد فاستولى عليها ، وعلى ما يجاورها من قلاع ، ثم تمكن علي بن اسحق من الاستيلاء على كل إفريقية بما في ذلك قفصة وتوزر عدا تونس والمهديّة ، كذلك استولى على الجزء الشرقي من المغرب الأوسط ابتداء من الجزائر حتى قسنطينة بما في ذلك مليانة والقلعة ^(٢) . وعلم أبو يوسف في سبته بذلك عقب عودته من الأندلس ، ويذكر ابن خلدون أن السيد أبا زيد ابن عم الخليفة سير لمحاربة ابن غانية ابنه السيد أبا حفص ، كما عقد لمحمد بن أبي اسحق بن جامع على الأساطيل ، بقيادة أبي محمد بن عطوش وأحمد الصقلي .

أما السيد أبو زيد فقد مضى إلى تلمسان ليتفقد حصونها ، ثم مضى إلى مليانة ، ونادى بالعفو عن الرعية ، فثار أهل مليانة على ابن غانية وأخرجوه ، وكانت الأساطيل الموحدية قد سبقت الجيش إلى الجزائر ، وتمكن الصقلي من الاستيلاء عليها ، وأسر يحيى بن طلحة ويذر بن عائشة ، وتقدم القائد أحمد الصقلي بأسطوله إلى بجاية فدخلها ، وفر يحيى بن غانية إلى أخيه اسحق

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور ،

مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلدان ٦ ، ٧ ، ١٩٥٨ ص ٨٤-١٠٠

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٥٠٧

وهو ما يزال يحاصر قسنطينة، فأقلع عنها ، ومضى إلى الصحراء ، وطارده الموحدون إلى مقره ونقاوس من بلاد الزاب ، ثم عادوا بعد ذلك إلى بجاية (١). أما ابن غانية فقد زحف إلى قفصة ، واستولى عليها ، وحاصر توزر ، ولكنها استعصت عليه، فتركها ومضى إلى طرابلس حيث قابل قراقوش الغزي المظفري ، واتفق معه على أن يتحالف معه ضد الموحدين ، واستمال ابن غانية قبائل بني سليم من العرب ومن جاورهم ببرقة ، واجتمع إليه من كان منحرفا عن طاعة الموحدين من قبائل بني هلال مثل جشم ورياح والاثبيج ، كما انضم إليه أيضا فلول لتونة من أطراف البقاع ، فمضى إلى بلاد الجريد ، وافتتح كثيرا من مدنها وحصونها ، وأقام الدعوة العباسية فيها ، وافتتح قراقوش قابس ، وبلغ ابن غانية أن أهل قفصة خلعوا طاعته ، فحاصرها ، وظاهره قراقوش في استرجاعها ، ثم رحل ابن غانية إلى توزر وافتتحها أيضا . ولما بلغت المنصور هذه الأخبار خرج بنفسه من مراکش في سنة ٥٨٢ هـ . وهو عازم على القضاء نهائيا على بني غانية وحلفائهم من العرب والماليك ، واسترجاع نفوذه على إفريقية ، فمر في طريقه إلى إفريقية بناس ورباط تازي وتونس . وأقام بتونس ، وسير من هناك جيشا بقيادة السيد أبي يوسف يعقوب بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن ، ومعه عمر بن أبي زيد ، لمحاربة ابن غانية ، فاشتبك الجيشان في عمرة ، فانقصر جيش بني غانية ، انتصارا حاسما ، وهزموا الموحدين ، وقتل ابن أبي زيد وأبو علي بن يغمور ، وفر فلول الموحدين إلى قفصة ، فأثنى فيهم جنود بني غانية والماليك قتلا ، ونجا الباقيون إلى تونس ، فلم المنصور شعهم ، وخرج بنفسه لمحاربة علي بن

غانية ، والتي معه في حامة دقيوش ، فانهزم ابن غانية ، وافلت بنفسه مع صاحبه قراقوش ، وتمكن المنصور من استرجاع قابس وتوزر وقفصة ، وهدم أسوار قفصة ، ثم قفل المنصور عائدا إلى المغرب ، فمر بالمهدية واتبع طريق تاهرت ، ومنها إلى تلمسان . أما ابن غانية فقد نزل في بلاد الجريد ، وهلك في بعض حروبه مع أهل نفزاوة سنة ٥٨٤ هـ . وخلفه أخوه يحيى بن أسحق (١) . فعاد إلى مناوة الموحدين ، وتمكن من الاستيلاء على بسكرة عنوة ، وحاصر قسنطينة وبجاية ، وكثر عيثه في البلاد .

ب - جوازه الأول الى الأندلس واسترجاع المسلمين لشلب :

كان البرتغاليون بعد انتصارهم على الموحدين في شنترين قد توغلوا في غرب الأندلس ، وأخذوا يشنون الغزوات على أراضي المسلمين . فاضطر أبو يوسف يعقوب إلى العبور إلى الأندلس في ٣ ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ ، فسار مباشرة بجيشه إلى شنترين وأشبونة ، لكي ينتقم لهزيمة أبيه ولقتلة ، وعات في المروج ، وأحرق القرى ، ونهب الضياع ، وقتل السكان ، وسبي سبيا كثيرا . ثم عاد إلى المغرب (٢) . واستغل ملك البرتغال دون بدرو بن الفونسو هزيمته هذه الفرصة ، وعمل على افتتاح مدينة شلب ، مستعينا في ذلك بالفرنجة (الصليبيين الذين قدموا من إنجلترا وهولندا ورسوا قبالة أشبونة) (٣) . فنزل الإفرنج على شلب من البحر ، وحاصرها بدرو من البر ، وتمكن من دخولها (٤) .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٩٦ - ٣٩٧ ، ٥٠٩ - ٥١٠

(٢) القرطاس ، ص ١٤٤

(٣) اشباخ ص ٣٣٠

(٤) المراكبي ص ٢٨٠

ثم أغار البرتغاليون بعد ذلك على غرب الأندلس . ويذكر ابن أبي زرع أن بدرو تمكن من الاستيلاء على باجة ويابرة سنة ٥٨٦ هـ (١) .

وصلت أنباء هذه الاعتداءات البرتغالية على أراضي المسلمين إلى مراکش ، فغضب المنصور لذلك وبعث إلى رؤساء الأندلس يوبخهم على تقاعسهم عن مدافعة النصارى ، فقام محمد بن يوسف واليه على قرطبة ، بغزو شلب بنخيله ورجاله ، وتمكن من افتتاحها ، كما افتتح قصر أبي دانس وباجة ويابرة ، ثم عاد إلى قرطبة في سنة ٥٨٧ هـ ، ويذكر ابن خلدون أن المنصور هو الذي افتتح شلب في سنة ٥٨٧ هـ (٢) .

ج - انتصار أبي يوسف المنصور في موقعة الأرك :

بعد أن عاد أبو يوسف يعقوب من غزوته في الأندلس مرض مرضاً شديداً ، ثم أبل من مرضه ، وأشار عليه الأطباء بالاقامة بعض الوقت في فاس ، فسار إليها ، وأقام بها ستة أشهر حتى شفى تماماً ، فعاد إلى الرباط حيث أعجبه الإقامة بها ، وفكر في أن يتخذها حاضرة لدولته . ثم واصل سيره حتى وصل إلى مراکش ، حيث وجد رسل ملك قشتالة قد قدموا إليه للمفاوضة في تجديد المعاهدة ، في الوقت الذي كان ملك قشتالة يضمّر في نفسه الكيد للمسلمين ، فلم يقبل أبو يوسف شروطهم ، وقطع المفاوضات ، وشيّعهم من مراکش وهو عازم على التأهب لمحاربة ملك قشتالة (٣) .

(١) القرطاس ص ١٤٤

(٢) المراكشي ص ٢٨٠ - ابن خلدون ج ٦ ص ٥١١

(٣) Huici Miranda, la Campana de Alarcos, Revista del

Instituto Egipcio de Estudios Islamicos de Madrid, vol. II, 1954, p. 2

وفي سنة ٥٨٩ هـ أمر بأن يبنى له على نهر الوادي الكبير إزاء إشبيلية حصن يتخذ مقرًا للجهاديين في الأندلس من أهل المغرب ، وهو الحصن المعروف بحصن الفرج ، وهو اليوم قرية تعرف باسم San Juan de Aznalfarache . وفي أثناء ذلك ، وبعد أن فشلت مهمة ابن منقذ في أن يقوم المنصور بمساعدة صلاح الدين بأساطيله ، لمنازلة عكا وصور وطرابلس ، توتر الموقف في إفريقية واضطربت أمور البلاد ، فبعد أن دخل قراقوش في طاعة الموحدين سنة ٥٨٦ هـ ، خلع طاعتهم ، واستولى على طرابلس الغرب ، وتحالف مع يحيى بن غانية ، وأصبحت طرابلس وبلاد الجريد من جديد في أيدي الثوار . وأمام هذه الظروف عزم أبو يوسف على الخروج بنفسه لمحاربة بني غانية وحلفائهم من العرب والمهاليك الغز . وكان الفونسو الثامن ملك قشتالة قد بلغه ما عزم عليه أبو يوسف يعقوب من التوجه إلى إفريقية ، وكان أمد الصلح مع ملك قشتالة قد انصرم ، فجمع أجناده وضرب لهم ميثاقا ارتبطوا عليه في شن الغارات على بلاد المسلمين ، فأغاروا على جميعها بالأندلس شرقا وغربا في يوم واحد ، وانتشرت الطائفة الواصلة إلى إشبيلية على جميع أقطارها ، وعانت في جهاتها ، وقاتلت بعض حصون شرفها ، وكادت تنهز فيه الفرصة لولا ندب من الموحدين من سبق إليه ، ودافع عنه ، فأقلعوا عنه بعد أن قتل عليه جماعة منهم ، وخيب الله سعيهم فيه ، فوردت الأنباء بذلك على أمير المؤمنين المنصور ، وهو على قدم الحركة إلى إفريقية : ورسول الطاغية عنده بالحملة المنصورة ^(١) .

(١) الفريفة الغرناطية ، رفر الحبب المشورة في محاسن المنصورة ، نس أورده الأستاذ

وامام هذه الاخبار التي بلغت لم يسع أبو يوسف إلا ان يعدل عن مشروعه الأول وهو القضاء على بني غانية إلى الجواز إلى اندلس لمحاربة اللقشاليين . فمهر الزقاق إلى اندلس في ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٥٩١ هـ ، ونزل بطريف يوما واحدا ، ثم واصل سيره حتى وصل إلى ظاهر إشبيلية ، فزل بقصر البحيرة الواقع خارج باب جهور ، فخرج الملا من أهل إشبيلية لتحيته ، فاستقبل سادات المدينة من سائر الطبقات في ٢٧ من جمادى الآخرة ، وركب في اليوم التالي إلى حصن الفرج ، فأبدى إعجابه بهنائه ، ثم عاد في نفس اليوم ، فعلى في الجامع الكبير . ثم خرج في ٢٩ من جمادى الآخرة ، وأمر بعرض قواته بكامل عدتهم وأزيائهم ، ومشى مع الكتائب والوزراء ومن حضر من قرابته ، « وطاف عليهم في مواضعهم صفا صفا ، وقبلا قبلا ، وشكر استيفاءهم واستعدادهم شكرا جزيلا ، وخرجت المرتبات والبركات » (١) ، وأغدق عليهم بالأموال ووزع الأساحة والخيل على الجند ، وأمر بإخراج من وسع الشرع في إخراجه من السجون (٢) ، ثم خرج في ١١ رجب سنة ٥٩١ هـ ، بحذاء الوادي الكبير حتى وصل إلى قرطبة في ١٩ رجب . ولم يزل يواصل السير حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالأرك ، وهو موضع قريب من مدينة قلعة رباح . وكانت قد خرجت من قلعة رباح وماجاورها سرية من فرسان القلعة بقصد الوقوع على أخبار المسلمين والتجسس عليهم ، فظفرت بهم طائفة من طلائع عسكر الموحدين واستأصلوا هذه السرية بالقتل ، فاستبشر الموحدون بذلك خيرا (٣) .

(١) ابن عذاري ، نص أورده الأستاذ أويس ميرا ندا في المقال السابق ، ص ٤٣

(٢) الشريف الفرائدي ، ص ٥٨

(٣) الشريف الفرائدي ، ص ٥٨ . يذكر ابن عذاري أن سرية من خيل النصارى ضربت

وما كاد الفونسو يعلم بنزول أبي يوسف إلى الأندلس حتى توجه إلى طليطلة حيث قضى بها أياما حشد خلالها جيشا ضخما لمنازلة الموحدين ، ثم مضى نحو الأرك . وكان الأرك هذا حصنا يقع على حدود مملكة قشتالة ، وتأهب الفونسو للملاقاة الموحدين ، قبل أن يشرعوا في الإغارة على بلاده . على نحو ما فعله المنصور من قبل في حملته على البرتغال . وكان الفونسو واثقا من النصر حتى أنه دخل المعركة دون أن ينتظر وصول جيش ملك ليون وجيش ملك نبرة (٢) . ويذكر الضبي في بغية الملتمس أنه أحضر معه جماعة من التجار اليهود لشراء أسرى المسلمين . ويذكر ابن أبي زرع أن المنصور عندما وصل إلى ميدان المعركة أمر باجتماع المسلمين ، فلما كملت جموع المسلمين قام الوزير أبو يحيى بن أبي محمد بن الشيخ أبي حفص ، وقال : « يقول لكم أمير المؤمنين اغفروا له ، فان هذا موضع غفران ، وتغافروا فيما بينكم ، وطيبوا نفوسكم ، وأخلصوا لله نياتكم » فبكى الناس ، وأعظموا

على قلعة رباح وما جاورها ، ليتجسسوا الأخبار ، فخرج اليهم من كان بالحصن ، نقضوا عليهم قضاء مبرما ، وتركوهم بملك البطاسولا ثم للنسور والعقبان (انظر نس ابن عذارى بمقال اويشى ميراندا ص ٤٣) . ويرى الأسناذ اويشى ميراندا أن قلعة رباح كانت في ذلك الوقت داخل أملاك قشتالة ، منذ ان استولى عليها الفونسو السابع سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) وأن القشتاليين خرجوا عنها بعد انهزامهم في الأرك ، فاستولى عليها المنصور وشحنها بالمقاتلة ، بقيادة يوسف بن قادهس (انظر المقاتلة السابق ص ٤) . ويؤيد اويشى ميراندا في ذلك قول الحميري أن « قلعة رباح أول حصون أندلوس في الأندلس » (ص ١٢) والواقع أن قلعة رباح المذكورة تقع على بعد نحو ٢٠ كم شمال شرق الأرك ، فليس من المستحيل أن يستولى عليها الموحدون قبل الأرك ، واستيلاء الموحدين عليها لم يتم إلا بعد انتصارهم على الفونسو الثامن وجيوشه في الأرك بيومين .

ما سمعوه من المنصور . ثم قام القاضي أبو علي بن حجاج ، وخطب في المسلمين يحثهم على الجهاد ، ثم أمرهم أبو يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص بلباس أسلحتهم ، والاستعداد من الغد للقاء العدو ، فتركوا بالحملة أثقالهم ، وزحفوا في بطن حق دنوا من العدو ، وأصبح في مرأى بصرهم ، وأخذوا مراكزهم ، ونظموا صفوفهم ، « أسرابا تتلو أسرابا ، وأمواجا تعقب أمواجا » ، فهاجموا القلب حيث الأعلام ، بقيادة الوزير أبي يحيى بن أبي حفص ، ووراءها قوات الأندلسيين والعرب وزناتة والمطوعة ، وصمد قلب الجيش الموحدى ، وقاوم الوزير مقاومة عنيفة حتى استشهد ، ومال قوم من المطوعة وأخلط الناس إلى الميسرة ، وعندئذ ترك المنصور ساقية الجيش ومشى منفردا بين الصفوف يشجع رجاله ، ويحثهم على مهاجمة العدو ، فاشتد حماس المسلمين وغيرتهم ، وحملوا على القشتاليين حملة عنيفة ، وأخذت فرقة القواسين ترمي العدو بالسهم ، فانهزم القشتاليون وولوا الأدبار ، وتحكمت فيهم سيوف الموحيدين ، فقتل من فرسان نظام سانتياجو ثلاثة أساقفة ونحو ١٧ قسا ، كما قتل عدد كبير من فرسان قلعة رباح ، وقتل رئيس فرسان نظام يابرة ، واسمه جنتالوفيجاس ، ومن معه من مطوعة البرتغاليين . ونهب المسلمون معسكر النصارى ، وأفلت الفونسو الثامن بنفسه إلى طليطلة ، وتحصن قل جيشه بحصن الأرك . وكان عدد هؤلاء النصارى نحو خمسة آلاف مقاتل ، فتدخل بيطرة بن فراندس ، الموالي للمسلمين ، في الأمر ، وطالب من المنصور أن يفك حصارهم على أن يفك القشتاليون نظيرهم من أسرى المسلمين ، فوافق المنصور ، وأخذهم إلى إشبيلية عددا من الأسرى رهائن ، وسرح الباقون ^(١) .

تمكن المسلمون بعد انتصارهم في الأرك من استرداد بعض حصون
النصارى مثل ملجون وبنافنتى وكاراكويل وقلعة رباح ، وكلاهما مدن وقلاع
تقع في دائرة تبعد عن الأرك بنحو ١٠ كم. ويذكر المراكشى أن المنصور
دخل في قلعة رباح ، وقد جلا عنها أهلها ، فأمر بتحويل كنيسة إلى
مسجد (١) . ويعال الأستاذ ميراندا هزيمة القشتاليين بأن المنصور نجح في
اختيار الوقت المناسب للمعركة ، فقد كان الفونسو الثامن في عدااء مستحكم
مع ملك ليون وملك نبرة ، ولم تنجح جهود الكاردينال جريجوريوس لمحو
هذا العدااء ، وكان الفونسو معتادا على شن الغارات على أراضي المسلمين
دون أن تقابله مقاومة من جانبهم ، فظن أن من السهل التغلب على جيش
الموحدين ، ولم يفكر في مدى قوة جيش الموحدين ولم يعمل حساب حسن
قيادة المنصور وشجاعته ، وتشجيعه لجنوده ، وحسن توزيعه لقواته ، الذين
كانوا يتقنون طريقة الكر والفر ، ويجيدون الرماية بالسهم (٢) . كذلك
يعزى هزيمة الفونسو إلى سوء تقديره لقوى الموحدين ، وعدم استعداده
لمواجهة التفوق العددي للموحدين ، ولم يفكر في احتمال انضمام عدوه اللدود
بدرو فرنانديث دى كاسترو (ييطرة ابن فرانسيس) إلى الموحدين (٣) .

عاد المنصور إلى إشبيلية ظافرا ، فدخلها في ٢٧ من شعبان سنة ٥٩١ هـ ،
فأكمل بناء الجامع الكبير وصومعته ورفع بأعلاها التناقيح المذهبة في عمود
من الحديد في ١٩ ربيع الآخر سنة ٥٩٢ هـ (٤) . وفي هذه السنة انتقل المنصور

(١) المراكشى ، ص ٢٨٣

(٢) Huici Miranda, op. cit. p. 24

(٣) نص ابن عذارى في المقال السابق ، ص ٤٦

(٤) Antuna Melchor, op. cit. p. 139

إلى حصن الفرج بتاج الشرف ، وأكمل غرس البحيرة التي أمر بإنشائها أدناه ، وأمر بعمل نواعير على شاطئ النهر بأدني الحصن (١) . ووفد عليه سفراء مملكة ليون لعقد معاهدة تحالف مع الموحدين ، كذلك أبدى ملك نبرة رغبته في كسب صداقة الموحدين للدفاع عن مملكته الصغيرة من أطباع ملك قشتالة . عندئذ وجد المنصور الفرصة سانحة لإعداد حملة ضد مملكة قشتالة (٢) . وكان ملك ليون قد قطع علاقته مع الفونسو الثامن لنقضه معاهدة توردي هو موس Tordehumos ، وأخذ يطالب الفونسو الثامن بأن يسلم إليه حصون ألبه ولونا وبورتيا وغيرها مما أخذه وفقا لهذه المعاهدة ، ولكن الفونسو أبي أن يسلمه هذه الحصون ، وبدلا من أن يعرض ملك ليون مشكلته على الكاردينال ، قطع علاقته نهائيا مع الفونسو . كذلك وجد دوت بدرو فرنانديث دي كاسترو (بيطرة بن فرانس) في ذلك فرصة طيبة لمواصلة حربه ضد مملكة قشتالة ، فاتفق مع المنصور على شن هجوم عنيف في فصل الربيع على مملكة قشتالة ، ويقضى هذا الاتفاق بأن يتولى المنصور تخريب بلاد قشتالة جنوبي سيرا وادي رامة ، بينما يقوم الليونيون مع حلفائهم المسلمين بمهاجمة قشتالة من الفحص .

د - غزوة طليطلة (سنة ٥٩٢) :

كان فصل الشتاء قد انتهى ، وأقبل الربيع ، وهو أكثر فصول السنة ملائمة للجهاد ، فاستنفر أبو يوسف قبائل الموحدين من منازلهم ، وحشد قواته ، واستعرضها ، ثم خرج في منتصف رجب سنة ٥٩٢ هـ ، وزحف

(١) نس ابن عذاري في مقال الأستار اويش ، ص ٤٩

(٢) Huici Miranda, op. cit. p. 33

بجيشه في إقليم استراما دورة ، ثم قدم أبو يوسف جماعة من الأندلسيين إلى حصن منتانجش Montanchez ، وكان من المعاقل المرتفعة المعروفة بالتوعر والامتناع ، فحاصره الأندلسيون في هذا اليوم ، وفي اليوم التالي وصلت قوات المنصور بأكملها ، فاستسلمت خامية الحصن ، وأمنهم الخليفة ، وأمر القائد أبا عبد الله بن صناديد بتوصيلهم إلى حيث يأمنون في أقرب المواضع إلى بلادهم ، ولكن ما كاد ابن صناديد يسير بهم مسافة فرسخ حتى غشيهم جماعة من العرب فوضعوا فيهم السيوف ، واستأصلوهم قتلا عن آخرهم ، وسبوا ما كان معهم من النساء والذرية (١) . فغضب أبو يوسف لجهل هؤلاء العرب بعهود المسلمين ، فقبض على بعضهم ، وسجنهم ، وجمع النساء والأطفال ، وأوصلهم إلى أول حدود بلادهم . ثم مضى أبو يوسف إلى ترجاله Trujillo فدخلها دون منازلة . ويعلق ابن عذارى على انتصارات الموحدين بقوله : « وهبت ريح الفتح في تلك الكور المأخوذة والأقطار ، وبلغ الرعب فيهم ما لا تبلغه سمر الأسل وبيض الشفار ، وأتى عليهم الاستيصال والجللاء بالاضطرار ، وقنعوا من السلامة بالفرار ، واصطكت في هذه الحصون المذكورة دعوة الإسلام ، وتعوضت في أسبوع واحد من ملة الكفر بشريعة محمد عليه السلام » (٢) . ومضى الموحدون في زحفهم حتى نزلوا على بلنسية Plasencia التي كان قد أسسها الفونسو الثامن في سنة ١١٨٩ م ، أي قبل ذلك بسبع سنوات ، واهتم بها وأنزل فيها جماعة من أهل الشمال ، فافتتحها المنصور ، وأسر قائدها مع مائة وخمسين من أعيانها

(١) نص ابن عذارى ، من مقال اويش ميراندا ص ٥٠

(٢) نفس المرجع

فوجههم إلى المغرب حيث ساهموا في بناء جامع سلا الكبير (١) ، ويقصد به جامع الرباط ، وواصلت القوات الإسلامية زحفها بطول نهر تاجة حتى وصلت إلى طليبة « أكبر قواعد طليطة وأثرها ، وأعظمها منعة وأعلاها » (٢) ، فأمر المنصور بتخريب ماحولها ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يقيم عليها حصارا طويلا لنقص ما كان لديه من المؤن والأقوات ، وآلات الحصار والعرادات . وقبل أن يشرع في الإغارة على طليطة ، توغل في الشمال ، فخرّب سائتا أولايا ، وإسكالونا ، وحاول الاستيلاء على مكادة ، دون أن يتهيأ له ذلك ، وأخيرا وصل إلى ساحة طليطة ، وقسم الجيوش على جنباتها ، وشن الغارات على سائر منطقتها ، وأقام على حصارها عشرة أيام اشتبك خلالها عدة مرات مع المدافعين عنها ، وانتسف رجاله الزروع والعمران فيما حولها . ثم بادر بالعودة إلى إشبيلية ، بعد أن أحس بعجزه عن افتتاحها .

٥ - الغزوة الثالثة (سنة ٥٩٣) :

قضى المنصور بإشبيلية شتاء عام ٥٩٢ هـ ، فلما أقبل ربيع سنة ٥٩٣ هـ ، عزم على الرحيل للغزو ، واستنفر قواته وخرج من إشبيلية إلى طليطة ، فنزل أولا بقرطبة ، وأقام بها بعض الوقت ، واستكمل استعداداته ثم تحرك متخذاً طريق طليبة . وما كاد المنصور يدخل في أراضي قشتالة حتى بعث إليه الفونسو رسله في طلب المهادنة والسلام ، فصرفهم المنصور من غير

(١) الحميرى ص ١٣

(٢) نص ابن عذارى من مقال لاريتى ميراندا ص ٥٠

بجواب إلا « انتظار سنان ، وصبارم قضا ب » (١) . فلما وصل إلى طليطلة بعد أن فشل في الاستيلاء على مكادة أثناء مسيره إليها ، عمد إلى إتلاف ماحولها من مزارع وتخریب العمران ، وبلغه وهو يحاصرها أن ملك أرغون قد اتفق مع ملك قشتالة على أن يزوده بالجيش ، وعلم أنها مجتسمان بمحصن مجريط ، فعزم المنصور على محاربتها ، وأخط جيشه بمجريط ، ولكنه عجز عن افتتاحها فقد أبلى دون ديجولوبث دى هارو بلاء حسنا في الدفاع عنها ، فضى المنصور إلى وادى الحجارة وهو يخرب كل ما يقابله من مراكز عمرانية ومزارع (٢) .

ثم رحل المنصور إلى قرطبة ومنها إلى إشبيلية في أول شوال سنة ٥٩٤ هـ . ولما رأى ملك قشتالة ما حل ببلاده من أضرار وتخریب ، سعى من جديد لطلب السلم والمهادنة ، فأجابه المنصور إلى ذلك بعد أن اشترط عليه عدة شروط ، وهادنه لمدة عشرة أعوام ، ثم أجاز إلى بر العدو في أول جمادى الآخرة سنة ٥٩٤ هـ ، وتوفي بمراكش في ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ .

(١) نص ابن عذارى من مقال أويشى ميراندا ص ، ٥٥

(٢) نفس المرجع ، ص ٥٦ .

(٥)

محمد الناصر وهزيمة الموحدين في العقاب

١ - ثورات المغرب في عصر محمد الناصر :

لما توفي المنصور بويع ابنه وولي عهده أبو عبد الله محمد بالخلافة ،
وتلقب بالناصر لدين الله . ولقد واجهته في أول خلافته مشكلات كثيرة :
فيحيى بن اسحق بن غانية كان قد استولى على أكثر بلاد إفريقية مستغلا
اشتغال الموحدين عنه بمحاربة القشتاليين في الأندلس (١) . وظهر بالمهدية
فائر يدعى محمد بن عبد الكريم الريراكي ، وتسمى صاحب قبة الأديم ،
ودعا لنفسه بالخلافة ، وتلقب بالمتوكل على الله ، ونازع ابن غانية
والموحدين الأمر ، فنازل تونس ، وعاث في قراها سنة ٥٩٦ هـ ، وحارب
ابن غانية بقابس ، فامتنع عليه ، ولكن ابن غانية تمكن من هزيمته في قفصة ،
وحاصره في المهدية ، ثم دخلها في سنة ٥٩٩ هـ ، وقتله (٢) . ودخل ابن غانية
تونس بعد ذلك في نفس هذا العام ، وأطاعه أهل بونة ، وبزرت ،
وبسكرة ، وشقبنسارية ، والأربس ، والقيروان ، وتبسة ، وسفاقس ،
وقابس ، وطرابلس .

وكان الناصر أثناء الفتنة القائمة بإفريقية في أول خلافته قد عقد للسيد
أبي الحسن بن أبي حفص على بحاية ، ولكن أبا الحسن لم يلبث أن انهزم
أمام ابن غانية في سنة ٥٩٦ هـ بالقرب من قسنطينة ، فسير الخليفة السيد أبا

(١) المراكشي ، ص ٣١٣ ، ٣١٤

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٥١٧

زيد بن أبي حفص إلى تونس لصد ثغورها ، وأردفه بالسيد أبي سعيد بن أبي حفص ، فلما استولى ابن غانية على تونس سنة ٥٩٩ هـ ، قبض على أبي زيد ، وبلغ الناصر استبداد ابن غانية في إفريقية وطرابلس ، فعزم على السير لمحاربتة ، فخرج من مراكش في ٦٠١ هـ ، وأرسل الأسطول الموحدى بقياده أبي يحيى بن أبي زكريا الهزرجى إلى تونس ، فدخلها الموحدون ، وقتلوا من كان بها من أتباع ابن غانية . ثم نازل الناصر مدينة المهدية بعد ذلك وحاصرها أربعة أشهر ، وأرسل الناصر أبا محمد بن الشيخ أبي حفص للملافة ابن غانية ، فالتقى الجيشان في تاجرا من نواحي قابس ، ودارت الدائرة على ابن غانية ، وغنم الموحدون من عسكره غنائم هائلة ، وتمكن ابن غانية من النجاة بأهله وولده . وفي نفس الوقت استسلمت المهدية ، وعاد الناصر بعد ذلك إلى تونس في سنة ٦٠٣ (١) .

ولم يسكت ابن غانية على هذه الهزائم ، فقد كان يتبع طريقة العرب في الفر والكر ، فعزم على قتال الموحدين بتونس ، وجمع لهذا الغرض حشودا هائلة من العرب الدواودة من رياح وغيرهم من أعراب بنى سليم ، فاشتبك معهم أبو محمد بن أبي حفص ، فانهزموا ، واستولى الموحدون على محلاتهم ، فليجأ ابن غانية إلى إقليم طرابلس . وظل ابن غانية يناوئ سلطان الموحدين في إفريقية وطرابلس طوال عصر الناصر ، وكان أبو محمد ابن أبي حفص يهزمه في كل مرة يحاول فيها ابن غانية الاستيلاء على إفريقية . فلما توفي أبو محمد في سنة ٦١٨ هـ ، وخلفه السيد أبو العلاء إدريس ، عاد ابن غانية إلى الظهور ، وزاد عيثه في البلاد ، فخرج عليه السيد أبو العلاء ،

(١) المرجع السابق ص ٥١٨ ، ٥١٩ .

ونزل في قصر العروسيين ، وسير ابنه السيد ابا زيد ، فطارده إلى غدامس وودان والزاب وبسكرة ، واصطدم معه بظاهر تونس في سنة ٦٢١ هـ ، فانهزم ابن غانية هزيمة نكراء . وبلغ السيد ابا زيد نبأ وفاة أبيه بتونس في شعبان سنة ٦٢٠ هـ ، فعاد إلى تونس ، وخاطب المستنصر الموحدي بمقتل أبيه أبي العلاء إدريس ، وكان المستنصر قد عزل السيد ابا زيد عن ميورة ، واتفق أن المستنصر توفي أيضا في سنة ٦٢٠ هـ وخلفه عبد الواحد المخلوع ، فكتب إلى أبي زيد بالبقاء في عمله بتونس . فلما توفي المخلوع ، وتولى العادل الخلافة من بعده ، كتب إلى أبي زيد بالقدوم ، فقدم إليه في سنة ٦٢٣ هـ ، وتولى أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي حفص على إفريقية . ومنذ ذلك التاريخ استقل بنو حفص بإفريقية ودافعوا ابن غانية ، وشرذوه في أقطارها إلى أن توفي في سنة ٦٣١ هـ في بلاد الزاب (١) .

وبالإضافة إلى حركة ابن غانية قامت في المغرب الأقصى بعض الثورات ، ولكنها كانت أقل خطورة من ثورة بني غانية . فقد ثار في بداية خلافته ثامر من غمارة يدعى علودان الغماري ، فخرج الخليفة في أول جمادى الأولى سنة ٩٥ هـ قاصدا مدينة فاس ، فأقام بها بعض الوقت ، وسار منها إلى جبال غمارة ، فأخذ الفتنة هناك ، وعاد إلى فاس مرة أخرى ، فأقام بها ، وبني قصبتها وأسوارها التي كان قد خربها عبد المؤمن بن علي عند استيلائه عليها ، فتم بناؤها في سنة ٦٠٠ هـ ، وأنشأ محمد الناصر دار الضوء والساقية بازاء جامع النداسيين فيها ، وجلب إليها الماء من العين الواقعة خارج باب

(١) ابن خلدون، ج ٦، ص ٤٠٥ - ٤٠٧ ، ٥١٧ - ٥٢٠

الحديد ، كذلك قام الناصر ببناء الباب الكبير المدرج المشرف على صحن الجامع . ولم تقف أعمال الناصر إلى هذا الحد ، فقد جدد مصلى عدوة القرويين من فاس . وظل الخليفة مقياً بفاس حتى سنة ٥٩٨ هـ ، وفي أثناء مقامه بها ثار بالسوس رجل يدعى أبا قعببة عبد الرحمن ويعرف بابن الجزارة ، وذلك في سنة ٥٩٧ هـ ، فدعا إلى نفسه ، وهاجم حامية الموحدين هناك ، وتمكن من الانتصار عليهم ، فبعث إليه الناصر جيشاً يتألف من الموحدين والممالك الغز والعرب ، فانهزم ابن الجزارة وقتل (١) . وفي سنة ٦٠٠ هـ ثار عليه رجل من سلالة الفاطميين في مصر اسمه محمد بن العاضد ، بجبال ورغة ، فقبض عليه الخليفة وقتله ، وأمر بإحراق جثته ، فأحرقت أمام باب الشريعة من أبواب مدينة فاس ، فسمى هذا الباب باب محروق ، وهو أحد الأبواب التي أمر الناصر بإقامتها في سور فاس (٢) .

ب - هزيمة المسلمين في العقاب :

لم يذس الفونسو الثامن هزيمة الموحدين له في الأرك ، فظل يفكر في محو آثار الهزيمة ، وبدأ يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية ، وعقد مع ملكي نبرة وأرغون عهود الصلح والخلف . وفي سنة ٦٠٧ هـ نقص القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين ، وأغاروا على بلاد المسلمين ، وخرّبوا أراضي جيان وبياسة وأندوجر ، ووصلوا إلى أحواز مرسية . فلما بلغ الناصر ذلك انزعج ، وأبدى غضبه ، وكتب إلى الشيخ أبي محمد ابن أبي حفص يستشير في الغزو ، فنصحه بعدم خوض الحرب في هذه الآونة ،

(١) المراكشي ، ص ٣٠٥ ، ٣١٦

(٢) الجزنائي ص ٣٣ - الاستقصا ج ٢ ص ٢١٩

فخالفه الناصر ، و ففرق الأموال على القواد والجناد ، وكتب إلى جميع بلاد إفريقية والمغرب وبلاد القبلة يستنفر المسلمين لغزو الكفار ، فأجاب به خلق كثير ، وألزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجال تخرج للجهاد ، فتقدمت عليه الجيوش من سائر الأقطار ، وتسارع الناس إليه خفافا وثقالا من البوادي والأمصار^(١). ثم جاز إلى الأندلس في ١٩ من ذي القعدة سنة ٦٠٧ هـ ووصل إلى إشبيلية ، وأقام بها للراحة ، والاستعداد للغزو . وقسم جيوشه إلى خمس فرق : فجعل للعرب فرقة ، وزناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل المغرب فرقة ، وجعل المنطوعة فرقة ، وجعل جند الأندلس فرقة ، والموحدين فرقة . ولما انتهى من تنظيم جيشه تحرك في أوائل سنة ٦٠٨ هـ إلى بلاد قشتالة ، فنزل على قلعتين هما اللج وشلبطرة فحاصرهما ، وضيق عليهما ، واستولى على حصن اللج أولا ، ثم حاصر شلبطرة ، وهو حصن منيع قائم بأعلى جبل ، فنزل عليه الناصر ، ونصب عليه أربعين منجنيقا ، فخرّب أرباضه ، ولكنه عجز عن فتحه ، وطال حصاره له ، وأعياء أمره ، فعزم على رفع الحصار إلى حصن آخر ، ولكن وزيره أبا سعيد بن جامع أشار عليه بالبقاء على محاصرته ، فأقام عليه الحصار « ثمانية أشهر فميت فيها أزواد الناس ، وقلت علوفاتهم ، وكت عزائمهم ، وفسدت نياتهم ، وانقطعت الأمداد عن المحلة ، فغلت بها الأسعار ، ودخل فصل الشتاء ، فاشتد البرد ، وأصاب المسلمين كل ضرر^(٢) .

(١) الاستقصا ، ص ٢٢٠

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٢ - René Millet, les Almohades, Paris, 1923,

وما زال الناصر يواصل محاصرة الحصن حتى استسلمت حاميته، وتغلب عليه ،
وعاد إلى إشبيلية ظافرا .

وأحس ملك قشتالة بما يدبره الموحدون من خطط لغزو بلاده، وأدرك
نيتهم في مهاجمة طليطلة عاصمة مملكة قشتالة ، وتبين له أن انتصار الموحدين
قد يؤدي إلى تحطيم قوى النصرانية في إسبانيا كلها ، فاستغاث على حد قول
الحميري « بأهل ملته ، وحشهم على حماية دينهم ، فاستجابوا ، وانثلوا عليه من
كل مكان » (١) . والواقع أن انتصار الموحدين في موقعة الأرك كان
إنذاراً لدول إسبانيا المسيحية، إذ أصبحت طليطلة وقونكة مهددتان بغزو
وشيك . وأثار ذلك عوامل الذعر الهلع في نفوس النصارى . فاستغل ذلك
أسقف طليطلة رودريجو خيمينث دي رادا هو وأسقف بلنسية تيوتيث دي
مينسس . ويعتبر رودريجو خيمينث المذكور من أشهر شخصيات العصر
الوسيظ في إسبانيا المسيحية ، فلم يكن هذا الأسقف رجلاً دين وإدارة
فحسب ، بل كان أديبا ومؤرخا ، وهو الذي دعا إلى ضرورة اتحاد الولايات
المسيحية ، وإلى فتح أبواب حرب صليبية دواية داخل إسبانيا ، وبهذا أخذ
يعد العدة للرد على انتصار الموحدين في الأرك (٢) ، فأخذ يسعى جاهدا
منذ سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) للتوفيق بين ملوك إسبانيا المسيحية وتوحيدهم ،
واجتاز جبال البرت إلى فرنسا وإيطاليا ، داعيا فيها إلى محاربة المسلمين ،
فاجتمع إليه عدد كبير من غلاة المسيحية من فرنسا وإيطاليا . وأثمرت
جهوده في التوفيق بين ملوك إسبانيا المسيحية ، فقد زار الملك سانشو السابع
ملك نبرة (١١٩٤-١٢٣٤م) الفونسو الثامن ملك قشتالة سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧م)

(١) الحميري ، ص ١٣٧

(٢) Terrasse, Histoire du Maroc, t. I, p. 340

في مدينة وادي الحجارة ، واتفق الطرفان على عقد هدنة لمدة خمس سنوات ، كما تم عقد الفونسو الثامن لملك نبرة بالتوسط لدى بدرو الثاني ملك أرغون (١١٩٦ - ١٢١٣ م) للوصول إلى اتفاق بين مملكتي نبرة وأرغون . كذلك عقد الفونسو ملك ليون (١١٨٨ - ١٢٣٠ م) عهد صلح مع الفونسو الثامن في وادي الحجارة ، وأظهر سانشو ملك البرتغال (١١٨٥ - ١٢١١ م) كذلك استعدادا تاما لتقديم كل ما يطلبه منه ملك قشتالة من مساعدات .

ولما استولى الناصر على شلبطرة ، أرسل ألفونسو الثامن ملك قشتالة الأسقف جيراردو من مدينة شقوبية سفيرا من قبله لدى البابا اينوسنت الثالث ، الذي لم يسهه أمام استيلاء الموحدين على شلبطرة ، المعقل الأعظم لنظام ستر الحربي ، إلا أن يتوجه إلى سائر أساقفة فرنسا وبروفانس ، داعيا إلى حملة صليبية واسعة النطاق داخل إسبانيا . وبارك البابا عددا كبيرا من الفرسان الوافدين من إيطاليا وألمانيا والبرتغال وقطالونيا ، ممن دفعهم حماسهم الديني إلى الاشتراك في هذه الحملة الصليبية (١) .

وقبل أن ينتهي عام ١٢٠٨ هـ ، اجتمعت في طليطلة عاصمة قشتالة جشود هائلة من الصليبيين . وفي بداية عام ١٢٠٩ هـ ، عاد رودريجو خيمينث وفي صحبته جموع كبيرة من الفرنسيين ، وانضم إليهم فرسان قلعة رباح وسانتياجو الاستبارية والداوية . واجتمع القوامس وفرسان قشتالة إلى الملك الفونسو الثامن في أكل هيثة وسلاح . ومن بين الفرسان القشتاليين قوامس أسيرة دي لارا ، ويرأسهم القومس ديجولوبث دي هارو ، ولوبي

(١) Aguado Bleye, Manuel de historia de Espana, t. I, Madrid,

دياث دى هارو ، وكان يرأس فرسان قلعة رباح جوميث راميريث، وتقدم فرسان سانتياجو بدرو آرياس، ويرأس الاستارية ابن جوتيروهر منخلدو ، وقدم من أساقفة فرنسا، أسقف برديل وأسقف نانت وأسقف أربونة ، وعدد كبير من رجال الدين الفرنسيين من ليوج ، وسانتونج وبرى ، وبواتو ، وأنجو ، وبريطاني (١) .

وزحفت جيوش النصارى من طليطلة فى ٢٠ يونيو سنة ١٢١٢م (٥٦٠٩) بعد أن توزعت إلى ثلاثة جيوش :

الجيش الأول: يقوده فارس قشتالة دون ديجو لوبث دى هارو ، وعدته نحو مائة ألف مقاتل ، ويقود وحداته المختلفة أسقف أربونة وأسقف برديل وأسقف نانت وغيرهم .

الجيش الثانى : يتألف من الأرغونيين والقطالنيين وفرسان الداوية، ويقوده الملك بدرو الثانى .

الجيش الثالث : يتألف من القشتاليين والليونيين والبرتغاليين ، وفرسان قلعة رباح ، وفرسان سانتياجو ، والاستارية ، ويقوده الفونسو الثامن ملك قشتالة ، ويقود وحداته الأمير الليونى سانشو فرنانث والأمير البرتغالى بدرو ، والأسقف رودريجو خيمينث (٢) .

تقدم جيش ديجو لوبث إلى ملجون ، واستولى عليها، وقتل القشتاليون جميع سكان هذه المدينة ، ثم واصل هذا الجيش زحفه حتى وصل إلى قلعة

(١) أشباخ ، ص ٣٥٦ - ٣٦٠

(٢) نفس المرجع ص ٣٦١

رباح ، التي تقع على بعد ميلين من ملجون ، وهناك اجتمع هذا الجيش بجيش قشتالة وأرغون ، وضربت هذه الجيوش الحصار على المدينة ، فكتب أبو الحجاج يوسف بن قادس ، عامل قلعة رباح إلى الخليفة يستمده ، ولكن رسائله كانت تقع بين يدي ابن جامع الوزير فيخفيها عن الخليفة . فلما طال الحصار على المدينة ، ورأى ابن قادس استحالة المقاومة مع فناء القوات وقلة السلاح ، ويئس من إمداد الناصر له بالعدة والقوات ، وخاف على سكان المدينة ، صالح الفونسو على تسليم الحصن له على أن يخرج المسنون آمنين على أنفسهم^(١) . ووافق الفونسو على ذلك ، لرغبته في الاحتفاظ بقلعة رباح سليمة حتى يستطيع استخدامها بعد ذلك ضد جيوش المسلمين . أقام بدرو الثاني بعض الوقت في قلعة رباح انتظارا لوصول سانشو السابع ملك نبرة ، بينما زحف الفونسو الثامن إلى الأرك ، فاستولى على حصنها ، وسقطت كرموبل وبنسافنتي وبيطروبوينه في يده ، ثم مر بقلعة شابطرة ، ولم يحاول الاستيلاء عليها لما كان يعرفه من مناعتها .

ولما علم الناصر بخروج جيوش المسيحية مجتمعة واستيلائها على قلعة رباح تألم كثيرا ، وعزم على مقابلتهم ، فاستنفر الناس من أقاصى البلاد ، فاجتمعت إليه جيوش كثيفة ، ووفد عليه باشبيلية أبو الحجاج يوسف بن قادس ، فأمر بقتله بسبب تسليمه قلعة رباح للنصارى دون أن يسمع حجته في ذلك وأثار مقتله غضب الكتائب الأندلسية ، فتغفروا عليه ، وفسدت نياتهم ، ويذكر الحميري أن الناصر أخرج حشودهم من الجيش غضبا عليهم^(٢) . ولكن هذا القول مبالغ فيه ، فقد ورد ذكر الكتائب الأندلسية

(١) القرطاس ص ١٥٧ = الاستقصا ، ص ٢٢٢

(٢) الحميري ص ١٣٢

أثناء المعركة ، و تخاذلهم وفتورهم في القتال ، وأغلب الظن أنه اكتفى بعزل
قوادهم من الجيش وأبقى على الكتائب . ثم خرج من إشبيلية في شهر محرم
سنة ٦٠٩ هـ على رأس جيش لم تلتق أهدافه ، فقد كان العدد الأعظم من رجاله
لا يرغب في الغزو بسبب تقديره عليهم ، فقابلوا العدو بفتور وعدم مبالاة .
كذلك أخطأ الناصر خطأ فاحشا بعزل قادة الكتائب الأندلسية ،
من جيشه ، وكانوا قد تعودوا على قتال النصارى في الأندلس ، وعرفوا
خطتهم في القتال ، وفي ذلك يقول صاحب الذخيرة السنية : « فان رجال
الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخف بهم الناصر ووزيره ، فشنع
بعضهم ، ففسدت النيات ، فكان ذلك من نحت الإفرنج » (١) . وصل الناصر
إلى قرطبة ثم سار بعد ذلك إلى مدينة جيان ، وواصل سيره في اتجاه بياسة
وأبدة ، ونزل في الفحص المعروف بفحص البلوط الواقع بين جيان وقلعة
رباح .

أما قوات الفونسو ، فقد زحفت جنوبا ، فاخترقت جبال سيرا مورينا
في ١٢ صفر سنة ٦٠٩ هـ (١٤ يوليو سنة ١٢١٢ م) وانسابت في أحد
الوديان الواقعة بين الجبال نفسها وهضبة لينارس ، بالقرب من بلدة تولوسا ،
ويطلق النصارى على هذه الوديان اسم نافاس ، ولذلك عرفت الموقعة عندهم
باسم لاس نافاس دي تولوسا Las Navas de Tolosa ، ويسمى مؤرخو
العرب هذا الموضع بالعقاب نسبة إلى حصن أموى قائم بالقرب من الفحص
الذي دارت فيه الموقعة .

(١) الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية ، تحقيق محمد بن أبي شنب ، الجزائر ، ١٩٢٠

وأول خلفاء الموحدين الضعفاء المستنصر بالله أبو يعقوب بن محمد
الناصر الذي بويع بالخلافة وعمره ١٦ سنة ، وتوفي في سنة ٦٢٠ هـ ، وفي
عهده انبعثت الثورات والفتن ، وكثر الخارجون عليه في أنحاء البلاد . ولما
توفي اضطرب الأمر ، واجتمع الناس على تقديم عبد الواحد بن يوسف
ابن عبد المؤمن ، وفي عهده تفرق أمر الموحدين ، وازدادت مطامعهم في
الخلافة ، فاستقل أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بالاندلس ، وتلقب
بالعادل وأيده بعض أعيان الموحدين ، فخلعوا عبد الواحد ، وقتلوه بعد
أشهر من ولايته . كذلك لم يطل عهد العادل بن المنصور ، إذ انتهى الأمر
بمقتله سنة ٦٢٤ هـ وخلفه أخوه أبو العلاء إدريس بن المنصور ، فبويع
بالخلافة في إشبيلية ، مقر ولايته ، أيام أبيه المنصور وأيام أخيه العادل ،
وتلقب أبو العلاء بالمأمون ، وبايعه أهل الأندلس . وفي الوقت الذي بايعه
فيه أهل الأندلس بويع أبو زكريا يحيى بن الناصر بالخلافة في مراکش ،
وتلقب بالمعتصم ، وقام صراع عنيف بين خليفة الموحدين في الأندلس
وخليفتهما في المغرب ، ولم ينته هذا الصراع إلا بوفاة أبي العلاء إدريس في سنة
٦٣٠ هـ . وكان أبو العلاء قد استعان بفرقة من النصاري المرتزقة ، أدخلهم
في جيشه ، فأدخلهم مراکش ، وبني لهم فيها كنيسة ^(١) . وبينما كان المأمون
مشغولا بمحاربة المعتصم ، قام عليه أخوه أبو موسى في سبتة ، وتلقب بالمؤيد ،
ومنذ ذلك الحين أصبح المغرب مسرحا للقتال بين خلفاء الموحدين ، وقامت
الثورات في كل مكان .

(١) ابن الخطيب ، ص ٥٣١

لحراسته وتلقى الضربات ، وكان فرسه بادنا ، فلم يطق الحركة ، فنزل له أحد قواد المرب عن فرسه ، وكان الناصر قد أمر أبا بكر بن عبدالله بن أبي حفص بالوقوف تحت الراية ، وظن النصارى أن الناصر تحت هذه الراية ، فحملوا عليها ، ووضعوا السيف فيمن واجهها ، فقتل أبو بكر بن عبدالله الحفصى ، وقتل كل من دافع عن الراية ، وانهزم المسلمون هزيمة نكراء ، واستولى العدو على جميع المحلة وأكثر مضاربها (١) . وما زالت بعض أعلام الموحدين وخيمهم في العقاب محفوظة حتى اليوم بدير لاس إيبلجاس في مدينة برغش ، ومن بينها سجادة خيمة الخليفة محمد الناصر أو لعلمها علما من الأعلام الموحدية ، وهي قطعة من النسيج المصنوع من الديباج المحلى بخيوط الذهب ، وألوانها حمراء وزرقاء وبيضاء وخضراء وصفراء . وتتألف زخارفها من جماعة مركزية ، بداخلها زخرفة هندسية من تشابكات تحيط بها طرز مربعة ، ويحيط بالسجادة شريطان من الكتابة النسخية ، وبأدناها شريط من دوائر متصلة (٢) .

قضى النصارى المنتصرون يومين التماسا للراحة بعد المعركة ، وفي اليوم الثالث ، انقضوا على المدن الأندلسية المجاورة لحصن العقاب ، فاستولوا على بانيوس ، وكاستروفرات وتولوسا ، ثم استولوا على بياسة ، وأحرقوا المسلمين الذين لاذوا بمسجدهم ، ثم حاصروا أبدة واستولوا عليها ، واستولوا كذلك على بسطة . ثم عاد الفونسو الثامن إلى طليطلة بعد أن اكتفى بما

(١) الحميرى ص ١٣٨

Gomez Moreno, el Pantéon Real de las Huelgas de Burgos, (٢)
Madrid, 1946 pp. 81 et sqq. - Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, 1949
السيد عبد العزيز سالم ، الفنون والصناعات بالأندلس ، دائرة معارف الشعب ، ج ٢ ، ص

١٩٢ ، القاهرة ١٩٥٩

أحرزه من انتصارات بحيث استقبله شعبه هناك بمواكب من الموسيقى والأناشيد . أما الناصر ، فقد عاد إلى إشبيلية متظاهرا بعدم الاكتراث لهذه الهزيمة ، ثم عبر الزقاق إلى مراکش ، وهو حزين لهذه الهزيمة ، واحتجب الخليفة بعد ذلك في قصره بمراكش بقية سنة ٦٠٩ هـ . وتوفي في ٤ شعبان من سنة ٦١٠ هـ أى بعد سبعة أشهر من هزيمته في العقاب .

ج - انهيار دولة الموحدين بعد هزيمتهم في الارك :

يمر المؤرخون العرب مرا سريعا على معركة العقاب ، ويذكرون أنها الواقعة المشؤومة التي لم يقم للمسلمين بعدها قائمة محمد، ولم تستقل الأندلس بعدها العثرة (١) ، لأن النصارى استولوا بعدها على أكثر مدن الأندلس . ويسجل تاريخ وفاة محمد الناصر بداية انهيار دولة الموحدين التي امتدت على الرغم من ذلك حتى سنة ٦٦٨ هـ ، وهي السنة التي قتل فيها أبو دبوس أمام أسوار مراکش التي دُخِلَها بنو مرين . ولقد أعان على انهيار دولة الموحدين عدة عوامل منها : ١ - الضعف الحربي والسياسي والنفسى الذي منيت به بعد هزيمتهم في موقعة العقاب .

٢ - فوضى الإدارة وتفكك وحدة قبائل الموحدين ٣ - الاضطراب الذي أحدثته العرب الهلالية ، والماليك الغز في البلاد ، وغاراتهم المستمرة في نواحي دولة الموحدين ٤ - التوسع المسيحي في إسبانيا الإسلامية منذ النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، واستنفاد قوى الموحدين في إيقاف مدم ٥ - حركة بني غانية في المغرب وهي حركة بعثت قوى الموحدين واستهلكتها . ٦ - ضعف الخلفاء الذين تولوا بعد محمد الناصر ، وازدياد نفوذ رجال الإدارة والولاة ، والصراع بين أمراء بيت عبد المؤمن من أجل الظفر بالخلافة .

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ٢٧٠

اشتبك الجيشان في ١٥ صفر ، في قتال عنيف سرعان ما انجلى عن سيطرة
النصارى على المعركة ، ويصف السلاوى هذه الموقعة فيذكر أن الناصر ،
ضرب قبته الحمراء المعدة للقتال على رأس ربة وجلس أمامها على درقته وفرسه
قائم بازائه ، « ودارت العبيد بالقبة من كل ناحية ، ومعهم السلاح التام ،
ووقفت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد مع الوزير ابن جامع ، وأقبلت
جموع الفرنج على مصافها كأنها الجراد المنتشر ، فقدمت إليهم المتطوعة ،
وحملوا عليهم أجمعون ، وكانوا مائة وستين ألفا ، فغابوا في صفوفهم ،
وانطبقت عليهم الفرنج ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فاستشهد المتطوعة عن
آخرهم ، هذا وعساكر الموحدين والعرب والأندلس ينظرون إليهم ، لم
يحرك إليهم منهم أحد ، ولما فرغ الفرنج من المتطوعة حملوا بأجمعهم على عساكر
الموحدين منهم والعرب حملة منكرة ، فلما انتشب القتال بين الفريقين ،
فرت قوات الأندلس وجيوشها لما كانوا قد حققوه على ابن جامع في قتل
ابن قادس أولا ، وتهديدهم وطرده لهم ثانيا ، فجروا الهزيمة على المسلمين ،
ولاحول ولا قوة إلا بالله ، وتبعهم قبائل البربر والموحدون والعرب ، وركبتهم
الفرنج بالسيف ، وكشفوهم عن الناصر حتى انتهوا إلى الدائرة التي دارت
عليه من العبيد والحشم ، فألقوها كالبنيات المرصوص ، لم يقدرُوا منها
على شيء ، ودفع الفرنج بخيلهم المدرعة على رماح العبيد وهي مشرعة إليهم
فدخلوا فيها ، والناصر قاعد على درقته أمام خبائه يقول : صدق الرحمن ،
وكذب الشيطان . حتى كانت الفرنج تصل إليه ، وحتى قتل حوله من عبيد
الدائرة نحو عشرة آلاف » (١) .

ولم يبق أمام الناصر سوى الفرار ، فركب فرسه وحوله ثلة من العبيد

كذلك شهدت الأندلس في هذه الآونة فترة مشحونة بالاضطرابات العنيفة، وأخذ رؤساء الأندلس - بعد أن التأت أمر الموحدين - يذنون بنواحي الأندلس، وقامت الفتنة الثالثة في تاريخ الأندلس، واشتعلت نار الثورة واحتدمت في سائر مدنه، وكان المحرك الأول لهذه الثورات محمد بن يوسف ابن هود الجذامي الثائر بمرسية^(١). وقد تمكن ابن هود من التغلب على شرق الأندلس كله، وفرض سلطانه على مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية والجزيرة الخضراء وماردة، وأيقن أهل الأندلس أن إمارته ستكون مخرجاً لهم من حالة الفوضى والاضطراب التي شملت بلادهم في ذلك الحين، ولكن جهود هذا الأمير اصطدمت بحركات مضادة من جانب أبي العلاء إدريس من جهة، والقشتاليين والأرغونيين من جهة ثانية، وبعض خصومه من رؤساء الأندلس من جهة ثالثة، ونخص بالذكر منهم محمد بن يوسف بن نصر صاحب حصن أرجونة الذي تمكن من الاستيلاء على جيان وشرين في سنة ٦٣٠ هـ، وعلى إشبيلية في سنة ٦٣٢ هـ، وعلى غرناطة ووادي آش وبسطة في سنة ٦٣٥ هـ. وانتهز القشتاليون والأرغونيون فرصة قيام الحرب الأهلية بين المسلمين في الأندلس، واستولوا على بعض المدن الأندلسية الهامة، وكان القشتاليون قد اغتصبوا القسم الأعلى من الأندلس حتى أندوجر منذ بداية الفتنة حتى سنة ٦٣٣ هـ، بينما أتم الليونيون فتح إقليم استرامادورة. فلما اتحدت مملكتا قشتالة وليون تحت تاج واحد في ظل الملك فرناندو

(١) محمد بن هود من سلالة بني هود الجذامين أصحاب مرقسطة في عصر الطوائف، ويسميه الأسبان في مدوناتهم التاريخية باسم Zafadola أي سيف الدولة وهو لقبه الذي تلقب به.

الثالث الملقب بالقدّيس، أتيح له الاستيلاء على بياسة وأبدّة في سنة ٦٣٣ هـ، وعلى قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس في سنة ٦٣٦ هـ (١)، وعلى إشبيلية، حاضرة الموحدين، في سنة ٦٤٦ هـ. وتمكن أخيراً من ضم قادس وولبة وجميع المدن الواقعة بالقرب من مصب الوادي الكبير. أما في شرق الأندلس، فقد كان خطر خايي الأول ملك أرغون أعظم من خطر فرناندو، إذ تمكن من الاستيلاء على ميورقة والجزر الشرقية فيما بين عامي ٦٢٧، ٦٣٥ هـ، واستسلمت له بلنسية في سنة ٦٣٦ هـ، ونجح في سنة ٦٤٥ في الاستيلاء على جزيرة شقر ومدينة شاطبة. أما مرسية فقد تمكن فرناندو الثالث من الاستيلاء عليها في سنة ٦٤١ هـ (٢).

وظلت الفوضى ضاربة أطناها في المغرب والأندلس في عهد خلفاء الموحدين الضعاف حتى كانت أيام المرتضى أبي حفص بن اسحاق الذي تولى بعد وفاة المعتضد بن المأمون سنة ٦٤٦ هـ، في موقعة نشبت بينه وبين يحيى بن زيان أمير تلمسان، غير أن عهد المرتضى لم يطل كثيراً، إذ خرج عليه أمير من أمراء الموحدين هو أبو العلاء إدريس الثاني المعروف بأبي دبوس. وانقرضت دولة الموحدين بمصرع أبي دبوس على أسوار مراکش، ودرست آثارها، واستولى الخراب والدمار على معظم ديار مراکش.

(١) كال سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين ضربة شديدة أصابت الاسلام في الأندلس، وكان ملاما رئيسيا في انهيار سلطان الموحدين نهائيا في الأندلس.

(٢) Terrasse, Histoire du Maroc, t. I, pp. 349 et sq.

(٦)

مساجد الموحدين وتحصيناتهم في المغرب

١ - الأثر الأندلسي في الفن الموحدى :

أسرة الموحدين من الأسرات الإسلامية التي اهتمت خلفاؤها بالبناء والتعمير ، وليس في بلاد المغرب كلها آثار تعادل في الكثرة وفي العظمة والجمال آثار الموحدين ، والموحدون أصحاب مدرسة في فن العمارة وفي الزخرفة من أهم تعاليمها التبسيط بقدر الإمكان من التكوينات الزخرفية ، وتجريد التوريقات من عناصرها الحية ، وطبعها بطابع من الورع الذي يعكس اتجاههم الإصلاحى . ولقد تأثرت فنون الموحدين في العمارة والزخرفة ، تأثرا عميقا بالحضارة الأندلسية ، وتمكنت الأندلس من غزو المغرب فنيا وعلميا في نفس الوقت الذى غزا المغرب في عصر الموحدين بلاد الأندلس عسكريا . وعصر الموحدين هو العصر الذى توثقت فيه العلاقات الفنية بين المغرب والأندلس ، وانتقلت التأثيرات الأندلسية إلى المغرب ، وظهرت في جميع الأبنية التي أقامها خلفاء الموحدين في المغرب مثل جامع الكتبية بمراكش ، وجامع القصبة بنفس المدينة ، وجامع حسان برباط الفتح وقصبة رباط الفتح . ويذكر ابن سعيد المغربي ، « أن حضرة مراكش هي بغداد المغرب ، وهى أعظم ما فى بر العدو ، وأكثر مصانغها ومبانيها الجميلة وبساتينها إنما ظهرت فى مدة بنى عبد المؤمن ، وكانوا يجلبون لها صنائع الأندلس من جزيرتهم ، وذلك مشهور معلوم إلى الآن ، ومدينة تونس بإفريقية قد انتقلت إليها السعادة التي كانت فى مراكش بسلطان إفريقية الآن أبى زكريا يحيى بن أبى محمد بن أبى حفص ، فصار فيها من المباني والبساتين والكروم ماشاهت

به بلاد الأندلس وعرفاء صناعه من الأندلس وتماثيله التي يبنى عليها ، وإن كان أعرف خلق الله باختراع محاسن هذا الشأن ، فانما أكثرها من أوضاع الأنداسيين ، وله من خاطره تنبيهات وزيادة ، ظهر حسن موقعها ، ووجوه صنائع دولته لا تكاد تجدهم إلا من الأندلس ،^(١)

ولقد ازداد الأثر الأندلسي في فنون المغرب في عصر الموحدين ومن تبعهم في المغرب من بنى مرين وبنى زيان وبنى حفص بسقوط معظم قواعد الأندلس مثل قرطبة وبلنسية وجيان وغيرها ، وفي ذلك يقول ابن غالب الأندلسي : « ولما نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المبيدة ، تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العدو مع بلاد إفريقية ، فأما أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه ، وداخلوا أهلها ، وشاركوهم فيها ، فاستنبطوا المياه ، وغرسوا الأشجار ، وأحدثوا الأرحى الطاحنة بالماء وغير ذلك ، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها ، فشرقت بلادهم ، وصلحت أمورهم ، وكثرت مستغلاتهم ، وعمتهم الخيرات ، فهم أشبه الناس باليونانيين . . . وأما أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها ، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجباة الأموال والمستعملون في أمور المملكة ، ولا يستعمل بلدى ما وجد أندلسي ، وأما أهل الصنائع ، فانهم فاقوا أهل البلاد ، وقطعوا معاشهم ، وأنجلوا أعمالهم ، وصيروهم أتباعا لهم ، ومتصرفين بين أيديهم ، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة ، وأفرغوا فيه من أنواع الخلق

والتجويد ما يعملون به النفوس إليهم، ويصير الذكر لهم»^(١). هذه المقتطفات توضح لنا كيف انتقلت التأثيرات الأندلسية إلى المغرب الأقصى في عصر الموحدين وما تلاه من عصور .

وإذا تتبعنا الأثر الأندلسي في فنون المغرب وجدنا أنه يرجع إلى أيام عبد المؤمن بن علي الذي أحاط نفسه بعدد من أدباء الأندلس ، واستخدم بعضهم كتابا له ، من أمثالهم : أبو جعفر أحمد بن عطية ، وأبو محمد عياش ابن عبد الملك القرطبي ، ومن قضاته عبد الله بن عبد الرحمن المالقي ، ومن شعرائه الأصم المرواني الشاعر ، وابن سيد الملقب باللص ، وأبو عبد الله محمد بن غالب البلمسي المالقي . أما أبو يعقوب يوسف فكان على حد قول المراكشي ، « أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها وآثارها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام ، صرف عنايته إلى ذلك أيام كونه باشبيلية واليا عليها في حياة أبيه ، ولقي بها رجالا من أهل علم اللغة والنحو والقرآن ، منهم الأسعاذ اللغوي المتقن أبو اسحق إبراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون ، فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع في كثير منه ... وكان أحسن الناس إلقاطا بالقرآن ، وأسرعهم نفود خاطر في غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية ، وكان شديد الملوكية ، بعيد الهمة ، سخيا جوادا ، استغنى الناس في أيامه ، وكثرت في أيديهم الأموال ، هذا مع إشار للعلم شديد ، وتعطش إليه مفرط ... وكان له مشاركة في علم الأدب ، وانساع في حفظ اللغة ، وتبحر في علم النحو حسبا تقدم . ثم طمح به شرف نفسه ، وعلو همته إلى تعلم الفلسفة ، فجمع كثيرا من أجزاءها وبدأ من ذلك بعلم

(١) المرجع السابق ، ج ٤ ص ١٤٧ ، ١٤٨

الطب ، فاستظهر من الكتاب المعروف بالملسكى أكثره مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ، ثم تخطى ذلك الى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموى^(١) ، وكان ممن صحبه من العلماء الأندلسيين أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طقيل العنسى الوادى آشى الفيلسوف ، وأبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ، وأبو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن زهر ، طيب إشبيلية .

وكما تأثر خلفاء الموحدين بعلماء الأندلس وأدبائهم فقد تأثروا أيضا برجال الفن الأندلسيين ومهندسيهم ، ونخص بالذكر منهم مهندسين اشتركوا في تشييد معظم آثار بنى عبد المؤمن ، وهما أحمد بن باسة عريف البنائين فى الأندلس ، والحاج يعيش المالقى^(٢) : الأول تولى بناء جامع إشبيلية ، والثانى اشترك فى بناء حصن جبل طارق^(٣) .

ب - اهتمام الموحدين بالبناء :

اهتم من خلفاء الموحدين بالبناء الأربعة العظام : عبد المؤمن بن على ، وأبو يعقوب يوسف ، والمنصور ، والناصر . أما عبد المؤمن فقد اهتم بالعمارة والتشييد اهتماما خاصا ، فهو الذى أمر ببناء سور تراكارت أو

(١) المراكشى ، ص ٢٣٨

(٢) P. Antuna Melchor, Sevilla y sus monumentos arabes, (٢) pp. 131 - 133

(٣) الحلال الموشية ، ص ١٠٨

Torres Balbas, Arquitectos andaluces de las epocas almorávide y almohade, Al-Andalus, 1946, fasc. I, pp. 214 - 224

تاجـرارت من تلمسان في سنة ٥٤٠ هـ ، وبناء مسجدها الجامع (١) ، وهو الذي أمر ببناء حصون جبل الفتح في سنة ٥٥٥ هـ (٢) وأقام به القصور (٣) ، وهو الذي قام ببناء جامع تينملل ووسع المدينة عند زيارته لقبر المهدي في سنة ٥٤٨ هـ (٤) ، وبناء القصور في مراکش (٥) ، وبناء المساجد وإصلاحها في جميع بلاده سنة ٥٥٠ هـ (٦) . وعبد المؤمن هو الذي أسس جامع الكتبيين بمراكش بقصر الحجر المرابطي بعد أن هدم جامع علي بن يوسف .

أما ابنه أبو يعقوب يوسف فكان مولعا بالعمارة ، محبا لها ، فاليه يرجع الفضل في الشروع في بـيـان مدينة رباط الفتـح ، وعاقه الموت عن إتمامها فاتمها ابنه المنصور (٧) ، واليه يرجع الفضل في إنشاء الجسر الموصل بين إشبيلية وربضها القبلي طريانة ، وقصور البحيرة الواقعة خارج باب جهور بإشبيلية ، والقصور المقامة خارج باب الكحل من أبواب هذه المدينة ، وقنوات المياه المحمولة على القناطر والحنايا من قلعة جابر إلى باب قرمونة من أبواب إشبيلية . وأهم ما قام به أبو يعقوب من أعمال البناء قصبة إشبيلية وجامعها الأكبر ، وقد استحضر لذلك الغرض عـرفاء أهل الأندلس وعرفاء مراكش وفاس وشرع في بنائه في سنة ٥٦٧ هـ ، وتم في ٥٧١ هـ ، ونقلت إليه

(١) القرطاس ، ص ١٢٣

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٠ - الحلل ، ص ١١٨

(٣) المراكشي ، ص ٢١٣

(٤) القرطاس ، ص ١٢٦

(٥) المراكشي ، ص ٢٢٧

(٦) القرطاس ، ص ١٢٧

(٧) المراكشي ، ص ٢٢٦

الخطبة من جامع ابن عدبس في سنة ٥٧٧ هـ (١). أما المنصور فهو أكثر خلفاء الموحدين ولما بالعمارة والبناء ، وقد ضرب الرقم القياسي في بناء المساجد والقصور والتحصينات ، فهو الذي أسس حصن القصرج من إشبيلية بقبابه المشرفة على نهر الوادي الكبير (٢) ، وهو الذي أسس بمراكش البيمارستان الكبير ، وأجرى المياه إلى قاعاته (٣) ، وهو الذي أتم بناء جامع إشبيلية وأقام له الصومعة والتفافيح المركبة على العمود الحديدي بأعلاها في سنة ٥٩٣ هـ ، وهو الذي أتم بناء منار جامع الكتبية بمراكش وقصبة مراكش وجامعها ، ومدينة رباط الفتح من أرض سلا ، وجامع حسان (٤).

وإلى الناصر تنسب الزيادة بجامع الأندلس بفاس (٥) ، وأسوار مدينة فاس التي كان قد هدها جده عبد المؤمن في سنة ٥٤٠ هـ (٦) .

ثم اتجه خلفاء الموحدين الضعفاء في الأندلس بوجه خاص إلى تشييد القلاع والحصون أمام المدفع السريع للاسترداد الإسباني ، فإلى أبي العلاء إدريس ينسب برج الذهب بإشبيلية الذي أمر بتشييده في سنة ١٢٢١ م ، كما ينسب إليه أيضا السور الأمامي المعروف بالحزام البراني أمام أسوار إشبيلية (٧) .

(١) Antuna Melchor, op. cit. p. 130 - 138

(٢) المراكشي ، ص ٢٩٢ - نس ابن عذاري بمقال أوبش ميراندا ، ص ٤٢ - القرطاس ، ص ١٥١

(٣) المراكشي ، ص ٢٨٧

(٤) القرطاس ، ص ١٥١ ، ١٥٢

(٥) القرطاس ، ص ٤٦ - الذخيرة السنية ، ص ٤٠

(٦) القرطاس ، ص ١٢٣

(٧) السيد عبد العزيز سالم ، الممارعة الحربية بالاندلس ، دائرة معارف الشعب ، عدد

٦٤ ، ص ١٥٦ ، ١٥٨

ج - أهم مساجد الموحدين وخصيئناهم في المغرب والاندلس :

١ - جامع الموحدين برباط تازى :

أصبحت تازى منذ قيام دولة الموحدين أهم مركز حربي في القسم الشرقي من المغرب الأقصى ، فقد اتخذها عبد المؤمن بعد أن افتتحها في سنة ٥٢٧ هـ ^(١) قاعدة للحملة التي كان يوجهها إلى المغرب الأوسط الذي كان يحتله المرابطون وبلاد الريف . ولقد حلت تازى لمدة طويلة محل مدينة تينمل التي أصبحت متطرفة بعد أن اتسعت أملاك الموحدين في المغرب ، ولم تعد تشغل إلا الموضع الثاني من الأهمية ^(٢) . ولقد عمل عبد المؤمن على تحصين تازى ، ففي سنة ٥٢٩ هـ أمر ببناء رباط تازى فبنيت ، وحصن سورها ^(٣) . وكانت رباط تازى على حد قول صاحب الاستبصار « مدينة كبيرة في سفح جبل مشرفة على بساطه ، تشقها جداول المياه العذبة ، وعليها سور عظيم وقد بنى بالجير والحصى يبقى مع الدهر ، وهي في فسحة على ٦ أميال ما بين جبال ، ينصب إليها من تلك الجبال مياه كثيرة ، وأنهار تسقى جميع بساتينها في أعلاها وأسفلها ، ولها نظر كبير ، كثير الزرع وجميع الفواكه والخيرات » ، ويذكر صاحب الاستبصار أن هذه المدينة أسست في سنة ٥٦٨ هـ على الطريق المار من بلاد المغرب إلى بلاد المشرق ، وكانت تسمى مكناسة تازى نسبة إلى قبيلة مكناسة ^(٤) .

(١) السلاوى ، الاستبصار ج ٢ ص ١٠٩

(٢) Terresse, la grande mosquée de Taza, paris, 1943, p. 17

(٣) السلاوى ، المرجع السابق ، ص ١١٠

(٤) الاستبصار ، ص ١٨٦ ، ١٨٧

وإلى عبد المؤمن يرجع الفضل في تأسيس جامع تازي الذي يؤلف جزءا من الجامع الحالي ، وكان جامع الموحدين بتازي يشتمل على ٩ بلاطات عمودية على جدار القبلة ، وكان البلاط الأوسط أكثرها اتساعا ، وكان يخترق هذه البلاطات خمسة أساكيب ، الأسكوب الأول المحاذي للقبلة أكثر اتساعا من الأساكيب الأخرى ، وكانت تعلوه ثلاث قباب : واحدة أمام المحراب ، واثنتان في نهاية طرفي هذا الأسكوب . وكانت لصحن الجامع مجنبتان كل منهما تشتمل عن بلاطين هما امتداد لبلاطات بيت الصلاة المتطرفة شرقا وغربا . وكانت المئذنة تقع في الركن الشمالي الشرقي من المسجد . ويشبه تخطيط هذا المسجد تخطيط المسجد الجامع بتينملل كل الشبه ، ويمكننا أن نميز تخطيط المسجد الذي أسسه الموحدون في تازي من مجموع بناء الجامع الحالي من أعلى سطحه ، فإن الأسطح المنشورية التي تعلو بيت الصلاة تقف بعد الأسكوب الرابع ، وعلى هذا فإن الزيادة المربنية بالجامع تشبه في وضعها بالنسبة للمسجد الأول زيادة الحكم المستنصر في جامع قرطبة من حيث استقلالها عن سائر البناء (١) . كذلك تتميز الزيادة المربنية بداخل بيت الصلاة عن البناء الموحدى الأول ، فإن أساكيب هذه الزيادة أكثر اتساعا من الأساكيب الأخرى ، كما أن عقود هذه الزيادة المربنية من النوع المنفوخ المتجاوز ، في حين أن عقود جامع عبد المؤمن من النوع المنفوخ المنكسر الذي يشبه عقود جامع الكتبية بمراكش .

٢ - جامع تينملل :

تعتبر تينملل قاعدة الدعوة الموحدية ، فمنها انطلقت فتوحات الموحدين

في المغرب ، وفيها دفن المهدي وخلفاؤه عبد المؤمن وأبو يعقوب يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصور . ولم تكن تينمال في أيام المهدي تزيد عن كونها قرية كبيرة ، فلما أصبحت مركز دعوة الموحدين ، لم تعد تتسع لحشودهم الكثيرة ، فاضطر المهدي إلى توسيعها وزيادة عمرانها ، وحوطها بالأسوار ، وأسس بها مسجدا جامعا ، في نفس الموضع الذي يقوم عليه الجامع الحالي^(١). والجامع الحالي من بناء عبد المؤمن ، أقامه تقريبا في نفس الوقت الذي أقام فيه جامع الكتبية ، وذلك عند زيارته لقبر المهدي في سنة ٥٤٨ هـ . وفي هذا الجامع الجديد يتجلى مدى التقدم الفني الذي أحرزته الدولة الفتيية في أمد وجيز .

ويقع الجامع في الطرف الغربي من المدينة ، ويغطي مساحة مستطيلة الشكل ، طولها ٤٨ مترا وعرضها ٦٠ مترا . والجامع يتسم بالانسجام والتناسق في تخطيطه ، وفي زخارفه ، فالمحراب يقسم بيت الصلاة إلى قسمين متعادلين في البناء والزخرفة بصورة تظهر لأول مرة في العمارة المغربية^(٢) . وصحن الجامع صغير بالنسبة لمسطح بيت الصلاة ، وتحف به مجنبتان شرقية وغربية ، كل منهما تشتمل على رواقين . وينفتح بجدار المحراب على جانبيه فتحتان ، ويضم بيت الصلاة تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة ، البلاطتان المتطرفتان منها أكثر اتساعا من البلاطات الأخرى ، وتشتمل كل من هذه البلاطات على خمسة صفوف من الدعائم تقسم هذه البلاطات أربعة إلى أساكيب ، ويسبق

(١) H. Terrasse et R. Basset, Sanctuaires et forteresses

almohades, p. 18

Ibid. p. 48 (٢)

المحراب أسكوب فسيح يماثل في اتساعه بلاطة المحراب الوسطى، ويقوم على نقطة تقاطع بلاطة المحراب بأسكوبه قبة، ويعلو الأسطوانتين المتطرفين على أسكوب المحراب قبتان أخرتان، ولا شك أن وضع هذه القباب يختلف عن وضع قباب مساجد المرابطين، التي لم تعرف نظام القبتين اللتين تكتنفان قبة المحراب، وكل ما كانت تعرفه هو قبة المحراب، وأحيانا قباب تتوزع على البلاطة الوسطى.

هذه القباب الثلاثة مكسوة كلها بالمقربصات، ويعتقد الاستاذ مارسيه أن نظام وضع هذه القباب الثلاثة على أسكوب المحراب متأثر بنظام قباب جامع الحاكم بأمر الله بالقاهرة الذي يتضمن حلا مماثلا^(١).

وللمسجد سبعة أبواب: اثنان يفتحان في كل من الجدار الشرقي والجدار الغربي لبيت الصلاة، وواحد في كل من جداري المجنبتين الشرقية والغربية، والباب السابع صغير يفتح في الواجهة الشمالية للمسجد إزاء المحراب، وتتميز أبواب جامع تينملل بأن مداخلها كلها، باستثناء الباب الشمالي، تقع بين كتلتين بارزتين من البناء، وقد يكون هذا النظام متأثرا بنظام أبواب المساجد الفاطمية في المهدية والقاهرة، إذ لا نشاهد له أمثلة في عمائر المرابطين ولا في عمائر الأمويين في الأندلس. ويكتنف المحراب إلى اليمين واليسار بابان ضيقان: أحدهما باب الإمام، والاخر باب المنبر، ويمثل هذان البابان نظائرها في مسجدى الكتبية بمراكش والقرويين بفاس^(٢)، وأصل هذا النظام ابتدع في جامع قرطبة.

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 202

(٢) Basset & Terrasse, Sanctuaires et forteresses, p. 48

ومئذنة تينملل ، من حيث الموقع ، ومن حيث الشكل ، تختلف عن ماذن الموحدين الأخرى ، ولكنها أقرب من حيث زخارف القاعدة إلى مئذنة جامع الكتبية . والمئذنة مستطيلة الشكل $(٩\frac{1}{4} \times ٥\frac{1}{4}$ مترا مربعا) ، وتلتصق بالمحراب من الخارج وترتفع بأعلاه ، بحيث تبدو من الخارج بارزة عن جداره . ويذكر الأستاذ ترأس أن بسلا مئذنة صغيرة ، يبدو أنها ترجع إلى عصر الموحدين ، مستطيلة الشكل ، وترتفع على سطح المسجد بأعلى المحراب ^(١) .

ودعائم بيت الصلاة متنوعة الشكل ، فإن الكتل المربعة تزدان في جوانبها الشمالية والجنوبية بأنصاف أعمدة صغيرة محفورة في الجص ، وسيسود هذا النوع من الدعائم في سائر مساجد الموحدين . وعقود الجامع متنوعة للغاية ، فإن عقود البابين الصغيرين اللذين يحفان بجوفة المحراب ، وكذلك عقود النوافذ نصف دائرية منكسرة من أعلى انكساراً طفيفاً ، أما العقود الفاصلة بين البلاطات ، وعقود المجنبتات المطلة على الصحن ، فمن هذه النوع ، وإن كان انكسارها أكثر حدة ، بحيث تبدو أقرب إلى أن تكون منفوخة مدببة . أما العقود التي تؤلف قاعدة القباب الثلاثة فعقود مفصصة تتداخل في فصوصها مقربصات من النوع الذي تتداخل فيه الخطوط المستقيمة والمنحنيات .

أما محراب الجامع فيعتبر من أجمل المحاريب المغربية في عصر الموحدين ، وفيه تتمثل القيم الجمالية في الزخرفة الإسلامية من التناسق والانسجام في سائر التكوينات الزخرفية ^(٢) . وعقد جوفة المحراب منفوخ منكسر انكساراً

Ibid. p. 51 (١)

Terrasse, et Jean Hainaut, les arts décoratifs au Maroc, (٢)
Paris, 1925, p. 66

طفيفا ، ويحيط به عقد زخرفي مفصص ، وظيفته الإيهام بضخامة المحراب ، ويشغل بنيقتي المحراب قوعتان تمتد منها دوائر تشبه رؤوس المسابح . ويحيط بطرة المحراب إفريز واسع مستطيل الشكل يدور حولها ، تملؤه زخارف هندسية تتناوب فيها مربعات ومستطيلات ذات رؤوس نجمية . ويكتنف هذا الإفريز الزخرفي إطار آخر صغير زخارفه أقل ثراء من زخارف الإفريز المذكور . وتقل الزخارف في جدار المحراب كلما ارتفعنا حتى تصل إلى قاعدة القبة ، ثم تبدأ من جديد تتفتح كالزهرة ، حيث تقوم في الأركان مقربصات رائعة تمتد على جوانب القاعدة ، وعلى جانبي كل من المقربصات الركنية بقاعدة القبة شمسيات عبازة عن شبكات من التوريقات مفرغة في الجص في غاية الروعة والجمال ، تتمثل فيها مراوح نخيلية بسيطة ومزدوجة ، تشبه نظائرها في باب أجناب بمراكش ، وتعتبر هذه الزخرفة عن تأثر كبير بالزخارف الأندلسية ^(١) . أما قباب الجامع فقربصة ، وللأسف لم يتبق منها في حالة جيدة سوى قبة المحراب والقبة الشرقية ^(٢) .

٣ - جامع الكتبية بمراكش :

لما دخل عبد المؤمن بن علي مراكش بقيت ثلاثة أيام لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج ، « وأبى الموحدون دخولها لأن المهدي كان يقول لهم : لا تدخلوها حتى تطهروها ، فسأل الموحدون الفقهاء عن ذلك فقالوا لهم : تبنيوا أتم مسجدا آخر ، فكان ذلك » ^(٣) . فأمر عبد المؤمن ببناء

(١) Terrasse, Sanctuaires, p. 66, 67

(٢) لدراسة هذا المسجد ارجع الى : Terrasse, op. cit. pp. 41-83

(٣) الحلل الموشية ، ص ١٠٨

جامع آخر في قصر الحجر ، وهدم الجامع الذي كان قد بناه علي بن يوسف بأدنى المدينة . فلما أكمل بناءه ، جعل فيه ساباتا يتردد عن طريقه بين القصر والجامع ، ونقل إليه منبرا عظيما كان قد أمر بصنعه في الأندلس من العود والصندل الأحمر والأصفر ، وصفائح من الذهب والفضة ، وأقام للمسجد مقصورة من الخشب لها ست أضلاع تسع أكثر من ألف رجل ، وكان الذي تولى صنع المقصورة والمنبر ، الحاج يعيش المالقى (١) .

ويذكر صاحب الاستبصار أن عبد المؤمن « بنى فيها جامعا عظيما ، ثم زاد فيه مثله أو أكثر في قبلته ، كان قصرا ، ورفع بينها المنار العظيم الذي لم يشيد في الإسلام مثله ، وأكماله ابنه وخليفته أبو يعقوب » (٢) . ونفهم من هذا النص أن عبد المؤمن أقام مسجدين جامعين للكتبية بمراكش ، أحدهما بعد الآخر ، ويغلب على الظن أن الجامع الأول كانت قبلته منحرفة عن الاتجاه الصحيح نحو مكة ، فكانت تميل كثيرا إلى الشرق . فاضطر عبد المؤمن إلى بناء جامع آخر صحيح القبلة إلى الجنوب من الجامع الأول ، وبطبيعة الحال أمر بهدم الجامع الأول فيما بعد ، عندما أتم بناء الجامع الثاني ، وما تزال آثار الجامع الأول ظاهرة ، وزخارف محراب هذا الجامع الأول تشبه كل الشبه زخارف محراب جامع تينملل ، مما يقطع بأن هذه الآثار ليست آثار جامع علي بن يوسف ، الذي أمر عبد المؤمن بهدمه عند دخول الموحدين مراكش .

أما عن تاريخ بناء جامع الكتبية الأول فأغلب الظن أن بناءه تم قبل

(١) المرجع السابق

(٢) الاستبصار ، ص ٢٠٩

بناء جامع تينملل ، عقب دخول الموحدين مدينة مراکش في سنة ٥٤١ هـ ،
فهو بذلك يلي في القدم جامع رباط تازي الذي أسس في سنة ٥٢٩ هـ . أما
الجامع الثاني فهو معاصر تقريبا للجامع تينملل ، يؤكد ذلك ، ما ذكره المقرئ
تفلا عن ابن رشيد الذي يقول : « فبدى به بنائه ، وتأسيس قبلته في العشر
الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وكمل منتصف
شعبان المكرم من العام المذكور على أكمل الوجوه ، وأغرب الصنائع ،
وأفسح المساحة ، وأبعد البناء والنجارة » (١) . كذلك يذكر السلاوي في
هذا التاريخ نفسه (٢) .

أما الصومعة ، فقد شرع في بنائها في عهد عبد المؤمن بن علي ، وأتم
المنصور بناء القسم الأعلى منها ، وهي لذلك النموذج الذي احتذاه بناء
صومعتي إشبيلية والرباط (٣) .

وجامع الكتبية الحالي ضخم المساحة ، وهو مستطيل الشكل ، جانبه
الشمالي المشترك مع الجدار القبلي للجامع الكتبية الأول منحرف إلى الشمال
الشرقي . وتصميم الجامع هو تطور منطقي ومتناسق لتصميم جامع تازي
وتينملل ، فعلى جانبي بلاط المحراب نجد عدداً من البلاطات يعادل ضعف
عدد بلاطات هذين الجامعين ، مع اختلاف يسير هو أن البلاطات الأربعة
الأخيرة من كل جانب منها أقل في الانساع من البلاطات الأربعة الموزعة

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ١٤٥

(٢) السلاوي ، الاستقصا ، ج ٢ ص ١٢٨

(٣) Terrasse et Basset, Sanctuaires, P. 106

على يمين ويسار بلاط المحراب مباشرة (١) . ويعلو أسكوب المحراب خمس قباب : واحدة أمام المحراب ، واثنان على كل من الأسطوان الرابع التالى على يمين أسطوان المحراب ويساره ، على النحو الذى رأيناه فى جامعى تازى وتينملل ، ثم قبتان يعلوان الأسطوانين المتطرفين فى نهاية أسكوب المحراب شرقا وغربا . ويفصل بلاطات الجامع التسعة عن الزيادة الجانبية دعائم مصلبة الشكل ، تحدد تخطيطا لبית الصلاة يماثل تخطيط بيت الصلاة فى الجامعين المذكورين .

وكما تضاعف عدد البلاطات المجاورة لبلاط المحراب ، تضاعف عدد الأساكيب كذلك ، وزاد بذلك اتساع بيت الصلاة . ونلاحظ أن الدعائم التى تحمل القباب الستة بأعلى البلاطة الوسطى ، والقباب الخمسة بأعلى أسكوب المحراب ، والدعائم التى تفصل الصحن وأروقة المجنبتين الشرقية والغربية مما يلي الصحن عن بيت الصلاة ، كلها مصلبة الشكل ، باستثناء الدعائم المتصلة بجدار القبلة فقطاعها مستطيل الشكل . أما الدعائم التى تنتهى بها صفوف البلاطات فأنصاف مصلبة ، فى حين أن الدعائم التى ترتكز عليها عقود المجنبتات الدائرة بالصحن فتتميز بأنها مستننة لها زاويتين قائمتين على جانبي وجهها البارز المطل على الصحن ، شأنها فى ذلك شأن الدعائم المحيطة بصحن جامع تينملل والكتيبة وإشبيلية (٢) . ومع أن معظم عناصر الجامع المعمارية من جدران وقباب مشيدة بقطع الحجارة غير المهذبة ، فإن أبواب الجامع فى الجهة الشرقية مبنية بالآجر ، أما الأبواب الغربية فتختلط فيها قطع الحجارة

Ibid p. 85 (١)

Ibid p. 86 (٢)

بالآجر. وثبت كذلك أن قباب البلاطة الوسطى كلها من الآجر ، بينما شيدت القباب القائمة على أسكوب المحراب بقطع الحجارة . والجدار الشرقى للجامع مشيد بقطع حجرية مصفوفة تصفيفا رائعا ، وينتهى البناء من أعلى بصفوف من الآجر. أما دعائم بيت الصلاة والصحن والعقود فمشيدة بالآجر^(١).

ومئذنة الجامع تلتصّب في الركن الشمالى الشرقى من الجامع ، بين الجامع القديم والجامع الحالى ، وتعتبر هذه المئذنة بحق من روائع فن العمارة الإسلامية على الرغم من بنائها بقطع الحجارة غير المهذبة ، وزخارف المئذنة تختلف من وجه إلى آخر ، وتتحمّ الفتحات والنوافذ التى زودت بها أوجه المئذنة فى توزيع الزخرفة^(٢). ونلاحظ أن هذه الفتحات قد أملاها تدرج السلم الداخلى للمئذنة . وتنوع العقود التى تزدان بها هذه الفتحات تنوعا يشهد بعقريّة الفنانين الذين تولوا بناءها وزخرفتها ، فمن عقود منفوخة إلى عقود مفصصة إلى عقود مقربصة ، إلى عقود تتقاطع فيما بينها مؤلفة فى بيت المؤذن شبكة من المعينات تشبه نظائرها فى مآذن مساجد القصبة والرباط وإشبيلية. ويبلغ ارتفاع المئذنة ١٧ ١/٢ مترا حتى أعلى التفافيح الثلاثة المتوجة لقبتها (ذكر ابن سعيد أن ارتفاعها بلغ ١١٠ ذراعا) ^(٣) ، وطول كل جانب منها ١٢ ١/٢ مترا ، ولقد قام الأستاذان تراس وباسيه بدراسة هذه المئذنة دراسة وافية شاملة ^(٤).

(١) Terrasse, Sanctuaires, pp. 87 - 90

(٢) Marçais, l'architecture musulmane, p. 244

(٣) المرقى ، ج ٢ ص ٩٩

(٤) Terrasse, op. cit. pp. 107 - 182

٤ - جامع القصبة بمراكش :

قبل أن يعبر المنصور المجاز إلى الأندلس، في غزوته المعروفة بالأرك، كان قد أمر ببناء قصبة مراكش والجامع الواقع بازائها وصومعته . فلما عاد من غزوته مظفرا منصورا في سنة ٥٩٤ هـ وجد كل ما أصربه من البناء قد تم (١). وتصميم جامع القصبة بمراكش غريب الشكل ، فصحنه عظيم الاتساع بالنسبة لبيت الصلاة الذي يضم ١١ بلاطة عمودية على جدار القبلة ، تخرقها ثلاثة أساكيب ، ويقوم على أسكوب المحراب ثلاث قباب ، واحدة أمام المحراب، والاخرتان على الأسطوانتين المتطرفتين منه ، ويدور حول الصحن رواق في سعة بلاطة ، ويختلف هذا المسجد عن غيره من مساجد الموحدين في أنه يحف بصحنه إلى اليمين واليسار صحنان آخران يفصلها بلاط مواز لجدار القبلة ، فيصبح حول الصحن الكبير أربعة صحنون صغيرة ، تتوسطها فسقيات مستديرة مفصصة (٢) . ومحراب الجامع يقوم على عضادتين ، ترتكز كل منها على عمودين ، وجوفه المحراب تعلوها قبوة مقربصة ، جدد الأشراف السعديون بنائها . ومئذنة الجامع ليست في كبر صومعة الكتبية ، وتزدان الصومعة ابتداء من ارتفاع السطح بشبكة زخرفية من الفصوص المتقاطعة ، مؤلفة شبكة رائعة من زهرة الزنبق ، وينتهي الجزء الأعلى من الصومعة بأفريز عظيم من الزليج ، ويعلو المئذنة بيت للمؤذن تسقفه قبة مفصصة (٣) .

(١) القرطاس ، ص ١٥١ ، ١٥٢ . ويذكر صاحب الاستبصار أن المنصور هو الذي

مر ببناء هذه القصبة بكل مراقبها في أول عام ٥٨٥ هـ (الاستبصار ، ص ٢١٠)

(٢) Terrasse, op, cit. p. 278

(٣) Terrasse et Basset, Sanctuaires, pp. 294 - 310

٥ - جامع حسان بالرباط:

ذكر المراكشي أن المنصور شرع في بنيان مسجد عظيم بالرباط « كبير المساحة ، واسع الفناء جدا ، لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه ، وعمل له منذنة في نهاية العلو ، على هيئة منار الاسكندرية ، يصعد فيه بغير درج ، تصعد الدواب بالطين والآجر والجص وجميع ما يحتاج إليه إلى أعلاها ، ولم يتم هذا المسجد إلى اليوم لأن العمل ارتفع عنه بموت أبي يوسف^(١) . وكانت دولة الموحدين بعد انتصارهم في الأرك قد بلغت ذروة قوتها وعظمتها ، وكان من الطبيعي أن يعتز بطل الأرك بانتصاره ، ويكتب عنه بلغة العمران والبناء ، وجامع حسان بالرباط ، بمساحته الهائلة (١٨٠ × ١٤٠ م) يعبر لنا عن هذا الاتجاه نحو العظمة ، والإسراف في التفتيح .

وتخطيط جامع حسان غريب عن تخطيط المساجد الإسلامية الجامعة بوجه عام ، فبيت الصلاة فيه يتألف من قسمين : قسم أمامي يشتمل على ٢١ بلاطة عمودية على جدار القبلة ، البلاطة الوسطى والبلاطتان المتطرفتان منها أكثر اتساعا من البلاطات الأخرى ، ويخترق هذه البلاطات عرضا سبعة أساكيب موازية لجدار القبلة . ثم يتعقد التخطيط بعد ذلك تعقيدا شديدا ، فإن البلاطات الإحدى عشر الوسطى تمتد جنوبا على ١١ أسكوبا ، ويكتنف هذه البلاطات شرقا وغربا صحنان مستطيل الشكل ، وإلى الشرق وإلى الغرب من هذين الصحنين بلاطتان تمتدان بطول البلاطات الأخرى . أما القسم الثاني فيشتمل على ثلاثة أساكيب ممتدة بعرض المسجد كله بحذاء جدار القبلة . ونلاحظ أن الأعمدة في الأساكيب الثلاثة والبلاطين

(١) المراكشي ، ص ٢٢٦

المتطرفتين في بيت الصلاة ، تزيد في الارتفاع عن أعمدة البلاطات الأخرى في بقية أجزاء المسجد ، وليس في إمكاننا تعليل هذه الظاهرة بسبب حالة التخریب التي يتسم بها الجامع في الوقت الحاضر ^(١) . ومئذنة الجامع لم تصل إلینا كاملة ، فارتفاعها الحالي يصل إلى ٤٤ مترا ، وهي مشيدة بالحجر المصقول ، ويدور حول مركز المئذنة من الداخل طريق منحدر ، عرضه متران ، على نحو ما هو متبع في مئذنتي جامع إشبيلية ، وجامع الكتبية بمراكش ، ويشتمل مركز المئذنة من الداخل على غرف موزعة على طوابق ستة كما هو الحال في جامع الكتبية بمراكش ، ويعلو هذه الغرف قبوات مختلفة الأشكال ، منها القبوة المقربصة والقبوة المضلعة والقبوة نصف الكروية .

٦ - جامع الأندلس بفاس :

هذا الجامع شرع في بنائه سنة ٢٤٥ هـ من أموال مريم بنت محمد الفهري ، في نفس العام الذي بنى فيه جامع القرويين ، وقد سمي بجامع الأندلس ، لأنه أقیم في عدوة الأندلسيين ، ولأنه المسجد الجامع في هذه العدوة ، وإنما لأن جماعة من أهل الأندلس ، كانوا يعيشون حوله ، ساهموا في بنائه ^(٢) . وقد ظل جامع الأندلس كما هو منذ بنائه إلى أن رفعت الخطبة من جامع الأشياخ ، وانتقلت إليه في عام ٣٢١ هـ بأمر حامد بن حمدان وإلى فاس من قبل عبيد الله المهدي ، وقد أفاد هذا الجامع من النزاع السياسي بين الفاطميين بالمهدية ، وبين الأمويين في سبتة ، ويتجلى هذا النزاع في المنبر الذي وصل إلینا من هذا العصر وعليه نقشان كتابيان يسجلان

(١) Marçais, l'architecture, p. 209

(٢) الجزنائي ، ص ٨١

تاريخين مختلفين ، ولكنها متقاربان . وفي جمادى الأولى سنة ٤٣٥ هـ ، زود هذا الجامع مثل قرينه جامع القرويين بمئذنة مربعة الشكل هي التي نشاهدها اليوم ، ولكن هذه المئذنة تبدو أقل ثراء من مئذنة القرويين واقد زاد أبو العباس أحمد بن أبي بكر الزناتى والى فاس بجامع الاندلس زيادة كبيرة ، فأصبح يتألف من ست بلاطات تتجه من الشرق إلى الغرب ، وكانت عقود هذه البلاطات تقوم على أعمدة من حجر الكذان^(١) ، وقد استبدلت بهذه الأعمدة الحجرية دعائم من الآجر في الزيادة الأخيرة التي قام بها الخليفة محمد الناصر الموحدى في سنة ٦٠٠ هـ .

ويذكر الجزناى أن المسجد ظل على حالته منذ أعمال أحمد بن أبي بكر الزناتى فيه ، إلى أيام الخليفة محمد الناصر ، رابع خلفاء الموحدين^(٢) ، فلم يضاف إليه على بن يوسف أى إضافة لسببين : الأول أنه كان يود أن يفض المنافسة التقليدية بين هذين الجامعين ، بانتصاره لجامع القرويين ، خاصة وأن عدوة القرويين كانت قد تفوقت همراةا على عدوة الاندلس . والسبب الثانى كما يذكره الأستاذ تراس ، هو أن تعادل ميزان هذين الجامعين كان مضادا لسياسة المرابطين الدينية ، التي كانت تدعو إلى عدم تعدد الصلاة الجامعة فى مصر واحد يوم الجمعة ، وهذا يفسر قيام يوسف بن تاشفين بهدم الأسوار الماصلة بين العدوتين ، وردهما إلى مصر واحد^(٣) . وهكذا يمضى عصر المرابطين دون أن يحظى جامع الاندلس باهتمام أولى الأمر منهم ،

(١) البكرى ، ص ١١٦

(٢) الجزناى ، ص ٨١

(٣) Terrasse, la Mosquée des Andalous à Fes, t. I, Paris 1942

ويفتح عبد المؤمن بن علي مدينة فاس في سنة ٥٤٠ هـ ، فيأمر بهدم أجزاء من سورها (١) ، ويختار مدينة مراکش حاضرة لدولته ، ويمر النصف الأول من عصر الموحدين دون أن يعنى أحد من خلفاء الموحدين بهذا الجامع ، فلما تولى محمد الناصر الخلافة بعد أبيه المنصور ، زار مدينة فاس ، وأقام فيها بعض الوقت ، وتولى في أثناء إقامته إعادة بناء أسوار المدينة الحالية ، كما أعاد بناء جامع الأندلس كله ، ولم يترك من الجامع القديم سوى المئذنة الأموية والمنبر ، وحتى هذا المنبر نفسه لم يستثن من أعمال الترميم ، فلقد كسا الناصر كتفيه بجانبيين جديدين ، ويقول ابن أبي زرع ، في بيان أعمال هذا الخليفة : « وأما جامع عدوة الأندلس ، فلم يزل على ما بنى عليه أولا ، ولم يزد فيه أحد زيادة إلى سنة ستائة ، فأمر أمير المؤمنين أبو عبد الله الناصر ببنائه وإصلاحه وتجديد ما تهدم منه ، وأمر بفتح الباب الكبير الجوفي المدرج الذي بصحنه ، وجعل بأسفله بيعة من رخام أحمر ، وأمر بعمل السقاية والميضآت » (٢) . ويحدثنا الجزنائي في شيء من التفصيل عن الباب الجوفي الكبير ، وعن البيعة التي أقامها الناصر بجوار هذا الباب ، وعن الباب الذي فتحه إلى مقصورة النساء ، وعن القبة المقربصة التي تعلوه ، وعن المصرية (٣) التي أقامها بأعلى هذا الباب لأممة المسجد ، وعن دار الضوء التي بناها على الجانب الآخر من الطريق المقابل للباب الكبير (٤) ، ولكنه لم يحدثنا عن تفاصيل ما أجراه

(١) القرطاس ، ص ١٢٣

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٦

(٣) المصرية غرفة مطلة على الشارع بأعلى البناء ، وهذه المصرية المشار إليها تخربت في

عصر متأخر

(٤) الجزنائي ، ص ٨١ ، ٨٢

الناصر في بيت الصلاة من تغيير . ويعتقد الاندلسيون أن بيت صلاة هذا الجامع قد بنى من جديد على يدى هذا الخليفة . ومواد البناء التى استعملت فى بنائه فقيرة للغاية ، فأغلب جدران الجامع مبنية من الطابية ، أما الدعائم والعقود وعضادات الأبواب فكلها من الآجر ، وقد رمم هذا الجامع بعد ذلك وأضيفت إليه إضافات ثانوية فى عصر بنى مرين .

وتخطيط جامع الاندلس يوهم بأنه من بناء المرابطين ، إذ أن من يرى بلاطاته بعقودها ودعائمها لا يخطر بباله قط أنها من بناء الموحدين ، فالتصميم غير متناسق ، والبناء غير منتظم الشكل ، وبلاطات الجامع غير عمودية على جدار القبلة كمساجد الموحدين ، وأسقفه غير متناسقة ، ولا تقوم على بلاطته الوسطى قباب مقربصة كمساجد الموحدين . ولاشئ يربط جامع الاندلسيين بهذه المساجد إلا نسبة الصحن بالنسبة لمسطح بيت الصلاة ، فانها تخضع إلى حرما للقاعدة التى تسير عليها مساجد الموحدين بمراكش وتينملل .

ويتألف بيت الصلاة من سبعة بلاطات عرضية تمتد من الشرق إلى الغرب بحذاء جدار القبلة على خمسة عشر عقدا ، فى كل بلاط : ويخترق هذه البلاطات جميعا بلاطة وسطى ، مثلها ارتفاعا ، ولكنها تزيد عنها اتساعا ، بعكس نظيرتها فى جامع القرويين . وعلى الرغم من انعدام روح التناسق فى تخطيط الجامع ، فانه لا يخلو من أصالة معمارية تتجلى بأوضح صورة فى الباب الشمالى للجامع ، وهو الباب الذى فتحة الخليفة الناصر الموحدى ، ويشف بناء هذا الباب عن براعة هندسية ، وجذق فى الزخرفة ، فهو يفوق فى ارتفاعه أسقف الجامع ، ويطل على منظر خارجى فى غاية الروعة والجمال . وقد نجح مهندس هذا الباب فى الجمع بين العمارة والمنظر الطبيعى ، وهى نفس

الطريقة التي اتبعها مهندسو قصر الحمراء بغرناطة فيما بعد ، ونجحوا في تطبيقها في قصور بني نصر كلها . ويبدو هذا الباب من عدوة القرويين كقوس نصر فخمة ، تتضاءل بجانبه مثذنة الجامع مع ارتفاعها عنه (١) .

وعقود بيت الصلاة كلها متجاوزة منكسرة ماعدا عقود بلاطة المحراب ، المتجاوزة على هيئة حدوة الفرس ، وتتكىء هذه العقود على مناكب بسيطة تخرج دعائم أكثر ارتفاعا من العقود ، ويحيط بالعقود طرر مستطيلة بارزة . أما العقود المتجاوزة بالبلاط الأوسط ، فأكثر تجاوزا من عقود جامع قرطبة ، وتتكىء على دعائم قطاعها يشبه زهرة ذات أربع ورقات نصف دائرية ، وهو طراز من الدعائم كان شائعا في العمار المسيحية بإسبانيا . وصحن الجامع شبه منحرف ، تتوسطه خصة مقصصة من الرخام الأبيض ، تحيط بها فسقية مربعة ، مزينة بالفسيفساء ، وتدور حول هذه الفسقية قناة رفيعة . وعقود مجنبيات الصحن غير متساوية الارتفاع والاتساع ، ويتوسط المجنبة الشمالية عقد خشبي منقوش ، يحمل ظلة (رفر) خشبية قائمة على كوابيل خشبية ، ويسود المجموع طابع أندلسي خالص (٢) :

٧ - جامع القصبة الكبير بإشبيلية:

لم يبق من مساجد الموحدين الجامعة في الأندلس سوى آثار المسجد الجامع بقصبة إشبيلية ، وهو الجامع الذي أمر ببنائه الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في سنة ٥٦٧ هـ ، وشرع في بنائه في رمضان من هذه

(١) Terrasse, la mosquée des Andalous à Fes

(٢) Ibid. - السيد عبد العزيز مالم، بيوت الله مساجد ومعاقد ، ج ٢ ص ١٨٦-١٩٧

السنة ، فهدمت الديار في داخل القصبة لذلك الغرض، وحضر شيخ العرفاء أحمد بن باسة وأصحابه العرفاء البناؤون من أهل إشبيلية وجميع عرفاء أهل الأندلس ، مع من قدم من عرفاء البنائين بمراكش وفاس والعدوة (١). وهذا يوضح لنا كيف أن بناء الجامع وزخارفه قد جمعا بين بساطة الفن الموحدى وبين الغلو الزخرفى الذى اتسم به الفن الأندلسى ، فأسس الجامع من الماء بالآجر والجيار والجص والأحجار ، وامتدت أسس الدعائم فى جوف الأرض . واستمر بناء الجامع حتى كمل بالتسقيف، وأصبح يقارب فى الانساع جامع قرطبة . وكان جامع إشبيلية مثل جامع الكتبية بمراكش يضم ١٧ بلاطة تتجه من الشمال إلى الجنوب ، وتتسع هذه البلاطات لأربعة عشر أسكوبا ، كل بلاطة يصل عرضها إلى ٤٠ مترًا . أما البلاطة الوسطى المؤدية إلى المحراب فيبلغ عرضها ٧٢٠ مترًا . كذلك كان أسكوب المحراب فى مثل انساع البلاطة الوسطى (٢) . ومن المرجح أن عقود جامع إشبيلية كانت تستند على دعائم أو أرجل من الآجر على نفس صورة دعائم الصحن . أما العقود فكانت متجاوزة منكسرة انكسارًا طفيفًا ، وكانت مخارجها تنطلق من مناكب الدعائم كما يتجلى ذلك فى عقود الصحن . وكانت أسقف بلاطات بيت الصلاة هياكل هرمية تقوم على سماوات مسطحة بين جوائز السقف ، ويغلب على الظن أن قبابا ثلاثة كانت تقوم فوق الأساطين الثلاثة الناشئة من تقاطع البلاطات الثلاثة الواسعة بأسكوب المحراب ، وكانت هذه القباب مربعة كما فى جامع

(١) Antuna Melchor, Sevilla y sus monumentos arabes, p. 134

(٢) Elsayed Abdel Aziz Salem, l'Architecture à Seville sous les

Almohades, Thèse du Doctorat ès-Lettres, présentée à l'Université de Paris en 1957 (sous presse)

الكتيبة بمراكش استنادا على القبوة المقربصة القائمة اليوم بالمدخل الشرق للصحن ، واستنتاجا من قول ابن صاصب الصلاة : « واهتبل العرفاء ، واستغرقوا ، وتحذقوا في بناء القبة التي على محرابه أعظم الاهتبال في العمل بصنعة الجبس »^(١) ، أو كانت على النحو الذي نشاهده في مقصورة سان فرناندو بجامع قرطبة ، كما يرجح الأستاذ توريس بلباس^(٢) ، واستنادا على قول ابن صاحب الصلاة : « وعقد الأقواس منه بالأقباء »^(٣) . وكان يحف بالمحراب إلى اليمين باب معقود يؤدي إلى قبو كان يحفظ فيه المنبر ، وإلى اليسار باب آخر معقود للسباط الموصل إلى القصر^(٤) . وكان يدعم الجدران الخارجية ركائز ضخمة للدفع ، تماثل ما نشاهده منها اليوم في الجدار الشمالي للجامع . وكانت تفتح في جدران الجامع الخارجية ثلاثة أبواب تؤدي إلى مجنبتات الصحن : واحد في امتداد محور بيت الصلاة يعرف اليوم بباب الغفران Puerta del Pardon ، وبابان آخران في المجنبتين الشرقية والغربية ، تبقى منها اليوم الباب الشرقي فقط ، وهو باب يليه أسطوان تعلوه قبوة مقربصة من نفس طراز قبوات جامع الكتيبة بمراكش^(٥) ، وبطل على الصحن بوائك من عقود آجرية منفوخة منكسرة ، ويحيط بها عقود أخرى

(١) Antuna Melchor, op. cit. p. 135

(٢) Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, p. 168 - Torres

Balbas, la Mezquita de Cordoba y las ruinas de Madinat al-Zahra
Madrid, 1952, p. 106

(٣) Antuna, Melchor, p. 136

Ibid. p. 135

(٥) عبد العزيز سالم ، المصاحد والنصور بالاندلس ، القاهرة ١٩٥٨

بارزة ، من أرجل العقود إلى رؤوسها الأمر الذي يكسب دعائمها شكلا مصليا .

وما حفظ من زخارف جامع إشبيلية قليل ، ومع ذلك فهو بالغ الأهمية إذ يكشف عن اتجاه الزخرفة الأندلسية المغربية في عصر الموحدين ، ويقتصر على بعض الزخارف المحفورة في الجص بباطن العقد الداخلى لباب الغفران ، والعقد الكبير المطل على الصحن في امتداد هذا الباب . وزخارف عقد هذا المدخل قوامها أشرطة بارزة ترسم فيها مستطيلات ومربعات قائمة على رؤوسها ، وهى طريقة بزنطية الأصل لما نظاثرها بجامع قرطبة ومدينة الزهراء . أما الشريط الأوسط من زخارف هذا العقد فيتألف من مراوح النخيل الملساء التى تنحدر من السيقان ، تطوقها خطوط محزوزة ، وأطرافها تنحدر فى تجمعات ، وتتلاحم فى تناسق وإيقاع . وترسم فى بعضها خطوط لولبية محزوزة ، وقد حفررت التوريبات على طبقتين ، مما يضفى عليها نوعا من التباين الشديد بين الظلمة والضوء ، وقد سمي الأستاذ مارسيه هذا اللون من الزخرفة باسم الزخرفة الكثيفة « decor compact » (١) ، وتشبه إلى حد كبير زخرفة محراب جامع توزر بأفريقية ، وهو مسجد ينحدر فى سلك الفن الأندلسي ، ويعاصر المسجد الجامع بإشبيلية ، إذ بنى فى سنة ٥٦٠ هـ .

أما صومعة الجامع المعروفة اليوم باسم لاخير لدا La Giralda ، فقد تم بناؤها بعد انتصار الموحدين فى موقعة الأرك ، وارتفعت فى رشاقة ، مشرفة على فحوص إشبيلية وما يحيط بها من المنطقة المعروفة باسم الشرف . وقد

كانت تتألف من طابقين : الأول وهو الجزء الأعظم منها ينتهى بالإفريز الأفقى الذى تعلوه فتحات النواقيس ، والثانى برج صغير الحجم يعلو البرج الأدنى فى امتداد نواته الداخلية . وكانت تعلو هذا الطابق بدوره قبيبة مخرمة يتوجها سفود بارز ، ركبت فيه تفافيسح أربعة تتدرج فى الصغر كلما ارتفعت ، فتتناسق تماما مع القبيبة ، وتفصح عن إيقاع وتناسق ، تؤكد رشاقة المئذنة وسموها ، وتدعم اتجاهها التصاعدي الذى يزداد قوة بالتقسيمات الثلاثية الرأسية لزخرفة المعينات . وتتألف هذه المعينات من ثلاث شبكات تقوم كل منها على ثلاثة عقود . وقاعدة الصومعة مربعة الشكل ، طول كل جانب منها ١٣ر٦٥ مترا ، بداخله نواة مربعة الشكل ، يبلغ طول الجانب منها ٦ر٢٥ مترا ، يدور حولها طريق منحدر صاعد مؤلف من ٣٥ مقطع ، وتعلو قبوات متقاطعة صغيرة متصلة ، خمسة منها فى كل مقطع ، وتشغل النواة الداخلية للبرج سبع غرف ، مربعة الشكل . وزخارف الجيرالدا تعبر عن فن يختلف عن فنون المغرب المعاصرة له ، فقد أثرت عناصر أندلسية وفدت عليها من قرطبة وسرقسطة والمرية ومالقة (١) .

ب - المنشآت الحربية :

١ - أسوار المدن :

كانت الأسوار الأولى التى أسسها الموحدون فى بعض مدن المغرب مثل رباط تازى وتينملل ما تزال تخضع من حيث طريقة البناء والأسلوب للنظام الذى كان سائدا فى عصر المرابطين ، فالسور الغربى من تازى يتألف من

(١) ارجع الى مقالى : لآخر الدا باشبيلية ، المجلة ، العدد التاسع ١٩٥٧

صنوف مبنية من قطع حجرية ضخمة غير مهذبة القطع ، تنخللها قطع من الحجارة مسطحة ، هذا النظام يشبه نظام البناء في قلعة آمرجو . ونلاحظ أن عرض السور في العادة يبلغ ١٩٠ مترا ، وعرض ممشاه الأعلى ١٣٠ مترا ، وترتكز عليه أبراج مستطيلة الشكل تبرز عنه بنحو ثلاثة أمتار ، ويصل طولها إلى خمسة أمتار تقريبا . وهذا السور يتوج حافة أخدود عميق . وينتصب في الزاوية الجنوبية الغربية برج أسطوانى الشكل مرتفع ، تضيق جدرانها قليلا كلما ارتفع (١) . ويتغير نظام البناء في الواجهة الجنوبية من السور ، فيصبح من الطابية ، ويمتد بحذاء هذا السور من أدناه خندق منقور في الصخر . ويعتقد الأستاذ تراس أن هذا السور متأخر عن البناء الحجرى ، ويرجح أنه من عصر بنى مرين ، ويرى أن الجزء الباقي من أسوار الموحدين لا يعدو الواجهة الغربية من باب الربيع حتى البرج . أما الأسوار الأمامية في السور الغربى الموحدى ، وفي السور الشرقى فترجع إلى عصر بنى مرين (٢) .

أما سور مدينة تينمل ، فالمعروف أنه من إنشاء المهدي ابن تومرت ، ولكن عبد المؤمن أعاد بناءه وجدهه ووسع المدينة في سنة ٥٤٨ هـ (٣) . ولم تكن المدينة تحتاج إلى نظام دفاعى معقد إذ أن أطرافها كانت مزودة بتحصينات طبيعية رهيبة ، فهي تقوم على الضفة اليسرى من وادى نفيس ، عند مدخل السهل الأعلى ، وفي موضع يضيق فيه هذا السهل للغاية ، ثم إنها

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 221, 222

(٢) Terrasse, la grande Mosquée de Taza, p. 17, Note 2, p. 19, Note 1

(٣) القرطاس ، ص ١٢٦

تستند من الشمال على الجبل، ومن الجنوب على الوادى الذى تنتصب فى ضفته
المقابلة أجراء متوعدة شديدة الانحدار ، ولذلك فانها لم تزود فى هذه
الناحية بأسوار . ولم يتبق من أسوار تينملل اليوم سوى آثار قليلة ، ومن
هذه الآثار استطعنا أن نلم بتخطيط أسوارها ، فقد كانت هذه الأسوار
مستقيمة، وكانت ترتكز عليها أبراج بين كل ثلاثين أو خمسة وثلاثين مترا .
هذا السور مبنى حتى ارتفاع قامة من قطع الحجارة غير المهذبة ، أما بقية
السور من أعلى فمن الطابية (١) . وينفتح فى سور تينملل باب واحد مرتفع ،
ينحني فى شكل المرفق ، والباب مثل باب قلعة آمرجو عـده من الأجر
منفوخ ، ويكتنفه من الجانبين بدنتان بارزتان من الحجارة .

* * *

ثم أخذ بناء الأسوار فى عصر الموحدين يتجه نحو البناء بالطابية ، وهى
طريقة عرفت بها الأندلس منذ القرن الرابع الهجرى ، وكانت هذه الطريقة
معروفة فى المغرب أيضا قبل عصر الموحدين ، ولكن إذا كانت بعض المناطق
الجنوبية من المغرب قد اعتادت منذ عهد بعيد البناء بالتراب ، فإن استخدام
الطابية القوية التى تدخل فيها الجيار والنورة كان يعتبر من طرق البناء التى
نقلت إلى المغرب من بلاد الأندلس (٢) . ولكن البناء بالطابية لم يتم دون
مقدمات ، فإن رباط تيط الذى بناه مولاى عبدالله من أسرة إسماعيل الأمغار
للجهادين ، ويقع على ساحل المحيط الأطلسى ، على بعد نحو ١٢ كم :
جنوب غربى الصويرة (٣) ، قد زود بأسوار تجمع بين طريقتى البناء

(١) Terrasse, sanctuaires et forteresses, p. 38

(٢) Terrasse, l'arth ispano-mauresque p. 292

(٣) يبدو أنه أقيم فى منتصف القرن السادس الهجرى ، للتصدى لغزوات النصارى =

المذكورتين . فالأسوار من الطابية تقوم على قواعد من الحجر ، بينما أقيمت الأبراج جميعا من الحجر . ويمتاز رباط تيط بوجود أسوار أمامية وبرج براني مضمن الشكل قائم على البحر ، يتصل بالسور الرئيسي للرباط عن طريق ستارة من البناء ، والبرج مع كونه مضمن الشكل ، إلا أنه يقوم على قاعدة نصف كروية (١) . وينفتح في السور ثلاثة أبواب ، جدرانها مكسوة بلوحات من الحجر المصقول: منها بابان يتقدمها سور أمامي ، والباب الثالث يتبع في مدخله طريقة المرفق .

أما في مراکش فأسوار المدينة كلها من الطابية ، وفي الرباط يسود البناء بالطابية باستثناء واجهة الأبواب التي أقيمت من الحجر . وفي فاس أقيمت الأسوار الموحدية في عصر محمد الناصر من الطابية . ونلاحظ أن الطابية التي كان يستخدمها الموحدون في الأسوار تتميز بصلابتها الشديدة .

٢ - الأبواب ذات المرافق :

تعتبر أبواب المدن من التحصينات الهامة في عصر الموحدين ، فقد كانت الأبواب القديمة تتبع النظام البيزنطي وقوامه عقدان متقابلان أحدهما يفتح إلى داخل المدينة ، والآخر يفتح إلى خارجها ، ولكن المرابطون ابتدعوا نوعا آخر من الأبواب ، وهي الأبواب ذات المرافق ، ونعني بذلك أن المرء الواصل بين فتحتي الباب ينحني بزاوية قائمة في شكل المرفق ، ويمتاز

على الساحل المغربي . وكانت تيط قبل ذلك مركزا للجهاد ضد برغواطة المراطة حتى أيام عبد المؤمن (أنظر البيدق ، ص ١١١) ولكن بناء هذا الرباط أقاموه لحراسة البحر خوفا من نزول النصارى بهذا الجزء من الساحل .

(١) - Terrasse, Sanctuaires et forteresses almohades, p. 349

Marçais, l'architecture, p. 222

هذا النظام بأنه يضع العراقيل والعقبات وراء انحناء الممر أمام المهاجمين، وقد عقد الموحدون من هذا النظام، إذ أنشأوا أبوابا ذات مرفقين وأخرى ذات ثلاثة مرافق، ولم يسقفوا أجزاء من الممرات الواقعة بين مداخل الأبواب ومخارجها حتى يساعد ذلك المدافعين على قذف المهاجمين بالنبال أو النار الإغريقية^(١).

ومن بين أبواب الموحدين ذات القيمة الدفاعية الكبرى سواء من حيث التصميم أو الزخرفة باب الرواح بمدينة رباط الفتح التي اختطها أبو يعقوب يوسف على المحيط الأطلسى، وأكملها المنصور، ولا يفصلها عن سلا العتيقة سوى وادي الرمان^(٢)، وهو الوادي المعروف الآن ببورجرج. هذا الباب مبنى من قطع حجرية متوسطة الحجم، منتظمة الشكل، ويؤلف الباب نظاما دفاعيا شديدا الإنقان، إذ يكتنفه برجان مربعان يحميان مدخله، ويقصرا الدخول إلى المدينة على ممر ذي مرفقين. وعندما يجتاز المرء هذا المدخل قادمًا من خارج المدينة، يصل إلى الأسطوان الأول، وهو دهليز مربع الشكل تعلوه قبة مضلعة قائمة على جوفات مقببة بأنصاف قبوات متعارضة، ويتصل بهذا الدهليز المربع دهليز ثانى مربع الشكل أيضا، تعلوه قبة نصف كروية، ويؤدي هذا الدهليز بدوره عن طريق ممر إلى دهليز ثالث، مكشوف من أعلى، يتعرض عنده المهاجمون لقذائف المدافعين بأعلى سطح الباب، ويتصل هذا الدهليز الثالث بدلهليز رابع، تعلوه قبة نصف

(١) السيد عبد العزيز سالم، وسائل الدفاع الإسلامى فى العصور الوسطى، مجلة الجيش

عدد ٨٢، ١٩٥٨ — المساجد والقصور بالاندلس، ص ٤٣

(٢) المراكشى، ص ٣٥٩

كروية ، ينتهى منها الداخل الى المدينة (١). وكان يتعين لإقامة هذه الأبواب ذات المرافق المزدوجة زيادة سمك البناء (٢) .

وكان يقوم فيما بين مصب وادى بورجرج والبحر رباط قديم كانت مهمته محاربة برغواطية ، ثم تحول عند بناء مدينة الرباط إلى قصبة سميت بـقصبة الودايا نسبة إلى عرب ودى وهم بطن من بنى المعقل الهلاليين ، وكان السلطان مولاي أبو النصر اسماعيل العلوي (١٠٨٣ - ١١٣٦ هـ / ١٦٧٢ - ١٧٢٧ م) قد استخدم من الودايا العرب فرقة في جيشه (٣) ، وهذه القصبة تعد من أروع أمثلة القلاع الحربية في المغرب الاسلامي . وأهم ما تبقى منها باب يعرف باسم باب قلعة الودايا ، وهو باب من الحجر المصقول . ومدخل الباب يكتنفه بدنتان صغيرتان ، وعقد المدخل منفوخ منكسر ، يوجه عقد زخرفي مفصص ، قد تجاوز نصف الدائرة تجاوزا قليلا ، وتتناوب فيه فصوص صغيرة مدببة الرؤوس ، وأخرى نصف دائرية ، وتزينه شبكة زخرفية من معينات متصلة ، وتزدان بنقشاته بتوريقات رائعة تتوسطها في كل بنقشة محارة زخرفية في غاية الجمال . وعندما يجتاز المرء مدخل هذا الباب ، يصل إلى عرطويل من ثلاث غرف مربعة الشكل ، متصلة فيما بينها ، تعلو الغرفة الأولى منها قبة على جوفات مقوسة ، والثانية تعلوها قبة على جوفات مثلثة ، والثالثة تعلوها قبة نصف أسطوانية ، وعلى الجانب الأيمن من كل من الغرفتين الثانية والثالثة ، يفتح باب معقود بعقد متجاوز منكسر ،

(١) Marçais, l'architecture p. 223

(٢) Terrasse, l'art hispano-mauresque, p. 295

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الاسلامي ج ٢ ص ١٨٨ ، ١٨٩

ويؤدي كل من هذين البابين إلى داخل قلعة الودايا (١).

وبقصة مراکش باب يسمى بباب أجناو ، ومظهر هذا الباب من الخارج رائع للغاية ، وهو يشبه إلى حد ما في زخارفه باب الودايا المذكور ، ولكنه فقد بدنتيه .

(١) Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, p. 223

خاتمة

ورثة الموحدين في المغرب

- ا - بنو مرين في المغرب الأقصى
- ب - بنو عبد الواد في المغرب الأوسط
- ج - بنو حفص في المغرب الأدنى

خاتمة

ورثة الموحدين في المغرب

شهد المغرب الإسلامي في القرن السابع الهجري انقساما سياسيا جديدا إلى ثلاثة دول بربرية مستقلة، وبذلك كرنا هذا الانقسام بنظيره في القرن الثاني الهجري، ويرجع سبب قيام هذه الدول إلى انهيار دولة الموحدين، فقد استغل بنو حفص المصامدة، ولالة إفريقية في عصر الموحدين فرصة احتضار هذه الدولة، وأعلنوا استقلالهم عنها في أيام أبي زكريا الحفصي، واعترف بسلطته أهل طنجة وسبتة وبعض مدن الأندلس، بينما اقتسم بنو مرين وبنو عبد الواد الزناتيين بقية بلاد المغرب فيما بينهم، فاختص بنو مرين بالمغرب الأقصى، بينما استقل بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط. وتم انفصال المغربين الأدنى والأوسط عن دولة الموحدين دون جهد كبير بذلوه في هذا السبيل، بينما دفع بنو مرين ثمن ارتقائهم إلى السلطان غاليا، فكان عليهم أن يخوضوا مع خلفاء الموحدين في عصر الاضمحلال حروبا ومعارك طاحنة استغرقت ما يزيد على نصف قرن من الزمان، وانتهت بدخول بني مرين في النهاية مدينة مراکش.

١ - بنو مرين في المغرب الأقصى :

قامت دولة بني مرين منذ أن تمكن السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من دخول مدينة مراکش عاصمه الموحدين في سنة ٦٦٨ هـ .
وبتصل نسب أبي يوسف يعقوب هذا بمرين بن ورتاجن بن ماخوخ الزناتي، وكان مركزهم بأرض الزاب من جبل يقال له ايكجان . وقد سميت

دولتهم بالدولة المرينية حينما نسبة إلى مرين هذا، وبالدولة الوطاسية حينما آخر نسبة إلى وطاس بن فجوس بن جرماط بن مرين . وكان أمير بنى مرين في عهد يعقوب المنصور هو أبو خالد محيو بن أبي بكر بن حمادة بن محمد ابن ورزير بن فجوس بن جرماط بن مرين ، وقد ساهم بنو مرين في غزوة الأرك عندما استنفرهم أبو يوسف يعقوب إلى الجهاد، فشهدوا هذه الغزوة، وأبلوا فيها بلاء حسنا ، وأصيب محيو بن أبي بكر إصابة قاتلة أدت إلى وفاته في صحراء الزاب في سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٥ م) ، فخلفه على رئاسة بنى مرين ابنه عبد الحق ، وفي عهده دخل بنو مرين بلاد المغرب الأقصى ، وأقاموا ببلاد الريف في سنة ٦١٠ هـ عندما لمسوا ضعف خليفة الموحدين يوسف المنتصر ، وسوء تدبيره واختلال حال الدولة ، وتهاون أمراء الموحدين في الدفاع عن الثغور ، فأخذوا يغيرون على النواحي ، ويهاجمون بوادي المغرب ، ويعيشون في البلاد فسادا ، وشكا الناس إلى المنتصر الموحدي، فعزم على محاربتهم ، وأعد لذلك الغرض جيشا يتألف من عشرين ألف فارس يقودهم أبو علي بن وانودين وأبو إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن والي مدينة فاس ، والنقى هذا الجيش بجيش بنى مرين بوادي نكور في سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ، فدارت الدائرة على الموحدين، وامتلات أبدى بنى مرين بالأسلاب والغنائم . وزحف الأمير عبد الحق بمجموع هائلة من بنى مرين إلى رباط تازي ، وانتصر على جيوش الموحدين فيها ، فضاعت نفوس بنى عسكر بن محمد من عشيرتهم لانتصارات بنى مرين المتواليه، وأكملت الغيرة صدورهم ، فخالقوا الأمير عبد الحق وظاهروا الموحدين وأتباعهم من عرب رباح أشد قبائل المغرب قوة ، وتحالفوا

معههم ضد عبد الحق في جموع بني مرين ، والتي الفريقان بالقرب من وادي
سبو على بعد أميال من تافراط است سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ، وفي هذه
الموقعة قتل الأمير عبد الحق وابنه الأكبر إدريس . فغضب بنو مرين
لذلك ، وأقسموا على الثأر له ، وما زالوا يقاتلون بني رياح حتى انتصروا
عليهم ، واستولوا على ما كان في محلتهم من السلاح والخيل . ثم خلف
عبد الحق ابنه أبو سعيد عثمان . واستغل عثمان ضعف الموحدين وأخذ يدعو
قبائل المغرب إلى الدخول في طاعته ، فبايعه من قبائلهم هواره وزكارة
وتسول ومكناسة وبطوية وفشتالة وسدراتة وبهلولة ومدبونة ، ففرض
عليهم الخراج ، ووزع عليهم العمال ، وألزم أهل فاس ومكناسة وتازي
وقصر كتامة بضريبة معلومة يؤدونها إليه في كل سنة انقاء لغاراته . واغتيل
أبو سعيد عثمان في سنة ٦١٨ هـ (١٢٤٠ م) وخلفه أخوه أبو معرف محمد ،
فاقتفى أثره في مقاتلة الموحدين والتغلب على بلاد المغرب وجباية المغارم ،
واشتبك مع الموحدين في عدة مواقع ، وانتصر على جيش الرشيد بن المأمون
بقيادة أبي محمد بن وانودين بالقرب من مكناسة . فلما تولى السعيد بن
المأمون خلافة الموحدين سنة ٦٤٠ هـ صرف جهوده لمحاربة بني مرين ، وأعد
لذلك جيشا ضخما يتألف من المصامدة والعرب والروم ، والتي مع جيش أبي
معرف في أحواز فاس سنة ٦٤٢ هـ ، فانهزم بنو مرين وقتل أميرهم أبو معرف ،
ولاذوا بجبال غياثة من نواحي تازي .

وفي إمارة أبي بكر بن عبد الحق تمكن بنو مرين من التغلب على مكناسة
في سنة ٦٤٣ هـ ، وافتتحوا أعمال وطاط وحصون ملوية سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م)
وانتزعوا مدينة فاس من الموحدين ودخلوها في ٢٦ ربيع الآخر سنة ٦٤٦ هـ ، ولم

تلبث مدينة رباط. تازى أن سقطت في أيديهم . ولكن أهل فاس انتهزوا فرصة غيابه عن المدينة وانتقضوا عليه ، وقتلوا عامله عليها ، وبايعوا المرتضى الموحدي ، فقدم اليهم أبو بكر، وحاصر المدينة في سنة ٦٤٨ هـ . فلما يش أهل فاس من نجدة المرتض لهم ، استأمنوا أبا بكر على أنفسهم ، فدخل فاسا وقتل الخارجين عليه ، فانقادت له البلاد ، وأذعن الناس له بالطاعة . ثم تابع فتوحاته بعد ذلك فاستولى على سلا ورباط. الفتح سنة ٦٤٩ هـ ، وأقام عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق ، ثم افتتح سجلماسة ودرعة سنة ٦٥٣ هـ . وأقام بفاس ، واتخذها حاضرة لدولته .

ولما توفي أبو بكر في سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) خلفه عمه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق ، وفي عهده حارل النصارى الإسبان الاستيلاء على سلا فردم عنها ، وبنى سورها الغربي . وتمكن أخيرا من افتتاح مراکش سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) . ويعتبر استيلاء بني مرين على مراکش بداية لتاريخهم كدولة ، وقد ركز بنو مرين نشاطهم بعد ذلك في مجالين كتب لهم فيهما النصر : مجال الأنداس حيث خفوا لمساعدة بني نصر أصحاب غرناطة ضد القشتاليين ، ومجال المغربين الأوسط والأدنى حيث حدثت بينهم وبين بني عبد الواد ، والحفصيين حروب كثيرة .

ولعب بنو مرين دورا هاما في مساعدة بني نصر ، فخرج السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة ٦٦٨ هـ من فاس وجاز إلى الأندلس ، واكتسح بجيوشه الفخوص والزروع ، ووزع كتابية في البسائط والوديان تنسف الزروع وتخرب العمران ، وعاد إلى فاس في سنة ٦٧٤ هـ . وفي هذا العام شرع يعقوب في بناء المدينة البيضاء لصق فاس وجعلها مقرا لسلطنته وجاز

إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ٦٧٦ هـ وحاصر إشبيلية ، وبث سراياه في كل نواحي الشرف ، ودخل حصن قطنيانة وجليانة والقلعة عنوة ، وغزا شريش ، واكتسح حصن روطة وحاصر قرطبة ، وخرب حصن بركونة وأرجونة وهاجم مدينة جيان . ثم جاز للمرة الثالثة سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢م) وللمرة الرابعة في سنة ٦٨٤ . وفي هذه الغزوة الأخيرة مرض مرضا شديدا وتوفي بقصره في الجزيرة الخضراء في أول محرم سنة ٦٨٥ ، ودفن بجامع شالة من رباط الفتح . وبويع ابنه أبو يعقوب يوسف بن يعقوب .

جرى أبو يعقوب يوسف على سنن أبيه في العدل وفي الجهاد ، وأجاز إلى الأندلس عدة مرات ، وغزا تلمسان . ثم خلفه ابنه أبو ثابت عامر (٧٠٦ - ٧٠٨ هـ) وإليه ينسب بناء مدينة تطاوين .

وفي سلطنة أبي سعيد عثمان بن يعقوب استطاع بنو مرين الاستيلاء على المغرب الأوسط ، إذ سار على رأس جيش إلى تلمسان سنة ٧١٤ هـ ، وانزعها من موسى بن عثمان بن يغمرا سن سلطان بني عبد الواد بها ، كما أجاز إلى الأندلس حين استصرخه سلطان غرناطة . وتوفي أبو سعيد عثمان سنة ٧٣١ هـ (١٣٣٠ م) ، وخلفه ابنه أبو الحسن علي بن عثمان الذي امتلك تلمسان سنة ٧٣٧ من ابن أبي تاشفين سلطان بني عبد الواد ، كما استولى على تونس وهزم أميرها أبا يحيى الحفصي في جمادى الآخرة سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧) ، وانصل ملكه ما بين برقة إلى السوس الأقصى والمحيط الأطلسي واستمرت سيادة بني مرين على المغربين الأوسط والأدنى قائمة في عهد ابنه أبي عثمان بن أبي الحسن ، الذي استولى على بجاية وقسنطينة عقب تنازل الأمير محمد بن أبي زكريا الحفصي عنها .

ثم ضعفت دولة بني مرين ، وتولى الحكم سلاطين ضعاف ، فقعدت الدولة المرينية المغرب الأدنى ، ثم فقدت بعد ذلك المغرب الأوسط ، وعادت إلى حدودها الأولى ، وكان استيلاء البرتغاليين على مدينة سبتة سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥) نذيرا بانتهيار دولة بني مرين . وهكذا انقلب الوضع بالنسبة للمسلمين ، وتحولت الحرب المقدسة من أرض الأندلس إلى أرض المغرب ، وتمكن البرتغاليون من الاستيلاء على جزء كبير من ساحل المغرب ، واحتلوا أصيلا سنة ٨٢٦ هـ ، وصافي وآزمور وطنجة سنة ٨٦٩ هـ . وهكذا اختلت دولة بني مرين ، واقتصرت أملاكها على فاس ، بينما خرجت مراکش وتافيلالت ودرعة والسوس والريف عن طاعتهم ، ولم تلبث دولة بني مرين أن سقطت على أيدي الأشراف السعديين ، بسقوط مدينة فاس سنة ٩٥٦ هـ .

ب - بنو عبد الواد في المغرب الأوسط :

كان بنو عبد الواد في الأصل من أمراء القبائل الرحل التي تجوب في صحراء المغرب الأوسط ، ثم أتاحت لها الظروف الاستقرار وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلثمائة سنة تقريبا . فلقد رحلت هذه القبائل إلى سواحل المغرب الأوسط ، وهي منطقة لم تتأثر كثيرا بغزوات بني هلال ، وفرض بنو عبد الواد أنفسهم فرضا على أهالي هذه البلاد ، وما لبثوا أن أصبحوا سادة هذه البلاد وحماها ، واتخذوا تلمسان حاضرة لهم .

وقد لعب يغمراسن بن زيان دورا هاما في تأسيس هذه الدولة ، إذ تم له ذلك بموافقة الموحدين أنفسهم ، فلقد كان بنو عبد الواد وأقاربهم من

القبائل الأخرى يتركون الصحراء ، ويستقرون في سهول وهران ، ويضعون رجالهم في خدمة عامل الموحدين بتلمسان ، وبمرور الزمن ساهم بنو زيان مساهمة فعالة في الدفاع عن منطقة وهران ، وتلقوا نظير ذلك بعض الامتيازات ، إذ عين خليفة الموحدين منهم يغمراسن بن زيان عاملا على تلمسان وبلاد زناته سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) واستقل هذا الحاكم بالبلاد عقب سقوط دولة الموحدين ، والواقع أن استقلال بنى عبد الواد ، بالمغرب الأوسط لم يكن كاملا من جميع الوجوه ، فلقد كان الخطر يهدق ببلادهم شرقا وغربا ، وكان لموقع المغرب الأوسط أثره في التنبؤ بمصيرهم ، فلقد كان العرب يسيطرون على وديان الساحل الشمالى للجزائر ، ويفرضون الاتاوات على سكانه ، ولم تكن حكومة الجزائر بالقوة التى تمكنها من إخضاعهم ، وبينما كانت هذه الصعوبات الداخلية تكاد تشل نشاطها ، كان خطر جيرانها من الشرق والغرب يهدد استقلالها ، فمن الشرق كان بنو حفص بتونس يزعمون أنهم ورثة الموحدين ، وأن لهم الحق فى بسط نفوذهم على المغرب الأوسط ، وبالفعل اضطروا زعيم بنى عبد الواد إلى الاعتراف بسيادتهم ، وأصبحت البلاد الجزائرية تحت وصاية بنى حفص ، ومن الغرب أخذ بنو مرين يترقبون الفرصة المواتية للتدخل فى المغرب الأوسط ، وضمه إلى حوزتهم ، وقدمت جيوش بنى مرين إليه من فاس فى عهد أبى سعيد عثمان ، وحاولت انتراع تلمسان من صاحبها موسى بن عثمان بن يغمراسن ، ولكنه لم يفلح أمام أسوار تلمسان الحصينة . وفى سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦ م) سار أبو الحسن على بن عثمان إلى تلمسان وشدد عليها الحصار ، وأقام معسكرا ثابتا أمام تلمسان يكون قاعدة هامة لعملياته الحربية ،

وانسع نطاق هذا المعسكر فيما بعد فأصبح مدينة كبيرة سميت بالمنصورة واستمرت جيوش بني مرين تهاصر تلمسان حتى سقطت في سنة ٨٣٨ هـ (١٣٣٧ م) في أيدي بني مرين ، وتمسك أبو الحسن المريني من قتل الأمير ابن أبي تاشفين.

وظلت تلمسان مدة ١١ عاما مركزا لحكومة مريزية ، ثم خرجت سنة ٥٧٠ هـ من سلطان بني مرين ، واستعادها بنو عبد الواد . ولم يلبث أن قام أبو عنان بن أبي الحسن المريني بالاستيلاء عليها في سنة ٧٥٣ هـ . ولم يدم ملك بني مرين بتلمسان ، إذ شق أهلها عصا الطاعة على سلطان بني مرين ، فدخلها السلطان أبو سالم ابراهيم بن أبي الحسن بالامانة سنة ٧٦١ هـ (١٣٥٩ م) ، وأقر أميرها أبازيان من أحفاد بني عبد الواد وعاد إلى فاس . ثم تولى أبو حمو علي بن أبي زيان إمارة تلمسان ، وأخذ يحكم المغرب الأوسط أمراء من تلمسان خاضعين لحكومة فاس ، وازدهرت مدينة تلمسان في عهدهم رغم هذه العواصف والأنواء ، وكانت تحظى بموقع ممتاز ، وكان لمياهها الجارية فضل كبير في إحاطتها بالجنان والبساتين ، فاستعادت بذلك مجدها القديم ، وكانت مركزا تجاريا هاما يقصده تجار المسلمين والمسيحيين على السواء ، كما كانت مركزا للقوافل التي تمر بها إلى تافيلت والسودان . وابتنى فيها بنو عبد الواد وبنو مرين القصور والمدارس . ثم بدأ عهد من الاضطراب والفوضى منذ أواخر القرن التاسع الهجري ، فقد تغلب السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الحفصي على السلطان الوائق بالله ملك تلمسان ، واستمر غزو بني حفص لتلمسان في عهد السلطان أبي عمرو عثمان بن محمد الحفصي . ففي سنة ٨٧٠ هـ (١٤٦٥ م) نجح عثمان بن محمد في هدم

أسوار تلمسان ، ومع ذلك فقد ظلت حكومة بني عبد الواد متهاسكة ، إلى أن ظهر الإسبان على المسرح السياسي ، وكانت حركة الاسترداد الإسباني للأندلس وقتئذ على أشدها ، فدفعت غارات القراصنة المسلمين على سواحل إسبانيا الشرقية الإسبان إلى الاستيلاء على بعض المدن الساحلية بالمغرب الأوسط ، فسقطت بجاية في أيديهم سنة ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) ، ثم استولوا على وهران سنة ٩١٤ هـ ، ثم سعوا بعد ذلك إلى الاستيلاء على مدينة الجزائر . وعاشت هذه المدينة تحت تهديد المدافع الإسبانية التي كانت تصيبها من قلعة بنيون المشيدة في جزيرة مجاورة للساحل الجزائري ، وفكر أهل الجزائر إلى الاستنجاد بعروج أحد القراصنة الأتراك المشهورين ، وأخيه خير الدين بربروسة . و لم يمض وقت طويل حتى خضعت الجزائر لبربروسة الذي كان السبب في دخول الأتراك العثمانيين بلاد المغرب .

ج - بنو حفص في المغرب الأدنى :

ينسب بنو حفص إلى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمرو الهنتاني من هنتاته أعظم قبائل مصمودة ، وكان للشيخ أبي حفص مكانة سامية في دولة الموحدين سابقتهم في الجهاد ، وكان لأولاد أبي حفص من بعده هذه المكانة ، فقد تداولوا الرئاسة ، وتقلبوا في مناصب الإمارة في المغرب والأندلس .

ويعتبر أبو زكريا يحيى الحفصي المؤسس الحقيقي لدولة الحفصيين بتونس ، فقد استقل بآماره إفريقية في سنة ٦٢٥ هـ بعد أن عزل أخاه أبا محمد عبد الله ابن أبي محمد بن أبي حفص وكان سبب استقلاله بإفريقية استيلاءه مما قام به المأمون الموحدي من قتل الموحدين بمراكش ، وخاصة هنتانة وتينمل ومن

بينهم أخوا المأمون أبو محمد عبد الله المخلوع وإبراهيم، ومن طعن لعصمة المهدي، وتغيير لرسوم الدعوة الموحدية .

وقد حكمت دولة بني حفص زهاء ثلاثة قرون ونصف على الرغم من الأحداث الخطيرة التي اجتازتها . وقد بايع أهل شرق الأندلس وإشبيلية والمرية الأمير أبي زكريا ، عندما ركبت ربيع الموحدين فيها ، وإليه وجه الأديب أبو عبد الله بن الأبار قصيدته السينية التي يستصرخه فيها للمسلمين ومنها الآيات الآتية :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا
إن السيل إلى منجائها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمت
فلم يزل منك عز النصر ملتصا
وحاش مما تعانيه حشاشتها
فطالما ذقت البلوى صباح مسا
بالجزيرة أضحي أهلها جزرا
للنائبات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة المام بائقة
يعود مأتمها عند العدى عرسا
وكل غاربة إحجاف نائبة
تثنى الأمان حذاراً والسرور أسا
تقاسم الروم لانالت مقاسمهم
إلا عقائلها المحجوبة الأنسا

وفي بلنسية منها وقرطبة
ما يذهب النفس أو ما ينفذ النفس
مدائن حلها الإشراف مبتسما
جذلان وارتمل الإيمان منها
وضيقتها العوادي عاثات بها
يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
ما للمساجد عادت للعدي يبعث
وللنداء يرى أثناءها جرسا
لها عليها إلى استرجاع قائمتها
مدارسا للثاني أصبحت درسا

فأجاب الأمير أبو زكريا داعيتهم ، وبعث إليهم أسطولهم مشحونا
بالأقوات والأسلحة . وقد تأثرت حضارة بني حفص في إفريقية في عهده بالحضارة
الأندلسية ، وفتح أبو زكريا أبواب مدنه للمهاجرين من أهل الأندلس ،
وقد بلغ تأثير الأندلس في الدولة الحفصية ذروته في عهد أبي عبد الله
المستنصر خليفة أبي زكريا يحيى ، وكان من أعظم بناء هذه الأسرة ،
وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس الذين هاجروا إلى جواره ، وفي عهده
أقيم قصر الطابية فيما بين عامي (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) ، وكانت بساكن هذا
القصر تتبع نظام بهو السباع بقصر الحمراء . وإلى المستنصر الحفصى تنسب
بجعة أبي فهر وتبعد كيلو مترا واحدا جنوب تونس ، وإليه ينسب أيضا
بناء مسجد باب الدرب بالمستير ، وكل أبنيته تأثرت بالأسلوب الأندلسي .
وفي عصر المستنصر توطدت العلاقات التجارية بين تونس وبرشلونة ومرسيليا

وجنوة ويزا وصقلية والبندقية ، وأنشئت الفنادق للأجنبية بتونس . وفي
أواخر عهده تعاقبت الفتن على البلاد بسبب طمع بعض الأمراء للسيطرة على
السلطنة ، وقد أضعفت هذه الفتن من مركز السلطان ، وتولى بعد وفاته
في سنة ٩٧٥ الأمير أبو عصيدة . وبوفاته خرج الحكم في تونس من فرع
أبي زكريا ، فقد حكم أخ ثالث المستنصر هو أبو حفص ، ثم ابن عم له
هو أبو يحيى بن اللحياني ، وأخيرا استقر السلطان في أعقاب ابن من أبناء
أبي زكريا هو أبو اسحق ابراهيم . وازداد ضعف بني حفص بانقسامهم
 وخروج بحاية عن طاعتهم . واستغل بنو مرين فرصة ضعف الحفصيين ،
 واستولوا على تونس في عصر السلطان أبي عنان المريني ، ومع ذلك فقد
حاول أبو اسحق ابراهيم إعادة وحدة البلاد بعد أن خرج جنوبها عن
سلطانه ، وظهرت دويلات مستقلة في تلك النواحي مثل بني يملول في
توزر ، وبني الخلف في نفطة ، وبني مكي في قابس ، وبني ثابت
في طرابلس .

وفي عهد أبي العباس استعادت الدولة الحفصية بعض عظمها ، وتصدى
الأمير لجماعة من النصارى هاجوا المهدية في سنة ١٣٩٠ م ، وهزمهم ، وقام
ابنه أبو فارس بالاغارة بحرا على مالطة وجربة ، واستطاع أن يستولى على
تلسان . ولقد عرفت دوله بني حفص في عهده بازدهارها وقوتها ، وتمكن
أبو فارس من ضم الإمارات التي كانت قد استقلت في حياة أبيه أبي العباس ،
 ففي سنة ١٣٩٨ ضم مدينة طرابلس إلى دولته ، وفي سنة ١٤٠٠ م (٨٠٣ هـ)
استولى على توزر وقفصة ، وفي سنة ١٤٠٢ استولى على بسكرة ، ونجح
في سنة ١٤١٠ في الاستيلاء على مدينة الجزائر . وفي عهد أبي فارس قدمت

السفارات من سائر أنحاء العالم إلى تونس تهادنه وتخطب مودته، ومن هذه السفارات : سفارة سلطان غرناطة ، وسفارة سلطان فاس ، وسفارة سلطان مصر . وتوفي أبو فارس في سنة ١٤٣٤ م وخلفه ابنه الأصغر المستنصر، وكان شابا عيلا تغلبت عليه الامراض فمات بعد ١٤ شهرا من توليه الامارة وفي عهد أخيه أبي عمرو عثمان اشتعلت نيران الفتن في البلاد بسبب طمع أعمامه في السلطان ، ونجح أبو عمرو في القضاء على هذه الثورات سنة ١٤٤٦ م بعد أن هزم عمه أبا الحسن .

وازدهرت البلاد التونسية في عهده ازدهارا تشهد به المعاهدات التجارية التي عقدها من ملك فرنسا لويس الحادي عشر ، كما عقد معه سلاطين مصر والاندلس معاهدات مماثلة ، لكن هذا الازدهار لم يطل أمده بعد وفاة أبي عمرو عثمان ، فما لبثت وحدة الدولة الحفصية أن تمزقت بعد وفاته بسبب انتفاض القبائل عليها ، ومهاجمة الإسبان للسواحل التونسية انتقاما من القراصنة الأتراك الذين اتخذوا هذه السواحل أوكارا لهم .

مراجع الكتاب

أولا - المصادر العربية

ثانيا - المراجع العربية الحديثة والأوربية العربية

ثالثا - المراجع الأوربية

أولا : المصادر العربية

- ١ - ابن الأبار (أبو عبد الله محمد) : كتاب الحلة السراء ، جزءان ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣
- ٢ - ابن أبي دينار القيرواني : المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ، تونس ، ١٢٨٦ هـ
- ٣ - ابن أبي زرع (علي بن محمد الفاسي) : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشره تورنبرج Tornberg ، أسال ١٨٤٣
- ٤ - ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم) : كتاب الكامل في التاريخ ، بولاق ، ١٢٩٠ هـ والقاهرة ، ١٣٥٧ هـ
- ٥ - ... : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، القاهرة ، ١٢٨٠ - ١٢٨٦
- ٦ - ابن الأحمر (أبو الوليد إسماعيل) : روضة السرير في دولة بني مرين تحقيق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٦٢
- ٧ - ابن الخطيب (اسان الدين محمد) : اللوحة البدرية في الدولة النصرية ، القاهرة ١٣٤٧ هـ
- ٨ - ... : الإحاطة في أخبار غرناطة ، الجزء الأول ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥
- ٩ - ... : كتاب أعمال الأعلام ، فيمن بويج قبل الاحتلال من ملوك الاسلام ، نشره ليفي بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦
- ١٠ - ... : كتاب أعمال الأعلام ، فيمن بويج قبل الاحتلال من ملوك الاسلام ، القسم الثالث ، تحقيق الدكتور أحمد مختار

العبادي ، والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤

١١ - ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب
والأندلس ، مجموعة من رسائله ، نشرها وحققها الدكتور مختار
العبادي ، الاسكندرية ، ١٩٥٨

١٢ - ابن الصغير المالكي : سيرة الأئمة الرستميين ، باريس ، ١٩٥٨

١٣ - ابن الفقيه الهمداني (أبو بكر أحمد بن إبراهيم) . مختصر تاريخ
البلدان ، لندن ، ١٨٨٥

١٤ - ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة) : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨

١٥ - ابن القوطية القرطبي (أبو بكر محمد) : تاريخ افتتاح الأندلس ، نشره
دون خليان ربيد ، مدريد ، ١٩٢٦

١٦ - ابن بسام (أبو الحسن علي الشنتري) : كتاب الذخيرة في محاسن أهل
الجزيرة ، القسم الأول ، الجزء الرابع ، القاهرة ، ١٩٤٥

١٧ - ابن بلقين (الأمير عبد الله الزيري) : مذكرات الأمير عبد الله
الزيري ، المسماة بكتاب التبيين ، نشره وحققه الأستاذ ليفي
بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥

١٨ - ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر
والقاهرة ، نشر دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٦

١٩ - ابن حبيب (عبد الملك) : أخبار في فتح الأندلس نشرها الدكتور
محمود علي مكي في مقاله :

Egipto y los origines de la historiografia arabigo-Espanola,
مصحفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧

٢٠ - ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق
الاستاذ ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨

٢١ - ابن حوقل النصيبى : صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ١٩٦٢

٢٢ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : التعريف بابن خلدون ، ورحلته
غربا وشرقا ، تحقيق محمد بن تاووت الطنجى ، القاهرة ، ١٩٥١

٢٣ - ... : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، سبعة أجزاء ،
طبعة بولاق ، ١٢٨٤ هـ (١٨٧٠ م) وطبعة بيروت ، منشورات
دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٨

٢٤ - ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن ابراهيم) : وفيات الأعيان ،
وأبناء أبناء الزمان ، نشره الاستاذ محمد محي الدين عبد الحميد ،
القاهرة ، ١٩٤٨

٢٥ - ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر) : كتاب الأملق النفيسة ، نشره
دنى غوييه ، لندن ، ١٨٨١ - ١٨٨٢

٢٦ - ابن صاحب الصلاة ، مدونة عن أعمال خليفتي الموحدين أبي يعقوب
يوسف ، وأبي يوسف يعقوب المنصور ، نشرها الألب أنطونية

ملشور بعنوان : Sevilla y sus monumentos arabes

الاسكوريال ، ١٩٣٠

٢٧ - ابن طباطبا (محمد بن علي) : كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية ،
طبعة بيروت ، ١٩٦٠

٢٨ - ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) : فتوح مصر والمغرب ،

تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١ ، وطبعة

Conquête de l'Afrique du Nord et l'Espagne ، الجزائر ، ١٩٤٧

٢٩ - ابن عذارى (أبو العباس أحمد) : البيان المغرب في أخبار المغرب ،

تحقيق ليفى بروغنسال وكولان ، جزآن ، ليدن ١٩٤٨ - ١٩٥١

وطبعة دار صادر ، جزآن ، بيروت ، ١٩٥٠

٣٠ - ... : البيان المغرب في أخبار المغرب ، الجزء الثالث ، باريس ١٩٣٠

٣١ - ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم) : كتاب الإمامة

والسياسة ج ٢ ، القاهرة ١٩٠٧ ، والنص الخاص بفتح الاندلس

من كتاب الإمامة والسياسة الوارد في كتاب « تاريخ افتتاح

الاندلس » لابن القوطية ، نشره خليان ريبيرا ، مدريد ، ١٩٢٦

٣٢ - أبو العرب تميم : طبقات علماء إفريقية ، طبعة ابن شنب ، الجزائر ،

١٩١٥

٣٣ - أبو الفداء (اسماعيل بن علي) : المختصر في أخبار البشر ، بيروت ١٩٥٦

٣٤ - الإدريسي (الشريف أبو عبد الله محمد) : صفة المغرب والاندلس

مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق نشره دي

غويه ودوزي ، ليدن ١٨٦٦ ، ونسخة بعنوان صفة المغرب

وأرض السودان ومصر والاندلس ، ليدن ١٨٩٤

٣٥ - الاصطخرى (أبو اسحق ابراهيم بن محمد) : المسالك والممالك ، تحقيق

الأستاذ محمد جابر عبد العال الحين ، القاهرة ١٩٦١

- ٣٦ - البكرى (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز) : المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، نشره دي سلان de Slane بعنوان :
Description de l'Afrique Septentrionale ، الجزائر ، ١٩١١
- ٣٧ - ... : معجم ما استعجم ، مادة تاهرت
- ٣٨ - البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٦
- ٣٩ - البيهقي (أبو بكر الصنهاجى) : كتاب أخبار المهدي بن تومرت ، تحقيق الاستاذ ليفى بروفنسال ، باريس ، ١٩٢٨
- ٤٠ - الجزنائي (أبو الحسن على) : كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، نشره الفريد بيل ، الجزائر ، ١٩٢٢
- ٤١ - الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح) : جذوة المقتبس في ذكر رجال الأندلس ، حققه محمد بن تاووت الطنجى ، القاهرة ، ١٣٧١ هـ
- ٤٢ - الحميرى (ابن عبد المنعم) : صفة جزيرة الأندلس ، من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧
- ٤٣ - الدباغ (عبد الرحمن الأناصرى) : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تونس ، ١٩٠١
- ٤٤ - السلاوى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى) : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، المدار البيضاء ، ١٩٥٠
- ٤٥ - السيوطى (جلال الدين) : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جزءان ، مصر ، ١٣٢٧ هـ

٤٦ - الصغير (محمد) : كتاب نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى ،

نشره Houdas ، باريس ، ١٨٨٨

٤٧ - الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ، للقاهرة ١٩٣٩

٤٨ - الطرابلسى (أبو عبد الله محمد بن خليل) : تاريخ طرابلس الغرب

المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ،

نشره الأستاذ الطاهر أحمد الزاوى ، القاهرة ، ١٣٤٩ هـ

٤٩ - عبيد الله بن صالح : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشره الأستاذ

ليفى بروفنسال ، وعلق عليه الدكتور حسين مؤنس ، فى صحيفة

المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمديره ، ١٩٥٤

٥٠ - الغزالى (أبو حامد) : إحياء علوم الدين ، ج ١ ، طبعة مصر ، ١٣٠٢ هـ

٥١ - القلقشندى (أبو العباس أحمد) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ،

ج ٥ ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩١٣ - ١٩١٩

٥٢ - المالكى (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله) : كتاب رياض النفوس ،

تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥١

٥٣ - مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، نشره دون لافونى القنطرة

Lafuente Alcantara ، مدريد ، ١٨٦٢

٥٤ - مجهول : كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، طبعة

تونس ، ١٣٢٩ هـ

٥٥ - مجهول : كتاب الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ، تحقيق محمد

ابن أبى شنب ، الجزائر ، ١٩٢٠

- ٥٦ - مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لكانب مراكشى من
كتاب القرن السادس الهجرى ، نشره وعلق عليه الدكتور سعد
زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨
- ٥٧ - مجهول : فتح الأندلس ، نشره دون خواكين جنثالث ، الجزائر ١٨٨٩
- ٥٨ - مجهول : مدونة تاريخية عن عصر عبد الرحمن الناصر ، تحقيق الأستاذان
لينى بروفنسال وغرسية جومث ، مدريد ، ١٩٥٠
- ٥٩ - المقدسى (شمس الدين أبي عبد الله) : أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم ،
ليدن ، ١٩٠٦
- ٦٠ - المراكشى (محي الدين عبد الواحد بن على) : كتاب المعجب في
تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذان محمد سعيد العريان ،
ومحمد العربي العلى ، القاهرة ، ١٩٤٩
- ٦١ - المسعودى (أبو الحسن على) : كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر ،
تحقيق الأستاذ محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٨
- ٦٢ - المقرئ (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق الأستاذ محمد
محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٩
- ٦٣ - المقرئ (تقي الدين أحمد بن على) : الخطط المقرئية ، المسماة بالمواظ
والاعتبار بذكر الخطوط والآثار ، بيروت ، منشورات مكتبة
العرفان .
- ٦٤ - ... : اتعاط الحنفا بذكر الأئمة الخلفاء ، نشره الدكتور جمال
الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٨

- ٦٥ - المقرئى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره الدكتور محمد مصطفى
زيادة ، والدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٠
- ٦٦ - النويرى (أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب فى فنون الأدب ،
القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٣
- ٦٧ - الواقدى : فتوح الشام ، ج ١ ، طبعة القاهرة ، ١٣٦٨ هـ
- ٦٨ - ... : فتوح إفريقية ، ج ١ ، طبعة تونس ، ١٣١٥ هـ
- ٦٩ - الونشريشى : أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصرارى
ولم يهاجر ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، صحيفة المعهد المصرى
بدمرد ، ١٩٥٧
- ٧٠ - ياقوت (شهاب الدين أبى عبد الله الحموى) : معجم البلدان ، ٥ مجلدات
بيروت ، ١٩٥٥ - ١٩٥٨
- ٧١ - اليعقوبى (أحمد أبى يعقوب بن جعفر) : كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١

ثانيا : المراجع العربية الحديثة والأوربية المعربة

- ٧٢ - أدم (الأستاذ على) : المنصور بن أبى عامر ، مقال بدائرة معارف
الشعب ، عدد ٦٧ ، القاهرة ١٩٥٩
- ٧٣ - أرسلان (الأمير شكيب) : تاريخ غزوات العرب ، مصر ، ١٣٩٢ هـ
- ٧٤ - أشباخ (يوسف) : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ،
ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٥٨

٧٥ - البارونى (الشيخ أبو الربيع سليمان بن عبد الله) : مختصر تاريخ
الإباضية ، تونس ، ٨-١٩

٧٦ - ... : كتاب الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية ، بدون
تاريخ

٧٧ - بالنشيا (آنخل جنتالث) : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة الدكتور
حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥

٧٨ - التازى (الأستاذ عبد الهادى) : نظرية جديدة فى بناء جامعة القرويين،
صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٨

٧٩ - ... : الحروف المنقوشة بالقرويين فى خدمة الآثار ، المؤتمر
الثالث للآثار فى البلاد العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦

٨٠ - حسن (دكتور حسن ابراهيم) وشرف (الأستاذ طه) : صيد الله
المهدى ، إمام الشيعة الإسماعيلية ، القاهرة ، ١٩٤٧

٨١ - حسن (دكتور حسن ابراهيم) : تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة، ١٩٥٨

٨٢ - دبوز (الأستاذ محمد على) : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣، القاهرة، ١٩٦٣

٨٣ - الرشيد (الأستاذ اسماعيل بن محمد) : جلاء الظلام الدامس فى موجز
تاريخ المغرب إلى عصر محمد الخامس ، مطبعة فضالة ، ١٩٥٧

٨٤ - الزاوى (الأستاذ الطاهر أحمد) : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ،
القاهرة ، ١٩٦٣

٨٥ - زامباور : معجم الأنساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ،
ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥١

٨٦ - زيادة (دكتور نقولا) : الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت، ١٩٦٢

٨٧ - سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : طارق بن زياد ، مقال بدائرة
معارف الشعب عدد ٦٧ ، القاهرة ١٩٥٩ - مرسية ، مقال بدائرة
معارف الشعب عدد ٦١ - المهدي بن تومرت ، مقال بدائرة
معارف الشعب رقم ١٩٦٠ - الفنون والصناعات بالأندلس ،
مقال بدائرة معارف الشعب ، عدد ٦٤

٨٨ - ... : المسجد الجامع بالقيروان ، وجامع الزيتونة بتونس : مقالان
بكتاب بيوت الله مساجد ومعاهد ، القاهرة ١٩٦٠ ، كتاب الشعب
عدد ٧٨

٨٩ - ... : المساجد والقصور بالأندلس ، سلسلة إقرأ ، عدد ١٩٠ ،
القاهرة ، ١٩٥٨

٩٠ - ... : أثر الفن الخلفي بقرطبة في العمارة المسيحية بإسبانيا وفرنسا ،
المجلة ، العدد ١٤ ، ١٩٥٨

٩١ - ... : مسجد المدجنين بطليطلة ، مقال بمجلة كلية الآداب ، جامعة
الاسكندرية ، ١٩٥٨

٩٢ - ... : روائع الآثار الإسلامية بجمهورية الجزائر العربية ، المجلة ،
العدد ٢٩ ، ١٩٥٩

٩٣ - ... : المغرب الإسلامي ، كتاب الشعب عدد ١٣٨ ، ١٣٩ ، القاهرة ، ١٩٦١

٩٤ - ... : المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح
العربي حتى الفتح العثماني ، القاهرة ، ١٩٥٩

٩٥ - ... : تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، الاسكندرية

- ٩٦ - سالم (دكتور السيد عبد العزيز): تاريخ المسلمين وآثارهم في
الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٢
- ٩٧ - ... : طرابلس الشام : تاريخها وآثارها في العصر الإسلامي ، مجلة
كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٣
- ٩٨ - ... : القيم الجمالية في فن العمارة الإسلامية ، من محاضرات الموسم
الثقافي بجامعة بيروت العربية ، ١٩٦٢ - ١٩٦٣
- ٩٩ - ... : تخطيط مدينة الاسكندرية وعمرانها في العصر الإسلامي ،
مكتبة المدن الإسلامية ، العدد الاول ، بيروت ، ١٩٦٤
- ١٠٠ - ... : إحدى روائع الفن العالمي : لخير الدا شبيلية ، المجلة ، العدد
التاسع ، ١٩٥٧
- ١٠١ - ... : وسائل الدفاع الإسلامي في العصور الوسطى ، مجلة الجيش ،
عدد ٨٢ ، ٨٣
- ١٠٢ - ... : الآثار الإسلامية في دير سانت كاترين بطور سيناء ، مجلة
العلوم ، العدد الاول ، يناير ١٩٦٥ ، ص ١ - ٩
- ١٠٣ - سرور (الدكتور جمال الدين) : مصر في عصر الدولة الفاطمية ،
القاهرة ، ١٩٦٠
- ١٠٤ - ... : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس
بعد الهجرة ، القاهرة ، ١٩٥٩
- ١٠٥ - الشرقاوي (دكتور محمد عبد المنعم) ، الصياد (دكتور محمد محمود) :
ملاحم المغرب العربي ، الاسكندرية ، ١٩٥٩
- ١٠٦ - الشيال (دكتور جمال الدين) : مصر في العصر الفاطمي ، بحث في
موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثاني ، الجزء السادس ،
القاهرة ١٩٦٣

١٠٧ - الطنجي (الأستاذ محمد بن تاووت) : دولة الرستميين ، صحيفة المعهد
المصري بمدريد ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧

١٠٨ - العبادي (دكتور أحمد مختار) : سياسة الفاطميين نحو المغرب
والأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ،
مدريد ، ١٩٥٧

١٠٩ - ... : الصقالبة في إسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية ،
مدريد ، ١٩٥٣

١١٠ - ... : نظام الخلافة في المغرب الإسلامي في العصور الوسطى ،
فصلة من كتاب فلاسفة الإسلام في المغرب العربي .

١١١ - ... : مؤلفات لسان الدين بن الخطيب في المغرب ، مقال في مجلة
Hesperis, 3e, 4e trimestres, 1959

١١٢ - ... : دراسة حول كتاب الحلال الموشية في ذكر الأخبار
المراكشية ، وأهميته في تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ،
العدد الخامس ، ١٩٦٠

١١٣ - العبادي (الأستاذ عبد الحميد) المجلد في تاريخ الأندلس ، سلسلة
المكتبة التاريخية ، العدد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٨

١١٤ - عبد الحميد (دكتور سعد زغلول) : العلاقة بين صلاح الدين وأبي
يوسف يعقوب المنصور ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية
المجلدان السادس والسابع ، ١٩٥٨

١١٥ - ... : فترة حاسمة من تاريخ المغرب ، مجلة كلية الآداب والتربية
بالجامعة الليبية ، المجلد الأول ، بنغازي ، ١٩٥٨

١١٦ - عبد الحميد (الدكتور سعد زغلول) :فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والاسـطورة الشعبية ،مقال فى مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، العدد ١٦ ، ١٩٦٢ - ١٩٦٣

١١٧ - عبد الوهاب (الأستاذ حسن حسنى) : خلاصة تاريخ تونس ، القاهرة ، ١٩٦٠

١١٨ - عبد الوهاب (الأستاذ حسن) : الاسكندرية فى العصر الإسلامى ، مجلة الكتاب ، ١٩٤٦

١١٩ - فشل (ولتر ج.) : نشاط ابن خلدون فى مصر المملوكية ، مقال فى كتاب دراسات إسلامية ، ترجمة الأستاذ أنيس فريجة وآخرين، بيروت ، ١٩٦٠

١٢٠ - فكرى (دكتور أحمد) : المسجد الجامع بالقديوان ، القاهرة، ١٩٣٦

١٢١ - ... : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) الاسكندرية ، ١٩٦١

١٢٢ - الكعك (الأستاذ عثمان) : مراكز الثقافة فى المغرب ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٥٨

١٢٣ - لويس (أرشيبالد) : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠

١٢٤ لىفى بروفنسال : مجموعة رسائل موحدة، من كتاب الدولة المؤمنية، الرباط ، ١٩٤١

١٢٥ - ... : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، مقال بصحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد الثانى ، ١٩٥٤

- ١٢٦ - ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والاندلس، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والاستاذ محمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ، ١٩٥٨
- ١٢٧ - ماجد (دكتور عبد المنعم) : التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٠
- ١٢٨ - محمود (دكتور حسن أحمد) قيام دولة المرابطين ، صفحة مشرفة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٧
- ١٢٩ - المرزوقي (الأستاذ محمد) : قابس ، القاهرة ١٩٦٢
- ١٣٠ - المشرفي (الأستاذ محمد محي الدين) : تاريخ إفريقية الشمالية ، الرباط ، ١٩٥٠
- ١٣١ - مكي (دكتور محمود علي) : التشيع في الأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدير ، المجلد الثالث ، ١٩٥٤
- ١٣٢ - ... : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد السابع ، العدد ١ ، ٢ ، ١٩٥٩
- ١٣٣ - مؤنس (دكتور حسين) فتح العرب المغرب ، القاهرة ١٩٤٧
- ١٣٤ - ... : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدير ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤
- ١٣٥ - ... : فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩
- ١٣٦ - النجار (الأستاذ عبد الوهاب) : الخلفاء الراشدون ، القاهرة ، ١٩٦٠

ثالثا - المراجع الأوربية الحديثة

1. Bermejo (Joaquin Vallvé) : Suqut al-Bargawati, rey de Ceuta, al-Andalus, vol. XXVIII,' 1963.
2. Bloye (Aguado) : Manuel de la historia de Espana, t. I, Madrid, 1947.
3. Boigues (Francisco Pons) : Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y géografos arabigo espanoles, Madrid 1898.
4. Codera (Francisco) : Limites probables de la conquista arabe en la cordillera pirenaica, en Estudios criticos de la historia arabe espanola, VIII, Madrid, 1919.
5. Codera (Francisco) : Decadencia y desaparicion de los Almoravides en Espana, Zaragoza, 1899.
6. Creswell (K.A.C.) : A short account of early ' muslim architecture, Pelican Books, 1958.
7. Diehl (charles) : Histoire du moyen âge, t. III, Paris, 1932.
8. Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Levi-Provençal, Leyde, 1932.
9. Fikry (Ahmad) : La mosquée Az-Zaytoûna à Tunis : recherches archéologiques, dans Egyptian Society of historical studies, II, le Caire, 1952.
10. Julien (André) : Histoire de l'Afrique du Nord (Jusqu' à la conquête arabe), Paris, 1951.
11. Julien (André) : Histoire de l'Afrique du Nord (depuis la conquête arabe), Paris, 1952.

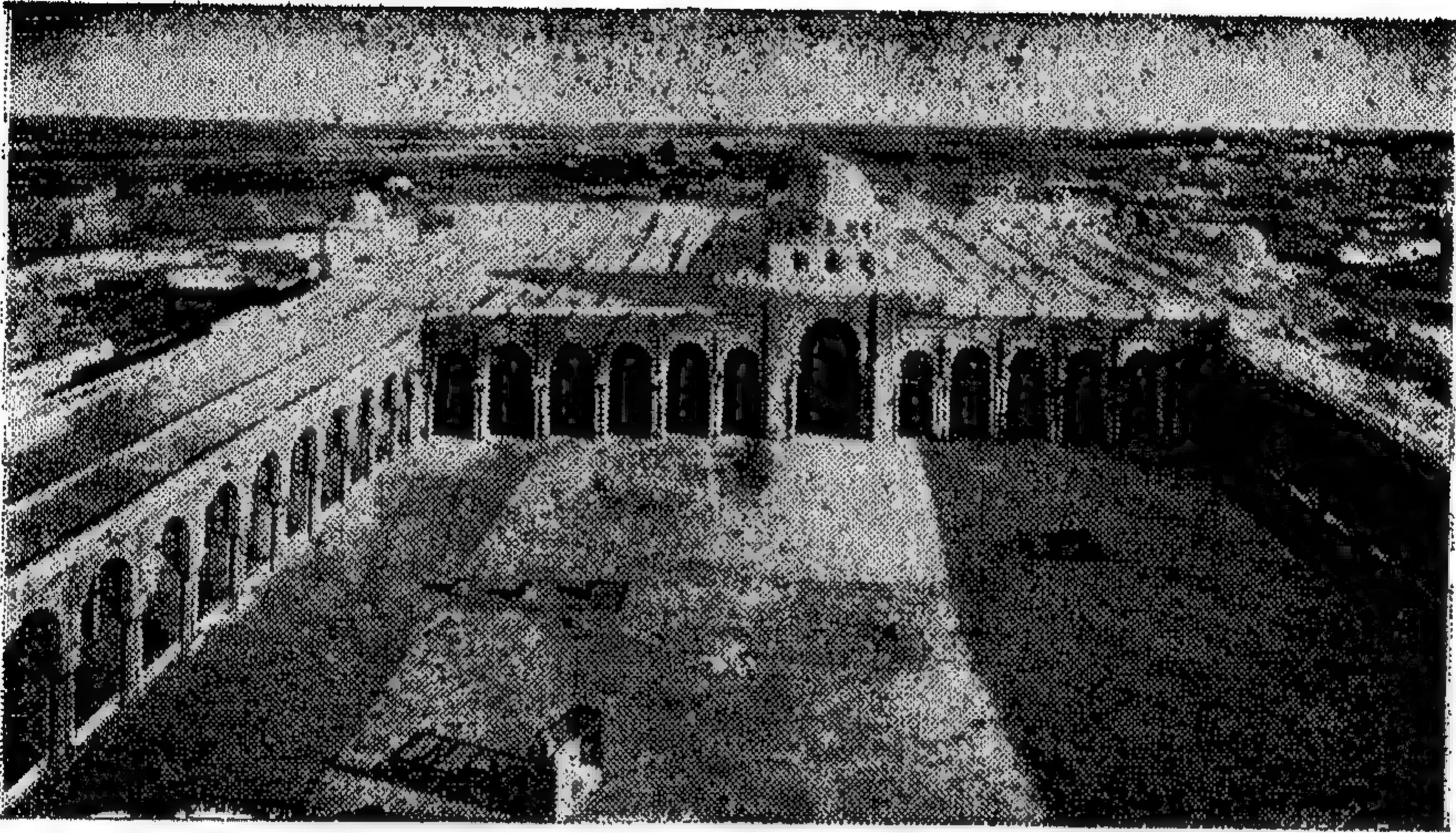
12. Lambert (Elie) : l'Architecture musulmane du Xe siècle à cordoue et a Tolède, dans Gazette des Beaux arts, t. XII, 1925.
13. ... : Les coupoles des grandes mosquées, de Tunisie et d'Espagne, au IX e et Xe Siècles, Hesperis, t. XXII, fasc. 2, 1936.
14. ... : Les Origines de la croisée d'ogives, Offices des Instituts d'Archéologie et d'histoire d'art, No 8-9, 1936 - 1937.
15. ... : Les mosquées de type andalou en Espagne et en Afr que du Nord, al-Andalus, vol. XIV, 1949.
16. ... : La grande mosquée de Cordoue et l'art byzantin, Actes du VI e Congrès International, Paris 1951.
17. ... : L'art de l'Islam Occidental, Annales de l'Université de Paris, 1953.
18. Lévi-Provençal (E.) : La politica africana de Abd al - Rahman III, al-Andalus, vol XI, fasc. 2, 1948.
19. ... : Islam d'Occident, Paris, 1948.
20. ... : Extraits du historiens arabes du Maroc, Paris, 1948.
21. ... & Garcia Gomez et Oliver Asin : Novedades sobre la Batalla llamada al-Zallaqa, al-Andalus, 1950, vol. XV, fasc. I.
22. ... : Histoire de l'Espagne Musulmane, 3 vols., Leiden-Paris, 1950.

23. Lévi-Provençal & Garcia Gomez : Una Cronica anonima de Abd al Rahman III al-Nasir, Madrid, 1950.
24. Makki (Mahmud) : Egipto y los origines de la historiografia arabe espanola, revista del Instituto de Estudios Islamicos en Madrid, vol. V, 1957.
25. Marçais (Georges) : Article Ribat, dans l'Encyclopédie de l'Islam.
26. ... : Coupoles et Plafonds de la grande mosquée de Kairouan, Tunis, 1926.
27. ... : Les faiences à reflets metalliques, de la grande mosquée de Kairouan, Paris, 1926.
28. ... : La Berberie musulmane et l'Orient au Moyen âge, Paris, 1946.
29. ... : L'architecture musulmane d'Occident, Paris, 1954.
30. Maslow (Boris) : La Qoubba Barudiyyin a Marrakech, al-Andalus, vol. XII, 1948.
31. Millet (René) : Les Almohades Paris, 1923.
32. Miranda (Ambrosio Huici) : Invasion de los Almoravides y la batalla de Zallaka, Hesperis, 1-2 trimstres, t. XI, 1953.
33. ... : Al Hulal al-Mawsiyya, cronica arabe de las dinastias almoravide, almohade y benimerin, Tetuan, 1952.
34. ... : La Campana de Alarcos, revista del Instituto Egipcio de Madrid, vol. II, 1954.
35. Moreno (Manuel Gomez) : El Panteon Real de las Huelgas de Burgos, Madrid, 1946.

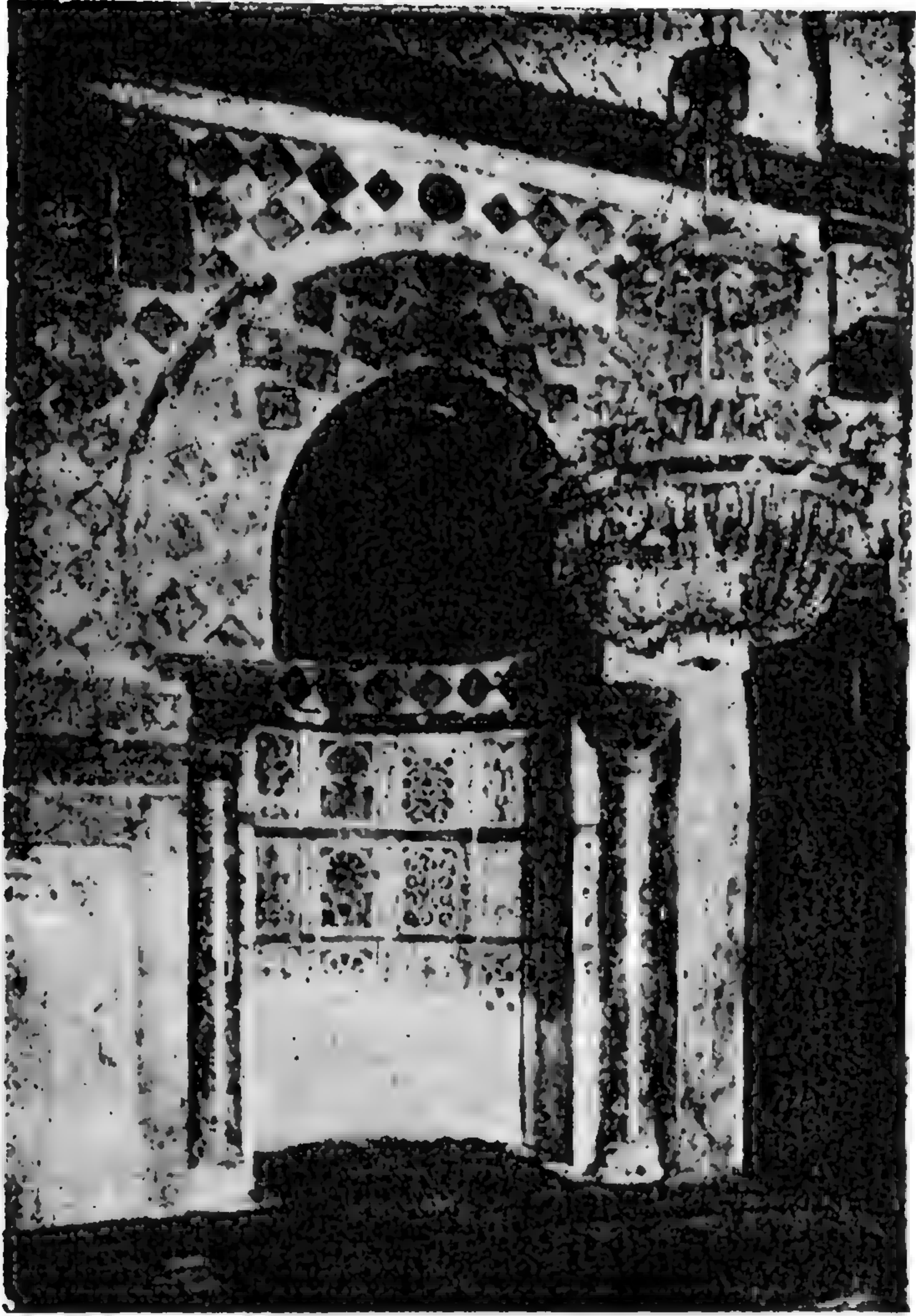
36. Moreno (M.G.) : *Arş Hispaniae*, t. III, arte espanol, hasta los Almohades, Madrid, 1951.
37. Pellegrin : *Histoire' de la Tunisie*, Tunis, 1942.
38. Pidal (Ramon Menéndez) : *Espana del Cid*, 2vols., Madrid 1947.
39. ... : *[El Cid . Campeador*, Coleccion Austral, Buenos Aires, 1950.
40. Remiro (Mariano Gaspar): *Murcia musulmana*, Zaragoza, 1905
41. Saavedra (Edouardo) : *Estudio sobre la invasion de los arabes en Espana*, Madrid, 1892.
42. Salem (Elsayed Abdel Aziz) : *L' architecture à Seville sous les Almohades*, Thèse du Doctorat ès-Lettres, présentée à l'Université de Paris, 1956 (sous presse).
43. Terrasse (Henri) : *Les Arts décoratifs au Maroc*, Paris, 1925
44. ... : *L'art hispano-mauresque, dès origines au XIIIe Siècle*, Paris, 1932.
45. ... & Basset : *Sanctuaires et forteresses almohades*, Paris, 1932.
46. ... : *La grande mosquée des Andalous à Fès*, Paris, 1942
47. ... : *La grande mosquée de Taza*, Paris, 1943.
48. ... : *Histoire du Maroc dès origines à l'établissement du Protectorat français*, Casablanca; 1949.
49. ... & Meunié : *Recherches archéologiques à Marrakech*, Paris, 1952.
50. ... : *La forteresse almoravide d'Amargo, al-Andalus*, vol. XVIII, fasc.2, 1953.

51. Terrasse : L'art de l'empire almoravide, ses sources et son évolution, dans *Studia Islamsica*, t. III, 1955.
52. ... : art almoravide et art, almohade, al-Andalus, vol. XXVI, 1961.
53. ... : La reviviscence de l'Acanthe dans l'art hispano-mauresque, sous les almoravides, al-Andalus, vol. XXVI, 1961.
54. Torres Balbas (Leopoldo) : *Arquitectos Andaluces de las épocas almorávide y almohade*, al-Andalus, 1946.
55. ... : *Atarazanas hispanomusulmanas*, al-Andalus, vol. XI, 1946.
56. ... : *La primitiva mezquita mayor de Sevilla*, al-Andalus, vol. XI, 1946.
57. ... : *Ars Hispaniae*, t. IV : arte almohade, Nasiri et Mudejar, Madrid, 1949.
58. ... : *La mezquita de Cordoba y las ruinas de Madinat al-Zahra*, Madrid, 1952.
59. ... : *El arte de al-Andalus bajo los almorávides*, al-Andalus, vol. XVII, 1952.
60. ... : *Almeria Islámica*, al-Andalus, vol. XXII, 1957.
61. Le Tourneau (Roger) : *Fès avant le Protectorat*, Casablanca 1949.
62. Turk (Afif) : *el Reino de Zaragoza en el siglo XI, de Jesu cristo*, tesis para el grado de Doctor, presentada en Madrid, 1956.

المصور



(شكل ١) المسجد الجامع بالقىروان : منظر عام من أعلى المئذنة
(عن كروزل)



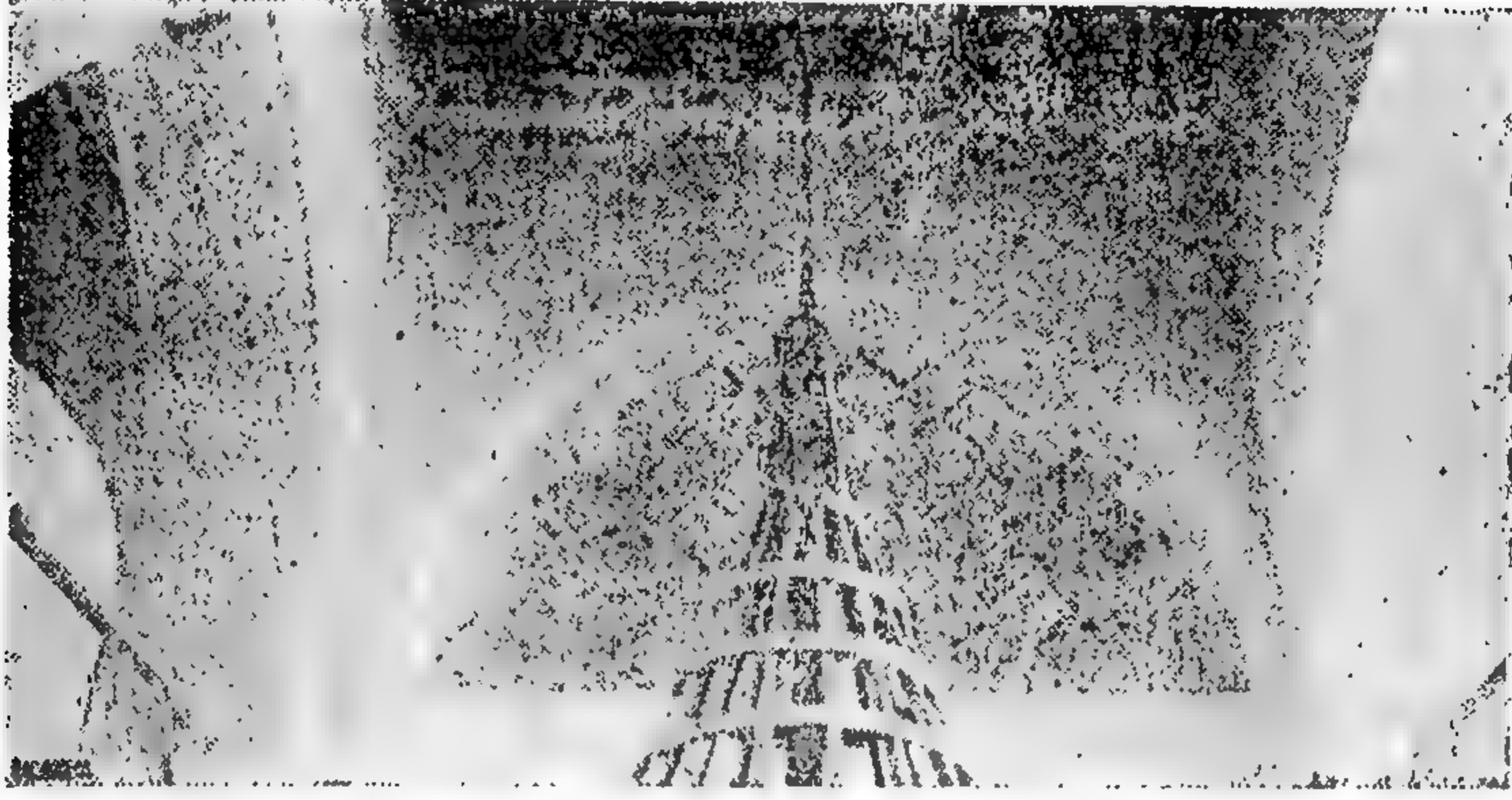
(شكل ٢) المسجد الجامع بالقيروان : جوفة المحراب
(عن كرزول)



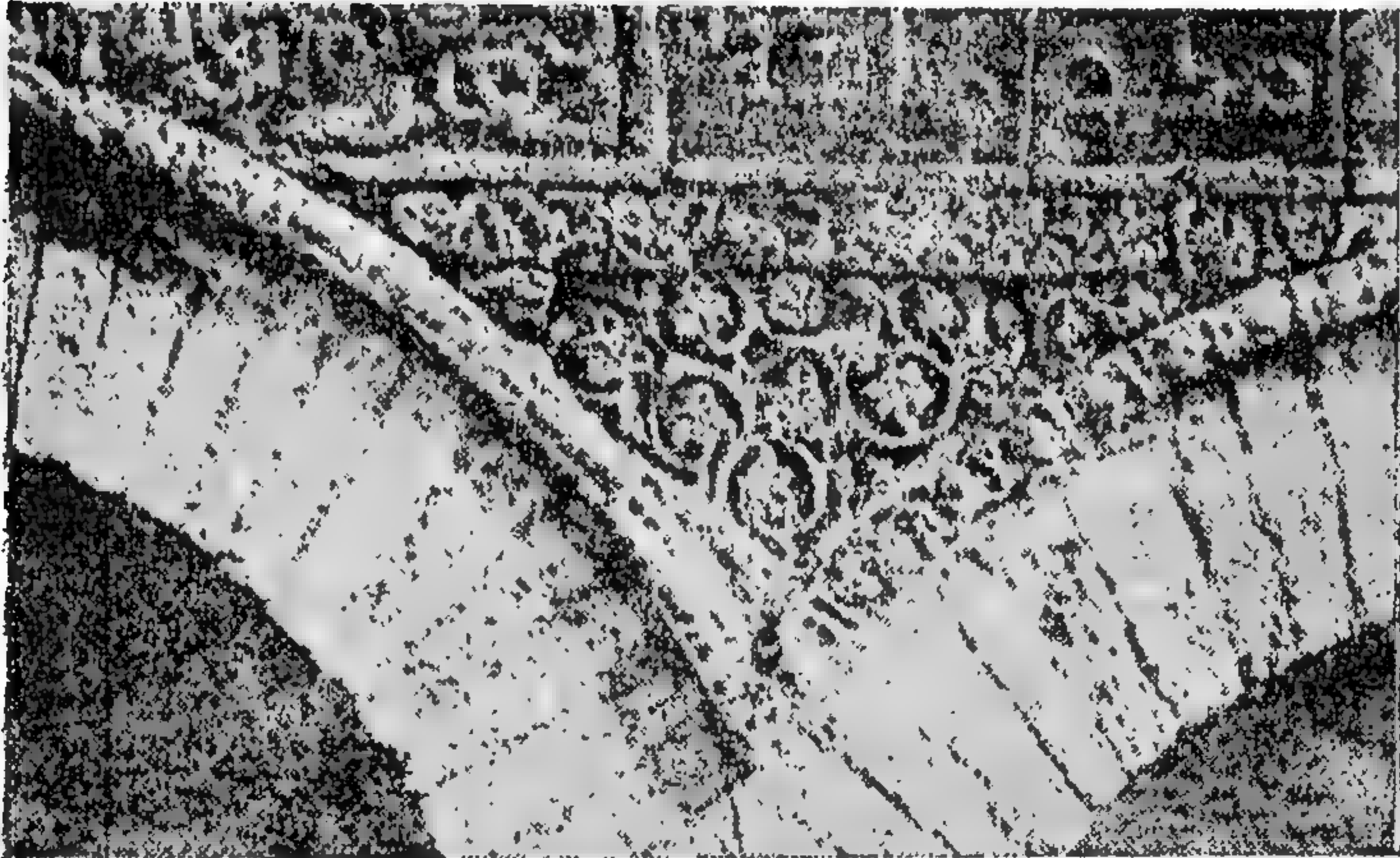
(شكل ٣) المسجد الجامع بسوسة : منظر عام
(عن كرزول)



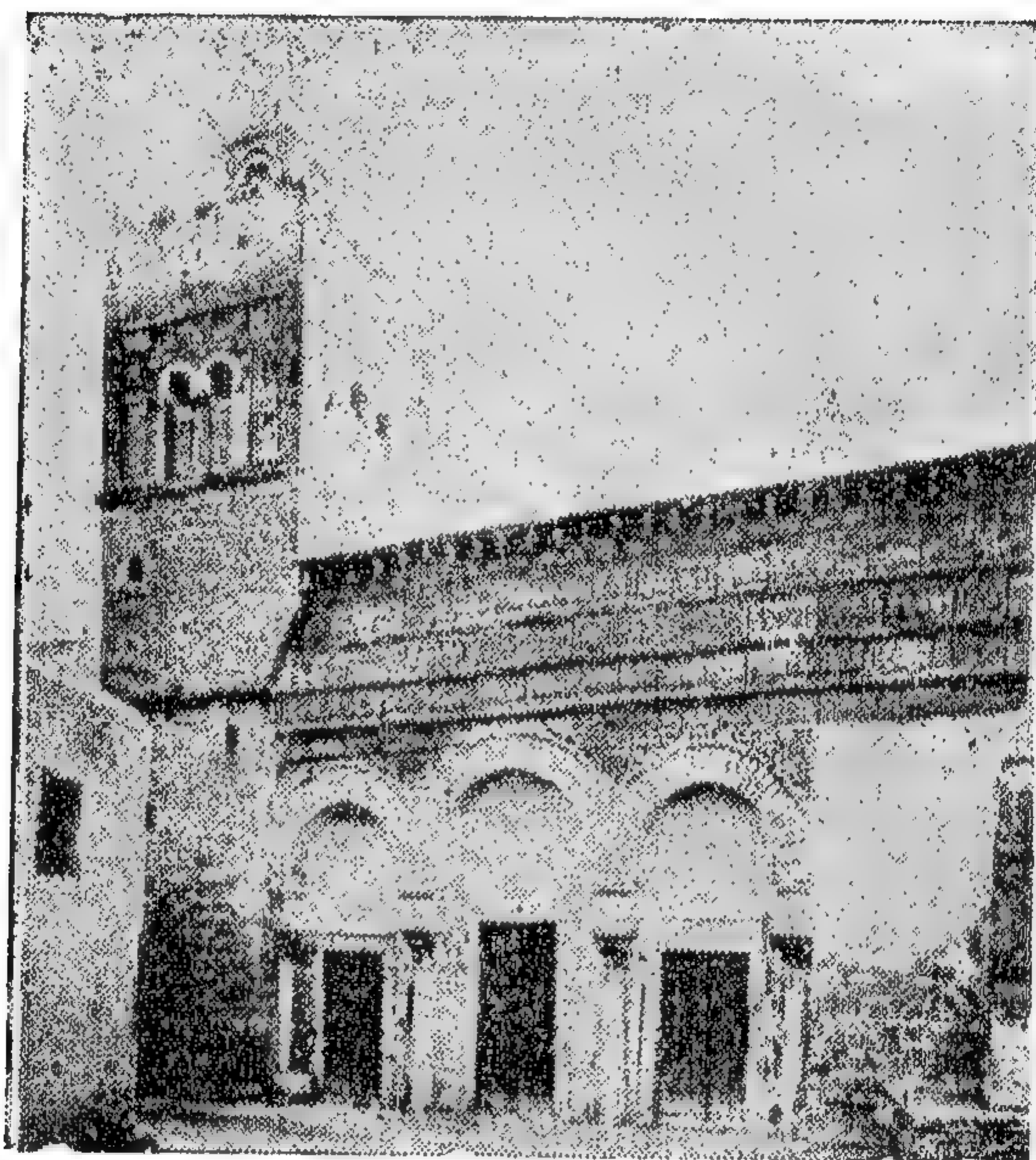
(شكل ٤) المسجد الجامع بسوسة : منظر لعقود بيت الصلاة أدنى القبة
(عن كرزول)



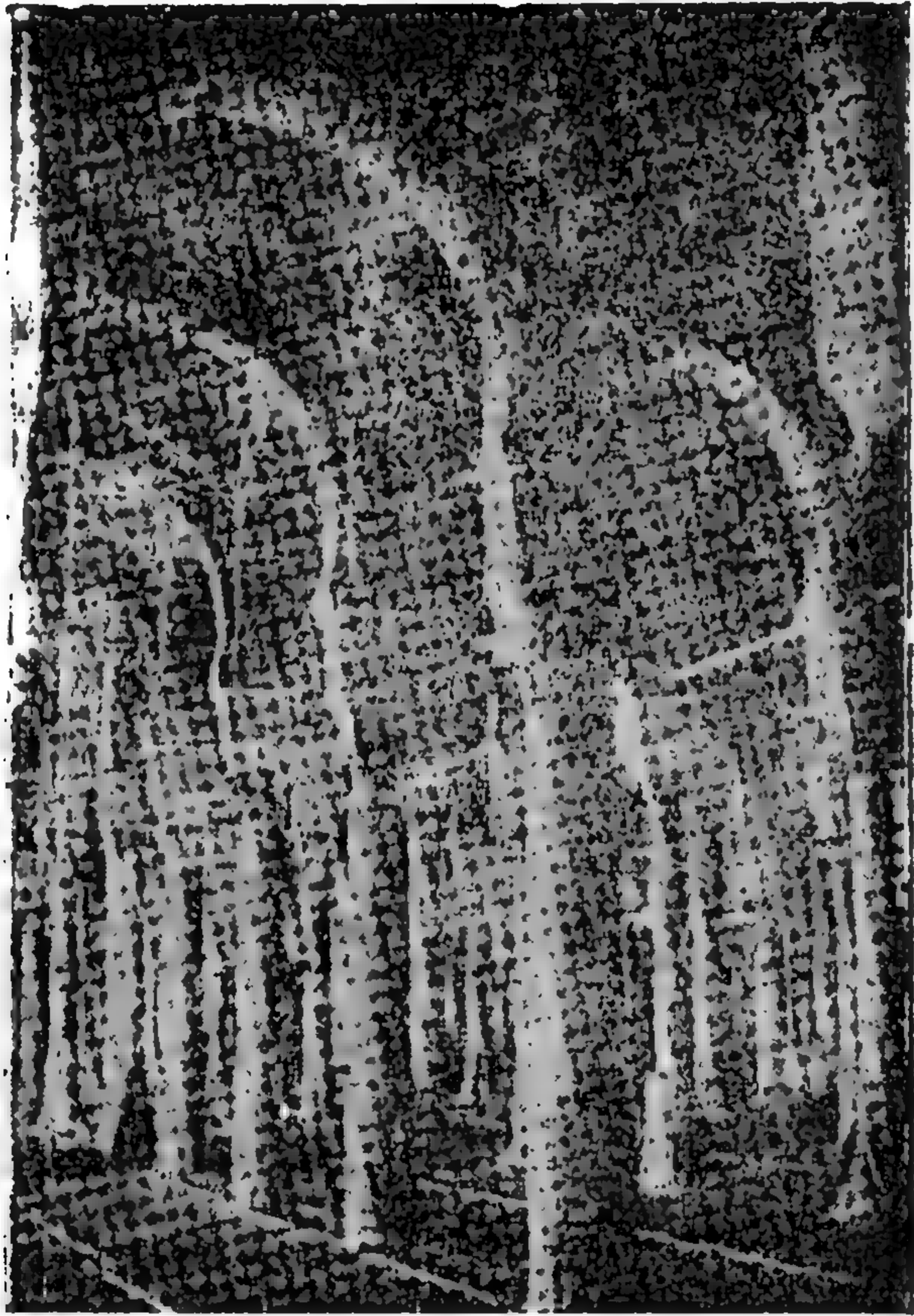
(شكل ٥) المسجد الجامع بسوسة : أحد العقود التي
تقوم عليها القبة (عن كرزول)



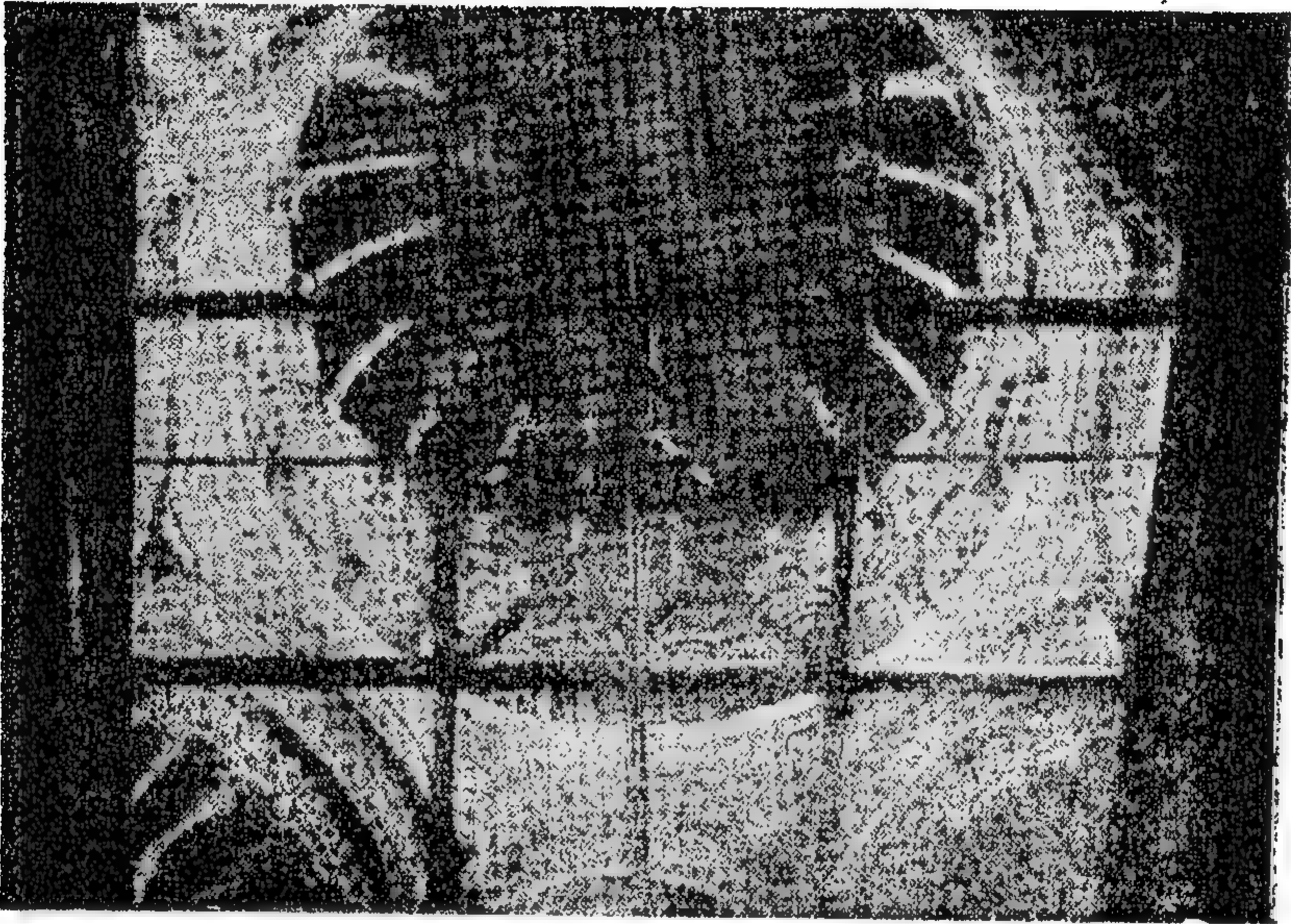
(شكل ٦) مسجد الابواب الثلاثة بالقيروان
تفصيل لزخارف واجهة المدخل (عن كرزول)



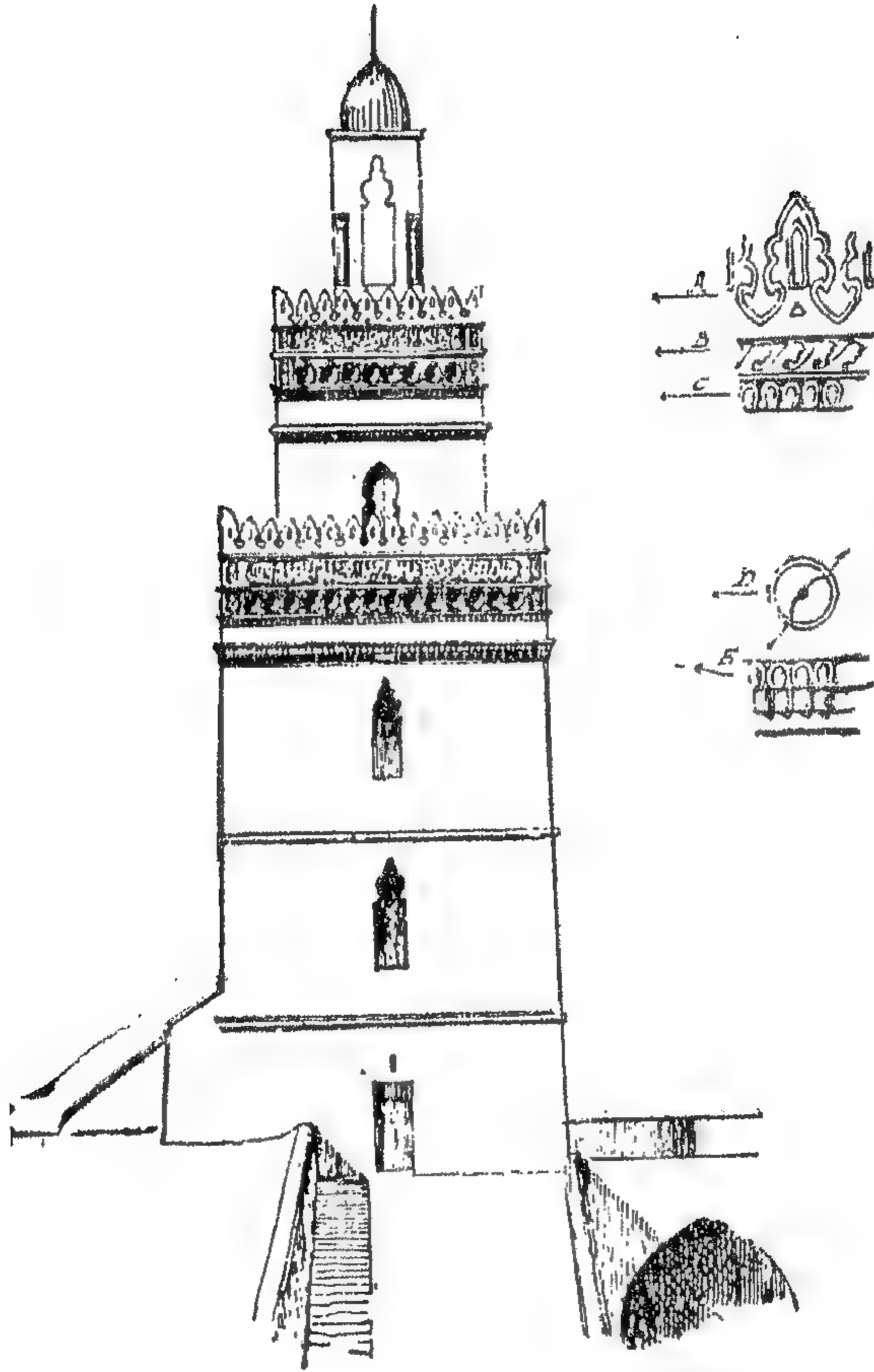
(شكل ٧) مسجد الابواب الثلاثة بالقيروان
منظر عام للواجهة (عن كرزول)



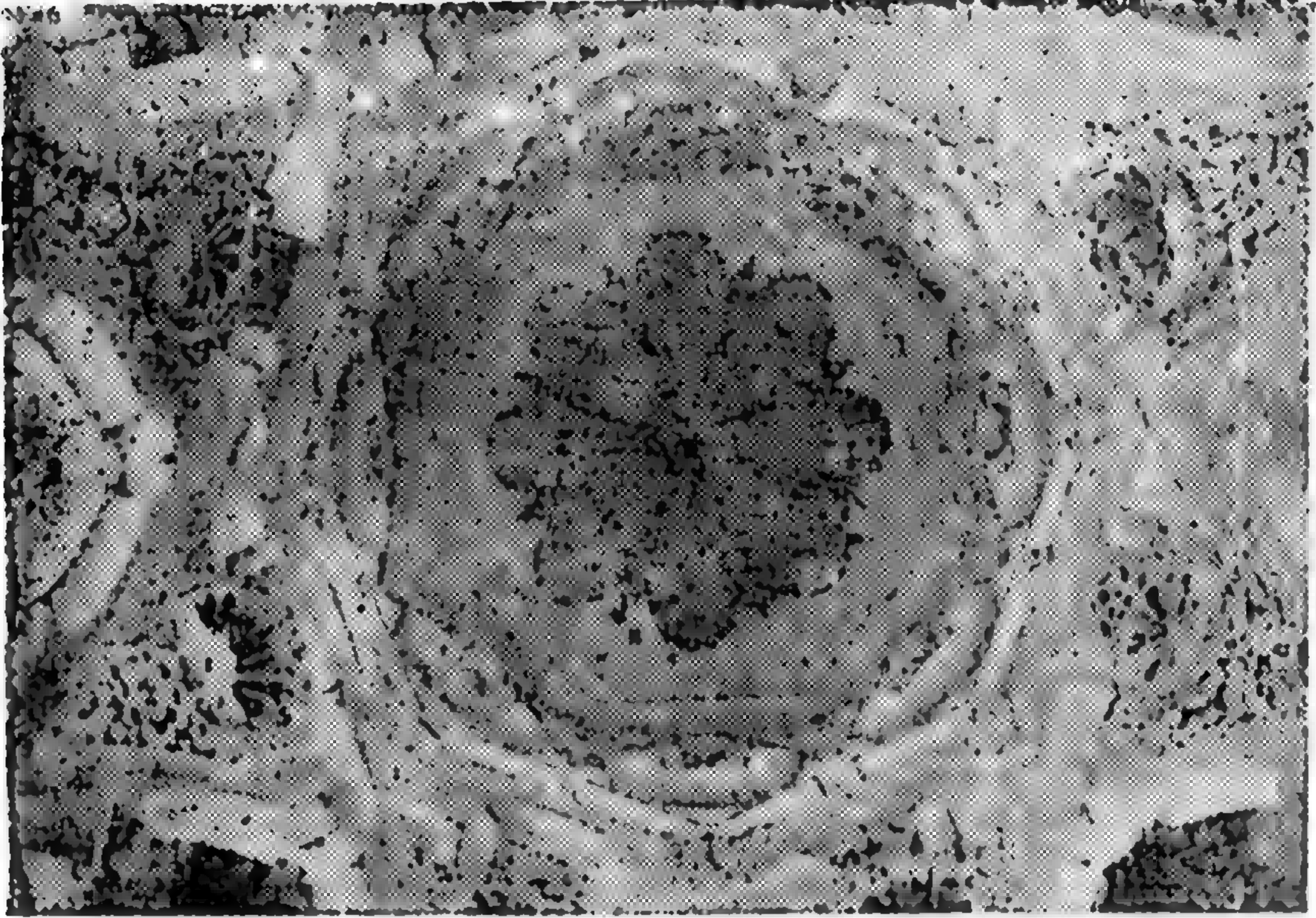
(شكل ٨) جامع الزيتونة بتونس :
عقود بيت الصلاة (عن فكرى)



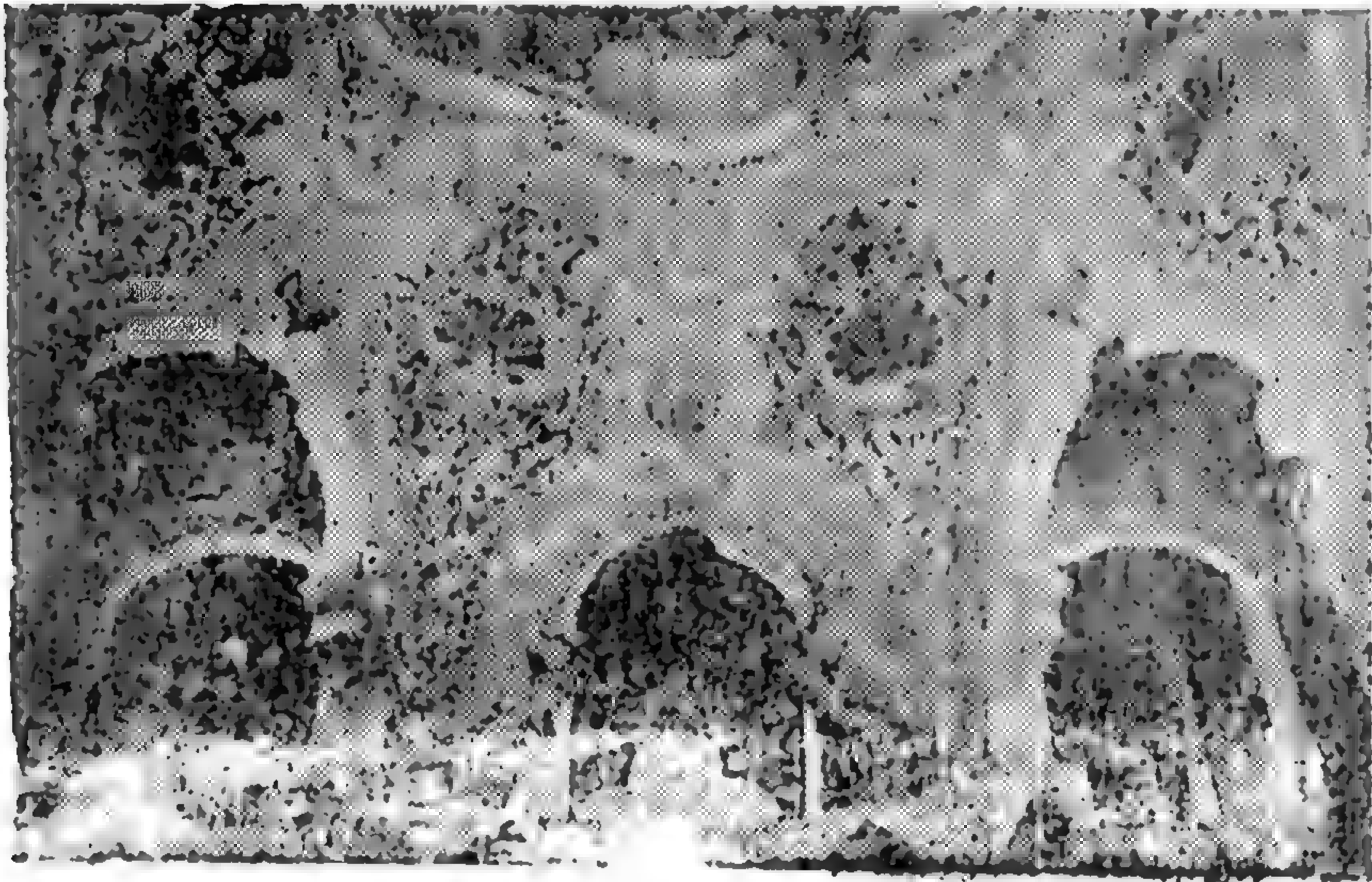
(شكل ٩) جامع الزيتونة بتونس : قبة المحراب من الداخل
(عن فكرى)



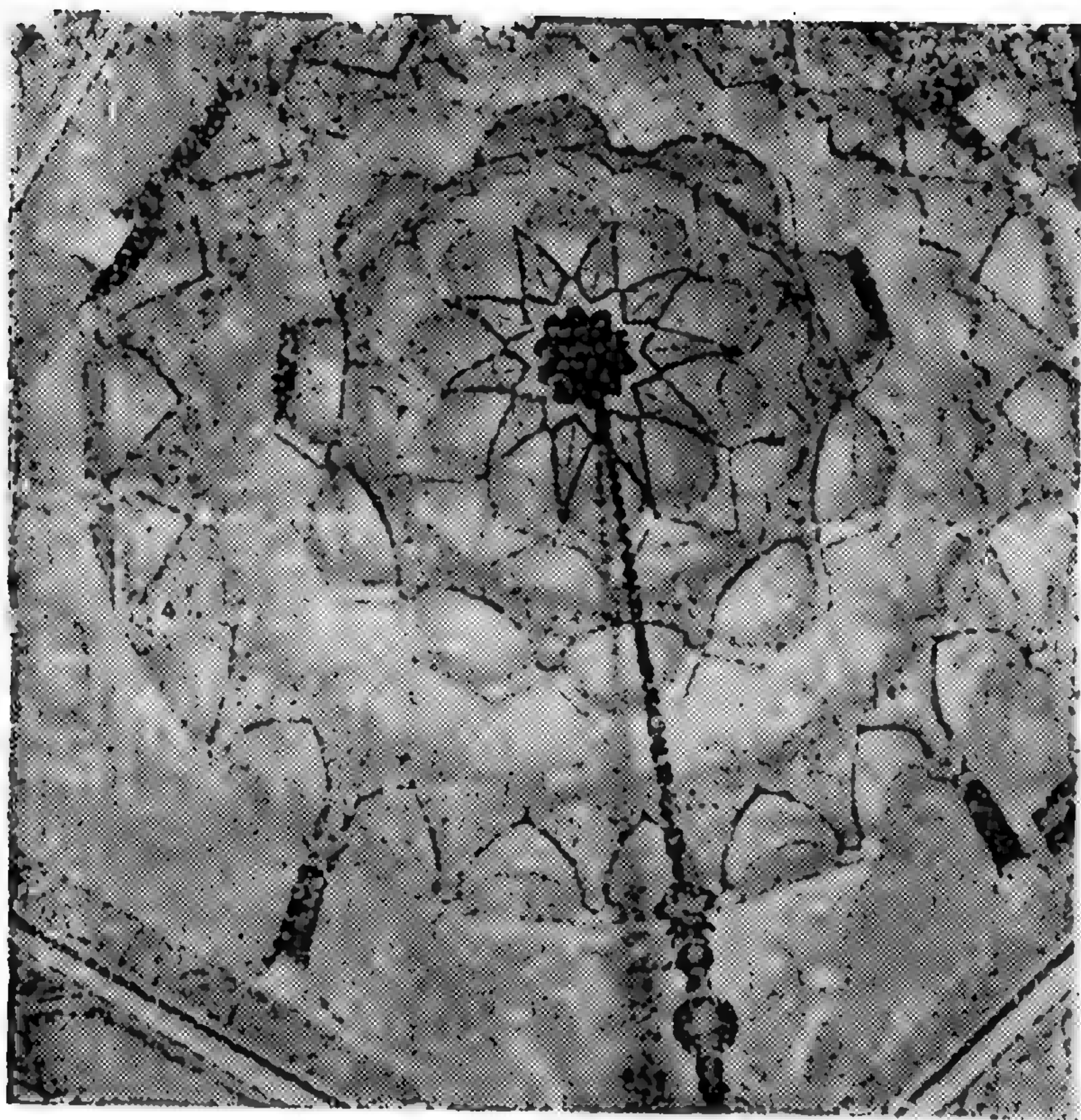
(شكل ١٠) المسجد الجامع بسفاقس
رسم للمثدنة (عن مارسية)



(شكل ١١) قبة البروذيين بمراكش (عن مارسيه)



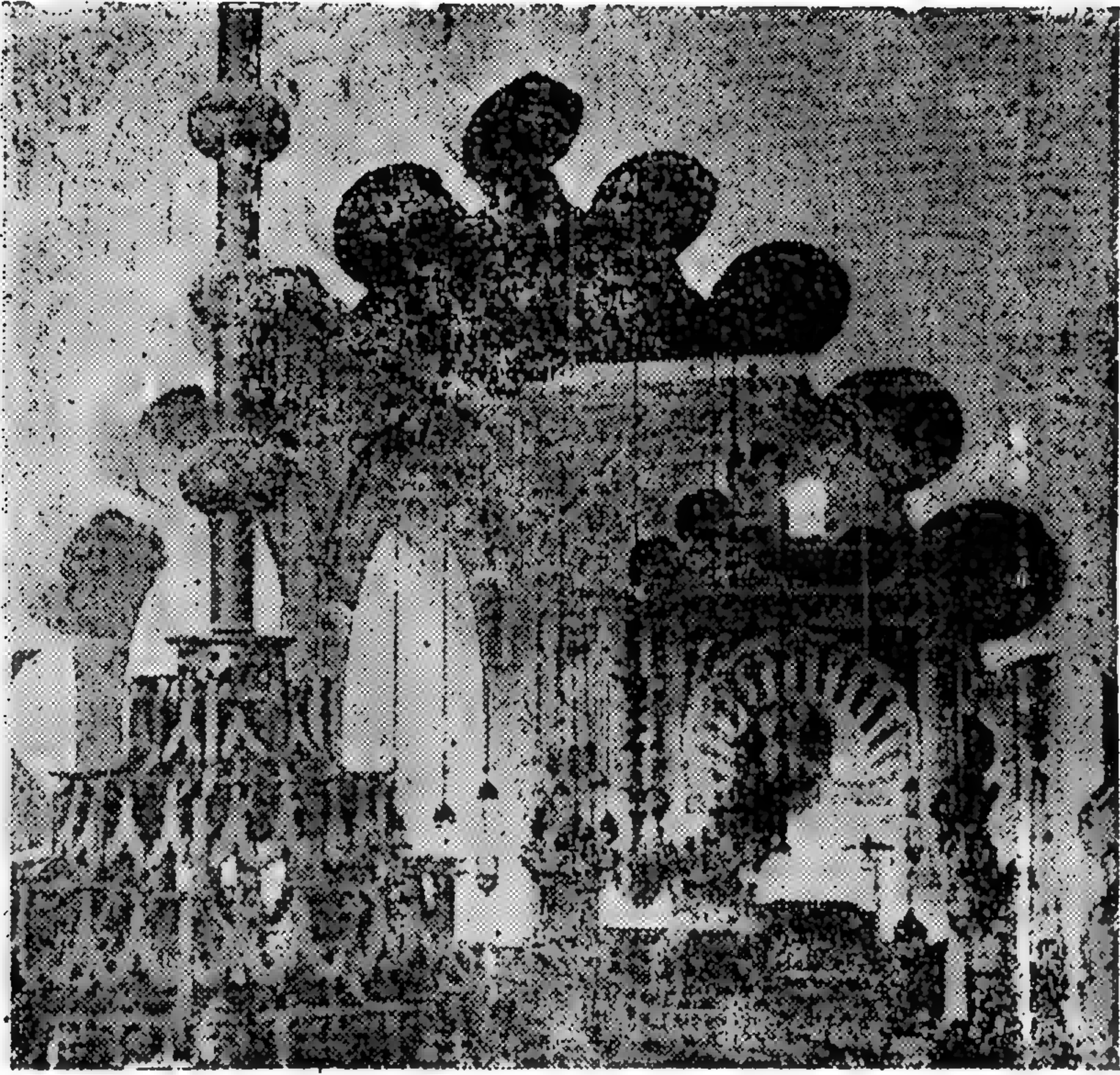
(شكل ١٢) قبة البروذيين بمراكش (عن مارسيه)



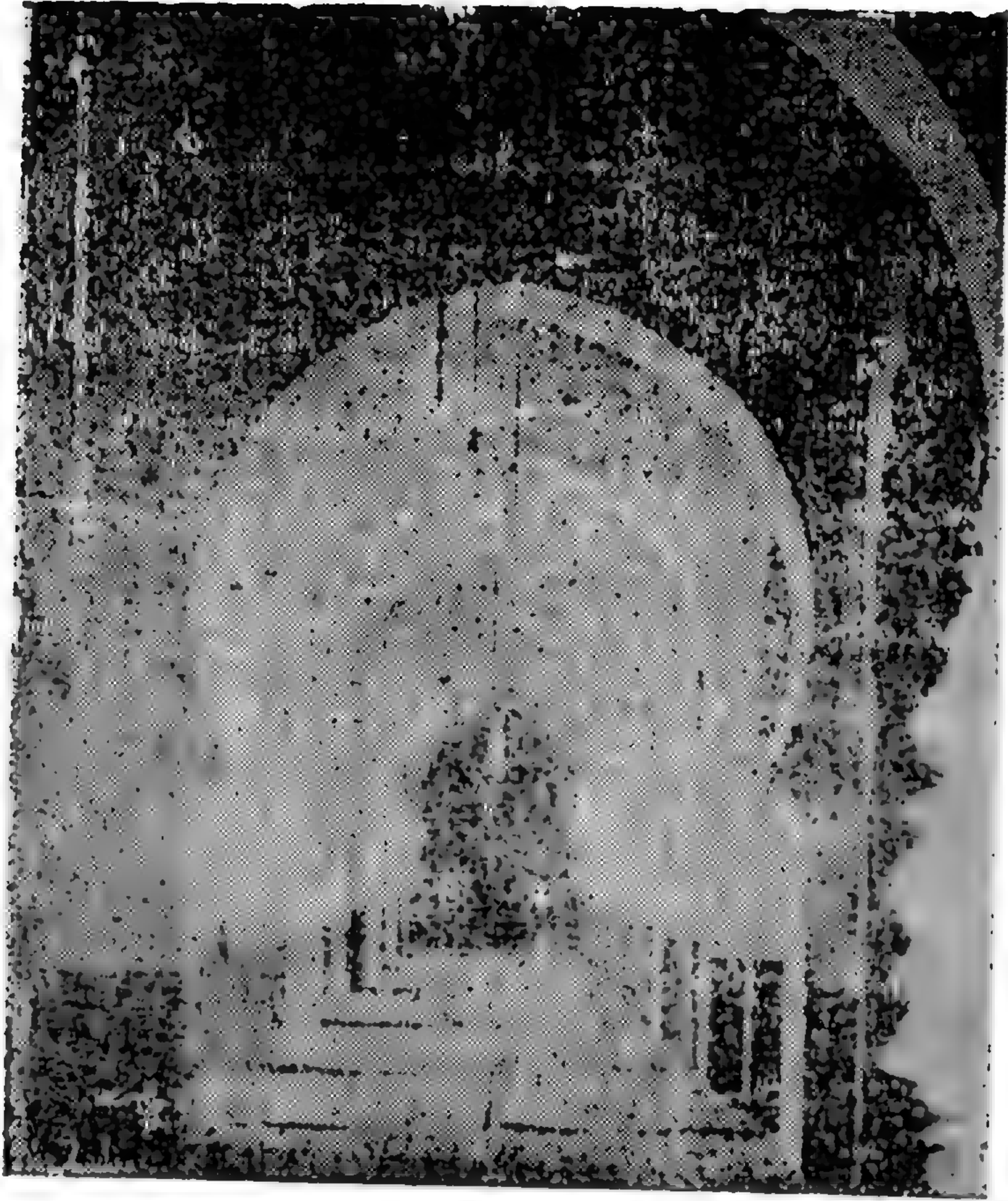
(شكل ١٣) جامع القرويين بفاس : قبة المحراب
(عن مارسيه)



(شكل ١٤) جامع القرويين بفاس : البلاطة الوسطى
(عن مارسيه)



(شكل ١٥) المسجد الجامع بتمسان : البلاطة الوسطى
(عن مارسيه)



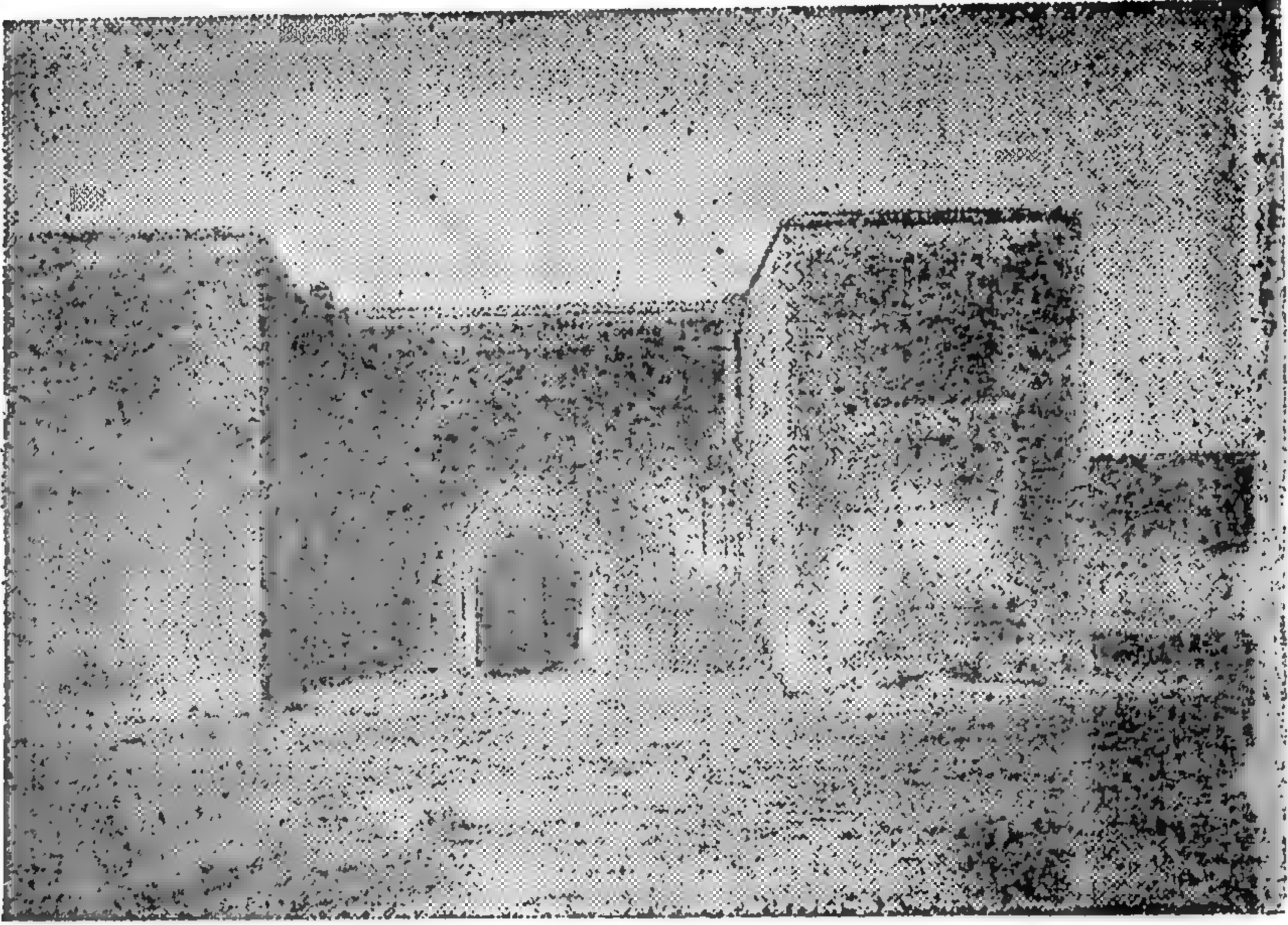
(شكل ١٦) المسجد الجامع بالجزائر : عقود بيت الصلاة
(عن مارسيه)



(شكل ١٧) المسجد الجامع بـتلـمسان : واجهة المحراب وجانب من القبة
(عن مارسيه)



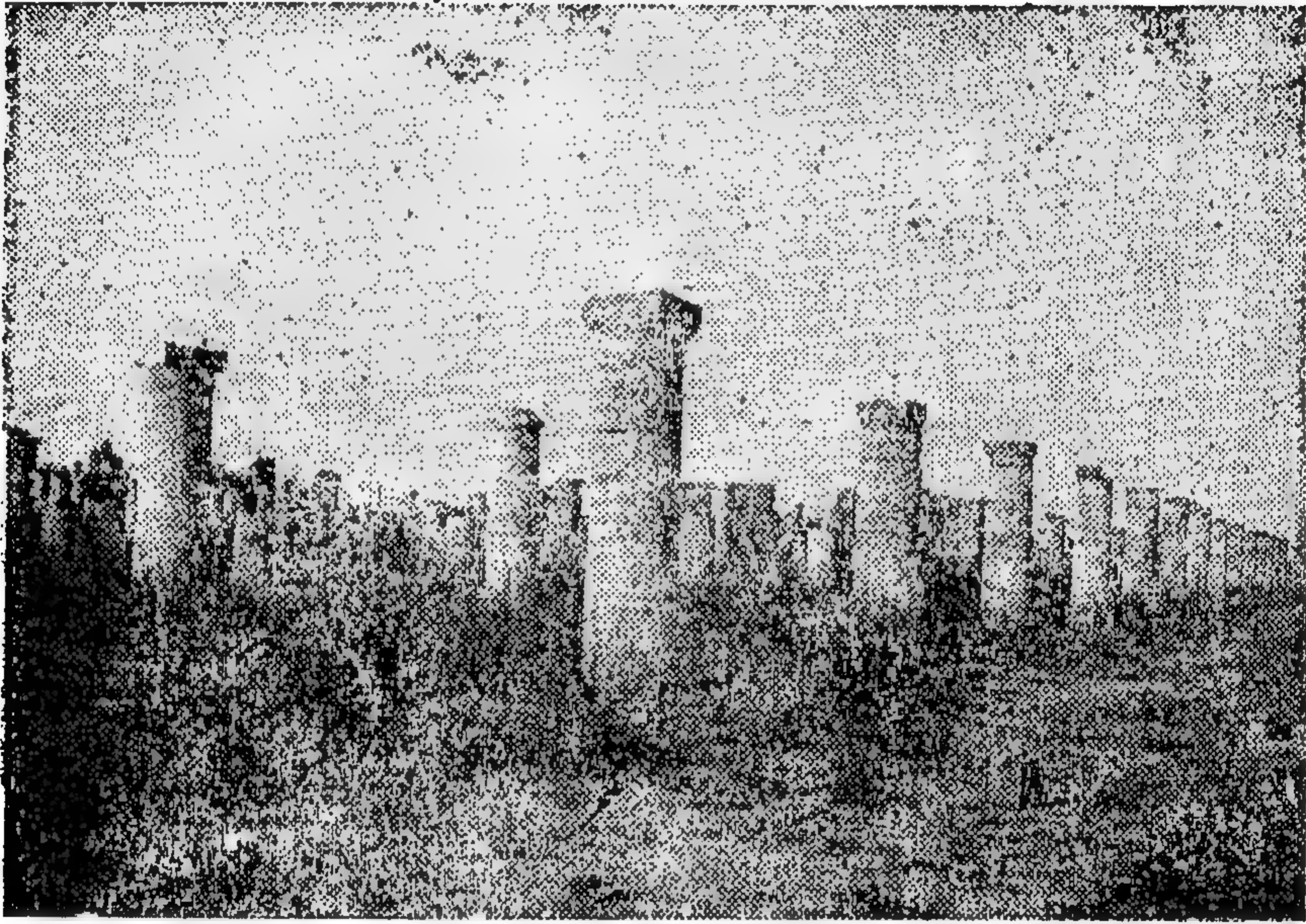
(شكل ١٨) جامع الانداسيين بفاس : مجنبه الصحن والصومعة
(عن تراس)



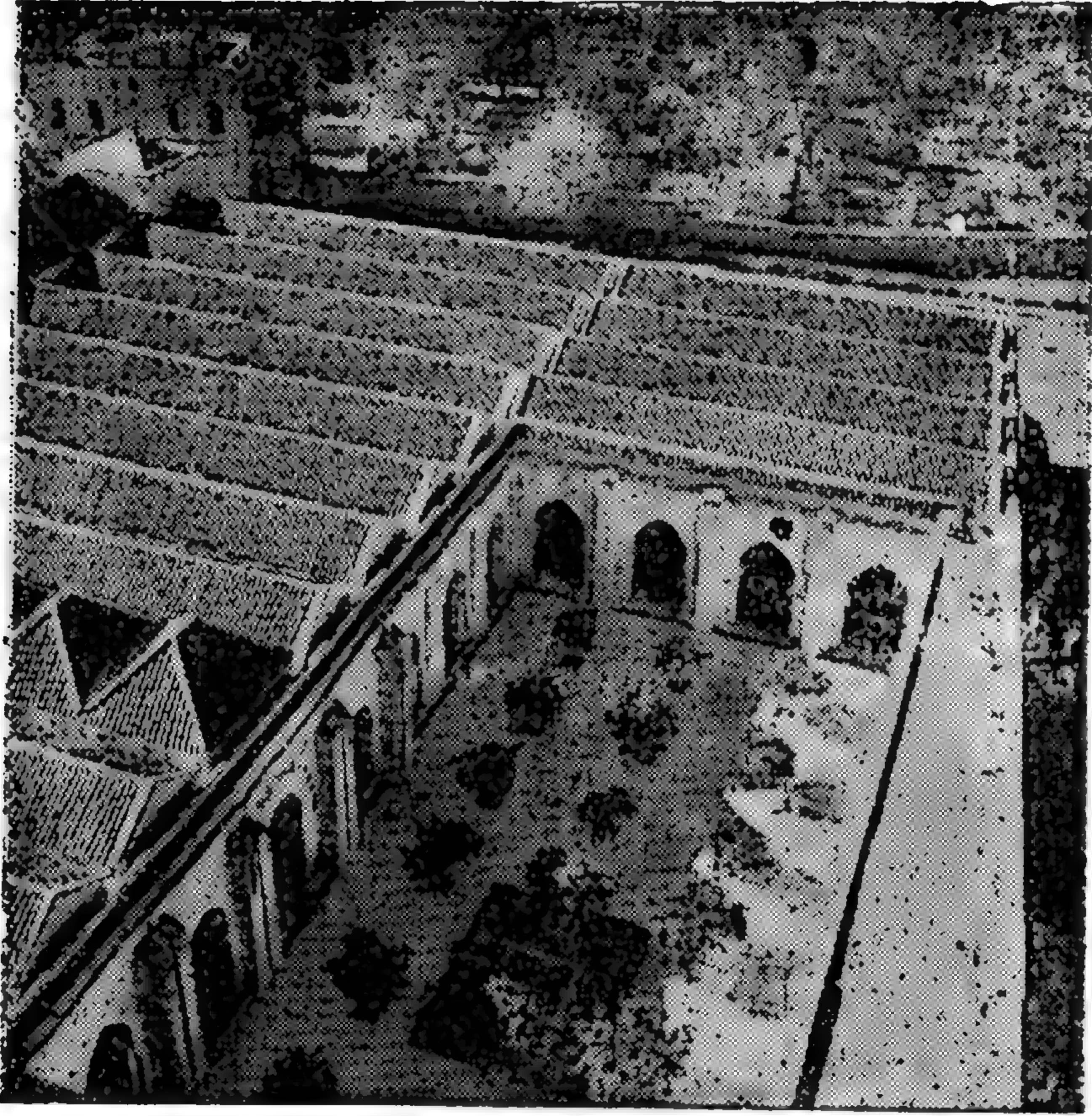
(شكل ١٩) باب الرواح بمراكش
(عن مصالحة الآثار)



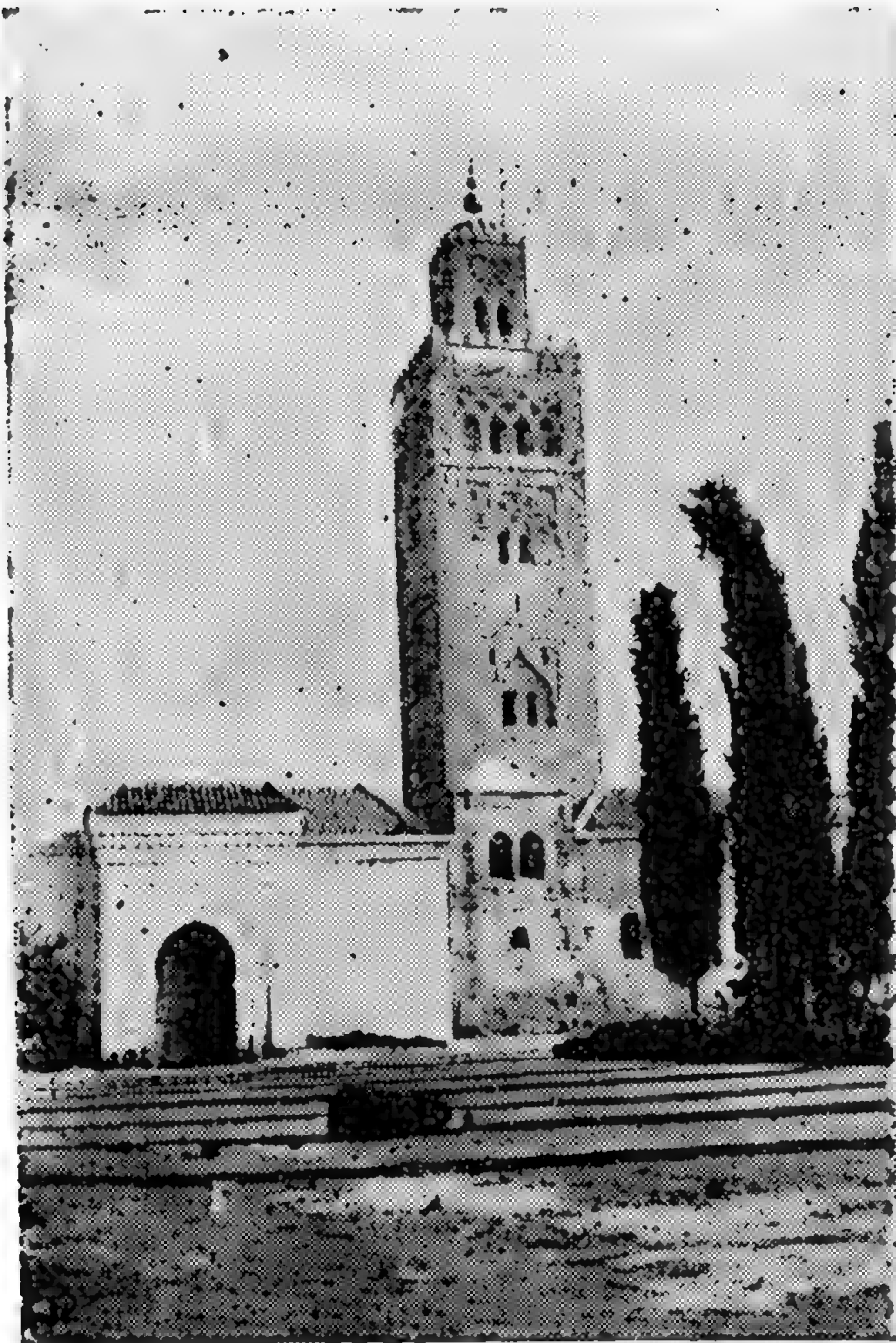
(شكل ٢٠) المسجد الجامع برباط الفتح والصومعة
(عن مكتب السياحة المغربي بالرباط)



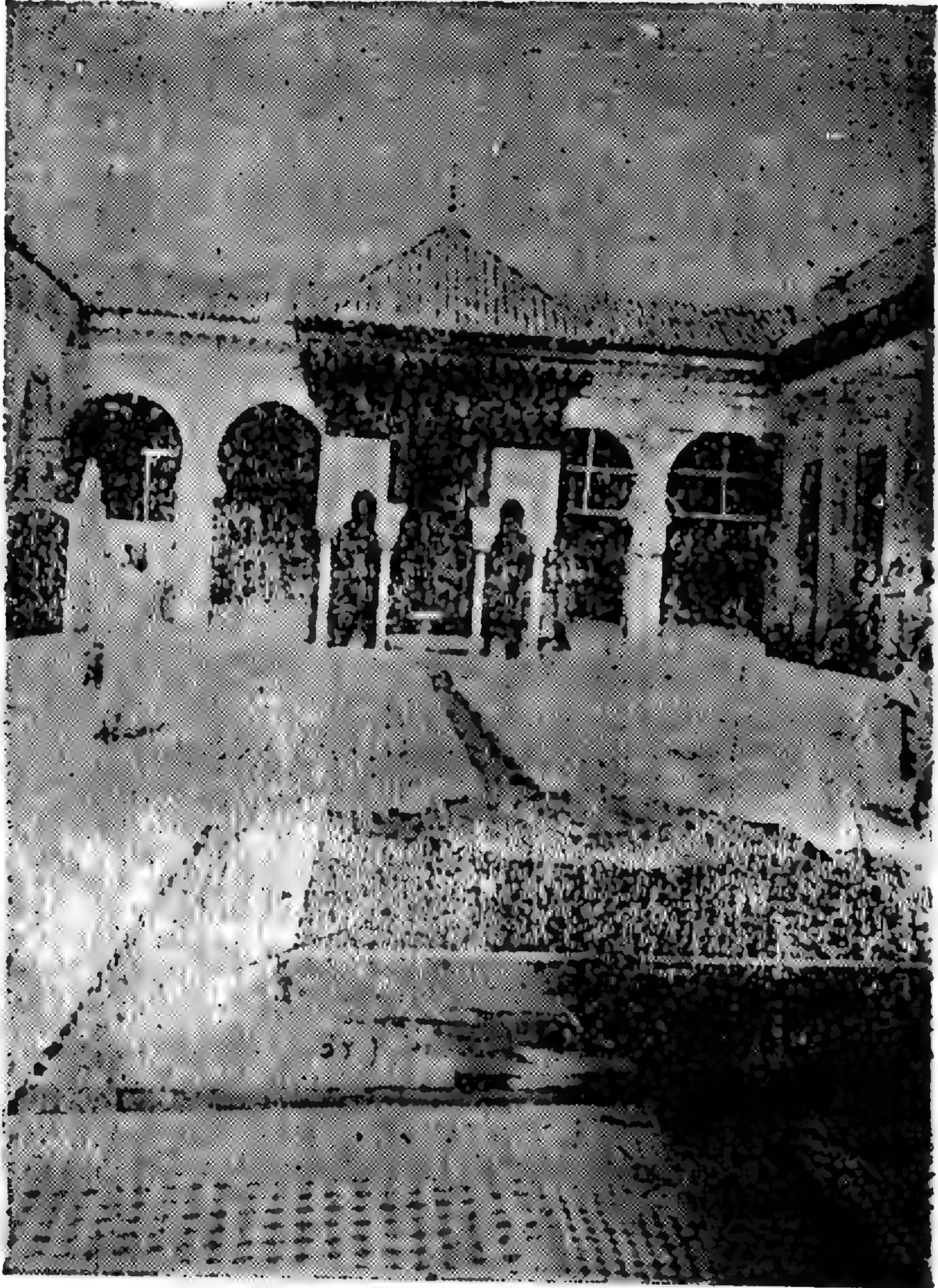
(شكل ٢١) المسجد الجامع برباط الفتاح : أعمدة بيت الصلاة
(عن مصالحة الآثار)



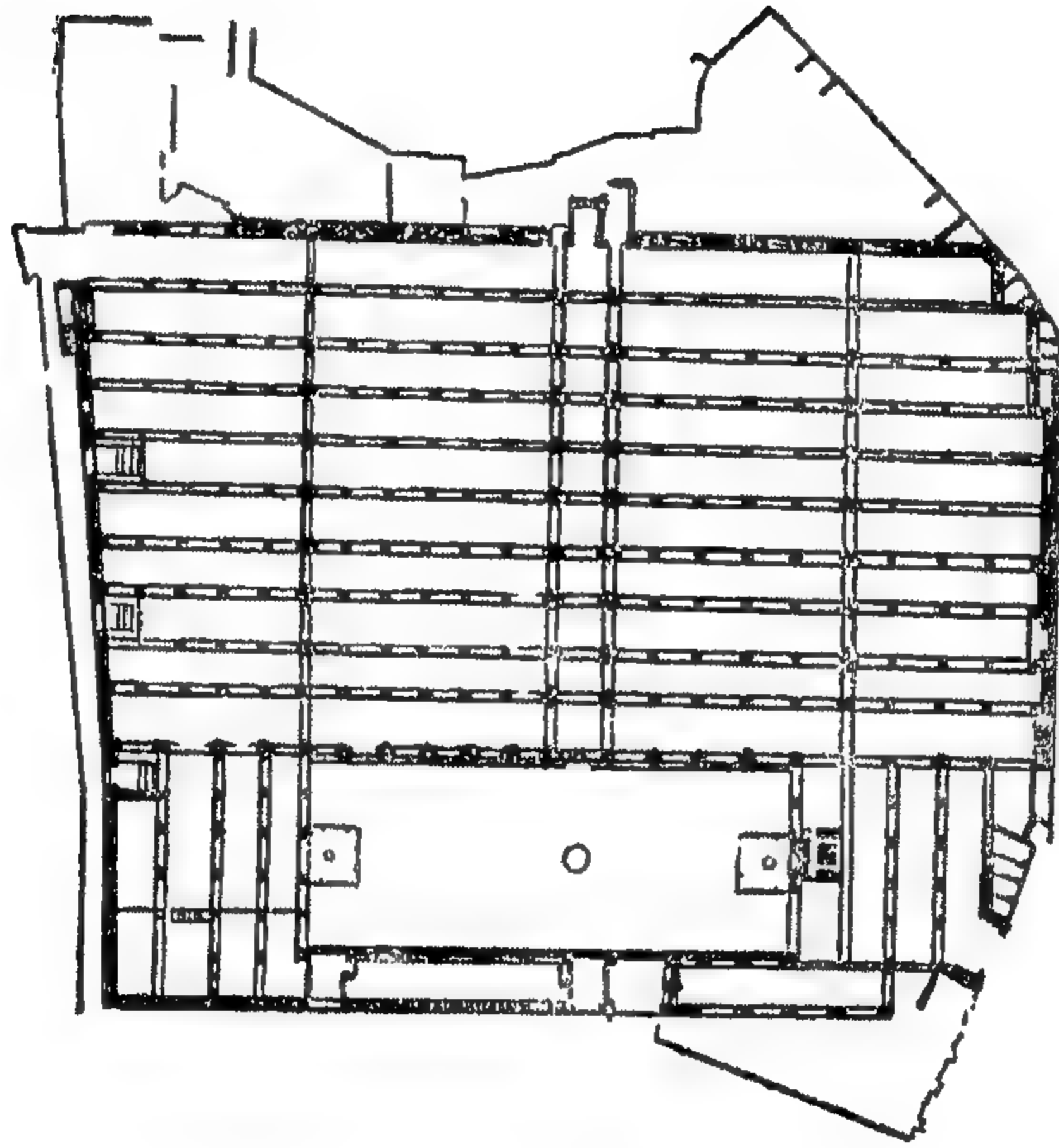
(شكل ٠٢) جامع الكتبية بمراكش : الاسقف والصحن
(عن مكتب السياحة المغربي بالرباط)



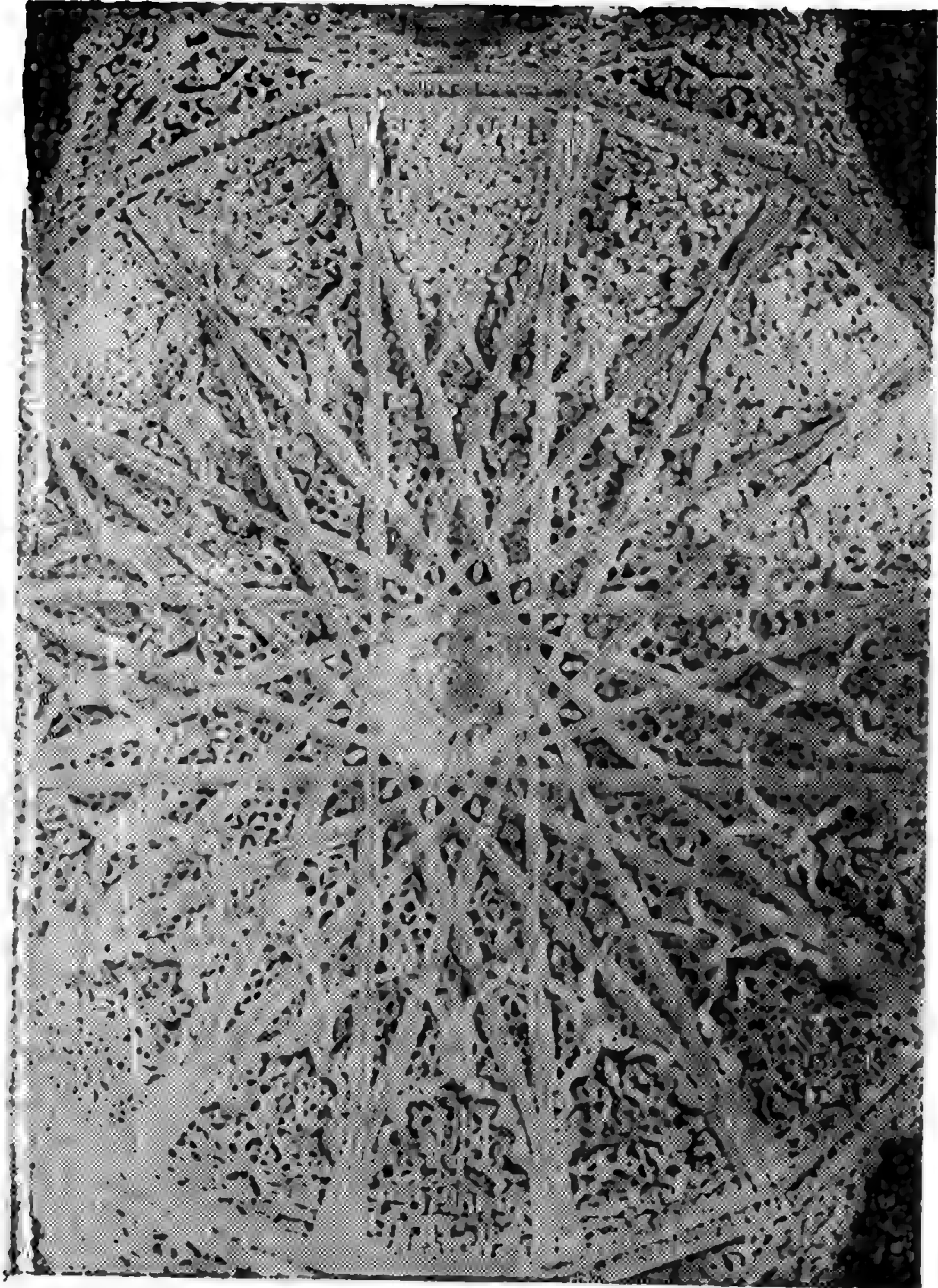
(شكل ٢٣) جامع الكتبية بمراكش : الصومعة
(للمؤلف)



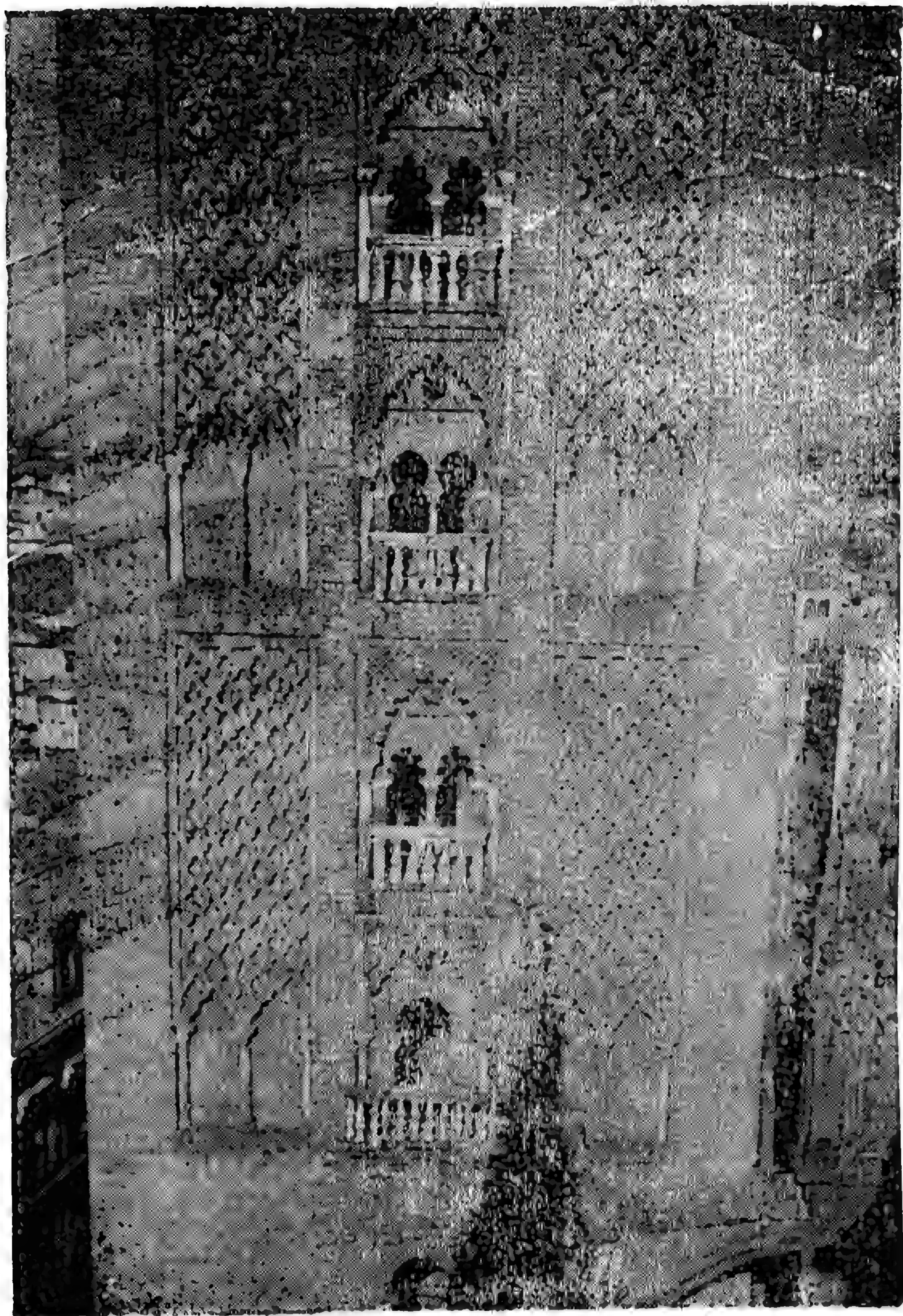
(شكل ٢٤) جامع القرويين بفاس : المصحن
(عن مصباحة الآثار)



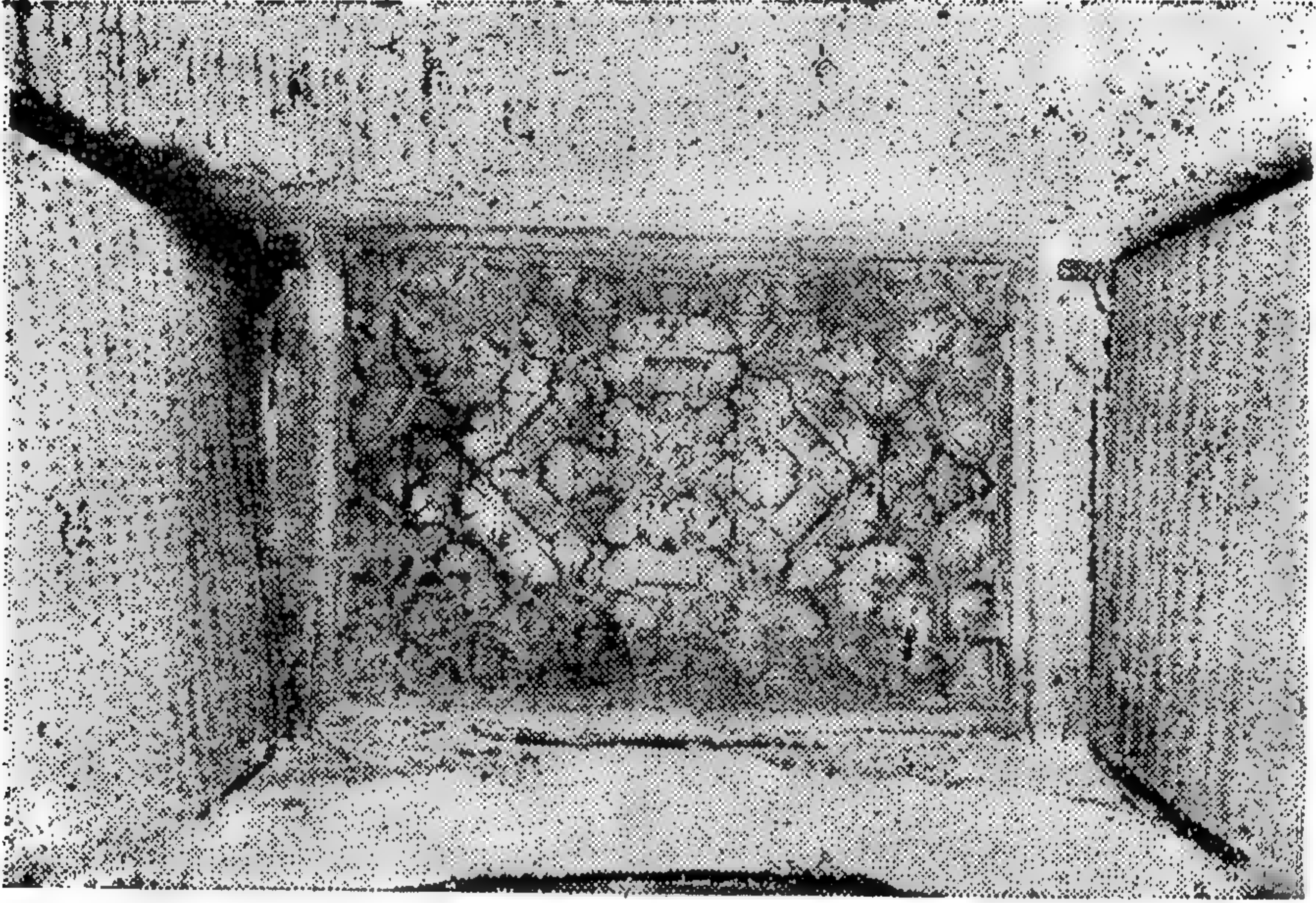
(شكل ٢٥) تخطيط الجامع القرويين بفاس
(عن مارسيه)



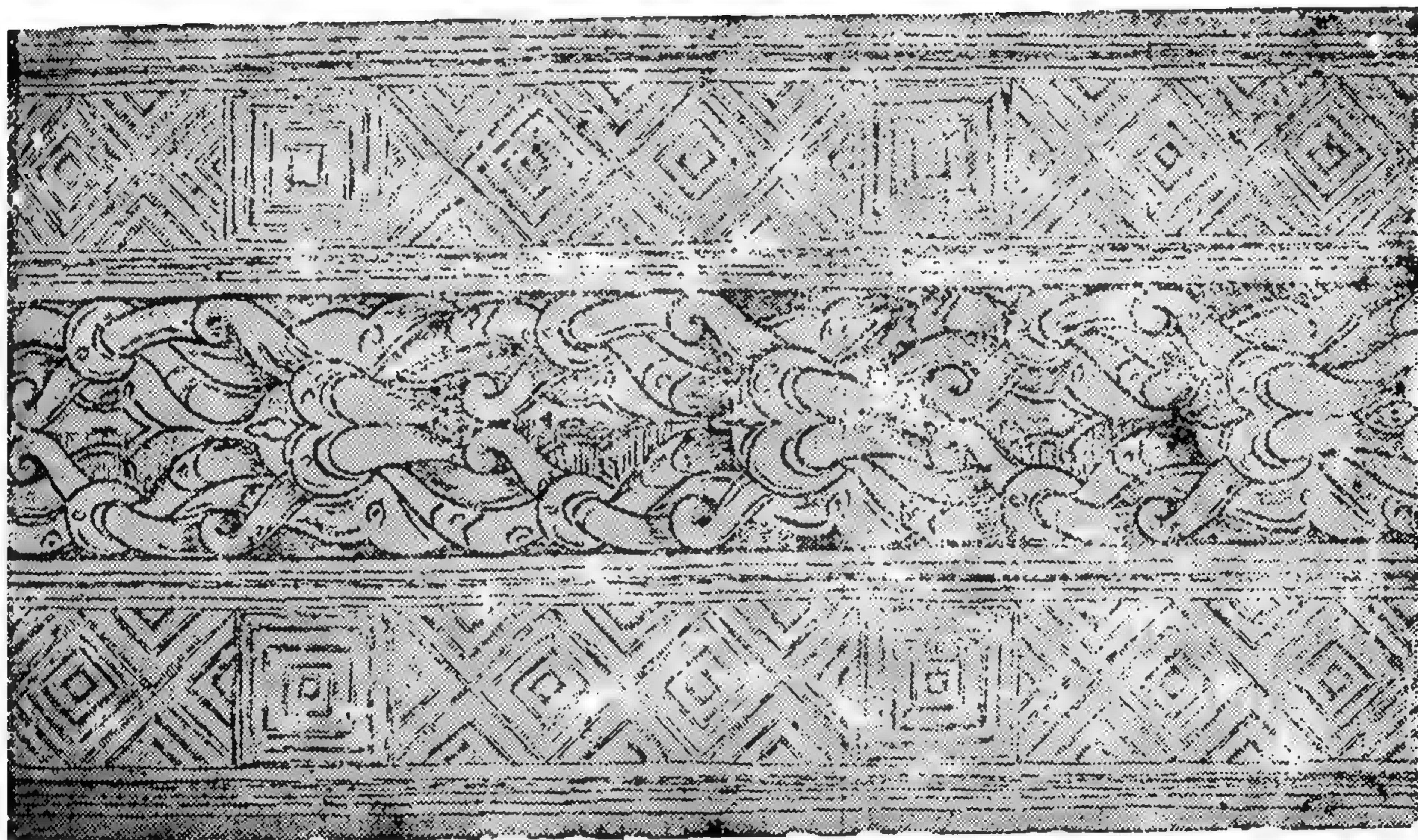
(شكل ٢٩) جامع رباط تازی : قبة المهراب
(عن توریس بلیاس)



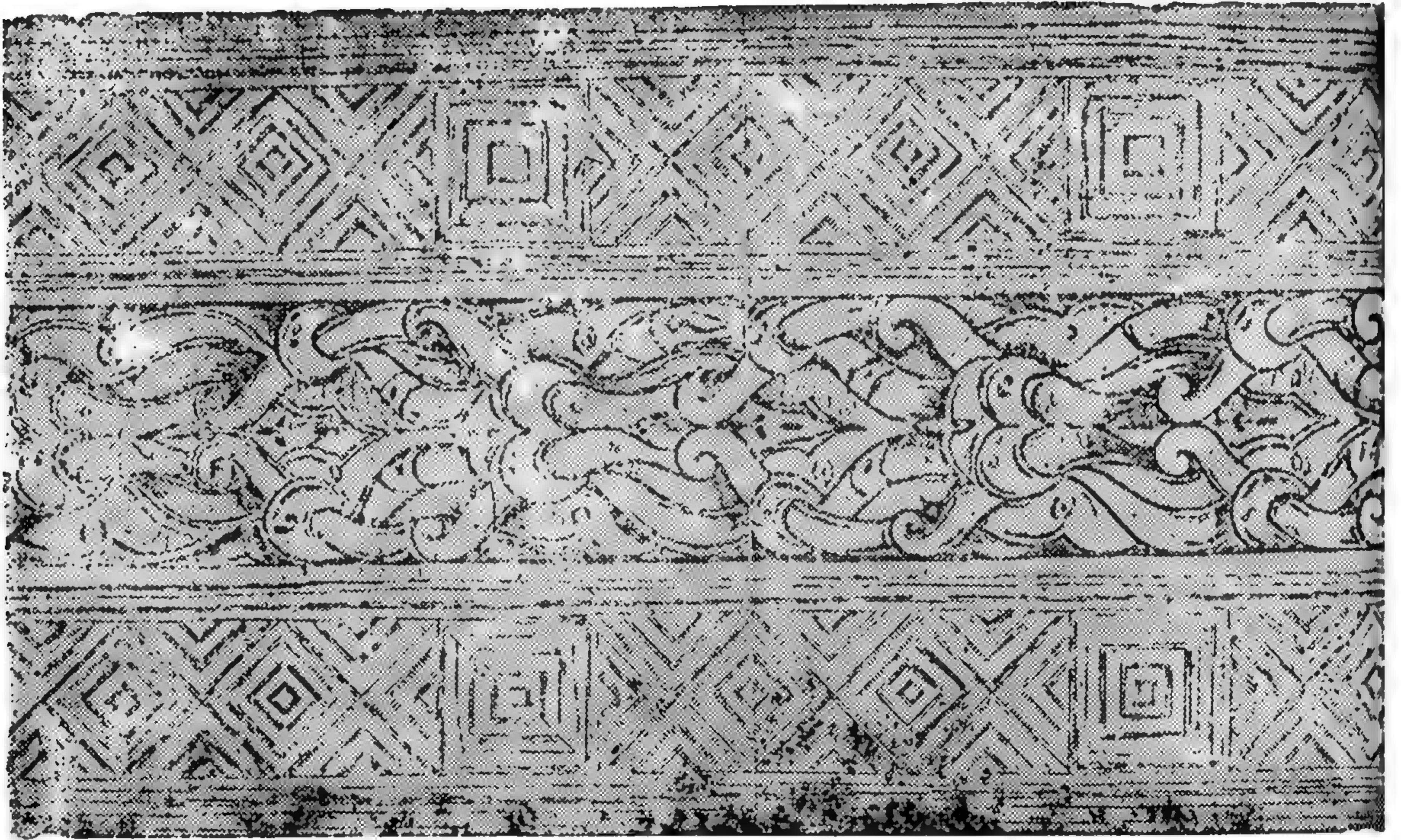
(شكل ٢٧) المسجد الجامع باشبيلية : الصومعة (للمؤلف)



(شكل ٢٨) المسجد الجامع باشييلية : قبوة بأعلى أسطوان المدخل الشرقى
(للمؤلف)



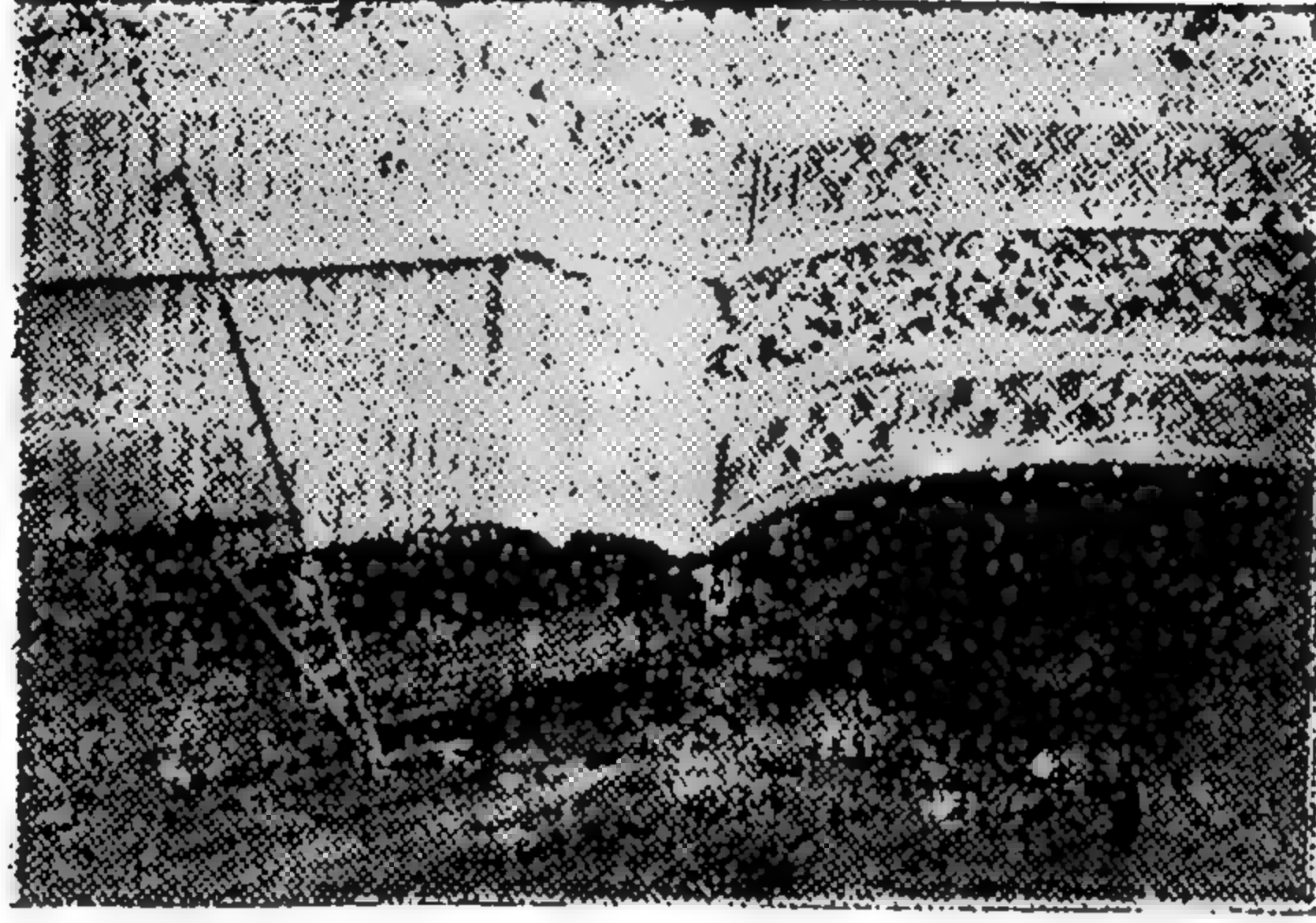
(شكل ٢٩) المسجد الجامع باشبيلية : جانب من الزخارف



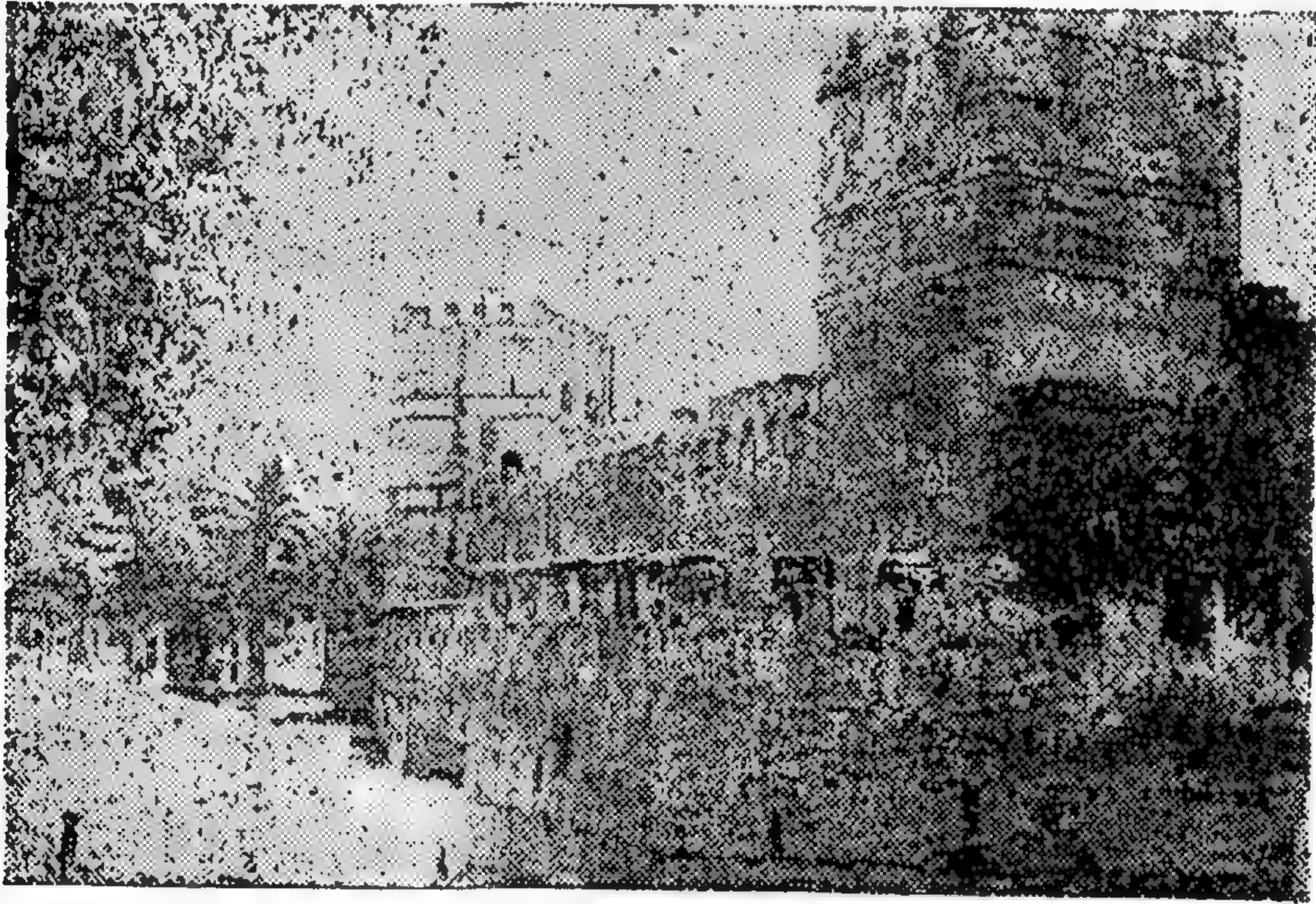
نمف بباطن عقد المدخل إلى الصحن
(من رسم المؤلف)



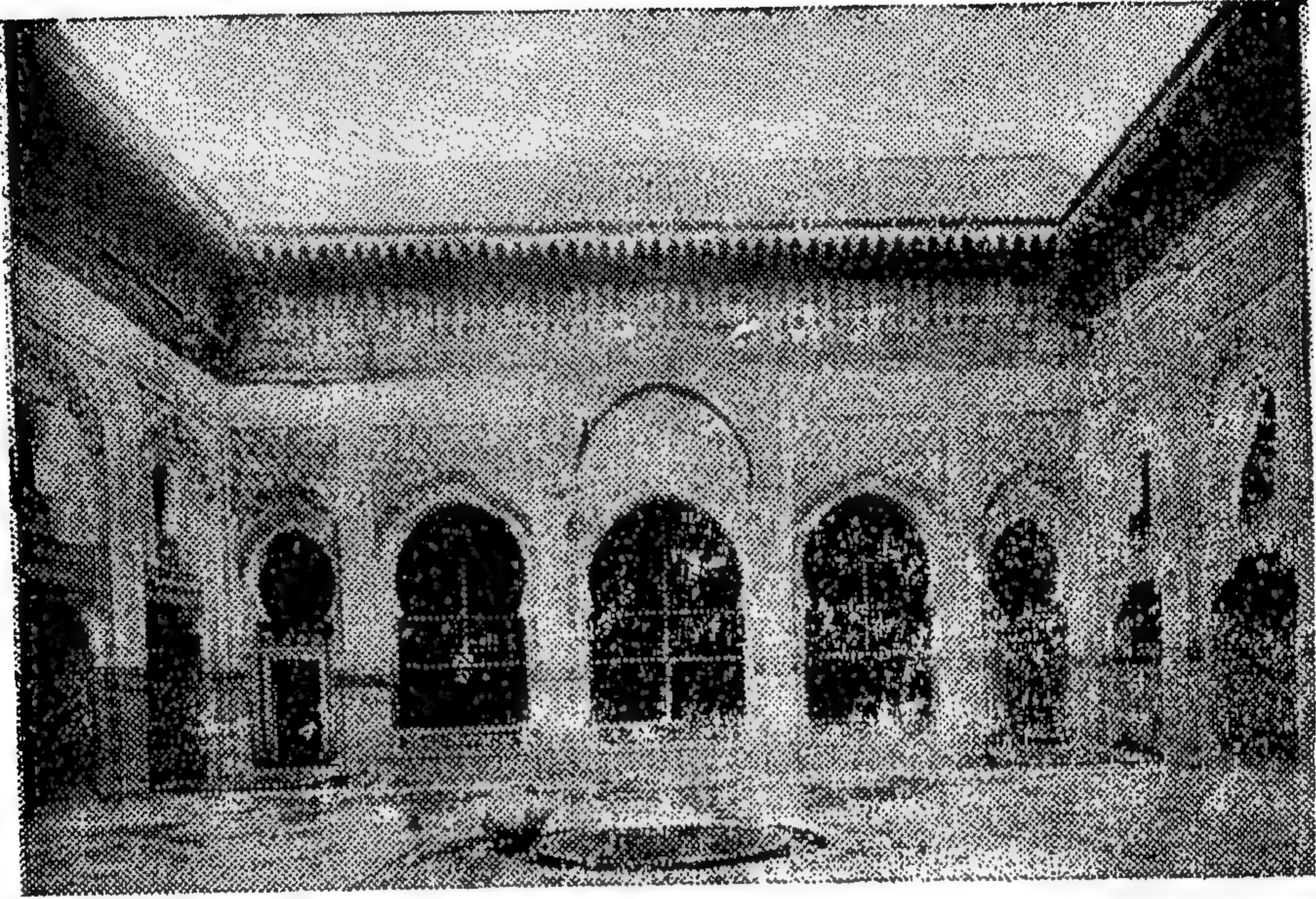
(شكل ٣٠) برج الذهب باشبيلية
(للمؤلف)



(شكل ٣١) المسجد الجامع باشبيلية :
زخارف تملا بواطن عقد المدخل الى صحن الجامع (الوواف)



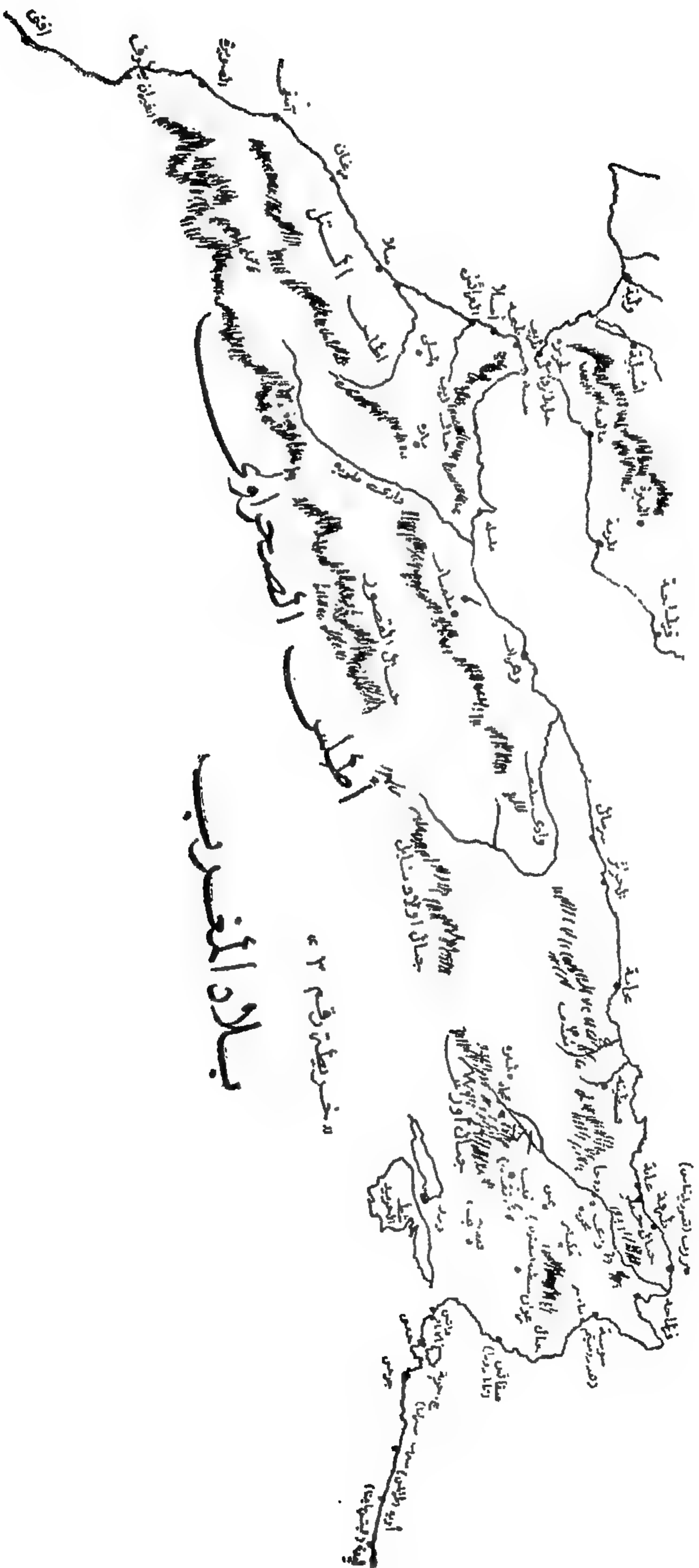
(شكل ٣٢) سوق مقارنة باشبيلية
(للوواف)

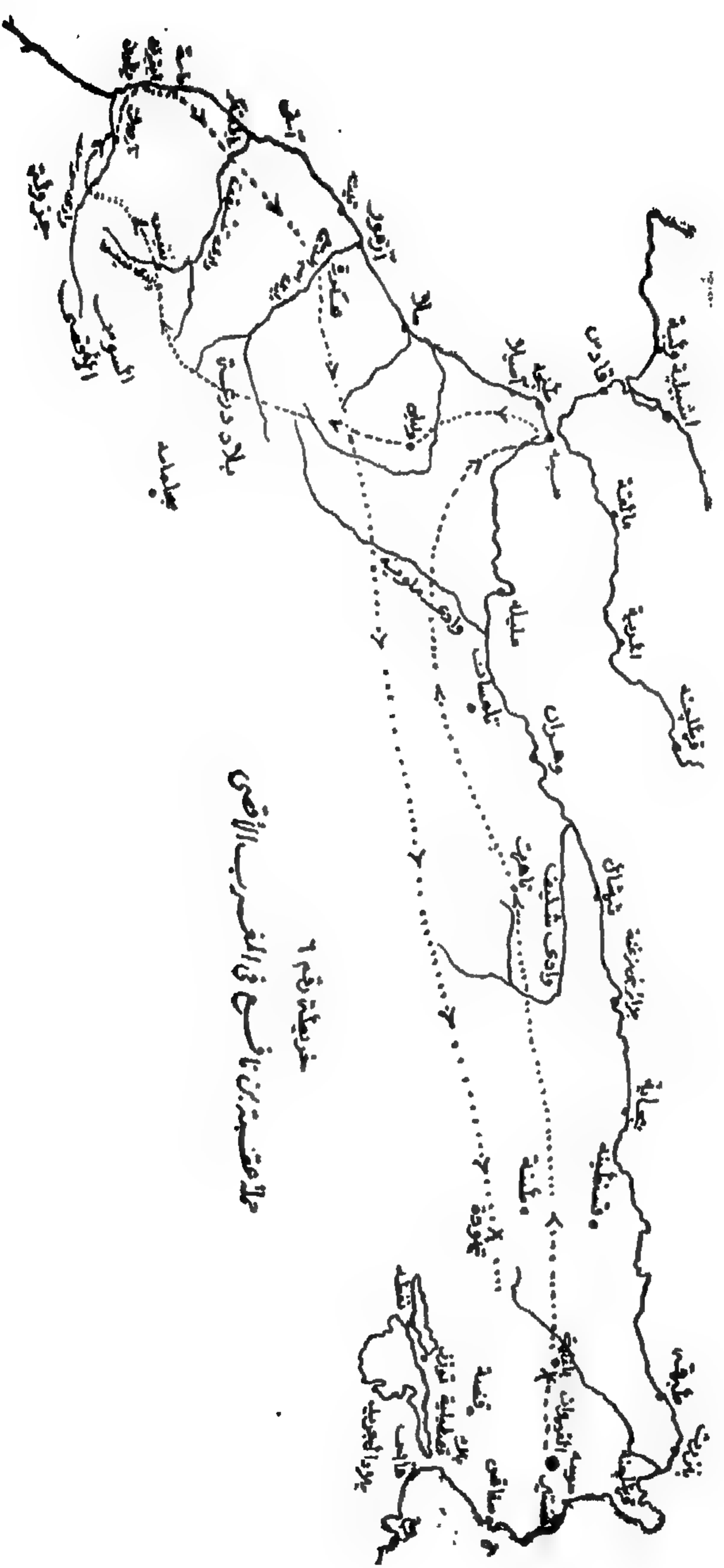


(شكل ٣٣) صحن المدرسة بوعنانية بفاس
(للمؤلف)

الخـرائط



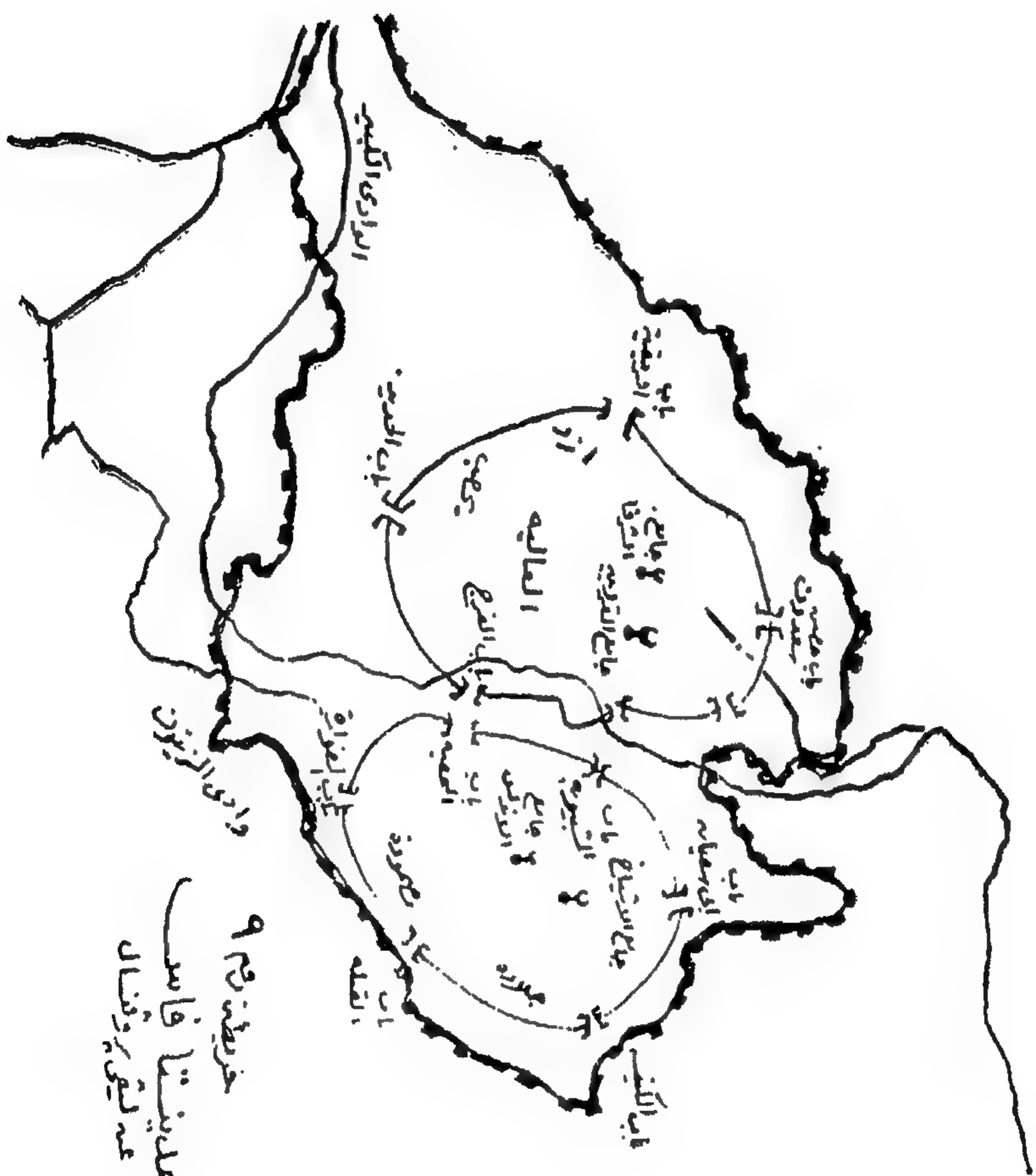




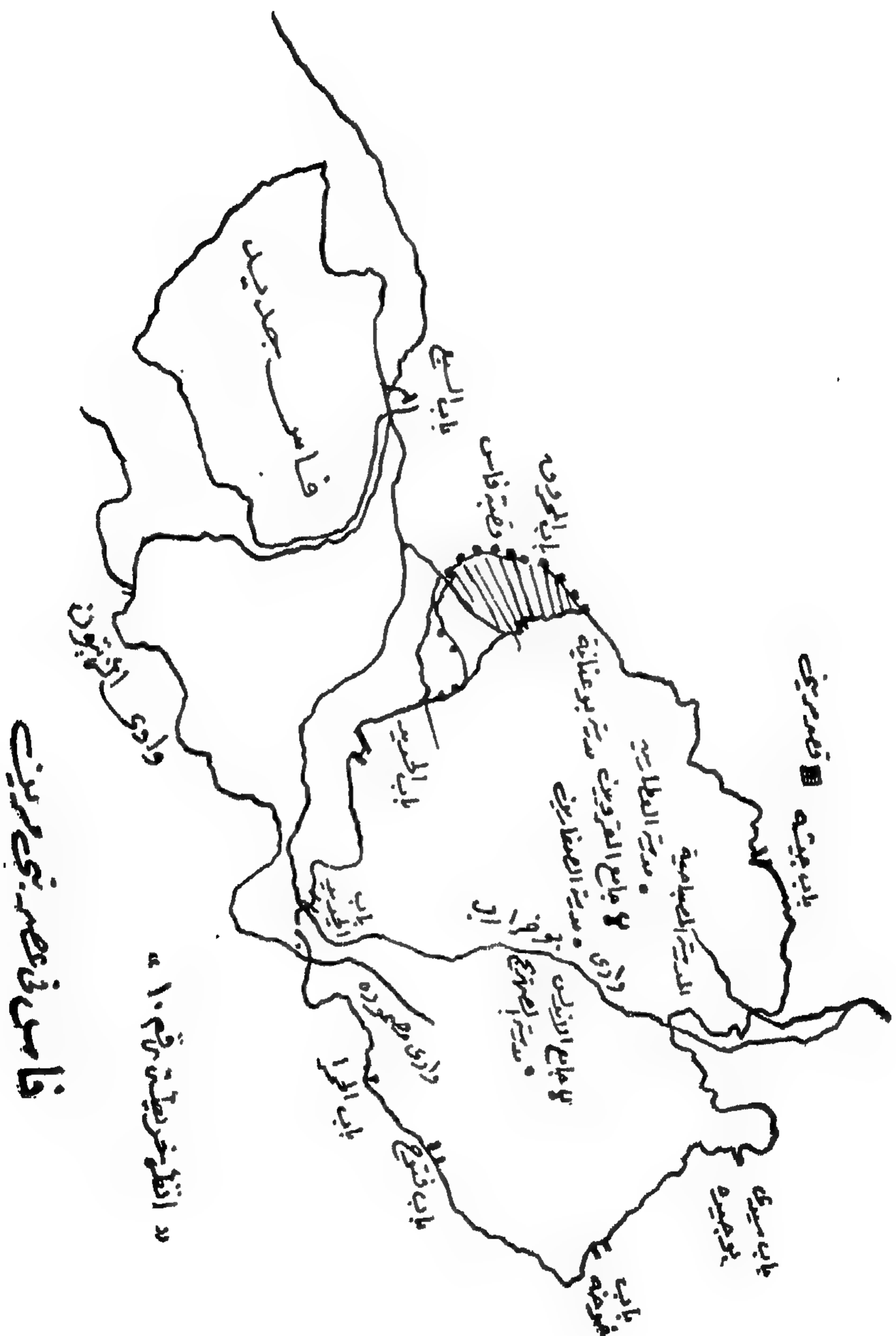
خريطة رقم ٦
محافظة تدمر في المغرب الأقصى





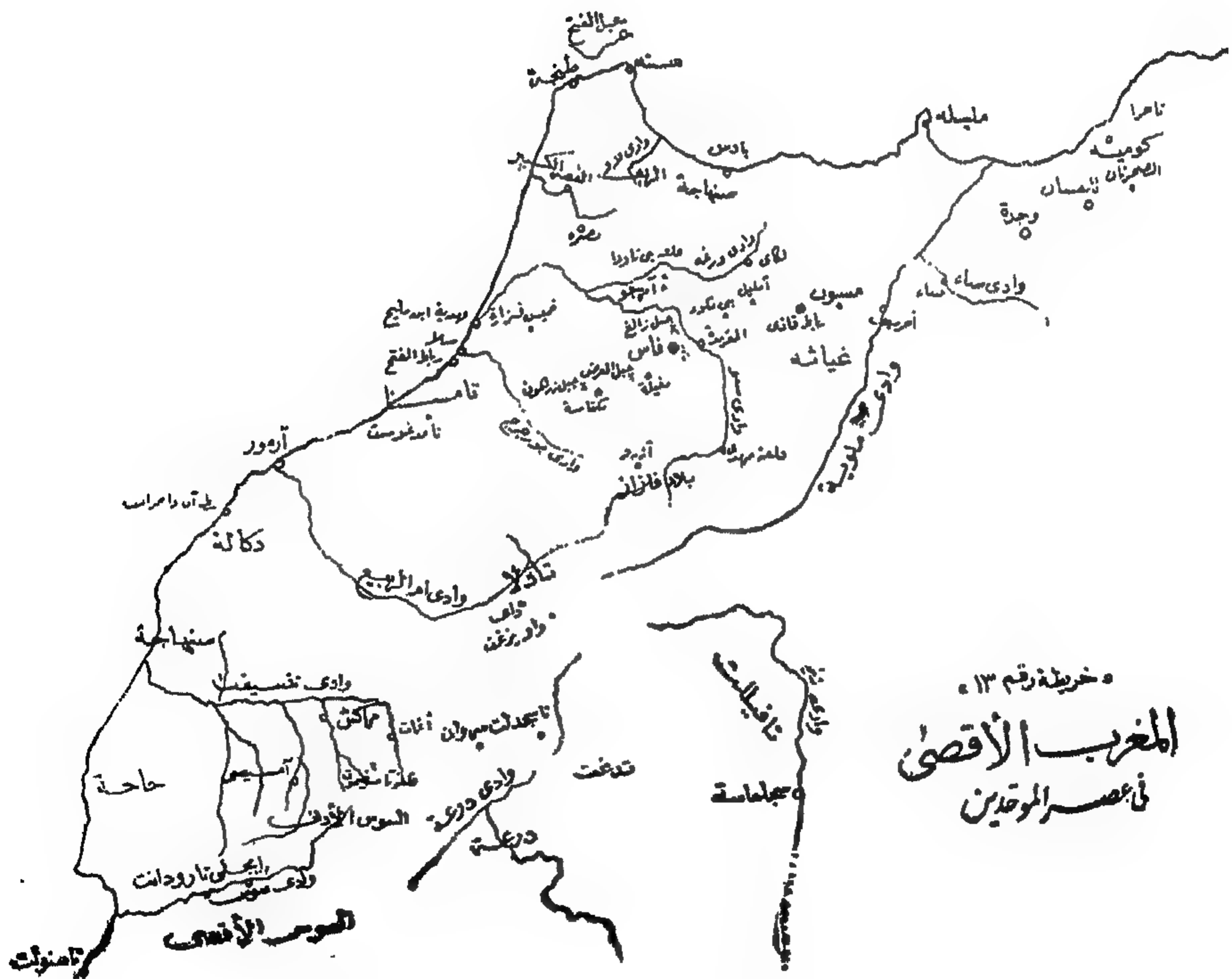


خزینۂ رحیم
ملکینشا فاضل
عہد یقی پر وفاسان



فاس فی عصر بنی مرین

د انظر خريطة رقم ۱۰



فهرس موضوعات الكتاب

فهرس

صنة

مقدمة ١- ز

القسم الأول

المغرب في العصرين الوندالي والبيزنطي

الفصل الأول

المغرب في ظل الوندال

- (١) جنسريك مؤسس دولة الوندال في المغرب (٤٢٨ - ٤٧٧) ١
- ١ - غزو الوندال للاندلس وتطاعمهم لغزو المغرب ... ١
- ب- عبور الوندال الزقاق إلى المغرب ... ٦
- ح- غزو الوندال لنوميديا وإفريقية ... ١٠
- د- التفوق الحربي للوندال على الرومان ... ١٤
- (٢) خلفاء جنسريك ٢١
- ١ - هونيريك خليفة جنسريك (٤٧٧ - ٤٨٤) ... ٢١
- ب- عصر جنتاموندو (٤٨٤ - ٤٩٦) وتراساموندو (٤٩٦ - ٥٢٣) ٢٣
- ج- نهاية عصر الوندال في المغرب ... ٢٧
- (٣) نظم الوندال في الحكم ببلاد المغرب ... ٣١
- ١ - النظام الإداري ... ٣١
- ب- النظام الحربي ... ٣٣
- ج - النظام القضائي ... ٣٤

صفحة

- د - النظام الإقطاعي ٣٤
- هـ - سياسة الوندال نحو الكاثوليك وأهل البلاد ... ٣٥

الفصل الثاني

بلاد المغرب في العصر البيزنطي

- (١) استرجاع جستنيان لبلاد المغرب ٣٨
- أ - موقف جستنيان أمام تحدى جليار ٣٨
- ب - تحرك القوات البيزنطية نحو المغرب ٤٢
- ج - استرجاع البيزنطيين للمغرب ٤٤
- (٢) المشاكل التي واجهها البيزنطيون في المغرب ٥١
- أ - ثورات البربر ٥١
- ب - النزاع الديني ٥٣
- (٣) ولاية بزنطة في المغرب في عصر جستنيان ٥٧
- أ - صولومون (٥٣٤ - ٥٣٦) ٥٧
- ب - ولاية جرمانوس (٥٣٦ - ٥٣٩) ٦٠
- ج - ولاية صولومون الثانية (٥٣٩ - ٥٤٤) ٦١
- د - ولاية سرجيوس وأريو بندوس واستحكام الفوضى في البلاد ٦٣
- هـ - جان تروجليطة وإخماد الثورة (٥٤٧ - ٥٦٣) ... ٦٥
- (٤) اضمحلال النفوذ البيزنطي في المغرب بعد جستنيان ... ٧٠
- أ - في عصر الامبراطور جستين الثاني (٥٦٥ - ٥٨٧)
- وطيبريوس (٥٧٨ - ٥٨٢) ٧٠

صفحة	
٧١	ب - في عصر الامبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢) ...
٧٣	ج - المغرب قبيل الفتح العربي (فيما بين ٦٠٢ - ٦٤٧) ...
٧٩	(٥) نظام البيزنطيين الإداري والدفاعي في المغرب ...
٧٩	١ - النظام الإداري ...
٨٠	ب - النظام الدفاعي ...
٨٤	مراجع العصرين الوندالي والبيزنطي ...

القسم الثاني

المغرب في العصر الاسلامي

تمهيد

دراسة لأهم مصادر تاريخ المغرب في العصر الاسلامي

٨٩	أولا : الآثار الاسلامية في المغرب ...
٩٢	ثانيا : أهم المصادر العربية ...
٩٢	١ - مصادر تاريخ الفتح العربي للمغرب ...
١٠٠	ب - أهم المصادر العربية في تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ...
١١١	ج - بعض المصادر العربية في وصف مدن المغرب ...

الباب الاول

فتح العرب لبلاد المغرب

الفصل الأول

المرحلة الاولى من فتح المغرب

١٢١	(١) صعوبة البحث في تاريخ الفتح العربي للمغرب ...
-----	--

صفحة

(٢) جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية	١٢٥
أ - حدود إفريقية والمغرب	١٢٥
ب - جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية	١٢٧
(٣) مرحلة الفارات (٢١ - ٤٩ هـ)	١٤١
أ - المحاولات الأولى في زمن عمرو بن العاص : غزو برقة	١٤١
ب - حملة عبد الله بن سعد : غزوة سببلة	١٥٢
ج - حملة معاوية بن حديج على إفريقية سنة ٤٥ هـ	١٧٤

الفصل الثاني

مرحلة الفتح المنظم

(١) الفترة الأولى (٥٠ - ٦٤ هـ)	١٩١
أ - عقبة بن نافع قبل توليته إمارة إفريقية	١٩١
ب - تأسيس القيروان وأثره في تثبيت قواعد الفتح	١٩٧
ج - عزل عقبة بن نافع وتولية أبو المهاجر دينار (٥٥ - ٦٢ هـ)	٢٠٨
د - ولاية عقبة الثانية (٦٢ - ٦٤ هـ)	٢١٧
(٢) الفترة الثانية (٦٩ - ٩٠ هـ)	٢٣٠
أ - انسحاب العرب من القيروان في سنة ٦٤ هـ	٢٣٠
ب - حملة زهير بن قيس واسترجاع العرب للقيروان	٢٣٣
د - حملة حسان بن النعمان الأولى ، وتغريب قرطاجنة	٢٤٠
هـ - موسى بن نصير واستكمال فتح المغرب	٢٥١

صفحة

الباب الثاني

المغرب الاسلامى فى عصر الدولتين الأموية والعباسية

الفصل الثالث

المغرب فى ظل الدولة الأموية

٢٦٣	(١) فتح المسلمين للاندلس
٢٦٣	أ - مقدمات الفتح
٢٧٠	ب - الدور الذى قام به بربر المغرب فى فتح الاندلس
٢٨١	ج - عودة موسى بن نصير إلى المشرق
٢٨٨	(٢) ولاية المغرب بعد موسى بن نصير
					أ - جهود محمد بن يزيد (٩٧-١٠٠ هـ) واسماعيل بن عبيد الله
٢٨٨	(١٠٠-١٠١ هـ) فى نشر الإسلام
٢٩٣	ب - سياسة الاستبداد مع البربر ونتائجها
					ج - مقدمات ثورة البربر على العرب فى المغرب (موقعة
٣٠١	الاشراف سنة ١٢٢ هـ)
					د - ثورة البربر فى المغرب (موقعة بقدورة على وادى سبو
٣٠٦	سنة ١٢٤ هـ)
					هـ - ثورة البربر فى الاندلس وقيام الصراع بين البلديين
٣١٥	والشاميين
					(٣) المغرب فى السنوات الخمس الاخيرة من عصر الدولة
٣٢٠	الأموية

صفحة

- ١ - فشل حنظلة بن صفوان في مواجهة الفتن في المغرب
 وخروجه إلى المشرق ٣٢٠
 ب- ثورات البربر في المغرب في ولاية عبدالرحمن بن حبيب
 الفهري ٣٢٣

الفصل الرابع

المغرب في فترة الانتقال بين سقوط الدولة الأموية
 وقيام الدولة العباسية

- (١) النزاع بين بني عبد الرحمن بن حبيب ٣٣١
 أ - مقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية إلياس ٣٣١
 ب- انقراض بني حبيب الفهري في المغرب ٣٣٤
 (٢) الصراع بين الخوارج الإباضية في تونس والصفرية في إفريقية
 أ - غلبة الخارجية على المغرب ٣٣٩
 ب- موقف الخلافة العباسية من الخوارج في المغرب ٣٤١
 ج - ولاية إفريقية في العصر العباسي حتى قيام دولة بني الأغلب
 ٣٤٦

١ - الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي

(١٤٨ - ١٥٠ هـ) ٣٤٦

٢ - أبو جعفر عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة

المعروف بهزارمرد ٣٥٠

٣ - يزيد بن حاتم وقضاؤه على ثورة البربر الإباضية

٤ - روح بن حاتم بن قبيصة ٣٥٩

صفحة

- ٣٩٨ ٥ - أبو الفرائق محمد بن أحمد (٢٥٠ - ٢٦١ هـ)
- ٣٩٩ ٦ - إبراهيم بن أحمد (٢٦١ - ٢٨٩ هـ)
- ٤٠٢ ٧ - أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (٢٨٩ - ٢٩٠ هـ)
- ٨ - زيادة الله بن عبد الله آخر أمراء بني الأغلب
- ٤٠٣ (٢٩٠ - ٢٩٦ هـ)
- ٤٠٧ (٣) ازدهار الحياة الاقتصادية في المغرب الأدنى في عصر الأغلبة
- ٤١٥ (٤) سكان إفريقية في عصر الأغلبة
- ٤١٥ ١ - العرب
- ٤١٧ ٢ - العجم الفرس
- ٤١٨ ٣ - البربر
- ٤١٨ ٤ - الروم والأفارقة
- ٤٢٠ ٥ - الفتيان والعبيد
- ٤٢٢ (٥) منشآت الأغلبة في إفريقية
- ٤٧٢ ١ - العمارة الدينية
- ٤٢٢ ١ - المسجد الجامع بالقيروان
- ٤٢٢ تاريخ المسجد
- ٤٢٦ تخطيط الجامع
- ٤٣٠ قباب الجامع
- ٤٣٤ زخارف الجامع
- ٤٣٥ ٢ - جامع الزيتونة بتونس

منحة

- ٤٤٣ ٣ - المسجد الجامع بسوسة...
- ٤٤٥ ٤ - مسجد أبي فتاته بسوسة
- ٤٤٧ ٥ - مساجد أخرى خاصة
- ٤٤٧ ب - العماره الحربية
- ٤٤٩ ١ - رباط سوسة
- ٤٥٢ ٢ - رباط المنستير
- ٤٥٣ ٣ - سور سوسة
- ٤٥٤ ٤ - سور سفاقس
- ٤٥٤ ج - العماره المدنية
- ٤٥٤ ١ - مدينة العباسية (القصر القديم)
- ٤٥٧ ٢ - رقادة
- ٤٥٨ ٣ - المواجل والخزانات والقناطر

الفصل السادس

دولة الادارسة في فاس

- ٤٦٥ (١) قيام دولة الادارسة
- ٤٦٥ ١ - إدريس بن عبد الله بن الحسن مؤسس دولة الادارسة
- ٤٧٤ ب - إمامة إدريس الثاني
- ٤٨٠ (٢) خلفاء إدريس الثاني حتى سقوط فاس في أيدي الفاطميين
- ٤٨٠ ١ - تقسيم دولة الادارسة في إمامة محمد بن إدريس
- ٤٨٢ ب - خلفاء محمد بن إدريس

صفحة	
٤٨٧	(٣) مدينة فاس حاضرة الأدارسة
٤٨٧	١ - مشكلة تاريخ تأسيس مدينة فاس
٤٩٣	الأدلة المادية
٤٩٤	الأدلة التاريخية
٥٠١	ب- تاريخ مدينة فاس منذ تأسيسها حتى نهاية عصر بني مرين
٥٠١	١- فاس في عصر الأدارسة
٥٠٤	٢ - فاس في عصر موسى بن أبي العافية
	٣ - سيطرة زناتة على فاس وموالاتها لخلفاء بني أمية
٥٠٦	بقرطبة
٥١٧	٤ - فاس في ظل دولتي المرابطين والموحدين
٥٢٤	٥ - فاس عاصمة بني مرين

الفصل السابع

دولتا الرستميين بتاهرت والمدرايين بسجلماسة

٥٣٣	(١) أولية الرستميين
٥٣٣	١ - انتشار دعوة الإباضية في المغربين الأدنى والأوسط
٥٣٨	ب- عبد الرحمن بن رستم وتأسيس تاهرت
٥٤٥	ج - عبد الرحمن بن رستم إمام الرستميين
	د - إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبداية
٥٥١	ظهور الانقسامات المذهبية عند الإباضية
٥٥٨	(٢) خلفاء عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم

صفحة	
٥٥٨	١ - خلافة الامام أفلح
٥٥٩	ب - خلافة الامام أبي بكر بن أفلح
٥٦١	ج - إمامة أبي اليقظان محمد
٥٦٣	د - إمامة أبي حاتم يوسف بن محمد
٥٦٥	هـ - إمامة اليقظان بن أبي اليقظان ونهاية دولة الرستميين
٥٦٧	(٣) علاقة الدولة الرستمية بجيرانها
٥٦٧	١ - علاقة الدولة الرستمية بولاية إفريقية
٥٦٩	ب - علاقة الرستميين بالأمويين في الأندلس
٥٧١	ج - علاقة الرستميين بمصر
	د - علاقة الدولة الرستمية بدولة بني واسول والمدرارين
٥٧٢	بسجلماسة
٥٧٣	هـ - علاقة الدولة الرستمية بالسودان
٥٧٤	(٤) حضارة الرستميين في تاهرت
٥٧٤	١ - الحياة العلمية
٥٧٦	ب - الحياة الاقتصادية
٥٧٩	ج - الحياة الفنية
٥٨٣	(٥) دولة بني المدرار بسجلماسة
٥٨٣	١ - نشأة سجلماسة وقيام دولة بني واسول المدرارين
٥٨٧	ب - خلفاء اليسع بن أبي القاسم سمغون الملقب بالمدرار

سنة

الفصل الثامن

المغرب في ظل الفاطميين

- (١) قيام الدولة الفاطمية في المغرب ٥٩٣
- ١ - دور أبي عبد الله الشيعي في تأسيس الدولة الفاطمية ٥٩٣
- ١ - مرحلة الاعداد ٥٩٤
- ٢ - مرحلة الصدام المسلح ٥٩٨
- ب - خلافة عبيد الله المهدي ٦٠١
- ١ - التخلص من الشيعي وأصحابه ٦٠١
- ٢ - القضاء على ثورة الإباضية بطرابلس سنة ٣٠٠ هـ ٦٠٣
- ٤ - رد الفعل الأندلسي ضد مطامع الفاطميين في الأندلس وأثر ذلك في تحولهم نحو مصر ٦٠٩
- ٥ - فتح برقة ومحاولة فتح مصر ٦١٨
- (٢) ثورة أبي يزيد محمد بن كيداد اليفرنى الخارجى ٦٢١
- ١ - قيام الثورات في بدايه عهد القائم ٦٢١
- ب - ثورة أبي يزيد محمد ٦٢٢
- ١ - المرحلة الأولى (٣٢٢ - ٣٣٢ هـ) ٦٢٢
- ٢ - المرحلة الثانية (٣٣٢ - ٣٣٣ هـ) ٦٢٣
- ٣ - المرحلة الثالثة (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ) ٦٢٢
- ٤ - المرحلة الرابعة (٣٣٤ - ٣٣٦ هـ) ٦٢٩
- (٣) خلافة المعز لدين الله الفاطمي ٦٣٢

صفحة

- ٦٣٢ ١ - بسط نفوذ الفاطميين على المغرب الأقصى ...
٦٣٤ ب- استيلاء المعز على مصر ، وانتقاله إليها ...

الفصل التاسع

المغرب الأدنى والوسط في ظل بني زيري

وبني حماد الصنهاجيين

(١) أمراء بني زيري منذ قيامهم بأمر المغرب حتى استقلال

الحماديين بالمغرب الأوسط ٦٤١

٦٤١ ١ - دولة أبي الفتوح يوسف بن زيري ...

٦٤٤ ب- دولة أبي الفتح المنصور بن بلكين ...

٦٤٦ ج- دولة نصير الدولة باديس بن أبي الفتح المنصور ...

٦٤٩ د- انقسام دولة الصنهاجيين ...

٦٥٣ (٢) علاقة الصنهاجيين بالخلافة الفاطمية ...

١ - الدور الأول من انفصال بني زيري عن الخلافة الفاطمية

٦٥٣ بمصر

ب - الدور الثاني من انفصال بني زيري عن الخلافة الفاطمية

٦٥٤ بمصر

ج - الدور الثالث من انفصال بني زيري عن الخلافة الفاطمية

٦٥٧ بمصر

صفحة

د - الدور الأخير من انفصال بنى زيرى عن الخلافة الفاطمية	
بمصر	٦٥٩
(٣) انتقام المستنصر بالله الفاطمى : غزو عرب الهلالية وبنى سليم	
لبلاذ المغرب	٦٦٦
أ - دخول قبائل بنى هلال وبنى سليم فى أرض المغرب	٦٦٦
ب - هزيمة جيوش المعز على أيدي العرب	٦٦٨
ج - نتائج غزو الهلالية للمغرب	٦٧١
(٤) استيلاء النورماندين على المهديّة	٦٧٤
أ - غارات الزيريين على سواحل إيطاليا وصقلية وآثارها	٦٧٤
ب - سقوط المهديّة فى أيدي النورماندين	٦٧٧
(٥) انقراض دولة بنى حماد	٦٨٣

الباب الرابع

المغرب الاسلامى فى ظل دولتي المرابطين والموحدين

الفصل العاشر

قيام دولة المرابطين فى المغرب

(١) تأسيس دولة المرابطين	٦٩٠
أ - أصل المرابطين	٦٩٠
ب - رباط عبد الله بن ياسين	٦٩٣

صفحة

٦٩٦	ج - ق الرابطين إلى المغرب الأقصى
٦٩٩	د - ظهور يوسف بن تاشفين
٧٠٢	(٢) تأسيس مراکش وقيام دولة المرابطين
٧١٧	(٣) المرابطون في الأندلس
٧١٧	أ - أحوال الأندلس عند قيام دولة المرابطين
٧٢٣	ب - موقعة الزلاقة
			د - جهاد المرابطين في الأندلس منذ دخولها في فلك
٧٣٤	دولتهم في المغرب
٧٣٨	(٤) أسباب ضعف دولة المرابطين وانهارها
٧٤٦	(٥) منشآت المرابطين في المغرب
٧٤٦	أ - دور المرابطين السياسي والحضاري في المغرب
٧٤٩	ب - دراسة لأهم مساجد المرابطين في المغرب
٧٥٢	ج - جامع القرويين بفاس
٧٦٢	د - آثار القلاع والأسوار

الفصل الحادى عشر

المغرب في عصر الموحدين

٧٦٩	(١) ظهور الموحدين
				أ - المهدي بن تومرت فقيه السوس وعبد المؤمن بن علي
٧٦٩	سراج الموحدين

صفحة

٧٧٨	ب- الاشتباكات الأولى مع المرابطين
٧٨٢	(٢) فتوحات عبد المؤمن بن علي
٧٨٢	١- المرحلة الأولى : إسقاط دولة المرابطين
٧٨٢	١- فتح تلمسان ووهران
٧٨٣	٢- فتح فاس
٧٨٥	٣- فتح مراکش
٧٨٧	ب- المرحلة الثانية : فتح الأندلس
٧٩٢	ج- المرحلة الثالثة : فتح المغربين الأدنى والأوسط
٧٩٣	(٣) عصر أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
٧٩٧	١- الصعاب التي واجهته في المغرب والأندلس
٧٩٨	ب- جهاده في الأندلس واستشهاده في شنترين
٨٠٢	(٤) المنصور بطل الأرك
٨٠٢	١- حروبه مع بني غانية
٨٠٥	ب- جوازه الأول إلى الأندلس واسترجاع المسلمين لشاب
٨٠٦	ج- انتصار أبي يوسف المنصور في موقعة الأرك
٨١٢	د- غزوة طليطلة (سنة ٥٩٢ هـ)
٨١٤	هـ- الغزوة الثالثة
٨١٦	(٥) محمد الناصر وهزيمة الموحدين في العقاب
٨١٦	١- ثورات المغرب في عصر محمد الناصر

صفحة

٨١٩	ب- هزيمة المسلمين في العقاب
٨٢٨	ج- انهيار دولة الموحدين بعد هزيمتهم في الأرك
٨٣٢	(٦) مساجد الموحدين وتحصيناتهم في المغرب
٨٣٢	١- الأثر الأندلسي في الفن الموحدى
٨٣٥	ب- اهتمام الموحدين بالبناء
٨٣٨	ج- أم مساجد الموحدين وتحصيناتهم في المغرب والأندلس
٨٣٨	١- جامع الموحدين برباط تازى
٨٣٩	٢- جامع تينملل
٨٤٣	٣- جامع الكتبية بمراكش
٨٤٨	٤- جامع القصبة بمراكش
٥٤٩	٥- جامع حسان بالرباط
٨٥٠	٦- جامع الأندلس بفاس
٨٥٤	٧- جامع القصبة الكبير بأشيلية
٨٥٨	المنشآت الحربية
٨٥٨	١- أسوار المدن
٨٦١	٢- الأبواب ذات المرافق

خاتمة

ورثة الموحدين في المغرب

٨٦٧	١- بنو مرين في المغرب الأقصى
-----	-----	-----	-----	-----	------------------------------

صفحة

ب- بنو عبد الواد في المغرب الأوسط ... ٨٧٢

ج- بنو حفص في المغرب الأدنى ... ٨٧٥

مراجع الكتاب

أولا - المصادر العربية ... ٨٨٣

ثانيا - المراجع العربية الحديثة والأوربية المعربة ... ٨٩٠

ثالثا - المراجع الأوربية الحديثة ... ٨٩٧

فهرس الصور

(١) المسجد الجامع بالقيروان : منظر عام من أعلى المئذنة ... ٩٠٥

(٢) المسجد الجامع بالقيروان : جوفه المحراب ... ٩٠٦

(٣) المسجد الجامع بسوسة : منظر عام ... ٩٠٧

(٤) » » » : منظر لعقود بيت الصلاة أدنى القبة ... ٩٠٧

(٥) » » » : أحد العقود التي تقوم عليها القبة ... ٩٠٨

(٦) مسجد الأوباب الثلاثة بالقيروان : تفصيل لزخارف واجهة

المدخل ... ٩٠٨

(٧) » » » » : منظر عام للواجهة ... ٩٠٩

(٨) جامع الزيتونة بتونس : عقود بيت الصلاة ... ٩١٠

(٩) » » » : قبة المحراب من الداخل ... ٩١١

(١٠) المسجد الجامع بسفاقس : رسم للمئذنة ... ٩١٢

(١١) قبة البرودين بمراكش : ... ٩١٣

(١٢) » » » : ... ٩١٣

- (١٣) جامع القرويين بفاس : قبة المحراب ٩١٤
- (١٤) » » » : البلاطة الوسطى ٩١٥
- (١٥) المسجد الجامع بتمسان : البلاطة الوسطى ٩١٦
- (١٦) المسجد الجامع بالجزائر : عقود بيت الصلاة ٩١٨
- (١٧) المسجد الجامع بتمسان : واجهة المحراب وجانب من القبة ٩١٨
- (١٨) جامع الأندلسيين بفاس : محببة الصحن والصومعة ... ٩١٩
- (١٩) باب الرواح بمراكش ٩٢٠
- (٢٠) المسجد الجامع برباط الفتح والصومعة ٩٢١
- (٢١) المسجد الجامع برباط الفتح : أعمدة بيت الصلاة ... ٩٢٢
- (٢٢) جامع الكتبية بمراكش : الأسقف والصحن ... ٩٢٣
- (٢٣) » » » : الصومعة ٩٢٤
- (٢٤) جامع القرويين بفاس : الصحن ٩٢٥
- (٢٥) تخطيط جامع القرويين بفاس ٩٢٦
- (٢٦) جامع رباط تازي : قبة المحراب ٩٢٧
- (٢٧) المسجد الجامع باشبيلية : الصومعة ٩٢٨
- (٢٨) » » » : قبوة بأعلى أسطوان المدخل الشرقي ٩٢٩
- (٢٩) » » » : جانب من الزخارف التي تحف بعقد ... ٩٢٩
- المدخل إلى الصحن ٩٣٠
- (٣٠) برج الذهب باشبيلية ٩٣٢
- (٣١) المسجد الجامع باشبيلية : زخارف تملأ بوابن عقد المدخل ٩٣٣
- (٣٢) سور مقارنة باشبيلية ٩٣٣
- (٣٣) صحن المدرسة بوغناية بفاس ٩٣٤

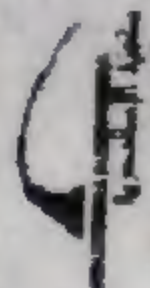
فهرس الخرائط

صفحة							
٩٣٧	(١) دولة الوندال في المغرب	
٩٣٧	(٢) حملة بلزار يوس على المغرب سنة ٥٣٣ هـ	
٩٣٨	(٣) بلاد المغرب	
٩٣٩	(٤) حملة عبد الله بن سعد	
٩٤٠	(٥) حمل عقبة بن نافع على إفريقيا في سنة ٤٩ ، ٥٠ هـ	
٩٤١	(٦) حملة عقبة بن نافع على المغرب الأقصى	
٩٤٢	(٧) مواضع قبائل البربر في المغرب الأقصى	
٩٤٣	(٨) مدينتا فاس عن جايارد	
٩٤٤	(٩) مدينتا فاس عن ليفي بروفنسال	
٩٤٥	(١٠) فاس في عصر بني مرين	
٩٤٦	(١١) المغرب في القرن الرابع الهجري	
٩٤٧	(١٢) المغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري	
٩٤٨	(١٣) المغرب الأقصى في عصر الموحدين	

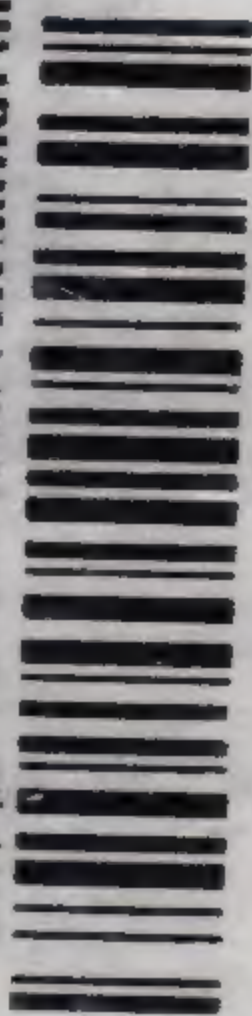
(تم بعون الله)







Bibliotheca Alexandrina



0939730